

التاريخ الأندلسي

من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة

٩٢ - ٨٩٧ هـ (٧١١ - ١٤٩٢ م)

تأليف

الدكتور

عبد الرحمن علي الحجي

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب

في جامعة بغداد

دار القلم

دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية

١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م

دار القلم
دمشق - بيروت

الإدارة : دمشق - حلبوني - ص.ب ٤٥٢٣ - هاتف ٢٢٩١٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً على وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً على صِراطٍ مُستقيم ﴾

سورة الملك ، الآية ٢٢

﴿ فاستمسِك بالذي أُوحيَ إليكَ إنك على صِراطٍ مُستقيم ﴾

سورة الزخرف ، الآية ٤٣

﴿ وأَنَّ هذا صِراطي مُستقيماً فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فتَفَرَّقَ بِكُمْ عن سبيله ذلِكُم وَصّاكم به لعلَّكم تَتَّقُونَ ﴾

سورة الأنعام ، الآية ٥٣

الإهداء

* إلى كل عالم مَكِيثٍ صبور وعلى الحقيقة غيور ، يحفظها كاملةً فلا يُنْقِصُها ، ويقولها مشرقةً فلا يُطْفِؤُها ، وبغيرها — البتةَ — لايَدِينُ فلا يَبوح ، مهما كانت الظروف ؛ لأن العلم عنده سُلوك التقوى وهو له صفحة مُثلى .

* إلى كل باحث يتابع وَيَتَبَصَّر ، يُنْضِجُه علمه غير مُسَخَّر ؛ مَزَّق أثواب العبودية الفكرية ، واستعلى على التبعية الثقافية ؛ لايَنحرف مع الأهواء ولا يَنجرف لإغراء .

* إلى كل مؤرخ أمينٍ في فَهْمِه ، نزيهٍ في حُكْمِه ، نَظيفٍ في قَلَمِه ، وَرِعٍ في كَلِمِه .

* إلى كل مهتم بدرس هذه الحِقْبَة من التاريخ الإسلامي ، الثَّرّ النفيس ، في تلك البُقْعة من عَالَمِه الواحد الواسع .

* إلى كل الطلبة الذين معهم تَدارسنا — ونَتَدارس — سَوِيَّة ، بتقصي واهتمام .

* إلى كل أهل الأندلس الذين شاركوا مجاهدين وعَمِلوا مُحتسِبين ، في أي مَيدان ، لبناء تاريخه الإسلامي الوضيء ، وإقامة حضارته السَّنِيَّة الطَّهُور ؛ فلعلَّ هذا السِّفْر يوفر له صورة .

* إلى كل مَن بأمْر الله — سُبحانه وتعالى — يأتَمِر ، وبه يَهتدي ويَعْتبر .



المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، حمداً يوافي نعمه ويكافيء مزيده ؛ والصلاة والسلام على خير عباده وأكرم خلقه وخاتم أنبيائه ورسله محمد الأمين ، بعثه بالحق ، إلى أهل الأرض كافة ﴿ بشيراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً * ﴾

كان من توفيق الله القدير وكرمه إنجازُ عدة أعمال علمية . لكن اثنين من بينها استغرقا وقتاً طويلاً وجهداً شاقاً فائقاً .

لايُستغرب ذلك مع الأول ، لكنه منه مؤكد مطول ، ذو ألوان ومن كل جانب ، وهي متعددة . أعني دراسة الدكتوراه ذات السنوات الخمس بتفرغ كامل وانكباب متصل في موضوع شاق عسير ، كانت مَصادره في اثنتي عشرة لغة ؛ وهو «العَلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وأوربا الغربية ، منذ الإمارة حتى نهاية الخلافة (١٥٥ — ٣٦٦ هـ) » . وهي مطبوعة بالانجليزية بعنوان :

ANDALUSIAN DIPLOMATIC RELATIONS WITH WESTERN EUROPE DURING THE UMAYYAD PERIOD, **BEIRUT, A.H. 1390 (A.D. 1970).**

أما الثاني (الحالي) فلا يعهد له بالضرورة ، لكنه كان ، إلى أي حد ومع بعض الفروق . إذا كان الأول أطول وأدق كان الحالي مشاركا في ذلك لحد ، لكن بعد خبرة أكثر وتتبع أطول . وبه وحده يُعتبر هذا إسهاماً أصيلاً صادقاً ، ويُعتبر كذلك لغيره . فهو إسهام لأنه يوفر التاريخ الأندلسي ، من أوله حتى سقوط غرناطة (٩٢— ٨٩٧ هـ) ، في كتاب واحد منفرد ؛ وهو ماليس متوفراً الآن .

هذا – مع غيره – يجعله صالحاً لاعتماده في التدريس الجامعي لمادّة « التاريخ الأندلسي » . بجانب احتوائه على الكثير من مواصفات العمل العلمي الأصيل أو كلها ، إلى أي حد . فهو كتاب علمي جامع صالح – دون تردد – لاقراره في أية جامعة لها بمادة التاريخ الأندلسي عناية ، وأرجو الله جَلّت قدرته أن يوفق له .

نحن نقترب أو نمر الآن سِنِيّاً توازي سنوات فتح الأندلس (٩١–٩٦ هـ) ، بعد مرور ثلاثة عشر قرناً عليه . لعل بإمكان هيئات علمية أو دول في العالم الاسلامي يهمها الاحتفال بهذه المناسبة ، ومايزال هنالك وقت للإعداد له . ولعل في ظهور هذا الكتاب وجه مشاركة وإشارة تحية لهذا الفتح الجليل ولكل مَن شارك فيه ومَن تلاهم مِن الأجيال ، سارت في طريق الله المنير ، موكباً إيمانياً يغمره الخير وتحفه رحمة الله سبحانه وتعالى .

اتُّخِذَت المؤلفات الأندلسية المتوفرة (مخطوطة ومطبوعة) المكان الأول في هذه الدراسة ، اعتباراً واختباراً ؛ بتتبع مستمر ودراسة متطاولة وعناية مثابرة وهمة صابرة ، خلال تدريس هذه المادة منذ خريف ١٩٦٦ ، في جامعتي بغداد والرياض ، قد يقف ذلك قليلاً في أحيان أو يبطؤ . نُقحت كتابته عدة مرات ، كلياً أو جزئياً . مع العناية باعتبار طبيعة هذا التاريخ الإسلامي والانتفاع بها في ذلك ، قياساً واسترشاداً موضحاً ، حين لاتتوفر الكفاية ، واستئناساً وإظهاراً في غيره . فالعالم الإسلامي واحد متوحد ، حتى حين تنقطع أجزاء منه عن باقيه ، سياسياً أو إدارياً ، فليست هذه سبب توحده ، بل الإسلام عقيدةً وعبادة ، تشريعاً ووجهة ، هو الموحد المتفرد دوماً . إنه عالم واحد في كل أحواله وفي بِنْيَة سكانه الإنسانية وأحواله الاجتماعية والعمرانية وغيرها ، من مظاهر الحياة الكثيرة المتجددة ، في عين المضمار والطريق النيِّر والمسلك الخيِّر .

كان الاطلاع على ماتوفر من الدراسات الأندلسية باللغة العربية وغيرها ليس مقطوعاً ، ذلك يظهر جلياً من نظرة في قائمة المصادر أو حواشي هذه الدراسة .

زُودت الدراسة بقوائم النسب الكثيرة والخرائط ، وتوفر بعض الصور التاريخية والوثائق بعون الله تعالى .

أما عن الجهد والمشقة الذي اقتضاه وما حصل عليه فهو من توفيق الله الكريم له ، ويترك للقارىء بيانه والحديث عنه .

الأمل لهذه الدراسة أن تنمو أكثر وتتأصل ،كما تكبر وتتفصل ، إن شاء الله . فالحمد لله على منّه ، أدعوه تعالى من هذا وأمثاله المزيد . وأرجو أن يجعله لوجهه الكريم خالصاً ، ولا يحرمني به من الخير في الدنيا والأجر ﴿ * يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا مَن أتى الله بقلب سليم * ﴾ [القرآن الكريم ، سورة الشعراء ، الآيتان رقم : ٨٨ ــ ٨٩] .

أدعوك اللهم أن تجعلني والمخلصين كذلك ، فمنك وحدك السداد والرشاد، وعليك أنت الاعتماد .

والله أكبر وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



المحتوى



قائمة الخرائط والصور

مدخل عام

أولاً : حالة أوربا قبل الفتح الإسلامي للأندلس وبعده .

ثانياً : حالة إسبانيا قبل الفتح الإسلامي .

ثالثاً : نظرة في جغرافية شبه الجزيرة الإيبيرية .

رابعاً : العهود التي مرّت بها الأندلس .



أولاً : حالة أوربا قبل الفتح الإسلامي للأندلس وبعده

كانت أوربا ــ خلال القسم الأكبر من القرون الوسطى الأوربية ــ تَعيش حياة شاقة وسيئة ، رغم ظهور قُوى سياسية متعددة في بعض بلدانها . وقد طفحت هذه القرون الأوربية بالعيوب والآثام ، وهربت من النظافة والعناية بالإنسان والمكان ، وزخرت بالجهل والفوضى والتأخر وشيوع الظلم والاضطهاد . عاشت أوربا في ظلام وهمجية وقسوة . فشت فيها الأمية ، وقامت فيها الحروب والأعمال الوحشية ، وكانت للحروب مسرحاً وللاضطهاد ميداناً . فقد « افترستها الفوضى وطحنتها المحن » ، فهي « غائصة في فتن كقطع الليل المظلم »[1] .

كانت حياة الناس تعسة وشاقة وكئيبة ، تموج دنياهم بالمناكر والسيئات ، وهم عليها مقيمون وبها يتعاملون ، بل لعلّهم غدوا بذلك يتفاخرون ويتنافسون ، وأضحى هذا الحال عامّاً وعلى كل مستوى وإطار .

بدا هذا الدَّرَك ـ من الهبوط الانساني العام ـ واضحاً في جنبات حياتها ، وملموساً في غارتها على الشرق الإسلامي خلال قرنين من الحروب المعروفة بالصليبية ، أومثيلتها في الغرب الإسلامي . بدت ظواهر هذا الهبوط في الفكر والعلم والثقافة ، والخلق وأسلوب التعامل والتصرف ، والنظرة إلى الآخرين وإلى الإنسان والإلتزام بالقيم والعهود . كانوا عراة في الفكر والنفس والخلق ، فضلاً عن عُري بعضهم الجسدي ، وهو غير ذي بال .

كان ذلك عامّاً ، حتى في الطبقات العليا عندهم من الزعماء والحكام والسادة

---

(١) انظر : *Muslim colonies in France, Northern Italy and Switzerland,* Reinaud 223. والترجمة العربية : تاريخ غزوات العرب ، رينو ، ٢٩٥ .

النبلاء والاقطاعيين والرهبان « محتكري المعرفة القليلة المحدودة » . دلّ على ذلك المصادر الوفيرة المتضافرة .

« إذا رجعنا إلى القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد ، حين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جداً ، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجاً يسكنها سنيورات متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون ، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين ، الذين يقضون أوقاتهم في أديارهم ليكشطوا كتب الأقدمين النفيسة بخشوع ، وذلك كيما يكون عندهم من الرقوق ماهو ضروري لنسخ كتب العبادة .

« ودامت همجية أوربا البالغة زمناً طويلاً من غير أن تشعر بها ، ولم يبدُ في أوربا بعض الميل إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر وفي القرن الثاني عشر من الميلاد، وذلك حين ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم ، فولّوا وجوههم شطر العرب [المسلمون] الذين كانوا أئمة وحدهم . »[1]

ويعبّر آخر : « من الثابت أنه بينما كانت أغلب أوربا ترزح تحت نير الشقاء والفساد ، مادياً وروحياً ، أقام المسلمون في الأندلس حضارة زاهرة وحياة اقتصادية منظمة . لعب الأندلسيون دوراً حاسماً في تطور الفن والعلم والفلسفة والشعر، وأثّرت حتى في أرفع أعلام الفكر النصراني للقرن الثالث عشر ، كما عند توما الاكويني ودانتي فكانت إسبانيا — مرة — مشعل أوربا »[2] .

الاتفاق على ذلك قائم بين الكثير من المؤرخين الأوربيين ، حتى مع التفاوت في الدرجة . وبقيت هذه الحالة من الجهل الفاضح والأمية المطبقة والهمجية المغرقة مستمرة

---

(١) حضارة العرب ، لوبون ، ٥٦٦ — ٥٦٧ .
انظر كذلك : *The Moors in Spain*, Lane — Poole, 129 — 130,
الترجمة العربية ، العرب في اسبانيا ، ١١٥ .

(٢) *Legacy of Islam* , 5 . الترجمة العربية : تراث الاسلام ، ١٠/٢ ، مقال « اسبانيا والبرتغال » ، ترند .

حتى تيسر الاتصال بالعالم الإسلامي[1] .

كانت تلك حالة عامة في أوربا ــ شرقها وغربها ــ وبقية العالم ، قبل مجيء الإسلام وبعده . وزالت عن بلدان عمّها الإسلام بفيضه الخيّر وأخرجها من الظلمات إلى النور ، حين أشرقت الأرض بنور الله ، وعمّ فضله فيها بلداناً ، وعمّر شرعه منها الأرجاء[2]

بقيت تلك الحالة البائسة في المناطق التي لم يصلها هذا النور : كالبلدان الأوربية . زيادة على تسلط الكنيسة وسطوتها ، وتبنيها الأفكار الجامدة والمواقف الفجة ، وإثارتها التحريب بين الناس ودعوتها إلى الصليبية ، وهو أمر تتبرأ منه النصرانية ، كما أوحى بها الله ، ولم يتنزل به منه سبحانه كتاب .

لدينا وثائق مهمة لشهود عيان زاروا عدداً من المناطق الأوربية وتركوا بعض التقارير . هؤلاء الشهود هم الرحالة المسلمون أو المسافرون لأي شأن آخر ، ومنهم الأندلسيون . زوّدونا بأخبار ذات قيمة تاريخية كبيرة عن تلك الشعوب وأحوالها ، كانت موضع اهتمام الدارسين فيها وعنها .

أورد أبو الخطاب ابن دحية الكلبي الأندلسي (٥٤٧ ــ ٦١٥ هـ) في كتابه **المُطْرِب من أشعار أهْلِ المَغْرِب** وصفاً لحال سكان أحد البلدان الاسكندنافية (الدنمارك) ، التي كان يسكنها النورمان (Vikings) ــ عرف هؤلاء في المصادر الأندلسية « المجوس » أو « المجوس الأُرْدُمانِيّون »[3] ــ هذا الوصف مأخوذ من تقرير كتبه يحيى بن حكم الغَزَال ، بعد عودته من السفارة التي تولى رياستها إلى الدنمارك سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٥ م) . وفيه يذكر أن « فيها من المجوس ما لا يحصى عددهم ، وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة ، منها صغار وكبار ، أهلها كلهم مجوس ، وما يليها من البر أيضاً لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس ، وهم اليوم على دين النصرانية وقد تركوا عبادة النار ، ودينَهم

---

(١) راجع شرحاً لهذا مع منقولات عن عدد من الكتاب الأوربيين في (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) لأبي الحسن الندوي ، ١٧٣ ــ ١٩٧ ؛ و (الإسلام والحضارة العربية) لمحمد كرد علي ، ١/١٩٥ ــ ٢٠٧ .

(٢) قارن : أوربا العصور الوسطى ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، ١/١٥٠ ــ ١٥٢ .

(٣) راجع مفهوم هذا المصطلح في الفصل الثالث من هذا الكتاب .

الذي كانوا عليه ، ورجعوا نصارى إلا أهل جزائر منقطعة لهم في البحر هم على دينهم الأول من عبادة النار ، ونكاح الأم والأخت وغير ذلك من أصناف الشنار . وهؤلاء يقاتلونهم ويَسبونهم . »[1] ووجود مثل هذه العادات الجاهلية وغيرها كانت معهودة هناك ، وذكرها جغرافيون آخرون كما أيدتها بحوث أوربية[2] .

وصف صاعد الأندلسي (المَرِيَّة ، ٤٢٠ — طُلَيطُلة ، ٤٦٢ هـ) في كتابه **طبقات الأمم** بعض سكان البلاد الأوربية : « فهم أشبه بالبهائم منهم بالناس ، لأن من كان منهم موغلاً في بلاد الشمال ما بين آخر الأقاليم السبعة التي هي نهاية المعمورة في الشمال ، فإفراط بُعد الشمس عن مُسامتة رؤوسهم ، برَّد هواءهم ، وكثف جوهم ، فصارت لذلك أمزجتهم باردة ، وأخلاقهم فجّة ، فعظمت أبدانهم ، وابيضت ألوانهم ، وانسدلت شعورهم ، فعُدِموا بهذه دقة الأفهام ، وثقوب الخواطر ، وغلب عليهم الجهل والبلادة ، وفشا فيهم العمى والغباوة ، كالصقالبة ، والبُلْغر ، ومن اتصل بهم . »[3]

ينقل البكري (شَلْطِيش ، حوالي ٤٠٥ — إشْبِيلِيَة ، ٤٨٧ هـ) في كتابه **المسالك والممالك** نصوصاً عن شعوب أوربية من تقرير لرحالة أندلسي من أهل القرن الرابع

---

(١) المطرب من أشعار أهل المغرب ، ابن دحية الكلبي ، ١٤٠ — ١٤١ .

(٢) راجع : *Les premieres incursions des Vikings en Occident d'apres les sources Arabes*, Arne Melvinger, 81. *Altnordisches Leben*, Karlweihold; 244;

انظر كذلك : *Andalusian diplomatic relations with Western Europe during the Umayyad period*, El-Hajji, 202 .

جغرافية الأندلس وأوربا (من كتاب المسالك والممالك) ، أبو عبيد البكري ، ١٨٧ ؛ آثار البلاد وأخبار العباد ، زكريا القزويني ، ٥٠١ — ٥٠٢ .

(٣) طبقات الأمم ، صاعد الأندلسي ، ١١ . عن الصقالبة (السلاف) راجع : جغرافية الأندلس وأوربا ، ١٥٤ — ١٥٥ . *Andalusian diplomatic relations*, 207.

عن البلغار : جغرافية الأندلس ، ١٧٥ ؛ المسالك والممالك ، الاصطخري ، ١٣٢ ؛ رحلة ابن بطوطة ، ٣٣٨ ؛ *Andalusian*, 243 n.3.

الهجري (العاشر الميلادي) هو : إبراهيم بن يعقوب الاسرائيلي الطُرْطُوشي . فيصف أهل بلد جِلِّيقِيَة (شمال إسبانيا) بأنهم « أهل غدر ودناءة أخلاق ، لايتنظفون ولا يغتسلون في العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد . ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تنقطع عليهم ، ويزعمون أن الوسخ الذي يعلوها من عرقهم تَنْعَم به أجسامهم وتصحّ أبدانهم . وثيابهم أضيق الثياب ، وهي مفرّجة يبدو من تفاريجها أكثر أبدانهم . »[1]

يؤكد هذا المعنى المؤرخ الأوربي لين بول ، فيقول : « تظهر المقابلة جلية غريبة بين حاضرة الأندلس وغيرها من المدن ، إذا ذكرنا أن أوربا كلها في هذا العهد كانت غارقة في حمأة من الجهل وخشونة الأخلاق »[2] . ويصرّح كذلك بأن « قرطبة العظيمة ، التي كانت أعجوبة العصور الوسطى ، والتي حملت وحدها في الغرب شعلة الثقافة والمدنية مؤتلقة وهاجة ، وقت أن كانت أوربا غارقة في الجهالة البربرية ، فريسة للشقاق والحروب »[3] .

ثم يحدثنا البكري عن أصناف الروس : « وصنف ثالث يُسمون الأوثانية ، وملكهم مقيم بأوثان ، والتجار إليهم لا يتجاوزون كويانه . فأما أوثان فلم يجد أحداً يخبر أنه دخلها ؛ لأنهم يقتلون كل من وَطِىء أرضهم من الغرباء ، والله أعلم . »[4]

كما يخبر عن أجناس الصقالبة وأن أحدهم الذي « يُدعى سَرنين ، يحرقون أنفسهم بالنار إذا مات رئيسهم ، ويحرقون دوابهم ، ولهم أفعال مثل أفعال الهند . وهم يتصلون بالشرق ويبعدون من الغرب . وهم يطربون ويفرحون عند حرق الميت ، ويزعمون أن سرورهم وإطرابهم لرحمة ربه إياه . ونساء الميت يقطعن أيديهن ووجوهن بالسكاكين . وإذا زعمت واحدة منهن أنها محبة له علقت حبلاً وارتقت إليه على كرسي ، فتشتد به في عنقها ، ثم يجذب الكرسي من تحتها ، فتبقى معلقة

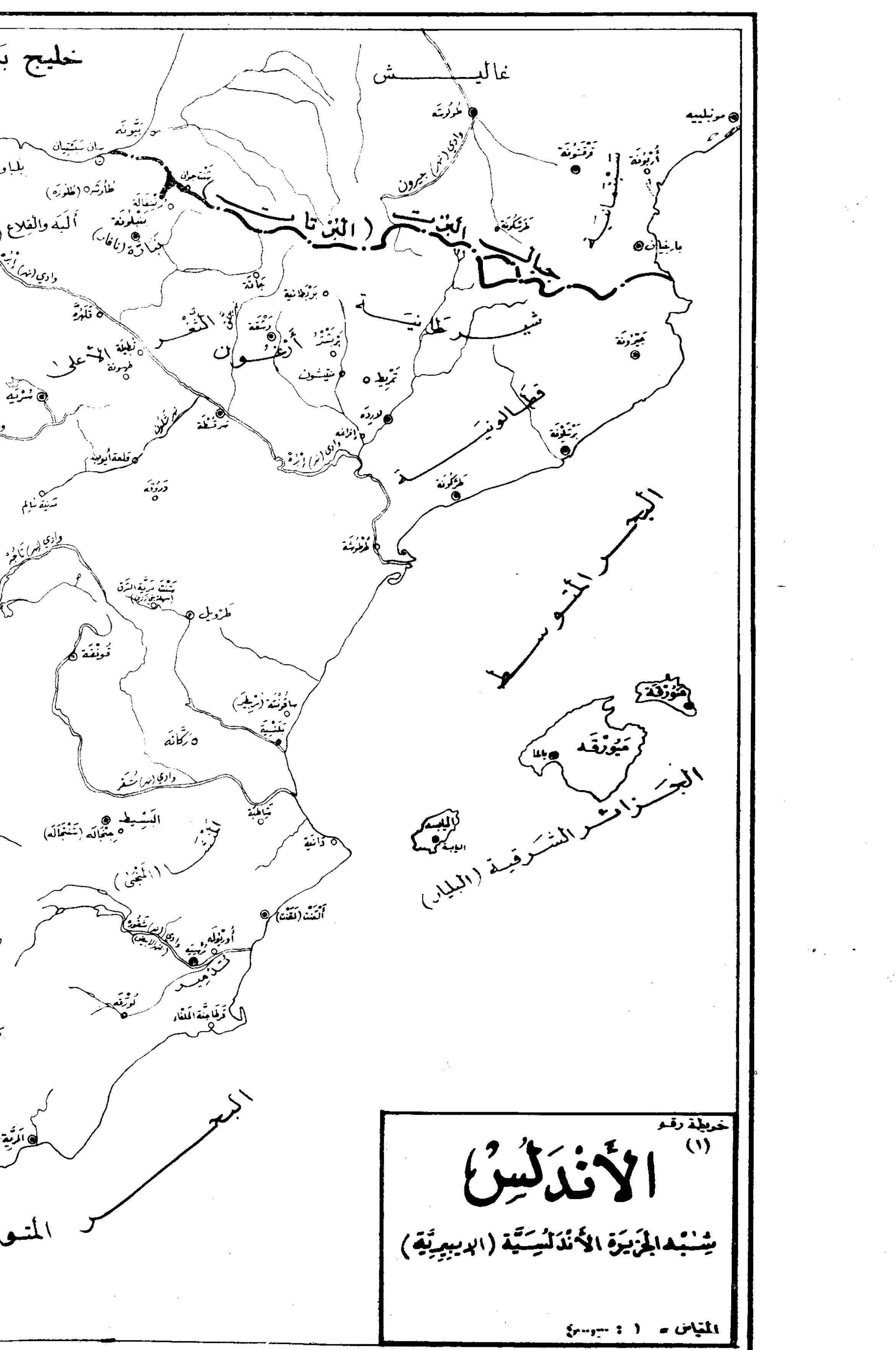
---

(١) جغرافية الأندلس وأوربا (من كتاب المسالك والمهالك) ، أبو عبيد البكري ، ٨١. كذلك : جاء في آثار البلاد (٤٩٨) شبيهاً بهذا الوصف حين الحديث عن إفرنجة .

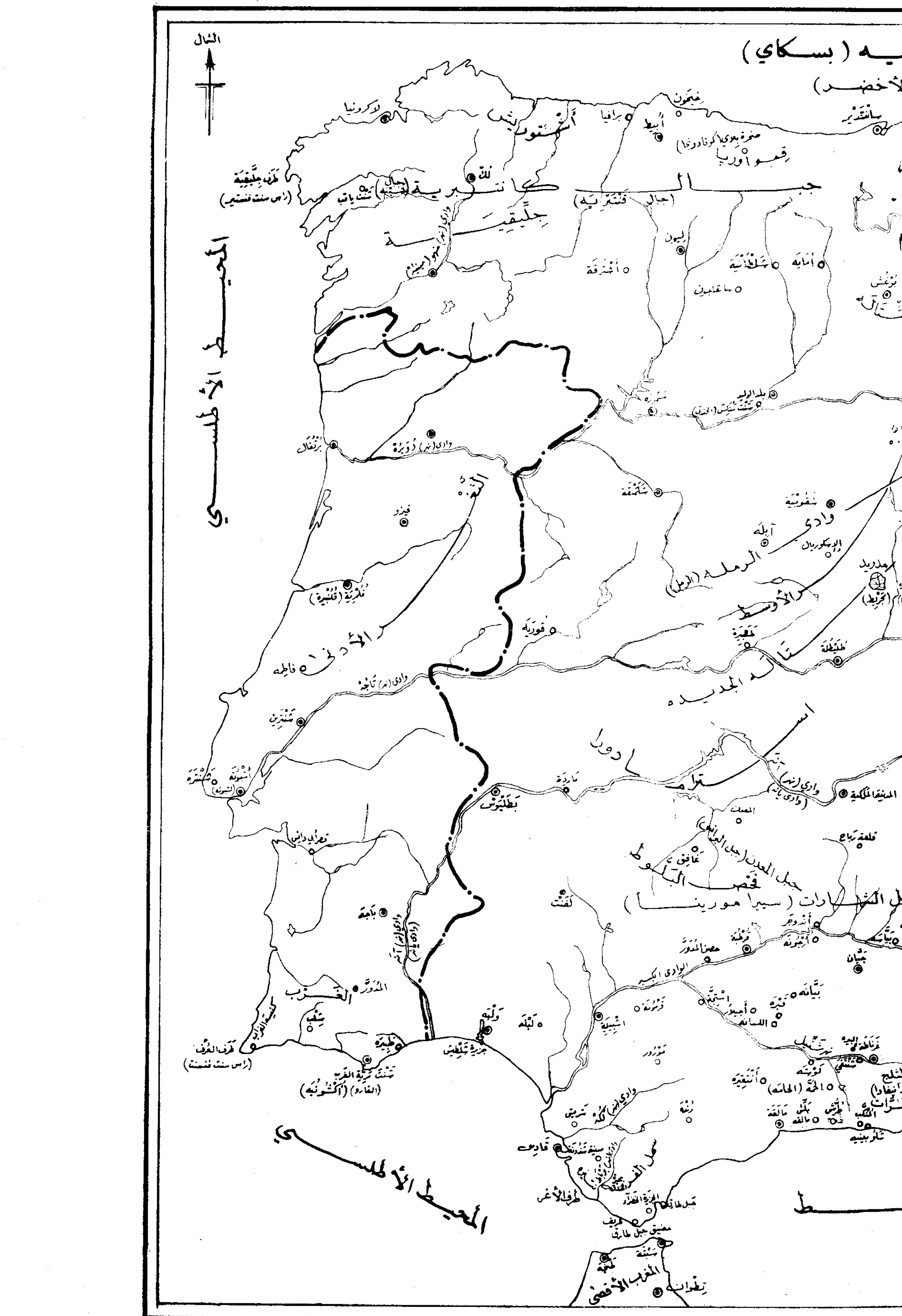
(٢) *The Moors in Spain*, 130. كذلك : العرب في إسبانيا ، ١١٦ .

(٣) Ibid., 43. كذلك : العرب في إسبانيا ، ٣٧ .

(٤) جغرافية الأندلس وأوربا ، ١٥٣ .



غاليش
مونبليه
أربونة
قرقشونة
جبال البرتات
شيرطانية
قطالونية
برشلونة
طركونة
طرطوشة
لاردة
سرقسطة
الثغر الأعلى
أرغون
وادي (نهر) إبرة
وادي (نهر) تاجه
وادي (نهر) شقر
طرويل
قونقة
بلنسية
شاطبة
دانية
لقنت
أوريولة
مرسية
تدمير
لورقة
قرطاجنة الحلفاء
البحر المتوسط
ميورقة
منورقة
يابسة
الجزائر الشرقية (البليار)
خريطة رقم (١)
الأندلس
شبه الجزيرة الأندلسية (الإيبيرية)


الشمال
يه (بسكاي)
لاكورونيا
أشتوريش
برافيا
أبيط
قيجون
سانتندير
صخرة بيوي (كوفادونجا)
قمم أوربا
لك
طرف جليقية
(راس سنت فنستير)
شنت ياقب
جبال كانتبرية
(جبال قنتبريه)
جليقية
أسترقة
ليون
أمايه
برغش
سمورة
بلد الوليد
برتغال
وادي (نهر) دويرة
شلمنقة
شقوبية
آبلة
الإسكوريال
مدريد
(مجريط)
فيزو
قلمرية (قلنبيرة)
فورية
طليطلة
طلبيرة
فاطمة
وادي (نهر) تاجه
شنترين
أشبونة
شنترة
ماردة
بطليوس
المدينة الملكية
قلعة رباح
غافق
فحص البلوط
(سيرا مورينا)
باجة
قرطبة
حصن المدور
أندوجر
أرجونة
جيان
المدور
الغرب
شلب
(راس سنت فنسنت)
شنت مرية الغرب
(الفارو) (أكشونبه)
ولبة
جزيرة شلطيش
لبلة
الوادي الكبير
اشبيلية
قرمونة
استجة
بيانه
قبرة
غرناطة (البيرة)
أنتقيرة
الحمة (الحامه)
لوشه
مالقة
شلوبينية
رندة
قادس
وادي (نهر) لكه
شريش
طرف الأغر
جبل طارق
الجزيرة الخضراء
طريف
مضيق جبل طارق
سبتة
المغرب الأقصى
تطوان
المحيط الأطلسي
المحيط الأطلسي

تضطرب حتى تموت ، ثم تحرق وتلحق بزوجها . »[1] ويستمر البكري في سرد عادات جاهلية أخرى .

ويحدثنا البكري عن أهل رُومة (روما) حيث « يُدبِّر أمرهم برُومة البابه . ويجب على كل ملك من ملوك النصارى إذا اجتمع بالبابه أن ينبطح على الأرض بين يديه ، فلا يزال يقبل رجل البابه ولا يرفع رأسه حتى يأمره البابه بالقيام . »[2]

لم ينفرد البكري في هذا ، بل ذكر رحالة آخرون أموراً مشابهة . يحدثنا أحمد ابن فضلان في رسالته التي كتبها عن وصف المناطق التي زارها خلال رحلته إليها سنة ٣٠٩ هـ . فحين الحديث عن الروسية وصفَ بعض عاداتهم . من ذلك ما يقومون به من أفعال عند موت أحد رؤسائهم ، وأقلها الحرق للميت . وهو أمر يتم بالنسبة للجميع . لكن « إذا مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلمانه : (من منكم يموت معه ؟) فيقول بعضهم : (أنا) ، فإذا قال ذلك ، فقد وجب عليه لا يستوي له أن يتَرجع أبداً ، ولو أراد ذلك ما ترك ، وأكثر من يفعل هذا الجواري . »

ثم يروي ابن فضلان حدثاً في هذا شاهده ، وكيف ارتضت جارية أن تموت مع سيدها . فتمر بترتيبات تشرب خلالها وتغني . ثم تهيأ سفينة توضع فيها الجارية وتقوم بأعمال معينة ، ويُفعل بها الأفاعيل الدنيئة البشعة ، حتى تنتهي بعد ذلك إلى مرحلتها الأخيرة التي تقتل فيها . حيث توضع إلى جانب مولاها ، وأمسك اثنان رجليها واثنان يديها . وجعَلت العجوز التي تسمى ملك الموت في عنقها حبلاً مخالفاً ، ودفعته إلى اثنين ليجذباه ، وأقبلت ومعها خنجر عريض النصل « فأقبلت تدخله بين أضلاعها موضعاً موضعاً وتخرجه والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت »[3] . ثم تحرق هي ومولاها والسفينة .

نقل خوليان ربيرا في مقال له وصف ريكاردو دي بيري – جامع الكتب الانكليزية

---

(١) جغرافية الأندلس وأوربا ، ١٨٦ – ١٨٧ .

(٢) المرجع السابق ، ٢٠٢ .

(٣) رسالة ابن فضلان ، ابن فضلان ، ١٥٦–١٦٤ .

المشهور في القرن الثالث عشر ومستشار انجلترا – لحالة الكتب في أوربا أيامه ، ومبيناً رأيه في المرأة : « فإن الكتب يقذف بها خارج الأبواب ليحل محلها الكلاب في بعض الأحيان أو طيور الصيد ، أو في أحيان أخرى هذا الحيوان البغيض الذي يسمى المرأة، والذي لا ينبغي أن يعاشره رجل الدين . ولا يكاد يقع نظر هذا الحيوان الذي يبغض العلم دائماً على كتب مستورة تغطيها خيوط العنكبوت حتى يلعنها بأقسى العبارات ، ويفضل بأن تستبدل بها الأقمشة الحريرية والقرمزية أو أي شيء آخر عديم الفائدة »[1] .

كل ذلك وأمثاله كان يجري في أوربا وغيرها في هذا التاريخ (القرن الرابع الهجري) وقبله وبعده . في حين قطع العالم الإسلامي مرحلة كبيرة في خطى الانسانية على هدى الاسلام ، الذي كرّم هذا الانسان ، ذكراً وأنثى ، كبيراً وصغيراً من أيّ جنس دون تمييز « كلكم لآدم وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[2] . فكان بلال الحبشي ، العبد الأسود ، في الإسلام وفي واقع حياته ، أفضل من السادة . وكان عمر بن الخطاب يقول : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » ، يعني بلالاً . وطوت أم المؤمنين أم حبيبة (رَمْلَة بنت أبي سفيان) وزوج الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فراشَه عن أبيها سيد قريش كيلا يدنسه بجلوسه عليه إذ هو « مشرك نجس »[3].

قبل تاريخ هذه الأحداث بقرون أبطل الإسلام كل أوضاع الجاهلية ومقوماتها في النفس والفكر والمجتمع وفي جنبات الحياة كافة . أبطلها في واقع النفس الإنسانية ، وتم إبطالها في حياة الإنسان ، وحطم كل الطواغيت والأصنام ، فأقام حياة الانسان وفكره على عقيدة سمحة وشريعة سامية بيضاء .

ففي حجة الوداع (السنة العاشرة للهجرة) كان تأكيد هذه المعاني ، في إعلان

---

(١) مجلة معهد المخطوطات العربية، ٤/١/٩٢ – ٩٣ ، بحث « المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الاسلامية »، ربيرا . كذلك : الذخائر والتحف ، القاضي الرشيد بن الزبير ، ١٩٨ .

(٢) من خطبة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في حجة البلاغ (الوداع) . راجع : مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة ، جمعها محمد حميد الله ، ٣٠٨ – ٣٠٩ .

(٣) راجع : نظرات في دراسة التاريخ الاسلامي ، ٨٢ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل الأرض كافة بقوله : « ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدميَّ هاتين موضوع »[1] .

فكانت ولادة الانسان الجديد النظيف في كل شيء « الانسان المسلم » . ومنذ ذلك التاريخ عرف الانسان قيمته الحقة ذكراً وأنثى ، كما أرادها الله سبحانه له ، بعد أن عرف ربه ، وقد رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقوم له الناس أو يقبلوا يده ، وأرادهم أن يعبروا عن محبتهم له باتباع هديه والعمل بشرع الله العليّ وبطاعة الله وطاعته والأخذ بمنهجه سبحانه وتعالى .

* * *

إن سوء الأحوال في أوربا – وفي كل جوانب الحياة – بقي إلى قرون متأخرة في أوربا مثلما كان من قبل . ومعروف حال أوربا من السوء العام الشامل قبل الصراع والثورات التي جرت في تاريخها الحديث كالثورة الفرنسية (١٣٠٣ هـ = ١٧٨٩ م) .

وإذا تجاوزنا التقدم العلمي والمادي الذي جلبته الحضارة الأوربية الحالية فهي – في خطها العام – خاوية إنسانياً ، لخلوها من النظرة الإنسانية وهبوط هذه النظرة نحو الكون والحياة والانسان . إنها أهملت خصائص الإنسان حين اعتبرته آلة ، أو واحداً من أنواع الحيوان .

ومع أن التقدم العلمي والصراع الاجتماعي ، الذي أحدث التغير في أوربا ، كانا بعد اتصالها بالعالم الإسلامي ، إلا أنها لم تحسن الانتفاع بذلك . فصاغت حياتها في إطار موروثاتها ، زيادة على الأجواء الاجتماعية التي أعطت أحداثاً تاريخية معينة تشكلت تبعاً لمواقفها وفي تيار أوضاعها . لذا لم تعرف حياتها ـ عموماً ـ الاعتدال السوي ، وعاشت بين الإفراط والتفريط .

---

(١) حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، محمد ناصر الدين الألباني ، ٧٧ .

ثانيًا: حَالة إسْبَانيا قبل الفتح الإسْلامي

كانت شبه الجزيرة الايبيريّة (Iberian Peninsula ، إبارية = إسبانيا والبرتغال) ، قبل الفتح الإسلامي تحت حكم القُوط الغربيين (Visigoths) . وقد بدأ احتلال القُوط لها في أوائل القرن الخامس الميلادي ، بعد طردهم للوندال (Vandals) ، إحدى القبائل الجرمانية المتبربرة ، الذين اتجهوا بعد ذلك إلى احتلال الشمال الافريقي وطُردوا منها على يد الرومان سنة ٥٣٤ م . احتل الوندال إبارية منذ القرن الثالث الميلادي وحتّى الخامس[١] . ومن اسم الوندال جاء اسم الأندلس[٢] .

استبد القوط (Goths) بالحكم ، لاسيما قبيل الفتح الإسلامي . وبسوء سياستهم ساءت حالة إسبانيا واضطربت حياة سكانها . فالفوضى منتشرة ، وكثير من الناس يعيشون في شقاء لسوء الأحوال المعاشية ولسياسة الاستغلال . فكان الشعب يُستغل لحساب الطبقة الحاكمة والمترفة وأصحاب المصالح ، يضاف إلى ذلك الصراع الذي وجد بين الطبقات والحاكمين ، وفيما بين الحاكمين أنفسهم . والشعب الإسباني ـــ مثل غيره من الشعوب الأوربية ـــ مقسّم إلى طبقات عديدة هُضمت حقوقها ، مع وجود الفوارق الطبقية . فلا يحظى بالعيش الهنيء إلا طبقة معينة حصلت على امتيازات . والأسرة المالكة بيدها كل شيء دون سواد الشعب الذي يلاقي الإهمال والظلم ، فتفرض عليه الضرائب والتكاليف . وقد انقسم الشعب إلى هذه الطبقات :

طبقة النبلاء ، ومنها الطبقة الحاكمة .

طبقة رجال الكنيسة ، التي تشارك النبلاء في حكم البلاد والاستمتاع بخيراتها .

طبقة التجار والزراع والملاك الصغار ، الذين يتحملون الضرائب المختلفة .

طبقة عبيد الأرض ، الذين يتبعون مالكها وينتقلون مع ملكيتها من سيد إلى آخر .

---

(١) راجع: فجر الأندلس ، حسين مؤنس ، ٢ وبعدها ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، محمد عبد الله عنان ، ٢٧/١ – ٢٩ ؛ أوربا العصور الوسطى ، عاشور ، ٨٨/١ .

(٢) انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب .

وطبقة العبيد ، التي تكونت من أسرى الحرب ، ويتصرف فيهم بيعاً وشراءاً ، ولم تعط لهم ولا لسابقيهم الحقوق التي يستحقون ، فلم ينالوا تكريماً[1] .

لا يوفر هذا الوضع — دون شك — استقراراً ولا عدالة اجتماعية . ومن هنا كانت الطبقات المنتجة في المجتمع محرومة من كثير من حقوقها ، في حين تؤدي المسؤوليات والتكاليف . ولا ينتظر من مثل هذه الطبقات أن تقدم إخلاصها وافياً ، وتدافع بحرارة عن ذلك النظام الذي حرمها الحقوق ، ولو أن ذلك لا يمنع من دفاعها عن بلدها . فلا نعجب إذا ظهرت العوامل التي تدعو للخشية على ذلك الملك والدولة والنظام القوطي رغم قوته العسكرية .

بجانب هذه الطبقات وجد اليهود الذين لاقوا الاضطهاد أحياناً ؛ ولذا كانوا لا يؤيدون هذا الملك وربما حاولوا تغييره . فكان هنالك صراع على السلطة ولكل مؤيدوه .

قبل الفتح الإسلامي لإسبانيا بسنة أو تزيد قام أحد رجال الجيش واسمه لُذْريق (Rodrigo) بالاستيلاء على السلطة وعَزْل الملك غيطشة (Witiza)[2] . وغداة الفتح الإسلامي كان لُذريق هو حاكم البلاد . لكن أتباع الملك السابق ومؤيّديه وأفراد أسرته لم يرضوا عن هذا الحكم الجديد . وكانوا يتحينون الفرصة لاستعادة مُلكهم ، ووجدوها في الفتح الإسلامي ، ووهموا أن المسلمين طلاب غنائم ، فسوف لا يستقرون في إسبانيا . لكنهم لم يجدوا لهذا الوهم إشارة ، فالمسلمون حملة عقيدة يعملون على نشرها وإعلائها .

كانت إسبانيا قبل الفتح الاسلامي تشكو الاضطراب والفساد الاجتماعي ،والتأخر الاقتصادي وعدم الاستقرار ؛ نتيجة السياسة ونظام المجتمع السائد .

لكن هذا لا يعني أن هذه السلطة لم تكن قادرة على الدفاع ، كما لا يعني انعدام

---

(١) راجع : الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض المعطار في خبر الأقطار) ، ابن عبد المنعم الحميري ، ١٧٠ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ١/٣٢ .

(٢) الروض المعطار ، ١٩٣ . كذلك : أخبار مجموعة ، مجهول المؤلف ، ٥ .

قوتها السياسية والعسكرية ، بل كان بإمكانها أن تصدّ جيشاً مُهاجماً وتحاربه وتقف في وجهه .

أقام القوط في إسبانيا دولة اعتُبرت أقوى الممالك الجرمانية حتى أوائل القرن السادس الميلادي[1] ، وبقيت بعد ذلك تتمتع بقوة عسكرية مدربة وقوية ، تقارع الأحداث وتقف للمواجهات .

* * *

بالإمكان أن تتوفر للدولة سطوة سياسية وقوة عسكرية مع سوء في الداخل أو هبوط مّا في حياة الناس . فطالما اعتمد الطواغيت والجبابرة على البطش والقوة في مهاجمة الآخرين وتهديدهم بها . إن توفر القوة وقتاً مّا لا يعني استمرارها ، إذ ليست هي قائمة بالحق ، وذلك لا يمنحها قدرة للبقاء والثبات أمام أحداث الحياة . وهي بذلك لا تقود إلى التقدم ضرورة ، وإنها أبعد ما تكون عن بناء الحياة الكريمة . فالقوة المتمكنة التي لا تحكمها مُثُلٌ ولا توجهها عقيدة ، تتحول إلى قوة غاشمة وجبروت قاصم ، لاسيما بعد أن تحوز أي تفوق أو تكون لها غلبة على أحد . وهي عادة تنفخ بقرن شيطان في مثل هذه الأمور ، أو تزييف الحقائق ، فتجعل من الهزائم انتصارات تاريخية ، تجلجل بها أصوات دعاتها ، وما أكثر الشواهد التاريخية على ذلك ، كما يتلو إيرادها ، خلال استعراضنا لأحداث هذا التاريخ ، موضوع دراستنا ، ونلمسه بوضوح عند القوط والفرنج وغيرهم من الإمبراطوريات والدول يومذاك .

كما أن توفر وسائل المعيشة وتحسنها ليس دليل الصحة العامة لشعب مّا . فالاستمرار في الهبوط أو بقاؤه وطول ملازمته قد يفتّ القوة أيضاً ، أية قوة . والانحراف والسوء والتحلل الخلقي يصيب بآثاره جوانب أخرى في الحياة قد يكون منها القدرة الحربية وغيرها .

في حين ـ من الناحية الأخرى ـ تكون الاستقامة والنظافة وسمو العقيدة وصلاحية المنهاج وأصالة الفكرة وصدق النظرة سبباً مؤكّداً في عزة الأمة وتقوية أحوالها وبناء حياتها وحمايتها والقدرة على التقدم السليم وقابلية التجدد واطّراد النمو ودوام الازدهار

---

(١) أوربا العصور الوسطى ، ٨٨/١ .

في الميادين كافة . ولا يرجع انتصار الاسلام إلى التفوق العسكري بل إلى نوع البناء العسكري للفرد ، جندياً أو قائداً . وهو من نوع البناء العام للمجتمع الذي يقوم على العقيدة الاسلامية وشريعتها الربانية . وهذا نلحظه، بوضوح تام، في فتح الأندلس وغيره .

كانت أحوال أوربا في تلك القرون وقبلها وبعدها سيئة ، كما هو معلوم . ولكن ظهر فيها العديد من القوى السياسية ذات التفوق العسكري ، والامبراطوريات التي عُرفت فيها شاهد على ذلك . بل إن عدداً من الدول كانت لها — مع تلك الأوضاع السيئة — حضارات يشار إليها . هذه المظاهر من القوة السياسية والحضارية ليست دائماً وحدها هي المقياس على توفر الجانب الانساني وسلامة الحضارة وسمو القيم . كانت الامبراطورية الرومانية ذات قوة حربية ونفوذ سياسي ، لكنها تمتعت بأخلاق هابطة ، حَفَلَت بصورٍ غير كريمة[1] .

حملت موجات الحروب الصليبية وحملات التتار (المغول) — ذات التفوق العسكري — الخراب إلى العالم الإسلامي في كل مكان وَصَلَته . كانت هذه القوى عاتية مدمرة ، تغتصب البلدان وتفتك بالناس ، أو تحكمها بالقوة والتسلط والاضطهاد. ثم ينشأ الصراع فيما بينهم أو مع أهل البلاد لإزالتهم . والاستعمار الحديث ليس إلا صورة لهذا التراث الزاخر .

وفي الإسلام يعتنق أهل البلاد عقيدته ويأخذون بشرعه طواعية . تمتزج العناصر كلها في ظل العقيدة ، متعايشة متعاونة متحابة . لذلك استمر الاسلام في المناطق التي وصل إليها وحافظ أهل البلاد عليه ، وحملوه إلى الآخرين ، وفَدَوْه بأنفسهم ، وصبروا حتى النهاية لكل ألوان الاضطهاد الخارجي والداخلي ، المتلون في كل صورة والسالك لأي سبيل .

ارتضى العالم الإسلامي تولي السلطة من قِبَل مختلف العناصر والأجناس ، ماداموا

---

(١) راجع : درابر

History of the conflict between Religion and science, 31-2 (London, 1827) .

نقلا عن : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ١٨٢ .

يدينون بالإسلام ويعملون به ، والشواهد كثيرة[1] . والسلطات المحلية في أي من مناطق العالم الإسلامي هي أيضاً – حين قامت – حافظت على الاسلام عقيدة وشريعة وعملت في خدمته وعضّت عليه بالنواجذ .

حين نتحدث عن الفتوحات الإسلامية وقوتها وسرعة مسيرها فإننا لانشير بذلك إلى تفوق المسلمين في القوة العسكرية والسلطة السياسية ، ولا نعلل ذلك بأي تفسير أو نرجع انتصار المسلمين إليه غير العقيدة .

لم يكن المسلمون متفوقين بالقوة الحربية أو المجد العسكري في قوتهم المادية أو تنظيماتهم الحربية أو إعدادهم الفني . بل كانوا دوماً – في فتوحاتهم – أقلّ في الاستعداد والإعداد ، من عدوّهم ، وأدنى منه في الجمع العَددي والعُددي بكثير . وهي أمور ما كانوا – تفضيلاً – يحفَلون بها أو يُعَوِّلون عليها ، ولاتأتي عندهم في طليعة مقومات الانتصار . فليست هي المعتمَد في الفتح ولا فيما بعده . إن الفتحَ فتحُ العقيدة التي سرعان ما يدخل الناس رحابَها أفواجاً . فانتصار الإسلام وفتوحاتُه معجزة أخرى تضاف إلى أخواتها .

يجب أن تُدرس الفتوحات الاسلامية على هذه الأضواء التي تدعمها الحقائق المتوافرة وتبرزها الوقائع المتضافرة . فدراستنا الحالية للفتوحات الاسلامية غالباً ما تشير إلى العمل العسكري والجانب الحربي فيها ، ومع أنها تنتقص منها وتحاول تشويهها ، دراسة ناقصة . وهي محتاجة إلى البحث عن أعمال المسلمين ، دعاةً وفاتحين ، خلال جهودهم ومجرى حياتهم في الدعوة إلى الإسلام ، ومسلكهم الإنساني الرفيع ،والتزامهم الكريم في المعتاد من تصرفهم . وذلك قِوام انتشار الإسلام وإقبال الناس عليه واحتضانه وافتدائه .

لايُرى فتح شبه الجزيرة الايبيريّة وانتصار الإسلام المذهل فيها – كما في غيرها – في ظل أحوالها قبل الفتح ، بل بصورة رئيسية فيما امتاز به الجيش الإسلامي من عقيدة

---

(١) راجع كذلك : أندلسيات ، ٢/٢٣ .

يفتديها بالنفس ، وفي قيم إنسانية حملها الفاتحون ، وعَبَّروا عنها في سلوكهم ، أفراداً وجماعات ، أو حكاماً ومحكومين ، وحتى غالبين ومغلوبين .

ما من شك أن لحالة إسبانيا أثراً سيئاً على مقاومتها . إلا أنه مهما قيل في ضعفها وسوء أحوالها فلا بدّ من اعتبار نوعية الجيش الاسلامي وحبه لإعلاء كلمة الله ـ سبحانه ـ التي افتداها بالحياة . هذه النوعية استطاعت إتمام فتح الجزيرة الإيبيرية في أربع سنوات ، وهو عمل لا يمكن أن يتكرر بسهولة بدون هذه النوعية .

ومن ناحية فإن عملاً حربياً سيواجه إسبانيا كلها من شأنه أن يلمّ كافةالأطراف ، مما له أثر في تقوية الجبهة القُوطية .

كان لإسبانيا وسلطاتها من تفوقها العسكري الكبير وكثرة عدتها وحربها في أرض تعرفها وقرب إمدادها ، ما يجنبها الخطر ويعوضها النقص وتتفادى به الضعف . بينما هي لم تكن بهذه المثابة من التردي ، إذ خاضت معارك وعرفت أحداثاً ، ولها في ذلك من التاريخ صفحات .

كان هذا الفتح الأمين سيتم حتى لو تفادت إسبانيا تلك الظروف . لأن المَـدَّ الإسلامي المُنْبِت المنير قد مزّق ـ خلال سيره ـ حُجُب الظلام كافة ، وأزال حواجز الظلمات ، وهزم جيوش الضلال في كل مكان . وكذا حصل لتلك التي كان حالها أحسن ومقاومتها له أشد وأمتن . فإن إحكام الظروف المادية وإتقان الأمور العسكرية لايقوم بها الفتح الإسلامي ، ولكنه ـ قبلها ـ بمستلزمات العقيدة . فهي عامل النصر والفارق الذي يطبع الجيش الإسلامي ويميّز سربه ويقود مده الدافق الكريم . وقلة الجيش الإسلامي الفاتح كانت سمةً مميِّزة له في الفتوحات الإسلامية .

سنرى كيف أن مقاومة القوط للمسلمين كانت عنيفة ، وما بذله الفاتحونوقدموه عُدَّ كبيراً . كان عدد المسلمين قليلاً وعُدتهم أقل ، ويحاربون في أرض جديدة ماخبروها ، لكن عوامل الفتح تكمن في النوعية الباهرة لهذا الجيش الفريد والصفات الإنسانية الفذة التي حلَّته بها عقيدتُه الربانية الخالدة . فهي موضوع الاختلاف وبها

كان النصر لا بغيرها . وهي وحدَها التي تستطيع فعل ذلك . فبدا القوط ضعافاً أمام هذا النوع من الجيش الفريد .

* * *

تذكر بعض الروايات فضل الملك لذريق وحسن سيرته ، وكذا الملك السابق غيطَشة[1] . المعروف أن لُذْرِيق كان حاكماً شجاعاًومحارباً قوياً وقائداً مجرباً ، إذ « كان شجاعاً قد بَعُدَ صوته وطال ذكره في النصرانية . »[2] لكن من السهل أن يرى الباحث عدم قدرة مثل هذه السلطة ، ولا غيرها ، على الوقوف أمام أناس أخلصوا لعقيدتهم الرفيعة وتحمسوا لها ، فلا يهابون أحداً ولا يبخلون بشيء من أجلها . هؤلاء هم الجيش الإسلامي وقيادته ، الذين قَدِموا لفتح الأندلس[3] . وتاريخ الجيش الإسلامي – فيما تم قبل وبعد من فتوح – مليء بأنقى الصفحات وأشدها نصاعة وأقواها ضياءً .

ثالثًا : نظرة في جُغرافية شِبْهِ الجَزيرة الايبيريّة

تقع شبه الجزيرة الإيبيريّة (الأندلس) في الجنوب الغربي من القارة الأوربية . تفصلها من الشمال ، عن جنوب فرنسا ، جبال البُرْت ـ أو البُرْتات Pyrenees ، وتعرف بالاسبانية Pirineos[4] — حيث تتصل الأندلس بالأرض الكبيرة . يفصلها من الجنوب —

---

(١) دولة الاسلام في الأندلس ، ١/٣٢ .

(٢) صلة السِّمط وسمة المرط ، ابن الشباط ، نشر سوية مع « الاكتفاء » لابن الكردبوس بعنوان « تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط » (نصان جديدان) ، ١٣١ . كذلك : نفح الطيب ، أحمد بن محمد المقري التلمساني ، ١/٢٥٠ ؛ فجر الأندلس ، ١٧ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ١/٣٤، ٤١ ؛ أخبار مجموعة ، ٥ .

(٣) انظر : فجر الأندلس ، ٦٨ ، ٧٣ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، السيد عبد العزيز سالم ، ٧١ .

(٤) تسمى هذه الجبال أحياناً « البرانس » . الظاهر أنها تسمية خاطئة ، لأن جبال البرانس تقع شمال قرطبة وتعرف أيضاً بجبال المدن (Sierra de Almadén) . انظر : جغرافية الأندلس وأوروبا ، ٨٥ ، ١٢٩ ؛ الروض المعطار ، ١٤٢ ؛ نفح الطيب ، ١/١٤٣ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ١/٥٣، ٨٢ ؛ تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، حسين مؤنس ، ٢٦١ ، ٤٨١ ؛ الخريطة رقم : (١) ، من هذا الكتاب ص ٢٤ – ٢٥ .

حدوداً للقارة الأوربية ، عن إفريقية – مضيقُ جبل طارق الذي يبلغ عرْضُه من الشرق إلى الغرب ١٣ – ٣٧ كم[١] .

تقع على المضيق بعضُ مدن المغرب الأقصى في الشمال الافريقي ويصل المضيق بين شبه الجزيرة الإيبيرية والمغرب الأقصى – وما بعده – براً ، كما يصل بين المحيط الأطلسي والبحر المتوسط بحراً .

تقع سواحلها الشمالية والشمالية الغربية على المحيط الأطلسي عند خليج بسْقايَه (Biscay) ، الذي عليه تقع مدينة خيخون (Gijon) . تقع سواحلها الغربية على المحيط الأطلسي ، الذي يعرف عند بعض الكتاب المسلمين : البحر الأخضر[٢] أو البحر المحيط[٣] أو البحر المحيط الرومي[٤] أو البحر المظلم[٥] أو بحر الظلمات[٦] ، أو بحر الظلمة[٧] ، أو اقيانس[٨] . تقع شواطؤها الشرقية والجنوبية الشرقية على البحر المتوسط ، ويسمى أيضاً : البحر الرومي[٩] أو البحر الشامي[١٠] ، أو بحر تيران[١١] .

ولا بدّ من إيضاح بعض المصطلحات قبل المضي في الحديث عن التاريخ الأندلسي :

---

(١) انظر كذلك : الاستبصار في عجائب الأمصار ، مجهول المؤلف ، ١٣٨ .

(٢) الروض المعطار ، ٢٨ ؛ نفح الطيب ، ٢٧٦/١ ، ١٨٩/٣ (كأنه يطلقه على خليج بسقايه = بسكاي) .

(٣) جغرافية الأندلس وأوربا ، البكري ، ٦٦ ، ١٤٣ ، ١٥٦ ؛ الروض المعطار ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٨٣ ؛ المقدمة لابن خلدون ، ٤٢٧/١ ؛ تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ، ١٢٨ ، ١٦٢ ، ١٦٥ (نص ابن الشباط) ؛ نفح الطيب ، ١٣٧/١ .

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام الشنتريني ، ١٣/١/١ .

(٥) جغرافية الأندلس وأوروبا ، ١٦٩ ؛ الروض ، ٢ .

(٦) الروض ، ٢٨ .

(٧) تاريخ الأندلس ، ١٣٠ (نص ابن الشباط) ؛ الروض ، ١٢٧ .

(٨) تاريخ الأندلس ، ١٣٠ (نص ابن الشباط) ؛ الروض ، ٢٨ .

(٩) الروض ، ٢٨ ، ٦٢ ، ٨٣ ؛ المقدمة ، ٤٢٧/١ ، ٤٦٤ ؛ نفح الطيب ، ١٣٢/١ .

(١٠) جغرافية الأندلس وأوربا ، ٦٦ ، ١٤٣ ، ١٥٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ؛ الروض ، ٢ ، ٢٦ ، ١١٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ؛ تاريخ الأندلس ، ١٢٨ (نص ابن الشباط) ؛ نفح ، ١٣٥/١ .

(١١) جغرافية الأندلس وأوربا ، ٦٨ ؛ نفح الطيب ، ١٣١/١ .

١ – مصطلح الأندلس ومدلوله

أصل مصطلح **الأندلس** مأخوذ من قبائل الوندال (Vandals) التي تعود إلى أصل جرماني . احتلت شبه الجزيرة الإيبيرية حوالي القرن الثالث والرابع وحتى الخامس الميلادي ، وسميت باسمها : فاندلسيا (Vandalusia) ، أي : بلاد الوندال . ثم نُطقت بالعربية : **الأندلس** . أما مدلول هذا المصطلح فقد أطلقه المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون أحياناً على كل شبه الجزيرة الإيبيريَّة (إسبانيا والبرتغال اليوم) ، والتي يسمونها أيضاً الجزيرة الأندلسية . ثم استُعمل للدلالة على كل المناطق التي سكنهـا المسلمون وحكموها من شبه الجزيرة الإيبيريَّة[١] .

حدود الأندلس أيام الخلافة الأندلسية – مثلاً – تشمل كل البرتغال تقريباً وأكثر إسبانيا الحالية . كانت الأندلس تمتد جنوب الخط الافتراضي الذي يصل بين نَهـر دُوَيرُهْ (Duero) في الغرب حتى بَرْشَلُونَة (Barcelona) في الشرق ، مع ارتفاع إلى الأعلى في الوسط . يفصل هذا الخط بين إسبانيا النصرانية في الشمال وبين الأندلس (إسبانيا الإسلامية) في جنوبه .

حين يُذكر هنا اصطلاح الأندلس يُقصد به أيضاً – زيادة على ما سبق – المنطقة الإسلامية التي شَمَلها الإسلام ، سلطاناً وسكاناً ، من شبه الجزيرة الإيبيريَّة ، وعلى الأغلب في شمولها أيام الخلافة الأندلسية . أو شاملة لكل شبه الجزيرة ، كما تبين آنفاً .

تطلق اليوم كلمة أَنْدَلُثِيَّا (Andalucia) بالإسبانية على المنطقة الجنوبية من إسبانيا . وهو اصطلاح إداري لا يمثل المعنى التاريخي المُبيَّن لمصطلح **الأندلس** .

بعض أسماء الأمكنة والمدن في شبه الجزيرة الإيبيرية ذات أصل أندلسي ، منقول إلى الإسبانية ، أو أنه إسباني نقل إلى العربية . فعدد من الأسماء يتسم بطابعه الأندلسي . وكل اسم في الإسبانية – حالياً – مسبوق بـ ال التعريف دليل على أندلسيته أو تأثره .

---

(١) راجع : جغرافية الأندلس ، ٥٩ ؛ الروض ، ٤-٦،١٩٦ ؛ نفح ، ١٣٣/١ – ١٣٥ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ٢٧/١ ، ٥٠ ؛ أندلسيات ، ١١/١ ؛
Andalusian diplomatic relations with Western Europe, El-Hajji, 32 - 3.

كانت - ولازالت - تقوم في إسبانيا مدن وقواعد أندلسية، بعضها كبرى، تحتفظ بآثار العمران الأندلسية ، مثل : قُرْطُبَة وإشْبِيلِيَة وغَرْناطة وطُلَيطُلَة ومَالقَة وغيرها .

٢ — الثغور الأندلسية

وجدت في الأندلس ثلاثة ثغور أندلسية[١] . تقع على حدود إسبانيا النصرانية . وهي :

١— الثَّغْر الأعلى[٢] (أوالثغر الأقصى)[٣] : وعاصمته سَرَقُسْطَة (Zaragoza) ، يواجه مملكة نَبارَّه (نافار = Navarra, Navarre) .

٢ — الثَّغْر الأوسط : وعاصمته مدينة سالم (Medinaceli) ، ثم طُلَيْطُلَة[٤] (Toledo) ، يواجه مملكتي : قَشْتالَة (Castella, Castile) وليون (León) .

٣ — الثَّغْر الأدنى : ويقع بين نهري دُوَيْرُه وتاجُه (Tajo) ، كانت عاصمته أولاً طُلَيْطُلَة[٥] ، ثم حلت غيرها لعلها قُورِيَه[٦] (Coria) .

كانت في شمال إسبانيا ، حوالي القرن الرابع الهجري ، ثلاث دويلات نصرانية :

١ — لِيون : في الشمال والشمال الغربي ، عاصمتها مدينة لِيون ، تضم منطقتي جِلِّيقِيَة (Galicia) وأَشْتُورِيش (Asturias) .

٢ — قَشْتالَة : وعاصمتها مدينة بُرْغُش (Burgos) ، وتقع بين ليون ونافار .

٣ — نَبَارَّة (نافار) : وعاصمتها مدينة بَنْبُلُونَة (Pamplona) ، في الشمال والشمال الشرقي حيث تسكن قبائل البَشْكُنْس (Vascones, Basques)[٧] .

---

(١) عن الثغور الأندلسية ، راجع : جغرافية الأندلس ، ٩٤ ؛ نفح ١٦١/١ .
Andalusian diplomatic relations, El-Hajji, 65-6.

(٢) انظر مثلا : نفح ، ١٦١/١ ، ١٦٦ .

(٣) انظر مثلا : نصوص عن الأندلس ، ٢٧ ؛ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ابن عذاري ، ١٧٢/٢ .

(٤) راجع : نفح ، ١٦١/١ . انظر : دولة الاسلام في الأندلس ، ٢٣٧/١ .

(٥) انظر : المقتبس في أخبار بلد الاندلس ، ابن حيان القرطبي ، ١٨/٢ ؛ نفح ، ١٦١/١

(٦) انظر : المسالك والممالك ، ٣٦ ؛ دولة الاسلام ، ٣٣٩/١ .

(٧) راجع : أندلسيات ، ٣٩/٢ وما بعدها .

يوجد في شبه الجزيرة الإيبيريـَّة الكثير من المناطق الخصبة والأنهار ، كما أن فيها المرتفعات والجبال الصخرية العالية . وقد جـَمـَعـَت الأندلس خواصَّ كثيرة ، أوردها عدد من الجغرافيين الأندلسيين[1] .

رابعًا : العُهود التي مرّت بها الأندَلسُ

استقر حكم الاسلام في شبه الجزيرة الإيبيريـَّة ثمانية قرون ، منذ فتـْحها ـ بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نُصَيْر وآخرين ـ سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) حتى سقوط غـَرْناطة سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢م) . ومرّت الأندلس في هذه القرون بعدة عهود ، تقلـَّبت خلالها بين الضعف والقوة وبين النصر والهزيمة . ويمكن إجمال هذه العهود ، التي كان لكل منها طابَع مميـَّز ، على النحو التالي :

أولاً : عهد الفتح الذي استمر حوالي أربع سنوات : **٩٢ ـ ٩٥ هـ** (٧١١ ـ ٧١٤ م) .

ثانياً : عهد الولاة : ٩٥ ـ ١٣٨ هـ (٧١٤ ـ ٧٥٥م) . ويـَعتبر بعضُ المؤرخين مدة الفتح داخلة في هذا العهد ، الذي ينتهي بمجيء عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس سنة ١٣٨هـ (٧٥٥م) . وقد حـَكـَم الأندلسَ في هذا العهد ـ الذي استمر حوالي ٤٢ سنة ـ عشرون والياً تقريباً ، كانوا تابعين للخلافة في دمشق مباشرة أو بواسطة ولاية الشمال الإفريقي (إفريقية والمغرب) .

ثالثاً : عهد الإمارة : ١٣٨ ـ ٣١٦ هـ (٧٥٥ ـ ٩٢٩م) . ويبدأ منذ مجيء الداخل إلى الأندلس حتى إعلان الخلافة من قِبـَل عبد الرحمن الناصر (الثالث) سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) ، وقد أسس الداخل إمارة مستقلة عن الخلافة العباسية ، استمرت مئة وثمان وسبعين سنة .

رابعاً : عهد الخلافة : ٣١٦ ـ ٤٠٠ هـ (٩٢٩ ـ ١٠٠٩ م) . ويبدأ منذ إعلان

---

(١) راجع : جغرافية الأندلس وأوربا ، ٥٧ ـ ٧٠ ؛ نفح ، ١/١٢٦، ١٤٠، ١٤٤ ـ ١٦٥، ١٦٧ .

الخلافة حتى وفاة الحَكَم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) ، أو حتى الدولة العامرية في نهاية القرن الرابع الهجري (بداية القرن الحادي عشر الميلادي) . فكان عمر الخلافة حوالي القرن .

خامساً : عهد الطوائف : ٤٠٠ – ٤٨٤ هـ (١٠٠٩ – ١٠٩١ م) . وهو عهد دول (أو ملوك) الطوائف ، الذي سبقته أعوام من الفوضى . وقد استمر هـذا العهد حوالي ثلاثة أرباع القرن ، حتى دخول الأندلس سلطان المرابطين .

سادساً : عهد المرابطين والموحدين : ٤٨٤ – ٦٢٠ هـ (١٠٩١ – ١٢٢٣ م) ، حيث دخلت الأندلس أولا في دولة المرابطين التي تنتهي في حوالي ٥٢٠ هـ (١١٣٤م) ، أي لأقل من نصف قرن . وبعد مدة تنضوي الأندلس لحكم الموحدين (قرابة القرن) الذي ينتهي في حوالي سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) . ويمكن اعتبارهما عهدين مستقلين .

سابعاً : مملكة غرناطة : ٦٢٠ – ٨٩٧ هـ (١٢٢٣ – ١٤٩٢ م) ، حيث تقوم دولة بني الأحمر وتستمر ما يزيد على قرنين ونصف ، حتى نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) . ويمثل سقوطها نهاية الحكم الاسلامي للأندلس وذهاب سلطان المسلمين السياسي منها . وتبقى ملايين عديدة من المسلمين عشرات السنوات ، لكنهم تحمَّلوا الكثير من الاضطهاد وعمليات الإفناء ، التي أتت عليهم ، قتلاً وتشريداً وإذابة . وكادت تأتي على كل مـا خلّفه المسلمون – بأجناسهم – من إنتاج إنساني رفيع كريم شَمَل مختلف الميادين .

الفصل الأول



أولاً : مقدماته .

ثانياً : مراحل الفتح .

ثالثاً : استدعاء موسى وطارق .

أولاً : مقدمات الفتح

كان الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الايبيريّة (إسبانيا والبرتغال) أمراً طبيعياً ، حسَب الخُطة التي اتبعها المسلمون أثناء فتوحاتهم ، وهي تأمين حدودهم ونشر دعوتهم. وذلك بالمضي في جهادهم إلى ماوراء تلك الحدود ، لنشر العقيدة الإسلامية التي تقتضي أن يستمر المَدُّ الإسلامي مادامت فيه القوة على الاستمرار . ولمّا وصل تيار الفتح إلى شمال إفريقية ، كان المَدُّ الإسلامي المَكين يحمل عناصر القوة الذاتية الأصيلة . ومن هنا ماكان منتظراً من هذه القوة الجديدة ــ التي دفعت بالقائمين بها والعاملين فيها إلى الاستمرار ــ أن تقف عند شواطىء إفريقية الشمالية الغربية . فكان طبيعياً ومتوقّعاً عبورُ هذا المد إلى إسبانيا ، عَبْرَ المضيق (المَجاز أو الزُّقاق) .

بعد أن أرسى موسى بن نُصَير ، ومَن معه ، كلمة الإسلام بجهودهم في الشمال الإفريقي ، كانت الخطوة التالية الطبيعية هي فتح الأندلس . وقد اتبع موسى خُطّة سليمة أكمل بها جهود مَن سبقه من الجند الدعاة ـ قادةً وجيشاً ـ في ترسيخ قدم الإسلام في المغرب الكبير ، وأدرك ــ وتلك سُنَّة مُتَّبَعة ــ أن تعميقَ الإسلام وإقراره يتطلب تثبيتَه في النفوس، ليحافظَ عليه ذاتياً ، وكيما تحيط قلوب الناس ـ لاالقوة الغشوم ـ هذا الدين الجديد[1] ، وتلك أصالة فيه ، وأسلوب واضح ثابت ، تقيمه طبيعة هذا الدين ولاترتضي غيره بديلاً . لذلك جَهَّز موسى بن نُصَير جيشاً من نوع جديد ــ وكل جيوش المسلمين كذلك ــ يحمل العلم والمعرفة الإسلامية ، لترسيخ وتفقيه وإفهام المغاربة هذا الدين . مثل هذه الخطوة لها اعتبارها دوماً وهي متبعة في كل الظروف ، وأمكن بهذا لاأن يَرْسُخ الإسلام في قلوبهم فحسب ، بل غدَوا يتحمسون لنشره في الخارج[2] . حتى لقد كانت أكثرية جيش طارق إلى الجزيرة الإيبيريّة من المسلمين

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ابن عذاري ، ١/٤٢ .

(٢) انظر : نفح الطيب ، ١/٢٣٩ .

البربر ، الذين تحمسوا لهذه العقيدة ، حباً لها وتضحية من أجلها ، لاطمعاً في مَغْنَم أو حرصاً على جاه . هذا هو هدف جميع الفتوحات الإسلامية ، التي يكفي الاطّلاع عليها ومعرفة طبيعتها لرفض الادّعاءات وإسقاط المفتريات المزوّرة ، التي تشير – تلميحاً أو تصريحاً – إلى اعتبار الغنائم سبباً في هذا الفتح ، وهو أمر مضحك ومثير. تاريخ الفتوحات الاسلامية شاهد ثابت قوي في بيان هذه الحقيقة الساطعة[1]. وبمتابعة تاريخها ينهار هذا الوهم وأمثاله ، مما لا يحمل أي رائحة من الطابع العلمي أو السند التاريخي .

فكرة الفتح :

يمكن القول بأن فكرة فتح الجزيرة الإيبيريَّة هي فكرة إسلامية تماماً . بل يُروى بأنها فكرة قديمة تمتد إلى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان[2] . فقد كان القائد عُقْبَة ابن نافع الفِهْري (٦٣ هـ) يفكر في اجتياز المضيق إلى إسبانيا لو استطاع[3]. وسبق للمسلمين نشاط على شواطىء إسبانيا الشرقية وبعض جزر[4] (الجزائر الشرقية Islas Baleares , Balearic Islands) القريبة منها ، وهي مَيُورْقَة (Mallorca) ـ كبراها ـ ومَنُورْقَة (Menorca) واليابسة (Ibeza)[5] . يذكر الذهبي (٧٤٨ هـ)

---

(١) راجع : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ٧١ ؛ المسلمون في أوربا في العصور الوسطى ، إبراهيم علي طرخان ، ١٢٦ ؛ تاريخ غزوات العرب ، ٤٤ .

(٢) البيان المغرب ، ٢/٤ ؛ نفح، ٢٠٤/١ ؛ تاريخ الطبري، ٢٥٣/٤–٢٥٥ ؛ البداية والنهاية، ابن كثير ، ١٥٢/٧ ؛ تاريخ غزوات العرب ، ٣٦٧ – ٣٦٨ (بحث لعبدالعزيز الثعالبي) ؛ الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، شكيب أرسلان، ٢٣٥/١–٢٣٨ ؛ جغرافية الأندلس ، ١٣٠ ؛ الروض، ٣ . قارن : نفح ، ٢٠٤/١ – ٢٠٥ .

(٣) البيان المغرب ، ٢٦/١ – ٢٧ . قارن : فجر الأندلس ، ٥٤ ؛ دولة الإسلام ، ٢٠/١ .

(٤) انظر : المسلمون في أوربا ، ١٢٦ ؛ دولة الاسلام ، ٢٥/١ ، ٣٩ .

(٥) راجع عن هذه الجزر : المغرب في حُلى المغرب ، ابن سعيد الأندلسي وأسرته ، ٤٦٦/٢–٤٧٠ ؛ الروض ، ١٨٥ ، ٢٨٨ ، ١٩٨ ؛ نفح ، ١٦٩/١ . صفة الأندلس (من نُزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، ٢١٤ (= الحلل السندسية ، ١٤٧/١ – ١٤٨) .

أنه في سنة ٨٩ هـ « جهز موسى بن نُصَيْر ولده عبد الله . فافتتح جزيرتي مَيُورْقَة ومَنُورْقَة »[1] .

أما الاتصال بيُلْيان (Julian) حاكم مدينة سَبْتَة (Ceuta) ، أو بغيره من الإسبان ، فإنها جاءت مواتية على ما يبدو . في الوقت الذي كان موسى بن نُصَيْر (والي الشمال الإفريقي قبل وخلال فتح إسبانيا) يفكر في تنفيذ فكرة الفتح .

لكن كيف تم الاتصال بالجانب الإسباني (يُلْيان وأنصار الملك المخلوع وغيرهم)؟ اختلفت الأقوال فيما إذا تم الأمر بالمراسلة أو باللقاء الشخصي ، وأين ؟ إذا كان هذا الاتصال أصلاً قد تمّ وبهذا المستوى . على كل حال فإن اتصالات الجانب الإسباني بموسى ومساعداتهم — أثناء عمليات الفتح — ربما كانت عاملاً مساعداً سهّل سير الفتح أو عجّل به . لكن المبادأةَ ومردَّ العمليات وإنجازَها كانت من الجانب الإسلامي الذي اندفع مع الفتح بقوة فائقة مرتكِزاً على عقيدته .

لعل موسى بدأ استشارته للخلافة في دمشق (الوليد بن عبد الملك : ٨٦ — ٩٦ هـ) قبل اتصالاته بيُلْيان ، أو اتصال هذا الأخير بموسى . وقد ترددت الخلافة - بادىء الأمر — بالقيام بمثل هذا العمل الكبير ، خوفاً على المسلمين من المخاطرة في مفاوز أو إيقاعهم في مهالك . لكن موسى أقنع الخليفة الوليد بالأمر ؛ ثم تمّ الاتفاق على أن يَسْبق الفتحَ اختبار المكان بالسرايا أو الحملات الاستطلاعية .

أرسل موسى في رمضان سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) سَرِيَّة استكشافية إلى جنوب إسبانيا مكونة من خمس مئة جندي ، منهم مئة فارس بقيادة طَرِيف بن مالك الملقب بأبي زُرْعَة ، وهو مسلم من البربر[2] . وجاز هذا الجيشُ الزُّقاقَ — اسم يطلق أحياناً على المضيق[3] — من سَبْتَة ، بسفن يُلْيان أو غيره ، ونزل قرب أو في جزيرة بالوما

(١) العبر في خبر من غبر ، الذهبي ، ١٠٤/١ . كذلك : المغرب ، ٤٦٦/٢ ؛ نفح ، ٢٧٩/١ ؛ العبر ، ابن خلدون ، ٤٠٢/٤ .

(٢) نفح ، ١٦٠/١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٥٣ ؛ الروض ، ٨ ، ١٢٧ . قارن : تاريخ الأندلس ، ٤٥ (نص ابن الكردبوس) ، ١٣١ (نص ابن الشباط) ؛ البيان المغرب ، ٥/٢ .

(٣) تاريخ الأندلس ، ١٣٠ (نص ابن الشباط) ؛ الروض ، ٨٣ ، ١٢٧ ؛ المقدمة ، ابن خلدون ، ٤٢٧/١ ؛ نفح ، ١٢٧/١ ، ١٢٩ ، ١٤٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢ .

(Isla de las Palomas) في الجانب الإسباني ، وعُرفت هذه الجزيرة فيما بعد باسم هـذا القائد : جزيرة طريف[1] (Tarifa) . عادت حملة طريف بالأخبار المطمئنة والمشجعة على الاستمرار في عملية الفتح[2] . وفي ذلك ينقل المَقَّري وغيرُه نصوصاً موضحة : « فكتب موسى بن نُصَير إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك يخبره بالذي دعاه إليه يُلْيان من أمر الأندلس ، ويستأذنه في اقتحامها ، فكتب إليه الوليد أن خضها بالسرايا حتى ترى وتختبرَ شأنها ، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال ، فراجعه أنه ليس ببحر زخّار ، إنما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه ، فكتب إليه : وإن كان فلا بدّ من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه . فبعث موسى عند ذلك رجلاً من مواليه من البرابرة اسمه طريف يُكنى أبا زُرعة في أربعمائة رجل معه مئة فرس ، سار بهم في أربعة مراكب ، فنزل بجزيرة تقابل جزيرة الأندلس المعروفة بالخضراء ، التي هي اليوم معبر سفائنهم ودار صناعتهم ، ويقال لها اليوم جزيرة طريف لنزوله بها »[3] .

من المتوقع أن يكون طريف درس أحوال المنطقة وتعرّف على مواقعها ، وأرسل جماعات إلى عدة أماكن – منها جبل طارق – لهذا الغرض . فكانت هذه المعلومات عوناً في وضع خُطة الفتح ونزول طارق بجيشه على الجبل .

ثانيًا : مَراحِــــل الفتح

بعد رسم خُطة البدء بعمليات الفتح ، جهز موسى بن نُصَير جيشاً من سبعة آلاف جندي من المسلمين البربر ، ليس فيهم من المسلمين العرب إلا العدد القليل[4] . واختار

---

(١) المغرب ، ١/٣١٩ ؛ نفح ، ١/١٦٠ ؛ الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ، محمد عبد الله عنان ، ٢٧٨ .

(٢) راجع : دولة الاسلام ، ١/٤٠ ؛ فجر الأندلس ، ٦٧ ؛ تاريخ المسلمين ، ٧٠ .

(٣) نفح ، ١/٢٥٣ . كذلك : البيان ، ٢/٥ ؛ الروض ، ٨ ، ١٢٧ ؛ أخبار مجموعة ، مجهول المؤلف ، ٥ – ٦ . ومعلوماتنا عن طريف قليلة جداً .

(٤) الروض ، ٩ ؛ نفح ، ١/٢٣١ ، ٢٣٩ ، ٢٥٤ ؛ البيان ، ٢/٦ ؛ وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، ٥/٣٢٠ .

طارقَ بن زياد ـ والي طَنْجَة ـ قائداً لهذه الحملة ، التي تلتها ـ فيما بعد ـ نجدة من خمسة آلاف بقيادة طَريف بن مالك . وطارق هذا مسلم بربري من قبيلة نَفْزَة[1] (وهي من البُتْر)[2] . كان طارق عسكرياً ناجحاً وقائداً ممتازاً ، مخلصاً للاسلام ، متحمساً لنشره . ونحن لانعرف كثيراً عن الحياة المبكرة لهذا القائد المسلم[3] . بيد أن موسى كان يثق به وبكفاءته لهذا العمل الجليل الذي أناطه به .

حملة طارق

وفي العام التالي لحملة طريف عبر طارق وجيشه من سَبْتَة أيضاً ـ بسفن يُلْيان[4] أو بغيرها ـ إلى الطرف الإسباني ، في الخامس من شهر رجب ٩٢ هـ (نيسان ٧١١م) . ومن غير البعيد أن تكون للمسلمين سفن عُملت واستعملها جيش طارق في هذه الحملة ، وحدها أو مع غيرها .

سفن العبور : الباحث المتحري في واقعية هذا الموضوع يسعه التردد في قبوله ، أو لعله يشك في واقعيته . الراجح تماماً أنه كانت للمسلمين سفنهم ، استعملها جيشهم في فتح الأندلس ، وهي تعبر المضيق إليها منذ حملة طَريف الاستطلاعيّة سنة ٩١ هـ (٧١٠م) ، وذلك :

١ ـ كان اهتمام المسلمين الواضح في صناعة السفن مبكراً ، وقد أدركوا حاجتهم إليها ، وأقاموا عدة دور لصناعة السفن ، مثل دار الصناعة في تونُس التي أقامها الحسان بن النُعمان الغَسَّاني[5] والي الشمال الإفريقي (٧٦ ـ ٨٦ هـ) . بل إن معركة بحرية صميمة خاضها المسلمون على شواطىء تونُس سنة ٣٣ أو ٣٤ هـ ، هي معركة ذات السَّواري استعملوا فيها أسطولهم المكون من مئتي سفينة[6] .

---

(١) نفح الطيب ، ٢٥٤/١ .
(٢) المسالك والممالك ، الاصطخري ، ٣٦ .

(٣) انظر : البيان ، ٤٣/١ ؛ نفح ، ٢٣٠/١ ، ٢٣٩ ؛ دولة الاسلام ، ٤١/١ .

(٤) راجع : نفح ، ٢٥٤/١ ؛ فجر الأندلس ، ٦٨ ؛ دولة الاسلام ، ٤٠/١ ؛ تاريخ المسلمين ، ٧٠ .

(٥) المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس ، ابن أبي دينار ، ١٥ ، ٣٥ .

(٦) انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ابن عبد البر ، ٩١٩/٣ ؛ العبر ، الذهبي ، ٣٤/١ . كذلك : تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ٣١١/١ .

٢ ـ كان قد مضى على فتح الشمال الإفريقي عقود من السنين ـ قبل فتح الأندلس ـ وكانت شواطئه الطويلة الممتدة على المتوسط والأطلسي تجعلهم بحاجة إلى السفن ، وهو أمر لا يتم بالإعارة ولا تفيه .

٣ ـ سبق للمسلمين نشاط بحري حربي من الشمال الإفريقي . ففي سنة ٤٦ هـ وجّه معاوية بن حُدَيْج ـ والي الشمال الإفريقي ـ أسطولاً إسلامياً ، عُدَّتُه مئتا سفينة، لفتح جزيرة صقلية[١]. وفي سنة ٨٦ هـ ولّى موسى بن نصَير عَيَّاش بن أخْيَل قيادة مراكب، صُنعت في تونُس ، إلى صِقِلِّيَة[٢] . كما مرّ بنا نشاطهم على سواحل الأندلس والجزائر الشرقية[٣] .

٤ ـ فتحت طَنْجة منذ ولاية عُقْبَة بن نافع (٦٣ هـ) ، وهي ميناء صالح ليكون « دار الصناعة » للسفن .

٥ ـ ذَكرت عدة من مراجعنا أن طَرِيف بن مالك استعمل أربع سفن للعبور بسريته الخمس مئة جندي المضيق إلى الأندلس[٤] ، وأن هذه السفن الأربع استعملها طارق للآلاف السبعة التي قادها عَبْر المضيق[٥] . فلم تَذكر اسم يُلْيان بهذه المناسبة ، كما تخبرنا بأن موسى استمر في تحضير السفن « وكان عَمِل من السفن عدة »[٦] ، « وكان موسى منذ وجّه طارقاً لوجهه ، قد أخذ في عمل السفن حتى صار عنده منها عدة كثيرة ، فحمل إلى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مدداً »[٧] . وان كان ابن عِذاري ذكر أن يُلْيان هَيَّأ « مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس »[٨] لنقل أول جيش طارق . وحتى على هذا فهي ليست ليُلْيان الذي عاون في تأجيرها لمعرفة بها.

٦ ـ لدينا خبر يشير إلى توفر ووجود السفن (أو صناعتها) في الأندلس، بُعَيد

---

(١) البيان المغرب ، ١٦/١ ـ ١٧ . (٢) البيان ، ٤٢/١ .

(٣) أعلاه ، ٤٤ ـ ٤٥ [والمراد من كلمة « أعلاه » ما سبق من الكتاب] .

(٤) أخبار مجموعة ، ٦ .

(٥) أخبار مجموعة ، ٦ ؛ نفح ، ٢٣١/١ (نقلاً عن ابن حيان) .

(٦) نفح ، ٢٣٢/١ (نقلا عن ابن حيان) . كذلك : البيان ، ٥/٢ .

(٧) نفح الطيب ، ٢٥٧/١ .

(٨) البيان المغرب ، ٦/٢ .

فتحها . ذكر الحُمَيْدي في **جذوة المُقْتَبِس** أن عيّاش بن شُراحيل (أو عباس بن أجيل) الحِمْيَري : « دخل الأندلس وقدم بالسفن منها إلى إفريقية سنة مئة . »[1] ولعله يفهم منها أن قدوم هذه السفن من دار صناعة سفن في الأندلس ، وفيه بيان مقدار عناية المسلمين بصناعتها .

٧ – القيام بعملية فتح مثل الأندلس لا يمكن أن يفي بحاجته استعارة سفن، لاسيما وأن النشاط البحري مألوف عند المسلمين ، وسبق التهيؤ لفتح الأندلس قبله بعدة سنوات . وامتلاك السفن وصناعتها أحد هذه الأسباب[2] .

كل ذلك يؤكد أن للمسلمين دور صناعتهم الخاصة لمدهم في هذا النشاط بالسفن. وهو يُرجّح أن السفن التي استعملها المسلمون في فتح الأندلس كانت أكثرها أو كلها إسلامية الصنعة ، أنتجتها دار قريبة أو جُلبت من دورٍ أخرى بعيدة .

تجمّع الجيش : كانت نقطة تجمع الجيش الإسلامي في الطرف الإسباني على جبل صخري عرف فيما بعد باسم **جبل طارق**[3] (Gibraltar) ، كما عُرف به المضيق ، وبكل اللغات . وهذه مكافأة دنيوية طيبة على عمل طارق وتخليد لبطولته ، زيادة على مكانته في نفوس المسلمين وغيرهم ممن يقدرون هذه الصفات ويشيدون بهذا العمل . إلا أنه ﴿ رضوان من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم ﴾[4] ولقد سُمي هذا الجبل – بعد الفتح الإسلامي – بأسماء أخرى ، مثل : الصخرة وجبل الفتح[5] ، لكن الشائع : **جبل طارق** .

عُرف جبل طارق – قبل ذلك – Mons Calpe (جبل كالبي) وسُمي هو

---

(١) جذوة المقتبس ، ٣٢٢ (رقم : ٧٤٢) . كذلك : تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ٣٤٤/١ (رقم : ١٠١٤) . لعل عياش هذا هو المذكور في الصفحة السابقة فقرة ٣ .

(٢) أدناه ، ٥٢ ، ٦٩ . (٣) نفح الطيب ، ١٤٥/١–١٤٦ ، ١٥٩–١٦٠ .

(٤) من الآية ٧٢ من سورة التوبة .

(٥) تاريخ الأندلس ، ٤٦ (نص ابن الشباط) ؛ نفح ، ١٦٠/١ ، ٢٣٠ ؛ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، عبد الواحد المراكشي ، ٢٨٢ ، ٢٩٣ ، ٤٥٢ .

وجبل أتيلا المقابل له على الساحل الإفريقي : أعمدة هِرَقْل[1](Columnas de Hercules).

يَعتبر ابنُ حَزْم – في رسالته القيمة في فضل الأندلس التي حفظها لنا المَقَّري كاملة[2] – فاتحي الأندلس هم ثانية الجماعتين اللتين أخبر عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث شريف له في فضل الجهاد في البحر[3] . وتلك إحدى معجزاته عليه السلام . فقد رَوى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذهب إلى بيت خالته من الرضاعة أم حَرَام بنت مِلْحان زوج عُبَادة بن الصامت « فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فأطعمته ثم جلست تفلّي من رأسه ، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم استيقظ وهو يضحك ، قالت فقلت : ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : ناسٌ من أمتي عُرضوا عليّ غُزاةً في سبيل الله ، يركبون ثَبَجَ هذا البحر ، ملوكاً على الأسرّة أو مثلَ الملوك على الأسرة (يشك أيهما قال) قالت : فقلت يارسول الله ادعُ الله أن يجعلني منهم ، فدعا لها ، ثم وضع رأسه ، فنام ، ثم استيقظ وهو يضحك ، قالت : فقلت : ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : « ناسٌ من أمتي عُرضوا عليّ غزاة في سبيل الله ، كما قال في الأولى ، قالت : فقلت : يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني منهم . قال : « أنت من الأولين » ، فركبت أم حرام بنت مِلْحان البحر في زمن معاوية ، فصُرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت . »[4]

يقرر ابن حزم أن المقصود حتماً بالجماعة الثانية هم فاتحو الأندلس ، وهوتشريف لها . ثم يعلّق على ذلك مبيناً أهمية التدليل وارتباطه بالورع . وهو أمر مهم في معرفة مستوى ومقومات العلم وخلقه عند المسلمين . ثم يشير إلى الحادثة ومدلولها بقوله :

---

(١) الآثار الأندلسية ، ٢٨٤ ؛ تاريخ الأندلس ، ٤٦ ؛ رحلة ابن بطوطة ، ٦٦٥ ؛
Histoire de l'Espagne Musulmane, E. Levi-Provençal, I, 18.

(٢) نفح الطيب ، ٣/١٥٦ – ١٧٩ .

(٣) نفح الطيب ، ٣/١٦١ .

(٤) مختصر صحيح مسلم ، الحافظ المنذري ، ٢/٤٥–٤٦ . وكان ما جرى لأم حرام في فتح جزيرة قبرص سنة ٢٨ هـ ، أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان ، وكانت الحملة بقيادة معاوية بن أبي سفيان .

« ومثل هذا من التأويل لا يتساهل فيه ذُو وَرَع ، دون برهان واضح وبيان لائح ، لا يحتمل التوجيه ، ولا يقبل التجريح فالجواب – وبالله التوفيق – أنّه صلى الله عليه وسلّم قد أُوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب ، وأُمِرَ بالبيان لما أُوحي إليه ، وقد أَخبر في ذلك الحديث المتصل سندُه بالعُدول عن العدول بطائفتين من أُمّته يركبون ثَبَجَ هذا البحر غُزاة واحدة بعد واحدة . فسألته أُمُّ حرام أن يدعو ربّه تعالى أن يجعلها منهم ، فأخبرها صلى الله عليه وسلم وخبرُه الحق بأنها من الأولين ، وهذا من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلّم ، وهو إخباره بالشيء قبل كونه ، ووضح البرهانُ على رسالته بذلك ، وكانت من الغُزاة إلى قُبْرُس ، وخَرَّت عن بغلتها هناك ، فتوفيت ، رحمها الله تعالى ، وهي أول غَزَاة ركب فيها المسلمون البحر ، فثبت يقيناً أن الغُزَاة إلى قبرس هم الأولون الذين بَشَّر بهم النبي صلى الله عليه وسلّم ، وكانت أم حرام منهم كما أخبر صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، . . . »[1] .

١ – معركة وادي بَرْبَاط

بعد أن استكمل طارق تجمعاته على الجبل ، وضع الخُطة أو درسها واستكملها – ربما مستفيداً من يُلْيان وأعوانه ، في هذه المرحلة أو قبلها – وتم ذلك بكتمان وإحكام . « فمضى لسبتة ، وجاز في مراكبه إلى جبل ، فأرسى فيه فسمي جبل طارق باسمه إلى الآن ، وذلك سنة اثنتين وتسعين من الهجرة . ووجد بعض الروم وقوفاً في موضع وَطِيء كان عَزَمَ النزول فيه إلى البر ، فمنعوه منه ، فعدل عنه ليلاً إلى موضع وعر ، فوطِأه بالمجاذف وبراذع الدواب ، ونزل منه في البر وهم لايعلمون »[2].

يذكر ابن حَيَّان أن طارقاً تجهز « في سبعة آلاف من المسلمين جُلّهم من البربر ، في أربع سفن ، وحطّ بجبل طارق المنسوب إليه يوم السبت في شعبان سنة اثنتين وتسعين ، ولم تزل المراكب تعود حتى تَوافى جميعُ أصحابه عنده بالجبل »[3] .

---

(١) نفح الطيب ، ١٦١/٣ .

(٢) تاريخ الأندلس ، ٤٦ (نص ابن الكردبوس) . كذلك : البيان المغرب ، ٩/٢ .

(٣) نفح الطيب ، ٢٣١/١ .

سار الجيش الإسلامي منحدراً إلى جنوب إسبانيا في الجزيرة الخضراء (Algeciras) . وهناك وقعت مناوشات في معركة أو أكثر مع قوات القوط ، انتصر فيها المسلمون . يذكر صاحب **تحفة الأنفس** أن قتالاً جرى عند أو قرب جبل طارق ، قبل معركة البرباط الرئيسية : « فاقتتلوا ثلاثة أيام وكان على الروم تُدْمير ، استخلفه لُذريق ملك الروم ، وكان قد كتب إلى لذريق ليعلمه بأن قوماً **لا يُدرى أمن أهل الأرض أم من أهل السماء قد وطِئوا إلى بلادنا وقد لقيتهم فلتنهض إليّ بنفسك** »[1] .

بينما كان لُذْرِيق منشغلاً بقمع بعض الثورات في الشمال ، جاءه الخبر الذي وقع عليه وقع الصاعقة ، وبدأ يتجهز للقاء الجيش الإسلامي . ولما علم طارق بأخبار هذا التجمع الكثيف كتب إلى موسى يستنجده . فأرسل إليه جيشاً قرابة خمسة آلاف محارب ، بقيادة طريف بن مالك[2] . حملتهم سفن عملها المسلمون ، لعل يُلْيان هنا قدم التسهيلات لعبورهم . وكملت عدة الجيش الإسلامي اثني عشر ألف محارب جلهم من المسلمين البربر[3] .

يخبرنا صاحب **أخبار مجموعة** أن طارقاً « كتب إلى موسى يستعدّه ويخبره أن قد فتح الله الجزيرة واستولوا عليها وعلى البُحَيْرة وأنه قد زحف إليه ملك الأندلس بما لا طاقة له به ، وكان موسى مُذْ وجّه طارقاً أخذ في عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة ، فحمل إليه خمسة آلاف ، فتوافى المسلمون بالأندلس عند طارق اثنا عشر ألفاً . »[4] بل نقل المَقّري أن عدد الجيش كان « اثني عشر ألفاً من البربر خلا اثني عشر رجلاً »[5] هم من المسلمين العرب .

أما ابن خلدون فيقول بأن طارقاً « أجاز البحر سنة اثنتين وتسعين من الهجرة بإذن أميره موسى بن نصير في نحو ثلاث مئة من العرب ، واحتشد معهم من البربر زهاء

---

(١) تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس (مخطوطة) ، علي بن عبد الرحمن بن هذيل ، ٧٠ .

(٢) انظر : العبر ، ٢٥٤/٤ (= نفح الطيب ، ٢٣٣/١) .

(٣) نفح الطيب ، ٢٣٩،٢٣١/١ .

(٤) أخبار مجموعة ، ٧ .

(٥) نفح الطيب ، ٢٣٩/١ .

عشرة آلاف ، فصيرهم عسكرَيْن : أحدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح ، فسمي جبل طارق به ، والآخر طريف بن مالك النُّخَعي ، ونزل بمكان مدينة طريف ، فسمي به ، وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصن »[1] .

جمع لُذْرِيق ما أمكنه جمعه من الجيش ، وقد اختلفت الروايات التاريخية في عدد جيشه ، فجعلها بعضهم مئة ألف[2] . وأقل تقدير هو أربعون ألفاً ، وهو ما يرويه ابن خلدون [3] . ويبدو أن الجيش القوطي كان يشعر بقوته وكان متأكداً من تغلبه ، إلى درجة أنهم أعدوا ما يحملون عليه أسرى المسلمين ، كما يذكر ابن الكردبوس : « فلما انتهى خبره إلى لُذْرِيق ، خرج إلى لقائه في مئة ألف فارس ومعه العَجَل تحمل الأموال والكِسا ، وهو على سرير تحمله ثلاث بغلات مقرونات ، وعليه قبة مكللة بالدر والياقوت ، وعلى جسمه حلة لؤلؤ قد نظمت بخيوط الإبريسم ، ومعه أعداد دواب لا تحمل غير الحبال لكتاف الأسرى ، إذ لم يَشُكَّ في أخذهم . »[4]

كان الجيش القوطي يفوق الجيش الإسلامي مرات عديدة في العَدد والعُدد ، وربما في التنظيم والتدريب ، وهو يحارب في بلد يعرفه وقريب من مصدر الإمداد . لكن الجيش الإسلامي كان متفوقاً بالروح المعنوية ، أو بشكل أدق بقوة العقيدة وأهدافها السامية . فكان هذا الجيش متماسكاً قوي البناء شديد الاندفاع ، مستعداً للاستشهاد ، يسترخص الحياة من أجل هذه العقيدة ، متعالياً على كل روابط الأرض ودوافع الدنيا ومنافع الحياة[5] . على حين كان الجيش القوطي يفتقد هذه المعاني ، فيثقله واقعه ، وتفت فيه عوامل ضعف أسيرة تجاه هذه العقيدة المنيرة .

هناك نقطة لا بـــدّ من الإشارة إليها ، وهي : أن أحوال إسبانيـــا كانت

---

(١) العبر ، ابن خلدون ، ٤/٢٥٤(=نفح ، ١/٢٣٣).

(٢) نفح ، ١/٢٣١ ، ٢٥٧ ؛ دولة الاسلام ، ١/٤٢ ؛ فجر الأندلس ، ٧٢ ؛ تاريخ المسلمين ، ٧٥ . ويقدره ابن هذيل بتسعين ألفاً . تحفة الأنفس ، ٧٠ .

(٣) العبر ، ٤/٢٥٤ (= نفح الطيب ، ١/٢٣٣) .

(٤) تاريخ الأندلس ، ٤٧ .

(٥) انظر : أدناه ، ١٢٠ وبعدها .

سيئة وصفوف من الجيش المحارب غير متماسكة، وذلك قد يساعد في التعجيل بالفتح . غير أن بعض الدارسين يؤكدون كثيراً على هذه الناحية ، ويريدون بذلك الانتقاص من قوة الجيش الإسلامي ومن أهمية ومتانة بنائه وقوة منطلقه — وهي أمور توفرها عقيدة التوحيد — وليهمسوا أنه بإمكان أي جيش آخر — غير الجيش الإسلامي — القيام بما قام به من إنجازات .

لكن لولا العقيدة وسمو الهدف فيها لكانت الغلبة للجيش القوطي الذي يفوق الجيش الإسلامي في الجانب المادي ، لاسيما وهو في بلد عرفه . وأن هذا الجيش القوطي — كما تؤكده النصوص التالية — قاتل قتالاً شديداً ؛ رغم ما يشار أحياناً إلى ما كان فيه من خيانة أو تلكؤ .

يذكر الرازي ، نقلاً عن **نفح الطيب** للمَقَّري بأنه « كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بَقِيَتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خَلَوْن من شوال بعد تتمة ثمانية أيام ، ثم هزم الله المشركين »[1] .

كانت المعركة — خلال أيامها الثمانية — تزداد عنفاً في المجالدة ، وقدّم المسلمون كثرة من الشهداء ، وكانت قلة منهم يركبون الخيل ، بينما توفر لجيش القوط منها العدد الكبير . « فخرج إليهم طارق بجميع أصحابه رجّالة ، ليس فيهم راكب إلا القليل ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى ظنوا أنه الفناء . »[2] ويقول ابن الشَّبَّاط : « فاقتتل المسلمون والمشركون ثمانية أيام قتالاً شديداً ، وصبر الفريقان جميعاً صبراً عظيماً ، ثم أنزل الله عز وجل نصره على المسلمين »[3] .

واستمرار المعركة ثمانية أيام ، في قتال شديد ، حسب الوصف السابق وغيره ، دليل قوي على قوة الجيش القوطي وشدة قتاله :

* معركة **بَلاط الشهداء** (١١٤ هـ) ، التي خسرها المسلمون ، استمرت عشرة

---

(١) نفح الطيب ، ٢٥٩/١ . كذلك : تاريخ الأندلس ، ١٣٥ .

(٢) البيان المغرب ، ابن عذاري ، ٧/٢ .

(٣) تاريخ الأندلس ، ١٣٥ .

أيام[1] ، حيث كان جيش العدو (الفِرَنْج) فيها قوياً .

* جرت في الأندلس معارك أخرى حاسمة ، كان خصم المسلمين فيها قوياً كثيراً، أضعاف عددهم ولم تزد مدتها على يوم واحد . وقد نصر الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيها المسلمين على عدوهم نصراًمؤزراً ، مثل : معركة الزَّلاَّقَة[2] (٤٧٩ هـ) ومعركة الأَرَك[3] (٥٩١ هـ) .

كان المسلمون يقاتلون العدو في أرض جربها ، في هضاب ومفاوز شاقة[4] . لكن تفوّق المسلمين بالعقيدة اكتسح أمامه كل هذه المصاعب. وماكان انتصارهم سهلاً ، فقد قدّموا حوالي ثلاثة آلاف شهيد [5] . ثم إن الحملة التي قادها موسى فيما بعد ـ وعدتها ثمانية عشر ألف محارب ـ تدل على إدراك موسى لقدرة القوط العسكرية وضرورة توفرها للمسلمين لأعمال الفتح ، وعلى إدراك طارق لهذا الأمر وطلبه لذلك النجدة من موسى . فالحملة دليل على أن الأوضاع العسكرية في شبه الجزيرة الإيبيرية لم تكن سيئة إلى ذلك الحد الذي يتعمد البعض تصويره . فهذا الفتح ـ مثل غيره ـ يعود إلى قوة المسلمين بتمكن العقيدة وتغلغل معانيها في نفوسهم . إن تفوق المسلمين مستمد دوماً من إيمانهم بعقيدتهم وليس من سوء أحوال الآخرين . كما أن الاسلام ينبع تفوقه وسبقه من ذاتيته القوية وعقيدته النقية وتشريعه المكين ، لأنه من وحي الله تعالى . وفي كل هذا تمييز له عن غيره ، وسموه عما عداه ، وتفوقه على كل ما تواضع عليه الإنسان ـ حتى مع الإخلاص ـ في كل زمان ومكان .

الذي تم في شبه الجزيرة الإيبيرية ـ وفي غيرها من قبل ومن بعد ـ على يد المسلمين بفعل الإسلام وهديه يمثل المعجزة ويصور التحدي ، سواء في عمليات الفتح ، أو في انتشار الإسلام في تلك البلاد ، الذي هو الفتح الحقيقي ، بل به كان الفتح المعهود .

---

(١) راجع الفصل الثاني من هذا الكتاب .

(٢) راجع الفصل الخامس من هذا الكتاب .

(٣) راجع الفصل السابع من هذا الكتاب .

(٤) دولة الاسلام في الأندلس ، ٤٢/١ .

(٥) راجع : تاريخ الأندلس ، ١٣٥ (نص ابن الشباط) ؛ نفح ، ٢٥٩/١ ؛ فجر الأندلس ، ٧٥ ؛ تاريخ المسلمين ، ٨٠ .

هكذا غدت الأندلس دار جهاد ، كما هي محضن حضارة علياء رائقة خضراء يانعة أكلها دائم وظلها ممدود .

تَمّ اللقاء بين الجيش الإسلامي والقوطي يوم الأحد ٢٨ رمضان سنة ٩٢ هـ (أواسط تموز ٧١١ م) ، في كورة شَذُونَة (Sidonia) جنوب غربي إسبانيا[١] في سهل الفرنتيرة (Frontera) جنوب بحيرة الخندق (Janda) ونهر بَرْبَاط (Barbate) المتصلة به . قد تعرف أحياناً معركة ونهر برباط في الرواية الإسلامية معركة ووادي بكه أو لَكُهْ (Guadalete)[٢] ، لعله مأخوذ من Lago وهو البُحَيرة ، أي بحيرة الخندق[٣] . فأصبحت البحيرة علماً على المكان[٤] . أما وادي لَكُهْ (Guadalete) ، المعروف في الجغرافية الإسبانية الحديثة ، فيقع إلى الشمال منه ويصب في خليج مدينة قادِس (Cadiz) ، ويصب نهر برباط في المحيط الأطلسي عند طَرَف الأغَرّ (Trafalgar) .

غير بعيد أن يكون اسم وادي لَكُهْ – في الرواية الإسلامية – لم يقصد به وادي بَرْبَاط – ولوّ أحياناً – بل قصد به أصلاً وادي لَكُهْ (Guadalete) ، كما هو معروف اليوم ، الذي يصب في المحيط عند مدينة قادِس ، ويقترب أحد فروعه من ميدان المعركة الواسع أو كان شاملاً له . جَعْل وادي لَكُهْ هذا ضمن كورة شَذُونَة (Sidonia)[٥] ، التي كانت مدينتها شذونة (Medina Sidonia) ، ميداناً لمعركة البَرْبَاط ، « وبها كانت الهزيمة على رُذْرِيق »[٦] ، يزيل اللبس . على ذلك فلا وجود

---

(١) تاريخ الأندلس ، ١٣٥ – ١٣٦ (نص ابن الشباط) ؛ نفح الطيب ، ٢٥٨/١ .

(٢) الروض ، ١٦٩ ، ١٩٣ ؛ نفح ، ٢٤٩/١ ، ٢٥٨ ؛ دولةالاسلام في الأندلس ، ٤٢/١ – ٤٤ .
قارن : فجر الأندلس ، ٧١ ؛ تاريخ المسلمين ، ٧٦ .

(٣) فرحة الأنفس ، ابن غالب ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ٢٩٤/١/١ ؛ الحلة السيراء ، ابن الأبار ، ٣٣٣/٢ ؛ أخبار مجموعة ، ٧ ؛
Histoire de l'Espagne Musulmane, Levi-Provençal, I, 21. (Sp. tr. , IV, 14).

(٤) نفح ، ٢٥٧/١ ، ٢٥٨ . قارن : نصوص عن الأندلس ، العذري ، ١١٨ ، ١١٩ .

(٥) تاريخ الأندلس ، ١٣٤ (نص ابن الشباط) .

(٦) تاريخ الأندلس ، ١٣٥ .

لاشتباه أو خلط أو تغليب في تسمية الرواية الإسلامية لوادي لَكُهْ . عندها تنصرف التسميات المتعلقة بهذه المعركة إلى مسمياتها الأصلية .

كان اللقاء بين المسلمين والقوط حاسماً ، وامتن الله على المسلمين بالنصر الكبير . فشتت الجيش القوطي وقُتل لُذْريق أو غَرِق « فالتقيا يوم الأحد ، وصَدَق المسلمون القتال ، وحملوا حملة رجل واحد على المشركين ، فخذلهم الله وزلزل أقدامهم ، وتبعهم المسلمون بالقتل والأسر ، ولم يُعرف لملكهم لُذْريق خبر ، ولا بانَ له أثر . فقيل إنه ترجل وأراد أن يستتر في شاطىء الوادي ، فصادف غديراً فغرق فيه فمات »[1]. في حين يذكر البعض أن لُذْريق فرّ من الميدان والتقى بالمسلمين في معركة أخرى ، شمالي إسبانيا ، قُتل فيها[2] . لكن هذا الرأي ضعيف لا تدعمه الأدلة .

تعقب طارق فلول الجيش القوطي التي لاذت بالفرار . وسار الجيش الإسلامي فاتحاً لبقية مناطق الجزيرة الإيبيرية .

٢ ــ حول المعركة

لا بد من الإشارة هنا إلى عدة أمور :

أ ــ الخطبة

هل إن الخطبة المنسوبة إلى طارق أمر مُسَلَّم به ؟ الأفضل إيراد نصها أولاً ، كما جاءت في نفح الطيب :

لما بلغ طارقاً اقتراب لذريق بجيشه القوطي الكثيف « قام في أصحابه ، فحمد الله سبحانه وتعالى وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حثّ المسلمين على الجهاد ورَغّبَهم في الشهادة ، ثم قال : أيها الناس ، أين المفرُّ ؟ البحرُ من ورائكم والعدوُّ أمامكم وليس لكم والله إلا الصدقُ والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضْيَعُ من الأيتام في مأدُبَة اللئام ، وقد استقبلكم عدوُّكم بجيشه وأسلحته ، وأقواتُه موفورة ، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلاّ سيوفكم ، ولا أقواتَ لكم إلاّ ما تستخلصونه من أيدي عدوِّكم ، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم ، وتعوّضت

(١) تاريخ الأندلس ، ٤٨ . كذلك ١٣٥ ؛ البيان المغرب ، ٧/٢ ، ٨ ، ٩ ؛ نفح الطيب ، ٢٤٢/١ ، ٢٤٩ ، ٢٥٨ — ٢٥٩ . (٢) راجع : تاريخ الأندلس ، ٢٩ وبعدها ؛ أدناه ، ٨٤ — ٨٥ .

القلوب من رُعْبها منكم الجرأةَ عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خُذلانَ هذه العاقبة من أمركم بمُناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينَتُه الحصينة ، وإنّ انتهاز الفُرْصَة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإنّي لم أُحَذِّرْكم أمراً أنا عنه بنَجْوَة ، ولا حملتكم على خُطة أرخَص متاعٍ فيها النفوسُ إلاّ وأنا أبدأ بنفسي .

« واعلموا أنّكم إن صبَرْتم على الأشقِّ قليلاً استمتعتم بالأرْفَه الألَذِّ طويلاً ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حَظُّكم فيه بأوفى من حظي ، وقد بلغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات بالدرّ والمَرْجان والحُلَل المنسوجة بالعِقْيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أميرُ المؤمنين من الأبطال عُرْباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقةً منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمُجالدة الأبطال والفُرسان ، ليكون حظّه منكم ثوابَ الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مَغْنَمُها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى وليٌّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين .

« واعلموا أنّي أوّلُ مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأنّي عند مُلْتَقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاغية القوم لُذْريق فقاتِلُه إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معي ، فإن هلكتُ بعده فقد كفيتكم أمره ، ولم يُعْوزكم بطلٌ عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكتُ قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا إليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يُخْذَلون . »[1]

بالإمكان إيراد الملاحظات التالية حول الخطبة :

١ — ذكر المَقَّري وغيره أن هذه الخطبة جزءٌ مما ألقاه طارق على جيشه بهذه المناسبة حين « قام في أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حثَّ المسلمين على الجهاد ورغبهم ثم قال ... »[2] فيورد الخطبة الآنفة التي ينقلها عن ابن خلكان .

يروي الخطبة بنصها المذكور آنفاً ابنُ خِلّكان (٦٠٨ — ٦٨١ هـ) **في وفيات**

---

(١) نفح ، ٢٤٠/١ — ٢٤١ (نقلا عن وفيات الأعيان ، ٣٢١/٥ — ٣٢٢) . عربان : عربون .
(٢) نفح الطيب ، ٢٤٠/١ .

الأعيان[1] ، حين يترجم لموسى بن نُصَيْر ، وابن خلِّكان مشرقي (عراقي من أربيل). والمقري ينقل عنه حتى مقدمة الخطبة .

وأقدم نص أندلسي توجد فيه إشارة إلى خطبة طارق مع سطور قليلة منها — بعد التقديم على أنها كل الخطبة — لعبد الملك بن حبيب (٢٣٨ هـ = ٨٥٢ م) ، وهو :

« فلما بلغ طارقاً دنوُّه منه قام في أصحابه فحمد اللهَ وأثنى عليه ، ثم حضَّ الناس على الجهاد ، ورغَّبهم في الشهادة ، ثم قال : أيها الناس ، أين المفر ؟ والبحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ؟ فليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، ألا وإني صادم إلى طاغيتهم بنفسي ، لا أقصر حتى أخالطه أو أقتل دونه . »[2]

فهل يمكن أن تكون الخطبة مقحمة في نص عبد الملك بن حبيب منقولة عن ابن خلكان أو غيره ، من إضافة الناسخ الذي اختصر هذا النص ، وكانت المصادر المشرقية معتمدة . وإلا أفليس مستغرباً ألاّ ترد عند غيره من كتاب الأندلس الذين وصلتنا كتابتهم ؟

أورد علي بن عبد الرحمن بن هُذَيْل الأندلسي (القرن الثامن الهجري) خطبة طارق — أولها ، مع اختلاف — في كتابه : **تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس** فيقول : « فاقتتلوا ثلاثة أيام أشَدَّ قتال ، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة ، فقام يعظهم ويحضهم على الصبر ، ويرغبهم في الشهادة ، وبسط في آمالهم . ثم قال : أين المفر ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، فليس إلا الصبر منكم والنصر من ربكم . وأنا فاعل شيئاً فافعلوا كفعلي ، واللهِ لأقْصُدَنَّ طاغيتَهم فإما أن أَقْتُلَهُ وإما أن أُقْتَلَ دونه »[3] . وهذا النص شبيه بنص ابن حبيب السابق .

إن تعرضَ القليل جداً من مؤرخينا الأندلسيين المتأخرين — دون المتقدمين — للخطبة قد يشير إلى عدم شيوعها وعدم معرفة المؤرخين لها . وهو أمر يقلل أو يمحو الثقة بواقعيتها .

---

(١) وفيات الأعيان ، ٥/٣٢١ – ٣٣٢ .

(٢) مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، ٥/٢٢٢ (القسم الفرنجي) .

(٣) تحفة الأنفس ، ٧٠ – ٧١ .

أورد ابنُ قُتَيْبة (٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م) ، وهو مشرقي ، في **الإمامة والسياسة**[١] – المنسوب إليه – خطبة لطارق أقصر من السابقة وقليلة الشبه بها . في حين لم تذكر المصادر الأندلسية[٢] ، لاسيما المبكرة ، هذه الخطبة .

٢ – لم تكن الخطبة وما فيها من السجع من أسلوب ذلك العصر (القرن الأول الهجري) ، وغير متوقع لقائد جيش أن يعتني بهذا النوع من الصياغة .

٣ – إن المعاني التي تناولتها الخطبة لا تتلاءم والروح الإسلامي العالية ، التي توفرت لدى الفاتحين ، ومقدار حبهم للاسلام وإعلاء كلمته ، ورغبتهم في الاستشهاد من أجل ذلك . فهي لاتشيد بدوافع الفتح وأهدافه – وهي معروفة مألوفة – التي أنبتتها ورعتها العقيدة الإسلامية ، عاملة على ابتغاء مرضاة الله تعالى وحده ، لتعلو راية الإسلام وتسود شريعته ويكون الدين كله لله ﴿ * وقاتِلُوهم حتى لا تكونَ فِتنةٌ ويكونَ الدينُ كُلُّه لله فإنْ انتهوا فإنَّ اللهَ بما يعملون بصير * ﴾[٣]

٤ – يلاحظ في الخطبة عديد من الأخطاء ويلاحظ فيها التناقض في المعاني ، وبعض ما فيها مخالف لحقائق تأريخية كاستعمال « اليونان » التي ربما جاء ذكرها للسجع . فالمؤرخون الأندلسيون اعتادوا أن يستعملوا في هذه المناسبة القوط أو الروم[٤] ، وكذلك : العلوج والعجم أو المشركين والكفار[٥] ، وليس لدينا نص يحتوي مثل هذا الاستعمال . غير أن ابن خِلِّكان – وهو مشرقي – أورد هذا الاستعمال في غير الخطبة[٦] . ثم « وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين ... » فالذي انتخبهم موسى بن نصير وليس الوليد .

٥ – كان المتوقع أن تحتوي الخطبة على آيات من القرآن الكريم وأحاديث الرسول

(١) القسم الأندلسي منه نشر مع : تاريخ افتتاح الأندلس ، ابن القوطية ، ١٣٨ – ١٣٩ .
(٢) دولة الاسلام في الأندلس ، ٤٧/١ – ٤٨ .
(٣) الآية ٣٩ من سورة الأنفال .
(٤) انظر : نفح ، ٢٦٤/١ ، ٢٦٩ ؛ الإحاطة ، ١٠٠/١ .
(٥) انظر : نفح ، ٢٥٩/١ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ؛ البيان ، ١٤/٢ .
(٦) وفيات الأعيان ، ٢٢٣/٥ – ٢٢٤ ، ٣٢٧ – ٣٢٨ ؛ نفح ، ٢٤٤/١ .

الأمين صلى الله عليه وسلم ، أو وصايا وأحداث ومعاني إسلامية أخرى تناسب المقام ، كالمعهود[1] .

٦ — ثم إن طارقاً وأكثر الجيش كانوا من البربر ، مما يجعل من المناسب أن يخاطبهم بلغتهم ، إذ من المتوقع ألا تكون لغتهم العربية قد وصلت إلى مستوىً عالٍ[2].

٧ — وضوح تنافي الجمل الأخيرة من الخطبة (« ولم يعوزكم بطل عاقل ... » ، « واكتفوا إليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ... ») وأسلوب الفتح وحقيقة أهدافه ، فضلاً عن مجانبتها لخططه العسكرية ودقتها التنظيمية ومتطلباتها الفنية .

هذا وكل ماتقدم لايمنع أن يكون طارق جيد الكلام ، وأنه خَطَبَ جُنْدَه يحثهم على الجهاد[3] .

يروي المَقَّري أبياتاً قالها طارق بهذه المناسبة :

« وأنشد في **المُسْهِب** وابنُ اليسع في **المُعْرِب** لطارق من قصيدة قالها في الفتح :

ركبنا سَفيناً بالمجاز مُقَيَّرا — عسى أن يكون اللهُ مِنّا قد اشترى

نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنّةٍ — إذا مااشتَهيْنا الشيء منها تيَسَّرا

ولسنا نُبالي كيف سالت نفوسُنا — إذا نحن أدركنا الذي كان أجْدرا

قال ابن سعيد : وهذه الأبيات ممايُكتب لمراعاة قائلها ومكانته ، لالعلوّطبقتها»[4].

وقال ابن بشكوال : « إن طارقاً كان حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه »[5] .

وجهة هذه الأبيات تغاير وجهة الخطبة ، فهي منسجمة والمعاني الإسلامية ومُسْتَمدّة من قوله تعالى: ﴿ إنَّ اللهَ اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأن لهم الجنةَ ، يقاتلونَ في سبيل الله ، فيَقتُلونَ ويُقتَلُون ، وعْداً عليه حقاً في التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ ومن أوفى بعهده مِن الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾[6]

---

(١) انظر مثلا : تحفة الأنفس ، ٢٩ — ٣٣ .

(٢) انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ٧٨ .

(٣) قارن : تاريخ الأندلس ، ٤٦ .

(٤) نفح ، ١/٢٦٥ .

(٥) نفح ، ١/٢٣١ .

(٦) الآية ١١١ من سورة التوبة .

ب ـ حرق السفن

هل حقاً أن طارقاً أحرق السفن – التي عبر بها المضيق – ، كي يقطع على الجيش الإسلامي كل أمل في العودة ، فيستميت في الدفاع ؟ ذكر بعض المؤرخين ذلك[1] . لكن لماذا يحرق طارق السفن ، سواء امتلكها المسلمون أم يُلْيان ؟ كان طارق وجيشه يقاتلون من أجل عقيدة ، وإنهم من ساعة عبورهم جاؤوا مجاهدين مستعدين للشهادة ، وطارق متأكد من هذه المعاني .

فإذا كانت السفن ليُلْيان فليس من حق طارق التصرف بها . وإن كانت للمسلمين فليس حرقها عملاً عسكرياً سليماً أو مناسباً ، مادام يحتاج إليها وإلى النجدة والاتصال الدائم بالمغرب لأي غرض . وقد رأينا كيف احتاج إلى النجدة قبل خوض هذه المعركة ، واحتاجها فيما بعد .

إن دوافع المعاني الإسلامية والهدف الذي جاء الجيش من أجله لأقوى في الاندفاع من أي سبب آخر . وما كان المسلمون يتخلفون عن خوض معركة أو تقديم أنفسهم لإعلاء كلمة الله ، بل لذلك أتوا . والمصادر الأندلسية ـ لاسيما الأولى ـ لاتشير إلى قصة حرق السفن التي لا تخلو من علاقة وارتباط بقصة الخطبة .

ج ـ أحوال إسبانيا

يُطيل بعضُ المؤرخين المحدَثين الكلامَ عن أحوال إسبانيا السيئة قبل الفتح الإسلامي لها . حقيقة إن أحوال إسبانيا كانت سيئة وأن ذلك أفاد عمليات الفتح . لكن هل تختفي الدوافع المعينة التي تكمن وراء هذا التأكيد على هذه القضية[2] ؟ .

* * *

كانت معركة وادي بَرْبَاط فاصلة ، غنم فيها المسلمون غنائم كثيرة ، من أولها الخيول ، حيث خاض أكثر الجيش الاسلامي هذه المعركة مشاة ، وبعد المعركة

---

(١) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، الادريس ، ١٧٧ (= الحلل السندسية ، ٨٢/١) ؛ تاريخ الأندلس ، ٤٦ ؛ الروض ، ٧٥ ؛ نفح ، ٢٥٨/١ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ٤٨/١ – ٤٩ .

(٢) انظر : أندلسيات ، ٩٢/١ – ٩٣ .

لم يبق منهم أحد دون فرس ، فأصبح الجيش الاسلامي كله خيّالة[1] .

ولم يلاق المسلمون بعد ذلك مثل هذا التجمع الكثيف ، وإن مرّت بهم معارك مهمة وقوية ، منها واحدة قرب مدينة إسْتِجّة (Ecija) . ولا يعني هذا أنهم لم يواجهوا صعوبة في فتح بقية الجزيرة الايبيرية .

وحين ترامت أنباءُ النصر المبين في هذه المعركة إلى الشمال الإفريقي وفد بعض الناس ملتحقين بجيش طارق مجاهدين[2] . وفرّق طارق بعض جنده في بُعوث جانبية ، وتَوجّه هو إلى طُليطلة ، عاصمة المملكة القوطية ، ولم يتوقف بعد هذه المعركة الكبرى كثيراً كيلا يتيح للجيش المنهزم فرصة التجمع . لكن الجيش القوطي تجمّع عند مدينة إسْتِجّة لحرب الجيش الاسلامي . فزحف طارق إليه ، فاتحاً في طريقه بعض المدن .

مرّ طارق بمدينة شذونة (Medina Sidonia) ، وفتَحَها بعد حصار ، ومضى إلى مَوْرُور (Morón) وافتتحها . ثم عطف على مدينة قَرْمُونَة (Carmona)[3] ثم تقدم إلى إشْبيلية (Sevilla, Seville) ، فتمّ له فتحُها صُلْحاً . اتجه بعدها إلى مدينة إسْتِجّة ، حيث دارت معركة حامية هُزم فيها الجيش القوطي وافتتحت المدينة . أما « إشبيلية فصالحه أهلُها على الجزية ، ثم نازل أهلَ إسْتِجّة وهم في قوة ومعهم فَلٌّ عسكر لُذريق ، فقاتلوا قتالاً شديداً حتى كثُر القتل والجراح بالمسلمين ، ثم إن الله تعالى أظهر المسلمين عليهم ، فانكسروا ، ولم يَلْقَ المسلمون فيما بعد ذلك حرباً مثلها ، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بالعِلْج صاحبها ، وكان مغترّاً سيء التدبير ، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحدَه ، فصادف طارقاً هناك قد أتى لمثل ذلك ، وطارق لا يعرفه ، فوثب عليه طارق في الماء ، فأخذه وجاء به إلى العسكر ، فلما كاشَفَه اعترف له بأنه أمير المدينة ، فصالحه طارق على ما أحَبَّ ، وضرب عليه الجزية ، وخلّى سبيله ، فوفّى بما عاهد عليه ، وقذف اللهُ الرعبَ في قلوب الكفرة لمّا رأوا طارقاً يُوغِل في البلاد ، وكانوا يحسبُونه راغباً في المغنم عاملاً على القُفُول

---

(١) راجع : نفح ، ١/٢٦١ ؛ أخبار مجموعة ، ١٠ ؛ فجر الأندلس ، ٧٢ ، ٧٥ .

(٢) انظر : تاريخ الأندلس ، ٤٨ (نص ابن الكردبوس) .

(٣) تاريخ الأندلس ، ١٣٥ – ١٣٨ (نص ابن شباط) .

فسُقِط في أيديهم ، وتطايروا عن السهول إلى المعاقل ، وصعد ذَوو القوة منهم إلى دار مملكتهم طُلَيْطُلَة »[1] .

وجّه طارق من إسْتِجَّة سرايا من جنده إلى عدة جهات . فبعث جيشاً بقيادة مغيث الرومي لفتح مدينة قُرْطُبة (Cordoba) في سبع مئة فارس[2] . واستطاع مغيث فتح المدينة دون مشقة كبيرة بفضل شجاعة وصدق المحاربين المسلمين[3] . وأرسل جيشاً آخر إلى مدينة مَالَقَة (Malaga) وآخر إلى كُورة إلْبِيرة (Elvira) ، حيث افتتح مدينتها غَرْناطة (Granada) وكذلك إلى كُورة تُدْمير[4] (Tudmir) — وكانت قاعدتها أُورْيُولة (Orihuela) — التي حلّت مدينة مُرْسِيَة (Murcia) محلها قاعدة لكُورَة مُرْسِيَة بدلاً من تُدْمِير[5] .

وقد حدثت معارك عدة في هذه المناطق،لكن المسلمين استطاعوا فتح عدة مدن فيها . يذكر الرازي ذلك حيث يقول : « ففرّق طارق جيوشَه من إسْتِجَّة ، فبعث مغيثاً الرومي مولى الوليد بن عبد الملك إلى قُرْطُبَة — وكانت من أعظم مدائنهم — في سبعمائة فارس ، لأن المسلمين ركبوا جميعاً خيل العجم ، ولم يبق فيهم راجل ، وفَضَلت عنهم الخيلُ ، وبعث جيشاً آخر إلى مَالَقَه ، وآخر إلى غَرْناطة مدينة إلْبِيرَة ، وسار هو في معظم الناس إلى كورة جَيَّان يريد طُلَيْطلة »[6] .

ثم ينقل المَقَّري عن الرازي ما يتعلق بفتح تُدْمير فيقول : « وأمّا مَن وُجِّه إلى مَالَقَة ففتحوها ، ولجأ عُلُوجُها إلى جبال هنالك ممتنعة ، ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجِّه إلى إلْبيرة ، فحاصروا مدينتها غَرْناطة ، فافتتحوها عَنْوة »[7] . « ومضى الجيشُ إلى تُدْمِير ، وتُدْمِير : اسم العِلْج صاحبها ، سميت به ، واسم

---

(١) نفح ، ٢٦٠/١ . كذلك : تاريخ الأندلس ، ١٤١ (نص ابن الشباط) ؛ البيان المغرب ، ٨/٢ .

(٢) نفح الطيب ، ٢٦٠/١ — ٢٦١ ، ٢٦٣ — ٢٦٤ ، ١٢/٣ .

(٣) انظر : نفح الطيب ، ٢٦١/١ .

(٤) البيان ، ٩/٢ — ١١ ؛ الإحاطة ، ١٠١/١ ؛ نفح ، ٢٥٩/١ — ٢٦٥ .

(٥) راجع : الروض ، ٣٤ ، ٦٢ ، ١٨١ ؛ نفح الطيب ، ١٦٤/١ .

(٦) نفح ، ٢٦٠/١ — ٢٦١ . كذلك : الاحاطة في أخبار غرناطة ، ابن الخطيب ، ١٠١/١ .

(٧) نفح الطيب ، ٢٦٣/١ . كذلك : الاحاطة ، ١٠١/١ .

قصبتها أُرْيُولَة ، ولها شأن في المَنَعَة ، وكان ملكها عِلْجاً داهية »[1] . وهذا يعني أن سَرِيَّة مَالَقَة التحقت بعد فتحها بسريّة إلْبيرة ، وافتتحتا تُدْمير سوية . فتكون - على هذا - عدد السرايا التي أرسلها طارق ثلاثاً ، بدلاً من أربع .

سار طارق إلى عاصمة القُوط طُلَيْطلة (Toledo) ، ماراً بمدينة جيَّان (Jaén) وفتح طليطلة ، وعامَلَ أهلَها بكل إنصاف ، تاركاً لهم حرياتهم كاملة ، وتلك طبيعة الفتح الإسلامي التي لازمت جميع الفتوحات ، وذلك مما كان يحبب أهل البلاد المفتوحة في الإسلام فيعتنقونه . استمر طارق في الفتوح شمال طليطلة لتأمين وإخلاء المناطق القريبة منها وحولها من التجمعات ، وللتعرف عليها ، ولم تشغله الكنوز التي وجدها فيها ، فما جاء من أجلها ، وإن العقيدة التي يحملها تجعله أكبر منها . وهو أمر – رغم سموه المتفرد – مألوف معتاد في تاريخ الفتوحات الإسلامية .

سار طارق شمالاً إلى منطقة وادي الحِجَارة (Guadalajara) حتى وصل مدينة المائدة[2] أو بعدها . بينما يقول البعض أن طارقاً وصل إلى مناطق في شمال

---

(١) نفح ، ١/٢٦٤ .

(٢) انظر : الروض ، ١٧٩ . وادي (نهر) الحجارة ، يسمى اليوم : نهر هنارس (Rio Henares)، أحد فروع نهر تاجه (Tajo) . قامت على هذا الوادي مدينة حملت اسمه (وادي الحجارة)، ٥٧ كم شمال شرق مدريد ، تسمى أيضاً مدينة الفرج ، وأطلق اسم الوادي على المنطقة التي يجوبها النهر . راجع : الروض المعطار، ١٩٣ ؛ المغرب في حُلى المغرب ، ٢/٢٦ ؛ الحلل السندسية ، شكيب أرسلان ، ٢/٦٩ . يذكر ابن حزم الأندلسي (٤٥٦ هـ) في كتابه : جمهرة أنساب العرب (٤٩٩) ، حين الحديث عن بيوتات البربر في الأندلس ، منهم « بنو الفرج بوادي الحجارة » . ثم يقول « وبنو سالم ، الذين تنسب إليهم مدينة سالم ، وتنسب مدينة الفرج إلى ابنه الفرج بن سالم . ومنهم : أبو جعفر المعروف بالتميمي صاحبنا – رحمه الله – وهو تميم بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن الفرج ، الذي تنسب إليه مدينة الفرج ، ابن سالم ، الذي تنسب إليه مدينة سالم » . جمهرة ، ٥٠١ . كذلك : المقتبس ، ٢/٧٩ ؛ البيان ، ٢/١٧٦ . تقع مدينة المائدة على نفس النهر (Henares) إلى جنوب مدينة وادي الحجارة . لعل مدينة المائدة هي التي تعرف اليوم قلعة هنارس (Alcala de Henares) تقع على نهر هنارس ، وكانت تعرف بقلعة عبد السلام . تبعد عن مدريد ٣٤ كم شمالا . وهي التي فتحها طارق قبل عودته إلى طليطلة ثم كان لقاؤه بموسى بعدئذ . أعمال الاعلام ، ٢/٢٠٩ ؛ التكملة ، ١/٢٩٣ (رقم ٧٩٣) ؛ الحلل السندسية ، ٢/٥٠، ٦٩، ٧٤ ؛ مدريد العربية ، محمود علي مكي ، ٤١ ؛ رحلة الأندلس ، حسين مؤنس ، ٣٣٥–٣٣٦ ؛ تاريخ الأندلس ، ٨٢ (نص ابن الشباط) . انظر كذلك : الخريطة رقم (١) ، ص ٢٤ – ٢٥ .

إسبانيا ، ثم عاد إلى طُلَيْطُلة ، قبل حلول الشتاء على مايبدو[1] . يقول – في ذلك – ابن حَيَّان ، فيما ينقله المَقَّري في **نفح الطيب** : « ومضى خَلْفَ مَن فرّ من أهل طُلَيْطُلة . فسلك إلى وادي الحجارة ، ثم استقبل الجبل فقطعه من فجّ سمّي به بعد ، فبلغ مدينة المائدة خلف الجبل ، ... ، ثم مضى إلى المدينة التي تحصّنوا بها خلف الجبل ، فأصاب بها حُلِيّاً ومالاً ، ورجع ولم يتجاوزها إلى طُلَيْطلة سنة ثلاث وتسعين . وقيل : إنّه لم يرجع ، بل اقتحم أرض جِلِّيقِيَة واخترقها حتى انتهى إلى مدينة أسْتُرْقَة ، فدوّخ الجهة ، وانصرف إلى طُلَيْطُلة ، والله أعلم . »[2]

فيكون **خط سير حملة طارق** ، منذ جوازها إلى الأندلس (٥ رجب ٩٢ هـ) حتى لقائه بموسى (أواخر ٩٤ هـ) ، كالآتي :

سَبْتَة (عَبْر الزُّقاق) ، جبل طارق ، الجزيرة الخضراء ، وادي (نهر) بَرْباط (المعركة ، رمضان ـ شوال ٩٢ هـ) ، مدينة شَذُونَة ، مَوْرُور ، قَرْمُونَة ، إشْبِيلِيَة ، إسْتِجَّة [منها سارت السرايا إلى : (١) قُرْطُبَة و (٢) مَالِقَة و (٣) غَرْنَاطَة – مدينة كُورَة إلْبِيرَة – و (٤) كُورَة تُدْمِير وقصبتها أُورْيُولَه] ، جَيَّان ، طُلَيْطُلَة ، منطقة وادي الحجارة : مدينة المائدة [= قلعة عبد السلام = قلعة نهر هنارس وهو وادي (نهر) الحجارة] ، طُلَيْطُلَة .

يبدو أن عودة طارق إلى طُلَيْطُلَة كانت في أوائل ٩٣ هـ (أواخر ٧١١ م) أو خلالها[3] ، وأن كل عمليات الفتح – التي قام بها طارق ، قبل لقائه بموسى – وإنجازاته استغرقت أقل من سنة ، ربما بعدة شهور . وهذا معقولٌ إذا اعتمدنا ماذكره الحِجَاري في **المُسْهِب في أخبار المَغْرِب** من أن « فتح قرطبة في شوال سنة ٩٢ »[4] . قام بفتحها مغيث الرومي الذي وجهه طارق إليها من إسْتِجَّة ، وسار هو بكثرة الجيش إلى جَيَّان يريد طُلَيْطُلَة ، التي يمكن أن يكون فَتْحُها في شوال نفسه أو في ذي القعدة بعده وهو أرجح .

---

(١) انظر : فجر الأندلس ، ٧٩ .

(٢) نفح الطيب ، ١/٢٦٤ – ٢٦٥ . كذلك : الروض المعطار ، ١٧٩ .

(٣) الروض المعطار ، ١٧٩ .   (٤) نفح الطيب ، ٣/١٢ .

لم أتعرف على الشهر الذي كانت فيه عودة طارق لطُلَيْطُلَة من جهاده فيما وراءها . ربما في هذه الأثناء وصل أمر موسى بن نُصَيْر إلى طارق بالتوقف وانتظار قدومه إلى الأندلس أو إلى طُلَيْطُلة . أطاع طارق قائده وبقي في طُليطُلة منتظراً وصول موسى إليه . كان عبور موسى إلى الأندلس في رمضان سنة ٩٣ هـ .

إذا كان بالإمكان تقدير عودة طارق إلى طُلَيْطُلَة ـ بعد جولاته السريعة في الشمال ـ خلال النصف الأول من سنة ٩٣ هـ ، فكيف أنفق من الوقت ما يزيد على السنة حتى وصول موسى بن نُصَيْر إليه ؟ اللهم إلا إذا كانت عودة طارق إلى طُلَيْطُلَة في النصف الثاني أو أواخر سنة ٩٣ هـ ، أو أنه بقي في طُلَيْطُلَة طيلتها للتنظيم والحماية . ولعل ذلك كان بأمر من موسى نفسه .

٣ – عبور موسى إلى الأندلس

تولى أبو عبد الرحمن موسى بن نُصَيْر (١٩ – ٩٧ هـ)[١] عدة مهام ، منها ولاية الشمال الإفريقي . «كان من التابعين – رضي الله عنهم – وروى عن تميم الداري ، رضي الله عنه ، وكان عاملاً كريماً شجاعاً ورعاً تقياً لله تعالى »[٢] . « وكان من رجال العلم حزماً ورأياً وهمةً ونبلاً وشجاعةً وإقداماً . »[٣]

تولى الشمال الإفريقي سنة ست وثمانين للهجرة ، وأتمّ جهودَ مَن سبقه في خدمة الإسلام مِن وُلاته ، وشارك في فتح الأندلس بجهاده وقيادته . وحين وجّه طارقاً لفتح الأندلس كان يتلقى الأخبار ويراقب الأحداث ، منذ بدايتها ، ويُهيء المتطلبات لإنجاز هذا الفتح الكبير ، بهمة المؤمن وإخلاص التقي ، ويدعو الله أن ينزل نصره على المسلمين . يقول ابن الكردبوس : « وكان موسى بن نُصَيْر حين أنفذ طارقاً مُكِبّاً على الدعاء والبكاء والتضرع لله تعالى ، والابتهال إليه في أن ينصر جيش

(١) راجع ترجمته في : جذوة المقتبس ، الحميدي ، ٣٣٨ (رقم : ٧٩٣) ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ١٤٦/٢ (رقم : ١٤٥٦) ؛ بغية الملتمس ، الضبي ، ٤٥٧ (رقم ١٣٣٤) ؛ البيان المغرب ، ٣٩/١ – ٤١ ؛ نفح الطيب ، ٢٨٦/١ .

(٢) وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، ٣١٨/٥ – ٣١٩ .

(٣) العبر في خبر من غبر ، الذهبي ، ١١٦/١ .

المسلمين ، وما عُلم أنه هُزم له جيش قط . »[1]

كان طارق بن زياد على صلة بقائده موسى بن نُصَيْر ، يفتح الفتوحات باسمه وبتعليماته ، ويخبره عن كل شيء أولاً بأول منذ بداية الفتح ، ويستشيره فيما يحتاج إليه . وقد رأينا كيف طلب المدد قبل معركة وادي لَكُهْ . وكان موسى على علم تام بأحوال الفتوح . يقول ابن الكردبوس بأنه بعد المعركة « اتصل الخبر بموسى بكتاب طارق إليه ، فكتب به موسى إلى الوليد . »[2] وبعد سنة تقريباً – من عبور طارق ، وتفرق جيشه وتوزيعه على المناطق والمدن التي فتحت – خاف طارق أن يُغلب وأن يُستغل القوط قلة جيشه ، فأرسل إلى موسى يستنجده[3] . ذلك لأن طارقاً قد وزع جيشه الذي استُشهد نصفه أو أقل بقليل ، بعد المعارك العديدة خلال عمليات الفتح وتوسع مهامه ، وبهذه السرعة التي قد تدعه في خطر من ثغرات خلفية . فوجد موسى من المناسب أن يَلحق بالأندلس على رأس جيش يقوده بنفسه .

الظاهر أن طارقاً استنجد بموسى ، سواء كان ذلك بصيغة الطلب والحث على النجدة أو من قبل الإخبار وشرح الأحوال وبيان الحاجة إلى زيادة الإمداد من جند الفتح . ولعله بعد توسع طارق في الفتوحات وتشعب طرقها – وهو أمر كان موسى بسبب مراسلات طارق على علم به – صدر أمر موسى له بألا يسرع . إن وصول أوامر موسى لطارق بالتوقف كانت قبل فتح طُلَيْطُلَة أو بعده ، لأن طارقاً عاد بعد أن خاض منطقة وادي الحِجارة منتصراً .

غير واضح تماماً أين كان يُقيم موسى خلال عمليات فتح الأندلس حتى قبل عبوره إليها ، ولا من أين رحل بجيشه نحوها . لكن هنالك إشارات إلى أنه جاء إلى الأندلس من القيروان ، يقول ابن خلدون أن موسى : « استخلف على القيروان ولده عبد الله ... ونهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة في عسكر ضخم »[4] .

---

(١) تاريخ الأندلس ، ٤٧ . كذلك : ٤٦ .

(٢) تاريخ الأندلس ، ٤٨ . كذلك : العبر ، ابن خلدون ، ٢٥٤/٤ .

(٣) راجع : الامامة والسياسة (في تاريخ افتتاح الأندلس) ، ١٤٠ ؛ فجر الأندلس ، ٨٩ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ٩٢ .

(٤) العبر ، ابن خلدون ، ٢٥٤/٤ .

وذكر الرازي : « أن موسى خرج من إفريقية إلى الأندلس في رجب سنة ثلاث وتسعين ، واستخلف على إفريقية أسنّ ولده عبد الله بن موسى »[1] .

جهز موسى جيشاً قوامه ثمانية عشر ألفاً ، وعبر المضيق إلى إسبانيا في رمضان سنة ٩٣ هـ (حزيران ٧١٢ م)[2] . جاز الزقاق إلى إسبانيا ، من سبتة إلى جبل طارق أو قريباً منه أو من طنجة[3] إلى الجزيرة الخضراء بسفن كان قد أعَدّها . إلا أننا لا نعلم أين أعدها ، في تونس أو في أحد موانىء المغرب . وقد يُعِين هذا على تقرير أن المسلمين منذ أول عبورهم استعملوا سفناً لهم ، جُهزت في دور صناعتهم. لاسيما وأن فتح الأندلس لم يكن عملاً مرتجلاً ، بل هو — كالمعتاد — خُطة مدروسة مرسومة. ولا بدّ أن تكون تهيئة السفن في جملة الترتيبات التي اتخِذت ، وهي أمر مهم في مثل هذه الخُطة . ولدينا خبر عن سفن إسلامية استعملتها الآلاف الخمسة بقيادة طريف بن مالك في الحملة التي عبرت إلى الأندلس[4] لنجدة الجيش الإسلامي في المعركة الأولى مع لُذْريق .

أما عن موضع جواز موسى إلى الأندلس ، عَبْر المضيق ، فذكر عدد من المؤرخين أنه كان من سبتة إلى جبل طارق[5] أو قريباً منه . وهذا أمر معقول لأن المسافة بين ضفتي المضيق من هذه المنطقة أقصر مما هي بين طنجة والجزيرة الخضراء : موضع العبور الذي أشار إليه مؤرخون آخرون[6] . يقول ابن خلدون عن موسى بأنه « وافى من خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء ، فأجاز إلى الأندلس وتلقّاه طارق فانقاد واتبع »[7] . وحتى مع اعتبار هذا النص ، فإن النزول في الجزيرة الخضراء

---

(١) نفح الطيب ، ٢٧٧/١ .

(٢) تاريخ الأندلس ، ١٤٥ (نص ابن الشباط) ؛ البيان المغرب ، ١٢/٢ ؛ نفح ، ٢٦٩/١ ؛ *Histoire de l'Espagne Musulmane*, Levi-Provençal, I, 24 (Sp. tr., *Historia de Espana, Espana Musulmana*, IV, 15).

(٣) انظر : نفح الطيب ، ٢٧١/١ .

(٤) أخبار مجموعة ، ٧ ؛ نفح ، ٢٣٢/١ ، ٢٥٧ ؛ أعلاه ، ٥٢ ، ٦٥ .

(٥) الروض المعطار ، الحميري ، ٧٥ .

(٦) تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ١٤٩/٢ ؛ (نفح الطيب ، ٢٧١/١) .

(٧) العبر ، ٢٥٤/٤ .

يناسبه الإبحار من سبتة أيضاً ، إلا إذا نزل جزيرة طريف ، فيكون الإبحار من طنجة أنسب . وقد مرّ بنا أن طريف بن مالك نفسه تحرك من سبتة إلى جزيرة طريف .

يذكر ابن خلدون نفسه في **عِبَرِه** – بعد ذلك مباشرة – ما يؤيد هذه الوجهة في فهم الأحداث . لكن عبارة ابن خلدون هذه موجودة في النص كما نقله المرحوم شكيب أرسلان في إضافاته لترجمته **تاريخ غزوات العرب** وفي **الحلل السندسية في الآثار والأخبار الأندلسية** من تأليفه ، وليست هي في المطبوع من **العِبَر**[1] ولا فيما نقله عنه المَقَّري[2] . ولعل أرسلان نقله عن نسخة مخطوطة أتم مما لدينا . يقول ابن خلدون : « ويقال إن موسى لما سار إلى الأندلس عبر البحر من ناحية الجبل المنسوب إليه ، المعروف اليوم بجبل موسى ، وتنكّب النزول على جبل طارق »[3] . ويقع جبل موسى ، الذي حمل اسمه لعبوره من جانبه ، قرب سبتة عند قرية بَلْيونش (Baliunech) أو بَنْيونش[4] . إذ يذكر ابن سعيد الأندلسي حين الحديث عن جواز موسى الى الأندلس : « ودخل الأندلس من جبل موسى المنسوب إليه المجاور لسبتة »[5] . ويعيّن الإدريسي موقع هذا الجبل في غرب سبتة حين الحديث عنها في **نزهة المشتاق** « ويتصل بها من جهة المغرب ، وعلى ميلين منها ، جبل موسى وهذا الجبل منسوب لموسى بن نُصَيْر ، وهو الذي كان على يديه افتتاح الأندلس في صدر الإسلام ، وتجاوره جنات وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة . وقصب سكر ، وأُتْرُج يُتَجَهَّز به إلى ما جاور سَبْتَة مِن البلاد لكثرة الفواكه بها »[6] .

---

(١) العبر ، ٤/٢٥٤ .

(٢) نفح ، ١/٢٣٣ .

(٣) تاريخ غزوات العرب ، ٥٦ ؛ الحلل السندسية ، ٢/٢٠٢ . كذلك : نفح الطيب ، ١/٢٦٩ .

(٤) عن هذه القرية راجع : اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار ، محمد بن القاسم الأنصاري السبتي ، ٥٦ ؛ الاستبصار في عجائب الأمصار ، ١٣٨ ؛ مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، ١٠١ ؛ صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ١٦٧ (= الحلل السندسية ، ١/٦٣) .

(٥) نفح الطيب ، ١/٢٨٦ .

(٦) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ١٦٧ (= الحلل السندسية ، ١/٦٣) . عن بليونش انظر كذلك : أزهار الرياض ، المقري ، ١/٣٤ – ٣٨ .

بينما ينقل المَقَّري عن ابن حَيّان أو غيره ما يُفهم منه أن جبل موسى في الجانب الآخر من المضيق قرب الجزيرة الخضراء : « فكان دخوله إلى الأندلس في شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين ، وتنكّب الجبل الذي حلّه طارق ، ودخل على الموضع المنسوب إليه المعروف الآن بجبل موسى . »[1] فهل أن هذا الغموض كان بسبب تلخيص صاحب **النفح** نفسه والتصرف في النص ؟ أولعل في العبارة نقصاً ، أو قَصَدَ حين إبحار موسى من سبتة أو حين اجتيازها إلى البحر .

أقلعت سفن الجيش الإسلامي بقيادة موسى من سبتة من مكان حمل اسمه « مَرْسَى موسى » ، كما يشير صاحب **اختصار الأخبار** الذي يذكر المرسَى ويقول : « ومن هناك اجتاز موسى بن نُصَيْر »[2] .

قدّر موسى حاجة الفاتحين المسلمين بالأندلس إلى قوات إضافية لمواجهة متطلباتهم في عمليات الفتح ، فعبر المضيق بجيشه الضخم الذي اختاره من المسلمين — عرباً وبربراً وغيرهم — فيهم صحابي واحد هو المُنَيْذِر الإفريقي[3] وعدد من التابعين[4] من جيل موسى بن نُصَيْر .

بعد أن رتّب موسى الأمور في القَيْروان « استخلف ابنه عبد الله على إفريقية ، وأقبل إلى الأندلس ومعه ابناه عبد العزيز وعبد الأعلى »[5] . وجاز المضيق إلى الأندلس حالاّ بالجزيرة الخضراء[6] ، حيث رست سفائنه إلى موضع حسنٍ يبدو أنه — كذلك —

---

(١) نفح الطيب ، ٢٦٩/١ .

(٢) اختصار الأخبار ، ٦٠ — ٦١ .

(٣) الاستيعاب ، ١٤٨٥/٤ (رقم : ٢٥٧١) ؛ التكملة لكتاب الصلة ، ابن الأبار ، ٧٣١/٢ (رقم : ١٨٤٧) ؛ نفح ، ٢٧٧/١ — ٢٧٨ ، ٥/٣ — ٦ .

(٤) تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ١٢٢/١ (رقم : ٣٨٣) ، ١٢٥ (رقم ٣٩١) ، ٢١٢ (رقم : ٦٣٣) ، ٣١٠ (رقم : ٩١٥) ؛ جذوة المقتبس ، ٢٠١—٢٠٣ (رقم ٤٠٣) ؛ تاريخ الأندلس ، ٤٩ (نص ابن الكردبوس) ؛ التكملة ٢٨٢/١ (رقم : ٧٥٥) ؛ نفح الطيب ، ٢٧٨/١— ٢٧٩ ، ٢٨٧—٢٨٨ ، ٦/٣—١٢ ؛ تاريخ عبد الملك بن حبيب ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، ٣٢٣/٥ (القسم الفرنجي) .

(٥) تاريخ الأندلس ، ١٤٤ (نص ابن الشباط) . كذلك : نفح الطيب ، ٢٧٧/١ .

(٦) تاريخ الأندلس ، ٤٩ (نص ابن الكردبوس) ، ١٤٥ (نص ابن الشباط) .

حمل اسمه « مرسَى موسى »[1] . ولعله المكان المشار إليه عند ابن سعيد الأندلسي حين الحديث عن الجزيرة الخضراء نقلاً عن كتاب الرازي : « توسطت مدن السواحل وأشرفت بسورها على البحر ، ومرساها أحسن المراسي للجواز »[2] ، وميناءالجزيرة أقرب للعبور من الساحل المغربي إلى سبتة « ومرسى الجزيرة مَشْتَى مأمون ، وهو أيسر المراسي للجواز وأقربها من بَر العُدْوة ، ويحاذيه مرسى مدينة سبتة ، ويقطع البحر بينهما في ثلاث مجار ويتلوه جبل طارق . »[3]

يورد هذا عدد من الجغرافيين والمؤرخين ، فيقول ابن غالب الأندلسي في **تعليق منتقى من فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس** عن الجزيرة الخضراء : « توسطت مدن السواحل وأشرفَ سورها على البحر ، ومرساها أيسر المراسي للحيوان وأقربها من العُدْوة »[4] .

آ ــ وصول حملة موسى الأندلس

انتظر موسى في الجزيرة الخضراء ، عبورَ الجيش واستكمال الترتيبات ، ووضع الخُطة ، فتوافدت فرق جيش المسلمين ، يحمل عدد منها رايته . وتم تجمعهم في الجزيرة الخضراء عند باب البحر قرب البحر ، فزاد عدد الرايات على عشرين . وقد سَمّى الرازي كتاباً له بهذا العبور وراياته . دلّ على ذلك النص التالي : « قال محمد بن مُزَيْن : وجدتُ في خِزانة بإشبيلية سنة إحدى وسبعين وأربع مئة أيام الراضي بن المعتمد سِفْراً صغيراً من تأليف محمد بن موسى الرازي ، سماه **بكتاب الرايات** ، ذكر فيه دخول الأمير موسى بن نُصَيْر ، وكم راية دخلت الأندلس معه من قريش والعرب فعدّها نَيّفاً وعشرين راية ، منها رايتان لموسى بن نصير عقدها له أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان على إفريقية وما وراءها ، والأخرى عقدها له أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك على إفريقية أيضاً وما يفتحه وراءها إلى المغرب ، وراية ثالثة لابنه عبد العزيز الداخل

---

(١) تاريخ افتتاح الأندلس ، ابن القوطية ، ٣٥ .

(٢) المغرب ، ١/٣٢٠ . انظر : صفة الأندلس للرازي ، مجلة الأندلس الإسبانية ، ١٨/١/٩٨ .

(٣) الروض المعطار ، ٧٤ .

(٤) مجلة معهد المخطوطات العربية ، ١/٢/٢٩٤ .

معه ، وسائر الرايات لمن دخل معه من قريش ومن قواد العرب ووجوه العمال ،وذكر فيه سائر البيوتات ممن دخل دون راية »[1] . فهل إن هذا النص ناقص أو مشوه ؟

تشاوروا هناك في خُطة الفتح ، وأقام موسى في هذا الموضع مسجداً عُرِف بمسجد الرايات « وقيل إن اجتماعهم بهذا المشهد الكريم كان في الموقع الذي كان فيه مسجد الرايات في الجزيرة الخضراء ، وانه باجتماع الرايات في ذلك اليوم سُمِّي ، وبها سَمَّى الرازي كتابه . وقال : إن موسى بن نُصَيْر رحمه الله لم يبرح موضعه ولا فارق مشهده حتى أمر بتخطيط الموضع واتخاذه مسجداً . »[2] وكان موقع هـذا المسجد على البحر « وبها على باب البحر مسجد يُسَمَّى بمسجد الرايات ، ويقال ان هناك اجتمعت رايات القوم للرأي »[3] . ولعل هـذا هو المسجد الجامع الذي أحرقه المجوس (النورمان) ، في هجومهم الثاني على الأندلس سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) ، أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط[4] .

ب ــ فتح شَذُونَة وإشْبِيلِيَة

تحرك موسى بهذا الجيش نحو شَذُونة فكانت أول فتوحاته[5]. ثم توجه « إلى مدينة قَرْمُونَة ، وليس بالأندلس أحصَنُ منها ، ولا أبعد على مَن يَرُومها بحصار أو قتال ، فدخلها بحيلة توجهت بأصحاب يُلْيان ، دخلوا إليهم كأنهم فُلاّل ، وطرقهم

---

(١) رحلة الوزير في افتكاك الأسير ، محمد بن عبد الوهاب الغساني ، ١١١ . انظر :

Memoria sobre la autenticidad de la cronica denominada del Moro Rasis , Memorias de la Real Academia de la Historia, Pascual de Gayangos, 13 – 4.

وتجده في : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، حسين مؤنس ، ٢٨ . عن أبي بكر محمد بن عيسى ابن مزين (٤٧٠ هـ = ١٠٧٨ م) انظر : تاريخ الأندلس ، ٢١ ، ١٦٢ ؛ تاريخ الفكر الأندلسي ، آنخل جنثالث بالنثيا ، ٢١٢ ؛ الحلة السيراء ، ابن الأبار ، ٨٨/١ ، ١٨/٢–١٩ ، ١١٦ ، ١٢٩ .

(٢) المرجع نفسه . راجع كذلك : فجر الأندلس ، ٩١ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ٩٤ .

(٣) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ١٧٧ (= الحلل السندسية ، ٨١/١) . كذلك : الروض ، ٧٥ .

(٤) انظر : نصوص عن الأندلس ، ١١٨ – ١١٩ ؛ البيان ، ٩٧/٢ ؛ الروض ، ٧٥ . وانظر الفصل الثالث من هذا الكتاب .

(٥) البيان المغرب ، ١٣/٢ ؛ نفح الطيب ، ٢٦٩/١ .

موسى بخيله ليلاً ، ففتحوا لهم الباب ، وأوقعوا بالأحراس ، فمُلِكَت المدينة . »[1] فافتتحها . وتوجه بعد ذلك « إلى إشبيلية جارتها فحاصرها ، وهي أعظم مدائن الأندلس شأناً وأعجبها بنياناً ، وأكثرها آثاراً ، وكانت دار الملك قبل القوطيين ، فلما غلب القوطيون على مُلكِ الأندلس حولوا السلطان إلى طُلَيْطُلة ، وبقي رؤساء الدين فيها — أعني إشبيلية — فامتنعت أشهراً على موسى ، ثم فتحها الله عليه ، فهرب العلوج عنها إلى مدينة باجَة ، فضم موسى يهودها إلى القصبة ، وخلّف بها رجالا »[2] .

ج — فتح ماردة

ثم سار نحو مدينــة مَارِدَة (Merida) مفتتحاً في طريقه لَقَنْت[3] (Fuente de Cantos) . ونجدها عند ابن القوطية لَقَنْت « ثم قصد من إشبيلية الى لَقَنْت ، إلى الموضع المعروف بفج موسى في أول لَقَنْت إلى مَارِدة »[4] . فإذا كان هذا فعلاً موقع فج موسى (وادي موسى) فهو يعني أن لدينا واديان يحملان هذا الاسم ، ثانيهما في جليقية كما سيأتي بيانه[5].

تذكر مصــادر أخرى أن موسى افتتح لَبْلَة (Niebla) وبَاجَة (Beja) قبل مَارِدة . وذلك معقول لأنها في الطريق إليها ، ولأن بعض مَن فرّ مِن إشْبِيلِيَة لجأ إلى بَاجَة . ويذكر ابن الشَّبَّاط — نقلاً من اختصار اقتباس الأنوار[6] — حين

(١) نفح ، ٢٦٩/١ (نقلا عن ابن حيان وغيره) . كذلك : البيان ، ١٣/٢ ؛ أخبار مجموعة ، ١٥–١٦ .
(٢) نفح ، ٢٦٩/١ (نقلا عن ابن حيان وغيره) . كذلك : البيان ، ١٤/٢ .
(٣) نفح ، ٢٦٩/١ — ٢٧٠ . كذلك : فجر الأندلس ٩٢ . وهي غير ألقنت أو لقنت (Alicante) شرقي الأندلس جنوب دانية على البحر المتوسط . صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ١٩٣ (= الحلل السندسية ، ١١٢/١–١١٣) ؛ الروض ، ١٧٠ ؛ نفح، ١٦٦/١ ؛ الحلة السيراء ، ٢٢٠/٢ ؛ مجلة الأندلس (الإسبانية) ، ٧٠/١/١٨ — ٧١ . فهل أن لفنت هي لقنت (Lecanto) . انظر : نفح ، ٢٧٠/١ . فجر الأندلس ، ٩٢ . وورد اسم مدينة « لقنت الصغرى » (التكملة ، ٥٩١/٢) ، لكن وردت « الفنت » اسم قرية « خارج غرناطة » (الاحاطة ، ٥٢٠/١ ؛ أعمال الاعلام ، ٢١٧/٢) . ومهما يكن فان المدينة التي مر بها موسى بعد إشبيلية ، في طريقه إلى ماردة ، هي غير هؤلاء جميعاً ، فهي كما في المتن أعلاه أقوم تماماً . (٤) تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٥ . (٥) أدناه ، ١٠٧ ، ١١٨ .
(٦) انظر : تاريخ الأندلس ، ١٨–١٩ (المقدمة) . عن هذا الكتاب راجع : الذيل والتكملة ، ابن عبدالملك الأنصاري ، ٣٤٨/٦ (رقم : ٩٣٣) ، ٤٩٢ (رقم : ١٢٧٢) .

الحديث عن وصف بَاجَة بأن موسى « فتحها ثم خرَج إلى البَلاط ، ثم خرج على الفج المنسوب إليه وهو المعروف بفج موسى . قال فانقطع إليه أهل ذلك الموضع ، فأقرهم على حالهم وسُمُّوا موالي موسى . ثم تقدم إلى ماردة فنزل عليها ، وقيل إنها كانت قاعدة لملوك الأندلس ثم تنقَّلوا عنها إلى طُلَيْطلة . »[1]

لكن مصادر أخرى تذكر أنَّ عبد العزيز بن موسى هو الذي فتح لبلة وباجَة[2] . وهذا يعني أن فتحهما كان في حملة موسى هذه ، بقيادة ابنه عبد العزيز الذي كان معه ووجهه لفتح هذه المدن . مثلما فعل طارق في إرسال فرق من إسْتِجَّة لفتح بعض المدن في حملته . أو أن موسى أرسل ابنه عبد العزيز — بعد افتتاح مَاردة — لاستعادة إشبيلية ، ثم فتح لَبْلَة وباجَة ابتداءاً ، كما أورده ابن عِذاري في **بيانه** [3] .

أما مَارِدَة فلفتحها حديث . كانت مَارِدَة قبل الفتح الإسلامي إحدى قواعد الأندلس ومدائنه ، بناها الرومان سنة ٢٥ قبل الميلاد[4] . يذكر البكري أنها : « كانت مدينة ينزلها الملوك الأوائل ، فكثرت بها آثارهم والمياه المستجلبة إليها . »[5] فكانت لهم قاعدة . ويؤكد ذلك ما يورده المَقَّري في **نفح الطيب** — نقلاً عن ابن حيَّان وغيره — أن ماردة كانت « دار مملكة لبعض ملوك الأندلس في سالف الدهر . وهي ذات عزٍّ ومَنَعَة ، وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القَدْر فائقة الوصف . »[6]

يُفهم ممانقله المقَّري — عن **مُقْتَبِس** ابن حيَّان — أن الذين اتخذوا ماردة عاصمة هم الوندال ، ويسميهم « البِشْتولَقات »[7] . ويرجِّح المرحوم شكيب أرسلان أن

(١) تاريخ الأندلس ، ١٤٦ (نص ابن الشباط) .

(٢) البيان المغرب ، ١٥/١ . كذلك : نفح ، ٢٧١/١ ؛ فجر الأندلس ، ٩٦ ؛

(٣) نفس المصادر . Histoire, I, 25 (Sp. tr. , IV, 17).

(٤) الحلل السندسية ، ٨٩/١ ، ١٧٢ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ٩٥ .

(٥) جغرافية الأندلس وأوربا ، ١٨٩ . كذلك : الروض المعطار ، ١٧٥ .

(٦) نفح ، ٢٧٠/١ . كذلك : نفح ، ١٣٨ ، ١٣٩ ؛ صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ١٨١-١٨٢ (= الحلل السندسية ، ٨٩/١) ؛ تاريخ الأندلس ، ١٤٧ (نص ابن الشباط) ؛ الروض ، ٦ ، ١٧٥-١٧٦ .

(٧) نفح ، ١٣٨/١ . كذلك : نفح ، ١٣٩/١ . وردت عند ابن عذاري في البيان المغرب (٢/٢) « البشترلقات » وعند الحميري (الروض ، ٦ ، ١٧٥) « الشبونقات » .

البشتولقـات تعني الفيزيقوت (Visigoths = القُوط الغربيين)[1] . وجعل القُوطُ طُلَيْطُلَةَ عاصمة لهم[2] .

لا تزال بعض آثار ماردة القديمة والاسلامية قائمة حتّى اليوم[3] . وجاء في وصف المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين لبقاياها بالمباني الحسنة وإتقان الصنعة[4] .

كانت ماردة « مدينة حصينة لها سور لم يُبْنَ للناس مثله »[5] . كانت تقوم عدة أبراج في هذا السور الضخم المحيط بالمدينة وكان عَرْض هذا السور حين الفتح أو قبله، ١٢ ذراعاً (٥ر٦ م) وارتفاعه ١٨ ذراعاً (٧٥ر٩ م) كما يذكر أبو عبيد البكري[6] . ولهذه الحصانة فقد آلت إليها فلول القوط المنهزمة من النواحي . وتجمّع فيها لهم جيش قوي حتّى « كان في أهلها مَنَعَة شديدة وبأس عظيم »[7] .

حاصر موسى المدينة ، لكن قواتها خرجت خلف الأسوار تحارب « فنالوا من المسلمين دفعات ، وآذوهم »[8] . وعبارة **نفح الطيب** هذه غير واضحة تماماً ، إذ فيها إشارة إلى أن الأذى وقع على المسلمين ، مما لا تؤيده عبارة صاحب **أخبار مجموعة** من أنهم « خرجوا إليه وزحمهم دفعة ، فقاتلوه من سورها على قدر ميل أو أكثر قتالاً شديداً »[9] . واستمر « حتّى صرفهم إلى المدينة »[10] ، وحاربهم إلى أن دخلوا المدينة .

---

(١) الحلل السندسية ، ١٧٢/١-١٧٥ . عن القوط الغربيين . انظر : أوروبا العصور الوسطى ، ٨٣/١-٨٨.

(٢) نفح ، ١٣٨/١ (نقلا عن مقتبس ابن حيان) ؛ جغرافية الأندلس وأوربا ، ٨٧ ؛ تعليق منتقى من فرحة الأنفس ، ابن غالب الأندلسي ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ٢٨٨/٢/١ ؛ الروض ، ١٣٠ .

(٣) الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ، ٣٨٠ - ٣٨٣ .

(٤) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ١٨٢ ؛ تاريخ الأندلس ، ١٤٧ (نص ابن الشباط) ، الروض المعطار ، ١٧٦ .

(٥) أخبار مجموعة ، ١٧ . كذلك : صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ١٨٢ .

(٦) جغرافية الأندلس وأوربا ، ١١٩ .

(٧) نفح الطيب ، ٢٧٠/١ (نقلا عن ابن حيان وغيره) .

(٨) المصدر نفسه .

(٩) أخبار مجموعة ، ١٦ .

(١٠) البيان المغرب ، ١٤/٢ .

لم يترك موسى الأمر بل احتاط له ، فاتبع أسلوب الكمائن ، ووجد – وبعد تفتيش السور – ثُقْباً في مقاطع الصخور ، فوضع فيه مجموعة من الفرسان ليلاً . فلما خرجوا في الصباح ظهر لهم رجال الكمين ، وهاجمهم المسلمون فقتلوا من محاربيها الكثير ، وعاد الباقون إلى داخل المدينة فتحصنوا فيها ولم يخرجوا . وتبدأ المرحلة الشاقة في فتحها . ودام الحصار شهوراً دون جدوى ، مما حدا بموسى إلى تجربة جديدة . عمل المسلمون دَبَّابَة فَدَبَّت جماعة منهم تحتها إلى أحد أبراج السور لإيجاد ثُغْرة « فنَقَبوا صخرة ، فلما نزعوها أفضَوا إلى صخرة صمّاء نَبَتْ المَعاولُ عنها ويئسوا منها ، فبينا هم يضربون عليها ، إذ استثار العلوجُ عليهم ، فاستُشهد المسلمون تحت الدبابة . فسُمِّي ذلك البرج برج الشهداء ، وبه يعرف إلى اليوم ، فحميت عند ذلك نفوس العلوج ، وثابت إليهم أنفسُهم . »[1] واسم هذه الصخرة الصماء « بلسان العجم الاشه ماشه »[2] . وهي في **أخبار مجموعة** : « اللاشّه ماشّه بلسان أهل الأندلس »[3] ، من كلمة لاتينية Laxmax ، وبالإسبانية : Argamasa ، أي : الإسمنت[4] .

استمر حصار ماردة حتى رمضان أو أول شوال سنة ٩٤ هـ (٣٠ حزيران ٧١٣ م) . وجرت بين موسى وبين جندها اتصالات للتفاوض على الصلح ، وتبودلت في ذلك الوفود[5] « دعا القوم إلى السِّلْم ، فترسَّلَ إليه في تقريره قوم من أماثلهم أعطاهم الأمان »[6] ، فتم الصلح وكتب به عهد . والصلح عند المسلمين تُضْمَن فيه مصلحة الطرف الآخر وتترك لهم أمورهم الخاصة ، والمسلمون يحافظون على ذلك ويلتزمون به في كل حال[7] . وهو مسلك معروف مشهور في تاريخ الفتح الاسلامي والتعامل مع غير المسلمين .

---

(١) البيان ، ٢/١٤–١٥ . كذلك : نفح ، ١/٢٧٠ (نقلا عن ابن حيان وغيره) .
(٢) نفح الطيب ، ١/٢٧٠ (نقلا عن ابن حيان) .
(٣) أخبار مجموعة ، ١٧ .
(٤) نفح الطيب ، ١/٢٧٠ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ٩٦ .
(٥) البيان المغرب ، ٢/١٥ .
(٦) نفح الطيب ، ١/٢٧٠ (نقلا عن ابن حيان وغيره) . (٧) انظر : أدناه ، ٨١ –٨٢ .

للأسف ليس لدينا وثيقة الصلح هذه . وما أورده بعض المؤرخين عنها ليس إلا فقرة منها ، على ما يبدو . وهو أن تُدفع أموال قتلى ماردة يوم الكمين وأموال الفارين منها دية لشهداء برج الدبابة ، أما أموال الكنائس فتبقى لها « فصالحوه على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليقية للمسلمين ، وأموال الكنائس وحليها لها ، ثم فتحوا له المدينة يوم الفطر في سنة أربع وتسعين »[1] .

لم تتيسر معرفة المدة التي استغرقها فتح ماردة ، إذ لم يتبين ابتداء عملياتها ،ولعلها حوالي نصف سنة . ذلك لحصانة مَارِدَة وتَجَمُّع جيش القُوط وقوته والاستعداد للمواجهة . لكن أليست المدة طويلة ؟ ويمكن أن موسى قام – خلال مدة الحصار – بجهاد في أماكن ومدن أخرى حول المدينة ، بجانب توجيهه السرايا ، غير حملة ابنه عبد العزيز .

أقام موسى في ماردة زيادة على شهر يرتّب أحوالها وينظم أمورها ويريح الجند من العناء ويستعد لاستئناف السير .

٤ – جهاد عبد العزيز بن موسى

وجّه موسى جيشاً من ماردة – بقيادة ابنه عبد العزيز – إلى إشبيلية ، وكانت فلول القوط من لبلة وباجة قد اجتمعت فيها ، وقتلوا العديد من المسلمين ، منتهزين فرصة انشغال موسى بحصار ماردة وبلغه الخبر خلال الحصار[2] . فأعاد عبد العزيز فتح إشبيلية ثم فتح لبلة وباجة ، كما ذكر قبل قليل .

فتح تُدْمير

لعل من المناسب هنا تناول موضوع فتح كُورة تُدْمير . وتُدْمير في الأصل : اسم حاكمها لدى الفتح (Teodomiro Ergobado = Tudmir) فسميت باسمه[3] . وحلّت مكانها فيما بعد كُورَة مُرْسِيَة ، وقاعدتها مدينة مرسية (Murcia) .

---

(١) أخبار مجموعة ، ١٨ (بعد إبدال له بـ لها ، لتستقيم العبارة) . كذلك : نفح الطيب ، ١/٢٧٠ ؛ البيان المغرب ، ٢/١٥ ؛ فجر الأندلس ، ٩٣ ، ٤٤٢ .

(٢) البيان المغرب ، ٢/١٥ ؛ أخبار مجموعة ، ١٨ .

(٣) الروض المعطار ، ١٥١ .

يذكر المَقَّري بأن إحدى الفرق التي أرسلها طارق من إسْتِجَّة قامت كذلك بفتح كورة تُدْمير[1] ، قاعدتهــا مدينة أُورْيُولَه (Orihuela) . في حين ورد « أن فتح ماذكر تأخَّر إلى دخول موسى بن نُصَيْر في سنة ثلاث وتسعين . فتوجه ابنه عبد الأعلى [عبد العزيز[2]] في جيش إلى تُدْمير فافتتحها ، ومضى إلى إلْبيرة فافتتحها ، ثم تَوَجَّه إلى مَالَقَه . »[3] كذلك ذكر ابن عبد المنعم الحِمْيَري في **الروض المعطار** – حين الحديث عن قَرْطاجَنَّة الحَلْفاء ، ميناء كورة تُدْمير (مُرْسِيَة ،فيما بعد) – أنه « بقَرْطاجَنَّة هذه هَزم عبد العزيز بن موسى بن نُصَيْر تُدْمير بن عَبْدُوس ، الذي سُمِّيَت به تُدْمير ، هزمه وأصحابه ، ووضع المسلمون فيهم السيف ، يقتلونهم كيف شاؤوا ، حتى نجا تُدْمير في شِرْذِمَة من قِلال أصحابه إلى حصن أُورْيُولَه ، وكان مجرَّباً بصيراً ذا هيبة ، فلما رأى قلة أصحابه ، أمر النساء فنشرن شعورهن ، وأمسكن القصب بأيديهن فيمن بقي من الرجال ، وقصد بنفسه كهيئة الرسول واستأمن ، فأُمِّن ، وانعقد الصلح له ولأهل بلده ، وفُتحت تُدْمير صُلْحاً ، فلما نفذ أمره عَرَّفَهم بنفسه وأدخلهم المدينة ، فلم يروا بها إلا نفراً يسيراً من الرجال ، فندم المسلمون على ماكان منهم ، وكان ما انعقد من صلح تدمير مع عبد العزيز على أتاوة يؤدِّيها ، وجزية عن يدٍ يعطيها ، وذلك على سبع مدائن : منها أُورْيُولَة ، ولَقَنْت ، وبلانة ، وغيرها . وتاريخ فتحها سنة ٩٤ . »[4] كما يورد المَقَّري أيضاً رواية أخرى بأن موسى أخرج ابنه عبد الأعلى لفتح تدمير[5] ، وهو ما ورد في **إحاطة** ابن الخطيب ، في بعض مخطوطاتها[6] .

من الممكن أن عبد العزيز أرسل سَرِيَّة أو أكثر إلى بعض المدن لفتحها أو تأكيد فتحها ، مثل مالَقَة ، كما اسبق غيرها إلى مدن ليلحق بها ، وان بعضها كانت بقيادة

---

(١) نفح الطيب ، ٢٦٣/١ – ٢٦٤ ؛ أعلاه ، ٦٤ – ٦٥ .
(٢) أثبت في الطبعة الأولى من الاحاطة (١٠٧/١) ، لكنه أبدل في الطبعة الثانية (الاحاطة ، ١٠١/١) .
(٣) الاحاطة ، ١٠١/١ .
(٤) الروض المعطار ، ١٥١ – ١٥٢ .
(٥) نفح الطيب ، ٢٧٥/١ .
(٦) الإحاطة ، ١٠١/١ .

أحد اخوانه : عبد الأعلى ومروان أو غيرهما . فعل ذلك وهو متجه إلى ملاقاة القائد القُوطي تُدْمِير في قَرْطَاجَنَّة ، ولعل بعد بلوغ خبره لموسى . استمر عبد العزيز يتابع قتاله حتى كُورة تُدْمِير ، حيث عقد الصلح خلال حصار قاعدتها أُورْيُولَة .

تمَّ فتحُ تدمير صلحاً وأعطي الأمانُ لأهلها ولحاكمها والتزمَ به المسلمون ، لأن ذلك عقيدة عندهم ﴿ وأَوْفوا بالعهد إنَّ العهدَ كان مسؤولاً ﴾[1] . كان هذا مع الخديعة التي استعملها تدمير والتي سببت ندمهم « فندموا على الذي أَعْطَوْهُ مِن الأَمان ، واسترجحوه فيما احتال به ، ومضوا على الوفاء له ، وكان الوفاء عادتهم »[2].

لدينا مصادر أندلسية أخرى تؤيد فتح تُدْمِير صُلْحاً ، وتجعل عبد العزيز بن موسى هو الذي يتولى أمر فتحها بعد أن هَزَم تُدْمير في معركة عند قَرْطَاجَنَّة الحَلْفاء (Cartagena) — مينائها على البحر المتوسط — فهرب إلى حصن (مدينة) أُورْيُولَة قاعدة كُورَة تُدْمِير[3] .

تزودنا هذه المصادر بنص وثيقة الصلح التي عقدها عبد العزيز مع تُدْمِير . وهي وثيقة سياسية مهمة ، وصلنا القليل من أمثالها ، وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب من عبد العزيز بن موسى لتُدْمير بن غَنْدَريس إذ نزل على الصلح أن له عهد الله وميثاقه وما بعث به أنبياءه ورُسُلَه ، وأن له ذمة الله عز وجل وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ألاّ يقدَّم له وألاّ يؤخَّر لأحد من أصحابه بسوء ، وأن لايُسْبَوْن ولايفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم ، ولا يقتلون ، ولا تحرق كنائسهم ، ولا يُكرَهون على دينهم ، وأن صلحهم على سبع مدائن ، أُورْيُولَة ومُولَة ولُورْقَة وبَلَنْتَلَه ولَقَنْت وإيِه وإلْش ، وأنه لا يدع حفظ العهد ولا يحل ما انعقد، ويصحح الذي فرضناه عليه وألزمناه أمره ، ولا يكتمنا خبراً علمه ، وأن عليه وعلى أصحابه غُرم الجزية ، من ذلك على كل حر : دينار وأربعة أمداء من قمح وأربعة أمداء من

(١) من الآية ٣٤ من سورة الإسراء .
(٢) نفح الطيب ، ١/٢٦٤ .
(٣) راجع : نصوص عن الأندلس ، ١ ، ٤ ؛ الروض المعطار ، ٣٤ .

شعير ، وأربعة أقساط خل ، وقسطا عسل ، وقسط زيت . وعلى كل عبد نصف هذا .

« شهد على ذلك : عثمان بن عبيدة القرشي ، وحبيب بن أبي عبيدة القرشي ، وسعدان بن عبدالله الربعي ، وسليمان بن قيس التُّجيبي ، ويحي بن يعمر السَّهْمي ، وبشر بن قيس اللَّخْمي ، ويعيش بن عبد الله الأَزْدي ، وأبو عاصم الهذلي . وكُتب في رجب سنة أربع وتسعين . »[1].

ولعله يحسن إلقاء الضوء على مسألتين :

١ — الظاهر أن السبب في إيراد عبارات في الوثيقة تفصّل ما يتعلق بالضمانات على النفس والأمان على الحياة والإبقاء على الشعائر هو التخوف من تصرف ومسلك الغالب ، كما كان معروفاً لديهم في غير الفتح الاسلامي . وقد ألف القوم من الأحداث التي سمعوا عنها أو شاهدوها أو مارسوها انتهاك الحرمات والاستهانة بالناس . إن هذه الأمور التي ضمنوها كان انتهاكها جارياً في تصرف غير المسلمين ، فلم يجد المسلمون مانعاً من الاستجابة لهم بكتابتها مفصّلة . بل إن المسلمين يحرصون على ذلك لأَنهم يلتزمون بما يقولون ويحرصون عليه قبل صاحب الشأن ، ويصبحون في الالتزام به مع الآخرين هم أصحاب الشأن ، فذلك تطبيق لعقيدتهم . فشأنهم هو الالتزام بالعهود والمواثيق بدافع ذاتي يقوم على العقيدة الاسلامية ، وهذا يميّز المسلمين في فتوحهم — كما في غيره — ويفردهم ، بهذه الصفات الكريمة والأخلاق العالية التي تنشؤها العقيدة الاسلامية ، تَفَرُّداً يشير إلى سمو المنهج — وهو من عند الله تعالى — وإلى جدّية المسلمين وتمسكهم في كل الظروف وإلى ابعد الحدود ، حتى لو كلفهم ذلك غُرْماً أو درّ عليهم نفعاً ، أيّاً كان نوعه ومقداره ، والأمثلة على ذلك تتدافع وتزدحم كثرة

---

(١) هذا نص الوثيقة كما أورده العذري (نصوص عن الأندلس ، ٤—٥) . وعند آخرين ، في كل منهم بعض اختلاف . راجع : بغية الملتمس ، الضبي ، ٢٧٤ (حين الحديث عن حبيب بن أبي عبيدة ، رقم: ٦٧٥) ؛ الروض المعطار ، ٦٢ — ٦٣ (جاء ذكرها أيضاً : ٣٤ ، ١٥٢) . انظر : نصوص عن الأندلس ، ١٣٣—١٣٤ ؛ فجرالأندلس ، ١١٤—١١٥ ؛ دولةالاسلام في الأندلس ، ١/٥٥—٥٦ . غير معروف الأصل الذي نقلت عنه هذه الوثيقة ولم كان هذا الاختلاف . أسماء المدن بالإسبانية على التوالي هي : Orihuela, Mula, Lorca, Valentilla, Alicante, Ello, Elche.

في كتب التاريخ الأصيلة ، واعترف بها المنصفون من غير المسلمين ، ممن لم تمسهم لوثة التعصب أو التقليد .

٢ ـ أما شدة التوثيق والتذمّم فتشير أيضاً إلى تجربة القوم هناك مع الآخرين ـ في غير الفتح الاسلامي ـ في إخفار الذمة ، بعد إعطاء العهود . لكنهم هنا سيرون معاملة جديدة فريدة لم يألفها التاريخ إلا من أولئك الدعاة الفاتحين ومن سار على نهجهم من الخَلَف .

* * *

تضع الوثيقة تاريخ الصلح في رجب سنة ٩٤ هـ (نيسان ٧١٣ م) . يعني أن فتح كورة تُدْمِير كان قبل إعادة عبد العزيز بن موسى بن نُصَيْر فتح إشبيلية ، ثم فتح باجَة ولَبْلَة ، بعد الانتهاء من فتح ماردة الذي كان في رمضان ـ شوال سنة ٩٤هـ (تموز ٧١٣ م) . وهذا يضعنا أمام إشكال ، لوجود فجوات في أخبار الفتح ، ولعدم وضوحها وتمامها ، ولأن بعض الدارسين يجعلون فتح عبد العزيز لتُدْمِير أيام ولايته للأندلس التي ابتدأت في ذي الحجة سنة ٩٥ هـ (ايلول ٧١٤ م) ، فجعل تاريخ الوثيقة سنة ٩٦ هـ ، بدلا من سنة ٩٤ هـ[1] .

ما دامت المصادر التي روت هذه الوثيقة اتفقت كلها على تاريخها المذكور في الشهر والسنة (رجب ٩٤ هـ) . فعلى أي أساس يُقترح تبديل تاريخها ، والمصادر لم تشر ـ لا تلميحاً ولا تصريحاً ـ على أن معاهدة الصلح هذه كانت في ولاية عبد العزيز لا قبلها ؟

مما يحل هـذا الإشكال أن يكون موسى أرسل ابنه عبد العزيز لاستكمال فتح شرق الأندلس ، قبل توجه موسى إلى ماردة ، إذا نظرنا إلى تاريخ فتح موسى لماردة (رمضان ـ شوال ، ٩٤ هـ) وفتح عبد العزيز لتدمير وعقده الصلح (رجب ٩٤ هـ) . وبعد إتمام عبد العزيز هذه الفتوح وعقد الصلح المذكور يلتحق بأبيه في حصاره ماردة. وبعد فتحها يعود موسى فيرسله ـ إن كان قد التحق بأبيه ـ إلى إشْبِيلِيَة وباجَة ولَبْلَة ، ثم يتولى عبد العزيز فتح غرب الأندلس[2] . وتوليه فتح غرب الأندلس أمر معقول ،

(١) فجر الأندلس ، ١١٧ . كذلك : دولة الاسلام في الأندلس ، ١/٥٦ .
(٢) راجع : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ١٠٩ .

حيث لا نسمع عن مشاركته لأعمال الجهاد في شمال الجزيرة الإيبيرية .

يذكر المَقَّرِي – نقلاً عن ابن حيّان وغيره – بعد الحديث عن لبلة « واستقامت الأمور فيما هناك ، وعلا الإسلام ، وأقام عبد العزيز بإشبيلية »[1] . لعله اتخذها مركزاً لجهاده ، في غرب الأندلس . هذا حل يُركن إليه ، وبغيره يعني التنافر والشك في تاريخ الوثيقة ، وهو أمر يصعب تصريفه ، لا سيما وأن تدوين رقم السَّنَة كتابة ، وقد اتفقت المصادر فيه .

فيكون **خط سير حملة موسى** ، منذ عبور المَجاز (رمضان ٩٣ هـ) حتى لقائه بطارق (ذو القعدة ٩٤ هـ) ، الآتي :

سَبْتَة (عَبْرَ مضيق جبل طارق) ، الجزيرة الخضراء ، مدينة شَذُونَة ، قَرْمُونَة ، إشْبِيلِيَة ، لَقَنْت ، مَارِدَة [أرسل ابنه عبد العزيز في جيش ، فتح : لَبْلَة وبَاجَة وإشْبِيلِيَة والْبِيرَة ومَالَقَة وقَرْطَاجَنَّة وأُورْيُولَة وربما غيرها] ، طَلَبِيرَة (لقاؤه بطارق) ، طُلَيْطُلَة .

٥ – لقاء موسى وطارق

في بداية ذي القعدة سنة ٩٤ هـ (بداية آب ٧١٣ م) ابتدأ موسى السير صوب طُلَيْطُلَة . ويبدو أنه – احتياطاً من مخاطر الطريق – كتب إلى طارق بالتوجه إليه ، في مجموعة من جيشه . عسكر موسى في مكان يستعرض فيه الجيش عرف بـ « وادي المعرض » (Almaraz) ، ثم جاءه طارق . ذكر البعض أن لقاءهما كان عند طُلَيْطُلَة[2] أو قُرْطُبَة[3] ، والراجح أنه كان خارج مدينة طَلَبِيرَة[4] (Talavera de la Reina) التي تبعد ١٥٠ كم غرب طُلَيْطُلَة .

---

(١) نفح الطيب ، ٢٧١/١ .

(٢) البيان المغرب ، ١٦/٢ ؛ تاريخ الأندلس ، ١٤٩ (نص ابن الشباط) .

(٣) البيان ، ١٦/٢ (نقلا عن الطبري الذي لم أجد هذا في تاريخه ، ٤٨١/٦ ، حين يتحدث عن لقاء طارق بموسى) .

(٤) البيان ، ١٦/٢ (نقلا عن الرازي) ؛ نفح ، ٢٧١/١ (نقلا عن ابن حيان وغيره) ؛ أخبار مجموعة ، ١٨ . عن طلبيرة راجع : جغرافية الأندلس وأوربا ، ٨٩ ؛ الروض ، ١٢٧ ؛ صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ١٨٧ ؛ الحلة السيراء ، ٢٥٧/٢ ؛ الحلل السندسية ، ٤٣/٢ .

يقول المَقَّري : « وتوجّه الأمير موسى من ماردَة في عقب شوال من العام المؤرخ يريد طُلَيْطُلَة ، وبلغ طارقاً خبرُه ، فاستقبله في وجوه الناس ، فلقيه في موضع من كورة طَلَبِيرة »[1] . وقد يكون موسى قام بفتح مدينة طَلَبِيرة أو أن طارقاً سبقه إلى ذلك .

يذكر صاحب **أخبار مجموعة** ذلك ، إلا أنه يجعل « با ـد » — بدون نقط — موضعاً للقائهما[2] . لعلها تعني التيتار (Tiétar)[3] وهو أحد فروع نهر تَاجُهْ (Tajo) . وعبارة **أخبار مجموعة** لا تبين ما إذا كان هذا المكان نهراً . فهل هنالك مكان حمل اسم النهر أيضاً ، وهل هو في « وادي المعرض » أو بالقرب منه ؟

على كل الأحوال إنهما التقيا وسارا سوية نحو طُلَيْطُلَة ، من طريق قديمة طويلة تمتد من ماردة إلى شَلَمَنْقَة (Salamanca) .

آ — معركة السواقي

تذكر روايات — أكثرها إسبانية — أن لُذْرِيق — آخر ملوك القُوط — كان يختبيء للإيقاع بالمسلمين ، معتبرة بقاءه بعد معركة « وادي برباط » . فوجد فرصته في مهاجمة الجيش الاسلامي ، يفاجؤه وهو بعيد عن مركز الإمداد . وكانت في ذي القعدة سنة ٩٤ هـ (ايلول ٧١٣ م) عند السواقي معركة قوية انقضّ فيها الجيش الاسلامي على لذريق وجيشه ، وقتل هو بيد مروان بن موسى بن نصير ، وحمل اتباع لذريق جثته ودفن في فيزو (Viseo)[4] . لكن لا تبدو أدلة وجود هذه المعركة قوية .

ذكرت بعض المصادر الأندلسية اسم « السواقي » ، لكنه لا ينطبق على المكان الذي تشير إليه الرواية الإسبانية . يقول ابن الشَّبَّاط في **صلة السِّمْط وسِمَة المِرْط** : « وأفلت لُذْرِيق إلى موضع يقال له السواقي ، فيقال إنه قتل وهو لا يُعْرَف وقيل

---

(١) نفح الطيب ، ٢٧١/١ (نقلا عن ابن حيان وغيره) . (٢) أخبار مجموعة ، ١٨ .

(٣) فجر الأندلس ، ٩٨ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ٩٩ . كذلك :

Histoire, I, 25 (Sp. tr. , *Historia de Espana, Espana Musulmana*, IV, 17).

(٤) راجع : تاريخ الأندلس ، ٢٧–٤٠ (مقدمة المحقق) ؛ فجر الأندلس ٩٨ – ٩٩ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ٩٨ – ٩٩ .

أيضاً إنه أراد الاستتار بسِمَّار الوادي فغرق فيه وهلك »[1] . ولعل هذا يعني أن لُذْريق لم يقتل في المعركة الحاسمة أو في ميدان القتال بل هرب محاولاً الاختفاء إلى مكان قريب يسمى « السواقي » عند حافة نهر فقتل أو غرق فيه[2] . ولدى ابن عِذاري عبارة تجعله في اتفاق مع هذا المعنى ، إلا أنه يسمي الموضع الذي قتل فيه لُذْريق « وادي الطين » ، وهي : « فانهزموا وأُدْرِك رُذْرِيق ، فقتل في وادي الطين »[3] . ويفهم من هذا أن يكون وادي الطين (Guadatin) قريباً من ميدان المعركة[4] .

ب – وصول طُلَيْطُلَة

وصل موسى وطارق إلى طُلَيْطُلَة (ذوالقعدة – ذوالحجة : أواخر سنة ٩٤ هـ = خريف ٧١٣ م) . وأقاما بالجيش الإسلامي فصل الشتاء - أو جلّه - في طُلَيْطُلَة ، يرتبون أحوالها وينظمون شؤونها ، ويستريحون ويتهيأون ويخططون لفتح شمال شبه الجزيرة الإيبيرية ، وكتب موسى والقادة الآخرون إلى الخليفة الوليد – وربما ليس لأول مرة – أخبار الفتح . وضُربت العملة الاسلامية لأول مرة في الأندلس ، ولا بدّ أنهم قاموا بنشاط آخر ، هو إفهام الناس الاسلام وشرحه لهم ودعوتهم إليه ، بعد أن رآه أهل البلاد عملياً في خُلُق الفاتحين . ولعلهم أرسلوا فرقاً إلى بعض المناطق ؛ فقد كان طارق خَبَرَ أحوال طُلَيْطُلَة ، لا سيما شمالها ، إذ كان قد وصل إلى مدينة المائدة (في منطقة وادي الحجارة)[5] .

٦ – سبب عبور موسى

يحسن التوقف هنا لإلقاء الضوء على مسألة أوردها بعض المؤرخين في أكثر من صورة . وهي أن سبب عبور موسى إلى الأندلس كان حسده لطارق بن زياد ، لسبقه

---

(١) تاريخ الأندلس ، ١٣٥ . سمار : نوع من النباتات . تاريخ الأندلس ، ١٧٠ .

(٢) انظر : تاريخ الأندلس ، ٣٢ – ٣٣ (مقدمة المحقق) .

(٣) البيان المغرب ، ٢/٧ .

(٤) قارن : تاريخ الأندلس ، ٢٨ .

(٥) انظر : أعلاه ، ٦٥ – ٦٦ .

بهذا الشرف والمجد[1] . وحينما التقيا أهان موسى طارقاً وضربه بالسوط حتّى همّ بقتله[2] .

ليس لهذا الكلام واقع تاريخي ، ولا تسمح بقبوله مجرايات الأحداث ، كما مرت بنا ، وتنفيه طبيعة هذا التاريخ كما عرفناها . وكل ما أثير حول هذا الموضوع وصيغ في هذا الاتجاه لا يقوى على الثبات أمام النقد العلمي التاريخي الأمين والبحث النزيه .

لم يكن موسى مغموراً أو محروماً من شرف الفتح وخدمة الاسلام . هو الذي قدّم الكثير في الميدان ، قبل ولايته للشمال الإفريقي وبعدها . لاسيما وأن موسى — القائد المحنك — كان مقدِّراً لأهمية فتح الجزيرة الأندلسية منذ البداية ، مهتماً به غاية الاهتمام. أليس هو الذي حث على هذه الخطوة وكرر المحاولة لإقناع الخليفة بها ، فلماذا لم يتولَّ هو ابتداءً قيادة الجيش الفاتح بنفسه ؟ إن طارقاً — الذي لم يخالف لموسى أمراً — ليس إلا أحد الضباط تحت إمرة موسى ، وهو الذي عيّنه ، وكان بإمكانه أن يعزله لو أراد ودون الرجوع إلى الخليفة .

بعض النصوص المتعلقة بعبور موسى تعيننا في فهم الأحداث . زيادة على ما علمنا من أن عبور موسى كان بناء على استغاثة طارق له ، ومشاركة له في الجهاد والفتح . « وفي سنة ٩٣ ، شخص موسى بن نُصَيْر إلى الأندلس ، ذلك أنه لما سمع بما فتح الله عز وجل على يد طارق أحب أن يكون شريكاً في ذلك له »[3] . ولو كان عبور موسى حسداً لجاز الزقاق الأندلسي بنفسه في ثُلَّة قليلة ومباشرة بعد معركة وادي بَرْباط ، التي وصلته أنباؤها ، واتجه إلى طارق في أقصر وقت .

---

(١) تاريخ الأندلس ، ٤٩ (نص ابن الكردبوس) ؛ نفح الطيب ، ٢٦٩/١ .

(٢) جذوة المقتبس ، الحميدي ، ٢٤٨ (ترجمة طارق ، رقم : ٥١٩) . عبارته مشوشة فيقول إن موسى لحق بطارق « ونقم عليه ، إذ غزاها بغير إذنه [!] ، وسجنه وهم بقتله » . كتب الحميدي (ميورقة قبل ٤٢٠ – بغداد ٤٨٨ هـ) ، العالم الجليل ، جذوته وهو في بغداد والمصادر بعيدة عنه ، كما يقول في مقدمته . انظر : المغرب ، ٤٦٧/٢ ؛ نفح الطيب ، ١١٤/٢ . فاعتمد على حفظه وربما على مصادر مشرقية . انظر كذلك : وفيات الأعيان ، ٣٢٩/٥ (نقلا عن جذوة المقتبس) ؛ نفح الطيب ، ٢٤٣/١ (نقلا عن جذوة المقتبس) ، ٢٧١/١ (نقلا عن مجهول) .

(٣) تاريخ الأندلس ، ١٤٤ (نص ابن الشباط) .

كان عبور موسى للأندلس بعد سنة من عبور طارق إليها . وكان موسى عارفا بأحداث الفتح وأخبار الانتصارات من أول يوم ، فلماذا تأخر عبوره ؟

على أن موسى لم يذهب مباشرة لمواجهة طارق ، بل سلك سبيلاً آخر غير الذي سلكه طارق . ولو أراد موسى مخاصمة طارق لسار إليه رأساً ، لكنه أراد حماية مافتح طارق فسار في طريق أخرى ، واتجه « إلى مداين لم يفتحها طارق ولم يدخلها »[1] .

يبدو أن طارقاً سار في فتوحه بسرعة غير متوقعة ، ولعل موسى أصدر أمراً إلى طارق بانتظاره أو بالتوقف ، فعبر للمساهمة في الفتح والتعجيل به — ما دامت الفرصة مواتية — مُتَخَوِّفاً على جيش المسلمين من قلته أمام الجيش القُوطي ، في بلاد متسعة غير سهلة ، وذلك واضح من شرح حملة موسى .

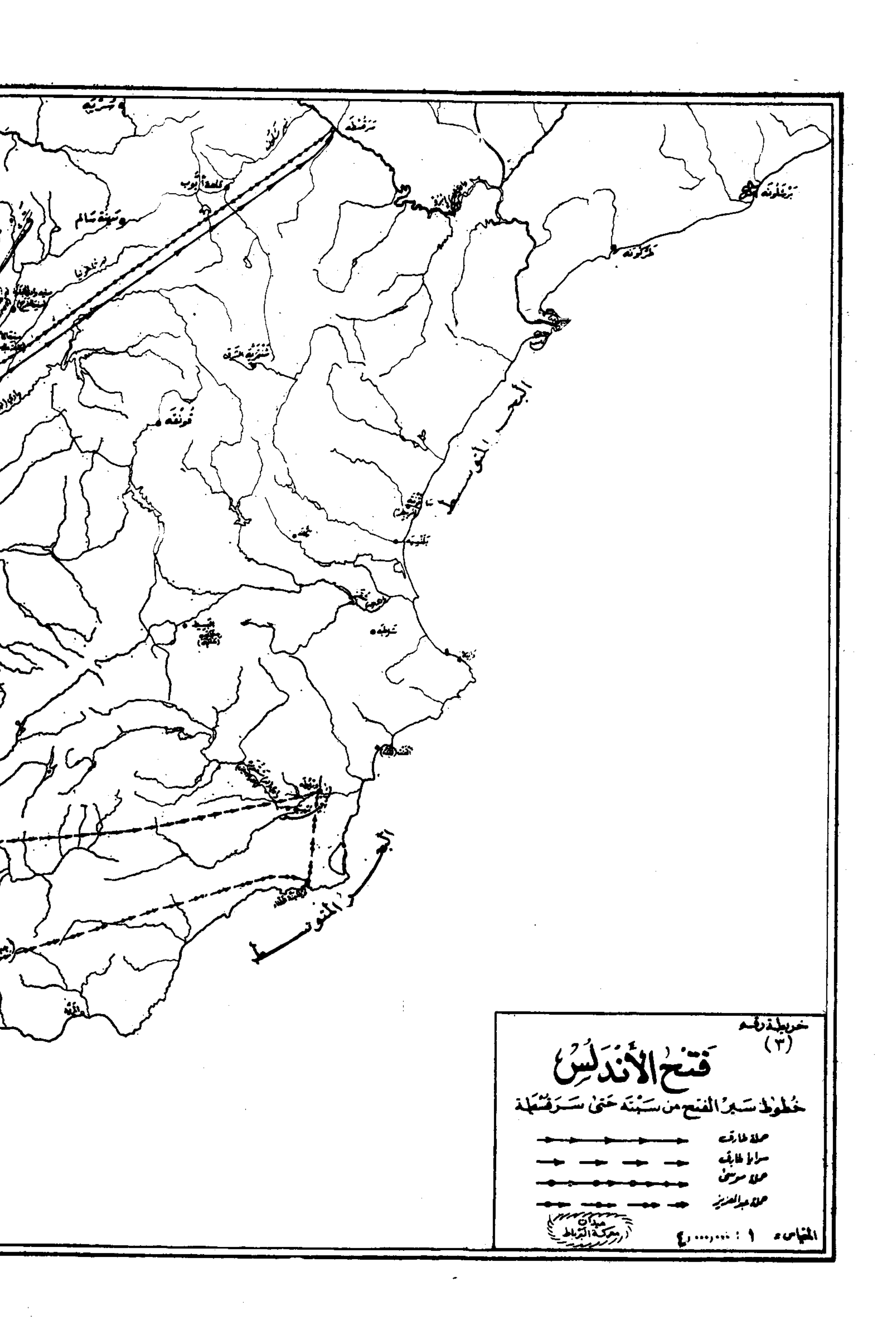
جهز موسى جيشاً كبيراً ، بنيّة التعاون والمشاركة في شرف الفتح والاستمرار به لتكون كلمة الله هي العليا وتسود شريعته . كان عبوره تعزيزاً للجيش الاسلامي وسدّاً لمحاولات قطع الطرق عليه ، وأخذاً في الحيطة وإتماماً للخطة ، وإنجازاً للفتح وتأكيداً لوجوده ونشراً للعقيدة الاسلامية ، التي كان كل ذلك من أجلها .

لم يتخذ موسى أيَّ إجراء — تلو عبوره إلى الأندلس — ضد طارق . لم يذهب إليه رأساً ، بل استمر في الفتوح وبذل الجهد لحماية الجيش الإسلامي فيما فتحه وافتتاح مناطق جديدة مما لم يفتحه طارق . لم يلتق بطارق إلا بعد مرور ما يزيد على السنة من عبور موسى نفسه . كان بإمكانه خلال ذلك اتخاذ أيِّ إجراء ، إن لم يرد التوجه إلى طارق رأساً .

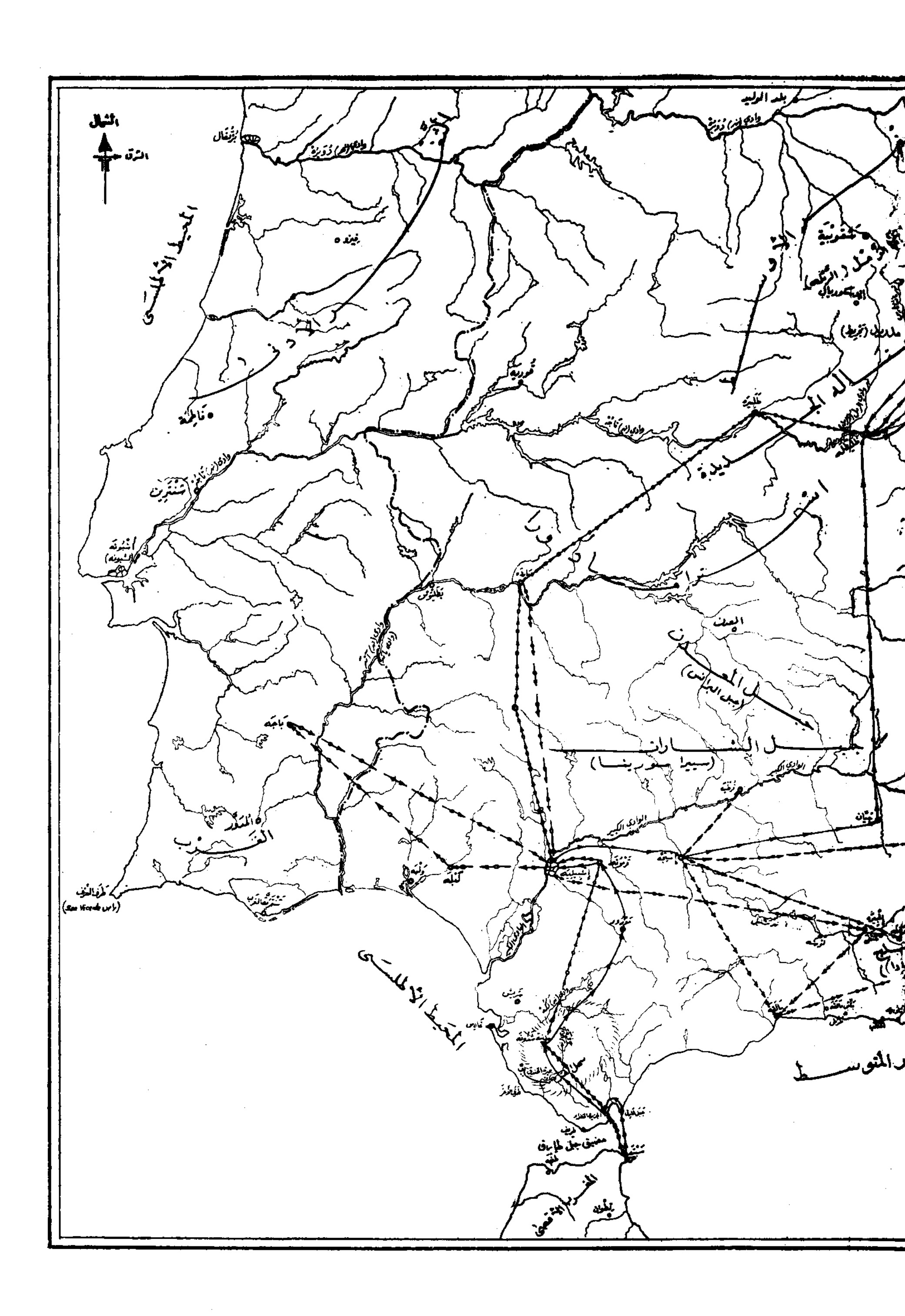
لم نسمع عن أيِّ حدث بينهما — بعد اللقاء — طيلة الشتاء في طُلَيْطُلَة — حيث أقاموا لوضع خُطة الفتح — ولا خلال سيرهما سوية إلى الشمال ، ليتولى كل منهما قسماً من الجيش فيفتح الجهة التي سار إليها . لم يكن موسى أقلَّ ثقة بطارق من ذي قبل ، لقد استعان موسى بطارق حين استدعاه للقائه عند طَلَبيرة . وصورة الاستدعاء واللقاء — كما تمت — تحول دون قبول مثل تلكم الأوهام .

---

(١) تاريخ الأندلس ، ١٤٥ (نص ابن الشباط) .



خريطة رقم
(٣)
فتح الأندلس
خطوط سير الفتح من سبتة حتى سرقسطة
حملة طارق
سرايا طارق
حملة موسى
حملة عبد العزيز
ميدان معركة البرباط
المقياس ١ : ٤,٠٠٠,٠٠٠
البحر المتوسط
البحر المتوسط
برشلونة
طركونة
قونقة
بلنسية
شاطبة



الشمال
الشرق
المحيط الأطلسي
برتقال
فاطمة
شنترين
أشبونة
(لشبونة)
باجة
الغرب
جبل الشارات
(سييرا مورينا)
الوادي الكبير
إشبيلية
قرمونة
إستجة
قرطبة
شريش
مضيق جبل طارق
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط

إذا كان حدث شيء فلا يعدو أن يكون مناقشة بعض القضايا أو استفهامه من طارق خُطته وإبداء الملاحظات عنها ، تخوفاً من الأذى « وعلى توغله بالمسلمين ، وتغريره بهم »[1] ، حيث سار بهذه السرعة إلى قلب البلاد . وحين « خرج إليه طارق وتلقاه ، فتَعَتَّب عليه موسى وقال له : ما دعاك إلى الإيغال والتقحم في البلاد بغير أمري »[2] . فاعتذر إليه طارق بخطته العسكرية أمام الظروف المحيطة والضرورة الداعية لأسلوبه ، وقَبِل موسى عذره . وسارا — بعده — سوية إخوة مجاهدين ، ينشرون دين الله ويُعلون كلمته ويبلغون للناس شريعته .

وقد ناقش هذه المسألة عدد من الدارسين ، وأبانوا ضعفها وسقوطها وتفاهتها[3] . كان هذان القائدان وغيرهما — من المسؤولين والجند سواء — يسعَون لخدمة الاسلام ورفع رايته ، وهم على استعداد للبذل والتضحية التي عليها يحرصون ويجدون فيها اطمئنانهم ، وذلك هو سَمْت المؤمن برب العالمين .

أما موضوع المائدة التي غَنِمَها المسلمون في طُلَيْطُلَة[4] أو في مدينة المائدة[5] — وهو راجح — وأن طارقاً أخفى إحدى أرجلها[6] ، فهو أسطورة أخرى[7] . فلم تكن هناك مائدة أصلاً ، ولكنها كانت مذبح كنيسة طُلَيْطُلَة . يذكر بعض المؤرخين أن طارقاً « أصاب فيها مائدة منظومة بالدرر والياقوت والزَّبَرْجَد ، وهي التي يزعم الناس [رواة العجم] أنها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام ، ولم تكن كذلك ، غير أن الخبثة [أهل الحسنة] من العجم كانوا إذا حضرتهم الوفاة أوصوا

---

(١) البيان المغرب ، ١٦/١ .

(٢) تاريخ الأندلس ، ٢٥ (مقدمة المحقق) ، ١٤٩ (نص ابن الشباط) . كذلك : الحلة السيراء ، ٣٣٤/٢ .

(٣) فجر الأندلس ، ٨٤—٩٠ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ٩١ — ٩٢ ؛ قادة فتح المغرب العربي ، محمود شيث خطاب ، ٢٥١/١ — ٢٥٥ ؛ دولة الاسلام ، ٥١/١ — ٥٣ .

(٤) تاريخ الأندلس ، ١٤٨ (نص ابن الشباط) ؛ الروض ، ١٣١ ؛ نفح ، ١٦١/١ .

(٥) البيان ، ١٧/٢ ؛ نفح ، ٢٦٥/١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٩ ؛ وفيات ، ٣٢٨/٥ ؛ تاريخ الأندلس ، ٤٨ (نص ابن الكردبوس) ، ١٤٨—١٤٩ (نص ابن الشباط) ؛ الروض ، ١٣١—١٣٢ ، ١٧٩ .

(٦) نفح الطيب ، ٢٧٢/١ ؛ تاريخ الأندلس ، ٥٠ (نص ابن الكردبوس) .

(٧) قارن : الذخائر والتحف ، ١٧٠ .

للكنايس بمال تصنع منه كراسي توضع عليها مصاحف الإنجيل في الأعياد ، فكانت تلك المائدة مما يتفوق فيه الملوك . »[1]

٧ ـ الجهاد في شمال شبه الجزيرة الإيبيرية

عند انتهاء الشتاء وحلول الربيع يتهيأ الجيش الاسلامي لترك طُلَيْطُلَة ، متجهاً إلى الشمال . لم أجد تاريخ تحركه نحو الشمال . فإذا اعتبرنا الربيع بداية سيره يكون جُمادَى الثانية سنة ٩٥ هـ (آذار ٧١٤ م) ـ أو قبلها ـ تاريخاً للتحرك نحو الشمال .

فتح سَرَقُسْطَة والثَّغْر الأعلى

سار الجيش الاسلامي سوية ـ أو يتقدمه طارق[2]ـ نحو الشمال الشرقي لشبه الجزيرة الإيبيرية ، إلى المنطقة التي عُرفت بالثغر الأعلى . وافتتح مدينة سَرَقُسْطَة (Zaragoza) « المدينة البيضاء »[3] ، دون قتال شديد ، على مايبدو . أقاموا هناك سوية مدة ينظمون أحوالها . وأنشأوا فيها مسجداً ، خَطَّطَه وسَدَّدَ قِبْلَتَه مهندسُ المساجد في الغرب الاسلامي أثناء الفتح ، التابِعيُّ الجليل حَنَش بن عبد الله الصنعاني (سَرَقُسْطَة ١٠٠ هـ)[4] . وكان قد أشرف على بناء عدد من المساجد في إفريقية . كذلك شارك في تأسيس مسجد قرطبة الذي بُني عنده مسجدُها الجامع ـ فيمابعد[5]ـ ومسجد إلْبيرة الجامع[6]. وحَنَش من صَنْعاء الشام ، شارك في فتوحات المغرب (الشمال الإفريقي) مع رُوَيْفع بن ثابت الأنصاري وغيره ، ودخل الأندلس مع موسى بن نُصَيْر[7] .

---

(١) تاريخ الأندلس ، ١٤٩ (نص ابن الشباط) ، ومقدمته ، ٢٥ . ما بين الأقواس مأخوذ من كلام ابن حيان عن الموضوع . نفح ، ٢٧٢/١ . كذلك : نفح ، ٢٦٥/١ ، ٢٨٩ ؛ الروض ، ١٣١–١٣٢ .

(٢) نفح الطيب ، ٢٧٣/١ . (٣) الروض المعطار ، ٩٦ .

(٤) البيان ، ٩٦/٢ ؛ الروض ، ٤٤ ، ٢٩ ، ٩٧ ؛ نصوص عن الأندلس ، ٢٢ ، ٢٣ ؛ نفح ، ٥٦٢/١ ، ٨/٣ ؛ تاريخ الأندلس ، ١٨١ (نص ابن الشباط) ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ١٢٧/١ (رقم: ٣٩١) ؛ جذوة المقتبس ، ٢٠٢ (رقم : ٤٠٣) ؛ بغية الملتمس ، ٢٧٨ (رقم : ٦٨٧) .

(٥) نفح الطيب ، ٥٦٢/١ . كذلك : المقتبس ، ابن حيان ، ٢٤٣/٢ .

(٦) الإحاطة ، ٩٢/١ ؛ الروض ، ٢٩ .

(٧) تاريخ علماء الأندلس ، ١٢٥/١ (رقم : ٣٩١) ؛ جذوة المقتبس ، ٢٠٢ (رقم : ٤٠٣) ؛ بغية الملتمس ، ٢٨٧ (رقم : ٦٨٧) ؛ نفح ، ٢٧٨/١ ، ٧/٣ ؛ العبر ، الذهبي ، ١١٩/١ .

فُتحت مناطق حول سَرَقُسْطَة أو تابعة لها ، ومدن أخرى في تلك الناحية : وَشْقَة (Huesca) ولارِدَة (Lerída) وطَرَّكُونَة (Tarragona) وبَرْشَلُونَة (Barcelona)[1] .

لم تتوفر – في المصادر الأولى – معلومات واضحة عن فتح كل هذه المدن . ويذكر ابن خلدون في عِبَره أن موسى « توغل في الأندلس إلى بَرْشَلُونَة في جهة الشرق »[2] . لكن المَقَّري (نقلاً عن ابن حَيَّان) يذكر أن بعوث طارق هي التي فتحت بَرْشَلُونَة[3] . فهل يعني هذا أنهما تعاونا في فتحها (والمنطقة) ، أوأن طارقاً قام بذلك بنفسه أو بسراياه ، أو أن موسى كلّفه بالإشراف على عملياتها ؟ لعل في نص ابن حَيَّان الآتي ما يُلقي بصيصاً على هذه الأمور .

أما فتح وَشْقَة فالحِمْيَري يذكر أن المسلمين فتحوها صُلْحاً بعد حصار سبعة أعوام ، منذ الفتح[4] .

إذا قَصَّرَت بنا المصادر في أخبار فتحٍ مُفَصَّلَة عن هذه المدن فالمتوقع تماماً أن الفاتحين قاموا بجهاد وافر متواصل لفتحها وغيرها من مدن تلك الجهة .

يورد المَقَّري – نقلاً عن ابن حَيَّان ، ولعله بتصرف – كلاماً يجمل فيه نشاط كل من موسى وطارق في تلك المنطقة وفيما وراء جبال البُرْت (Pirineos, Pyrenees) نقتبس بعضه ، حيث أمر موسى طارقاً « بالتقدم أمامه في أصحابه ، وسار موسى خلفه في جيوشه ، فارتقى إلى الثغر الأعلى ، وافتتح سَرَقُسْطَة وأعمالها ، أوغل في البلاد ، وطارق أمامه لايمرّان بموضع إلاّ فُتحَ عليهما ، وغَنَّمَهما اللهُ تعالى ما فيه . وقد ألقى اللهُ الرعبَ في قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد إلاّ بطلب الصلح ،وموسى يجيء أثر طارق في ذلك كله ، ويكمل ابتداءه ، ويوثّق للناس ما عاهدوه عليه،فلمّا صفا القطر كلّه ، وطامن نفوس مَنْ أقام على سلمه ، ووطّأ لأقدام المسلمين في

---

(١) فجر الأندلس ، ١٠٣ ؛ تاريخ المسلمين ، ١٠١ ؛ دولة الإسلام ، ١/٥٣ .

(٢) العبر ، ٤/٢٥٥ ؛ نفح الطيب ، ١/٢٣٣ (نقلا عن ابن خلدون) .

(٣) نفح الطيب ، ١/٢٧٣ .

(٤) الروض المعطار ، ١٩٥ .

الحلول به ، أقام لتمييز ذلك وقتاً ، وأمضى المسلمين إلى إفرنجة ففتحوا وغنموا ، وسلموا وعَلَوْا وأوغلوا ، حتى انتهوا إلى وادي رُودَنُهْ »[1] .

لعل موسى أقام في سَرَقُسْطَة في هذا الوقت متخذاً منها مقراً – يرسم خُطَط الفتح – ومركزاً تخرج منه فرق الجند للقيام بعمليات الفتح . وغير بعيد أن موسى وجّه الفرق لفتح المدن السابقة وغيرها ، وربما افتتح هو بنفسه بعضها . وهي أمور غير واضحة تماماً في النصوص لدينا ، التي مازال فيها غموض حول بعض أمور الفتح وفجوات حول البعض الآخر ، مثلما مرّ بنا في فتح بَرْشَلُونَة . كما لم أجد أخباراً تتعلق بفتح بعض مدن ساحل الأندلس الشرقي مثل بَلَنْسِيَة وطُرْطُوشَة .

يذكر شكيب أرسلان أنه « في سنة ٧١٤ صارت بَلَنْسِيَة مدينة إسلامية بعد أن فتحها طارق هي والمدن التي تجاورها مثل سَاقُونْتَة وشَاطِبَة ودَانية . »[2] وقد يكون استند في ذلك إلى مصدر ، لكنه لم يذكره .

في خبر طريف يُورده ابن سعيد في **مُغْرِبه** عن سَرَقُسْطَة التي « التفّت عليها أنهارها الأربعة . . . وأشهرها نهر جِلّق ، وشَرب موسى بن نُصَيْر فاتح الأندلس من ماء نهر جِلّق ، فاستعذبه ، وحكم أنه لم يشرب بالأندلس ماءً أعذب منه »[3] . لكن هذا الخبر لم يبين لنا الموضع الذي شَرِب منه موسى . وهو أمر يفيد – إلى أي حد – في معرفة بعض خط سير موسى . فهل شرب من هذا النهر عند مدينة سَرَقُسْطَة أم خارجها ؟ لأن نهر جِلّق (Gallego) أحد الروافد التي تغذي نهر إبْرُهْ (Ebro) الذي تقع عليه مدينة سَرَقُسْطَة .

يروي المَقَّري – نقلاً عن مجهول – نفسَ الخبر بشكل يزيد الأمر صُعوبة ، حيث يذكر « أن موسى بن نُصَيْر شَرِب من ماء نهر جِلّق بسَرَقُسْطَة فاستعذبه »[4] .

---

(١) نفح الطيب ، ١/٢٧٣ .

(٢) الحلل السندسية ، ٣/٥٠ . ساقونته (Sagunto) هي مدينة مربيطر (Murviedro) الأندلسية التي تبعد ٢١ كم شمال بلنسية . وشاطبة (Jativa) مدينة على بعد ٥٦ كم جنوب غرب بلنسية . ودانية (Denia) مدينة على بعد مماثل تقريباً جنوب شرق بلنسية .

(٣) المغرب في حلى المغرب ، ٢/٤٣٤ (لعله نقلا عن المسهب للحجاري) .

(٤) نفح الطيب ، ١/١٥٠ . كذلك : الحلل السندسية ، ٢/١١٩ .

ويفهم منه أن جِلّق يمر بسَرَقُسْطَة . ويقترب العُذْري من هذا حين يقول : «ولمدينة سَرَقُسْطَة سُقيا من نهر جِلّق »[1]. السبب في هذه الصعوبة أن جِلّق – على ما يبدو – خارج سَرَقُسْطَة . لعلنا نخرج من هذه الصعوبة حين يمكن اعتبار أن المقصود هنا منطقة (أحواز) سَرَقُسْطَة لا المدينة . الصعوبة عارضة إذا صحّ لها هذا الحل تبقى مسألة التعرف على نهر جِلّق ليصح الانتفاع بها[2] .

---

(١) نصوص عن الأندلس ، ٢٢ .

(٢) استدعى هذا الأمر دراسة الأخبار الواردة عن نهر جلق ومعرفة خط سيره والبحث عن مصادر أخرى تساعدنا في تعيين الموضع . مما اقتضى إنفاق ساعات – لمسألة جانبية – في المتابعة التي لم تخرج بنتيجةحاسمة . ويفهم له أكثر من موضع ، من الشروح المتوفرة والخرائط (قارن : نصوص عن الأندلس ، ١٥٢ ، الحاشية) . وقد زار شكيب أرسلان إسبانيا ، ورأى هذه المنطقة ، وحدثنا عن جلق في أكثر من موضع من حلله . وذكر وادي جلق ، ويوقعه يمنى نهر ابره (جنوباً) ثم يوقعه على يسراه (شمالا) . الحلل السندسية ، ٢/٩٤ ، ١١٣ . فهل أن الوادي يشكل كل هذه المنطقة ؟

يتحدث أرسلان عن نهر جلق « الذي يمر بأراضي سرقسطة ، ويتصل بابرة . » الحلل ، ٢/١١٦ . وهذا يؤيد ما قيل قبل أسطر . لكنه هنا يفيدنا في بيان موقع سرقسطة بالنسبة لإبره ، تلي العبارة السابقة مباشرة « فأما سرقسطة فهي على الضفة اليمنى من إبرة ولها ربض على الضفة اليسرى منه . ويقال لهذا الرَبض الطاباس (Altavas) وبين البلدة والربض جسر حجر . » الحلل ، ٢/١١٦ . ويقول العذري عن نهر جلق بأنه « شرق من مدينة سرقسطة ، وهو يسقى جناتهم المعروفة بالربض وجلق ». نصوص عن الأندلس ، ٢٢ .

ويبين ذلك أرسلان فيقول : « ومن سرقسطة يمر الخط الحديدي على الضفة اليمنى من نهر جلق » الحلل ، ٢/١٧٧ .

فوقع نهر جلق في الجهة اليسرى (الشمالية) لإبره ، وينزل جلق عليه من الجهة الشرقية لسرقسطة ويسقي بعض أحوازها . ويفهم منه أن جلق ليس في مدينة سرقسطة ولا يمر بها .

يفهم من بعض النصوص القديمة لدى الجغرافيين الأندلسيين أن نهر جلق ينبع من شمال شرق إسبانيا ، قرب جبال البرت من جبال الشيرطانيين في منطقة شيرطانية أو شرطانية (Cerdaña) وينحدر جنوباً . وربما له أكثر من منبع يمر أحدها بناحية وشقة وبربشتر (Barbastro) يلتحق به ، فيمر بمدينة لاردة (Lerída) ثم يصب في نهر إبره في منطقة الثغر الأعلى شرق مدينة سرقسطة .

وأكبر نص لدينا عن جلق ما ورد في المتبقي من مسالك العذري – زيادة لما سبق اقتباسه – الذي يجعل جلق إقليما ، مثل عبارته السابقة ، وهو : « وإقليم جلق ، ونهره يسقي ما وازى قنطرة سرقسطة عشرون ميلا ، ومخرج نهر جلق من جبال السيرطانيين ، ثم يخرج إلى ناحية وشقة إلى سرقسطة ويقع في نهر إبره ، والجزء الأعلى من نهر جلق يروي من الصخيرة إلى منزل حسان إلى قنطرة سرقسطة عشرون ميلا . » =

٨ – الجهاد وراء البُرْت

تذكر بعض المصادر أن موسى افتتح مناطق عَبْر جبال البُرْت في الأرض الكبيرة، وأنه قاد هذا الجهاد بنفسه أو بالسرايا التي أرسلها . فتح الجيش الإسلامي أماكن جنوب فرنسا من بلاد الفرنجة : قَرْقَشُونَة (Carcasona , Carcassonne) وأَرْبُونَة (Narbonne , Narbona) وأَبِنْيون (Avignon , Avinon, Avinionum) ولُوذون (Lyon) على وادي رُودَنُهْ ، وهو : نهر الرون (Rhone, Rodano, Rhodanus) .

ويستشف هذا من عدة نصوص تاريخية ، ضمنها نص ابن حَيَّان السابق واللاحق[١] . لكن أليس من الصعوبة القيام بمثل هذا الجهاد في أيام الفتح الأولى ؟ فهل حدث أي خلط في الأخبار بين ما فتحه المسلمون في جهادهم الأول وبين ما فتحوه فيما بعد ؟ ليس من السهل الجواب الآن . وغير بعيد أن يكون موسى قد وجّه سَرِيَّة أو أكثر لاختبار هـذه المناطق ، سرايا سريعة الحركة خفيفة المهمة ، أشْبَهَ بسَرِيَّة طَرِيف الاستطلاعية في فتح الأندلس .

= (نصوص عن الأندلس ، العذري ، ٢٤ . ولم يتيسر معرفة موضع الصخرة ومنزل حسان) . يؤيد هذا نص للرازي ، وهو : « نهر جلق ، وهو يقع في نهر إبره ، ومخرجه من جبال السيرطانيين . » صفة الأندلس ، الرازي ، مجلة الأندلس الإسبانية ، ١٨/١/١٠٤ . نشرت بعنوان :

La “ Description de l’Espagne ” d’Ahmad al-Razi, *AL-ANDALUS* (1935), Vol. XVIII, fasc. i, 51-108.

وحين نستصوب هذا الفهم يكون موسى قد شرب من مائه في موضع خارج مدينة سرقسطة ، شرقها أو شمالها . ولا بد أن ذلك تم حين اتجه لفتح مناطق هناك . أما خلال سيره نحو برشلونة ، التي تذكر بعض المصادر أنه هو قام بفتحها ، أو حين سار إلى شمال شرق إسبانيا صوب جبال البرت وأعالي ذلك الركن من شبه الجزيرة الإيبيرية . والثاني أرجح سواء حين كان يجاهد مفتتحاً تلك المناطق ، أو في عبوره – هو أو سراياه – جبال البرت لفتح ما وراءها حتى أربونة على الشاطىء الشرقي لجنوب فرنسا أو غيرها هناك .

بعد هذا كله توفرت خرائط مفصلة تجعل جلق هو النهر الذي ينبع من الشمال قرب جبال البرت وعند معبرها الثاني ، منحدراً نحو الجنوب ليقع في إبره عند سرقسطة ، ماراً قريباً من مدينة جاقة وله أكثر من مجرى . انظر : الحلل السندسية ، ٢/١٠٩ . فهل أن أحدها يسمى جلق أم الرئيسي منها ؟ إذا كان هذا نهر جلق فهل أخطأ الجغرافيون الأندلسيون في تعيينه أم أن شرطانية في عرفهم تمتد حتى جاقة ؟ الآن وقد انتهت مسألة نهر جلق ، فاذا وجد فيها شيء من الاستطراد فلا يخلو من نفع . وقد كان الحرص لعرضها بالشكل الذي تدرج فيه البحث عموماً وقادت إليه المتابعة .

(١) نفح الطيب ، ١/٢٧٣ – ٢٧٤ .

أما الطريق التي سلكتها السرايا فهي إحدى الممرات المعروفة عَبْر جبال البُرْت (البُرْتات) المسماة «الأبواب» في شمال شبه الجزيرة الإيبيرية إلى جنوب فرنسا في الأرض الكبيرة .

آ ــ جبال البُرْت وممراتُها

يحسن هنا الحديث عن جبال البُرْت للتعرف على البيئة الجغرافية ولتتضح الصورة.
البُرْت (جُمعت : بُرْتات) كلمة لاتينية : Portus = ممر أو ميناء (Sp.Puerto) .
وهي ذات صلة بالكلمة اللاتينية : Porta = باب أو مدخل (Sp.Puerta,Fr.porte) .

استعمل الكتاب الأندلسيون تسمية الجبل الفرنجية كما سمعوها ، وجمعت أحياناً، فقالوا : «جبال البُرْت» أو «جبال البُرْتات» ، وأحياناً بتعريب التسمية : «الأبواب» . وحين تحدث أحمد بن محمد الرازي (٢٧٤ ــ ٣٤٤ هـ)[١] عن جبال الجزيرة الأندلسية قال ــ بعد أن ذكر جبل قُرْطُبَة ــ : «أما الجبل الثاني فمبتدؤه عند ساحل البحر الشرقي مقبلاً من ناحية أُرْبُونَة ، وهو الحاجز بين الأندلس وبلاد إفْرَنجَة ، والفرنجة تُسَميه جبل رُنْشِفَالَة ، ويسير موازياً لبلد بَشْقَايَة وبلد أشْتُرِيس ومنتهاه عند البحر في جِلِّيقِيَة في أقصى الشمال .»[٢] ، ثم يعدّد بقية الجبال . كذلك يقول : «وبينهما [البحر المحيط (المحيط الأطلسي) والبحر المتوسط] البر الذي يُعرف بالأبواب ، وهو المدخل إلى بلد الأندلس من الأرض الكبيرة على بلد إفْرَنْجَة ، ومسافته بين البحرين مسيرة يومين»[٣] .

كذلك قال أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم بن النَّظَّام[٤] عن جبال البُرْت : «منه المدخلُ إلى الأرض الكبيرة التي يقال لها الأبواب ، ومِنْ قِبَلِه يتصل بلد الأندلس بتلك البلاد المعروفة بالأرض الكبيرة ذات الألْسُن المختلفة .»[٥]

---

(١) تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ٤٢/١ (رقم : ١٣٧) .
(٢) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مؤنس ، ٦٤ (مترجما عن الأصل البرتغالي لجغرافية الرازي التي فقد أصلها العربي) . (٣) نفح الطيب ، ١٣٠/١ .
(٤) انظر عنه : التكملة ، ٧٨٨/٢ (رقم : ١٩٣٣) ؛ تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ١٠٢ .
(٥) نفح الطيب ، المقري ، ١٣٣/١ .

ويتحدث البكري عن جبال الأندلس فيقول : « ومنها جبل البُرْت ، وهو الحاجز بين بلاد الإسلام وبلد غاليش . ومبتدؤه من البحر القِبْلي المتوسط المجاور طُرْطُوشَة ومنتهاه إلى البحر الغربي بين الأُشْبُونَة وجِلِّيقِيَة . »[1]

وقريب من هذا ما قاله ابن غالب الأندلسي حين تحدث عن جبال الأندلس في كتابه **تعليق مُنتقى من فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس** : « والجبل الثاني المُنتهِي إليه الحاجزُ بين الأندلس وبلد إفرنجة ، ومبدؤه من البحر القبلي ومنتهاه البحرُ الغربيّ وهو المحيط ، المسمى البرنيوه »[2] .

وقال ابن سعيد الأندلسي فيما ينقله المَقَّرِي في **نَفْح الطِّيب** : « وهنالك الحاجز الذي يفصل بين الأندلس والأرض الكبيرة ذات الأَلْسُن الكثيرة ، وفي هذا المكان جبل البُرْت الفاصل في الحاجز المذكور وفيه الأبواب »[3] .

وتوجد في جبال البُرْت أربعة ممرات أو خمسه . وصف الإدريسي (٥٦٠ هـ) أربعة منها ، يبدؤها بالترتيب من الشرق (على البحر المتوسط) إلى الغرب (على المحيط الأطلسي) ، عند خليج بسكاي ، وهذا نصه : « وفيه أربعة أبواب فيها مضايق يدخلها الفارس بعد الفارس ، وهذه الأبواب عِراض لها مسافات ، وهي مخوفة الطرق . وأحد هذه الأبواب الباب الذي في ناحية بَرْشَلُونَة ويسمى بُرْت جَاقَة ، والباب الثاني الذي يليه يسمى برت أشبره ، والباب الثالث منها يسمى بُرْت شِيزْرُو وطوله في عرض الجبل ٣٥ ميلاً ، والباب الرابع منها يسمى بُرْت بَيُّونَة . ويتصل بكل بُرْت منها مدن في الجهتين ، فمما يلي بُرْت شِيزْرُو مدينة بَنْبُلُونَة ، والباب المسمى باب جَاقة عليه مدينة جَاقة . وسنذكر ماخلف هذا الجبل وما اتصل به من بلاد الروم بعد هذا بحول الله »[4]. فالممرات ـ كما عند الإدريسي ، وغيره ـ هي :

(١) جغرافية الأندلس وأوربا ، ٨٥ .

(٢) مجلة معهد المخطوطات العربية ، ٣٠٧/٢/١ .

(٣) نفح الطيب ، ١٢٨/١ .

(٤) نزهة المشتاق ، ٢٥٢-٢٥٣ (القسم الأوربي) . كذلك : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ٢٧٤ ؛ الحلل السندسية ، ١٠٩/٢ - ١١٠ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ١٧٧/١ ؛ الروض المعطار ، ٦١ ؛ كتاب الجغرافية ، الزهري ، نشر في مجلة الدراسات الشرقية (*Bulletin d études orientales*)

١ ــ بُرْت (ممر) جَاقَة (Jaca) : من جهة بَرْشَلُونَة . يعرف الآن بممر باربينيان (Perpignan) باتجاه بَرْشَلُونَة إلى جَيْرُونَة (Gerona) إلى أُرْبُونَة جهة المتوسط . وهو أكبر الممرات وأقدمها . لكن لماذا سمّاه الإدريسي باسم مدينة جاقة وهي بعيدة عن هذا المكان وجعلها عند بابه ؟ فهي تصح مع الممر الثالث (الباب الثاني كما عند الإدريسي) .

٢ ــ بُرْت بوكيردا (Puigcerda,Puycerda) : يمر بمنطقة شِرْطانية Cerdaña (Cerdagne) . ولم يذكر الإدريس هذا الممر ، إن كان الممر موجوداً على أيامه .

٣ ــ بُرْت أشبره (Portus Asperi) ، وهو حالياً Somport . وتقع مدينة جَاقة أمام بابه .

٤ ــ بُرْت شِيزْرُو أو الشِزْرى (Portus Cisereus) ، وهو رُنْشِفَالَه ، ويُسَمَّى بالإسبانية Roncesvalles وبالفرنسية Roncevaux . يقع فيه الطريق الواصل من مدينتي بَنْبلُونَة (Pamplona) ورُنْشِفَالَه الإسبانيتين إلى المدينة الفرنسية : شَنْت جوان St. (Saint) Jean-Pied-de-Port .

٥ ــ بُرْت بَيُّونَة (Bayonne) ، مدينة فرنسية على شاطئها الجنوبي الغربي. يؤول إليه طريق طُلُوشَه (طُلُوزَه Tolosa) الإسبانية إلى بَيُّونَة .

الواضح أن الجيش الإسلامي في حملات جهاده تلك سلك الممر الأول ، وكذا الحملات التالية أيام الولاة الذاهبة في هذا الاتجاه نحو جنوب وشمال شرقي فرنسا . أما الممر الرابع (رُنْشِفَالَة) فكان مألوفاً لحملات جهاد المسلمين ــ مدة الولاة ــ لما وراء البُرْت تُجاه وسط وجنوب وغرب فرنسا . الظاهر أن حملة عبد الرحمن الغافقي سلكته في عبورها إلى « بَلاط الشهداء » سنة ١١٤ هـ (= ٧٣٢ م) . ومنه سيعبر شارلمان لمهاجمة الأندلس ، فكانت إبادة مؤخرة جيشه حين العودة سنة ١٦١ هـ (= ٧٧٨ م) .

= ٢٠٣/٢١ (فقرة رقم : ٢٧١) ؛

Andalusian diplomatic relations with Western Europe, 144 ; *Muslim colonies in France, Northern Italy and Switzerland*, Reinaud, 86 (Eng. tr.).

والترجمة العربية : تاريخ غزوات العرب ، ١١٦ (حاشية) ، ١٥٣ .

ب – مناقشة الجهاد وراء البُرْت

يذكر الحِجَاري في **المُسْهِب** : « أن موسى بن نُصَيْر – نصره اللهُ نصراً ما عليه مزيد – وأجْفَلَتْ ملوك النصاري بين يديه ، حتى خرج على باب الأندلس الذي في الجبل الحاجز بينها وبين الأرض الكبيرة »[1] . ويشير ابن خلدون إلى أن موسى توغل إلى « أُرْبُونَة في الجَوْف »[2] (الشمال) . بل إن قضية حِبَّان التابعي[3] – الآتي الذكر – تفيد أن موسى قاد هذا الجهاد بنفسه .

لكن ذلك قد يعارض خُطة الفتح الإسلامي التي تقتضي التؤدة ، للقيام بالفتح النظيف المتأصل وأنه فتح عقيدة . زيادة على المدة بين السير من طُلَيْطُلَة نحو الشمال والعودة إلى المشرق . هل هي كافية لذلك كله ، بجانب فتح الشمال الإسباني ؟ لا تغيب عن قادة الفتح الإسلامي للأندلس محاذير مثل هذه السرعة ، وما تخلفها من جيوب وفلول وتأخير كثير عن فتح الشمال الإسباني ، للذهاب في عمليات حربية خلف البُرْت تقتضي تحضيرات جديدة بعد الانتهاء من فتح شبه الجزيرة الإيبيرية وإقرار الأوضاع فيها . وقد يكون مما لام موسى طارقاً فيه إسراعه في الفتح .

إذا أخذنا بهذه الرواية نفهم منها أن موسى أرسل فرقة أو أكثر – إن لم يَقُدْها بنفسه – ما دام قد اقترب منها عند جبال البُرْت – لاستكشافها – في القيام بنشاط عام وجرد للمنطقة . يُعين في هذا الأخذُ بما قيل عن فكرة موسى باختراق أوربا كما سيأتي بيانه .

قول ابن حيَّان التالي – كما ينقله المَقَّري – لا يمنع هذا الفهم . فإن سرايا قامت بفتح بعض مدن إسبانيا الشمالية وبلد الفرَنْجَة « وقد دَوَّخَت بُعُوثُ طارق وسَرَاياه بلد إفرنجة فملكت مدينتي بَرْشَلُونَة وأُرْبُونَة وصخرة أَبِنْيون وحصن لُوذون على

(١) نفح الطيب ، ٢٧٤/١ .

(٢) العبر ، ٢٥٥/٤ (نقله المقري : نفح الطيب ، ٢٣٣/١) .

(٣) تاريخ علماء الأندلس ، ١٢٢/١ ؛ نفح الطيب ، ٢٧٨/١ ، ٩/٣ .

وادي رُودَنُهْ ، فبعدوا عن الساحل الذي منه دخلوا جدّاً »[1] . ثم يشير إلى أحداث وقتال جرت هناك .

لدينا خبر آخر يؤكد إرسال سَرايا إلى ما وراء البُرْت . تذكرت المصادر عن حِبَّان بن أبي جَبَلَة (نحو ١٢٢ هـ) ـ أحد التابعين الداخلين للأندلس مع موسى ـ أنه اشترك في فتح قَرْقَشُونَة جنوبي فرنسا : « أن حِبَّان بن أبي جَبَلَة غزا مع موسى ابن نُصَيْر حين افتتح الأندلس حتى انتهى إلى حِصْن من حصونها يقال له : قَرْقَشونَة ، فَتُوُفِّيَ بها والله أعلم »[2] . كذلك أورده المَقَّرِي مع اختلاف : بأن حِبَّان « غزا مع موسى حين افتتح الأندلس ، وانتهى معه إلى حِصْن من حصون العدو يقال له قَرْقَشُونَة »[3] .

يتضح أنه مهما كان الاختلاف في طبيعة وقيادة ومدى هذا الجهاد ـ أيام الفتح ، في حملة موسى وطارق ـ فإن المسلمين قد جَرَّبَت جيوشهم فيه أماكن فيما وراء البُرْت .

إذا كان اختبار بلاد غَاليش أو غَالة (Gaule , Galia , Gaul) من الأرض الكبيرة قد تم بهذا الشكل ، فهل أن موسى وطارقاً كانا ينتظران حين القيام بهذا النشاط ؟ الأمر لا يبدو كذلك ، فإن موسى وطارقاً استمرا في عمليات الجهاد شمالي إسبانيا .

٩ ـ تتمة فتح شمال شبه الجزيرة الإيبيرية

تذكر بعض الدراسات الحديثة[4] أن الجيش الإسلامي ـ بقيادة موسى وطارق ـ سلك خطَّين في فتح الشمال الإسباني . ربما نفهم ذلك من فتوحات قام بها كل منهما

(١) نفح الطيب ، ١/٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

(٢) تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ١/١٢٣ (رقم : ٣٨٣) .

(٣) نفح الطيب ، ١/٢٧٨ . كذلك : ٣/٩ . راجع عنها : تاريخ غزوات العرب ، ٢٩ .

(٤) فجر الأندلس ، ١٠٤ ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ١/٥٣ .

على انفراد ثم التقيا[1] . ولعل ذلك الوضع كان أساساً لهذا الفهم . لكن أين مكانه ؟ إنه غير واضح تماماً .

من الممكن أن الثَّغْر الأعلى (سَرَقُسْطَة وأعمالها) جُعِلَ مركزاً للنشاط السابق . وكان إرسال السرايا إلى جهات متعددة – من كلا القائدين أو أحدهما – أسلوباً ألِفناه . ولا بدّ أنه اتُّبِع هنا ، وسنراه يُستعمل في أماكن أخرى لِمَا يأتي من عمليات الجهاد . وأيّاً ما كانت وجهة نشاط موسى وكيفما اتبع من أسلوب في الفتح فإنه – منفرداً أو مع طارق – كان غاية في الحركة النشطة والفاعلية المندفعة في تلك المنطقة خلال المدة كلها . فلا يمكن أن يمر يوم يكون فيه عُطْلاً عن العمل وعن الجهاد لإعلاء كلمة الله .

حتى لو لم يذهب هو بنفسه لما وراء البُرْت فإنه استمر في ممارسة أعمال الفتح في مناطق الثغر الأعلى وما بعده في اتجاه الشرق والشمال . يذكر ابن عِذاري أن موسى افتتح سَرَقُسْطَة « وافتتح ماحولها من الحصون والمعاقل . »[2] لعل فيما ذكر حول جلّق له ارتباط بهذا الأمر .

اتخذ الجيش الإسلامي اتجاهين تحرّك فيه ، لفتح الشمال الإسباني . قاد أحدهما طارق وقاد موسى الآخر . وقد اقتضى التعرفُ على هذا الأمر ومعرفة طريق سيرهما بذلَ الجهد ومتابعة النصوص والدراسات وتركيز النظرة فيها ، مع مراعاة مجرايات الأحداث واعتبار الارتباطات الأخرى والإشارات المتنوعة . لعل الصورة التالية – رغم حاجتنا إلى نصوص أخرى ننتظر ظهورها بعون الله تعالى – قريبة من الواقع وتتسم بقدر من الوضوح .

سلك طارق من سَرَقُسْطَة يساراً ، مواجهاً تيَّار وادي إبْرُهْ ، نحو الغرب والشمال الغربي ، لعله محاذياً يمين النهر (ضِفَّتَه الجنوبية) . فسار بجيشه باتجاه بلاد البَشْكُنْس (نَبَارّة ، نافار) . في حين سلك موسى يميناً ، مُتَحَدِّراً مع إبْرُهْ نحو الشرق والشمال الشرقي ، محاذياً يسار النهر (ضفته اليسرى) .

---

(٢) نفح الطيب ، ١/٢٧٥ – ٢٧٦ .

(٣) البيان المغرب ، ٢/١٦ .

لا تذكر النصوص المتوفرة مواجهات قوية مع الجيش الإسلامي في هذه المناطق . ذلك لأن القُوط كانت تقود المقاتِلة ، فلما ذهب فَلُّهم وزالت كثرتهم ، لم يجد أهل البلاد مصلحة أو إمكانية في المقاومة بعد سقوط أكثر الجزيرة الإيبيرية بأيدي المسلمين. بل لعل ذلك في مصلحتهم ، بعد أن تسامعوا عن خلق الفاتحين وحسن معاملتهم.وكله غرس عقيدتهم الإسلامية السمحة التي لها خرجوا وبها انتصروا ، ووجد الناس — من كل جنس — فيها الحياة الآمنة . وللأسف ، فزيادة على غياب وفير من المعلومات الخاصة بهذه الأحداث ، نجهل الكثير من نشاط الدعوة للفاتحين التي جعلت الناس يدخلون في هذا الدين الحنيف[1] . كما أن وثائق المصالحات والعهود لم تصلنا رغم حدوثها — ربما متعددة — كما يستبين من النصوص . وهو أمر يفضّله الفاتحون ويسارعون إليه .

يُذكر أن حاكماً هناك في منطقة البَشْكُنس هو قَسِيّ دخل في عهد المسلمين واعتنق الإسلام وذهب إلى الشام لمقابلة الخليفة[2] . وغير واضح المنطقة التي كان يحكمها قَسِيّ هذا ، الذي كان من أُسرته ـ فيما بعد ـ حكام لبعض مدن الثغر الأعلى . ولما كانت لغة البشكنس غير اللاتينية المعهودة في إسبانيا وصف صاحب **الروض المعطار** أهل بَنْبُلُونة (Pamplona) العاصمة بأن« أكثرهم متكلمون بالبَشْقِيَّة لا يفهمون »[3] ، فلا بدّ أن يكون مع المسلمين مَن يعرف هذه اللغة ، وذلك أمر بديهي . وقريب من هذا قول صاحب **البيان المُغْرب** وهو يتحدث عن موسى : « وفتح بلاد البَشْكُنْس وأوغل في بلادهم حتى أتى قوماً كالبهائم »[4] . وواضحٌ من هذا أن موسى هو الذي افتتح بلاد البَشْكُنْس . فربما يكون قد التقى بطارق وتعاون معه في فتحها ، أو

---

(١) انظر عن هذا الموضوع مثلا : البيان المغرب ، ٤١/١ ؛ اختصار الأخبار ، ١٥ ؛ نفح الطيب ، ٢٧٨/١ ؛ معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، الدباغ ، ٢٧/١ — ٣٣ ، ١٨٠ ، ٢١٣ ، ٢٢٣ ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ٢٥/١ .

(٢) جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم ، ٥٠٢ ؛ فجر الأندلس ، ١٠٤ ؛ تاريخ المسلمين ، ١٠٢ ؛ *Andalusian diplomatic relations*, 102.

(٣) الروض المعطار ، ٥٦ .

(٤) البيان المغرب ، ١٦/٢ .

لعله يعني أن ذلك تمّ بالبعوث والسرايا التي قاد طارق بعضها ، إذا كنا متأكدين من خط سير كل منهما .

فهل كان قَسِيّ حاكم بَنْبُلُونَة أو أحد الزعماء فيها ، وهل أن عَهْد بَنْبُلُونَة الذي جاء ذكره – دون نصه الأصلي – تم في هذا الوقت معه ؟ جاء ذكر هذا العهد مرتين في كتاب **تاريخ علماء الأندلس** لابن الفَرَضِي (قرطبة ٣٥٠ – ٤٠٣ هـ) حين ترجم علي بن رَبَاح (١٥ – إفريقية ١١٤ هـ أو بعدها)[١] وحنش الصنعاني (١٠٠ هـ)[٢] من التابعين الداخلين للأندلس ، بأن أحد الوزراء « وَجَد شهادة علي بن رَبَاح وحنش بن عبد الله في عهد بَنْبُلُونَة »[٣] .

آ – فتح جِلِّيقِيَة

ثمّ سار طارق بن زياد نحو الغَرب ، لعله بمحاذاة سلسلة جبال قَنْتَبْرِيَة (كنتبرية = La Cordillera Cantabrica, Cantabrian Mtns) ، من جنوبها . تعرف هذه السلسلة الجبلية عند بعض الجغرافيين المسلمين – منهم الإدريسي – باسم « شَيْبَة »[٤] (Mons Aseuva) . تقدم يفتتح المدن حتى دخل جِلِّيقِيَة ، فافتتح مدن : أَمَايَه[٥] (Amaya) وأَشْتُرْقَة (Astorga)[٦] ولِيون . لم أجد ذلك كله في المصادر الأولى ، لكن في بعض الدراسات الحديثة ، دون بيان السند[٧] .

أما موسى – بعد أن افتتح مناطق في الشرق والشمال الشرقي وجاهد وراء البُرْت ، بالسرايا أرسلها ، أو بنفسه – فقد سلك طريقه ، يسار وادي إبْرُه (ضِفَّته

---

(١) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، الدباغ ، ٢٠١/١ .

(٢) معالم الإيمان ، ١٨٨/١ . يقول : « كانت وفاته بإفريقية سنة مئة » .

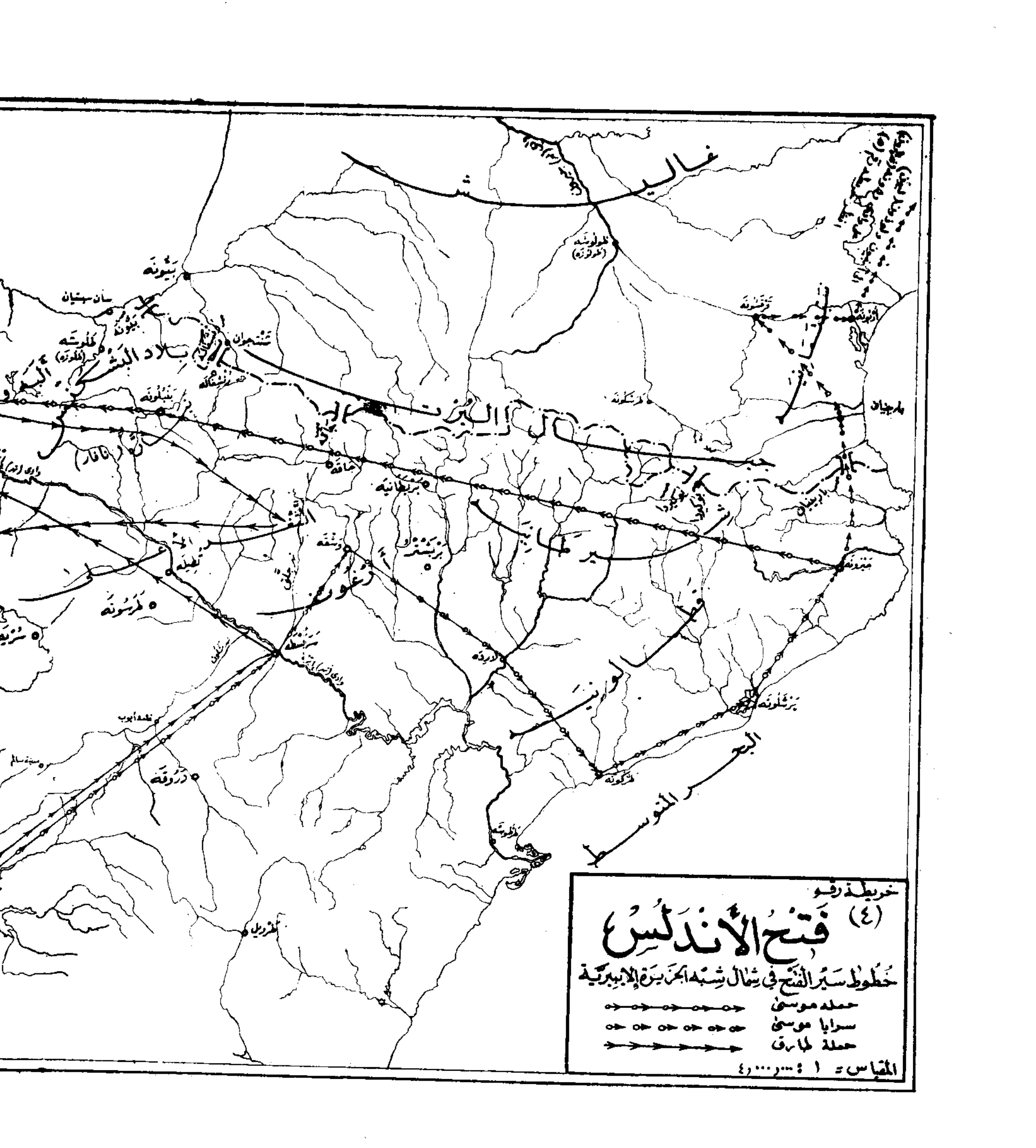
(٣) تاريخ علماء الأندلس ، ١٢٥/١ (رقم : ٣٩١ ، ترجمة حنش) ، ٣١٠/١ (رقم : ٩١٥ ، ترجمة علي بن رباح) .

(٤) انظر : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ٢٦٦ ، ٣٧٤ . قارن : الروض ، ١٤٩ .

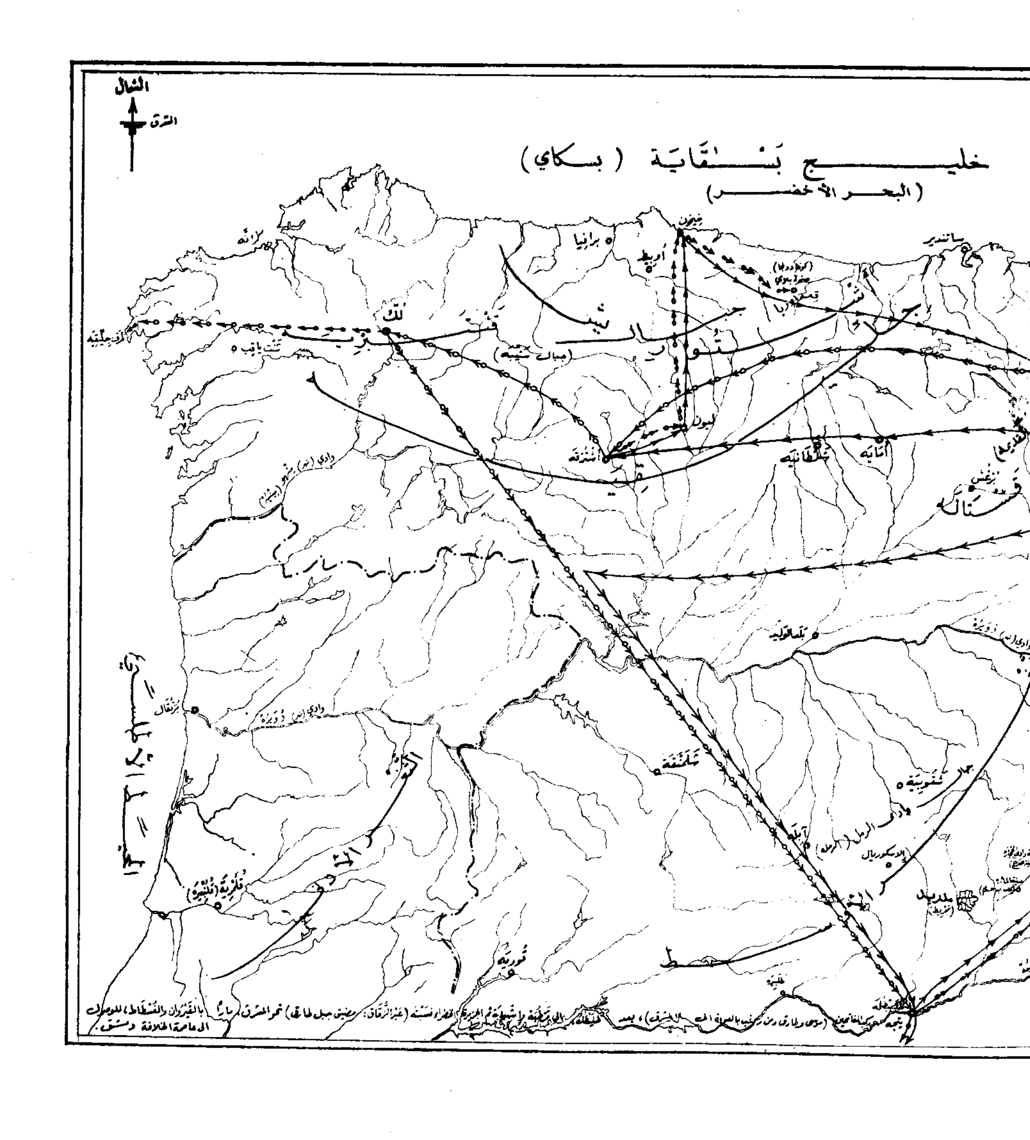
(٥) أخبار مجموعة ، ١٥ .

(٦) نفح الطيب ، ٢٦٥/١ ، ٢٧١ ؛ تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٥ . وَضع ابن القوطية تاريخاً آخر لفتحها ، وهو وهم .

(٧) فجر الأندلس ، ١٠٤ .



خريطة رقم (٤)
فتح الأندلس
خطوط سير الفتح في شمال شبه الجزيرة الإيبرية
حملة موسى
سرايا موسى
حملة طارق
المقياس
البحر المتوسط
برشلونة
طركونة
سرقسطة
لاردة
بربشتر
بنبلونة
بيونة
سان سبستيان
بلاد البشكنس
أربونة
قرقشونة
طلوشة
دروقة



خليج بسقاية (بسكاي)
(البحر الأخضر)
الشمال
الشرق
برانيا
أويط
ساتندير
لك
شنت ياقب
أسترقة
أماية
قرطبة
فلورية
طليطلة
شقوبية
طلمنكة
ماردة
برتقال
قلمرية
قورية
مدريد

الشمالية) ، نحو الشمال والغرب ، في خط يكاد يتوازى مع سير طارق ، مطهـّراً المنطقة من الجيوب ومفتتحاً ما هنالك من مدن في مناطق عرفت عند الكتاب الأندلسيين باسم أَلَبـَه (Alava) والقِـلاع (Castella , Castile , Castella Vetula) . والقِـلاع هي قَشْتَالَة القديمة (Castilla la Vieja) مقابل قَشْتَالَة الجديدة (Castilla la Nueva) فيما بعد التي شملت طُلَيْطُلَة وماحولها[1] . وسماها البكري « قَشْتِيلَة » ثم قال : « وقَشْتِيلَة القصوى وقَشْتِيلَة الدنيا »[2] .

ربما وافى موسى مدينة أَشْتُرْقَة . وهذا يعني أن لقاءه بطارق كان فيها حسب ترتيب سابق . ثم سارا سويّةً لإتمام عمليّات الفتح . هذا وتردُ في **نَفْح الطّيب** أخبار عن موسى تذكر لقاءه الأول بطارق عند طَلَبِيرَة تُعين على هذا الفهم : « وقيل : إن موسى تقدّم من مارِدة فدخل جِلّيقِيَة من فَج نُسب إليه ، فخرقها حتى وافى طارقَ بن زياد صاحب مقدمته بمدينة أَسْتُرْقَة »[3] . ولا نعلم المدة التي استغرقتها هذه الأعمال ، منذ افتتاح سَرَقُسْطَة ومتى كان وصولهم أَشْتُرْقَة. وهذا يعني أن بقية الفتح في الشمال الإسباني ، في أَشْتُوريش (Asturias) وجِلّيقِيَة (Galicia) ، قاما به سوية . وهو مناسب ، لأننا لا نعرف — بعد هذا — عن نشاط طارق شيئاً ، فيكون معقولاً أنهما سارا سوية بقيادة موسى العامة . ولعلهما وضعا خُطة لدخول أَشْتُوريش وجِلّيقِيَة . وفعلاً سارت أعمال الفتح في هذه المناطق .

لكن رواية النفح تذكر وصول رسول الخليفة الوليد في هذا الوقت ، يستدعي موسى بالقفول إلى المشرق وترك عمليات الفتح[4] . وهو موضوع يؤجّل الحديث فيه حتى إتمام عمليات الفتح هذه .

يبدو من المناسب أن يكون عَمِل كل من موسى وطارق في جهة أو أنهما عَمِلا

---

(١) انظر : دولة الإسلام ، ٢١٦/١ ؛ الحلة السيراء ، ١٣٥/١ ؛ الحلل السندسية ، ٣١٧/١ — ٣٢١ ، ٣٥٩ .

(٢) جغرافية الأندلس وأوروبا ، ٧٢ . عن القشتالتين انظر كذلك : الحلل السندسية ، ٣١٧/١ — ٣٢٠ .

(٣) نفح الطيب ، ٢٧١/١ . كذلك : تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٥ . قارن : فجر الأندلس ، ١٠٥—١٠٦ .

(٤) أورده المقري (نفح ، ٢٧٥/١ — ٢٧٦) دون أن يشير إلى من أخذ عنه .

سوية ، وهما يرسلان السرايا إلى الجهات المختلفة كما سيرد . النصوص في ذلك ضئيلة لا تلقي إلا ضياءاً باهتاً . ولدينا بعض الأعمال الحربية والفتوحات التي تُذكر مع اسم موسى ، وإن كان هذا لا يمنع أن يكون طارق معه ولموسى القيادة العامة . لكن عبارة في **نَفْح الطِّيب** تذكر أن لقاء طارق بموسى كان بعد خروج موسى من جِلِّيقِيَة لترك الأندلس ، استجابة لاستدعاء الخليفة « فانقلع حينئذ من مدينة لُكّ بجليقية ، وخرج على الفَج المعروف بفَج موسى ، ووافاه طارق في الطريق مُنْصَرِفاً من الثَّغْر الأعلى ، فأقفله مع نفسه ومَضَيَا جميعاً ومعهما من الناس مَن اختار القُفُول »[1] .

يذكر المَقَّرِي في نص لا يُعرف كاتبه أنه في هذا الوقت لم يبق أمام الفاتحين غير جِلِّيقِيَة[2] . ولعله استعمل جِلِّيقِيَة بمفهوم أوسع مما تدل عليه المقابلة الإسبانية (Galicia) . فهي عنده ، كما عند كثير من الكتاب المسلمين ، شاملة لمنطقة أشْتُوريش أيضاً[3] . ذلك واضح من بعض الأماكن التي أشار إلى فتحها فيها ، كصخرة بِلاي (Peña de Pelayo) في كوفادونجا (Covadonga) . بل جعل المَقَّري وغيرُه ـ بكل وضوح ـ أشْتُوريش ضمن جِلِّيقِيَة[4] ، حيث ذكر أنه لم يبقَ في جِلِّيقِيَة غير الصخرة[5] ، التي هي في أشْتُورِيش . وجعل بعض الكتاب الأندلسيين ـ كأبي عبيد البكري ـ جِلِّيقِيَة شاملة لأكثر مناطق إسبانيا الشمالية بضمنها أشْتُورِيش[6] ، تقع فيها الصخرة . ولو أن ذلك ليس دواماً ، لكن انضواء أشْتُورِيش في مفهوم مصطلح جِلِّيقِيَة ، عند كتاب الأندلس ، ليس غريباً .

يبدو من نص ، مجهول القائل ، أورده المَقَّرِي ـ في هذا الفهم من مدلول جِلِّيقِيَة ـ أنه حوالي هذه المرحلة وصل رسول الخليفة مُغيث الرومي يستدعي موسى إلى دمشق ، قبل وصوله إلى أشْتُرْقَة أو بعده . وكان موسى يعتزم ، بهمة غامرة

---

(١) نفح الطيب ، ١/٢٧٦ .

(٢) نفح الطيب ، ١/٢٧٥ .

(٣) *Adalusian diplomatic relations with Western Europe*, **40**.

(٤) نفح الطيب ، ٤/٣٥٠ ، ٣٥١ .

(٥) نفح الطيب ، ٣/١٧ . كذلك : أخبار مجموعة ، ٢٨ ؛ البيان المغرب ٢/٢٩ .

(٦) جغرافية الأندلس وأوروبا ، ٧١ ـ ٧٣ .

وتَطَلّعٌ فَعّال ، دخول جِلِّيقِيَة « فبينما هو يعمل في ذلك ويُعدُّ له إذ أتاه مُغيثٌ الروميُّ رسولُ الوليد بن عبد الملك ومولاه يأمره بالخروج عن الأندلس والإضراب عن الوغول فيها ، ويأخذه بالقفول إليه ، فساءه ذلك ، وقطع به عن إرادته »(١) .

افتتح الجيش الإسلامي بقيادة موسى مناطق ، بعضها حصينة . منها مدينة أو حصن – وربما تكون مدينة فيها حصن – بارو (Villabaruz) في منطقة مدينة بلد الوليد (Valladolid)(٢) . فإذا وقّعنا بارو في هذا المكان فقد يعني أن موسى افتتحها قبل وصوله أَشْتُرْقَة ومنطقتها ، متجهاً إلى جليقية (الغربية) حيث افتتح فيها أماكن ، منها حصن لُكّ . واتخذه موسى مركزاً للقيام بأعمال الفتح وبَثّ سراياه في مختلف المناطق « فلاطف موسى مغيثاً رسولَ الخليفة ، وسأله إنظاره إلى أن يُنْفِذَ عزمه في الدخول إليها والمسير معه في البلاد أيّاماً ويكون شريكه في الأجر والغنيمة ، ففعل ، ومشى معه حتّى بلغ المَفَازَة ، فافتتح حصن بارو وحصن لُكّ ، فأقام هناك ، وبَثّ السرايا حتّى بلغوا صخرة بِلاي على البحر الأخضر »(٣) .

---

(١) نفح الطيب ، ٢٧٥/١ . (٢) انظر : فجر الأندلس ، ١٠٥ .

(٣) نفح الطيب ، ٢٧٦/١ .

هذا ، وقبل المضي في مناقشة هذا الموضوع – مستعينين بالنص السابق – يشار الى ملاحظتين حوله :

١ – **المفازة** : ما المقصود بالمفازة (في الأندلس) ؟ هل هي اسم علم لمكان معين ، أم مصطلح جغرافي أطلق على مكان أو أكثر ، له نفس الخصائص التي تشبه القفر ، فعرفت بـه كما هو الحال في « الفحص » مثلا ؟ لعل المقصود هنا المنطقة التي تقع بين قشتالة (Castilla) وجليقية الغربية (Galicia) شمال بلد الوليد وجنوب اشتوريش (Asturias) .

لعل لقول أحمد الرازي علاقة بهذا حين تحدث عن أندلسيْن ، فمبتدأ الحوْز الغربي « من ناحية المشرق مع المفازة الخارجة مع الجوف الى بلد شنتمرية طالعاً الى حوز إغريطة المجاورة لطليطلة مائلا إلى الغرب ومجاوراً للبحر المتوسط الموازي لقرطاجنة الحلفاء التي من بلد لورقة » . نفح الطيب ، ١٣١/١ . انظر : صفة الأندلس (من نزهة المشتاق)، ١٧٥ ؛ تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ٢٦٠ . قارن : تاريخ الجغرافية ، ١٠٤ . شنتمرية هنا هي : شنتمرية الشرق ، وهي شنتمرية (أو سهلة) بني رزين (Santa Maria de Albarrcin) .

الحلة السيراء ، ١٠٩/٢ ؛ البيان المغرب ، ٣٠٧/٣ . كذلك : رحلة الأندلس ، ٣٣٢ .

٢ – **الأجر والغنيمة** : أما المشاركة في الأجر والثواب عند الله تعالى فمعلوم ، لان مغيثاً يعين موسى ويمهله لإتمام الفتح ، جهاداً لإعلاء كلمة الله ، فهو فيه معاون . بل ان ابن الشباط ينقل نصاً يؤكد =

غير واضح إذا كان « حِصْن لُك » هذا هو نفسه « مدينة لُك » ، التي يذكرها المَقَّرِي مرتين في نفس الصفحة[1] ، ويجعلها مرة « حِصْن لُك » والثانية « مدينة لُك » وهل هما شيء واحد ؟ وترد عند المَقَّرِي في مكان آخر من **نفحه** على أنها « مدينة »[2] .

يذكر البعض[3]– من غير مصدر – أن « حِصْن لُك » (Luco) حِصْن قرب مدينة أُوبِيط (Oviedo) في أشْتُورِيش ، أما » مدينة لُك » (Lugo أو Maria de Lugo) في جِلِّيقِيَة (الغربية) . وذكر أن « لُك » الجِلِّيقِيَّة (Lugo) اسم « مدينة لُك » ، قاعدة ولايتها وسَمِيَّتُها المعروفة قديماً باسم(Locus Augusti)[4]. وهذا يعني أن « لُك » اسماً لولاية في جِلِّيقِيَة ولقاعدتها ولحصن فيها ، بجوارها أو بعيداً عنها .

لكن مناسبة ذِكْر المَقَّري لمدينة لُك ليس خلال إيراد افتتاحها ، بل يوردها على أنه سبق فتحها . وذلك حين الحديث عن وصول رسول الخليفة الثاني (أبي نَصْر) يعجّل عودة موسى ، فتوجه عائداً من مدينة لُك : « فاتسع نطاق الإسلام بأرض الأندلس ، وخُذِل الشرك ، وبينما موسى كذلك في اشتداد الظهور وقوّة الأمل إذ قَدِم عليه رسولٌ آخر من الخليفة يكنى أبا نصر أردف به الوليد مُغيثاً لما استبطأ موسى في القفول ، وكتب إليه يوبخه ، ويأمره بالخروج ، وألزم رسوله إزعاجه ، فانقلع حينئذ من مدينة لُك بجِلِّيقِيَة ، وخرج على الفج المعروف بفج موسى »[5] .

= جهاد مغيث في جليقية ، حين قدم الى موسى رسولا من الخليفة يستدعيه الى الشام : « وغزا مغيث مع موسى بالجيش الى جليقية . » انظر : تاريخ الأندلس ، ١٥١ .
أما الغنيمة فغير واضح تماماً كيف ذاك . لأن الغنائم ليست ملكاً لموسى ، يتصرف بها . بل هي للفاتحين والدولة ، إلا إذا كان المقصود أن يجعل سهم مغيث فيها كأحد الفاتحين ، حتى لو لم يشترك في عمليات الفتح ، أي لمجرد الانتظار والامهال . وهذا لا يعني أن استجابة مغيث لهذا الرجاء بسبب الغنائم ، بل الأمر الطبيعي أن مصاحبته للفاتحين وموقفه في المشاركة والتعاون يُتيحُ له هذا . مع أن نص ابن الشباط – السابق توا – يؤكد اشتراك مغيث الفعلي في الجهاد .

(١) نفح الطيب ، ٢٧٦/١ . (٢) نفح الطيب ، ٢٣٠/١ .

(٣) *Historia de la Espana Musulmana*, Gonzalez Palencia, 11.
كذلك : تاريخ المسلمين ، ١٠٤ .

(٤) انظر : تاريخ الأندلس ، ١٥١ (حاشية) . (٥) نفح الطيب ، ٢٧٦/١ .

أليس من الممكن أن تكون لُكّ هي مدينة ويتبعها حِصْن يقع في أحد أطرافها او قريباً منها أو تابعاً لها ؟

تقع مدينة لُكّ على نهر مِنيو (مِينْيُهْ) أو مِنهو (Miño, Minho) والظاهر أن الحِمْيَري قصدها في **الروض المعطار** بقوله : إن اقّش « كانت قاعدة الجِلِّيقِيِّين ، ... وهي مَبنيَّة بالصخر المربَّع الكبير ، وهي على نهر كبير يدخل منه المجوس بمراكبهم اليها »[1] . لكنه جعلها لُكّه (Lugo) خلال حديثه عن « حِصْن المَنار » ، موقعه « قريب من مدينة لُكّه ، وهو مُنْتَهى الركن الثالث من أركان الأندلس ، التي هي حدودها ، وهو على ضِفَّة البحر المحيط من الغرب والجوف ، وتتصل به الكنيسة المُعَظَّمة المُسَمَّاة عندهم بشَنْت ياقوب . »[2] فهل ان « حِصْن المَنار » هو : « حِصنُ لُكّ » ؟

مهما يكن من أمر فإن الجيش الإسلامي – بقيادة موسى – افتتح مناطق كثيرة من جِلِّيقِيَة (بضمنها أشْتُورِيش) . تقدم موسى وطارق – وبالسرايا – حتّى وصلوا إلى مرتفعات أشْتُورِيش في قِمم جبال قَنْتَبْرِيَة . فبلغوا قِمَّة وعرة ، عسيرة المنال ، صعبة المُرتقى ، سمّاها المؤرخون المسلمون « الصخرة » أو « صخرة بِلاي » ، قرب الساحل الشمالي لإسبانيا على البحر الشمالي عند خليج بَسْقَايَة (بسكاي = Mar Cantadrico, Bay of Biscay) ، « وبَثَّ السرايا حتّى بلغوا صخرة بِلاي على البحر الأخضر »[3] .

تذكر بعض الدراسات الحديثة – من غير مصدر – أن موسى وصل مدينة خِيخون (Gijon) على الخليج واتخذها مركزاً لعمليات الفتح[4] . ولعل العبارة

---

(١) الروض المعطار ، ٢٨ . كذلك : ٦٧ .

(٢) الروض المعطار ، ١٨٥ . وردت « لكه » أيضاً عنده (الروض ، ١٦٩) اسماً لمدينة ونهر جنوبي الأندلس عند ميدان معركة وادي برباط - لدى أول فتح الأندلس - بين الجيش الاسلامي والجيش القوطي بقيادة ملكهم لذريق . راجع : أعلاه ، ٥٦ – ٥٧ .

(٣) نفح الطيب ، ٢٧٦/١ .

(٤) فجر الأندلس ، ١٠٥ .

السابقة أفادت ذلك . وأياً ما كان الأمر فقد وصل الفاتحون المسلمون بجهادهم إلى هذه الأماكن في جِلِّيقِيَة (وأشْتُورِيش) .

ونص المَقَّرِي السابق يدل على أن موسى لم يصل بنفسه إلى الصخرة أو خيخون بل وصلتها سراياه . فهل يكون التحق بها بعد ذلك ؟ وهل أن اتخاذ هذا المكان مقراً كان قبل عمليات الفتح في جِلِّيقِيَة (الغربية) أم بعدها ؟ إذا اعتبرنا « لُكّ » اسماً لحصن ومدينة لا علاقة بينهما ، فربما تكون سرايا موسى هي التي وصلت إلى هذه الأماكن ، وربما بقيادة طارق .

شارف الجيش الإسلامي سواحل الخليج ، ينظرون اليه وتتملاه نفوسُهم المُتَطَلِّعَة وقلوبُهم المُتَفَتِّحَة ، تسألُ اللهَ سُبْحانَه مزيداً من النصر لدعوته ، وترى فيه وفيما أمامَها قُدْرَةَ اللهِ وحِكْمَتَه .

يُعين على هذا نصٌّ صاحب **نَفْح الطيب** : « وبثَّ السرايا حتى بلغوا صخرة بِلاي على البحر الأخضر » . وهذا يناسب رغبة طارق التي عَبَّر عنها لموسى حين التقيا في المرة الأولى بقوله : « أيها الأميرُ ، واللهِ لا أرجع عن قصدي هذا ما لم أنتهِ إلى البحر المحيط وأخوض فيه بفرسي »[1] . وهو كلام يُذَكِّرُنا بموقف مماثل على الجانب الآخر من المحيط لأحد قادة فتح المغرب الإسلامي هو عُقْبَة بن نافع الذي استُشْهِدَ فيه سنة ٦٣ هـ . فحين بلغ المغرب الأقصى على ساحل البحر المحيط عند إيغْريطوق[2] (آسَفي) وخاضه بفرسه حتى بلغ نَحْرَه فقال : « يارب لولا هذا البحرُ لمضيتُ في البلاد مُجاهداً في سبيلك »[3] . وورد عند آخرين بالشكل التالي :

« اللهم اشْهَد ، أني قد بَلَغْتُ المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل مَن كفر بك حتى لا يُعبد أحد مِن دونك »[4] .

---

(١) وفيات الأعيان ، ٥/٣٢٨ . نقله المقري : نفح الطيب ، ١/٢٤٢ .

(٢) كتاب الا ستبصار في عجائب الأمصار ، مجهول المؤلف ، ١٦٣ .

(٣) الكامل في التاريخ ، ٤/ ٥٦٠ . كذلك : البيان المغرب ، ١/ ٢٧ ؛ دولة الاسلام ، ١/٢٠ ؛ قادة فتح المغرب العربي ، ١/ ١١٠ .

(٤) رياض النفوس ، ١/٢٥ ؛ معالم الإيمان ، ١/٥١ .

يمكن ـ على هذا ـ اعتبار « لُكّ » (الحصن والمدينة) شيئاً واحداً ، موقعه « مدينة لُكّ » الحالية في جلِّيقية (الغربية) . والا فيعني أن موسى – بعد أن فتح هذه الجهات – سار صوب الغرب (من جلِّيقية) حتى وصل « مدينة لُكّ » واتخذها مركزاً لجهاده . وقام بنشاط ، مفتتحاً عدداً من المدن ، بالسرايا التي يرسلها ، حتى وافاه رسول الخليفة الثاني فيها فاستعاده .

أما « الصخرة » – أو « صخرة بِلاي » فيما بعد – فتقع في قِمم أوروبا (Picos de Europa) في سلسلة جبال قَنْتَبْرِيَة . وفي أعلى هذه الصخرة توجد مغارة أو كهف « كوفا دونجا » (Covadonga , Cova de Onga) .

جالت الفتوحات في هذه المنطقة كما جالت في جلِّيقية (الغربية) . لكن ليس لدينا تفصيلات عن مواقع وأحداث هناك . وغير بعيد أن المسلمين جالوا في كل تلك المناطق ، ففتحوا معظم إسبانيا الشمالية وتُركت فيها حاميات . لكن لايبدو أنها صَفَت لهم وطُهِّرت من الجيوب ، كان منها تجمع الصخرة في كوفادونجا ، التي حالت وعورتُها وقلةُ مَن فيها – فيما بدا للفاتحين – دون متابعتها وحملت على تركها . والظاهر أنه لم يتم مسح الشمال الإسباني بتمامه ، وإن كان الفتح شمل تلك المناطق كلها عموماً . يقول ابن خلدون : « وتمم موسى الفتح ، وتوغل في الأندلس إلى بَرْشَلُونَة في جهة الشرق وأُرْبُونَة في الجَوْف و [الصنم المشبه بـ] صنم قَادِس في الغرب »(١) .

أورد بعض المؤرخين أنه لم يبقَ – دون فتح – من أرض جلِّيقية غير «الصخرة»(٢) ، من التي واجهوها وعصت عليهم . وربما هنالك مالم يواجهوه من الجيوب ، لايتعلق – على ما يبدو – بأيام الفتح الأولى بل أيام الولاة ، كما سيتبين . فقد كُرس جزء من جهاد المسلمين في عصر الولاةِ لاستكمال فتح مناطق في شبه الجزيرة الإيبيرية .

ثم كان استدعاء الخليفة لموسى وطارق إلى دمشق . فلم يكن بُدٌّ من العودة وتوقفت عمليات الفتح . لكن لماذا لم يعهد موسى بإتمام الفتح في الشمال الإسباني إلى

---

(١) العبر ، ٤/ ٢٥٤ – ٢٥٥ . نقله المقري : نفح الطيب ، ١/٢٣٣ . أصلحت العبارة .
انظر : نفح الطيب ، ١/١٣٢ ؛ جغرافية الأندلس وأوروبا ، ٦٧ – ٦٨ .

(٢) نفح الطيب ، ٣/١٧ ، ٤/٣٥١ ؛ أخبار مجموعة ، ٢٨ ، ٦١ ؛ البيان المغرب ، ٢/٢٩ .

غيره أو إلى والي الأندلس من بعده ؟ لعل عدم القيام به بشكل رسمي تكليفي يشير إلى أنه بقي القليل في الشمال الإسباني دون فتح . لكنه ترك ابنه عبد العزيز والياً ، يقوم بما تقتضيه أحوال البلاد من الدعوة إلى الإسلام ،وإتمام عمليات الفتح ، وتنظيم البلاد وإصلاح الأحوال ، وإجراء التغيير الذي يقتضيه دخول إسبانيا في حوزة الإسلام ، وهو إنجاز ليس سهلاً بحال . ولعل أحد الأمور التي أثار لها اهتمام ابنه هو متابعة الفتح وإقرار الأحوال في شبه الجزيرة الإيبيرية ، لاسيما وأن عبد العزيز — على ما يبدو — لم يكن في صحبة أبيه خلال جهاده في الشمال .

ثالثاً — استدعاء موسى وطارق

لماذا استدعى الخليفةُ موسى وطارقاً إلى دمشق ؟

ذكرت الروايات والدارسون أسباباً ، ليس لكثير منها قيمة علمية . لكن السبب القوي — فيما يبدو — هو تَخَوُّف الخليفة الوليد على المسلمين أن يكونوا في أرض بعيدة منقطعة ، ومحاطة بمناطق غير إسلامية وعلى اتصال بها ، هي أقرب إليها من العالم الإسلامي أو مراكزِ ارتباطه واستمداده . وهو الذي رأيناه عارض فتح الأندلس ، خوفاً على المسلمين أن يخوضوا المخاطر ويركبوا المهالك ، حتى بَيَّن له موسى ألاّ داعي للخوف[1] .

ذكر بعض المؤرخين أن موسى كان يُفكر بفتح ما وراء جبال البرت — من الأقطار الأوربية — فتحاً مستقراً . ولعل ذلك ما دفعه إلى مواصلة الجهاد حتى وصل إلى أَرْبُونَة جنوب فرنسا ، كما مرّ التنويه به[2] . بل قيل إنه كان ينوي فتح القسطنطينية والوصول إلى دمشق عن هذا الطريق ، والاستمرار في فتح الأرض الكبيرة حتى الشام : دولة الفرنجة (فرنسا) ، وشمال إيطاليا حيث بلاد اللمبارد ، وبقية إيطاليا (وروما) ، ثم جنوب بلاد السلاف وسهول الدانوب (يوغسلافيا وبلغاريا) ،

---

(١) أعلاه ، ٤٥ . قارن : دولة الاسلام في الأندلس ، ١/٥٤ .

(٢) أعلاه ، ٩٢ – ٩٣ ، ٩٥ .

فالدولة البيزنطية حيث يُسقط القسطنطينية ، ثم آسيا الصغرى (تركيا) ، حتى يصل دمشق . وفي هذا يقول ابن خلدون — عن موسى — بعبارة مختصرة : « وأجمع أن يأتي المشرق من ناحية القُسْطَنْطِنيّة ، ويتجاوز إلى الشام دُروب الأندلس ودُروبه ويخوض إليه ما بينهما من بلاد أعاجم أمم النصرانية ، مُجاهداً فيهم ومستلحماً لهم إلى أن يَلْحق بدار الخلافة من دمشق . ونَمى الخبرُ إلى الخليفة الوليد فاشتَدّ قلقُه بمكان المسلمين من دار الحرب ، ورأى أن ما هَمّ به موسى تغرير بالمسلمين، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف ، وأسَرّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع هو ، وكتب له بذلك عهده . »[1]

يسبق ابنُ الشَّبّاط (٦٨١ هـ) ابنَ خَلْدون (تونس ٧٣٢ — القاهرة ٨٠٨ هـ) في بسط هذا السبب . ولعل ابن خَلْدون اعتمد في هذا على كتاب مفقود لابن حَيّان (٤٦٩ هـ) أو غيره . وهذا يشير إلى توفر هذه المعلومات لدى أسلافهم من المؤرخين ، وفيه دلالة إلى توثيق هذا التعليل الذي يورده ابن الشباط منقولاً عن **اختصار اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أسماء الصحابة ورواة الآثار** للمؤرِّخ الفقيه الإشبيلي أبي محمد بن الخَرّاط[2] (٥٨١ هـ) : « ولما اتصل بالوليد بن عبد الملك رحمه الله ، تَلَوَّمَ موسى بن نُصَيْر بأرض الأندلس ، وتَقَحّمَه بالمسلمين في أرض العدو من غير مؤامرة ولا مُشاورة ، بَعَثَ مُغيثاً مولاه إليه ، وأمره أن يُعَنِّفَه ويُقْفِلَه إلى إفريقية . »[3]

ونقل المَقّري عبارة أخرى — لم يذكر مصدرها — تؤكد هذا المعنى ، فهو يقول عن عودة موسى إلى دمشق بأنه تركها — أي الأندلس — « وهو مع ذلك مُتَلَهِّفٌ

---

(١) العبر ، ٢٥٥/٤ (نفح الطيب ، ٢٣٣/١-٢٣٤) . كذلك : تاريخ غزوات العرب ، ٥٦ ؛ الحلل السندسية ، ٢٠٢/٢ - ٢٠٣ .

(٢) راجع ترجمته في : بغية الملتمس ، ٣٩١ (رقم : ١١٠٤) ؛ عنوان الدراية ، أبو العباس الغبريني ، ٤١ (رقم : ٣) . كذلك : كتاب الوفيات ، أبو العباس أحمد بن قنفذ القسنطيني ، ٢٩٣ ؛ تاريخ الأندلس ، ١٨ - ١٩ (المقدمة) .

(٣) تاريخ الأندلس ، ١٥١ (نص ابن الشباط) .

على الجهاد الذي فاته ، أسيفٌ على ماحقه من الإزعاج ، وكان يؤمل أن يخترق مابقي عليه من بلد إفْرَنْجَة ، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس إلى الشام ، مُؤَمِّلاً أن يتخذ مُخْتَرَقَه بتلك الأرض طريقاً مَهْيَعاً يَسْلُكُه أهلُ الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من المشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً »[1] .

غير بعيد أن يفكر موسى بمثل هذا المشروع أو جزء منه ، مستمراً في الجهاد خلف جبال البُرْت ، وهو ما قام به المسلمون بعد ذلك ، ولعل السرايا التي وصلت إلى أَرْبُونَة أو حولها في جنوب فرنسا — خلال وجود موسى — تُقَوِّي واقعيةَ هذه الفكرة وتؤكد تَوْثيقَها . وإذا كانت فكرة هذا المشروع مبكرة لدى موسى ، ألا يمكن الربط بينها وبين الآلاف الثمانية عشر من الجند التي عبر بها إلى الأندلس ؟

الظاهر أن أخبار خُطة موسى هذه وصلت إلى الخليفة ، سواء كتب هو بها إلى الخليفة ، أو عرف بها عن الرسل الذين أرسلهم موسى أثناء الفتوح الأولى حتى طُلَيْطُلَة أو في أي وقت آخر .

ليس من الضروري أن يكون موسى قد كتب مرة واحدة إلى الخليفة بشأن فتح الأندلس ، وذلك حين أرسل — أثناء الإقامة بطُلَيْطُلَة — أواخر سنة ٩٤ هـ(خريف ٧١٣ م) علياً بن رَباح ومُغيثاً الرومي كما يقال . لعل موسى بذلك كان يستشير الخليفة بهذه الفكرة ، وهو أمر ضروري .

وغير معروف فحوى رسالة موسى ، مع علي ومغيث . لكن ابن الفرضي يقول : « أن موسى بن نُصَيْر حين فتح الأندلس كتب إلى الوليد بن عبد الملك : أنها ليست الفتوح ، ولكنها الحشر . »[2] فكان رَدُّ الخليفة استدعاء القائدَيْن وإيقاف الفتح ، ولو إلى حين .

وَجَّه الخليفة الوليد مُغيثاً الرومي ، مُستدعياً موسى . يقوي هذا كون مغيث رسولاً (أو أحد رسل) موسى إلى الخليفة ، يُطلعه على عمليات الفتح في الأندلس .

---

(١) نفح الطيب ، ٢٧٧/١ . مهيع : بين ، سهل .

(٢) تاريخ علماء الأندلس ، ١٤٧/٢ (رقم : ١٤٥٦) . كذلك : نفح الطيب ، ٢٨٥/١ (نقلا عن ابن حيان) . قارن : الحلة السيراء ، ٣٣٤/٢ ؛ وفيات الأعيان ، ٣٢٩/٥ .

وأدرك مُغيثٌ موسى وهو يقوم بجهاده في الشمال ، مستعداً لدخول جِلِّيقِيَة عند أشْتُرْقَة : « فبينما هو يعمل في ذلك ويُعدّ له إذ أتاه مغيثٌ الروميُّ رسولُ الوليد بن عبد الملك ومولاه يأمره بالخروج عن الأندلس والإضراب عن الوغول فيها ، ويأخذه بالقفول إليه ، فساءه ذلك ، وقطع به عن إرادته »[١] . فلاطفه موسى « وسأله إنظاره إلى أن يُنْفذ عزمه في الدخول إليها والمسير معه في البلاد أياماً »[٢] .

بعد فتح مناطق كثيرة في جِلِّيقِيَة (وأشْتُورِيش) ، قَدِم أبونصر رسولاً آخر من الخليفة الوليد ، يستعجل موسى العودة « لما استبطأ موسى في القُفول » . فلا يملك موسى إلاّ الاستجابة لأمر الخليفة « وقال الرازي : إن الذي أزعج موسى عن الأندلس أبو نصر رسولُ الوليد ، فقبض على عنانه وثَنَاه قافلاً ، وقفل معه من أحَبَّ المشرق »[٣] .

يورد ابن الشَّبَّاط ـ نقلاً عن **مختصر تاريخ الطبري** لعَريب بن سعيد (٣٧٠ هـ) ـ بأنه لما « استبطأ الوليدُ ـ رحمه الله ـ قُدوم موسى ، فبعث رسولاً يُعرف بأبي نصر ، فتوكل بموسى واندفع به من مدينة لُكّ بجِلِّيقِيَة ، وخرج من الفَجّ المعروف بفج موسى ، ووفاه طارق بالطريق . ومضيا جميعاً معهما مغيثٌ وأبو نصر ، ومَن أراد أن يرجع من الناس إلى المشرق ، واستخلف موسى بن نُصَير على الأندلس ابنه عبد العزيز . وشخص موسى راجعاً إلى إفريقيَة . »[٤]

إذا كانت المدة بين الرسولين حوالي أربعة شهور ، فهل أنها كافية لاستبطاء الخليفة عودة موسى ليرسل رسولاً آخر يستدعيه ، أم أنه رسولٌ واحد كان بانتظار موسى فكرر عليه الطلب[٥] ؟ لكن نص المَقَّرِي ـ وغيره ـ واضح في أنهما رسولان ، يَذْكرهما بالاسم والكنية . وحين الحديث عن عودة موسى يذكرهما متمايزين بالاسم

(١) نفح الطيب ، ١/٢٧٥ . كذلك : نفح الطيب ، ٣/ ١٤ .

(٢) نفح الطيب ، ١/٢٧٦ .

(٣) نفح الطيب ، ١/٢٨٠ .

(٤) تاريخ الأندلس ، ١٥١ ـ ١٥٢ .

(٥) قارن : فجر الأندلس ، ١٠٦ .

والكنية[1] ، كما في النصوص المقتبسة[2] .

إرسال رسولين من قبل الخليفة لاستدعاء موسى ، المدة بينهما أشهر قليلة — قد تكون ثلاثة — يشير إلى قلق الخليفة على المسلمين ، وأنه هو سبب الاستدعاء .

إذا كانت مسيرةُ موسى وطارق من طُلَيْطُلَة نحو الشمال ، في ربيع الأول سنة ٩٥ هـ (كانون الأول ٧١٣ م) ، أو بعده بقليل ، وعودتُه إلى المشرق — عابراً مضيق جبل طارق — في ذي الحجة سنة ٩٥ هـ[3] (آب — ايلول ٧٠٤ م) ، فتكون عمليات الجهاد في فتح شمال إسبانيا قد استغرقت حوالي ثمانية شهور . مضى حوالي نصفها قبل مجيء مغيث — رسول الخليفة الأول — الذي ربما كان وصوله إلى الأندلس حوالي أواخر شعبان سنة ٩٥ هـ : أي بعد مضي حوالي ثمانية شهور على رحيله من الأندلس ، يحمل أنباء الفتح إلى الخليفة الوليد . يقول المَقَّرِي عن مغيث : « وهو الذي وجَّهَه إلى الأندلس غازياً ففتح قرطبة ، ثم عاد إلى المشرق ، فأعاده الوليد رسولاً عنه إلى موسى بن نُصَيْر يستحثه على القدوم عليه ، فوفد معه »[4] .

إذا اعتبرنا هذه المدة — ذهاباً وإياباً — طويلة وأن الخليفة أعاد مغيثاً مباشرة أمام قلقه على المسلمين ، فإما أن يكون خبر خُطة موسى وصلت بيد رسول آخر أرسله موسى من الثغر الأعلى ، أو أن هذه التقديرات الزمنية غير دقيقة . إذا كانت أخبار خُطة موسى وصلت إلى الخلافة بواسطة مُغيث — والطريق بين دمشق والأندلس يستغرق شهرين أو يزيد — فإن وصول مغيث كان أثناء وجود موسى في الثغر الأعلى أو بعده ، وأن الخليفة استبطأ عودة موسى — أو أي خبر عنها — فأرسل رسولاً آخر . أو أن الخليفة لم يرسل رسوله الثاني استبطاء بل استعجالاً . يقوي هذا الفهم كونُهما رسولين وأن أبا نصر كنية للرسول الثاني وليست لمغيث ، كما يقال[5] . ولعل هذا الفهم يقوي تعليل اعتبار الخوف على المسلمين سبباً في الاستدعاء .

(١) نفح الطيب ، ٢٧٥/١ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ ، ١٤/٣ .

(٢) راجع الصحائف : ١١٤ — ١١٩ من هذا الكتاب .

(٣) نفح الطيب ، ٢٧٧/١ . (٤) نفح الطيب ، ١٤/٣ .

(٥) فجر الأندلس ، ١٠٦ .

١ ـ عودة موسى وطارق بالجند

ترك موسى عمليات الفتح في الشمال بعد أن رتّب الأمور ، وهو في مدينة لُكّ ، منصرفاً نحو جنوب الأندلس . ولعل ذلك كان في أوائل ذي الحجة سنة ٩٥ هـ .

لا نعرف طريق العودة من الشمال ، ولكن المرجح أنه سلك أقرب طريق : من مدينة لُكّ إلى الفج (الوادي) المعروف باسمه « فَجّ موسى » (Valmusa) ، وهذا ثاني فج باسمه[١] . ثم التحق به طارق عائداً من الثغر الأعلى أو من غيره . ولا يبدو أن هذا ول لقاء بينهما خلال عمليات الجهاد في الشمال الإسباني ، بعد افتراقهما من سَرَقُسْطَة . ولعل طارقاً قام بقيادة بعض السرايا أثناء فتح الشمال ، فأرسل إليه موسى من مدينة لُكّ بالالتحاق به استجابة لأمر الخليفة ، فالتقيا هنا في الطريق .

لا شك أن كثيراً من المسلمين ـ قادةً وجنداً ـ قد توزعوا على المناطق لإدارتها والإشراف عليها والدعوة إلى الإسلام فيها . وكل هذا يدعو البعض إلى الإقامة الدائمة. انحدر موسى وطارق ورسولا الخليفة وعددٌ من المسلمين تجاه إشْبيلية ، ولعلهم مرُّوا بطُلَيْطُلَة وقُرْطُبَة ، والظاهر أن ابنه عبد العزيز كان في إشْبِيلِيَة أو قريباً منها ، على موعدة سابقة .

من الممكن القول أن أباه تركه ليقوم بافتتاح مدن معينة في شرقيّ الأندلس أوغربيِّه . يفسر ذلك عدم ورود اسم عبد العزيز في كل الفتوحات التي تلت مَارِدَة نحوالشمال . إن عديداً من المدن في شرقي الأندلس وغربيه لم يرد ذكر فتحها من قبل موسى وطارق لعل عبد العزيز تولى فتح بعضها[٢] .

أقام موسى في إشْبِيلِيَة أياماً لترتيب أمور الأندلس وأحوالها . وعيَّن ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس ، متخذاً من إشْبِيلِيَة عاصمة ، لموقعها . وقفل موسى « عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها ، واستعمل ابنه عبد العزيز لسدّها وجهاد أعدائها »[٣] .

---

(١) أعلاه ، ٧٤ ، ١٠٧ . (٢) انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ١٠٩ ـ ١١٢ .

(٣) العبر ، ابن خلدون ، ٢٥٥/٤ (= نفح الطيب ، ٢٣٤/١) . كذلك : الحلل السندسية ، ٢٠٣/٢ ؛ تاريخ غزوات العرب ، ٥٦ .

تَوَجَّه موسى وطارق ومَن معهما بعدها إلى الجنوب ، وعبروا المضيق في نهاية ذي الحجة سنـة ٩٥ هـ (أيلول ٧١٤ م) . كانت مدة جهـاد موسى في الأندلس سنتين وأربعة أشهر ، ويزيده طارق سنة واحدة . استغرق فتح الأندلس ـــ غير سرية طريف ـــ ثلاث سنوات ونصف . يُجمل المَقَّرِي ذلك بقوله : « وبينما موسى كذلك في اشتداد الظهور وقوّة الأمل ، إذ قَدِم عليه رسولٌ آخر من الخليفة يكنى أبا نصر أردف به الوليدُ مُغيثاً لمّا استبطأ موسى في القفول ، وكتب إليه يوبخه ، ويأمره بالخروج ، وألزم رسوله إزعاجه ، فانقلع حينئذ من مدينة لُكّ بجِلِّيقِيَة ، وخرج على الفج المعروف بفج موسى ، ووافاه طارق في الطريق منصرفاً من الثغر الأعلى ، فأقفله مع نفسه ومَضَيا جميعاً ومعهما من الناس من اختار القفول ، وأقام من آثر السكنى في مواضعهم التي كانوا قد اختطوها واستوطنوها ، وقَفَلَ معهم الرسولان مغيث وأبو نصر حتى احتلّوا بإشْبِيلِيَة ، فاستخلف موسى ابنَه عبد العزيز على إمارة الأندلس، وأقَرَّه بمدينة إشْبِيلِيَة لاتصالها بالبحر نظراً لقربه من مكان المَجاز ، وركب موسى البحر إلى المشرق بذي حجةِ سنة خمس وتسعين وطارق معه ، وكان مُقام طارق بالأندلس قبل دخول موسى سنة وبعد دخوله سنتين وأربعة أشهر »(١) .

وعلى هذا يكون **خطُّ سيركلٍّ من حملة موسى وطارق** ، منذ سيرهما من طليطلة (أوائل ٩٥ هـ) حتى توجههما نحو جنوب الأنْدَلُس فالشمال الإفريقي (أواخر ٩٥ هـ) ، كالآتي :

موسى (سويّة مع طارق) : طُلَيْطُلَة ، سَرَقُسْطَة (فتحت معاقل وحصون حولها) . انفرد موسى بجيشه ، متجهاً شرقي وشمالي الأنْدَلُس : وَشْقَة ، لارِدَة ، طَرَّكُونَة ، بَرْشَلُونَة ، ربما جَيْرُونَة وغيرها [جرى جهاد وراء البُرْت ـــ قاده بنفسه أو بالسرايا ـــ عَبْر ممر باربينيان ، في منطقة سَبْتَمانية ووادي رُودَنُهْ (نهر الرون) ، قَرْقَشُونَة ، أُرْبُونَة ، أَبِنْيون ، لُوذون (ليون)] . اتجه نحو الشمال الغربي في منطقة البَشْكُنْس (يسار إبْرُهْ) بموازاة خط سير حملة طارق: بَنْبلُونَة،

---

(١) نفح الطيب ، ٢٧٦/١ ـــ ٢٧٧ . كذلك : تاريخ الأندلس ، ١٥١ ـــ ١٥٢ (نص ابن الشباط) ؛ أعلاه ، ١١٦ .

أَلْبَه والقِلاع (قَشْتَالَة) ، منطقة جِلِّيقِيَة : أَشْتُرْقَة (التقى مع طارق ثم افترقا) دخل مفازتها : حصن بارو ، لُكّ (حصن ومدينة) ، وربما غيرها ، أَشْتُورِيش : الصخرة [خيخون ، بنفسه أو بالسرايا ، ربما قام طارق بكلها أو ببعضها] . كان التحرك نحو الشام من : مدينة لُكّ ، فَجّ موسى (التحق به طارق ، قادماً من الثغر الأعلى) ، طُلَيْطُلَة ، قُرْطُبَة ، إشْبِيلِيَة (اتخذت قاعدة) ، الجزيرة الخضراء (جازوا الزُّقاق) ، سَبْتَة (نحو الشمال الإفريقي ، مارين بالقَيْرَوان) ، إلى دمشق ، مركز الخلافة ، خلال فُسْطَاط مصر ، القاهرة .

طارق (سويَّة مع موسى) : طُلَيْطُلَة ، سَرَقُسْطَة (ينفرد بجيشه ، متجهاً نحو الغرب والشمال الغربي بمحاذاة يمين إبْرُه) ، منطقة البَشْكُنْس (مجاورين جبال قَنْتَبْرِيَة) ، منطقة جِلِّيقِيَة : أمَايَة ، أَشْتُرْقَة (التقى به طارق ، ربما ليس لأول مرة ، بعد سَرَقُسْطَة) ، لِيون (وربما غيرها ، مباشرة أو بالسرايا ، في منطقة الثغر الأعلى) . يتجه نحو موسى ملتحقاً به — بناءً على أوامره — للتوجه إلى الشام ، من مكان مّا في الثغر الأعلى ، فَجّ موسى ، طُلَيْطُلَة ، قُرْطُبَة ، إشْبِيلِيَة ، الجزيرة الخضراء (عَبْرَ المضق) ، سَبْتَة ، بصحبة موسى إلى دمشق .

٢ — صفة الفتح الإسلامي وطبيعته

أمْرُ هذا الفتح الإسلامي في كل مكان — في عموم تاريخه ، مثله في شبه الجزيرة الإيبيرية — مُدْهِشٌ ويدعو إلى العجب .

افتتح المسلمون في خمسة عشر عاماً مناطق واسعة فتحاً أصيلاً . فسقطت بيد تلك القلة القليلة أكبر امبراطوريتين عريقتين في العالم ذاك : وهما تملكان أنواع القوى المادية الظاهرة التي هي مُتَّكأ الرجحان في الغلبة ، والأمل في النصر الكاسح ، والاستعلاء والخبرة والدُّربة والتنظيم والعلم والفلسفة والتفكير . ذلك رغم محاولات هاتين القوتين الكبيرتين — من أجل إيقاف زحف الإسلام النيِّر والقضاء عليه — الاستمداد من خارجهما[1] أو الاتحاد بينهما . بل لم يكن يخطر على بال ولا خيال أيَّة من القوتين أن

(١) تاريخ الطبري ، ٤/١٦٧ — ١٧٣ (= حياة الصحابة ، ٤/٦٤٨ — ٦٥٠) .

تقف أمام هذا المد الجديد الفريد ، وقد كانتا من قبل متحاربتين وكان العداء بينهما شديداً والحروب مستمرة . لقد وقفت هاتان القوتان بكل الإمكانيات المعهودة المُحَشَّدة أمام المدّ الإسلامي فأصابها الفشل .

كان عدد الجيش الإسلامي في معركة مُؤْتَة (السنة الثامنة للهجرة) ثلاثة آلاف ، وجيش الروم مئة الف أو يزيدون . عندها قال ثابت بن أقرم لأبي هُريرة — وكان إلى جانبه في المعركة ، وقد برق بصر أبي هريرة من كثرة ما رأى من العدة والسلاح — : « يا أبا هريرة كأنك ترى جموعاً كثيرة ؟ — قال : نعم — قال إنك لم تشهد بدراً معنا ، إنا لم ننصر بالكثرة »[1] . وفي نفس المعركة خاطب الجيشَ قائدُهم عبدُ الله بن رَوَاحَة قائلاً : « . . . وما نقاتل الناس بعدد وقوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلِقوا فإنما هي إحدى الحُسْنَيين : إما ظهور وإما شهادة . »[2] وقد قال أبو بكر الصديق : « إن الله لم ينصرنا مع نبيه صلى الله عليه وسلم بكثرة عدد ولا بكثرة جنود »[3] .

أبَان لطليحة بن خُويلد الأسدي[4] — الذي « كان يُعد بألف فارس . »[5] — أحدُ أتباعه ، سببَ هزيمة جنده — وهم أكثر — أمام الجيش الإسلامي . ذلك أنه « لَمَّا رأى كثرة انهزام أصحابه ، قال : ويلكم ! مايهزمكم ؟ قال رجل منهم : وأنا أحدثك ما يهزمنا ، إنه ليس منا رجل إلا وهو يحب أن يموت صاحبُه قبلَه ،وإنّا لَنَلْقَى قوماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه . »[6] تلك بعض آثار عملية التحول القويم والإحياء الإنساني المنير الذي أحدثه الإسلام في اتباعه ، فكانوا لوناً إنسانياًجديداً وفريداً ، بهر الناس . حتى وصفهم أعداؤهم بأقوى الأوصاف ، مدركين سبب هذا

(١) حياة الصحابة ٤/٦٤٠ .

(٢) السيرة النبوية ، ابن هشام،٢/٣٧٥ . كذلك راجع : نظرات في دراسة التاريخ الاسلامي ،٦١–٦٢ .

(٣) حياة الصحابة ، ٤/ ٦٤٠ .

(٤) أحد المتنبئين الكذابين الذي عاد الى الإسلام ، بعد الارتداد . فأبلى في الجهاد — لاعلاء كلمة الله تعالى — بلاء حسناً . جاهد في عدة معارك : القادسية (١٦ هـ) ، واستشهد في نَهاوند (٢١ هـ) . عنه راجع : الاستعياب ، ٢/٧٧٢ (رقم : ١٢٩١) ؛ سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ١/٢٢٩ (رقم : ٧١) .

(٥) العبر ، الذهبي ، ١/٢٦ . (٦) حياة الصحابة ، ٤/٦٤٢ .

المستوى الكريم ومقوماته ومصدره ، من الإيمان بالإسلام والتقوى لله تعالى ، وأنهم « بالليل رُهبان وبالنهار فُرسان ... »[1] يتسابقون للشهادة ، فوزاً بالجنة . فكانوا ريحاً تعصف بالعدو — رغم كثرة عَدَدِه وعُدَّته — « لا يثبت لهم العدو فَواق ناقة عند اللقاء »[2] . فهم لكل أفقٍ حياتُه ، ولكل ميدان فرسانُه الأبطال — من النساء والرجال — بأشرق لون ، وأشرف موقف ، وأكرم سَمْت .

الفتح هو فتح العقيدة وتفتح القلوب للإيمان بها . ليس هدفُها القتال — الذي يجب أن يكون في سبيل الله — بل السلام ، السلام الإيماني هو غاية كبرى في الإسلام .

لم يكن تقدم الجيش الإسلامي — في كل مكان ، هذا التقدم — بسبب العوامل الخارجية التي ينتفع بها أو الداخلية والذاتية المادية ، تلك التي ألِفها الناس . بل لعوامل ذاتية جديدة كامنة في نوع بنائه ومقومات حياته التي أقامها الاسلام ، وبها حاز النصر وحقق الإنجاز المدهش ﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾[3] . والله جَلَّت قدرته لا يهب النصر إلا لجنده . وكان من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة (السنة الثامنة للهجرة) : « لا إله إلاّ الله وحدَه لا شريك له ، صَدَقَ وَعْدَه ، ونَصَرَ عَبْدَه ، وأعَزَّ جُنْدَه ، وهزم الأحزابَ وحدَه ولا شيء بعدَه » .

لم يكن تقدم الجيش الاسلامي في شبة الجزيرة الإيبيريَّة بهذا الشكل إلاّ بإسلامه ، وبه كان نصر الله له . فَمَرَدُّ تقدمهم — وبهذه السرعة — لا إلى ضعف أعدائهم كما يزعم البعض . استطاع المسلمون فتح كل أو غالبية الجزيرة الإيبيريَّة في حوالي أربع سنوات . نازلوا القُوط في عدة معارك ، بعضها كان حامياً جداً . كانوا يقتتلون مع المسلمين ، لكنهم لا يثبتون . وكرروا المحاولات الكثيرة في أماكن متعددة والمسلمون يكتسحونهم أمامهم كالسيل الجارف ، رغم قلتهم . لوكان الجيش الاسلامي بغير هذه العقيدة ، وأعداؤهم بهذا التفوق العددي والمادي ، ماكان لمثل هذا الفتح أن يتم . لقد حدث أن دخل الجزيرة جيش أو أكثر قوي فتي قبل المسلمين فلم يحقق مثله ، وطبعاً مع الاختلاف في نوع الفتح وطبيعته وأصالته وأهدافه ووجهته.

---

(١) حياة الصحابة ، ٤/٦٤٦ . (٢) حياة الصحابة ٤/٦٤٤ .

(٣) من الآية ١٢٦ من سورة آل عمران .

فالقُوط أمة وُصِفَت بالشجاعة والأمجاد العسكرية الكثيرة[1] ، رغم ضعف هذه الصفات أحياناً [2] . كل ذلك الفرق يشير الى الفرق الأساسي بينهما . فالجيش الاسلامي يقوم بالعقيد الإسا مية ، التي ميزته وأفردته وجعلته في مثابة عالية قوية سمت به ، فتصاغر أمامه أي تجمع وانهزم ، وضعفت في تقدمه كل قوة فتناثرت . وبهذه العقيدة هزمت القوط وغيرها .

٣ ـ خلاصة فتح الأندلس

أخبار فتح الجزيرة الإيبيرِيَّة ـ في أكثر من حَلْقَة أو موضوع ـ ناقصة أو غامضة أو مفقودة. وما من شك فأحداثها ـ خلال الفتح ـ كثيرة وبُطولاتها نادرة ، كأخواتها في أحداث الفتوحات الاسلامية الأخرى . وزيادة الى عدم وضوح عدد من أحداث فتح المدن وتفاصيلها . فإنه لم تتوفر لدينا أخبار الجند جماعة ، إلاّ ما ندر ، وأفراداً وهي من غير شك كثيرة وفريدة .

ان عدد الذين أتموا عمليات فتح شبه الجزيرة الأندلسيَّة وقَدِموا لفتحها حوالي ثلاثين ألفاً ، وهو ليس كثيراً أبداً . وقد يكون مثل هذا العدد لمعركة واحدة . وفعلاً كان عدد جيش القوط في المعركة الأولى أكثر منه ، ربما بعدة مرات . كان المسلمون يقومون بهذا الفتح ويَعْرفون أن أعدادهم أقل بكثير من عدوهم ، لكنهم كانوا يتفوقون عليه بالايمان القوي المتدفق ، الذي تَعَلَّموا منه ألاّ يكون مُعَوَّلُهم في النصر على العدد ، مع التمسك الفعَّال بقوله تعالى : ﴿ وأَعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾[3] . لذلك لم يكن اعتمادهم على قُوى أخرى فقدموا بهذا العدد القليل لمثل هذه المهمة الشاقة الجليلة ، التي ما كانوا فيها يُفَرِّطون ، بل يحرصون عليها أشد من حرصهم على الذات وشؤونها . وكانوا مستعدين لكل تضحية مهما عَزَت ، وهي أُمنية في نُصرة الاسلام .

أتَمَّ المسلمون هذا الفتح النضير بقوة إيمانهم وقلة جيشهم ـ ذي الآلاف الثلاثين ـ

---

(١) دولة القوط الغربيين ، إبراهيم علي طرخان ، ١٢٠ ، ١٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ١١٦ .

(٣) من الآية ٦٠ من سورة الأنفال .

بقيادة موسى وطارق وغيرهما ممن نجهل أسماءهم . « ولو أن قائداً معه ثلاث مئة ألف مقاتل ، ما أحاط بالأندلس وأثخن فيها ما أحاطه موسى وأثخنه في ذلك الأمد القصير بين أمم أعداء تموج حواليه كالأبحر الزاخرة . وما رأى الأندلس وحدها كفوءاً لهمته ، بل حدثته نفسه التي قَلَّ مثلها في نفوس البشر ،في بعد الهمة ، أن يوغل في أرض الإفرنج ، ويعطف منها الى الشرق حتى ينفذ من القُسْطَنْطِينِيَّة . »(1)

جعل الإسلام الفرد يُجاهد بهذا الإيمان ، بكل كيانه ، فوهب له حياته ، بل غدت حياةُ الاسلام حياتَه .

المسلم في نصر دائم حتى في حالة الهزيمة (العسكرية) في الميدان مادامت نفسه المؤمنة لم تنهزم . أما الهزيمة الداخلية ، فهي الهزيمة الحقيقية . فالإسلام هو القوة الأصيلة الفاعلة الحقة ، وهي أعلى من كل قوة أخرى وأمضى من أي تجميع . ولدينا من التاريخ الاسلامي القديم والحديث مصداق متكرر ، يؤكد بوضوح هذه القاعدة التي لا تتخلف .

مهمة الفتح الاسلامي لا تنتهي أو تتوقف عند النصر الحربي ، بل بعدها تبدأ . بيان الإسلام والدعوة اليه هي مهمة مابعد الفتح ، على لسان الفاتحين وفي سلوكهم وتصرفهم ونظرتهم وتعاملهم ونصرهم وهزيمتهم وخطابهم وعهودهم وجدهم ومَزحهم وفي كل أمرهم ، في اليقظة والنومة والصحوة والغفوة والسر والعلانية والمخبر والمظهر والمنشط والمكره وفي كافة أحوالهم . الجهاد الحربي باب لغيره من أنواع الجهاد والمهام ، ومايتلوه من تبدل في الحياة ، قوامه تبدل النفس الانسانية وتوجهها الى الطريق الوحيد : طريق الله . هذا هو الفتح الحقيقي ، يقوم بكلمة الله وبها يدوم . فتتم العملية الكبرى والانجاز الرائع بفعل التبدل الخيّر والتحول النيّر .

لكن عدد الجيش الاسلامي الفاتح في شبة الجزيرة الأندلسيَّة لم يأت اليها دفعة واحدة . ومع ذلك لعله لم يجتمع للمسلمين مثله في مرة واحدة ، حتى مع تعدد الجبهات وتكاثر الواجبات . وغير بعيد أن يكون ربع هذا العدد نال الشهادة ، وهي أمنية في

(1) تاريخ غزوات العرب ، ٥٨ (تعليق ارسلان) . راجع كذلك : فجر الأندلس ، ١١٨ .

خدمة الاسلام . وربما ربع آخر – أو أقل – توزع في المناطق ، ومع ذلك فقد كان الاكتساح ، لنوعية الجيش وتمثُّله المعاني والخلق السامي الذي أدخل الناس في الدين أفواجاً . كان الفتح عملاً للناس ومن أجلهم وليس ضدّهم ، فهو لهدايتهم ووضعهم في طريق النور .

تكمن في الفتح الاسلامي للجزيرة الإيبيريّة معجزة ، والإسلام ينتج به الإنسان – وبقدرة الله – المعجزات . هذا التقدم في الفتح لايعني أنه كان سهلاً ، بل تمّ – بهذا الشكل – بذلك النوع من الأجناد ، أجناد العقيدة . فبدا للبعض هكذا ، الى حد وصفه نفر من الإسبان بأنه كان نزهة عسكرية ، كله أو بعض مراحله « Mero paseo mlitar » [١] .

كان ذلك كذلك أمام هذا النوع من الجند أصحاب العقيدة ، استهانوها بالصعاب وبذلوا النفوس رخيصة ولرفع شأنها . فالفتح نفسه لم يكن يحتوي على نزهة أو ما يماثل شكلها . وإذا كان هذا الوصف مقبولاً ، فأمام هذا النوع من الجند الفرد . وإلا فالتضحيات كثيرة والجهد كبير والدروب شاقة والمناخ شديد والجو غريب والأرض مُصْخِرة عنيفة ، وكان مستوى العقيدة أعلى من ذلك وأكبر . فانساب الفاتحون في في شوطهم بهذه السرعة فبدت للآخرين نزهة ، لكنها روحية من أجل إعلاء كلمة الله في الأرض . وهي مجلبة لراحة المؤمن وفرحته بنصر الله إن عاش وبجنته إن استُشْهِد ﴿ قل هل تَرَبَّصُون بِنا إلاّ إحدى الحُسْنَيَيْن ﴾[٢] .

* * *

عاد موسى الى المشرق تاركاً الأندلس ، فتوقفت الفتوحات في الشمال الاسباني إلى حين . ولكنه أتاح المجال لتلك الفلول أن تتنفس ، وكان من الأحسن أن تُطَهَّر المنطقة تطهيراً كاملاً وأن يتوجه الفاتحون الى ماوراء جبال البرت ، مجاهدين ومنتصرين .

كان موسى – كما رأينا – قائداً مؤمناً تقياً ، متحمساً لنشر الإسلام وحمل رايته إلى كل مكان ، متمتعاً بشجاعة المؤمن وتضحيته وطاقاته السياسية والادارية ، مع

---

(١) *Historia de la Espana Musulmana*, Gonzalez Palencia, 11.
كذلك : تاريخ الأندلس ، ٤٠ (المقدمة) .
(٢) من الآية ٥٢ من سورة التوبة .

العزم والحزم الذي رباه عليه الاسلام . كان يقوم بكل ذلك الجهاد وعمره خمس وسبعون سنة أو يزيد . مع ذلك فكان بالامكان أن يحل مكانه غيره ، وفي المسلمين كثير من القـادة . لكن أمر استدعاء الخليفـة أعاد موسى وطارق مع طائفة كبيرة من الجيش ، وأوقف الاستمرار في الفتح ، تخوفاً على المسلمين .

عاد موسى الى دمشق — عَبْر الشمال الافريقي ومصر — وولى ابنه عبد الملك علي المغرب الأقصى ، في طنجة ، وابنه عبد الله — أكبر الأبناء — على إفريقية ، في القَيْروان[1] . فلحق بالفُسْطاط في ربيع الأوم سنة ٩٦ هـ (تشرين الثاني ٧١٤ م) . ثم غـَذَّ السير نحو الشام ، فوصل دمشق في أوائل جُمادى الأولى سنة ٩٦ هـ (كانون الثاني ٧١٥ م) والخليفة الوليد مريض . في أواسط جُمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ تـُوفي الوليد بن عبد الملك ، أي بعد وصول موسى بأربعين يوماً [2] .

٤ — خاتمة موسى وطارق

تولى الخلافة بعد الوليد أخوه سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩ هـ) . وتقول بعض الأخبار إنه لم يُحسن معاملة القائد الفاتح موسى بن نُصَيْر . وهنا تذهب بعض الروايات تتخبط في الحديث عن نهاية موسى وما لقيه من الخليفة سليمان من الأذى بله الغمط والنكران[3] .

فضلاً عما في هذه الروايات من الغموض والتشوش والتناقض ، فان مبالغاتها مُغْرِقة ، ناقشها عدد من الباحثين وأنكروها[4] . ولو كان حصل مثل هذا الأذى لموسى من سليمان ، لما أبقى أبناءَ موسى الثلاثة في ولاياتهم التي وضعهم فيها أبوهم .

لكن من الممكن أن يكون سليمان قد حاسب موسى على تصرفة في بعض الغنائم — خلال سيره من الأندلس الى دمشق — لا لاستحواذه عل شيء منها ، بل لأنه أعطى

---

(١) نفح الطيب ، ٢٧٧/١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٦ .

(٢) فجر الأندلس ، ١٠٧ . كذلك : نفح الطيب ، ٢٧٢/١ ، ٢٨١ .

(٣) نفح الطيب ، ١/ ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ — ٢٨٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ — ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٤) فجر الأندلس ، ١٠٨ — ١١٠ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ٥٧/١ — ٥٩ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ١٠٦ — ١٠٨ ؛ قادة فتح المغرب العربي ، ٢٧٩/١ — ٢٨٠ .

منها في الطريق لمن التقى به[1] . وقد يكون وضع غرامة عليه أو ألغاها عنه . إن بطولة موسى وخدمته للاسلام وجهاده فيه - إن صحّ ما قيل - لا يبيح له التصرف في أموال المسلمين . لعله يجب القول أن موسى يستحق كل تقدير كان يدعو الخليفة سليمان ألا يغفله أو يغمطه ، ان صح أيُّ قَدْر من محاسبته وتغريمه على تصرفه في المال .

مع ذلك تذكر الروايات أن الخليفة سليمان حين حجَّ بالناس[2] دعا موسى للحج معه مكرماً عام ٩٧ هـ[3] . هذا - بحق - يلغي الكثير مما قالته الروايات المُغْرِقَة ، ولو عاد الخليفة فرضي عن موسى بعد غضبه عليه . بل قد ينفي - مع غيره - واقعية هذه الروايات أصلاً ، أو ينفي الكثير من تفصيلاتها .

يذكر الذهبي (دمشق ٦٧٣ - ٧٤٨ هـ) في **تاريخ الإسلام** أن الخليفة سليمان استشار موسى لدى عودته من الأندلس ومَسْلَمَة بن عبد الملك في أمر فتح مدينة القُسْطَنْطِينِيَّة[4] . كان حصار مَسْلَمَة للقُسْطَنْطِينِيَّة سنة ٩٨ هـ[5] .

تُوُفِّيَ موسى بن نُصَيْر وهو يتجه للحج برفقة الخليفة في المدينة المنورة - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - أو في وادي القرى (العُلا ، حالياً)[6] أواخر سنة ٩٧ هـ[7] ، وعمره ثمان وسبعون سنة أو يزيد (١٩ - ٩٧ هـ)[8] . ومما ترويه مراجعنا

---

(١) انظر : فجر الأندلس ، ١٠٧ .

(٢) تاريخ الطبري ، ٦/ ٥٢٩ .

(٣) الحلة السيراء ، ٢/٣٣٤ ؛ البيان المغرب ، ٢/ ٢٢ ؛ العبر ، الذهبي ، ١/١١٥-١١٦ ؛ وفيات الأعيان ، ٥/٣٢٩ .

(٤) تاريخ الاسلام ، الذهبي ، ٣/ ٣٣١ .

(٥) العبر ، الذهبي ، ١/١١٦ .

(٦) المغانم المطابة في معالم طابة ، الفيروز آبادي ، ٤٢٣ .

(٧) تاريخ علماء الأندلس ، ٢/١٤٦ (رقم: ١٤٥٦) ؛ العبر ، الذهبي ، ١/١١٥-١١٦ ؛ نفح الطيب ، ١/٢٧٢ . كذلك : جذوة المقتبس ، ٣٣٨ (رقم : ٧٩٢) ؛ وفيات الأعيان ، ٥/٣٢٩ . اختُلف في سنة وفاة موسى ، فقيل : سنة ٩٨ و ٩٩ هـ . والصواب سنة ٩٧ هـ لأن موسى حج مع الخليفة فيها حيث توفي في الطريق . ولم يحج الخليفة بالناس بعد هذا العام ، فضلا عن الأخذ بها من قبل عدد من المؤرخين .

(٨) نفح الطيب ، ١/٢٨٣ .

أن موسى « تُوُفّيَ بالمدينة متوجهاً الى الحج ، وكان قد سأل الله عزّ وجلّ أن يرزقه الشهادة أو يموت بالمدينة فأجاب الله دعاءه . »[1]

مات القائد المسلم موسى بن نُصَيْر بعد أن مَلأَ جِهادُه ــ بقيادة المد الإسلامي المبارك ــ وديانَ المغرب الإسلامي (الشمال الإفريقي والأندلس) وجبالَه وسهولَه وهضابَه ، ووجَّه دعاةَ الحق لاسماع ساكنيه نداء الخير فيخرجهم من الظلمات إلى النور المبين .

كان موسى يقود هذا الجهاد في شبه الجزيرة الأندلسية ، وقد سلخ من سني عمره خمساً وسبعين سنة . ممتطياً جواده ، يهبط في وديانها ويرتفع على صخراتها . يتحرك فيه إيمان بالله العلي القدير ، فتسمو نفسُه وتجدد طاقتُه ، وتحدوه لاعلاء كلمة الله ورفع رايته في كل مكان . فيندفع قَوِيَّ الجَنان ، رغم ما علا رأسه من الشيب الوقور . يقوده إصرار العقيدة السمحة ، وهمة الإيمان الفتي ، وتُفَتِّقُ طاقاتِه كلمةُ الله وتُقيم قوتَها إيماناً يعلو على أي اعتبار .

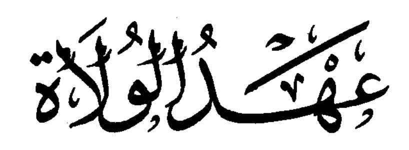
أما عن البطل طارق بن زياد ، فلا نكاد نعرف عما حدث له بعد وصوله دمشق . غير أن رواية تذكر رغبة سليمان في تَوْلِيَةِ طارق الأندلس[2] . وبعد ذلك لانعرف عنه شيئاً . هل بقي هناك في دمشق أم عاد إلى المغرب والأندلس ؟ لا يستبعد أن يكون عاد . البحث بانتظار نصوص جديدة تلقي ضياءاً آخر على هذا الموضوع وغيره من تاريخ الأندلس .

وبهذا نصل إلى نهاية عمليات الجهاد لفتح شبه الجزيرة الأندلسية في هذه المدة ، تتلوها أخرى لها أحوالها ومتطلباتها ، هي عصر الولاة الذي يشارك سابقه بأمور ويتميز ــ إلى حد ــ بخصائصه عنه .

---

(١) معالم الايمان ، ١/ ٢٠١ . كذلك : رياض النفوس ، ١/ ٧٨ .   (٢) نفح الطيب ، ٣/ ١٣ .

الفصل الثاني



عهد الولاة

٩٥ ـ ١٣٨ هـ (٧١٤ ـ ٧٥٥ م)

أولاً : الاستقرار وتنظيم البلاد وإصلاحها .

ثانياً : انتشار الإسلام واعتناق الإسبان له .

ثالثاً : جهاد المسلمين في الأندلس وخلف البرت .



عهد الولاة

نظرة شاملة في العهد

بعودة القائدين – موسى وطارق – يبدأ في الأندلس مايعرف بعهد الولاة (٩٥– ١٣٨ هـ = ٧١٤ – ٧٥٥ م) ، الذي استمر حتى وصول عبد الرحمن الداخل(الأول) ابن مُعاوية بن هِشام ، وما ترتب بعده .

استغرق عهد الولاة حوالي ٤٢ سنة ، تولى حكم الأندلس خلالها – بعد موسى وطارق – عشرون والياً[١] ، حكم اثنان منهم مرتين ، هما : عبد الرحمن الغافقي وعبد الملك بن قَطَن .

* * *

يمثل عهد الولاة في الأندلس التحول والانتقال إلى حياة جديدة خيّرة ، فيها التنوّر والامتداد في الغروس الثابتة النيّرة . وهو هدف أصيل ومهمة تهدف الانسان : تنظيفاً وتنقية وإعلاءاً وتكرمةً ، في كل ميدان . ليحدث ازدهار الشجرة الطيبة التي تؤتي أُكلها يانعة : لوناً سامي السمت ، غزير الانتاج ، فريد المثال . هبة الله وهدايته : نوراً مضيئاً في عالم الإنسان .

* * *

ترددت الأندلس – في ارتباطها الإداري – بين ولاية الشمال الإفريقي والإشراف المباشر لمركز الخلافة . وحين كانت الأندلس تتبع الشمال الإفريقي ، يقوم الوالي الإفريقي بتعيين ولاة الأندلس ، مثل : الحر بن عبد الرحمن الثقفي[٢] (ذو الحجة ٩٧ – رمضان ١٠٠ هـ) وعَنْبَسَة بن سُحَيم الكلبي[٣] (صفر ١٠٣ – شعبان ١٠٧ هـ) .

---

(١) قارن نفح الطيب ، ٢٤٩/١ .

(٢) البيان المغرب ، ٢٥/٢ .

(٣) المصدر السابق ، ٢٧/٢ ؛ أخبار مجموعة ، ٢٤ .

اتبعت الأندلس إ .. . منذ أيام واليها الحر ، ثم عادت تابعة للخلافة أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز (صفر ٩٩ – رجب ١٠١ هـ) . للاسراع في الانجاز والإشراف عليه[١] ، فعيّن السَّمْح بن مالك والياً عليها (رمضان ١٠٠ – ذو الحجة ١٠٢ هـ)[٢] . لكنها عادت تابعة لإفريقية في ولاية عَنْبَسَة حتى استُشْهِد جنوبي فرنسا (شعبان ١٠٧ هـ)[٣] . وفي ولايتي : عُقْبَة بن الحجاج السَّلُولي (شوال ١١٦ – ١٢١ هـ) وأبي الخَطّار (رجب ١٢٥–١٢٨ هـ) كانت الأندلس تابعة لولاية الشمال الإفريقي[٤]. وهكذا ترددت تبعية الأندلس بين الإشراف المباشر للخلافة عليها وبواسطة ولاية الشمال الإفريقي ، حسب حاجة الأندلس والأحوال في داخلها أو خارجها .

اقتضى أحياناً تعيين سريع وعدم الانتظار ، فيتفق أهل الأندلس على أحدهم حتى يأتي غيره ويؤيِّد الخليفة أو الوالي الإفريقي هذا . كما حَدَث : بعد مقتل عبد العزيز ابن موسى ، إذ عَيَّن أهلُ الأندلس أيّوب بن حبيب اللَّخْمي (رجب ٩٧ – ذو الحجة ٩٧ هـ)[٥] . كذا عند استشهاد السَّمْح (ذو الحجة ١٠٢ هـ) ، حيث اتُّفِق على تعيين الغافقي (ولايته الأولى[٦]) ، وولاية يحيي ، وحُذَيْفة[٧] ، وعُقْبَة[٨] . وفي هذه الحال يُكتب به إلى والي الشمال الإفريقي[٩] ، لإقراره أو تعيين غيره .

كانت الأندلس – أكثر مدة الولاة – تابعة لولاية إفريقية . واتخذت إشْبِيلِيَة في بداية هذا العهد قاعدة ، ثم انتقلت إلى قُرْطُبة .

واجهت عصرَ الولاة – تِلْوَ الفتح – مُهمات ضخمة ، وبجانب إتمام الفتح

---

(١) البيان المغرب ، ٢٦/٢ .

(٢) المصدر السابق ، ٢٦/٢ .

(٣) المصدر السابق ، ٢٧/٢ .

(٤) المصدر السابق ، ٢٩/٢ ، ٣٤ ؛ العبر ، ٢٥٧/٤ (= نفح ، ١/ ٢٣٥) .

(٥) البيان المغرب ، ٢٥/٢ .

(٦) المصدر السابق ، ٢٦/٢ .

(٧) المصدر السابق ، ٢/ ٢٧ .

(٨) المصدر السابق ، ٢٩/٢ .

(٩) أخبار مجموعة ، ٢٥ .

وإقراره مواكبةُ التبدل الذي طرأ على الأندلس بانتشار الإسلام فيه . فعلى الولاة وبقية المسؤولين وعموم المسلمين خدمةُ هذا الهدف الأصيل في داخل الأندلس أولاً ، وتهيئةُ متطلباته بين الناس وفي الحياة من تعمير وتنظيم . نعرف ماجرى من تَبَدُّل ونقدّره حينما ننظر مقتضيات تبدل جانبي في ناحية مّا في العصر الحاضر ، فكيف إذا كان التبدل أساسياً ويخص كيان الإنسان ؟

لا تقدم المصادر المتوفرة معلومات كافية عن ذلك كله . اضطلع ولاة الأندلس بواجب آخر ، هو الاستمرار على رعاية المد الإسلامي والسير به عَبْر جبال البُرْت (وراءها) ، مجاهدين . إستُشْهِدَ العديد منهم هناك لإعلاء كلمة الله تعالى .

لهذا السبب — ولغيره — ماكان يطول حكم الوالي الأندلسي ، فأورث ذلك بعض الارتباك[1] . ومعه فقد تمتعت الأندلس بسنوات من الاستقرار ، مملوءة بالإنجازات . في حين وُجِدت سنوات غيرها افتُقِد فيها قدر من الاستقرار المنشود . قام — لوقت — نزاع بين بعض القبائل أو الجماعات ، حينما كانت سلطة قَبَلية لزعامة ذي عروق جاهلية . أثارت هذه النزعة أحياناً للاتكاء عليها في سلطانها . ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾[2] . لكن هذا النزاع كان يزول بسرعة حين تذهب تلك الظروف .

حدث نزاع خلال ولاية عبد الملك بن قَطَن الثانية (صفر ١٢٣ — ذوالقعدة ١٢٣ هـ) وبَلْج بن بِشْر[3] (ذو القعدة ١٢٣ — شوال ١٢٤ هـ) اللذين قَدِما بعصبة من خارج الأندلس ، حين كانت الدولة الأموية — في أواخر أيامها — يهتز سلطانها . وتولى كِبَرَ هذا الأمر أبو الخَطّار والصُّمَيْل[4] .

كان لهذه النزاعات أثر على حال الأندلس وعلى جهادها وراء البُرْت . وإذا كان لاستدعاء موسى وطارق والجند وإيقاف الفتح أثر في عدم إتمامه وتثبيته في الجزيرة

---

(١) انظر : العبر ، ابن خلدون ، ٤/٢٥٦ ؛ نفح ، ١/٢١٢ — ٢١٣ ؛ الحلل السندسية ، ١/٢٤٦ .

(٢) الآية ٢٦ من سورة الأنفال .

(٣) انظر : البيان المغرب ، ٢/٣٠ — ٣٢ ؛ نفح الطيب ، ٣/٢٠ — ٢٢ .

(٤) البيان المغرب ، ٢/٢٣ — ٢٤ ؛ نفح الطيب ، ٣/٢٢ — ٢٦ .

الأندلسية ؛ فإن أثر هذه النزاعات بدا على استمرار المد خلف البُرْت ، وهو ذو أثر على حال الجزيرة[1] . لعل لبعد الأندلس عن مركز الخلافة صلةً بذلك . فكان مهماً جعلها تحت إشراف الشمال الإفريقي .

عدا ذلك ،فقد سارت الأمور — عموماً — في طريقها . عند زوال هذه الحال تعود روح الجهاد وترتفع قوة المد الإسلامي ويزداد الوضع ازدهاراً[2] .

لم يتوقف الجهاد في الجزيرة الأندلسية لإتمام ماكان على موسى إتمامه . وبذل لذلك الولاة — لاسيما عبد العزيز — جهوداً واضحة . ثم ساروا بالمد إلى ما وراء البُرْت. انتقال ميدان الجهاد إلى الأرض الكبيرة — على سبيل الفتح الثابت والمستقر — يشير إلى منهج مرسوم ، وهي هناك خطوة جهادية أخرى جديدة .

بفضل الجهود الأصيلة والسياسة الحكيمة استمر حال الجزيرة بالتحسن ، الذي تلا فتحها . دخل أهل البلاد في الإسلام ، بعد أن احتكوا بالمسلمين في مجال يظهر ، ولا يبقى منه كامن . لكننا فقراء إلى معلومات وصفية واضحة وإلى معرفة مقدار مساهمة مسلمي الجزيرة في هذا الجهاد . وإن كان يُفهم ضمناً ومما سبق من تاريخ الفتح لمناطق أخرى سَبَقَت أو لَحِقَت .

دام جهاد المسلمين وراء البُرْت باهراً خلال الثلثيْن الأولين من هذا العهد . شارك فيه عدد من الولاة ، لاسيما السَّمْح بن مالك الخَوْلاني (١٠٢ هـ) وعَنْبَسَة ابن سُحَيْم الكلبي (١٠٧ هـ) والغافقي في ولايته الثانية (١١٤ هـ) وعُقْبَة بن الحَجَّاج السَّلُولي (١٢١ هـ) . استُشهد هؤلاء الأربعة مجاهدين خلف البُرْت . والظاهر أن السَّمْح أول من بدأ بهذا الجهاد ، ولا بد أنه فعل ذلك بعد مشاورة الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وهذا أمر لانملك عنه خبراً ولا إشارة .

معقول أن تكون ولاية الأندلس — طول العهد — على صلة بتلك المناطق ، حتى حين يتوقف الجهاد هناك . إذ أنه توفر للمسلمين فيها استقرار مّا . بل وأقاموا هناك سلطة أو حكومة في ولاية سَبْتَمَانيَة ، كانت أَرْبُونَة مركزاً أو قاعدة . تركوا

---

(١) البيان المغرب ، ٢/٢٦ .

(٢) البيان المغرب ، ٢/٢٧ .

هناك حاميات لاتخلو من نشاط خارج سَبْتَمَانيَة . وغير بعيد أن يكون قد أسلم الكثير من أهل تلك البلاد . لكن ذَهابَ سلطان المسلمين عنها أوقف امتدادَه والإبقاء عليه بسهولة ، خلال الزمن . وهو أمر حدث كذلك في شمالي إسبانيا وفي الأندلس كافة ، بعد إزالة سلطان المسلمين السياسي بسقوط غَرْنَاطَة سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) . تلاه العملُ على إزالة وجودهم البشري ومحاربة العقيدة الإسلامية بكل وسيلة ، لايؤبه لنوعها وحِدّتها وكذا القضاءُ على ماتبقى بعد ذلك من الفكر الإسلامي ـ متمثلاً بشكل قوي في مؤلفاتهم ـ وإزالة عمرانهم ، مُعَبِّراً في آثارهم . لكن ، أَلَمْ يكن التأكد من فتح الأندلس وإزالة جيوب القوط في شمالي الجزيرة أولى مِن توجيه المد خلف البُرْت ، جيوب كانت نواة دويلات ثم دولة إسبانيا ؟

أم أن هذه كانت بسبب عوامل داخلية للأندلس وخارجية ، كان منها انقطاع الأندلس سياسياً عن بقية العالم الإسلامي ، فحرمه ذلك المدد الدائم وصَدّعَ درعه الواقي[1] ؟ وقد استثارت عزلةُ الأندلس وإحاطتُها بالعدو تعجبَ القَزْويني (٦٠٠ـ ٦٨٢ هـ) في **آثار البلاد وأخبار العباد** ـ أو مَن نقل عنهم ـ حول بقاء « المملكة الإسلامية بالأندلس مع إحاطة الفرنج من جميع الجوانب والبحر بينهما وبين المددمن المسلمين »[2] . فالانقطاع عن العالم الإسلامي يقلل المدد ويدع البلد وحدَه محاطاً بمن يكون مِن الأعداء حوله .

مع أن العالم الإسلامي ـ مُمَثَّلاً في دوله القريبة ، التي شابهت حالَه أحياناً ـ لم يبخل بشيء لحماية الأندلس ، ذهبت هي الأخرى قبل ذَهابه . فكانت له نُذُراً وكان هو بعدها يتيماً حسيراً ، تخوف أو قرأ نهايتَه بعضُ رجاله[3] ، لما رأوا من حاله. عملت تلك الدويلات والدولة على حرب المسلمين بروح صليبية حادّة وقفت

---

(١) انظر : الحلل السندسية ، ٢٤٦/١ (حاشية) .

(٢) آثار البلاد ، ٥٠٣ .كذلك: جغرافية الأندلس ، ١٣٠ (= الروض ، ٣) ؛ نفح ، ١٤٥/١ ؛ البيان ، ٢٦/٢ ؛ كتاب الجغرافية ، الزهري ، ٢٢٦ ؛ تاريخ افتتاح الأندلس ، ابن القوطية ، ٣٩ ؛ نفح ، ٤٣/٣ ؛ رحلة الأندلس ، مؤنس ، ٣١٤ .

(٣) انظر مثلا : نفح ، ١٥/٣ ، ٤٥٢/٤ (نقلا عن ابن حيان ، مختصراً) ، ٢٠/٦ ، ٢٢ ، ١٦٦ (= أزهار الرياض ، المقري ، ٦٥/١ ـ ٦٦ . نقلا عن : روضة التعريف بالحب الشريف ، ابن الخطيب ، ٧٠٩/٢) .كذلك : لسان الدين ابن الخطيب ، محمد بن عبد الله عنان ، ١٨٨ ـ ١٨٩ .

فيها كل أوربا ، وخلت من الوفاء بجزء يسير لحسن المعاملة والخير العميم الذي أصابها على الدوام . مما يُشَكِّل « **الحروب الصليبية في الغرب** » . وهو موضوع يستحق الاهتمام والدرس

كان عهد الولاة غنياً بالجهود لإقرار الحال بعد تبديلها واستتباب الأمور . إذ تم تعديلها ، مع الإستمرار بالفتح في الجزيرة وما وراء البُرْت . بجانب ذلك تمت الإصلاحات الضرورية والتنظيمات ومراقبة التَبَدُّل الاجتماعي وما أُنجِز في جوانب الحياة ، بدخول الناس في الإسلام وما ترتب عليه .

كان العهدِ بدايةً لنشأة العلوم الجديدة المتنوعة التي نضجت ثمارها على مراحل . فوُجِد في العهد إنتاج وأعلام في أكثر من ميدان ، وفي ميدان تكريم الانسان واعتلاء مكانته ، أو قُل فصول ولادته وحقيقة وجوده .

وسيتسع هنا الكلام عن عدد من الموضوعات التي تختص بهذا العهد ، بعد أن أشير إليها وألقي ضوءاً عليه .

أولاً : الاستِقرار وَتنظيم البلاد وإصلاحِها

قبل أن يغادر موسى الأندلس (مع طارق) عَيَّن ابنه عبد العزيز والياً عليها ، واتخذت إشْبِيلِيَة عاصمة ، وبقيت كذلك حوالي ثلاث سنوات حتى انتقلت إلى قُرْطُبَة في ولاية أيوب بن حبيب اللَّخْمي (رجب ٩٧ — ذو الحجة ٩٧ هـ ، بعد عبد العزيز بن موسى) ، أو في ولاية الحر الثقفي (ذو الحجة ٩٧ — رمضان ١٠٠ هـ) بعد أيوب[١] . أو يكون ابتداء انتقال العاصمة إلى قرطبة في ولاية أيوب ، فأكده وأتمه الحر .

بقيت الأندلس بضع سنوات يجري فيها التنظيم وإقرار الأوضاع وتنسيق الأمور بإشراف الشمال الإفريقي . ثم أصبحت ولاية مستقلة خاضعة للخلافة ، وإن لم تستمر ،

---

(١) راجع : نفح الطيب ، ٢٧٦/١ ، ١٤/٣ ؛ أخبار مجموعة ، ١٩ ؛ فجر الأندلس ، ١٣٣ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ٧٣/١ ؛ قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، السيد عبد العزيز سالم ، ٣٠/١ .

كذلك . وكان أول وال عينته الخلافة : السَّمْح بن مالك الخَوْلاني في رمضان سنة ١٠٠ هـ (نيسان ٧١٩ م) ، وقد أقامه الخليفة عمر بن عبد العزيز . لكن تنظيمات الأندلس وسلطاته الأخرى عادت — أحياناً — تابعة للشمال الإفريقي .

هاجرت أعداد كبيرة من المسلمين إلى الأندلس بعد فتحها . وكان أكثرهم — كما يظهر — من مسلمي البربر ، واستقروا في كل ناحية . وليس صحيحاً من أن المسلمين العرب استأثروا بأحسن النواحي[1] .

لعل سُكْنى بعضِ النواحي الجبلية مِن قِبَل مجموعات مِن مسلمي البربر قد تمّ بناءاً على رغبتهم ، وذلك يتناسب مع ما اعتادوا عليه في الشمال الإفريقي ، حيث بعض مناطقهم جبلية مرتفعة معروفة ، على الشاطئين الشمالي (البحر المتوسط) والغربي (المحيط الأطلسي) . ولدينا عدة نصوص تؤيد هذه الوجهة :

إن نواحي سهلة خصبة عديدة — بعضها غير جبلية — سكنها مسلمون من البربر[2] ، مع غيرهم من المسلمين . مثلاً :

* كُورَة فَحْص البَلُّوط (Valle de Pedroches) الواقعة شمال قُرْطُبَة ، « وفَحْصُ البَلُّوط كُورَة خصبة واسعة ومدينتها غَافِق »[3] .

* كُورَة السَّهْلَة[4] — « وحَضْرَتُها مدينةُ شَنْتَمَرِيَّة »[5] — التي كان بنو رَزِين (Albarracin) مِن سكانها[6] ، وحكموها أيام الطوائف[7] ، وتُعرف بشَنْتَمَرِيَّة الشرق (Santa Maria de Albarracin) أو سَهْلَة بني رَزِين[8] . وهي

---

(١) انظر : فجر الأندلس ، ١٢٨ ، ٣٨٨ .
(٢) انظر : جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم الأندلس ، ٤٩٩ — ٥٠٢ .
(٣) المسالك والمالك ، الأصطخري ، ٣٦ .
(٤) انظر : نفح الطيب ، ١٦٦/١ .
(٥) المغرب في حلى المغرب ، ابن سعيد الأندلسي ، ٤٢٧/٢ .
(٦) جمهرة أنساب العرب ، ٤٩٩ — ٥٠٠ .
(٧) دول الطوائف ، عنان ، ٢٥٣ وبعدها .
(٨) الحلة السيراء ، ١٠٩/٢ ؛ الحلل السندسية ، ١٠٠/٢ ، ٥٥٣/٣ . كذلك : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مؤنس ، ١٠٤ .

« مُوسَطة ما بين الثغر الأقصى والأدنى من قُرْطُبَة . . . وليس في بلد الثغر أخصب بقعة من سهلته المنسوبة إلى بني رَزِين سلفه في اتصال عمارتها »[1] .

* « وأمّا نَفزَة ومِكناسة منهم بالأندلس بين الجَلالِقَة وبين مدينة قُرْطُبَة ، وأمّا هَوّارَة ومَدْيُونَة فهم سكان شَنْتَمَرِيَّة »[2] . وهي قبائل بربرية من البُتْر[3] .

* ينقل ابن حَيَّان عن الرازي أنه « كانت خِطة مُنْيَة الرُّصَافَة هذه لرَزِين البُرْنُسي أحد أكابر رجال البربر الداخلين إلى الأندلس في جيش طارق ، وكان له تقدم في الجيش ، وإليه يُنسب البَلاط الذي بها والزيتون الذي بإزائها ، فكان المختط للرصافة . ولرَزِين هذا آثار كثيرة بقُرْطُبَة وغيرها ، منها المسجد المنسوب إليه بالرَّبَض الغربي ، وينسب إليه أيضاً الجِنان التي تجاور عين قُبَّش بذلك الرَّبَض . وانتقلت الرُّصَافَة عن ورثتها ، فاشتراها الأمير الداخل عبد الرحمن بن معاوية »[4] . يضاف إلى ذلك أنه حتى شمالي الجزيرة يتمتع بالخصوبة الوفيرة وإمكانية الإنتاج و « أن الربع الشمالي الغربي من شبه الجزيرة أغنى نواحيها جميعاً وأوفرها خيرات. »[5] هذا حاله حاضراً ، وكانت إمكانيته كذلك ماضياً .

إن سُكْنَى مَن بقي في الأندلس من الفاتحين كانت حسب المكان الذي يناسبهم ، سواء في ذلك جميع المسلمين : البربر أو العرب ، سكنوا سوية أو منفردين. فالمسلمون الأوائل سُمُّوا بالبلديين « لِمَار أو بلاداً شِبْه بلادهم خَصباً أو توسعة سكنوا واغتبطوا وتمولوا. »[6]

كان الجيش المسلم الفاتح القادم مع موسى وطارق — اللذين سارا بالجيش سوية بعد ذلك ، لاستكمال عمليات الفتح — فيه المسلمون : البربر والعرب . سكن مَن أراد البقاء منهم في مناطق تناسبهم . إذ حين استدعي موسى للعودة — هو وطارق ،

---

(١) البيان المغرب ، ٣/ ١٨١ — ١٨٢ . كذلك : الحلة السيراء ، ٢/١٠٨ .

(٢) المسالك والممالك ، ٣٦ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المقتبس ، ٢/٢٣٤ . قارن : نفح الطيب ، ١/٤٦٦ — ٤٦٨ .

(٥) رحلة الأندلس ، ٣١٤ .

(٦) الحلة ، ١/٦٣ (نقلا عن ابن حيان) . كذلك : ١/٦١ ؛ الاحاطة ، ١/١٠٣ ؛ البيان ، ٢/٣٣ ؛ نفح ، ١/٢٨٠ .

وجيشهما الإسلامي مكون من العرب والبربر – إلى المشرق « وسكنت العرب المفاوز ، وكان العرب والبربر كلّما مرّ قوم منهم بموضع استحسنوه حَطّوا به ، ونزلوه قاطنين ، فاتسع نطاق الإسلام بأرض الأنْدَلُس ، وخُذِل الشركُ ،...، ووافاه طارق في الطريق منصرفاً من الثغر الأعلى ، فأقفله مع نفسه ومَضَيا جميعاً ومعهما من الناس من اختار القفول ، وأقام من آثر السكنى في مواضعهم التي كانوا قد اختطوها واستوطنوها »[1] . كما كان اختيار سكنى الأندلس متروكاً لمن يريد ، فأقام بها « من أراد سكناها . »[2]

هذا بيان على أن الأمور سارت حسب الرغبة التي كان لنوع الحياة السابقة ، وطبيعة الأرض المعتادة لهم . كانت الأرض الجبلية تناسب البربر ، فاختارها منهم من أراد « إذ كان البربر يرغبون عن سكنى المدن والقرى ، وإنما بغيتهم سكنى الجبال والصحارى »[3] . زيادة على أن بعض المسلمين العرب سكنوا الجبال وبعض المسلمين البربر سكنوا السهول ، وقد سكن المسلمون – عرباً وبربراً – سوية بأي نسبة ، فهم إخوة في الله تعالى ، ألف بينهم – سبحانه – بهذا الدين .

* * *

كان عبد العزيز بن موسى رجلاً تقياً قوياً وحريصاً ، مع نشاط وإقدام ، كما كان إدارياً وعسكرياً ماهراً ، زيادة إلى حبه للاصلاح وتلهّفه عليه ، بدأ ينظم أحوال البلاد ويتم عمليات الفتح ، وقضى على كثير من الجيوب المتبقية فأخضعها .

أثنت المصادر العديدة عليه . يذكر المَقَّرِي – لعله نقلاً عن الرازي[4] – أن عبد العزيز « ضبط سلطانها ، وضَمَّ نَشَرَها ، وسَدَّ ثُغورها ، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة ممّا كان قد بقي على أبيه موسى منها ، وكان من خَيِّر الولاة ، إلاّ أن مُدّته لم تَطُل »[5] . كما نشط في تنظيم الحكومة الجديدة وإدارتها ،

---

(١) نفح ، ١/٢٧٦ ، ٢٨٠ ؛ الاحاطة ، ١/١٠٣ . قارن : العبر ، ٤/٢٥٩ ؛ نفح ، ١/٢٩٠–٢٩٨ .

(٢) البيان المغرب ، ٢/٢٣ .

(٣) المصدر السابق ، ٢/٧ .   (٤) المصدر السابق ، ٢/٢٤ .

(٥) نفح الطيب ، ١/٢٨١ . ضمّ نشرها : لمّ شعثها . كذلك : البيان ، ٢/٢٤ . كان من عَقِبه في قرطبة : الفقيه أبو بكر محمد (٣٩٠ هـ) . الصلة ، ٤٩٩ (رقم : ١٠٨٣) .

وكذلك وعَمِل الحر الثقفي [1] .

اتبع الفاتحون السياسة الحكيمة المتسمة بالرفق والاعتدال والوفاء بالعهود والالتزام بها في كل الظروف[2] . ومن المعاهدات التي حفظتها مصادرنا جزءٌ من مُصالحة موسى مع أهل مَارِدَة[3] ؛ والنص الكامل لمعاهدة كانت بين عبد العزيز وبين تُدْمِير ، حاكم الإقليم المسمّى بنفس الاسم (Tudmir) ، الذي عُرف فيما بعد باسم مُرْسِيَه (Murcia) . وقد مر نص هذه الوثيقة السياسية المهمة[4] .

تولى حكم الأندلس – بعد مقتل عبد العزيز بن موسى – واليان ، ثم أقام الخليفة عمر بن عبد العزيز (صَفَر ٩٩ – رَجَب ١٠١ هـ) عليها السَّمْح بن مالك الخَوْلاني (رمضان ١٠٠ – ذو الحجة ١٠٢ هـ) . وبه تبدأ مرحلة أُخرى متممة ، ليس فيما يتعلق بنشاط المسلمين بالفتوحات وراء جبال البُرْت ، بل أيضاً بتنظيم بلد الأندلس وإقرار الأوضاع فيها والقيام بإصلاحات . وأصبحت الأندلس به ولاية مستقلة عن الشمال الإفريقي ، خاضعة إلى الخلافة رأساً .

يذكر مؤرخونا أن الخليفة عمر بن عبد العزيز فكر في إخلاء الأندلس وإجلاء المسلمين عنها « وكان من رأيه أن يَنْقل المسلمين عنها لانقطاعهم وبُعْدِهم عن أهل كلمتهم »[5] . وطلب من السمح أن « يكتب إليه بصفتها وأنهارها وبحارها »[6] . فكتب إليه السمح « يُعَرِّفُه بقوة الإسلام وكثرة مدائنهم وشرف معاقلهم »[7] فَعَدَل عمر بن عبد العزيز عن رأيه وأقرّ السَّمْح على ولايته[8] .

تتابع الولاة على الأندلس بعد استشهاد السَّمْح . كان تنظيم البلاد وإصلاحها

---

(١) دولة الإسلام ، ١/٧١ .

(٢) انظر : أعلاه ، ٧٧ – ٨٢ . كذلك : أندلسيات ، ٢/١٩ .

(٣) أعلاه ، ٧٧ .

(٤) أعلاه ، ٨٠ – ٨١ .

(٥) نفح الطيب ، ٣/١٥ . كذلك : أخبار مجموعة ، ٢٣ ؛ البيان المغرب ، ٢/٢٦ .

(٦) نفس المصادر . كذلك : فجر الأندلس ، ١٣٧ ، ٦٠٥ .

(٧) تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٩ .

(٨) راجع : البيان المغرب ، ٢/ ٢٦ .

وإدارتها ووضع التشريعات للبلد ـ حسب الشريعة الإسلامية ـ هو عمل هؤلاء الولاة ، وقاموا بجهود كبيرة للاستمرار بموجة المد الإسلامي فيما وراء البُرْت (الأرض الكبيرة) . وفي أحيان ـ بعد ذلك ـ عادت الأندلس لتبعيتها للشمال الإفريقي .

اهتم ولاة الأندلس بتنظيم البلاد وإدارتها وحسن السياسة للرعية بكل جماعاتها والقيام بالإصلاحاتَ اللازمة . وأمر عمر بن عبد العزيز السَّمْح بن مالك بأن « يحمل الناس على طريق الحق ، ولا يعدل بهم عن منهج الرفق ، . . . ، وامتثل ما أمره به عمر (رضي الله عنه) من القيام بالحق ، واتِّباع العدل والصدق ، فانفرد السَّمْحُ بولايتها ، وعزلها عمر عن ولاية إفريقية ، اعتناءً بأهلها ، وتَهَمُّماً بشأنها . »[1]

تنوه مصادرنا ـ بعد ذلك ـ بسِيَر العديد من الولاة وتفانيهم في الجهاد ، من أمثال عبد الرحمن الغافقي وعُقْبَة بن الحَجّاج السَّلُولي . جاء في **نفح الطيب** ـ عن الغافقي ـ أنه قد « استقامت به الأندلس ، و ضبط أمرها »[2] .

وكان هناك تنظيم إداري خاص بالمسلمين وآخر لغير المسلمين ، وكلما تقدم الزمن كان الناس يدخلون في الإسلام أكثر . وبذلك يصبح غالبية سكان الأندلس يحتكمون إلى الشريعة الإسلامية ، وأصبح غير المسلمين أقليه يحتكمون إلى قضاتهم . لقد ترك المسلمون للنصارى (وغيرهم) حق اختيار قضاتهم ورؤسائهم . وليس هذا فيما يتعلق بالقضاء فقط ، بل كذلك فيما يتعلق بالجباية والأمن وتنظيم الحرف .

في حقل الزراعة ، مثلاً : ذهب ماكان من اعتبار الزارع رقيق الأرض . وأصبح هؤلاء الزراع أحراراً ، لهم حقوقهم ، يزرعون الأرض مُلاّكاً لها[3] .

عاش غير المسلمين أحراراً في عقائدهم ، وبقيت الكنيسة تملك بعض الأراضي . وكان النصارى أحراراً في عقد مجامعهم ، واختلط كثير من غير المسلمين (النصارى واليهود) بالمسلمين ، وتقبلوا لغتهم وكثيراً من عاداتهم .

---

(١) البيان المغرب ، ٢/ ٢٦ .

(٢) نفح الطيب ، ٣/ ١٦ .

(٣) راجع : البيان المغرب ، ٢/ ٢٦ ؛ العبر ، ٤/ ٢٥٧ ؛ نفح الطيب ، ١/ ٢٣٥ ، ٣/ ١٥ ؛ أخبار مجموعة ، ٢٣ ـ ٢٤ ؛ فجر الأندلس ، ٤٥٩ وبعدها .

أما التنظيم الإداري والمالي فقد تمتعت الأندلس باستقرار ، ضعف أحياناً في عهد الولاة . وفي التنظيم الإداري استفادوا من التقسيم الإداري الذي كان موجوداً قبلهم . والاتجاه في التنظيم الإداري الإسلامي — ومنه الأندلس — « يميل نحو الأقسام الإدارية الصغيرة تيسيراً لضبط الأمن وربط المال »[1] . فاعتمدو على الكُوَر (جمع كُورَة)، يتبع كل كورة عدة مدن ، يتبع المدينة عدة أقاليم (قرى كبيرة) ثم أجزاء (مزارع أو أرياف)[2] . كما كانت في الأندلس مراسي (موانىء) ، فقد يبدأ هذا في أول الأمر رباطاً بحرياً .

قامت بعض الأعمال العمرانية ، منها انشاء المساجد في المناطق المختلفة — وهو أمر كان أول شيء ينجزه المسلمون حين يقيمون في مكان ما — وكذلك المدارس[3] في المساجد أوالربط أوغيرها من أماكن التعليم. وعُرفت المساجد — في العالم الإسلامي ، دوماً — بأنها أيضاً معاهد للتدريس . والمسجد كذلك مركز المدينة المسلمة ، وقلبها النابض المجدِّد .

أنشأ السَّمْح بن مالك الخَوْلاني سنة ١٠١ هـ ، بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز[4]، قَنْطَرة قُرْطُبَة العظيمة - فوق الوادي الكبير - على آثار القَنْطَرة الرومانيةالمتهدِّمة . فقد كتب السَّمْح إلى الخليفة « عمر يستشيره ويُعْلِمُه أن مدينة قرطبة تهدّمت من ناحية غربها ، وكان لها جسر يُعْبَر على نهرُها ووَصَفَه بحمله وامتناعه من الخوض ، الشتاءَ عامّةً . فإن أمرني أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلتُ ، فإنَّ قِبَلي قُوَّة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد ، وإن أحبَّ صرفتُ صخر ذلك السور فبنيتُ جسرهم . فيقال — والله أعلم — إن عمر رحمه الله أمر ببنيان القَنْطَرة بصخر السور ، وأن يُبْنى السور باللَّبِن إذ لا يجد له صخراً فوضع يداً فبنى القَنْطَرة في سنة إحدى ومائة »[5] .

---

(١) فجر الأندلس ، ٥٥٤ .

(٢) فجر الأندلس ، ٥٨٥ وبعدها .

(٣) انظر : تاريخ غزوات العرب ، ١٢١ .

(٤) أخبار مجموعة ، ٢٤ .

(٥) أخبار مجموعة ، ٢٤ . راجع كذلك : الروض المعطار ، ١٥٦ .

« والقنطرة التي على هذا النهر عند قُرْطُبَة من أعظم آثار الأندلس وأعجبها ، أقواسها سبع عشرة قوساً ، وبانيها — على ماذكره ابنُ حَيَّان وغيرُه — السَّمْح بن مالك الخولاني صاحب الأندلس بأمر عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه »[1] .
وعنها يقول الإدريسي : « ولقُرْطُبَة القَنْطَرة التي علَت القناطر فخراً في بنائها وإتقانها ، وعدد قِسِيِّها سبع عشرة قوساً بين القوس والقوس خمسون شبراً ، وسَعَة القوس مثل ذلك خمسون شبراً ، وسَعَة ظهرها المعبور عليه ثلاثون شبراً . ولها ستائر من كل جهة تستر القامة . وارتفاع القنطرة من موضع المشي إلى وجه الماء في أيام جُفوف الماء ثلاثون ذراعاً ، وإذا كان السيلُ يصلُ الماءُ منها إلى نحو حلُوقها . وتحت القَنْطَرة يعترض الوادي رصيف سد مصنوع من الأحجار القبطية والعُمُد الجافية من الرخام . وعلى هذا السد ثلاثة بيوت أرحاء ، في كل بيت منها أربع مطاحن . »[2] ولهذه القنطرة أهمية حيث تصل جنوبي الأندلس بقرطبة والشمال الإفريقي[3] .

ثانياً : انتشار الإسلام واعتناق الإسبان له

لم يكن فتح المسلمين لشبه الجزيرة الأندلسية حدثاً عسكرياً وسياسياً فحسب ، بل — الأهم من ذلك — أنه كان فتحاً إنسانياً وبدايةً لحدث حضاري فريد لإسبانيا وأوربا على السواء[4] .

قضى الإسلام في إسبانيا على الأوضاع السيئة التي سبق وصفها ، قبل الفتح . فلم تعد هنالك طبقة متحكمة متمثلة في الأسرة الحاكمة والنبلاء ، وزال سلطان الكنيسة ونفوذ رجالها ، وانتهت عبودية الأرض أو العبيد (الرقيق) ، حيث تحرر كل مَن دخل منهم الإسلام ، وقد دخل أكثرهم — أو كثرة منهم — الإسلام .

---

(١) نفح الطيب ، ١/٤٨٠ . كذلك : نفح الطيب ، ١/٣٣٨ ، ٤٦٠ ، ٣/١٥ ؛ البيان المغرب ، ٢/٢٦ ؛ العبر ، ٤/٢٥٧ (= نفح ، ١/٣٢٥) .

(٢) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ٢١٢ (= الحلل السندسية ، ١/١٤٤) .

(٣) راجع كذلك : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ١/٩٧ وبعدها ؛ فجر الأندلس ، ١٣٩ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ١/٧٥ .

(٤) انظر : أندلسيات ، ٢/١٥١ .

كان همّ الفاتحين دوماً العمل على انتشار الإسلام : هدف الفتح ، وهو له مدخل. عوّدَنا الفاتحون وقادتُهم – في المعلومات القليلة حول هذا الموضوع ، في الغرب الإسلامي – على العناية بإفهام الناس الإسلام وشرحه لهم وتوجيه الدعاة إليهم . فكان الناس يرون في الإسلام من صفاء العقيدة وخلوصها لله تعالى والتشريعَ والقيَم ما لم يسمعوا عنه أو يحلُموا به ـ ولَو نظرياً ـ فضلاً عن الصورة العملية وهو أمر أكثر ندرة بل وتفرداً .

غدت القيَم والتعاليم الإسلامية – وهي تقوم على العقيدة والإيمان والالتزام ، وبذاتية ثابتة – في أخلاق الفاتحين والدعاة مُثُلاً متحركةً تُشاهَد عِياناً ، في شكل خلاّب ، يسُر الناظرين ، ويُدهشهم . فيدخلون في دين الله أفواجاً ، **فذلك فتح العقيدة** . وهو الذي كان يجري في المناطق التي فتحها المسلمون ، وتلك التي لم تصلها سَرِية جهاد أو تطأ أرضَها فرس جِلاد ، بل المتطوعون من الدعاة وتجار المسلمين ورحّالتُهم[1].

كل داخل في الإسلام يُصبح هو داعية له ، وذلك نابع من طبيعة الإسلام ومنطق قبوله ووظيفته ، حسب السَّعة والطاقة . قال ـ جلّت قدرتُه ـ : ﴿ وكذلك جعَلْناكُم أمّةً وسَطاً ، لتكونوا شُهَداءَ على النّاس ويكونَ الرسولُ عليكم شَهيداً ﴾[2] . وقال : ﴿ ولْتَكُن منكم أمّةٌ يَدْعون إلى الخير ويأمرونَ بالمعروفِ ويَنْهَوْنَ عن المُنْكَر وأولئك هُم المُفْلِحونَ ﴾[3] ، وقال : ﴿ كُنْتُم خَيْرَ أمّةٍ أُخْرِجَت للناس تَأمُرُونَ بالمعروفِ وتَنْهَوْنَ عن المُنْكَرِ وتُؤْمِنُونَ باللهِ ﴾[4] .

وقال رسول الله ﷺ : « خَيْرُكُم مَن تَعَلَّم القرآنَ وعَلَّمَه . »[5] ، « بَلِّغوا عني ولو آية . »[6] ، « لَئن يهدي بك اللهُ رجلاً واحداً أَحَبُّ إليك من الدنيا ومافيها . »

---

(١) انظر : الاسلام في الشرق الأقصى ، قيصر أديب مخول ، ٢٢ ، ٢٥ – ٢٨ ؛ المسلمون في الفيليبين ، نفس المؤلف ، ١٢ .

(٢) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

(٣) الآية ١٠٤ من سورة آل عمران .

(٤) من الآية ١١٠ من سورة آل عمران .

(٥) جامع الأصول في أحاديث الرسول ، ٥٠٧/٨ .

(٦) جامع الأصول ، ١٩/٨ .

فالأمةُ الاسلامية هي أُمة الإيمان الخَيِّر الذي أنزله اللهُ تعالى إلى كلّ الناس ، هدايةً ورحمةً ، وأَبْلَغه إليهم رسلُه (عليهم الصلاة والسلام) ، ودعاهم إليه الدعاةُ من الفاتحين والعلماء والصلحاء بقولهم وفعلهم . فاستجاب له الذين قَبِلُوا الهدى وأراد اللهُ ـ سبحانه ـ بهم خيراً . أصبحوا لله عبيداً ، فكانوا الأحرارَ الذين كَسَروا كلَّ قيدٍ والأبرار الذين تَأَبَّوْا على أي عبد ، الأقوياء بربهم العظماء بشرعه .ساروا إلى الله ، يعتزون بالانتساب لدينه ، يَجِدُّون لرضاه ويدعون لهداه — عقيدة وعبادة وشريعة — ويرفضون ما سواه . ففتحوا الأمصار ، وعَمَّروا الديار ، ساجدين لله الواحد القهار .

نواجه — في تدوين تاريخ الغرب الإسلامي — فَقْراً في المعلومات والدراسات عن هذا الموضوع المهم الخصيب. لدينا نُتَفٌ وأخبار متناثرة ، بالإمكان — بعد المتابعة والجمع — أن تَرْسِم صورةً لابأس بها ، مع الاستعانة بالأمور الأخرى المتعلقة بأحداث الفتح الإسلامي وسياسته وأحوال المجتمع المسلم وطبيعة العقيدة الإسلامية وشريعتها . وذلك أمر سارٍ في عمليات الفتوح ، وهو **بحاجة إلى دراسة علمية مجتهدة** أمينة مستقلة ، يكرّس لها الجهد الكافي ، بحثاً وصياغة ، بأمانةٍ و حيدة .

ويجد الباحث أخباراً عن هذا الأمر في فتح الشمال الإفريقي . حيث يُرسَل الدعاةُ والفقهاء ، بجانب الجيش الفاتح ؛ لشرح الإسلام وبيانه .كان ذلك مألوفاً حتى للجيش المسلم ذاته ، وقد ضَمَّت حملةُ طارق عدداً من الجند الفقهاء ، لهم مهمة تفقيه الجند، بجانب الواجب العسكري[1] .

كان أول عمل يقوم به الفاتحون هو إقامة المسجد أو تجديده[2] : مركز نشاط المدينة المسلمة وقلبها النابض بأحلى حياة وأجملها وأحبها وأنداها .كما فعل عُقْبَة بن نافع (٦٣ هـ) في ولايته لإفريقية حين أنشأ مدينة القيروان (٥٠ هـ)[3] وابتنى

---

(١) انظر : أعلاه ، ٤٣ ، ٥٢ ، ٧١ .

(٢) انظر أمثلة في : معالم الايمان في معرفة أهل القيروان ، الدباغ ، ١/٢٧ — ٣٣ ، ٢٢٣ ؛ رياض النفوس ، أبو بكر عبد الله المالكي ، ١/٢٦ ، ٣٧ .

(٣) رياض النفوس ، ١/٦ ، ٢١ ، ٦٢ .

مسجدَها الجامع [1]. أثناء بنائه القيروان « أقبل يدعو لها ـ هو وأصحابه ـ ويقولون في دعائهم : اللهم أملأها علماً وفقهاً ، وعمّرها بالمطيعين لك والعابدين ، واجعلها عزاً لدينك وذلاً لمن كفر بك ، وأعزّ بها الاسلام ، وأمّنها من جبابرة الأرض »[2] . فأنشأ مسجدَها أولاً « وكان أول شيء اختط فيها الجامع »[3] . ثم أقيمت المدينة ومعالمها وطرقها ومرافقها حوله ، فكان هو مركزها .

ذلك كله دليلُ الاهتمام بأمور الاسلام وإنشاء الحياة عليه ، والمسجد رمزه ، ومنارته نداء عليه ، وأنه قِوام وأساس وهدف .

كان أوّلُ شيء أقامه موسى بن نُصَيْر مسجدَ الرايات في الجزيرة الخضراء[4] ، لدى عبوره إلى الأندلس ، فاتحاً مجاهداً . ويشير الحِمْيَري إلى أول مسجد أُسس في الأندلس « ... في الشرق من مدينة الجزيرة مسجداً يقال إنه من بناء صاحب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم [أو أحد التابعين[5]] ، ويُقال إنه أولُ مسجد بُني بالأندلس ، ويُعرف الموضع الذي هو فيه بقَرْطَاجَنَّة ، فإذا أقحط أهل الجزيرة استسقَوْا فيها ، فسُقُوا بفضل الله تعالى ورحمته . »[6]

وأسس حَنَش بن عبدالله الصنعاني التابعي ــ بالتعاون مع غيره ــ مساجدَ مدن : إلْبِيرَة[7] وقُرْطُبَة[8] وسَرَقُسْطَة[9] ، وربما غيرها .

---

(1) معالم الايمان ، 1/ 33 ، 166 ؛ رياض النفوس ، 1/ 7 ؛ البيان المغرب ، 1/20 .

(2) معالم الايمان ، 1/ 7 ؛ رياض النفوس ، 1/6 ؛ البيان المغرب ، 1/23 .

(3) معالم الايمان ، 1/10 .

(4) أعلاه ، 73 .

(5) زيادة أوردها العذري : نصوص عن الأندلس ، 119 .

(6) الروض المطار ، 75 .

(7) الاحاطة في أخبار غرناطة ، 1/92 ؛ الروض المعطار ، 29 ؛ نفح ، 3/8 .

(8) نفح ، 1/562 ، 3/8 . كذلك : المقتبس (بيروت) ، ابن حيان ، 243 ؛ نفح ، 1/288 ، 3/7 .

(9) أعلاه ، 91 .

١ – ماقبل الأَنْدَلُس : المَغْرِب

من المؤكد قيام الدعاة بواجبهم في الدعوة : بعملهم وسيرتهم ، أثناء الفتح أو بعده . وقد يكون هؤلاء من الفاتحين أصلاً . تلك سُنَّةٌ جارية وهدف أصيل، كَرَّسَ الفاتحون له جهودهم وجهادهم ، وتولاها الولاة والقادة مثلما تولوا عمليات الفتح في الشمال الإفريقي، وغيره طبعاً ، من قبل ومن بعد . هكذا فعل عُقْبَة وغيره في افتتاح الشمال الإفريقي مع سكانه البربر ، « وقد كان عُقْبَة بن نافع ترك فيهم بعض أصحابه يُعَلِّمونهم القرآن والإسلام ، منهم : شاكر صاحب الرباط وغيره . »[١]

ذكر محمدُ بن القاسم الأنصاريّ السَّبْتِيّ (بعد ٨٢٥ هـ) في كتابه **اختصار الأخبار عمَّا كان بثَغْر سَبْتَة من سَنِيِّ الآثار** داعيةً عَلَّم أهل المغرب القرآن الكريم . ويكنيه « أبا زُرْعَة » . ففي مقبرة التوتة ، شرقيِّ مدينة سَبْتَة « قبرُ الولي أبي زُرْعَة مَزار مشهور ، حكى الشيخ الصالح المحدث الراوية أبو العباس العزفي عن شيخه الشيخ الإمام المحدث الأشهر أبي محمد بن عبيد الله الحجري أن أبا زُرْعَة هذا هو الذي أدخل القرآن إلى المغرب »[٢] . وهذا يعني أن أبا زُرْعَة من المسلمين الأوائل جداً ، ولعله من مسلمي البربر .

ويذكر ابنُ الخطيب (٧٧٦ هـ) في القسم المغربي من كتابه **أعمال الأعلام** أن « صالح بن منصور الحِمْيَري – من أهل اليمن – توجّه إلى المغرب في الفتح الأول الكائن على يد عُقْبَة المُستجاب ، فنزل بمَرسى تمسامان ويعرف بمَرسى البقر ، وبينه وبين نَكُور عشرون ميلاً ، وأسلم على يده بربر تلك الجهات ، وبقي بها إلى أن مات فدُفن على شاطيء البحر ، وقبره هناك معروف بقبر العبد الصالح »[٣] . في حين وردَ في كتاب **الاستبصار في عجائب الأمصار** لمؤلفٍ مجهول (ق ٦ هـ) ذِكْرُ هذا الداعية المبكر حين الحديث عن مدينة نَكُور المغربيّة حيث اعتبر حفيد

---

(١) البيان المغرب ، ١/ ٤٢ .

(٢) اختصار الأخبار ، ١٥ .

(٣) أعمال الأعلام ، ٣/ ١٧١–١٧٢ (طبع هذا القسم بعنوان : المغرب العربي في العصر الوسيط) . كذلك : العبر ، ٦/٤٣٩ ؛ البيان المغرب ، ١/١٧٦ .

المذكور هو العبد الصالح « فتحها سعيد بن إدريس بن صالح الحِمْيَري ، وهو المعروف بالعبد الصالح ، في أيام الوليد بن عبد الملك بن مروان . وكان دخل أرض المغرب في الافتتاح الأول قبل موسى بن نُصَيْر ، وعلى يديه أسلم البربر المجاورين لهذه المدينة وهم صِنْهاجَة وغِمارة . »[1] ولعل وصف **الاستبصار** هنا أيضاً خاص بصالح . وإن جهاد هؤلاء وغيرهم ناطق بليغ وبيّن مشهور في كتب التراجم ذات القوائم الطويلة .

مثل ذلك فعل موسى بن نُصَيْر في المغرب والأنْدَلُس « حيث أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن ، وأن يفقهوهم في الدين . »[2] ولا ينفرد ابن عِذاري في ذلك بل يشاركه آخرون بتفصيل أكثر ، منهم المَقّري الذي يذكر أن موسى ولّى طارقاً طنجة وأعمالها « وترك عنده تسعة عشر ألفاً من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة . وكانوا قد أسلموا وحَسُن إسلامهم ، وترك موسى عندهم خَلْقاً يسيراً من العرب ليعلموا البربر القرآن وفرائض الاسلام »[3] . وهذه الإشارات مما يخص الشمال الإفريقي .

يذكر ابن عِذاري عن هذا الأمر خبراً آخر لايتضح تماماً إن كان في الأنْدلُس أو في المغرب إذ يقول : « تَرك موسى بن نُصَيْر سبعة عشر رجلاً من العرب يعلّمونهم القرآن وشرائع الإسلام . »[4] والظاهر أن ابن نُصَيْر ترك هذا العدد من المسلمين الأوائل يفقّهون إخوانهم مِن مسلِمي البربر الداخلين إلى الأندلس ، ولعل هذا العدد « سبعة عشر رجلاً » هم كل أو بعض مسلمي العرب الداخلين مع جيش طارق في حملته إلى الأندلس سنة ٩٢ هـ[5] .

ذكر عدد من مؤرخينا أنه منذ وصول المسلمين إلى إفريقية وشماليها دخل إليها

---

(١) الاستبصار ، ١٣٦ .

(٢) البيان المغرب ، ٤٢/١ . كذلك : أعلاه ، ٤٣ .

(٣) نفح الطيب ٢٣٩/١ . كذلك : وفيات الأعيان ، ٣٢٠/٥ ؛ العبر ، ٢٢٠/٦ ؛ الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، الوزير السراج ، ٥٦٦/٣/١ .

(٤) البيان المغرب ، /٤٢ . انظر كذلك : دولة الاسلام في الأندلس ، ٢٥/١ .

(٥) أعلاه ، ٥١ — ٥٢ .

مئات الصحابة الكرام والتابعين ، ومن كبارهم . وتولى بعضهم قيادة فتح الشمال الإفريقي أو ولايته ، واستقروا فيها أو رحلوا عنها[1] إلى المشرق أو الأندَلُس ، فيما بعد . وقد دخل مع عُقْبَة بن نافع العشرات منهم . فذُكر أن عدد مَن « كان معه في عسكره خمسة وعشرون من الصحابة »[2] في ولايته الأولى ، وكثرة منهم ومن التابعين في ولايته الثانية . وهذا يعني أن قدراً كبيراً من مسلمي البربر كان من التابعين وتابعيهم بإحسان ، بعضهم ممن كان في فتح الأندَلُس .

كل هؤلاء - وغيرهم - كانوا دعاة ، بل الجيش الإسلامي كل أفراده كانوا دعاة لأنه جيش عقيدة . فكلهم يَفْقَه دينَه ، وأول وآخر أمر يهمه هو خدمة الإسلام ونشره ، وكلهم كانوا يشرحون الإسلام بأقوالهم وأفعالهم . إن وجود هذه الكثرة من الصحابة - كبارهم وصغارهم - ثم التابعين ، ليدل على مدى الاهتمام بالإسلام ونشره والجهاد بكل طريق في سبيله . يتضح ذلك بشكل جلي حين الاطلاع على حياة هؤلاء وجهادهم وغرامهم بذلك ، إعلاءً لكلمة الله تعالى . وإن أسبقيَّتهم ومكانتهم تستدعي تقدمهم للعمل والتضحية ، قبل غيرهم . فلقد أورد المَقَّري في **نفح الطيب** (نقلاً عن كتاب مفقود للحافظ ابن بَشْكُوال ، ٤٩٤ - ٥٧٨ هـ) أن التابعي : المُغيرة ابن أبي بُرْدَة نَشيط بن كِنانَة العُذْري « دخل الأندلس مع موسى بن نُصَيْر ، فكان موسى بن نصير يُخْرِجُه على العساكر . »[3]

تذكر المصادر كذلك أن واحداً من صغار الصحابة دخل الأندلس ، هو : المُنَيْذِر الإفريقي الذي دخل الأندَلُس مع موسى بن نُصَيْر[4] . وكان حَدَّث بإفريقية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « مَن قال : رَضِيتُ بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيّاً ، فأنا الزعيم له ، فلآخُذَنَّ بيده ، فلأُدْخِلَنَّه الجَنَّة . »[5]

---

(١) معالم الايمان ، ١/٣٣ ، ٧٠ وبعدها ، ١٨٠ وبعدها .

(٢) معالم ، ١/٧ . كذلك : البيان المغرب ، ١/ ٢٣ . (٣) نفح الطيب ، ٣/١٠ .

(٤) التكملة ، ٢/٧٣١ (رقم: ١٨٤٧) ؛ نفح الطيب ، ٣/٥-٦ ؛ الروض المعطار ، ٣ ؛ أعلاه ، ٧١ .
قارن : كتاب الجغرافية ، الزهري ، ٢٢٦ .

(٥) نفح الطيب ، ١/ ٢٧٩ ، ٣/٦ .

وذكر أبو العرب القَيْرَواني (٣٣٣ هـ = ٩٤٤ م) في **طبقات علماء إفريقية وتونس** : « أن عمر بن عبد العزيز أرسل عشرة من التابعين يُفَقِّهون أهل إفريقية»[١] ، وعَدَّدَ منهم تسعة . لكن عدداً من مراجعنا ذكرت عَشْرَتَهم[٢] ، وأن ثلاثة من هؤلاء دخلوا الأندلس ، اثنان مع موسى بن نُصَيْر ، هما : أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المَعافِري الحُبُليّ الأنصاري[٣] وحِبّان بن أبي جَبَلَة[٤] . وثالثهم أبو ثُمامَة بَكْر بن سَوادَة بن ثُمامَة الجُذامي[٥] ، دخلها فيما بعد . وهؤلاء التابعون العشرة أرسلهم عمر بن عبد العزيز سنة مئة للهجرة[٦] إلى الشمال الإفريقي، للدعوة إلى الإسلام وتعليم القرآن والتفقيه في الدين . وهم :

١ ـ إسماعيل بن عُبَيْد الأنصاري (البحر ، ١٠٧ هـ) يُعرف بـ « تاجر الله » ، بنى (٩١ هـ) المسجد الكبير بالقَيْرَوان (مسجد الزيتونة حالياً) . وهو « من أهل الفضل والعبادة والنُّسُك ، كثير الصدقة والمعروف مع علم وفقه . »[٧] أقام بالقَيْرَوان حتى خرج للجهاد (متطوعاً) ، فركب البحر « ولم يزل مُقيماً بالقَيْرَوان إلى أن حضرته نِيَّةٌ في الجهاد ، فخرج في مركب متطوعاً في غَزَاة عَطاء بن رافع إلى صِقِلِّيَة فَغَرِقَ في البحر فمات وهو معانق للمُصْحَف ، وذلك سنة سبع ومئة . وإنما سُمِّيَ تاجر الله لأنه جعل ثلث كسبه لله عزَّ وجَلَّ يَصرفة في وجوه الخير »[٨] .

٢ ـ أبو عبد الحميد : إسماعيل بن عُبَيْد الله بن أبي المُهاجِر المَخْزُومي (القَيْرَوان ، حوالي ١٣٢ هـ) «كان فقيهاً صالحاً فاضلاً زاهداً ... استعمله عمر بن عبد العزيز على أهل إفريقية ليحكم بينهم [بكتاب الله عزّ وجَلّ وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم] ويفقههم في الدين [وهو أحد العشرة التابعين] سنة تسع وتسعين ، وقيل

(١) طبقات ، ٨٤ .

(٢) معالم الايمان ، ١/١٨٠ وبعدها ؛ رياض النفوس ، ١/ ٦٤ – ٧٦ .

(٣) نفح الطيب ، ١/٢٧٨ ، ٣/٩ ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ١/ ٢١٢ (رقم : ٦٣٣) .

(٤) نفح الطيب ، ١/٧٢٨ ، ٣/٩ ؛ أعلاه ، ١٠٠ .

(٥) نفح الطيب ، ٣/٥٦ .

(٦) البيان المغرب ، ١/٤٨ .

(٧) معالم الايمان ، ١/١٩١ . كذلك : رياض النفوس ، ١/٦٩ .

(٨) معالم الايمان ، ١/ ١٩٢ . كذلك : رياض النفوس ، ١/٧٠ .

سنة مئة ، فسار فيهم بالحق [والعدل ، وعلمهم السنن] وأسلم على يديه عامة البربر ، وكان حريصاً على إسلامهم . »[1]

ذكر ابن عِذَارِي في **بيانه** أنه : « في سنة مئة ، وُلِّي إسماعيل بن أبي المُهاجِر إفريقية من قبل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز . فكان خير أمير وخير والٍ . وما زال حريصاً على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلم بقية البربر بإفريقية على يديه ، في دولة عمر بن عبد العزيز . وهو الذي علَّم أهل إفريقية الحلال والحرام . وبعث معه عمر – رضي الله عنه – عشرة من التابعين أهل علم وفضل »[2] . وهذا يعني أن إسماعيل ليس من العشرة .

٣ – أبو ثُمَامَة : بَكْر بن سَوَادَة الجُذَامي (١٢٨ هـ) . « جَدُّه صحابي ، وكان بكر هذا فقيهاً كبيراً من التابعين »[3] . أحد الثلاثة – من العشرة التابعين – الذين دخلوا الأندلس في تاريخ مجهول ، لعله بعد فتحها ، واستُشهد فيها « وقيل إنه غَرِقَ في بحار الأنْدَلس . » [4]

٤ – أبو سعيد جُعْثُل بن هَاعان بن عُمَيْر الرُّعَيْني (١١٥ هـ) ، تولى قضاء جُنْد إفريقية . [5]

٥ – أبو النصر : حِبَّان بن أبي جَبَلَة القُرَشِي (القَيْرَوان ، ١٢٥ هـ)[6] . أحد الثلاثة – من العشرة التابعين – الداخلين إلى الأندلس مع موسى بن نصَيْر[7] .

٦ – أبو مَسْعُود : سَعْد بن مَسْعُود التُّجيبي (القَيْرَوان) « كان رجلاً صالحاً عالماً مشهوراً بالدين والفضل ، قليل الهيبة للملوك [في حق يقوله] ، لا تأخذه في الله لومةُ لائم . »[8]

---

(١) معالم الايمان ، ١/ ٢٠٣ (ما بين الأقواس المعقوفة من : رياض النفوس ، ١/ ٧٠ – ٧٦) .

(٢) البيان المغرب ، ٤٨/١ .

(٣) نفح الطيب ، ٥٦/٣ ؛ التكملة ؛ ٢١٥/١ (رقم : ٥٧٣) .

(٤) رياض ، ١/ ٧٤ . قارن : معالم ، ١/ ٢١٣ ؛ جذوة المقتبس ، ١٠٨/١ .

(٥) رياض النفوس ، ٧٥/١ ؛ معالم الايمان ، ٢٠٢/١ .

(٦) رياض النفوس ، ١/ ٧٣ ؛ معالم الايمان ، ٢٠٩/١ ؛ نفح الطيب ، ٩/٣ .

(٧) تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ١٢٣/١ (= أعلاه ، ١٠٠) .

(٨) معالم الإيمان ، ١٨٤/١ (مابين القوسين من : رياض النفوس ، ٦٦/١) .

٧ ــ طَلْق بن جابان (جَعْنَان) الفارسي [١] .

٨ ــ أبو الجَهْم : عبد الرحمن بن رافع التَّنُوخي (القَيْرَوان ، ١١٣ هـ) « من فضلاء التابعين ... سكن القَيْرَوان [وانتفع به خلق كثير] ، وهو أوّل من استُقضي بها بعد بنائها ، ولاّه موسى بن نُصَيْر سنة ثمانين ، وكان عَدْلاً في أحكامه ثقةً في نفسه »[٢] .

٩ ــ أبو عبد الرحمن : عبد الله بن يزيد المَعافِري الإفريقي الحُبُلِيّ (القَيْرَوان، ١٠٠ هـ) ، « بعثه عمر بن عبد العزيز يُفَقِّه أهل إفريقية في الدين ، فانتفعوا به وبثّ فيها علماً كثيراً ، وشَهِد فتحَ الأندلس مع موسى بن نُصَيْر ، ثم سكن القَيْرَوان واختط بها داراً ومسجداً »[٣] .

١٠ ــ مَوْهَب بن حيِّي المَعافِري (القَيْرَوان) ، « من فضلاء التابعين ، سكن القَيْرَوان ، وبَثّ بها علماً كثيراً ، وبها كانت وفاته »[٤] .

الظاهر ــ من تَراجِم هؤلاء ــ أنهم كانوا نشيطين في دعوتهم وجهادهم، يتجولون في المغرب من أدناه إلى أقصاه[٥] .

٢ ــ التابِعُون في الأندلس

إلى جانب التابعين الثلاثة : (١ ــ أبو عبد الرحمن الحُبُلِيّ ، ٢ ــ حِبَّان بن أبي جَبَلَة ، ٣ ــ أبو ثُمَامَة) الذين دخلوا الأندلس من الفقهاء ، تُعرِّفنا المصادر على أسماء عدد آخر من التابعين ــ غير العشرة الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية ــ دخلوا الأندلس مع : ٤ ــ موسى بن نُصَيْر ، وهو تابعي كذلك[٦] . وقد أورد ذكرهم المَقَّري وغيره ، وهم :

٥ ــ أبو راشد : حَنَش بن عبد الله الصَّنْعَاني (صَنْعاء الشام ــ إفريقية أو

---

(١) معالم الايمان ، ٢١٥/١ ؛ رياض النفوس ، ٧٦/١ .

(٢) معالم الايمان ، ١٩٨/١ (مابين القوسين من : رياض النفوس ، ٧٢/١) .

(٣) معالم الايمان ، ١/ ١٨٠ . كذلك : رياض النفوس ، ٦٤/١ ؛ نفح الطيب ، ٩/٣ .

(٤) معالم الايمان ، ٢١٣/١ . كذلك : رياض النفوس ، ٧٣/١ .

(٥) انظر : رياض النفوس ، ٦٧/١ .

(٦) نفح الطيب ، ٢٧٨/١ ، ٦/٣ ؛ أعلاه ، ٦٧ .

سَرَقُسْطَة ، ١٠٠ هـ) . دخل الأندلس مع موسى بن نُصَيْر[١] . جاهد في الشمال الإفريقي وله فيها مآثر . اختط في القَيْرَوان مسجداً[٢] . ويُذكر أنه اشترك في فتح جزيرة جِرْبَة (تُونُس) سنة ٤٧ هـ ، مع رُوَيْفِـع بن ثابت الأنصاري[٣] (بـرْقـة ٥٣ هـ) . وفتح جزيرة شَريك (الرأس الطَّيِّب ، حالياً)[٤] . « وكان أول من وَلِيَ عُشُور إفريقية في الإسلام »[٥] .

٦ ــ حَيْوَة بن رجاء التَّميمي ، دخل الأَنْدَلُس مع موسى بن نُصَيْر[٦] .

٧ ــ زيد بن قاصد السكْسَكي « دخل الأَنْدَلُس وحضر فتحها »[٧] .

٨ ــ عبد الجبـار بن أبي سَلَمة بن عبد الرحمن بن عوف الزُّهْرِي ، دخل الأَنْدَلُس مع موسى بن نُصَيْر[٨] .

٩ ــ أبو عَمْرو : عبد الرحمن بن شِماسَة بن ذئب المَهْرِي[٩] .

١٠ ــ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، تَوَلّى الأَنْدَلُس مرتين ، وقاد الجهاد في **بَلاط الشُّهداء**[١٠] .

١١ ــ عبد الله بن شِماسَة الفِهْرِي[١١] .

---

(١) تاريخ علماء الأندلس ، ١٢٥/١ ؛ نفح الطيب ، ٢٧٨/١ ، ٧/٣ ؛ معالم الايمان ، ١٨٨/١ ؛ رياض النفوس ، ٧٩/١ ؛ أعلاه ، ٩١ ، ١٠٣ .

(٢) معالم الايمان ، ٣١/١ ، ١٨٨ .

(٣) معالم الايمان ، ١٢٣/١ ؛ رياض النفوس ، ٥٣/١ (كذلك : ٧٩/١) ؛ الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، السرّاج ، ٣٧٣/٢/١ ؛ مؤنس الأحبة في أخبار جربة ، الجربي ، ٤٠ ــ ٤٢ . كذلك : العبر ، الذهبي ، ٥٤/١ .

(٤) معالم الايمان ، ١٨٨/١ ؛ تاريخ الأندلس ، ١٨١ (نص ابن الشباط) ؛ الحلل، السراج ، ٥٥٢/٢/١ .

(٥) نفح الطيب ، ٧/٣ ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ١٢٥/١ . كذلك : العبر ، الذهبي ، ١٢٠/١ .

(٦) نفح الطيب ، ٢٧٨/١ ، ١٠/٣ ؛ التكملة ، ٢٨٢/١ (رقم : ٧٥٥) .

(٧) نفح الطيب ، ٥٧/٣ ؛ جذوة المقتبس ، ٢٢١ ؛ التكملة ، ٣٣٠/١ (رقم : ٨٩٥) .

(٨) نفح الطيب ، ٢٨٨/١ ، ١١/٣ ، ٦٤ .

(٩) المصدر السابق ، ٦٠/٣

(١٠) المصدر السابق ، ١٥/٣ ؛ أدناه ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ــ ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(١١) المصدر السابق ، ٢٨٨/١ ، ١٠/٣ . هل هو أخو المذكور في الفقرة (٩) قبله .

١٢ — أبو المُغِيرة : عبد الله بن المُغيرة بن أبي بُرْدَة الكِناني (بعد ١٢٣هـ) . ولاّه عمر بن عبد العزيز قضاء إفريقية (٩٩ هـ) [١] . دخل الأَنْدَلُس هو وأبوه المُغِيرة .

١٣ — أبو عبد الله : عُلَي بن رَباح بن قَصِير (نصير) اللَّخْمِي[٢] (عام اليرموك — إفريقية ، ١١٤ — ١١٧ هـ) . تولى إفريقية « فَقَدِمَها مُجاهداً في سبيل الله . »[٣] « كان أعور ذهبت عينه يوم ذات السَّواري في البحر مع عبد الله بن سعد سنة أربع وثلاثين »[٤] . دخل الأَنْدَلُس مع موسى بن نُصَيْر[٥] . ويذكر أحمد بن عمر ابن أنس العُذْرِي (المَرِيَّة ، ٣٩٣ — بَلَنْسِيَة ، ٤٧٨ هـ) أنه « بمدينة سَرَقُسْطَة تُوفي حَنَش بن عبد الله الصَّنْعاني وعُلَيّ بن رَباح اللَّخْمي وهما من أجِلاّء التابعين ، وموضع قبريهما معروف بمقبرة باب القِبلة بسَرَقُسْطَة وهي أهداف من الحجارة . »[٦] لكن يذكر آخرون أنه « سكن القَيْرَوان واختطَّ بها داراً ومسجداً... وتُوفي بالمدينة متوجهاً إلى الحج ، وكان قد سأل الله عزّ وجلّ أن يرزقه الشهادة أو يموت بالمدينة ، فأجاب الله دعاءه . »[٧]

١٤ — أبو يَحْيى : عِياض بن عُقْبَة بن نافع الفِهْرِي[٨] (مصر ، ١٠٠ هـ) .

١٥ — أبو عبد الله : محمد بن أَوْس بن ثابت الأنصاري[٩] (١٠٢ هـ) . « كان من أهل الدين والفضل معروفاً بالفقه ، وَلِيَ بَحر إفريقية سنة ثلاث وتسعين ،

---

(١) المصدر السابق ، ٢٨٨/١ ، ٦٠/٣ ؛ معالم الإيمان ، ٢١٠/١ ؛ رياض النفوس ٨١/١ .
(٢) نفح الطيب ، ٢٧٨/١ ، ٢٨٨ .
(٣) معالم الإيمان ، ١٩٩/١ .
(٤) نفح الطيب ، ٢٧٨/١ ، ٨/٣ ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ٣١١ .
(٥) انظر : نفح الطيب ، ٢٧٨/١ ، ٢٨٨ ؛ أعلاه ، ٩١ ، ١٠٣ .
(٦) نصوص عن الأندلس ، ٢٢ . كذلك : الروض ، ٩٧ ؛ نفح ، ٢٧٨/١ ، ٨/٣ .
(٧) معالم الإيمان ، ٢٠٠/١ — ٢٠١ ؛ رياض النفوس ، ٧٧/١ — ٧٨ .
(٨) نفح ، ٢٨٨/١ ، ١٠/٣ ؛ معالم الإيمان ، ١٩٠/١ ؛ رياض النفوس ، ٨٤/١ .
(٩) معالم الإيمان ، ١٧٩/١ . كذلك : نفح ، ٢٨٨/١ ؛ الحلة السيراء ، ٣٢٨/٢ .

وغزا المَغْرِب والأَنْدَلُس مع موسى بن نُصَيْر »[1] .

١٦ — المُغِيرة بن أبي بُرْدَة (الكِناني) نَشيط بن كِنانَة العُذْرِي[2] . « وفي كتاب الحافظ ابن بَشْكُوال أنه دخل الأَنْدَلُس مع موسى بن نُصَيْر ، فكان موسى ابن نُصَيْر يُخْرِجُه على العساكر . »[3] وابنه أبو المُغِيرة عبد الله ، تابعيٌّ دخل الأَنْدَلُس .

١٧ — منصور بن حزامة[4] .

وعلى هذا يكون جملة مَن دخل الأَنْدَلُس من التابعين سبعة عشر رجلاً ، وذُكر أنهم أكثر من ذلك[5] . ويذكر ابن بَشْكُوال — الذي وضع عن التابعين الداخلين للأَنْدلُس ، كتاباً سيرد ذكره — أن عِدَّة مَن دخل الأَنْدلُس من التابعين ثمانية وعشرون رجلاً[6] . ومعقول جداً أن يكون هذا الرقمُ — إن لم يكن أكثر — عددَ التابعين الداخلين للأَنْدلُس مع جَيْشي : طارق وموسى ، وغيرهما . فإن كثرةً من الصحابة دخلوا إفريقية ، بجانب التابعين الذين جاؤوا من الشرق[7] . ومقبول أن عدداً من الذين ضمهم جيش طارق كان من التابعين ، لكن عدد التابعين الذين دخلوا مع موسى كان أكثر ، وقد ذكرت المراجع أن عدد الداخلين مع جيش طارق لتفقيه الجند تَراوَحَ بين ١٢ وإلى العشرات[8] ، وغير بعيد أن يكون هؤلاء وغيرهم من التابعين المذكورين أعلاه أم من غيرهم .

وقد وضع الحافظ أبو القاسم خلف بن عبد الملك الأنصاري ابن بَشْكُوال

---

(١) نفح الطيب ، ٥٨/٣ ؛ جذوة المقتبس ، ٤٥ ؛ بغية الملتمس ، ٦٢ ؛ معالم الإيمان ، ١٨٩/١ ؛ التكملة ، ٣٥٤/١ (رقم : ٩٥١) .

(٢) معالم الإيمان ، ١٩٦/١ ؛ رياض النفوس ، ٨٠/١ .

(٣) نفح الطيب ، ١٠/٣ . كذلك : التكملة ، ٧٠٤/٢ (رقم : ١٧٨٧) .

(٤) نفح الطيب ، ١١/٣ .

(٥) انظر : نفح الطيب ، ٢٧٨/١ ، ٢٨٨ ، ١٢/٣ ؛ الروض المعطار ، ٤ ؛ كتاب الجغرافية ، الزهري ، ٢٢٦ . كذلك : التكملة ، ٣٢٤/١ (رقم : ٨٧٤) .

(٦) نفح الطيب ، ٢٨٨/١ .

(٧) أعلاه ، ١٤٨ — ١٤٩ .

(٨) أعلاه ، ٥٢ .

(قُرْطُبَة ، ٤٩٤ – قرطبة ، ٥٧٨ هـ) كتاباً – لا يُعرف له وجود حتى الآن – عن التابعين الداخلين للأندلس بعنوان **التنبيه والتعين لمن دخل الأندلس من التابعين**[1] .

* * *

هذا وغيره يشير إلى أنه بجانب الجيش الفاتح – جنداً وقادة ، وهم دعاة قولاً وعملاً – كان آخرون . هناك أفراد عُرفوا بصفة الدعوة وتميّزوا بفقههم وحفظهم. وإذا كان هؤلاء من المكانة والفقه أن يُفقّهوا المسلمين ذاتهم فكيف بمهمتهم هذه لغير المسلمين ، وهذا يشير إلى : غاية الجيش الإسلامي وبنائه وهدفه ومسلكه ، وأن جندَه فقهاء ودعاة . كما يوضح أن الجندي له – بجانب القتال – مهمة أخرى : الدعوة والتفرغ لها ، حين تنتهي الحرب . فهو في دعوة دائمة وجهاد مستمر في ميدان المعركة، أو داعية في الميادين الاجتماعية . وهو في كلا الحالين داعيةٌ في القول والعمل .

وهذا يُفرد الجيش الإسلامي الفاتح بهذه الصفة ، داعيةَ خيرٍ في حربه وسلمه ، وفي كل الصور والأشكال .

ونحن نجهل جهود المسلمين غير الحربية (الدعوة بالمسلك والقول) إلى الإسلام ، بعد الحرب وخلاله . وهوأمر مستمر في السنوات التالية من حياة الأنْدَلُس الإسلامية. وهذا موضوع ما يزال بحاجة شديدة إلى البحث والدراسة ، ليس في الأندلس فقط ، بل في تاريخ الاسلام وفتوحاته وانتشاره عموماً . تلك مسألة مجهولة في كثير من جوانبها ، وهي بحاجة إلى التماس نصوصها في بطون الكتب وجمع أشتات هذه النصوص .

أخذ الإسلام طريقه للانتشار في إسبانيا . واتبع الفاتحون – الذين عَبَّروا عنه وشرحوه بسلوكهم – خُطة وبذلوا جُهداً في بيانه والدعوة اليه ، مثلما لوحظ الأمر في المَغْرِب . كان ذلك هدفاً واضحاً لدى الفاتحين في أعمالهم كافة . يسيرون على ضوئه ، وخلال المعارك التي كان الحرص على هذا فيها ظاهراً . أتقنوا مهمتهم وحسنت مقدرتهم في إظهار جمال الدعوة الإسلامية ، قولاً وعملاً . ونجحوا في المحافظة على إشراقها وجاذبيتها ، فأقبل الإسبان على دين الله – سبحانه – مختارين حريصين ، ودخلوه أفواجاً . حتى إن مَن لم يُسلم منهم مارس بعض العادات

(١) نفح ، ٣/١٠ ، ٦٠ ، ٦٤ ؛ التكملة ، ١/٢٨٢ (رقم : ٧٥٥) ، ٢/٧٠٤ (رقم : ١٧٨٧) .

الاسلامية ، وتسمَّوا بأسماء المسلمين وتكلموا لغتهم ، كما سيرد ذكره .

ولدينا نصوص تشير الى انتشار الإسلام المبكر . لمّا رغب عمر بن عبد العزيز في نقل المسلمين من الأنْدَلُس وأجرى مشاورة ، تخلّي عن ذلك حين أُخبر « أن الناس قد كثُروا بها ، وانتشروا في أقطارها ، فأضرب عن ذلك »[1] ، وكتب اليه السَّمْح ابن مَالك « يُعَرِّفه بقوة الإسلام »[2] .

يذكر المَقَّرِي في **نفحه** – حين الحديث عن والي الأنْدَلُس عُقْبَة بن الحَجَّاج السَّلُولي (شوال ١١٦–١٢١ هـ) – أنه «كان إذا أَسَر الأسير لم يقتله حتى يَعرض عليه الإسلام ، ويبين له عُيوب دينه ، فأسلم على يده ألفا رجل »[3] .

وتشير المراجع إلى جهاد السَّلُولي في الأنْدَلُس وخارجها وراء البُرت[4] ، إلا أنه غير واضح تفاصيل ذلك وأين جرت . مادامت تلك خُطة ، فيتم ذلك في الأماكن التي وصلها خلال جهاده .

ونتيجة لسماحة الإسلام ونظرته التكريمية للانسان ومهمته الإنقاذية بهدية المنير ، أقبل الناس اليه ، واستظلوه وارفاً . كان هذا أُساً لميزان المسلم ، متجهاً الى ربه سائراً في ضوء هديه ، فهو حريص على تقديم الهداية للآخرين ، وذلك واجبه وهو مايحرص عليه ويسعى إليه . فلا يستأثر بالنور والضياء والهدى، بل من تمام التزامه به أن ينشره ، ويرعى الناس بدعوتهم اليه أو تقديمه إليهم ، وتُصبح تلك مهمته لاينفك يعمل بها ، وهي هدف الفتح والدعوة .

وقد لمَس الناس، من غير المسلمين، حسنَ معاملة المسلمين لهم فأثار ذلك دهشتهم وقادهم الى تقبُّل الإسلام وحبِّ أهله ، وكان من نتائج ذلك أن عاش المسلمون مع الآخرين بهذه الأخلاق . لا اعتداء على حقوقهم ، بل عدل ووفاء ، ولا انتقاص أو غمز ، بل تكريم وتعليم . وسماحة وإنصاف ورعاية في كل الأمور[5] ، حتى في

---

(١) البيان المغرب ، ٢/٢٦ .

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٩ (= أعلاه ، ١٤٠) .

(٣) نفح الطيب ، ٣/١٩ . كذلك : البيان المغرب ، ٢/٢٩ . وعنده « ألف رجل » .

(٤) البيان المغرب ، ٢/٢٩ ؛ نفح الطيب ، ٣/١٩ .

(٥) انظر : أندلسيات ، ٢/٢٤ ؛ *Andalusian diplomatic relations*, 55 ff

الأمور العادية الجانبية فضلاً عن الأساسية الضرورية .

ولم يَمَسّ المسلمون أياً من شؤونهم الخاصة وعباداتهم وأماكنها ، ولم يمنعوهم من الإحتكام إلى دينهم ، وتُركوا في هذا أحراراً[1] . كنتَ ترى المسجد الى جانب الكنيسة ، ولم تُتخذ الكنائس مساجداً ، إلا في حالات استبدالها أو هجرها ، بعد دخول الناس في الإسلام[2] . لكن حين سقطت غَرْنَاطَة (٨٩٧ هـ) والمدن التي قبلها ، كان الإسبان الشماليون – ومن عاونهم من الأوربيين – ينتهكون ، بروح صليبية ، كل حرمة ، ويعتدون على كل مقدس ، ويستبيحون عقيدةَ الإنسان ومالَه وعِرْضَه ، مع وجودِ عهود أبرموها ، وحاشا لله أن يأمر بذلك أو يرضاه ، ولاشيء من هذا في دين الله الواحد وما أنزله على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام .

كان من نتائج حسن المعاملة الإسلامية ازدياد الصِّلات والاختلاط مع غير المسلمين من الإسبان ، بشكل قاد الى بعض المُصاهَرات معهم[3] .

وقد تم زواج أول ولاة الأندلس – بعد الفتح – عبد العزيز بن موسى بن نُصَيْر (ذو الحجة ٩٥ – رَجَب ٩٧ هـ) من أَيْلُهْ (Egilona) أرملة لُذْرِيق آخر ملوك القوط ، وتكنيها مصادرنا الأندلسية بـ« أم عاصم »[4] ، وغير واضح ما اذا كان تم ذلك قبل أو بعد إسلامها ، ويفهم مماذكره ابن عِذَاري أنها بقيت على نصرانيتها[5] ، وفي القصة أو في تفاصيلها نظر[6] . يقول المقري : « زعموا تزوجه لزوجة لُذْرِيق المكنّاة أم عاصم ، وكانت قد صالحت على نفسها وأموالها وقت الفتح ، وباعت بالجزية ، وأقامت على دينها في ظل نعمتها إلى أن نكحها الأمير فَحَظِيَت عنده .

---

(١) أندلسيات ، ٢/٢٦ – ٢٨ .

(٢) قارن : فجر الأندلس ، ٤٩٢ وبعدها ؛ قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، سالم ، ٢٨٦ .

(٣) عن بعض آثار هذه المصاهرات راجع : أندلسيات ، ١/٨٥ ؛ *Andalusian*, 57

(٤) تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٧ ؛ البيان المغرب ، ٢/٢٣ ؛ نفح الطيب ، ١/٢٨١ ؛ أخبار مجموعة ، ٢٠ ؛ أندلسيات ، ١/٧٦ .

(٥) البيان المغرب ، ٢/٢٣ – ٢٤ .

(٦) قارن : فجر الأندلس ، ١٣١.

ويقال : إنه سكن بها في كنيسة باشْبِيلية »[1] . ولكن إقامة عبد العزيز بن موسى في كنيسة غير معقول — لأكثر من سبب — إلا باعتبار ما كان عليه قبل أن تغدو الكنيسة — التي ربما كانت مهجورة أو هُجرت — مسجداً[2] ، فاتخذ داره بجواره . ويمكن أن يُفهم هذا من نص ابن القُوطِيَّة (٣٦٧ هـ) حين الحديث عن مقتل عبد العزيز ، أنه « كان ذلك بمسجد رُبينة المشرف على مرج إشبيلية اذ كان ساكناً في كنيسة رُبينة ، وإذ كان نكح أمرأةً من القُوط تسمى أم عاصم ، كان يسكن معها في هذه الكنيسة ، وكان قد ابتنى على بابها المسجد الذي قتل فيه » [3] .

و « رُبينه » — اسم (المسجد) الكنيسة ، مِن قَبْل — ورد عند ابن عِذاري : « رُفَينة » ، « وكان قتله صدر رَجَب من سنة ٩٧ ، بمدينة إشْبِيلية بمسجد رُفينة. »[4] فهو لم يشر الى موضوع الكنيسة أو سكناه فيها ، مع أنه اعتمد على عدة مراجع . ولعل إيراد اسم المسجد كما عند ابن عِذاري أدق ، فقد تكون وجدت — مع الفتح الإسلامي — بهذا الاسم كنيسة في اشبيلية : Santa Rufina ، أو في ضواحيها[5] .

من المستبعد أن تبقى أم عاصم غير مسلمة ، والأكثر قبولاً — إذا كانت هذه الزيجة أو تفاصيلها موثوقة — أن زواجه بها تَمَّ بعد إسلامها .

وذُكر أنه فعل مثله — ممن كان معه — زياد بن النابغة التَّميمي[6] .

لدينا أكثر من مثال لهذا النوع من المصاهرات تمت بعد إسلام المرأة . لمَّا اختلفت سَارَة القُوطِيَّة بنت المُنْذ (Olmundo) بن غِيطَشَة (Witiza) — ملك القُوط قبل لُذْرِيق — مع عمها أرْطَبَاش (Ardabas) ، ذهبت الى الخليفة هِشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٦ هـ) تشكوه ظُلامتها من عمها ، فأنصفها . والظاهر أنها

---

(١) نفح الطيب ، ٢٨١/١ .

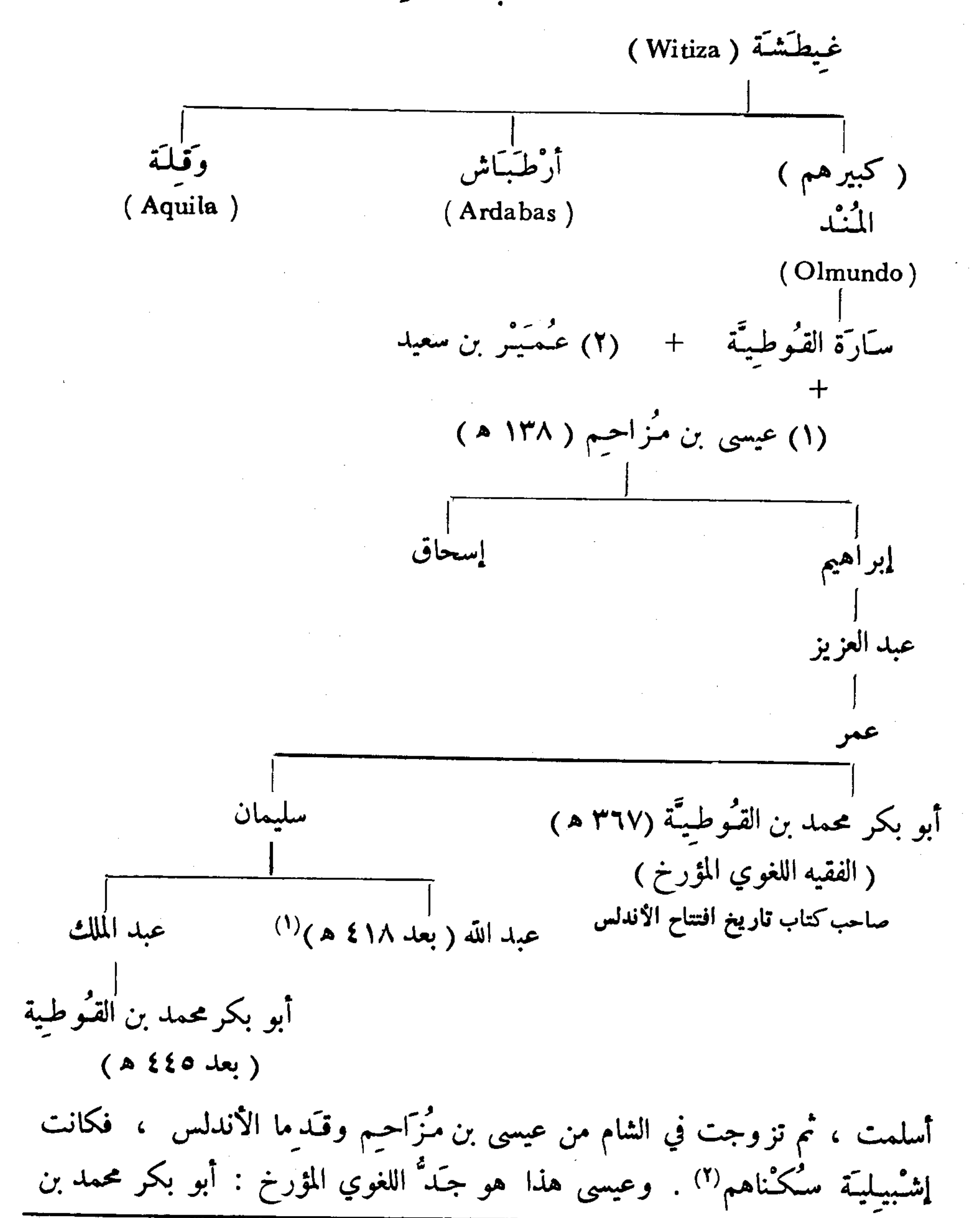
(٢) قارن : فجر الأندلس ، ١٣٠ .

(٣) تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٧ . ربما كان استعمال « ربينه » اسماً للمسجد تجوزاً من ابن القوطية وغيره ، وإلا فهل عرفت إشبيلية — فعلاً — مسجداً بهذا الاسم ؟

(٤) البيان المغرب ، ٢٤/٢ . ذكر أن مقتله كان « في عقب سنة ثمان وتسعين » . أخبار مجموعة ، ٢٠ .

(٥) المقتبس ، ابن حيان ، ٢٧٢/٢ ، ٥٨٥ .

(٦) البيان المغرب ، ٢٣/٢ ؛ أخبار مجموعة ، ٢٠



أسلمت ، ثم تزوجت في الشام من عيسى بن مُزَاحِم وقَدِما الأندلس ، فكانت إشْبِيلِيَة سُكْناهم[٢] . وعيسى هذا هو جَدّ اللغوي المؤرخ : أبو بكر محمد بن

---

(١) التكملة ، ٧٩٣/٢ (رقم : ١٩٤٢) .

(٢) نفح الطيب ، ٢٦٧/١ .

عمر بن عبدالعزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مُزَاحِم المعروف بابنالقوطيّة (قُرطُبَة ، ٣٦٧ هـ)[1] ، المنسوب اليها ، وقد أنجبت سارَة من عيسى ولدين : إبراهيم وإسحاق . ولما توفي ابن مُزَاحم (حوالي ١٣٨ هـ) تزوجها عُمَيْر بن سعيد ، فولدت له حبيب ابن عُمير جَدّ بني سعيد وبني حَجّاج وبني مَسْلَمة وبني حجر الجُرْز[2] .

ومن الجدير بالذكر أن أبا بكر محمد بن القُوطِيّة هذا هو غير كَنِيّه وسَمِيّه وحفيد سليمان أخيه : أبو بكر محمد بن القوطية (بعد ٤٤٥ هـ)[3] .

تزوج عِدَّةُ أمراء وخلفاء من إسبانيات كنّ نصرانيات ، من قبلُ . فالخليفة الناصر لدين الله (٢٧٧ : ٣٠٠ – ٣٥٠ هـ) – على ما يذكر – حفيد امرأة من البَشْكُنْش اسمها « دُرّ »[4] . مثلها كانت زوجة الحكم المستنصر بالله[5] (٣٠٢ : ٣٥٠–٣٦٦ هـ) . وتزوج الحاجب المنصور بن أبي عامر (٣٢٧ : ٣٦٨ – ٣٩٢ هـ) « عبدة »[6] ابنة شَانْجُهْ ملك قَشْتالَة[7] أو نَبَارَّة[8] « تزوجها ، وحَسُنَ إسلامها ، وكانت من خَيِّرات نسائه دِيناً مَتيناً وحَسَباً أصيلاً . »[9]

وهناك أمثلة أُخرى لهذا النوع من المُصاهَرات ، سواء مع الحكام أو مع أفراد الناس[10] . وهي إن خلَت من الاحتياط فلا تخلو أحياناً من المآخذ والمخاطر[11] .

بسبب تلك العوامل – السالفة وغيرها – كان دخول الناس في الإسلام مُبَكِّراً .

---

(١) تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٢ ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ٧٦/٢ ؛ جذوة المقتبس ، ٧٦ ؛ وفيات الأعيان ، ٣٦٨/٤ ؛ نفح الطيب ، ٧٣/٣ ؛ ترتيب المدارك ، ٣ – ٤/ ٥٥٣ .

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٠ – ٣٢ ؛ نفح الطيب ، ٢٦٦/١ – ٢٦٧ .

(٣) التكملة ، ٣٨٩/١ (رقم : ١٠٨٧) .

(٤) البيان المغرب ، ١٥١/٢ .

(٥) البيان المغرب ، ٢٥٣/٢ .

(٦) البيان المغرب ، ٣٨/٣ .

(٧) أعمال الأعلام ، ٦٦/٢ ؛ العبر ، ٣٨٩/٤ .

(٨) أعمال الأعلام ، ٦٣/٢ ، ٧٣ – ٧٤ ؛ البيان المغرب ، ٤٢/٣ .

(٩) أعمال الأعلام ٦٦/٢ .

(١٠) راجع : أندلسيات ، ٧٥/١ – ٨٦ ؛ *Andalusian diplomatic relations* 52,57 – 8

(١١) انظر : *Andalusian*, 57.

ولدينا أسماء أعلام إسلامية مبكرة ـ أوطنوها فأعقبوا ، أو وُلِدت في الأرض مُسْلِمةً أو تحوّلت من الدين السابق للإسلام ـ عُرِفت بالعلم والفضل والتقوى ، من أصول إسبانية . والبحث المستمر يَزيد الأمثلة عدّاً ، ويقوّي الصورة رسوخاً ، ويمنحها وضوحاً ، وينوعها جمالاً .

وهذه الظاهرة عامة بكل بلدان الإسلام ، حين وصلتها عقيدتُه وأضاءتها شريعتُه . ومن الأمثلة قبل الأندلس :

* حَنَش الصَّنْعاني[1] (١٠٠ هـ) من الشام ، كان من جِلَّة التابعين الفضلاء والعُبّاد الأتقياء والمحاربين البُسَلاء .
* عبد الرحمن بن وَعْلَة السَّبائي المِصري ، تابعي « من أهل الفضل والدين ... من أهل إفريقية ... كان شريفاً بمصر ، ثم سار إلى إفريقية . »[2] .
* أبو خالد عبد الرحمن بن زِياد (الإفريقي) بن أَنْعُم المَعافِري القاضي (بَرْقَة ، ٩٥ ـ القَيْرَوان ، ١٦١ هـ) « أول مولود وُلِد في الإسلام بعد فتح إفريقية . »[3]
* أبو عِمْران موسى بن عُليّ (عَلِي) بن رَباح اللَّخْمي[4] (القَيْرَوان ـ الإسكندريّة ، ١٦٣هـ) . أبوه عُلَيّ بن رَبَاح ، أحد التابعين الداخلين الأندلس مع موسى بن نُصَيْر[5] .
* عُبَيْد الله بن زَحْر الكِناني « كان فاضلاً صالحاً . مولده بإفريقية ، وهو معدود من شيوخها . »[6] .

٣ ـ اعتناق الإسبان الإسلام

دخلَ سكّانُ الجزيرة الأندلسية في دين الله أفواجاً ، فأصبح المسلمون في الأندلس أغلبيّةً كبيرة ، وأكثرهم من سكان الجزيرة : الإسبان . عاشوا مع الآخرين إخواناً ؛

---

(١) أعلاه ، ٩١ ، ١٠٣ ، ١٤٦ ، ١٥٢ ـ ١٥٣ .
(٢) معالم الإيمان ، ١/١٩٥ ـ ١٩٦ ؛ رياض النفوس ، ١/٨٣ .
(٣) معالم الإيمان ، ١/٢٣٠ ؛ رياض النفوس ، ١/٩٦ .
(٤) معالم الإيمان ، ١/٢٣٧ ـ ٢٣٨ .
(٥) أعلاه ، ١٠٣ ، ١٥٤ .
(٦) معالم الإيمان ١/٢٤٨ . كذلك : رياض النفوس ، ١/١١٢ .

وغدا هؤلاء وغيرهم من المسلمين سواء دون تمييز ﴿ إنَّما المُؤْمِنونَ إخْوَة ﴾[1]، « المؤمِنُون تَتَكافأُ دِماؤهُمْ ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْناهُمْ ، وهُمْ يَدٌ عَلى مَنْ سِوَاهُمْ »[2].

وهذه أسماء لبعض من دخل الإسلام في الأندلس أو ولد فيه كذلك :

* أبو محمد عبد الله بن فَرُّوخ الفارسي (الأنْدَلس ، ١١٥ – مصر ، ١٧٦ هـ) .
« يُقال إنَّ مولده كان بالأنْدَلُس سنة خمس عشرة ومئة ؛ ثُمَّ سكن القَيْرَوان واستوطَنَها ؛ ثُمَّ رحل إلى المشرق ، فلقي فيه العلماء ، ثُمَّ رجع إلى إفريقية ، فأقام بها يُعَلِّمُ النَّاسَ العلم ، ويُحَدِّثهم بسُنَّةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتفع به كثير ، ثُمَّ رحل إلى المشرق »[3] ، « كانَ فَقيهاً وَرِعاً فاضِلاً متواضِعاً قليلَ الهَيْبَة للمُلُوك ، لا يخافُ في اللهِ لَوْمَةَ لائم ، مُبايناً لأهلِ البِدَع ، حافِظاً للحديث والفقه . وكان ربما غسل موتى الضعفاء بيده . »[4]

* يَذكر ابن حَزْم في **جَمْهَرة أنساب العَرب**، عن زعيم بُشْكَنْسي هو قَسِيّ ، قُومِس الثَّغْر في أيّام القُوط ، أنه : « لمّا افتتح المسلمون الأندَلُسَ ، لَحِق بالشام ، وأسْلَم عَلى يَدَي الوليد بن عبد الملك »[5] .

* مَهدي بن مُسلم « من قُدماء قُضاة قُرْطُبَة ، ومن أبناء المَسَالِمَة . »[6] ، و « **المَسالِمَة** » تعني في التاريخ الأندلسي : الذين دخلوا الإسلام من الإسبان ، كما أُطْلِقَ على أولادهم : « **المُوَلَّدون** »[7]. تولى ابن مُسلم قَضاء قُرْطُبَة أيام

---

(١) من الآية ١٠ من سورة الحجرات .

(٢) من حديث للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم . جامع الأصول في أحاديث الرسول ، مجد الدين بن الأثير الجزَري ، ٢٧/٨ – ٢٨ .

(٣) معالم الإيمان ، ٢٣٩/١ . كذلك : رياض النفوس ، ١١٣/١ .

(٤) معالم الإيمان ، ١/ ٢٣٨ .

(٥) جمهرة أنساب العرب ، ٥٠٢ ؛ أعلاه ، ١٠٢ – ١٠٣ . كذلك : أندلسيات ، ١١/٢ ؛ *Andalusian*, 102.

(٦) التكملة ، ابن الأبار ، ٧٣١/٢ .

(٧) اندلسيات ، ١١١/٢ ؛ أدناه ، الفصل الثالث ؛ *Andalusian*, 102 . كذلك : *Los Mozarabes*, I, 89 ; *Histoire*, I, 75, III, 180, (Sp. tr., IV,46,V,101).

والي الأندلس عقبة بن الحجاج السلولي (شوال ١١٦ — ١٢١ هـ) « استقضاه على قرطبة عقبة بن الحجاج ، واستخلفه عليها ، وأمره بالقضاء بين أهلها . وكان من أهل العلم والورع والدين المتين . »[١]

عرف ابن مسلم بعلو مقدرته الأدبية وتمكنه في الفقه ، لذا طلب منه عقبة أن يكتب عهد القضاء الذي صار فيما بعد مرجعاً . أوصاه فيه بتقوى الله وطاعته والبحث عن مرضاته في السر والعلانية « معتصماً بحبله المتين وعروته الوثقى ، موفياً بعهده ، متوكلاً عليه ، واثقاً به ، متقياً منه ، فـ ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ [سورة النحل ، ١٢٨] . وأمره أن يتخذ كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إماماً يهتدي بنورهما ، وعلماً يعشو إليهما ، وسراجاً يستضيء بهما ؛ فإن فيهما هدى من كل ضلالة ، وكشفاً لكل جهالة ، وتفصيلاً لكل مشكل ، وإبانة لكل شبهة ، وبرهاناً ساطعاً ودليلاً شافياً ومناراً عالياً وشفاء لما في القلوب ، وهدى ورحمة للمؤمنين ... »[٢] .

استمر — بعد ذلك — دخول الناس في الإسلام ، ولدينا أعلام كثيرة وأسر شهيرة ذات أصول إسبانية ، مثل :

* علي بن حسن ، المعروف بابن شبرقه (إشبيلية ، حوالي ٣٠٠ هـ) ، من أهل بطليوس . « كان كثير العلم . . . وكان موثقاً ، وابتنى مسجداً ببطليوس »[٣] .

* أبو عمر أحمد بن سليمان بن أيوب بن سليمان بن حكم بن عبد الله بن البلكايش ابن أليان (يليان) القوطي (قرطبة ، ٣٨٨ هـ) ، من أهل قرطبة « كان رجلاً صالحاً مشاركاً في فنون من العلم مع سلامة وأمانة . »[٤] وهو — كما يبدو —

---

(١) المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، أبو الحسن النباهي ، ٤٢ . كذلك : فجر الأندلس ، ٦٤٠ ، ٦٤٦ — ٦٤٩ .

(٢) قضاة قرطبة ، ابن حارث الخشني ، ٩ .

(٣) تاريخ علماء الأندلس ، ٣١٢/١ (رقم : ٩١٨) .

(٤) تاريخ علماء الأندلس ، ٥٧/١ (رقم : ١٩٠) .

من عَقِب يُلْيَان ، حاكم سَبْتَة أيام الفتح الإسلامي للأندلس . ترجم ابن الفَرَضي أباه (أحمد) : أبو أيوب سليمان (٣٧٧ هـ) ووصفه بالعلم والخُشوع [١]

* أبو الفتح نَصْر بن أبي الشمول (عقب شعبان ٢٣٦ هـ) ، الفتى الكبير « الذي تنسب إليه مُنْيَةُ نَصْر ، وكان أبوه من نصارى قَرْمُونَة »[٢] . ويذكر ابن حزم (٤٥٦ هـ) خبر نصر في **نقْط العَروس** كذلك وبصيغة أخرى ، فيقول : « كان أبوه من أسالِمَة أهل الذمّة من أهل قَرْمُونَة »[٣] .

* أَيُّوب بن عبد ربِّه ، سَرَقُسْطي الأصل ومن مَسالِمَة أهل الذِّمَّة . تَوَلَّى قضاء إشْبِيلِيَة سنة ١٨٢ هـ[٤] .

* أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حَزْم (قُرْطُبَة ، ٣٨٤ — مُنْت لِيشَم بكُورَة لَبْلَة ، ٤٥٦ هـ) ، من أهل قُرْطُبَة . وهو الفقيه الأديب المؤرخ الذائع الصيت ، يقال إنه من أصل نصراني[٥] (أو فارسي)[٦] .

* ولعل الحافظ العَلاَّمة أبا عبد الرحمن بَقِيّ بن مَخْلَد ، يرجع إلى أصل نصرانيّ[٧] .

---

(١) تاريخ علماء الأندلس ، ١/ ١٨٨ — ١٨٩ (رقم : ٥٦٦) . كذلك : أعمال الأعلام ، ٤٩/٢ .

(٢) جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم ، ٩٦ .

(٣) نقط العروس ، مجلة كلية الآداب (القاهرة) ، ٧٣/٢/١٣ . نقل ابن حيان (المقتبس ، ١٥/٢) هذه الصيغة عن ابن حزم من أحد كتابيه (جمهرة ونقط العروس) أو كليهما . ولعل ماورد عند ابن حيان (٤٦٩ هـ) من زيادة يشير إلى أن طبعة الكتابين أو أحدهما غير كاملة أو مختصرة لمخطوطة أخرى موجودة أو مفقودة . وهذا حادث في أمثلة عديدة . عن نصر انظر كذلك : تاريخ افتتاح الأندلس ، ٩٦ ؛ المقتبس ، ٨/٢ ، ١٤ ، ٢٦ ، ٨٦ ، ١٠٦ ، ١١٠ ؛ المغرب ، ٤٩/١ ، ٥١ ، ١١٤ ، ١٢٥ ، ٣٣١ ؛ الروض المعطار ، ١٨٧ .

(٤) التكملة ، ١٩٨/١ (رقم : ٥٢٣) .

(٥) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام الشنتريني ، ١٤٢/١/١ ؛ المغرب في حُلى المغرب ، ابن سعيد الأندلسي ، ٣٥٥/١ ؛ نقط العروس ، ابن حزم ، مجلة كلية الآداب (القاهرة) ، ٤١/٢/١٣ — ٤٢ (مقدمة المحقق) ؛ أندلسيات ، ١١٥/١ .

(٦) نفس المصادر .

(٧) عنه انظر : نفح الطيب ، ٢/ ٤٧ ، ٥١٨ ، ١٦٨/٣ .

* أبو عبد الله محمد بن حسين ، ابن رُلاّن (أرليان) ، (بعد ٤٦٠ هـ) . من أهل بَلَنْسِيَة « كان أديباً ، مُتَفَنِّناً ، متسع المعرفة ، معلماً بالعربيّة واللغة ، خَيِّراً . من أهل القرآن والحمل له ... وكان لا يُقْرِئ شيئاً لا يتحقّقه . »[1]

* الفقيه أبو محمّد الأَصيلي : عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر (٣٩٢ هـ) ، أصله من شَذونَه أو الجزيرة الخضراء « وكان جَدُّه من مَسالِمَة أهل الذِّمَّة ... وكان أبوه وَرَّاقاً للحَكَم »[2] اشتهر بالفقه في قُرْطُبة وتَوَلّى الشورى مدة ، و « كان من جِلَّة العلماء نَسيجَ وَحْدِه »[3] .

* أحمد بن عبد الله « من أهل قُرْطُبَة ، وهو ابن أخي قُومس ، كاتب الأمير محمَّد . »[4]

قُومِس (Comes)[5] هذا هو : قُومِس بن أَنْتُنْيَان بن يُلْيَانَه (مؤنّث يُلْيَان) النصرانيَّة ، أسلم بعد سنة ٢٤٦ هـ (٨٦٠ م) . كان على صلة بالأمير محمد (٢٣٨ – ٢٧٣ هـ) ، ثمّ وَلاّه الكتابة[6] ، والظاهر أنّه حَسُنَ إسلامُه ، حتى وصفه الفقيهُ أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مَطْروح (٢٧١ هـ)[7] « السَّجَّاد العَبَّاد ، حَمامَة هـذا المسجد »[8] : مسجد قرطبة الجامع . ذُكر له ابنٌ هو « عمر بن قُومِس الكاتب » (٢٩٨ هـ)[9] . وهذا يشير إلى أنّ الدخول في الإسلام كان مستمراً ، يدخله الآخرون باختيارهم .

---

(١) التكملة ، ١/ ٣٩٤ (رقم : ١١٠٤) .

(٢) ترتيب المدارك ، ٣-٤/٦٤٢ ، ٦٤٤ . عن المسالمة انظر : أعلاه ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، أدناه ، الفصل الثالث .

(٣) نفس المصادر .

(٤) التكملة ، ١/ ١٢ (رقم : ١٣) . قارن : تاريخ علماء الأندلس ، ١/ ٣٠ (رقم : ٩٢) .

(٥) تقابل Conde بالاسبانية الحديثة و Count بالانجليزية ، وتعني : أمير أو نبيل .

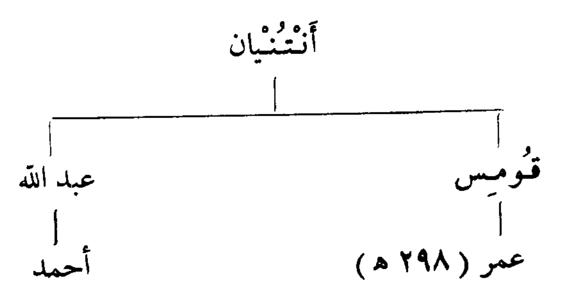
(٦) المقتبس ، ٢/ ١٤٢ ؛ تاريخ افتتاح الأندلس ، ١٠١ . كذلك : أندلسيات ، ٢/ ٦٠ ؛ *Andalusian*, 57.

(٧) انظر عنه : تاريخ علماء الأندلس ، ٢/ ٩ (رقم : ١١١٣) .

(٨) قضاة قرطبة ، الخشني ، ٧٦ .

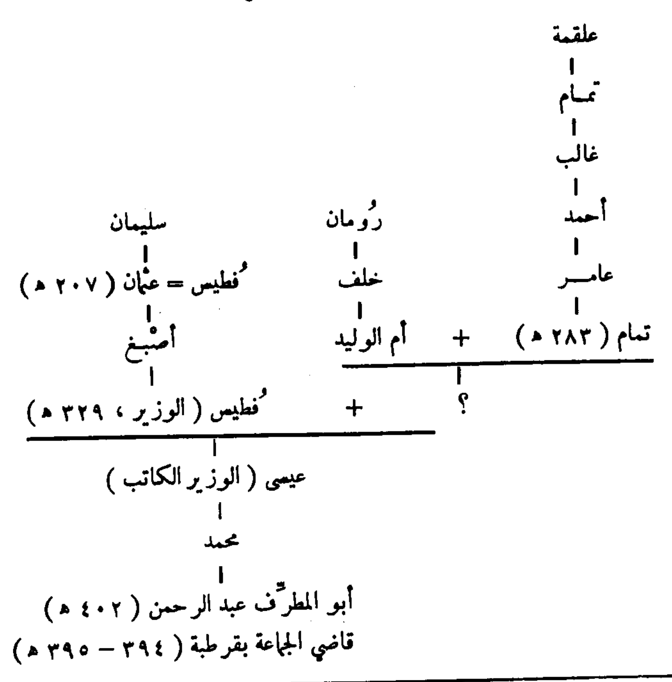
(٩) البيان المغرب ، ٢/ ١٤٨ . انظر كذلك : *Histoire de l'Espagne Musulmane*, I, 290 (Sp. tr., IV, 189).

قائمة نسب بني قُومِس



* تزوج تَمَّام بن عامر بن عَلْقَمَة (١٩٤ – ٢٨٣ هـ) ، الذي تَوَلّى الوزارة للأمير محمد ولابنيه المنذر وعبد الله[1] ، أُمَّ الوليد بنت خَلَف بن رُومان النصرانية (لعلها أسلمت فيما بعد) . فكان من أحفادهما العلماء والوزراء والقضاة « وتزوج تَمَّام بن عامر هذا الوزير أُمَّ الوليد بنت خَلَف بن رُومان النصرانية ، فجاء من

قائمة نسب هذه الأسر



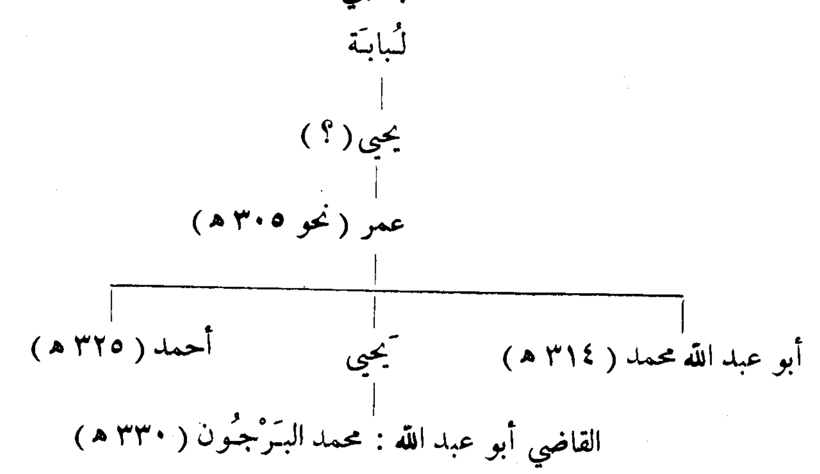
(١) الحلة السيراء ، ابن الأبار ، ١٤٤/١ .

نسلها الوزير الكاتب عيسى بن فُطَيْس ، فتَمَّام جَدُّه لأُمِّه . »[1] ومن نسلهما أيضاً أبو المُطَرِّف عبدالرحمن بن عيسى بن فُطَيْس (٣٤٨–٤٠٢ هـ)[2] المُحَدِّث المُؤَلِّف قاضي الجماعة بقُرْطُبَة (٣٩٤ – ٣٩٥ هـ) .

هناك ألقاب وأسماء قد تدل على أن أصحابها من أصل إسباني نصراني :

* محمد بن يحيى بن عمر بن لُبابَة (٣٣٠ هـ = ٩٤٢ م) المعروف : البَرْجون[3] «كان فقيهاً مُقَدَّماً »[4]. وبنو لُبابَة أو اللُّبابيّون أسرة قُرْطُبِيّة شهيرة ظهر منها العديد من العلماء الأعلام ، منهم : محمد بن عمر بن لبابة (٢٢٥ - ٣١٤ هـ)[5] زعيم الفقهاء[6] ، وأخوه : أحمد بن عمر بن لُبَابَة (٣٢٥ هـ)[7] وعمر بن يَحيى بن لُبَابَة .

قائمة نسب بني لُبَابَة



---

(١) المقتبس ، ٢/١٨٢ ، و ٢/٧٦ ؛ إعتاب الكتاب ، ابن الأبار ، ١٩٠ .

(٢) الصلة ، ابن بشكوال ، ٣٠٩ (رقم : ٦٨٢) ؛ ترتيب المدارك ، ٣ – ٦٧١/٤ .

(٣) تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ٢/٥١ (رقم : ١٢٣١) ؛ صحيفة المعهد المصري (الدراسات الاسلامية) في مدريد ، ٦٣/٤ ، مقدمة «كتاب أحكام السوق » ليحيى بن عمر الكناني . كذلك : ترتيب المدارك ، ٣ – ٣٩٨/٤ – ٤٠٣ ؛ نفح الطيب ، ١٧١/٣ ؛ أدناه ، الفصل الثالث .

(٤) جذوة المقتبس ، الحميدي ، ٩٨ (رقم : ١٦٣) .

(٥) تاريخ علماء الأندلس ، ٣٥/٢ (رقم : ١١٨٩) .

(٦) المقتبس ، ابن حيان ، ٤٧/٣ .

(٧) تاريخ علماء الأندلس ، ٣٧/١ (رقم : ١١٥) .

* أبو المُطَرِّف بن فُورْتَش (٣٨٦ هـ)[١] ، من أهل سَرَقُسْطَة وتولى قضاءها .
* أبو وَهْب مَنْتِيل بن عفيف المُرادِي[٢] (بَرْبَشْتُر ٣١٧ هـ) ، من أهل وَشْقَة .
* أبو عمر أحمد بن فرج بن مَنْتِيل[٣] (٣٤٤ هـ) ، من أهل قُرْطُبَة .
* أبو عمر أحمد بن قُزْلُمان (قرلمان) (٣٧٧ هـ) ، من أهل قُرْطُبَة ، « وكان يُؤدِّب بالقرآن ، وكان من العُبَّاد والمُتَبَتِّلين . »[٤]
* أبو القاسم أحمد بن بِيطير (٣٠٣ هـ) ، من أهل قُرْطُبَة[٥] .
* أحمد بن محمد بن الرومي[٦] ، من أهل قُرْطُبَة .
* أبو عبد الله عَبْدُوس بن ذِي زَوِيه[٧] .
* أحمد بن أبي قُومِس ، من أهل قُرْطُبَة[٨] .
* أبو عمر أحمد بن غَرْسِيَه ، من أهل مدينة الفَرَج ، وكان رجلاً صالحاً[٩] .
* أبو الفضل أحمد بن إبراهيم[١٠] (٣٢٢ هـ) ، من أهل وَشْقَة .
* عبد السلام بن بَسِيل الرومي ، أحد وزراء أو مشاوري عبد الرحمن الداخل[١١] .
* أبو عمر ابن الحَصّار : عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد بن محمد بن بِشْر بن غَرْسِيَه ، قاضي الجماعة بقُرْطُبَة (٤٢٢ هـ)[١٢] .

---

(١) تاريخ علماء الأندلس ، ٢٦٦/١ (رقم : ٨٠٧) .
(٢) تاريخ علماء الأندلس ، ١٥٣/٢ (رقم : ١٤٨٢) .
(٣) تاريخ علماء الأندلس ، ٤٠/١ (رقم : ١٢٩) .
(٤) تاريخ علماء الأندلس ، ٥٣/١ (رقم : ١٨٢) . كذلك : أعمال الأعلام ، ٥٠/٢ .
(٥) تاريخ علماء الأندلس ، ٢٨/١ (رقم : ٧٧) .
(٦) تاريخ علماء الأندلس ، ٢٩/١ (رقم : ٨٢) .
(٧) المصدر نفسه .
(٨) تاريخ علماء الأندلس ، ٣٠/١ (رقم : ٩٢) .
(٩) التكملة ، ١٥/١ (رقم : ٢٣) .
(١٠) تاريخ علماء الأندلس ، ٣٢/١ (رقم : ١٠٠) .
(١١) نفح الطيب ، ٤٥/٣ .
(١٢) الصلة ، ٣٢٦ (رقم : ٦٨٩) .

* الطبيب الصيدلي ابن الرُّومِيَّة (ابن فُرْتُون) : أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي الخليل مُفَرِّج الأموي (٦٣٧ هـ)[١] .
* أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قُوطِي المَعَافِري (٤٤٠ هـ) ، من أهل طُلَيْطُلَة « وكان خيِّراً فاضلاً متواضعاً كثير الدراسة للمسائل موَثَّقاً شاعراً . »[٢]

نعرف عدداً من الأُسر الأندَلُسيَّة ــ في مختلف العهود ــ يدل لقبها على أصلها النصراني . مثل : بنو القَبْطُرْنُهْ (Cap — Torno : الرأس المستدير)[٣] . والأمثلة كثيرة[٤] ، وهو طبيعي . وكما توجد أُسر أخرى مُسْلِمة نعرف منها أعلاماً ظهرت واشتهرت في عديد من الميادين ، ولو أنه ليس في ألقابها وتسمياتها ما يشير بوضوح إلى أوليتها[٥] .

كلما تقدمنا في الزمن نجد الإسلام مستمراً بالانتشار ، حتى غدا غير المسلمين أقلية ، لها كافة حقوقها وحريتها في المعتقد والعبادة . فأعجبوا بهذه المعاملة الحسنة المتسمة بالانصاف . وكثرة ممن لم يُسلم منهم ، رضيت أن تعايش المسلمين وتنعم بالأمن وتقبل من عادات المسلمين وأسلوبهم الكثير . كذلك قَبلت لغتهم وأتقنتها . وهؤلاء هم الذين سموا « المُسْتَعْرِبُون » ، وهم غير المسلمين (في الأندلس) الذين قَبِلوا العربية لغة ومارسوا بعض الأساليب الإسلامية في حياتهم . مثلاً : لَبِسوا ملابسهم واستعملوا الخِتَان ، وامتنعوا عن أكل الخِنْزير . وكان لكثرة منهم اسمه الإسلامي إلى جانب اسمه اللاتيني . وأتقنوا العربية وتذوقوها : قراءة وكتابة وإنشاءاً وأدباً .

---

(١) الإحاطة ، ٢٠٧/١ ؛ التكملة ، ١٢١/١ (رقم : ٣٠١) ، ٢٣٧،١٧٦ ؛ أدناه ، الفصل السابع .
(٢) الصلة ، ٥٣٢ (رقم : ١١٦١) .
(٣) نفح الطيب ، ١٥٥/٦ ، ٦٣٤ – ٦٣٩ ؛ المغرب ، ١/ ٣٦٧ ؛ الاحاطة ، ٥٢٠/١ .
(٤) انظر : تاريخ علماء الأندلس ، ٥٨/١ (رقم : ١٩٤) ؛ المقتبس ، ابن حيان ، ٧٤/٣ ؛ التكملة ، ٢٩٨/١ ؛ نفح الطيب ، ٤٥/٣ ؛ حاضر العالم الاسلامي ، ١/٢ – ٢ (تعليق شكيب ارسلان) ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ١٢٨ – ١٢٩ ؛
Histoire de l'Espagne Musulmane, I, 76, 359, III, 184, (Sp. tr. , IV, 47, 230, V, 103).
(٥) انظر مثلا : نفح الطيب ، ٤٥/٣ ؛ التكملة ، ١١٨/١ (رقم : ٢٩٧) .

بَيْدَ أن الفـارو القُرطبي (Alvaro de Cordoba, Alvarus Cordubensis) كتب سنة ٢٤٠ هـ (٨٥٤م) بمرارة نقداً لهذا الاتجاه سُمي « Indiculus Luminosus » أي : الدليل المنير[١] .

لكن الإسلام انتشر بقوته الذاتية التي حققت المثل الإنسانية الفريدة ــ بفطرة الله الخالق سبحانه ــ وبقي يمدها بالحياة والحركة ، وبذلك يرتقي الإنسان حتى يُصبح « رَبَّانِيّاً » . فهو بها غني في كل شيء ، وبغيرها فقير مُدْقِع وكئيب بائس ، متعثر الخطوات حَسِير النظرات .

* * *

حين وصل عبد الرحمن الداخل الأندلسَ (١٣٨ هـ = ٧٥٥ م) كان الإسلام قد تثبتت أركانُه بعد أن دخل رِحَابَه السكانُ الأولون من كل الطبقات ، لِمَا رأوا مِن سماحة الإسلام وخُلُق أهله وحُسْن معاملتهم ، وعَدْل حكامهم[٢] .

وبدأت البلاد تنتعش والإنسان يُنتج ويُبدع ، في ظل الإسلام والآفاق التي أنشأها . فهي تقوم على اعتبار كرامة الإنسان وردها إليه ورفعه وإياها .

ونظر الأسبان وقد زالت عنهم المظالم وذهبت الطبقية ، فأقبلوا على اعتناق هذا الدين القيم ، ومَن بقي على دينه منهم ارتضى حكم المسلمين .

وقد أشاد عدد من المؤرخين ، منهم بعض الأوربيين ، بنتائج الفتح الإسلامي على إسبانيا وبالسياسة الرشيدة التي اتبعها المسلمون ، أمثال : دوزي ولين بول ورينو وأرنولد وغيرهم[٣] .

وسيبقى أمر انتشار الإسلام في إسبانيا مثيراً للدهشة أكثر مما يثيرها انتصاره الباهر في فتحه لها . تلك الفتوح التي مَثَّلَت هذا الاتجاه ورَسَمَت للناس تلك الصورة الجلية الجليلة ، ولم يكن مصدر الانبهار قاصراً على الانتصار العسكري ولكن من تفوق

---

(١) راجع : أندلسيات ، ٢/ ٥٩ ؛ *Andalusian,* 56 .

(٢) انظر : فجر الأندلس ، ٤٢٤ .

(٣) راجع : دولة الاسلام ، ٦٢/١ وبعدها ؛ تاريخ غزوات العرب ، ١٢١ – ١٢٧ ؛ الدعوة الى الاسلام أرنولد ، ١٥٤ – ١٦٤ .

الإنسانية – بصورتها الإسلامية – فيها ، واعتلاء الإسلام دفة الأمور وصياغة الأحداث والتصرفات والأخلاق ، وسرعة وضخامة الانجاز في الحياة وفي الإنسان ، فأشرقت حياته على أضوائه الساطعة .

أقبل الناس على الدخول فيه ، ليس فقط عن طواعية واختيار ، بل وعن رغبة واجتذاب ، لِمَا رأوا من جلال شريعته وجمال عقيدته وسماحة نظرته وتساوق وجهته والأخذ بالانسان لكرامته ، للذكور والإناث سواء ، منذ الصغر وحتى يغدوا كباراً . فشاهدوها مُتمثلة في المسلم : أفراداً وجماعات ، في الدولة والمجتمع ، فيما بينهم ومع الآخرين . وتركزت وظهرت هذه المعاني بوضوح ، منذ الفتح الذي تَمَثَّلت فيه كلُّ صور الكرامة الإنسانية . وهذا الموضوع جدير ببيان أطول وتتبع للنصوص وتجول في المصادر ، لتقديم صورة أجلى وأشمل .

ثالثًا : جهَاد المُسلمين في الأندَلس وَخلف ألبرَت

لم يكن المد الإسلامي حركة غزو وغنائم وسيطرة سياسية . فهو يخالف غيره في الأساس والهدف والمنطق والتصور والأسلوب والغاية . بل هو موكبُ دعوةٍ منيرة وامتدادٍ متصل وجهادٍ دائم ، أفقاً وعمقاً . دعوة ميدانُها الأرضُ كلُّها ، وبنو البشر كافّة موضوعُها وموضعُها – وآفاقها من ذلك أوسع – تسعى إليه وتحنو عليه . تَعْمُرُ نفسَه وتُعْلي رأسَه ، لِيَعُم نورُ الله المبينُ وشرعُه المكين أهلَ الأرض أجمعين ، تدعوهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فيُقبلوا عليه مختارين وبرغبة حُرّة بَرّة مميزة . فتسارعوا هم للدخول فيه أفواجاً واعتناقه ليُصبحوا من أهله ، العاملين تحت رايته المجاهدين لنشر شريعته ﴿ وقاتِلُوهم حتى لاتكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ كُلُّهُ لله ﴾[1] . وهكذا سَرَت دعوةُ الإسلام في الأرض عامرةً باهرةً ، وفي ذلك يقول العالم المجاهد ابنُ تَيْمِيَّة (٧٢٨ ﻫ) :

---

(١) من الآية ٣٩ من سورة الأنفال .

« إن المسلمين الأولين لم ينقلوا الإسلام إلى الأُمم ، ولكن نقلوا الأُمم إلى الإسلام »[1] .

يحدث هذا دوماً[2] ، إذ هو يسير بنفسه ، وحين تتاح أقل فرصة وإمكانية لبيان الإسلام ويتمثّلُه أهْلُه ودعاتُه ، فكيف لو قام به مجتمع وعاشت في ظله أمة . إنه الوحيد الهادي للانسان المنقذ من كل ضلال والصائن له من الانحراف ، أي انحراف. لأنه شرعُ الله ، العليم الحكيم ، لخلق الله ، الملائم لفطرتهم القائم على سعادتهم في الدارين . حتى ليكاد ينتشر بدون دعاة — وفي العصر الحديث كذلك — وهو ما يخشاه أعداؤه ، على تنوّع مصالحهم واتجاهاتهم ، رغم امتلاكهم القُوى المادية ، وتقوم كذلك لهم دول كبرى قوية ، وهو منها مجرد . وما انفكوا يُعبّرون عن ذلك بأكثر من أسلوب وبالعديد من الأشكال[3] .

ذلك مالاحظناه خلال كل الفتوحات ، التي كانت حركة انسياح في الأرض ، تزرعها خيراً وبركة ، وتيار اكتساح يطوي الظلمات لتشرق الدنيا بنور الله .

استمرت موجة المد الإسلامي هذه في عهد الولاة ، الذي ابتدأ بولاية عبد العزيز ابن موسى بن نُصَيْر ، وكان لها نشاط وافر ، وبصورة رئيسية وراء جبال البُرْت .

ولانتقال الجهاد وراء جبال البُرْت مدلول . لعله تعبير عن قوة الدفع وجلالة المد التي زادت عن متطلبات الوجود الإسلامي في الأندلس وقتها ، فنقلت النشاط من ميدانه أمام البُرْت إلى ما خلفه في الأرض الكبيرة .

وقد شمل جهاد هذا العهد موضعين أو جبهتين :

١ — داخل الأندلس ، لاسيما الشّمال .

٢ — خلف جبال البُرْت ، في فرنسا .

---

(١) أخبار عمر ، ٩٩ — ١٠٠ . انظر كذلك : فجر الأندلس ، ٤١٧ .

(٢) انظر مثلا : (تاريخ غزوات العرب ، ٢٨٨) *Muslim colonies*, 208 .

(٣) انظر مثلا : الاسلام والغرب والمستقبل ، توينبي ، ٧٣ ؛ التبشير والاستعمار ، مصطفى خالدي وعمر فروخ ، ١٣١ ، ١٨٤ .

١ – الجهاد في الجزيرة الأنْدَلُسيَّة

رأينا هذا الجهاد متواصلاً ومستمراً ، حيث شَمَل الفَتحُ السابق كلَّ الجزيرة الأنْدَلُسيَّة ؛ غير مواضع قليلة لم تُترك أو تُهمل مدة الوُلاة . بل وُجِّهَت لها حَمَلات عدة خلالها لتأكيد الفتح أو إنجازه .

قام عبد العَزيز بن موسى – مدة ولايته : سنتان – ببعض عمليات الفتح ، داخل الجزيرة الأنْدَلُسيَّة . وكان قد تولى – قبل ولايته – فتح عدة مدن في شرقي الأندلس وغربيه ، كما مر[١] . كانت هذه المهمة واضحة عنده ، بجانب حماية ثُغُورها . وهو ما أكده له والده موسى وكلّفه به . ثم إن موسى بن نُصَيْر « قَفَلَ عن الأنْدَلُس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثُغُورها ، واستعمل ابنه عبد العزيز لسدها وجهاد عدوها »[٢] . وليس لدينا ثَبْتاً واضحاً عن كل الأماكن التي افتتحها عبد العزيز في ولايته ، لكنَّ بعض مؤرخينا يذكرون – تعميماً أو تخصيصاً – مُدُناً افتتحها عبد العزيز .

يذكر ابن خَلْدون أن عبد العزيز « كان خيّراً فاضلاً ، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة . »[٣] ويذكر ابن عِذاري في **بيانه** أن عبد العزيز في ولايته الأندلُس « ضبط سلطانها ، وسَدَّ ثُغُورها ، وافتتح مدائن كثيرة . »[٤]

آ – نقل العاصمة وتعيين بَلاطها

استُشهِد عبد العزيز بن موسى ، مقتولاً (رجب ٩٧ هـ) بيد زياد بن عُذْرَة البَلَوي وهو يصلي في مسجد (رُفَيْنَة) بإشْبيليَة[٥] ، واجتمع أهلُ الأندلُس على تولية أيوب بن حبيب (رجب ٩٧ – ذو الحجة ٩٧ هـ) ، ابن أخت موسى بن

---

(١) أعلاه ، ٧٨ – ٨٣ .

(٢) العبر ، ٢٥٥/٤ (= نفح الطيب ، ٢٣٤/١) .

(٣) العبر ، ٢٥٦/٤ (= نفح الطيب ، ٢٣٤/١) . كذلك : أخبار مجموعة ، ٢١ ؛ تاريخ افتتاح الأندلس ، ٣٦ .

(٤) البيان المغرب ، ٢٤/٢ . كذلك : أعلاه ، ١٣٩ .

(٥) راجع : أعلاه ، ١٥٩ .

نُصَيْر[1] . وفي ولايته أو ولاية الحُرّ (ذو الحجة ٩٧ — رمضان ١٠٠ هـ) — بعده — جُعِلَت قُرْطُبَة عاصمة الأنْدَلُس ، بديلة إشبيلية . واستمرت قُرْطُبَة كذلك حتى نهاية عهد الخلافة الأندلسية (أوائل القرن الخامس الهِجْري) .

« ثم اجتمع أهل الأنْدَلُس على تقديم أيّوب هذا ، يؤمهم لصلاتهم ، وكان رجلاً صالحاً . وأقاموا مدة دون أمير ، ونقلوا دار السلطان إلى قُرْطُبَة ، فتقدم أيّوب بن حبيب ، واحتل بقصر قُرْطُبَة ، وكان مُغيث قد اختطه لنفسه . »[2]

ذلك أن موسى لما استُدعيَ إلى الشام عاد هو وطارق ومُغيث وقادة آخرون ، مع من أراد العودة من الجند ، ومرّوا بطُلَيْطُلَة ثم بقُرْطُبَة . ورأى موسى أن هذا القصر أو الدار تناسب حاكم قُرْطُبَة « فأقبل إلى قُرْطُبَة فقال لمُغيث : إن هذا البَلاط ليس يَصْلُح لك إنما يَصْلُح لوالي قُرْطُبَة فاعْتَضْ مكانه ، فاعتاض مُغيث داراً فوق باب الجزيرة وهو باب القَنْطَرة مُقابل الثُّلْمَة التي دخل منها أصحابُه حين افتتح قُرْطُبَة ، وكانت داراً شريفة ذاتَسَقْي وزيتون وثمار يقال لها اليُسَّانَة ، كان للملك الذي أسره وكان له فيها بَلاط مُنيف شريف ، فهي تُسَمّى بالأندلُس بَلاطُ مُغيث . »[3]

يقع بَلاط مُغيث في غربي قُرْطُبَة عند باب العطارين (باب إشبيلية) واستبدلها مُغيث بدار أُخرى في شرقي قُرْطُبَة ، عند مكان دخول الفاتحين إليها ، مع السرية التي قادها مُغيث وقت فتحها ، وعاد مغيث إلى الأنْدَلُس — بعد فتحها — ليقيم فيها « وأنسَل بقُرْطُبَة البيت المذكور »[4] ، بيت « بنو مُغيث » المعروف ، ظهر منه عدة أعلام أنْدَلُسيَّة[5] .

---

(١) نفح الطيب ، ١٣/٣ (نقلا عن ابن حيان) . (٢) البيان المغرب ، ٢٥/٢ .

(٣) أخبار مجموعة ، ٢١ . الظاهر ان اسم الدار هذه على سميتها مدينة اليسانة (Lucena) من أعمال قرطبة ، وبينهما أربعون ميلا . راجع : نفح الطيب ، ١٦٥/١ ، ٤٥٧ ؛ صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ٢٠٥ (= الحلل السندسية ، ١٣١/١) ؛ درة الحجال في أسماء الرجال ، ابن القاضي ، ٥٩/٣ ؛ التكملة ، ٦٥٧/٢ . (٤) نفح الطيب ، ١٢/٣ .

(٥) نفح الطيب ، ١٢/٣ ؛ الحلة السيراء ، ١٣٥/١ ؛ المغرب في حلى المغرب ، ١١٧،٤٤/١ ، ١٥٩ ؛ المقتبس (القاهرة) ، ١٦٥/٢ ، ٢٦٤ ؛ أدناه ، ٢٤٤ وبعدها .

يلاحظ غموض بعض النصوص حول معرفة موضع دار مُغيث الأولى أو الثانية ، التي اعتاض بها ، وأيهما حملت اسم « بَلاط مُغيث » ؟ في نص **أخبار مجموعة** السابق غموض وارتباك . فهل أن دار مُغيث الأولى شرقيّ قُرْطُبَة أم غربيّها ؟ جاء في **نفح الطيب** ذكر « بَلاط الحُرّ » شرقي قُرْطُبَة[1] . فهل هي دار الحر ، والي الأندلس ، أو هي دار أُخرى ابتناها ، لأنه لم يسكن بَلاط مُغيث ؟ وهل هو « بَلاط لُذْريق » المذكور في **نفح** المَقَّرِي كذلك[2] .

أعانت عِدَّةُ نصوص على معرفة موقع « بَلاط مُغيث » وأنه غربي قُرْطُبَة ، وتَحَوَّلَ عنه مُغيث ، مُعتاضاً بآخر شرقي قُرْطُبَة . وغير واضحٍ تماماً إذا كان « بَلاط مُغيث » دار سكنى والي الأندلس أو دار الحكومة أو كليهما .

ورد في **البيان المُغْرب** أنَّ الوالي أَيُّوب لمَّا نقل العاصمةَ من إشبيلية إلى قرطبة نزل في قصر اختطّه مغيث وتركه « فتقدَّم أَيُّوب بن حبيب ، واحتلَّ بقصر قرطبة ، وكان مغيث قد اختطَّه لنفسه . ذكر أنَّ موسى بن نُصَيْر ، حين **أَقْلَعَه** رسولُ الوليد ، رجع في قُفُوله على طريق طارق ليختبر الأندلس ، فنزل **قُرْطُبَة** وقال لمُغيث : (إنَّ هذا القصر لا يصلح لك . وإنما يصلح للعامل الذي يكون بقرطبة .) فتنَحّى عنه يومئذٍ . ونزله بعد ذلك أَيُّوب بن حبيب . »[3] .

يتحدَّث ابن بَشْكُوال – في كتاب له مفقود – عن خُطَط مدينة قُرْطُبَة (وهو موضوع جدير بالجهد العلمي) ، فيذكر عدد أَرْبَاضها (أحيائها) وأنَّ **رَبَض بَلاط مُغيث** واحد من تسعة أرباض يحتويها غربي قرطبة : « أنَّ عدد أرباض قُرْطُبَة عند انتهائها في التوسع والعمارة واحد وعشرون رَبَضاً ، منها القِبْلِيَّة بِعُدْوَة النهر : رَبَض شَقُنْدَه ، ورَبَض مُنْيَة عَجَب ؛ وأما الغربية فتسعة : رَبَض حوانيت الرَّيحان ، ورَبَض الرَّقَّاقين ، ورَبَض مَسْجِد الكَهْف ، **ورَبَض بَلاط مغيث** ، ورَبَض مسجد الشِّفاء ، ورَبَض حَمَّام الإلْبيري ، ورَبَض مسْجِد المَسْرُور ، ورَبَض

---

(١) نفح الطيب ، ٣/٣٤ .
(٢) نفح الطيب ، ١/٢٥٥ .
(٣) البيان المغرب ، ٢/٢٥ .

مسجد الرَّوْضَة ، وَرَبَض السِّجن القديم ؛ وأمّا الشماليّة فثلاثة : رَبَض باب اليهود ، ورَبَض مسجد أم سَلَمَة ، وربَض الرُّصافَة ؛ وأمّا الشرقيّة فسبعة : رَبَض شَبُلار ، ورَبَض فُرْن بِرِيِّل ، ورَبَض البُرْج ، ورَبَض مُنْيَة عبد الله ، ورَبَض مُنْيَة المُغيرَة ، ورَبَض الزَّاهِرَة ، ورَبَض المدينة العَتيقَة . »[1] .

لابن حَزْم الأندلسي (قُرْطُبَة ، ٣٨٤ — لَبْلَة ، ٤٥٦ هـ) نَصَّان ، يصف حالة قُرْطُبَة وانتقال أُسْرَته من شرقيها إلى غربيها ، في الفتنة التي تلت انهيار سلطان الخلافة الأندلسية وأورثت انفراط عَقْد وَحْدَة الأندلس ، فكانت الطوائف . ويفيد النصَّان في بيان وتأكيد مكان « بَلاط مُغيث » — الذي كان له أولاً — في غربي قُرْطُبَة : ثمَّ اعتاض به مغيث داراً أخرى — شرقي قُرْطُبَة — سكنه لمّا عاد إلى الأندلس ، وتوارثها أبناؤه . لكن الدار الأولى — غربي قرطبة — بقيت حاملة لاسمه « بَلاط مغيث » ، دون الدار الشرقيَّة .

يَذكُر ابن حَزْم في **طَوْق الحَمَامَة في الأُلْفَة والأُلاّف** : « ثمَّ انتقل أبي - رَحِمَه اللهُ - مِنْ دُورِنا المُحْدَثَة بالجانب الشرقي مِنْ قُرْطُبَة في رَبَض الزَّاهِرَة إلى دُورِنا القديمة في الجانب الغربي مِنْ قُرْطُبَة بِبَلاط مُغيث ، في اليوم الثالث من قِيام أمير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة . وانتقلتُ أنا بانتقاله ، وذلك في جُمَادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاث مئة »[2] .

ونصّه الآخر — يَرْثي به قُرْطُبَة — في صورتين : واحدة دَوَّنها ابنُ حَيّان

---

(١) نفح الطيب ، ١/٤٦٥ — ٤٦٦ . كذلك : أعمال الأعلام ، ٢/١٠٣ .

المنية : هي القصر والدار الكبيرة العامرة ذات حديقة واسعة . والرصافة : اسم الربض الذي فيه القصر مسماه ، ابتناه ابن رزين واشتراه الداخل منه . أعلاه ، ١٣٨ . عن رصافة قرطبة ، انظر : المقتبس ، ٢/٢٢٧ — ٢٢٨ ، ٢٣٤ ؛ الروض المعطار ، ٧٨ ؛ نفح الطيب ، ١/١٨١ ، ٣٩٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦ — ٤٦٩ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٣/٥٤ ، ٩٠ ؛ البيان المغرب ، ٢/٦٠ ؛ الحلة السيراء ، ١/٣٧ ؛ صورة الأرض ؛ ١٠٨ .

ولمدينة بلنسية رصافة كذلك تقع في غربيها . انظر : المغرب ، ٢/٢٩٨ ، ٣٤٢ ؛ الروض المعطار ، ٧٨ ؛ نفح الطيب ، ١/١٨١ ، ٣/٢٢١ ؛ تاريخ الأندلس ، ٨٦ (نص ابن الكردبوس) ؛ الذيل والتكملة ، ٥/١/٣٧٠ .

(٢) طوق الحمامة ، ابن حزم ، ١١١ . انظر : نفح الطيب ، ٢/٧٨ .

(قُرْطُبَة ، ٣٧٧ – قُرْطُبَة ، ٤٦٩ هـ) ونقله عنه ابنُ الخطيب (لَوْشَة ، ٧١٣ – فاس ، ٧٧٦ هـ) في كتابه **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ومـا يَجرّ ذلك من شجون الكلام**[1] . وردت صورة أخرى لهـذا النَّص في **طوق الحمامة** وبين الصورتين قليلٌ من الاختلاف غير المخل . يشير ابنُ حيّان إلى تَفَجُّع ورثاء الفقيه الأديب (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حَزْم) لقُرْطُبَة ؛ حين طالعتها الفتنة المفضية إلى الطوائف . وأنه وجد بخطّه : « وقفت على أطلال منازلنا ، بِحَوْمَة بَلاط مُغيث من الأرباض الغربية . . . »[2] . أمّا صورةُ نص **طَوْق الحمامة** : « ولقد أخبرني بعض الوُرّاد مِنْ قُرْطُبَة ، وقد استخبرتُه عنها ، أنه رأى دُورنا بِبَلاط مُغيث ، في الجانب الغربي منها وقد امَّحت رسُومها ... »[3]

كل هذه النصوص تُعَيِّن لنا موقعَ بَلاط مُغيث – الذي كان له أولاً – في غربي قُرْطُبَة ، ثمَّ اعتاض به آخر في شرقيها . فحمل الأول – الذي في غربيها – اسمه . وسُمِّي الحي الذي فيه به « رَبَض بَلاط مُغيث » في غَرْبي قُرْطُبَة .

ب – الجهاد في الأنْدَلُس

تَتَابَعَ الوُلاةُ الأندلسيّون[4] . وهنـاك أسباب عدَّة أدَّت إلى كَثْرَتهم في سنوات قليلة ، ولهذه الظاهرة نتائجها . حَكَمَ الأَنْدَلُسَ عشرون والياً في أربعين سنة ، تَوَلّى اثنان منهم الأمر مرتين ، هما : عبد الرحمن الغافقي وعبد الملك بن قَطَن .

---

(١) ذكر اسم الكتاب هكذا في : نفح الطيب ، ٧/١٠٠ .

(٢) أعمال الأعلام ، ٢/١٠٦ ؛ مجلة الأندلس الاسبانية (*AL-ANDALUS*) ، ١٥/١/٣٦١ .

(٣) طوق الحمامة ، ٩٤ . قارن : طوق الحمامة ، ١١٨ . انظر كذلك عن بلاط مغيث : الصلة ، ابن بشكوال ، ١/٢٤ ، ٣٥٨ ، ٢/٤٩٦ ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ١/٥٦ (رقم : ١٨٦) ، ١٠٨ (رقم : ٣٣٥) . قارن : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، سالم ، ١/٢٦–٢٧ ، ٣٠ . رثاء قرطبة – نثراً وشعراً – يمكن بحثه ضمن موضوع : « الرثاء البلداني في الأندلس » الجدير بالعناية . عن رثاء قرطبة انظر : نفح الطيب ، ١/٥٠٠ ، ٥٥٧ ، ٦٢٩ .

(٤) انظر : أعلاه ، ١٣١ .

وهذا التبدل قد يؤدّي إلى عدم الاستقرار الدائم الذي يُنتج الاستمرار في الفتح وتنفيذ خُطوات الإصلاح ، مع ذلك فقد كانت هناك سنوات من الاستقرار ، خلال هذه المدة ، وكلما ساد الاستقرار تأكَّدت وَحْدَة الأنْدَلُس وقَوِيَتْ شَوْكَتُه وبرزتْ عناصر الجهاد وحبّ نشر العقيدة . لذلك نرى – في مثل تلك الأوقات – استمرار عمليّات الفتح ، لا في الأندلس ولكن أيضاً فيما وراء جبال البُرْت في فرنسا ، التي اعتاد المؤرخون والجغرافيّون المسلمون – لا سيَّما الأنْدَلُسيُّون – أن يُسَمّوها : « **الأرض الكبيرة** » ، ولا تعني حدوداً ثابتةً دوماً . فقد تَعني كلَّ أو بعض المناطق والبلدان الواقعة خلف جبال البُرْت ، أي : تشمل عدداً من الدول الأوربيَّة وخاصَّة فرنسا[1] .

يَتَبَيَّنُ من النصوص المتوفّرة أنَّ جُهودَ المسلمين وجِهادَهم – في هذا العهد – كانت كثيرة وفيرة ، تجاه ما تتطلَّبه الحياة الجديدة في الجزيرة الأنْدَلُسيَّة وما حدثَ مِنْ تَبَدُّل شامل ، نتيجة دُخُولها رِحاب الإسلام ، وغَطّى جزءٌ منها حاجَةَ بعض المناطق الشّماليَّة إلى فتح جديد أو تثبيته وتأكيده أو إعادة له ، وقد ذُكر جهاد عدد من الولاة فيها .

وغير واضحٍ – تماماً – المدن التي فتحها الوُلاة داخل الجزيرة الأندلُسيّة . وحين يتحدَّثُ بعضُ مؤرخينا عن عهد الوُلاة تتقدَّمُ أحياناً صورةٌ مجملة – على ما يبدُو – لحالة العهد وجهاده ، داخِلَ الأندلُس وخارِجَها . يُشير ابن عِذاري إلى جِهاد عَنْبَسَة – يَظهر أنه خلف البُرْت – فيخبر أنه قاتلَ الرّومَ وحاصرَهم « حتى صالَحُوهُ »[2] . كما يذكر ابن خَلْدُون في **عِبَرِه** عن الوُلاة المتابعين أنهم « افتتحوا بَرْشَلُونَة من جهة الشرق وحُصونَ قَشْتَالَة وبَسَائِطَها ، من جهة الجَوْف »[3] . نعرف – ممّا سبق[4] – أنَّ بَرْشَلُونَة وقَشْتَالَة وما حولهما من مناطق

(١) راجع : جغرافية الأندلس وأوروبا ، ٦٧ ؛

Andalusian diplomatic relations, **102, 272**.

(٢) البيان المغرب ، ٢/٢٧ .

(٣) العبر ، ٤/٢٥٦ (= نفح الطيب ، ١/٢٣٤) .

(٤) أعلاه ، ٩٢ ، ١٠٠ – ١٠٦ .

فُتِحت أيّام الفتح الأوّل ، قبل عودة مُوسى وطارق ومن معهما إلى المشرق . فهل إنّ ابن خلدُون – أو مَنْ نقل عنه – أدخل عهد الفتح الأوّل في هذه الصورة المختصرة لهذه الأحداث التي أجمل عرضها مُسْرِعاً ؟ أو أنه – فعلاً – جرى نشاط جهادي – من أيّ لون ودرجة – في هذه المناطق ؟ ذكرت بعضُ مصادرنا الأندلسيّة – حين أفردت الحديث عن كل من وُلاة الأندلس – جهادَ نفرٍ منهم داخلَ الأندلس ، مثلما مرَّ بنا عن عبد العزيز بن مُوسى[1] ، وآخرين سيرد عنهم الحديث ، « وكانَ مَنْ وَصَفْنا مِنَ الوُلاةِ يُجاهِدُونَ العدُوَّ ويتوسّعونَ في البلاد حتى بلغوا إفرنجة وحتى افتُتِحتْ عامّة الأندلس »[2]. الحق أنّ تلك هي الصفة للولاة ، لولا ما كدّرها من تلكّؤ وتمكين وتنفيذ لبعض أهل العصبيّة الجاهليّة[3] .

وردت الأخبار عن مميّزات خيّرة ومؤهّلات كريمة وجهود غير قليلة لكثرة من الوُلاة ، حتى بعض أولئك الذين غاضت عنهم المعلومات أو أقامُوا في الولاية شهوراً قليلة ، مثل :

* عُذْرَة بن عبد الله الفِهْري (شعبان ١٠٧ هـ : ولايته شهران) . « ذكر الحِجاري أنّ عُذْرَة كان من صُلَحائهم وفُرْسانهم »[4] .
* محمّد بن عبد الله الأشْجَعي (١١١ : ولايته شهران) ، الذي «كانَ فاضلاً فصَلّى بهم شَهْرين . »[5]

يذكرُ صاحبُ **أخبار مجموعة** أنّ عبيد الله بن الحَبْحَاب والي « إفريقية والمغرب كُلِّه »[6] (ربيع الآخرة ١١٦ – ١٢٣ هـ) لمّا خيّر عُقْبَةَ بن الحَجّاج السَّلُولي (شوال ١١٦ – ١٢١ هـ) بين وِلاية إفريقية والأندلُس « اختار عُقْبَةُ

---

(١) أعلاه ، ١٧٤ .
(٢) أخبار مجموعة ، ٢٥ .
(٣) انظر مثلا : نفح الطيب ، ١٩/٣ ؛ أعلاه ، ١٣٣ .
(٤) نفح الطيب ، ١٧/٣ .
(٥) نفح الطيب ، ١٨/٣ ؛ التكملة ، ٣٥٤/١ (كلاهما نقلا عن ابن بشكوال) .
(٦) البيان المغرب ، ٥١/١ .

الأنْدَلُسَ وقال : إني أُحب الجهاد ، وهي موضع جهاد ، فولاّه فدخل الأندَلُس سنة عشرٍ ومئة ، فأقام عليها سنين ، وافتتح حتى بلغ أُرْبُونَة ، وافتتح جِلِّيقية وأَلَبَة وبَنْبُلُونَة ولم تَبْقَ بجِلِّيقِيَة قريةٌ لم تفتح غيرُ الصخرة »[1] . يَذكر ابن عِذَاري أنَّ عُقْبَة « كانَ يجاهدُ المشركين في كلِّ عام ، ويفتتح المدائن . وهو الذي فتح مدينة أُرْبُونَة ، وافتتح جِلِّيقِيَة وبَنْبُلُونَة ، وأسكنها المسلمون . وعَمّت فتوحاتِه جِلِّيقِيَة كُلَّها غير الصخرة . »[2]

يَرْوي المَقَّري عن ابن بَشْكُوال بعضَ الذي ذُكر في النَّصيْن السابقين ثمَّ يزيد عليهما . ذلك أنَّ الوالي عُقْبَة بن الحَجَّاج السَّلُولي قَدِمَ الأنْدَلُسَ « فأقام بها سنين محمُودَ السِّيرة ، مُثابراً على الجهاد ، مُفتتحاً للبلادَ ، حتى بلغ سُكْنى المسلمين أُرْبُونَة وصار رباطهم على نهر رُودُنُهْ . فأقام عُقْبَة بالأنْدَلُس سنة إحدى وعشرين وَمئة ، وكان قد اتخذ بأقصى ثَغْر الأنْدَلُس الأعلى مدينةً يقال لها أُرْبُونَة كان ينزلها للجهاد »[3] .

يعني هذا : أنَّ جيوباً صغيرة في هذه المناطق — بعد الفتح الأوَّل — كان الولاة يفتتحونها ، أو فلولاً تتجمع للمقاومة وتتحصن في مناطق نائية في هذه الأماكن ، أو كِلا الأمرين كان يتمّ[4] .

قام عدد من هؤلاء الولاة بجهاد وفير خلف البُرْت ، والظاهر أنه لولا رؤية الولاة استتباب الفتح في الجزيرة الأنْدَلُسِيَّة لما أقدموا كثيراً على نقل ميدان الجهاد وراء البُرْت ، وغير بعيد أن مجموعات كانت تَرِد الى شمالي الأنْدَلُس — من أي مَعْبَر في البُرْت — لمعاونة الفُلول على الوقوف والمحاربة . وقد قَصَدَ الوُلاة — مع الفتح أيضاً ، وراء البُرْت — قَطْعَ مصدر هذا الإمداد .

لدينا أخبار فردية عن مجاهدين في الأندَلُس ، لابد أنهم ذهبوا في أعمال جهاد

(١) أخبار مجموعة ، ٢٧ — ٢٨ . كذلك : البيان المغرب ، ٢/٢٩ ؛ نفح الطيب ، ١/٢٣٦ ، ٣/١٧ .
(٢) البيان المغرب ، ٢/٢٩ .
(٣) نفح الطيب ، ٣/١٩ .
(٤) نفح الطيب ، ١/٤١٤ ، ٤١٦ ؛ البيان المغرب ، ٢/٢٩٥ ، ٢٩٦ .

جَماعي . وورود « **الأنْدَلُس** » موضعاً لجهاد بعض الرجال ، يعني : « **الأنْدَلُس أو وما تلاها** » ، أحياناً . قد تعني « **الأندلُس** » – في تعبير بعض الكتاب الأندلُسيين – شبْه الجزيرة الأندلسية . إلاأن ذلك ليس دواماً ، وأحياناً مع عدم وجود قرينة . في هذه الحال يكون إدراك القصد أصعب .

ذُكِرَ – في ترجمات عدد من الأشخاص – جِهادُهم في الأنْدَلُس واستشهادهُم فيها أو وراء البُرْت . حدث ذلك بعد مدة الفتوح الأولى – في عهد الوُلاة – و كماهو واضح من تاريخ الاستشهاد .

* التابعي : أبو ثُمامَة (١٢٨ هـ) ، « قيل إنه غَرِق في بحار الأنْدَلُس . »[١] أو في مَجازها ، كما أورده المَقَّري[٢] .

* أبو سعيد عبد الرحمن بن بِشْر بن الصارم الغافِقي، وهو غير سَمِيِّه ولَقَبِيِّه والي الأنْدلُس عبد الرحمن الغَافِقي (صَفَر ١١٢ – رمضان ١١٤ هـ) . لا يذكر ابنُ الفَرَضي عن جهاد ابن بِشْر هذا زيادة على أن « قَتَلَه الروم بالأندلُس . »[٣] بعد وِفادته عل سليمان . ولعلّ رغبةَ ابن بِشْر في الجهاد بالأندلس كانت السبب في وفادته تلك ، وغير واضح تاريخ هذا الجهاد وموضعه ، وكيف قضى صاحبُه ومَن كانوا مَعَه ، ولا إذا كان ابنُ بِشْر قد جرّب الجهاد فيها قبل ذلك في عهد الفتح الأول . لكن عبارة **جَذْوة** الحُمَيْدي تُفيد معنى وتزيد بياناً . أن ابن بِشْر « رَجَع الى الأنْدَلُس ، فاستُشْهِد بها في قتال الروم »[٤] . ذلك أن لابن بِشْر تَجْرِبَة جهادية سابقة في الأندَلُس أيام افتتاحها ، ورَجَع إليها ليحقق رغبته في خدمة الاسلام ونيته في الاستشهاد ، زيادة في الأجر والثواب والقُربى من الله تعالى . فذَهَب قَرير العين شَهيداً . لكن الوصول الى معرفة موضع وتاريخ وتفاصيل ذلك مايزال عسيراً .

* نُعَيْم بن عبدالرحمن بن مُعاوية بن حُدَيْج السَّكُوني (يوم عَرَفَة ١٠٣ هـ) . جَدُّه مُعاوية بن حُدَيْج (٥٢ هـ) ، صحابي « ممن وَفَد على رسول الله صلى الله

---

(١) رياض النفوس ، ٧٤/١ . كذلك : أعلاه ، ١٥١ .

(٢) نفح الطيب ، ٥٦/٣ – ٥٧ . (٣) تاريخ علماء الأندلس ، ٢٥٦/١ .

(٤) جذوة المقتبس ، ٢٧١ (= بغية الملتمس ، ٣٦١) .

عليه وسلَّم . شَهد فتحَ مِصْر ، وكان الوارِدَ بفتح الإسكندرية على عمر بن الخطاب ، وذهبت عينُه يوم دُمْقُلَة من بلد النُّوبة مع عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح سنة إحدى وثلاثين »[1] . كان نُعَيْم إذن : « من جملة من دخل الأندلس للجهاد فيها ، قتله الروم بها في يوم عَرَفَة سنة ثلاث ومئة »[2] ، ونجهل التفصيلات الأخرى .

* النُّعمان بن عبد الله بن النُّعمان الحَضْرَمي من آل الرأسَيْن « كان رجلاً صالحاً زاهداً ، كثير الصدقة ، وكان تَصَدَّقَ بِعَطائه كُلِّه ، وكان يَسكن بَرْقَة »[3] . حاز شرف الجهاد في فتح الأندلُس الأوّل ، دخلها مع طارق أو موسى ، ولعله عاد معهما إلى المشرق ، أو بعد ذلك . وفَد على سليمان بن عبدالملك مع أخ مجاهد له آخر. وكان حَنينُ العودة الى الجهاد يملأ كيانَه ، وتلك أمنية ، فكانت . استُشْهِد فيها فَرِحاً نَشْواناً مع اخوان له هناك ، « دخل الأنْدَلُس للجهاد ، ووفد منها إلى سليمان بن عبد الملك بخبر فتح هناك ، ومعه محمد ابن حبيب المَعافِري ، فقال لهما سليمان : ارفعا حوائجكما . فأما المَعَافري ، فرفع حوائجه فقُضيت ، وأما النُّعْمان فقال: **حاجتي أن تَرُدَّني إلى ثَغْري ولا تسألني عن شيء ، فأذن له فرَجَع ، واستُشْهِد في أقصى الثُّغُور بالأنْدَلُس .** »[4]

تلك بعض أمثلة جهادية تُشير الى جهود المسلمين المتواصلة التي لاتعرف الكلل ، بل فيه تجد الراحة والأمنية . وما كان هؤلاء يقومون بجهادهم ذاك منفردين بل في عمليات مشتركة منظمة .

يُفهم – من النصوص الواردة المتعلقة بها – أن جهاد هؤلاء كان داخل الجزيرة الأنْدَلُسِيَّة ، وليس فيما وراء البُرْت . **لأن الأنْدَلُس كانت لهم ثَغْر أقامة ورِبَاط جهاد** . لكن ليس بالضرورة أن يكون الأمر مقصوراً على **الأنْدَلُس** : أمام جبال البُرْت . إذ وردت أخبار مماثلة عن جهاد أشخاص في بلاد « الروم »

(١) جذوة المقتبس ، ٣٥٨ – ٣٥٩ . كذلك : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ١٤١٣/٣ .

(٢) جذوة المقتبس ، ٣٥٩ (= بغية الملتمس ، ٤٧٨) .

(٣) جذوة المقتبس ، ٣٥٨ . كذلك : تاريخ علماء الأندلس ، ١٥٩/٢ .

(٤) جذوة ، ٣٥٨ (= بغية ، ٤٧٨) . كذلك : تاريخ علماء الأندلس ، ١٥٩/٢ .

واستشهادهم في أحد « ثُغُور الأنْدَلُس » أو مكان فيها . جِدّ معلوم أنهم فعلوا ذلك واستُشْهِدوا في بلاد الفِرَنْج وراء البُرْت من الأرض الكبيرة . إن « الروم » مصطلح عام يُستعمل — أحياناً — لأكثر من أهل بلد أوربي ، منهم سكان الجزيرة الإيبيريَّة غيرُ الأنْدَلُسيِّين[1] . « الأنْدلُس » في اعتبار هؤلاء الكُتَّاب شَمَلَت كلَّ أرض افتتحها المسلمون وجاهدوا فيها ، ابتداءً من عبورهم زُقاق الجزيرة ، خلال مدة الفتح المبكر (الفتح الأول والولاة) . بعضالأرض الكبيرة تنضوي تحت جَناح مُصطلح « الأنْدَلُس »[2]، أحياناً .

ذكر الحُمَيدي (جزيرة مَيورْقَة ، قبل ٤٢٠ — بغداد ، ٤٨٨ هـ) في **جَذْوَته** — حين الحديث عن الوالي الغَافقي — أنه « استشهد في قتال الروم بالأندلُس »[3] . وماثله ابن الفَرَضِي في تعبيره[4] . أما ابن عِذاري فيقول عن الغافقي إنه « استُشْهِد في أرض العدو في رمضان سنة مئة واربع عشرة . »[5] ومعلوم تماماً أن الغافقي استشهد في « بَلاط الشهداء » في فرنسا من الارض الكبيرة ، بين مدينتي : تور (Tours) وبواتيه (بواتييه Poitiers)[6] . وذُكِرَ مثل ذلك عن موضع استشهاد السَّمْح بن مالك[7]، سهواً .

يَذْكُر ابن خَلْدون دخولَ الغـافقي الأندلس وقيامه بجهاد نشيط في بلاد الإفْرَنْج ، حيث كانت معركة « بَلاط الشهداء » في رمضان سنة أربع عشرة ومئة[8] .

المعلومات المقتضبة السابقة عن هؤلاء الذين قَضَوْا شهداء ، تدعنا نجهل تفاصيل

---

(١) نصوص عن الأندلس ، العذري ، ٧ ؛ جغرافية الأندلس وأوروبا ، البكري ، ٧٢ ، ٨٥ ، ١٧١ ، ١٧٧ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢٠٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ؛ نفح الطيب ، ٣٦٦/١ ؛
Andalusian diplomatic relations, 159 n., 189, 196 n., 207, 245.

(٢) قضاة قرطبة ، ٥٩ ؛ *Andalusian*, 32

(٣) جذوة المقتبس ، ٢٧٤ .

(٤) تاريخ علماء الأندلس ، ٢٥٦/١ .

(٥) البيان المغرب ، ٢٨/٢ .

(٦) انظر : أدناه ، ١٩٤ وبعدها .

(٧) نفح الطيب ، ١٥/٣ (= أدناه ، ١٨٥ — ١٨٦) .

(٨) العبر ، ٤/ ٢٥٨ (= نفح الطيب ، ٢٣٦/١) . كذلك : نفح الطيب ، ١٦/٣ .

عدة لأمورهم ومتعلقات جهادهم ، وموضع وتاريخ استشهادهم . وغير بعيد كذلك أن يكون بعض هؤلاء وغيرهم – جنداً وقادة – من التابعين .

لم يكن عهد الولاة إذن يخلو من عمليات جهاد – جديدة أو متممة – متفرقة ، داخل الجزيرة . شَغَلَت عنها – فيما بعد – عدةُ أُمور ، مع ظروف أخرى في الداخل والخارج كان لها أخطر النتائج .

٢ – الجهاد خلف البُرْت

بلغت قوة المد الإسلامي وراء البُرْت – خلال عهد الولاة – مبلغاً عالياً وحازت سبقاً كبيراً ، كان للمسلمين فيه نشاط واضح ، وقَدَّم عددٌ من الولاة كلَّ التضحيات في هذا السبيل ، واستُشْهِد بعضهم في ميدان الجهاد في سبيل الله من أجل نشر العقيدة الاسلامية وحباً في خدمتها .

بذل **السَّمْحُ بن مالك الخَوْلاني** (رمضان ١٠٠ – ذو الحجة ١٠٢ هـ) نشاطاً واسعاً في جنوبي فرنسا ، وأنفق جُهوداً كبيرة في غَالة (Gaule) حتى طَرَسْكُونَة (Tarascon) وطُولُوشَة (Toulouse) عاصمة أقيطانية (Aquitania) . وحدثت معارك عديدة هناك ، منها معركة بين المسلمين وبين دوق أقيطانية ، واشتد القتال ، واستشهد كثرة من المسلمين ، معهم الوالي السَّمْح بن مالك الخَوْلاني ، في يوم التَّرْوِية أو عَرَفَة سنة ١٠٢ هـ (١٠ حزيران ٧٢١ م) . ذَكَر ابنُ بَشْكُوال أن السمح « **استُشْهِد بأرض الفِرَنْجَة يومَ التَّرْوِيَة سنة اثنتين ومئة .** »[1] والظاهر أن قول ابن حَيان الآتي – فيما يرويه المَقَّري – يتعلق بهذه المعركة ، ولو أنه يُسميها « وقعة البَلاط » سهواً أو اشارة لغيرها « قال ابن حيَّان : كانت ولايته سنتين وثمانية أشهر ، وذُكِرَ أنه قتل في الوقعة المشهورة عند أهل الأنْدَلُس بوقعة البَلاط ، وكانت جنود الإفْرَنْجَة قد تكاثرت عليه فأحاطت بالمسلمين ، فلم يَنْجُ من المسلمين أحد »[2] . فهل أن هذا يخص الوقعة التي استُشْهِد فيها السَّمحُ (ذو الحجة ١٠٢ هـ)

(١) نفح الطيب ، ٣/١٥ .

(٢) المصدر نفسه .

أو يخص وقعة « بَلاط الشهداء » (رمضان ١١٤ هـ)[1]. غير بعيد أن يكون استشهاد السمح هو المقصود ، لأن المَقَّرِي أورده حين الحديث عن استشهاده . ولعله تُعين قرائن أخرى في النص . وقد اختلف في تعيين مكان وتاريخ المعركة[2] التي استُشْهِد فيها السمح بن مالك ، وهو بحاجة إلى تجَوُّل بين المصادر وانتظار مصادر أخرى جديدة .

ذكرت مصادر : أن السمح استُشْهِد في طَرَسُونَة[3] (Tarazona) ، في أرض الروم . لكن طَرَسُونَة مدينة في شِمالي شِبه الجزيرة الأندلسية ، افتتحها المسلمون مبَكِّراً ، لعله مدة الفتح الأول . ومصطلح « الروم » يستعمل — أحياناً — لكل الشعوب الأوربية ، وهو غير مقصور على سكان شِبْه الجزيرة الأندلسيَّة ، كما سبقت الإشارة إليه[4] .

مصادر أخرى لا تَذْكُر مدينة ما — مكاناً لاستشهاده — إنما تُشير إلى أن السَّمْحَ استُشْهِد بأرض الفِرَنْجَة في ذي الحجة سنة اثنتين ومئة ، كما في نص ابن بَشْكُوال السابق وآخرين[5] . تعني كلمةُ « الفِرَنْجَة » — عموماً — عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين سكانَ بلدان وراء البُرت (الأرض الكبيرة)[6] ، لا سيما فرنسا . وتوجد جِنوبي فرنسا مدينة اسمها قريب من طَرَسُونَة ، هي : طَرَسْكُونَة . لعل تحريفاً حدث أو سوء نقل جرى أثناء النسخ : من طَرَسْكونَة (جنوبي فِرنسا ، الفِرَنْجَة) إلى طَرَسُونَة (شِمال شَرقي سَرَقُسْطَة ، الأندلس) .

كانت طَرَسُونَة قاعدة من قواعد شِمال الجزيرة الأندلسية . وهي مدينة (عاصمة) كُوَرة تُطِيلَة[7] (Tudela) . ربما كانت أَرْبُونَة تابعةً لطَرَسُونَة إدارياً . فطَرَسُونَة « كانت مستقر العُمَّال والقُوَّاد بالثُّغُور ، وكانت أبو عثمان

---

(١) لعل سقطاً جرى خلال النقل .

(٢) انظر : تاريخ علماء الأندلس ، ١/١٩٥ ؛ جذوة المقتبس ، ٢٣٧ .

(٣) تاريخ علماء الأندلس ، ١/١٩٥ (رقم : ٥٨٦) ؛ البيان المغرب ، ٢/٢٦ .

(٤) أعلاه ، ١٨٤ .

(٥) تاريخ علماء الأندلس ، ١/١٩٥ (نقلا عن الرازي) ؛ البيان المغرب ، ٢/٢٦ ؛ العبر ، ٤/٢٥٧ (= نفح الطيب ، ١/٢٣٥) .

(٦) *Andalusian*, 119 — 20, 272.

(٧) نفح الطيب ، ١/٢٦٦ .

عبيد الله بن عثمان المعروف بصاحب الأرض اختارها مَحَلاً وآثرها على مدن الثُّغور منزلاً ، وكانت تَرِدُ عليه عُشُر مدينة أُرْبُونَة وبَرْشَلُونَة »[1] .

أما تاريخ المعركة — التي استُشْهِد فيها السمح — فراجح أنه ذو الحجة سنة اثنتين ومئة ، في يوم التَّرْوِيَة[2] أو عَرَفَة[3] . لذلك مدلوله ، وأيُّ مدلول[4] .

آ — حكومة سبتمانية الإسلامية

ولاية أو مقاطعة سَبْتَمانِيَة (Septimania) جنوب شَرقي فرنسا ، تِلْوَ جبال البُرْت . تعني : المقاطعة ذات المدن السبع ، منها : أُرْبُونَة وقَرْقَشُونَة[5] . وكانت سبتمانية هذه أول ما وصلها مَدُّ الجهاد الإسلامي ، منذ أيام السمح بن مالك الخَوْلاني — إن لم يكن قبلها — الذي أشرف على قيام حكومة إسلامية فيها . نَظَّم أحوالها ، متخذاً من مدينة أُرْبُونَة (Narbonne) عاصمة لها[6] .

ويشير هذا إلى أن المسلمين افتتحوا — منذ هذا الوقت المبكر لعهد الولاة — كُلَّ مابين أُرْبُونَة إلى الجنوب متصلاً بالبُرت والأندلس ، على طول الشاطىء الشرقي . وغدت منطقة إسلامية ضمن هذه الحكومة ، التي اتُخِذَت عاصمتُها أُرْبُونَة قاعدةَ الجهاد وراء البُرْت .

ليس لدينا تفصيل عن شؤون هذه الحكومة الإسلامية في سَبْتَمانِيَة . إلا أن ابن الخطيب (٧١٣ — ٧٧٦ هـ) يذكر — نقلاً عن كتاب مفقود لأحمد الرازي (٢٧٤ - ٣٤٤ هـ) هو : **الاستيعاب في الأنساب** — حين الحديث عن بيت زيد الغافقي من أهل إشبيليَة أنه كان « بإشبيلية بيتُ زيد الغَافقي ، وهم هناك جماعة كبيرة فرسانٌ ، ولهم شرف قديم ، وقد تصرفوا في الخدمة **بأُرْبُونَة** ثم انتقلوا إلى طُلَيْطُلَة ثم قُرْطُبَة

---

(١) الروض المعطار ، ١٢٣ .

(٢) نفح ، ١٥/٣ (نقلا عن ابن بشكوال) ؛ جذوة ؛ ٢٣٧ (= بغية ، ٣١٦) .

(٣) تاريخ علماء الأندلس ، ١٩٥/١ ؛ البيان المغرب ، ٢٦/٢ .

(٤) انظر : أدناه ، ٢١١ — ٢١٢ .

(٥) راجع : دولة الاسلام في الأندلس ، ٧٣/١ ، ٨١ .

(٦) قضاة قرطبة ، ٩ .

ثم غَرْنَاطَة . »[1] كما ذكر ابن حَزْم في **جمهرة أنساب العرب** بني بَجِيلَة فقال : « ودارُهم بالأندلُس بجهة أُرْبُونَة . »[2]

وذُكر من قادة هذه الحكومة : عبد الرحمن بن عَلْقَمة اللّخْمِي ، الذيوُصِفَ أنه « صاحب أُرْبُونَة . وكان فارس الأندلس في وقته »[3] . ثم أن ابن عَلْقَمَة هذا هَوَى في فتنة الخصومة العمياء التي قاست منها الأندلس أواخر عهد الولاة [4] ، وثار على آخر ولاته « وذَكَر ابنُ حَيَّان أنَّه كان ممن ثار على يوسف الفِهْرِي عبد الرحمن ابن عَلْقَمَة اللَّخْمِي فارس الأندلس ، ووالي ثَغْر أُرْبُونَة ، وكان ذا بأس شديد ووَجَاهَة عظيمة ، فبينما هو في تدبير غزو يوسف إذ إغتاله أصحابه وأقبلوا برأسه إليه . »[5] وكان — فيما بعد — من نتائج هذه الأحداث ومن أحوال الشرق الإسلامي وما حل بالأندلس من الوباء[6] والقحط[7] وغيرها زعزعةُ كيان المسلمين وراء البُرْت ، ثم ذَهابه عنها .

لا تقدم مراجعنا المتوفرة - بعد ذلك - شيئاً عن حياة السَّمْحِ وخِلالِه وأحواله . وذُكِر للسمح في الأندلس عَقِبٌ ، منهم : أبو بحر يوسف بن عبد الصمد . أحد الأدباء أيام الطوائف ، وترجمت له بعض المؤلفات الأندلسية ، **كالذخيرة** لابن بَسَّام الشَّنْتَرِيني (٥٤٢ هـ) **والمُغْرِب في حُلَى المَغْرِب** لابن سعيد الأندلسي وأخرى[8] . كما ذكر من عَقِبه : علي بن محمد بن يوسف بن علي بن فُتوح بن سعيد بن عبدالله بن أحمد بن زيد بن السمح بن مالك الخَوْلاني و « كان من أهل العلم حَيّاً سنة عشر وست مئة . »[9]

---

(١) الاحاطة ، ١٣٣/٢ . اسم **أربونة** وارد في طبعة **الإحاطة** القديمة (٩٤/٢) دون الجديدة ، حيث وضع بدلها : بلدّيون .

(٢) جمهرة ، ٣٩٠ . (٣) نفح الطيب ، ٢١/٣ .

(٤) انظر : دولة الإسلام في الأندلس ، ١٢٢/١ — ١٢٨ .

(٥) نفح الطيب ، ٢٦/٣ . كذلك : نفح ، ٢٢/٣ ؛ البيان المغرب ، ٣٨/٢ .

(٦) البيان المغرب ، ٣٧/٢ .

(٧) البيان المغرب ٣٨/٢ . (٨) المغرب ، ٢٠٣/٢ .

(٩) الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك الأنصاري ، ٤٠٢/١/٥ .

كان الخليفة عمر بن عبد العزيز ـ وهو التقيُّ الغيور على الدولة الإسلامية وأهلها، نتيجة حرصه على إسلامه ـ قَلِقاً على وجود المسلمين في الأندلس لنأيها عن مركز الخلافة ، وأشرف على رعاية الأندلس مباشرة . فاختار السمحَ بن مالك الخَوْلاني ، لمعرفته بهذه الشخصية التقية النقية المجاهدة الباسلة الممتلئة إيماناً وحماسة ورغبة للعمل الخيِّر والجهاد الفاتح ، وأحسن الخليفة ابن عبد العزيز الاختيار ، « ثم ولّى أميرُ المؤمنين عمرُ بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ السَّمْحَ بن مالك على الأندلس ، وأمره أن يحمل الناسَ على طريق الحق، ولا يَعدِل بهم عن منهج الرفق ... فقَدِم السمحُ الأندلسَ ، وامتثل ما أمره به عمر ـ رضي الله عنه ـ من القيام بالحق ، واتباع العدل والصدق ، فانفرد السَّمْحُ بولايتها ، وعزَلَها عمر عن ولاية إفريقية . اعتناءً بأهلها وتهمُّماً بشأنها . »[1]

كان عمر بن عبد العزيز نفسُه من طراز أولئك الخلفاء ـ مضرب الأمثال ـ المتميزين بالتقوى والفضل والعكوف على رضى الله تعالى وطاعته والعمل على مَرْضاته والتقرب اليه بخدمة الإسلام والمسلمين ومَن يساكنهم في دولتهم . يرتفع نسبه الى الخليفة عمر بن الخطاب[2] . فعمر بن الخطاب أبو جَد عمر بن عبد العزيز لأُمِّه .

قائمة نسب عمر بن عبد العزيز

عمر بن الخطاب + (٧ هـ) أم عاصم : جميلة بنت ثابت بن أبي الأقْلَح
(ذوالحجة ٢٣ هـ) (أنصارية من الأوْس)

|

عاصِم + الهلاليَّة
(المدينة المنورة ، ٨ ـ الرَّبَذَة ، ٧٠ أو ٧٣ هـ)

|

أم عاصِم (ليلى) + عبد العزيز بن مروان بن الحكم
(مصر جمادى الأولى ٨٥ هـ)

|

عمر بن عبد العزيز
(المدينة المنورة ، ٦٣ : صفر ٩٩ ـ رجب ١٠١ هـ)

---

(١) البيان المغرب ، ٢٦/٢ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ، ابن عبد الحكم ، ٢٢ ـ ٢٥ ؛ طبقات ابن سعد ، ٢٦٥/٣ ، ٢٣٦/٥ ، ٣٣٠ ؛ العبر ، الذهبي ، ٧٨/١ ، ١١٨ ، ١٢٠ ـ ١٢١ ؛ أخبار عمر ، الأخوان : علي وناجي الطنطاويين ، ٤٦٦ ، ٤٧١ ؛ نقط العروس ، ابن حزم ، مجلة كلية الآداب (القاهرة) ، ٦٩/٢/١٣ .

تَوَلّى الأنْدَلُس بعد السمح – مؤقتاً ولأشهر – عبد الرحمن الغافقي (ولايته الأولى) حتى قَدِمَه **عَنْبَسَة بن سُحَيْم الكلبي** (صَفَر ١٠٣ – شعبان ١٠٧ هـ) . فقام عَنْبَسَة بنشاط جِهادي كبير وراء البُرت ، واستمر في تقدمه نحو الشمال والشمال الشرقي في فرنسا . وكان أبعد حدٍّ جاهدت فيه الجيوش الاسلامية ، عند مدينة سانس (Sens) .

كان عَنْبَسَة من طراز السَّمْح : تقياً وَرِعاً إدارياً وعسكرياً مجاهداً حريصاً أميناً على الدولة الإسلامية وأهلها ، كما يظهر من جهوده وأعماله وخِلاله . قَدِمَ عَنْبَسَة « فاستقام أمر الأندلس ، وغزا الفِرَنْجَة ، وتَوَغَّلَ في بلادهم ، واستُشْهِد سنة سبع ومئة لأربع سنين وأربعة أشهر . »[1] تتحدث عبارة ابن خَلْدون هذه عن وصول عَنْبَسَة الى أماكن بعيدة داخل فرنسا ، من غير تحديد للمكان ، الذي ذَكَرت مصادر أوربية[2] أنه حتى مدينة سانس . وما تقدمه مصادرنا الأندلسية من معلومات عن هذا الأمر قليلة مقتضبة ، والظاهر أن ابن خَلْدون اعتمد على ابن حَيَّان وابن بَشْكُوال وغيرهم ، ممن فُقدت مؤلفاتهم ، عدا نقول حفظَها المَقَّري وغيره . وعبارة ابن بَشْكُوال تماثل قول ابن خَلْدُون السابق – في أكثره – وتضيف عليه : « قال ابن بَشْكُوال : فاستقامت به الأندلس ، وضَبَطَ أمرها ، وغزا بنفسه الى أرض الإفْرَنْجَة ، وتُوفِيَ في شعبان سنة سبع ومئة ، فكانت ولايته أربعة أعوام وأربعة أشهر وقيل : ثمانية أشهر . »[3]

غير واضح – قطعاً – متى ابتدأ عَنْبَسَة جهاده وراء البُرْت وكم استغرق ، وهل خرج لذلك الجهاد خَرْجَة واحدة أو أكثر ، وهل قاده كله بنفسه أو أسبق إليه أحداً بواسطة القوات الإسلامية المرابطة في ثغر أُرْبُونَة .

لكن ابن عِذَاري يُشير الى هذا باقتضاب مهم ، أنه « في سنة خمس ومئة ،

---

(١) نفح ، ٢٣٥/١ (نقلا عن ابن خلدون = العبر ، ٢٥٧/٤ ، سقطت بعض كلماته) .

(٢) *Muslim colonies*, Reinaud,14 (الترجمة العربية : تاريخ غزوات العرب ، ١٠٦) . كذلك : فجر الأندلس ، ٢٤٧ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ٨٢/١ .

(٣) نفح الطيب ، ١٦/٣ .

خرج عَنبَسَة غازياً للروم بالأندلس ، وأهلُها يومئذ خيارٌ ، فضلاءُ ، أهل نيَّة في الجهاد وحِسبةٍ في الثواب ، فألَحَّ على الروم في القتال والحصار ، حتى صالحوه . وتُوُفي عَنْبَسَة في شعبان سنة سبع ومئة »[1] . ويُستدل — بهذا — أنه أنفق المدة التي سبقت خُروجه للجهاد — حوالي سنتين — في رعاية شؤون الأندلس بنفسه ، وحين سار للجهاد لابد أنه ترك في قُرْطُبَة نائباً أو أكثر لرعاية أمور الأندلس ، ولعل هذا كان يتم مع كل حالة مشابهة لبقية الولاة في جهادهم ، لكن لم تظهر تفصيلات عنه ، **وهو ميدان لدراسة الناحية الإدارية في الأندلس** .

وغير واضح لدينا خَطُّ جهاد عَنْبَسَة الذي يُذْكَر أنه سار من الأندلس نحو سَبْتَمانِيَة ، متجهاً شرقي فرنسا ثم شماليها ، طالعاً جوار نهر رُودَنُه ْ(الرون Rhone) مائلاً غرباً حتى سانس . وعَنْبَسَة ليس هو الوحيد من ولاة الأندلس المجاهدين وراء البُرْت الذي سلك هذا الطريق .

وعند بلوغ هذه الغاية ، يعود عَنْبَسَة الى الأنْدَلُس ، لسبب أو لآخر ، من الأسباب التي حَدّت كثيراً من نشاط المسلمين هناك . ولولاها لكان له وراء البُرْت صورة أكبر وأكثر أهمية وأبعد أثراً . عاد عَنْبَسَة تُجاه الأندلس ، إلا أنه استُشْهِد في الطريق اليها قبل أن يُدركها في شعبان سنة سبع ومئة (كانون الأول ، ديسمبر ٧٢٥ م) في معركة جرت في مكان هناك . عند ذلك وَلّى أهلُ الأندلس **عُذْرَة بن عبد الله الفِهْري** لشهرين حتى جاءهم تعيين الوالي الجديد يَحيَى بن سَلَمَة (شوال ١٠٧ — آخر ١٠٩ هـ) . ولابد أن عُذْرَة كان مع الجيش الذي قاده عَنْبَسَة كيما يمكنه — على ما يُذْكَر[2] — مِن مواصلة الجهاد خلف البُرْت .

تَمضي سنوات قليلة لانَملك أخباراً عن نشاط جهادي جرى فيها خلف البُرْت ، حتى سنة مئة وإحدى عشرة وولاية **الهَيثَم بن عَدِي** (عبيد) **الكِنَاني** (محرم ١١١ هـ : ولايته حوالي عشرة أشهر)[3] .

---

(١) البيان المغرب ، ٢٧/٢ .

(٢) انظر : *Muslim colonies,* 35 (تاريخ غزوات العرب ، ٣٨) .

(٣) نفح الطيب ، ٢٣٥/١ . كذلك : الذيل والتكملة ، ٣٢٧/٦ (رقم : ٨٤٤) .

ب ـ مُنُوسَة

تَرِدُ إشارَةٌ غامضة في بيان ابن عِذاري بأن والي الأندلس الهيثم « غزا مُنوسَة »[1].
كما ورد في عِبَر ابن خَلْدُون أن الهيثم « غَزا أرض مَقُوشَة فافتتحها »[2] .
فهل أن هذا الاسم ـ « مُنوسَة » أو « مُقُوشَة » ـ لشخص أو مكان ، ومَن وأين ؟
أشارت بعض الدراسات الاوربية[3] والحديثة[4] أنّ « مُنُوسَة » (Munuza, Manusa)
ـ اعتبرته اسماً لأحد القادة المسلمين من البربر ـ دخل الأندلس مع طارق بن زياد ،
وعُيِّن والياً لشمال الجزيرة الأندلسية . وأداروا نقاشاً حول شخصيته وأحداثاً تتعلق
به في ولاية الغافقي ، بلغت ـ في زعمهم ـ حَدَّ الخصومة مع الغافقي والمصاهرةَ مع
أودو (Eudes) دوق أقيطَانيَة (Aquitaine) ، ثم كان مصرعه بأيدي فرقة من
الجند المسلمين .

سطَّرت الرواية الأوربية ـ كَنَسِيَّةً[5] كانت أو غيرها ، وتابعها آخرون ـ
حول مَنُوسَة أوهاماً ، وتوسعت في تفصيلات مَنْحولة[6] . استنتجت منها أموراً
وأقامت فوقها آراءً ، اتخذتها حُججاً لبناء حقائق مزعومة موهومة ، كما خَلَّطت
بينه وبين عثمان بن أبي نِسْعَة الخَثْعَمِي[7] أحد الوُلاة الأنْدَلُسيين ومدته خمسة
أشهر ابتدأت من شعبان سنة ١١٠ هـ[8] ، فهما ـ عندها ـ شخص واحد أو شخصان ،

(١) البيان المغرب ، ٢/٢٨ .

(٢) العبر ، ٤/٢٥٨ (= نفح الطيب ، ١/٢٣٥) . وغير بعيد أن « مقوشة » تصحيف « منوسة » .

(٣) *Muslim colonies*, 45 ; *Histoire de l'Espagne Musulmane*, I, 60 n. 1, 67 (Sp. tr., IV, 41, 57 n. 54).

(٤) فجر الأندلس ، ٢٥٠ ، ٢٦٤ ، ٣١٥ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ١/٨٥ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس ، ١٣٩ .

(٥) انظر : *Muslim colonies* 7, 18 (الترجمة العربية : تاريخ غزوات العرب ، ٣٨ ، ٦٩) ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ١/٩٩ ، ١٠١ .

(٦) *Muslim colonies*, 45 (تاريخ غزوات ، ١٢٧) ؛ *Los Mozarabes*, Isidro de las Cagigas, I, 89.

(٧) انظر : *Muslim colonies*, 45 (تاريخ غزوات ، ١١٥ ، ١٢٧ – ١٢٨) ؛ دولة الاسلام ، ١/٨٦ ; *History of the dominion of the Arabs in Spain*, Conde, I, 107

(٨) أدناه ، ٢٠٩ .

إلى غير دلك من الأقاصيص الوهمية . لكن كل ما صاغته واخترعته حول شخصية مُنُوسَة الخرافية[1] يغدو – عند المتابعة – حُطاماً يتعثر الباحث بأنقاضه . فيتبدى أن مُنُوسَة اسم مكان وليس – أصلاً – اسم إنسان .

لايظهر وجودُ أساس قويٍّ لاعتبار صِحَّة مثل هذه القصة التي قَبِلَها عدد من الباحثين المحدثين ، أخذاً بالرواية الأوربية .

ولم يتيسر الوصول إلى نص أندلسي يُشير إلى وجود مثل هذه الشخصية أو يشرح أحداثاً قام بها . وحَمَلَ اسم مُنُوسَة (مُقُوشَة) – حسب نصيْ : ابن عِذَارِي (بعد ٧١٢ ه) وابن خلدون (٨٠٨ ه) – على أنه اسم قائد مرجوحٌ ، والعبارتان تدلان بشكل أقوى أنها اسم مكان . فهل تكون هي مدينـة ماسون (Maçon) الفرنسية ، الواقعة شِمال مدينة لُوذون (لِيُون Lyon) على وادي رُودَنُه (نهر الرون Rhone) . فتكون هذه من المناطق التي وصل إليها الهيثم ، وهي مع غيرها جنوباً وشمالاً – شَمَلَها جهادُ المسلمين وراء البُرْت لهذا العهد .

ج – وَقْعَة بَلاط الشهداء

يبلغ المَدُّ الإسلامي نقطةً بعيدة في أضخم حملة وراء البُرْت مدةَ الوُلاة ، أيام الوالي المجاهد **عبد الرحمن الغافقي** (صَفَر ١١٢ – رمضان ١١٤ ه = مايس ٧٣٠ – تشرين الأول ٧٣٢ م) ، حيث جَدَّد نشاط الفتح الإسلامي . وتُعْرَف هذه المعركة باسم « **وَقْعَة البَلاط** »[2] أو « **غزوة البَلاط** »[3] . كما عرف الموضع الذي جرت فيه باسم « **بَلاط الشهداء** »[4] . جرت أحداثها – التي استمرت **حوالي عشرة أيام** – في رمضان سنة ١١٤ ه (تشرين الأول – تشرين الثاني = اكتوبر – نوفمبر ٧٣٢ م)[5] ،

(١) انظر : العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، عمر فروخ ، ١٢٧ .
(٢) نفح الطيب ، ١٥/٣ (نقلا عن ابن حيان : النص المذكور أعلاه ، ١٨٥) .
(٣) نفح الطيب ١٦/٣ (نقلا عن ابن بشكوال) .
(٤) نفح الطيب ، ٢٣٦/١ (نقلاً عن ابن خلدون) ؛ ١٦/٣ (لعله نقلاً عن ابن حيان) ؛ البيان المغرب ، ٥١/١ .
(٥) قارن : *Histoire de l'Espagne Musulmane*, I, 62 (Sp. tr., IV, 37).

واستُشهد الغافقي نفسه، في موضع يقع بين مدينتيْ تور (Tours) وبواتييه (Poitiers) ، فوق ۲۰۰ كم جنوبي باريس ، وانتهت الوقعة بانكسار الجيش الإسلامي وانسحابه من ميدانها .

مكان المعركة

لم يمكن تحديد موقع الميدان الذي دارت فيه أحداث معركة بَلاط الشهداء بدقة . فمراجعنا الأندلسية – والإسلامية عموماً – لم تفصح عن ذلك ، لكنها ذكرت أن المعركة دارت في بلاد الفِرَنْجَة وسَمَّت الموضع « **بَلاط الشهداء** » .

تحدث بعض الباحثين الأوربيين في تحديد المكان ، إلا أنهم اختلفوا في ذلك ، ولم يخرج هذا الاختلاف في التحديد عموماً عن المنطقة الواقعة بين مدينتَي : تور (Tours) – على نهر اللوار (Loire) – وبواتييه (Poitiers) – على كلين (Clain) رافدفيين (Vienne) أحد فروعه – والمسافة بين المدينتين حوالي ۹۰ كم . لذلك تسمى المعركة – في الرواية الأوربية – باسم إحدى المدينتين أو كليهما . فذُكر أنها بدأت عند تور[1] ، كما ذُكر الميدان قرب بواتييه[2] . ويذهب إلى الأخير العديد . وذُكر أن ميدان المعركة قرب طريق روماني يصل بين بواتييه وشاتلرو (Chatellerault) – على نهر فيين ، فرع اللوار – وبينهما حوالي ۳۰ كم ، في مكان يبعد حوالي ۲۰ كم شمال شرق بواتييه . يُحتمل في المكان المسمَّى حالياً موسّيه لاباتاي (Moussais — la — Bataille)[3] . وأشير أخيراً إلى قرية Fossé – le — Roi

---

(۱) يزعم رينو (Muslim colonies, Reinaud, 49 n. , 50 ، تاريخ غزوات ، ۱۱۸ ، ۱۳۱) أن مصدره في ذلك مؤرخون عرب ، ولم يذكر أحداً ، بل يشير الى كوندي (Conde) وليس هناك شيء . وهو غير موثق (تاريخ غزوات ، ۳۷ ، ٤٢) اذ يقول المستشرق الاسباني كوديرا (Codera) عن كوندي (أورده ارسلان : تاريخ غزوات ۳۷ حاشية) « انه لم يكن أشأم على تاريخ الأندلس من كتاب كوندي هذا . » ومن الغريب أن يكثر رينو النقل عنه ويتابعه في غير تمحيص ، بل ويثني عليه (*Muslim colonies*, 6 ، تاريخ غزوات ، ۳۷) ، مع اشارته لعدم ذكر كوندي مراجعه (*Muslim lolonies*, 8 ، تاريخ غزوات ، ۳۸) . فوقع رينو في كثير مما وقع فيه كوندي .

(۲) *Muslim colonies*, 51 (تاريخ غزوات ، ۱۳۱) .

(۳) *Histoire*, I, 61 — 2 (Sp. tr. , IV, 37).

(خندق الملك) الواقعة بين مدينتيْ : تور (طور) وبواتييه (بواتيه) ، « وقد استكشف هناك حديثاً في الحفريات بعض السيوف العربية »[1]. فلعل موضع هذه القرية يقع ضمن ميدان معركة بَلاط الشهداء ، إلا أنه لم يُحدَّد موقعها .

مصادرها

لاتمدنا المصادر الأندلسية – المتوفرة لدينا – بمعلومات واضحة أو تفصيلات شافية عن هذه الوقعة ، ولاتلقي عليها غير ضياء جِدٍّ خافت ، وإن كان أقل خُفوتاً حين تتحدث عن الوالي الغافقي وجهوده في الأندلس أمام البُرْت وجهاده وراءها . كان ذلك ومعركة « بَلاط الشهداء » مهمة في أحداثها ونتائجها واحتوائها على التجهيزات الضخمة والإعداد الكبير والتضحيات العالية الغالية ، قدّمها المسلمون . وليس بعيداً أن هناك معلومات قَيِّمَةً دُوِّنَت عنها وضاعت مع ماضاع من هذه المصادر . سَيُلْقي العثورُ عليها ضوءاً جديداً يساعد علي رؤية صورة أوضح لأحداثها وحقائق مجهولة لنتائجها . أمثال : مؤلَّفات آل الرازي – لاسيما أحمدهم (٢٧٤ – ٣٤٤ هـ) – و**مُقْتَبِس** ابن حَيَّان القُرْطُبي (٣٧٧ – ٤٦٩ هـ) ومـا كتبه ابن بَشْكُوال (٤٩٤ – ٥٧٨ هـ) وآخَرون .

المصادر الإسلامية

أورد المَقَّرِي – نقلاً عن ابن حيَّان ، فيما يبدو – أن الغافقي « غزا الإفْرَنْج فكانت له فيهم وقائع جَمَّة الى أن استُشْهِد ، وأُصيب عسكرُه في شهر رمضان سنة أربع عشرة ومئة ، في موضع يُعرف ببَلاط الشهداء . »[2] فاذا كان هذا كلام ابن حَيَّان فاننا نجد نصاً لابن خَلْدون يكاد يطابقه : « وغزا الإفْرَنْجَة وكانت له فيهم وقائع ، وأُصيب عسكرُه في رمضان سنة أربع عشرة [ومئة] ، في موضع يُعرف ببَلاط الشهداء ، وبه عُرفت الغزوة »[3] . وهذا يشير الى أن ابن حَيَّان كان مصدراً – أساسياً مهماً – لابن خَلْدون في كتابة تاريخ الأندلس في **عِبَره** الى حد

---

(١) تعليق لدكتور ، لم يذكر اسمه ، في مجلة (المسلمون) ، ٧٩/٣/٥ .

(٢) نفح الطيب ، ١٦/٣ ، وسبق ايراد قول غيره لابن حيان يتحدث فيه عن « البلاط » . انظر : نفح الطيب ، ١٥/٣ (= أعلاه ، ١٨٥) .

(٣) نفح الطيب ، ٢٣٦/١ (نقلا عن ابن خلدون : العبر ، ٢٥٨/٤) .

أنه يكاد ينقل بالنص ، ربما مع اختصار . كذلك أورد ابن عِذَاري فحوى هذا الخبر — حين الحديث عن الغافقي — بقوله : « فغزا الروم ، واستُشْهِد مع جماعة من عسكره ، سنة ١١٥ ، بموضع يُعرف ببَلاط الشُّهداء . »(١)

والراجح أن عدد الجيش الفِرَنجي كان يفوق كثيراً الجيش الإسلامي(٢) . ولا بد أن شارل مارتل كان يستعد ويخطط مبكراً ، لما كان يرقب من جهاد المسلمين المستمر في الأرض الكبيرة منذ سنوات . هذا بجانب أن العديد من العوامل الأخرى ، كانت في صالح الإفرنجي . من معرفته للموقع وإلفته التحركَ فيه — طبيعةً ودروباً — في جَوِّه الشاتي المطير وأرضه الموحلة ووعورة تلالها(٣) ، حيث جرت معركة بَلاط الشهداء في النصف الثاني من خريف سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) ، الى قرب المدد من كل نوع . وكلها أمور مهمة وأساسية حُرِم منها الجيشُ الاسلامي ، بعد ما غدا بينه وبين عاصمة أندلسه ما يزيد عن **ألف** كيلومتر .

أما الغافقي فقد « ذكر ابن بَشْكُوال أنه من التابعين الذين دخلوا الأندلس ، وأنه يَروي عن عبد الله بن عمر ، رضي الله عنهما »(٤) . ووصفه الحُمَيْدي بالصلاح وجمال السيرة والعدل وحبه الشديد للجهاد في سبيل الله(٥) . وذكَر البعضُ أنه دخل الأندلس عند ولايته الثانية(٦) . وقد يكون كذلك ، وليس ضرورياً ، ولعله كان أصلاً في الأندلس .

الرواية الأوربية

تُفيضُ الرواية الأوربية كتابةً عن وقعة « بَلاط الشهداء » . وكَثْرَةٌ مِن

(١) البيان المغرب ، ١/٥١ . كذلك : الكامل في التاريخ ، ٥/١٧٤ — ١٧٥ . قارن : البيان ، ٢/ ٢٨ .

(٢) انظر : دولة الاسلام في الأندلس ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٥ . كذلك : فجر الأندلس ، ٢٦٣ .

(٣) راجع : « العوامل السوقية والتعبوية وأثرها على الفتوحات العربية الإسلامية من فرنسا » ، علي المياح ، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية ، ٥/١٢٩ .

(٤) نفح الطيب ، ٣/١٥ ؛ جذوة المقتبس ، ٢٧٤ ؛ أعلاه ، ١٥٣ .

(٥) جذوة المقتبس ، ٢٧٤ .

(٦) نفح الطيب ، ٣/١٦ (نقلا عن ابن حيان) ؛ العبر ، ٤/٢٥٨ (= نفح الطيب ، ١/٢٣٦) . كذلك : الذيل والتكملة ، ٦/٣٢٧ .

شروحها الحالية مستمدة أو متأثرة بهذه الرواية التي تتسم – وأحياناً الى حد مُوغل – بالتحامل والكراهية والبعد عن الحقائق أو إهمالها ، ملفوفة برداءٍ أسطوري[1] . لذا فهي غير مأمونة ، سواء فيما يتعلق بالوقائع التاريخية أو بتعليلاتها ، ولا بد من التدقيق والتحفظ .

ذَكرت الرواية الأوربية ، ومَن تابعها مِن الباحثين والمشتغلين بالتاريخ ، في تعليل خسارة المسلمين في وَقْعة بَلاط الشهداء أسباباً (وهي مرتبطة بمجراياتها ونتائجها) ورَكّزت فيها على قضيتين :

الأولى : وجود خلاف بين الجيش الاسلامي (العرب والبربر) .

لكن مع عدم توفر أخبار أو أحداث تتعلق بهذا الخلاف – بل قاتل الجميع بشجاعة وفداء – فإنه زعم قائم على قصة مُنُوسَة المفتراة[2] .

الثانية : الغنائم التي أثقلت الجيش الإسلامي وكان عليها حريصاً . وكيف جرت بسببها حركة التفاف حولها خلف المعسكر ، فتراجع يحميها واختل تماسُكه واستُشْهِد الغافقي وهُزِم الجيش .

قصة الغنائم أسطورة لا أصل لها . وهذا مع مجانبته لكل ما عرفناه عن الفتح الاسلامي والتمسك بأهدافه العليا القائمة على الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته والخطط المحكمة المتَّبعة فيه ، ولِما ألفناه من الفاتحين في فرنسا . بل وحتى حسب ما تورده الرواية الأوربية من أمور ، يمكن – بناء على ماتذكره – إجراء المناقشة التالية .

١ – تذكر هذه الرواية ترك الجيش الإسلامي خيامَه منصوبةً والغنائم في مكانها مطروحةً[3] .

كان لدى الجيش الإسلامي مجال لحملها . بل ولعل انسحابه السريع كان عملية محمودة[4] لإنقاذ الجيش وعدم الاستمرار في معركة ظهرت بوادرُ صعوبةِ الاستمرار

---

(١) انظر : دولة الإسلام في الأندلس ، ١٠١/٢ ؛ فجر الأندلس ، ٢٧٣ ؛ أدناه ، ٢٤٣ .

(٢) أعلاه ، ١٩٢ – ١٩٣ .

(٣) *Muslim colonies*, 52 . (الترجمة العربية : تاريخ غزوات العرب ، ١٣٢) .

(٤) انظر : « العوامل السوقية والتعبوية » ، ١٢٩/٥ .

فيها بظروفها القاسية وبعد استشهاد قائدها الغافقي ، كان الجيش الإسلامي مستمراً في القتال ونال من الفرنج رغم هذه الظروف . ولكن لمّا زاد استشهاد الغافقي صعوبةَ الموقف فضلوا الانسحاب ، ولعل تركهم للخيام كان خطةَ حماية لم يدركها الفرنج الا صبيحة اليوم التالي وهم يستعدون للهجوم والقتال . وهو أمر يشير إلى أن انسحاب الجيش الإسلامي كان من غير ظهور بوادر انكسار بيِّنة . وهذا يفنِّد التهويل في المبالغة المغرِقة بكثْرة قتلى الجيش الإسلامي التي تشير اليها الرواية الأوربية . لكن اهتمام الفرنج بهذه المعركة وفرحهم بنتيجتها انه – بسببها وبغيرها – تَوَقَّفَ المدُّ الإسلامي عن الاستمرار في التقدم داخل الأرض الكبيرة الذي كان متوقعاً بادياً . فاعتبروا المعركة حاجزاً أنقذ أوربا[1] ، ومن هنا زادوا الحديث عنها والتهويل لأحداثها ونتائجها في جو يحدوه التزوير الفاضح والافتراء المشهود .

على كل حال فإن موضوع جهاد المسلمين وراء البُرْت ، وعلى الخصوص وقعة بَلاط الشهداء ، بحاجة الى تناول جديد علمي أمين نزيه ، تقوم به دراسة خاصة . وعندها تظهر حقائق وعوامل أخرى غير التي اعتمدها بعض الباحثين وأطنبوا في تفاصيلها على أساس غير سليم أو وجهه ليست صافية ولا مترَوية .

٢ – كذلك تذكر الرواية الأوربية أنه مما كان يهتم الجيش الإسلامي به كثيراً في الفتوحات الحصولُ على الأسلحة والخيول اللازمة له في عمليات الفتح القادمة[2]

تلك مسألة واضحة لاحظناها – مثلاً – في معركة وادي بَرْباط[3] ، وهي تبطل فريتها الغنيمية المهلهلة .

٣ – كيف يحمل الجيش الإسلامي هذه الغنائم الثقيلة المعوِّقة – وهو أمر لم نألفه منه في حملاته السابقة في الأرض الكبيرة – وهو يعلم مُقدّماً أنه ذاهب للقاء حاسم يبتغي فيه نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله في تلك البقاع . ولو حدث اجتماع مثل هذه الغنائم لأودعها مدناً سبق له فتحها ، فكيف يجتمع ذلك له وقد مرَّ في فتوحه – قبل

(١) انظر كذلك : أدناه ، ١٩٩ .
(٢) *Muslim colonies*, **24.** (تاريخ غزوات ، ٥١) .
(٣) أعلاه ، ٦٢ – ٦٣ .

هذه الحملة ــ في أراضٍ فقيرة الثروة وأهلها مُعْدِمُون[1] . في حين لم نسمع أو نألف له ذلك الاهتمام والأسلوب في عمليات جهاده ــ وهي كثيرة ــ في الأرض الكبيرة قبل الغافقي .

لكن هذا التغلب المحدود للجيش الفرنجي والانسحاب المفاجىء للجيش الاسلامي بعد الذعر الذي أصاب محاربي الفِرنج جعلهم يعتبرونه بهذه المثابة ، بعد أن افتعلت الكنيسة تَصَوّرَه خطراً صده هذا التجمع . غذته ــ وعملاؤها ــ بحقدها وكراهيتها لهذا النور الذي حمله المسلمون اليهم والى أهل الأرض كافة ، ونَوَّه به ــ أملاً بخلاص أوربا وانقاذها ــ بعضُ كتابها من أهل الانصاف والتّمتع بمقدار من صفاء الرؤية ، فتولوا عن دوافع الصليبية وعصبيتها المدفونة .

حقائق

كثر الكلام حول هذه المعركة ، وأحاطها المؤرخون الأوربيون بزائد من الاهتمام . المعركة لامِرْيَةَ مهمة ، لكن بعض المؤرخين الأوربيين اعتبروها فاصلة ، حتّى قال بعضهم : إنه لو انتصر المسلمون في هذه المعركة لرأينا القرآن الكريم يتلى ويدرس في جامعات الغرب[2] ، أي أن هذه البلدان كانت ستصبح مسلمة . لا شك أنها لو أصبحت كذلك لكانت نهضتها (وعلى أسس فاضلة وآفاق شاملة) أسبق في الزمن الذي بدأت فيه ، ولزالت عنها مبكراً عصورها الوسطى المظلمة ، ولأصابها من الحضارة والتقدم ما أصاب الأندلس خلال عيشها في رِحَاب الإسلام[3] .

أظهر رأيه في هذه المعركة العديد من الكتاب الغربيين ، الذين ادركوا شيئاً من روعة الاسلام وصدق عقيدته ورفعة شريعته وسمو مبادئه وجمال روحه . أوهم ــ على الأقل ــ لاحظوا واقع تاريخه ، وقد رأوا ما أثبته وبثه في كل أرض حلّها من الخير والنور وما جلبه لها من الحضارة والانسانية الكريمة . فاعتبروا نتيجة « بلاط الشهداء » نكبة كبيرة أصابت أوروبا وضربة عنيفة حرمتها من الحضارة المنيرة

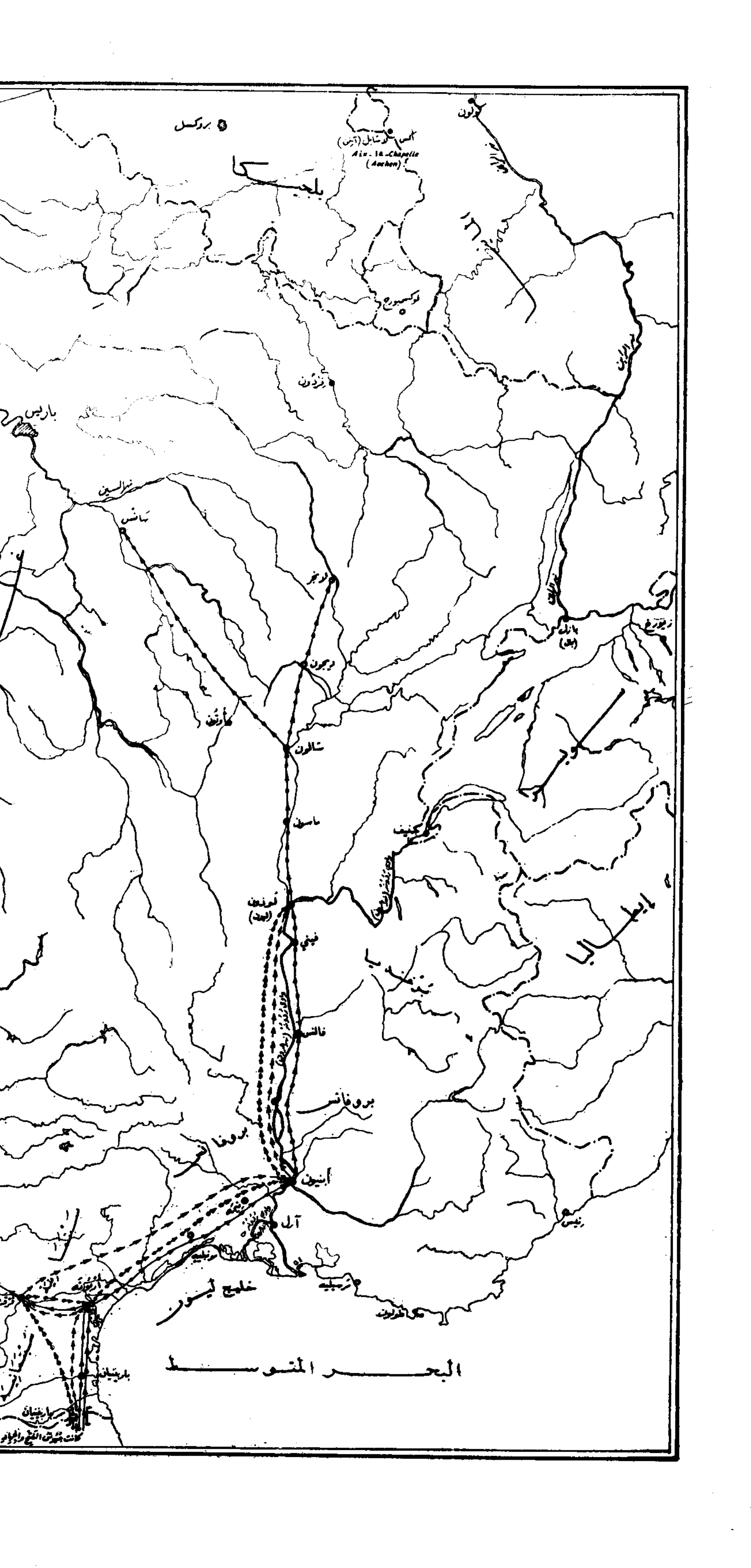
---

(١) « العوامل السوقية والتعبوية » ، ٥/١٢٥ .

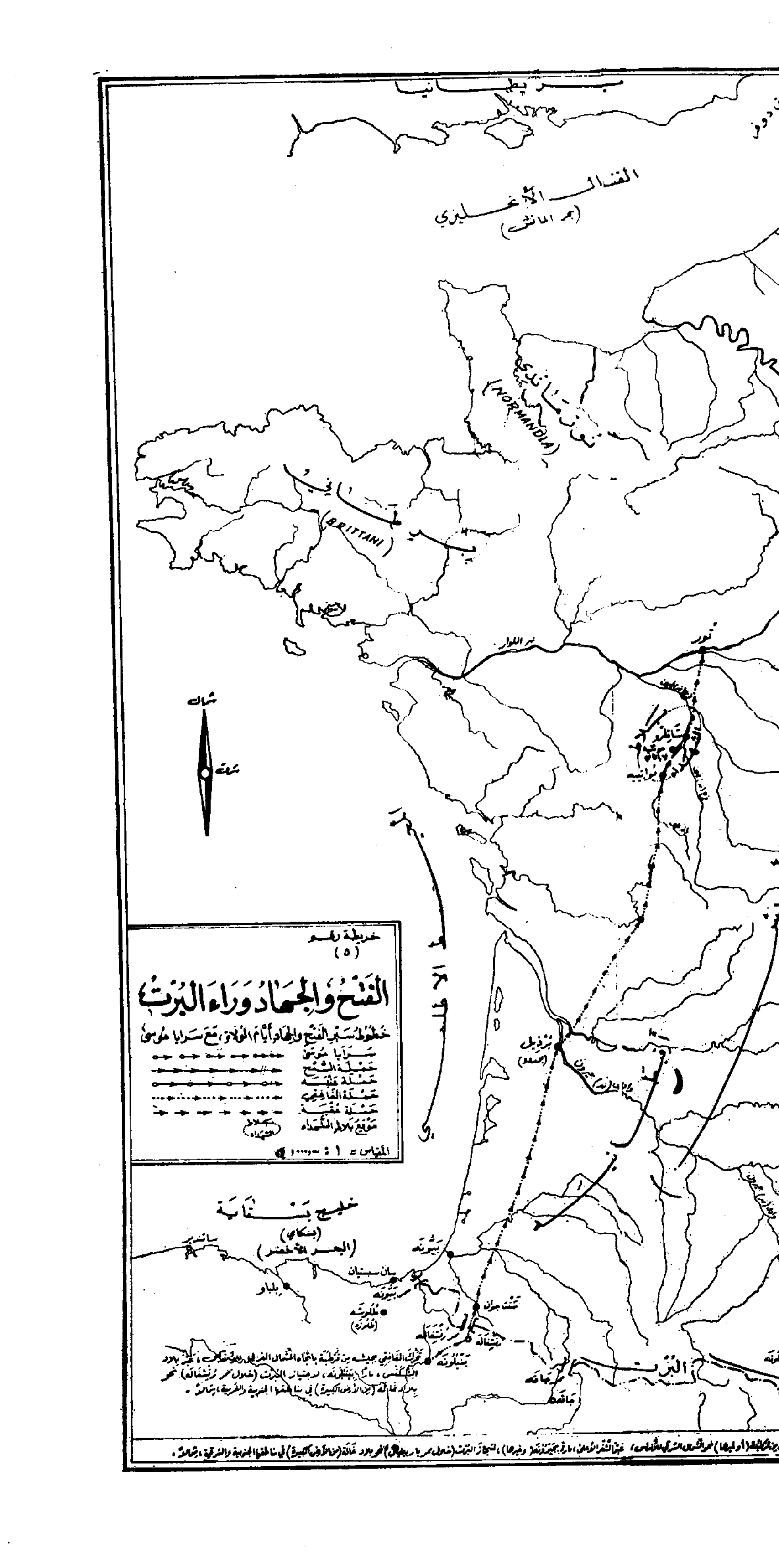
(٢) *The decline and fall of the Roman empire,* Gibbon, III, 223.

كذلك : العرب والاسلام ، ١٣٣ .

(٣) راجع : الحضارة الاسلامية في الأندلس ، ٢٥ .



بروكسل
Aix - la - Chapelle
(Aachen)
كولون
باريس
نهر السين
سانس
ديجون
أوتون
شالون
ماسون
جنيف
ليون
فيين
فالنس
بروفانس
أفنيون
آرل
مرسيليه
نيس
خليج ليون
البحر المتوسط
إيطاليا



خريطة رقم
(٥)
الفتح والجهاد وراء البرت
خطوط سير الفتح والجهاد أيام الولاة، مع سرايا موسى
سرايا موسى
حملة السمح
حملة عنبسة
حملة الغافقي
حملة عقبة
موقع بلاط الشهداء
القنال الإنكليزي
(NORMANDIA)
(BRITTANI)
نهر اللوار
خليج بسكاية
البرت

وكرامة الانسان[1] .

ذلك هو ما أصابها على يد جند الفرنجة بقيادة شارل مارتل (Charles Martel شارل المطرقة) الذي « حشد جيشاً ضخماً من الفرنج ومختلف العشائر الجرمانية المتوحشة ، والعصابات المرتزقة فيما وراء الرين ، يمتزج فيه المقاتلة من أمم الشمال كلها ، وجلب جنداً غير نظاميين ، نصف عراة يتشحون بجلود الذئاب ، وتنسدل شعورهم الجعدة ، فوق أكتافهم العارية . »[2] أساء شارل مارتل بذلك الى أوربا ومستقبلها الحضاري وكرامة انسانيتها بمدافعته عنها لما سيبعث حياتها .

بينما اعتبر آخرون هذا اللقاء انتصاراً كبيراً و « انقاذاً وخلاصاً للدولة الفرنجية من خطر المسلمين ، ولو أنه لم يمنع المسلمين من إعادة الكرة على غاليا »[3] .

* * *

بقيت للمسلمين مواقع في جنوبي فرنسا ، كما أمكنهم العودة إلى عدد من هذه المناطق في العام التالي لـ « بَلاط الشهداء » الى منطقة البروفانس (Provence) فاستعادوا مدينة آرل (Arles) وأبنيون (Avignon)[4] ، وهي صخرة أبنيون كما وردت عند المَقَّرِي في **نفح الطيب**[5] .

* * *

لكن — في رأي هؤلاء — مالذي ستخسره أوربا لو انتصر الاسلام في « بَلاط الشهدا» وغطى مَدُّه تلك المناطق ؟

كانت ستخسر الظلمات والجهالة والاستغلال والاستبداد والاضطهاد التي ترفل في نعيمها ، كما ستخسر محاكم التفتيش السوداء — فيمابعد — وغيرها ، «كانت أوربة ولاسيما فرنسة ، في القرن الحادي عشر [الميلادي = الخامس الهجري] الذي جردت

---

(١) انظر : مع الرعيل الأول ، محب الدين الخطيب ، ٩ — ١٠ . كذلك : تاريخ أوروبا (العصور الوسطى) ، فشر ، ٦٩/١ .

(٢) دولة الاسلام في الأندلس ، ٩٩/١ .

(٣) تاريخ أوروبا ، ٧٨/١ .

(٤) أوروبا العصور الوسطى ، عاشور ، ١٨٤/١ ؛ فجرالأندلس ، ٢٧٨ ؛ دولة الاسلام في الأندلس، ١١٣/١ — ١١٦ .

(٥) نفح الطيب ، ٢٧٤/١ (أعلاه ، ٩٥ ، ٩٩) .

فيه الحملة الصليبية الأولى في أشد أدوار التاريخ ظلاماً ، وكان النظام الاقطاعي يأكل فرنسة ، وكانت مملوءة بالحصون التي كان أصحابهـا ــ وهم من أنصاف البرابرة ــ يقتتلون دائماً ولايملكون سوى أناس من العبيد الجهّال ، ولم يكن في ذلك الحين نفوذ شامل لسوى البابا ، وكان الناس يخشون البابا أكثر من احترامهم له . »[1]

ولعلهم نظروا الى هذه الأحوال فاعتبروها تراثاً ومنجزاتٍ ، ينبغي المحافظة عليها ، فان ذَهابها خسارة . أما الانتقال الى النور والمدنية الكريمة الفاضلة فهي كوارث يجب دفعها وحماية الناس منها . هذا ما حاولوه مع اسبانيا لمنع تيار الحضارة الزاهرة هناك[2] .

د ــ الجهاد خلف البُرْت بعد وَقْعَة البَلاط

لم تكن معركة « بَلاط الشهداء » آخر نشاط لجهاد المسلمين وراء البُرْت في عهد الولاة ، الذي اتسم بالنشاط العالي في هذا الميدان ، وساهم فيه عدد من ولاة الأندلس . لقد استمر جهاد المسلمين في ميادينه هناك بعد معركة « بَلاط الشهداء » ، التي كلفتهم كثيراً من الجهد والتضحيات ، وقام بعض الولاة ــ بعد الغافقي ــ بحملات إلى تلك المناطق . ومنهم :

* **عبد الملك بن قَطَن** (حول شوال ١١٤ ــ رمضان ١١٦ : ولايته الأولى) ، تِلْوَ الغافقي . تحدثت بعض الدراسات[3] عن نشاط جهادي له وراء البُرْت ، ولم تتوفر أخبارها في المصادر الأندلسية الموجودة ، لكنها ذكرت ذلك معتمدة على الرواية الأوربية[4] ، وأخذت منها ، وليسْ لدينا نص أندلسي يُلمّح لهذا الأمر[5] . والمراجع الأندلسية المتوفرة بين أيدينا تذكر له نشاطاً في شمال الجزيرة سنة خمس

---

(١) حضارة العرب، لوبون ، ٣٢٠ (كذلك : ٥٦٦ ــ ٥٦٧) . انظر : الحضارة الاسلامية في الأندلس ، ٢٨ ــ ٢٩ .

(٢) قارن : حضارة العرب ، ٣١٧ .

(٣) فجر الأندلس ، ١٧٦ .

(٤) *Muslim eolonies* , 35. (تاريخ غزوات العرب ، ١٢٠) .

(٥) لعله في نصوص ضائعة ، تظهر يوماً ما .

عشرة ومئة . وتصفه كذلك بالجَوْر ، وأنه عُزِل سنة ست عشرة ومئة ، بعد سنتين من بدء ولايته . وينقل المَقّري عن ابن بُشْكُوال – لعله مُعْتَمِد على ابن حيان أو غيره – أن ابن قَطَن « عُزِل عنها ذميماً في شهر رمضان سنة ست عشرة ومئة ، قال : وكان ظلوماً في سيرته ، جائراً في حكومته ، وغزا أرض البَشْكُنْس فأوقع بهم »[1] . وهنالك احتمال أن يكون ابن قَطَن اشترك في « بَلاط الشهداء » ، فتولى قيادة الجيش بعد استشهاد الغافقي . لكن المراجع لاتشير الى شيء من هذا ، وتذكر أنه قَدِم الأندلس في رمضان سنة أربع عشرة ومئة[2] أو شوال منها[3] . إلا إذا اعتبرنا دخوله الأندلس من الأرض الكبيرة خلف البُرْت .

* **عُقْبَة بن الحَجَّاج السَّلُولي** (شوال ١١٦ – ١٢١ أو ١٢٣ هـ) ، الذي كان من طراز الغافقي (والسمح وعنبسة) تقوىً وحباً للجهاد وشجاعةً وعزيمةً وحسنَ سيرةٍ وعدلاً ، وقد اختار الأندلس لأنها ثَغْرُ جهاد ، كما سبق إيراده[4] .

استمرَّ عُقْبَة خمس سنواتٍ والياً على الأندلس ، وأنفق قِسْطاً غير قليلٍ منها في جهاده وراء البُرْت ، ويتبين من النصوص الأندلسية لدينا أنه جال في مناطق متعددة ، لاسيما المقاطعات الفرنسية في الجنوب والشّمال الشرقي . وهي :

* مقاطعة سَبْتِمانِيَة وعاصمتها أَرْبُونَة ، وقَرْقَشُونَة واحدة من مدنها ، تقع المقاطعة جنوبي فرنسا وشَرقيها على شاطيء المتوسط ، بمُصَاقَبَة جبال البُرْت .
* مقاطعة البروفانس (Provence) ، شمال سَبْتِمانِيَة الى الشرق . عاصمتها أبنيون (Avignon) على وادي رُودَنُهْ (نهر الرون Rhone) .
* مقاطعة بُرغنديا (Purgundia) شمال مقاطعة البروفانس .

جال عُقبَة في هذه المناطق وفي الوجهة التي سلكها عَنْبَسَة قبله ، وإن لم يصل إلى آخر حد وصله ، ولم يشمل جهاد عُقْبَة غربي فرنسا ، حيث مقاطعة أقيطانية

---

(١) نفح الطيب ، ١١٩/٣ . كذلك : العبر ، ٢٥٨/٤ (= نفح الطيب ، ٢٣٦/١) .
(٢) نفح الطيب ، ١١٨/٣ ؛ العبر ، ٢٥٨/٤ .
(٣) البيان المغرب ، ٢٨/٢ .
(٤) أعلاه ، ١٨٠ – ١٨١ .

ذات العاصمة بُرْذِيل (بوردو Bordeaux)[1] . واستشهد عُقْبَة أخيراً في معركة عند مدينة قَرْقَشُونَة إحدى مدن مقاطعة سَبْتمانيَة في صفر سنة ١٢٣ هـ[2] . لعله وهو عائد إلى الأندلس أو مجاهد في الأرض الكبيرة، وربما كان ينوي عُقْبَة التوجه الى غربي فرنسا ، مجتازاً أقيطانيا متجهاً الى الشمال نحو المكان الذي جرت فيه « بَلاط الشهداء » . وهذا مايمكن تبينه معتمدين على المصادر الأندلسية ومستعينين بغيرها في حدود الدقة المتأنية ، وهو يشير الى توفر خُطة دقيقة مرسومة في الفتح وراء البُرْت تعاون الولاة على تنفيذها ، وهو جاري العادة في الفتوحات الاسلامية في الأندلس وما بعدها وما سبقها .

هذا الجهاد الذي يقوم به عُقْبَة ومَن معه ليس سهلاً ولا قليلاً . يدل على القوة الإيمانية والصلابة الجهادية ، حباً في نشر الإسلام وإقامة لشريعة الله تعالى في الأرض ، حيثما كان[3] .

ينقل صاحب **نفح الطيب** نصاً عن ابن بَشْكُوال بأن عُقْبَة أقام بالأندلس « سنين محمودَ السيرة ، مُثابراً على الجهاد ، مُفتتحاً للبلاد ، حتى بلغ سُكْنى المسلمين أَرْبُونَة، وصار رِباطُهم على نهر رُودَنُهْ ، فأقام عُقْبَة بالأندلس إحدى وعشرين ومئة ، وكان قد اتخذ بأقصى ثَغْر الأندلس الأعلى مدينة يقال لها أَرْبُونَة وكان ينزلها للجهاد »[4] .

يذكر ابن حَيَّان ــ فيما ينقله المَقَّرِي ــ بياناً معبِّراً عن جهاد نشيط للمسلمين وراء البُرْت ، يبدو أنه شرح عام ، ولعله يتعلق ــ كله أو بعضه ــ بهذا النشاط الذي قام به عُقْبَة ، وربما غيره ممن وصل هذا المكان . ثم يصف كيف تألبت القُوى الفِرَنْجِيَّة ــ في هذا الوقت ــ على جيش المسمين بقيادة عُقْبَة أو غيره . كل ذلك من غير تحديد لتاريخ هذه الأحداث ، « ولمّا أوغل المسلمون إلى أَرْبُونَة ارتاع لهم

(١) انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، سالم ، ١٣٧ .
(٢) العبر ، ٢٥٨/٤ (نقلا عن الرازي : نفح الطيب ، ٢٣٦/١) .
(٣) انظر : أخبار مجموعة ، ٢٥ ؛ أعلاه ، ١٨٠ – ١٨١ .
(٤) نفح الطيب ، ١٩/٣ . كذلك : العبر ، ٢٥٨/٤ (= نفح الطيب ، ٢٣٦/١) ؛ البيان المغرب ، ٢٩/٢ ؛ أعلاه ، ١٨١ .

قَارْلُهْ ملكُ الإفْرَنْجة بالأرض الكبيرة ، وانزعج لانبساطهم ، فحشد لهم ، وخرج عليهم في جمع عظيم ، فلمَّا انتهى الى حِصْن لُوذُون ، وعَلِمَت العرب [المسلمون] بكثرة جموعه زالت عن وجهه ، وأقبل ، حتى انتهى الى صخرة أَبِنْيُون ، فلم يجد بها أحداً ، وقد عسكر المسلمون قُدّامه فيما بعد بين الأَجْبُل المجاورة لمدينة أُرْبُونَة ، وهم بحال غِرَّة لاعُيُون لهم ولاطلائع ، فما شعروا حتى أحاط بهم عدوّ الله قَارْلُهْ ، فاقتطعهم عن اللَّجْأ الى مدينة أُرْبُونَة ، وواضعهم الحرب ، فقاتلوا قتالاً شديداً استُشهد فيه جماعة منهم ، وحَمَل جمهورُهم على صفوفهم حتى اخترقوها ، ودخلوا المدينة ، ولاذوا بحصانتها ، فنازلهم بها أيَّاماً أُصيب له فيها رجال ، وتعذر عليه المقام ، وخامره ذُعْر وخوفُ مَدَد للمسلمين ، فزال عنهم راحلاً الى بلده ، وقد نصب في وجوه المسلمين حصوناً على وادي رُودَنُهْ شَكَّها بالرجال ، فصيَّرها ثغراً بين بلده والمسلمين ، وذلك بالأرض الكبيرة خلف الأندلس . »[1]

لعلَّ عُقْبَة خاتمةُ الولاة الذين قاموا بالجهاد وراء البُرْت ، وقد جرت بعد ذلك في الأندلس أحداث شغلت المسلمين عن متابعة هذا الجهاد ، بل هددته وأتت على كثير منه إن لم يكن كله فيما بعد ، حيث أن عبد الملك بن قَطَن (صفر ١٢٣ أوائل ١٢٤ هـ) اشترك في خلاف حصل في الأندلس ، وكانت خصومة قُتِل فيها ابن قَطَن . انغمس في هذا — ممن انغمس — بعض جند المسلمين في سَبْتِمانِيَة منهم عبد الرحمن بن عَلْقَمَة اللَّخْمي[2] في جند له . كان نصيبه القتل ، كما مر بنا[3] . ومرت هذه الأحداث في الأندلس والدولة الأموية في الشرق تجتاز نهايتها التي كانت سنة ١٣٢ هـ .

* * *

هكذا نرى أن السمة البارزة لعهد الولاة هي النشاط الواضح لعمليات الجهاد

(١) نفح الطيب ، ٢٧٤/١ .
(٢) نفح الطيب ، ٢١/٣ — ٢٢ ، ٢٦ .
(٣) أعلاه ، ١٨٨ .

وراء البَرّت رغم ما أصاب ذلك من توقف لظروف خارجية وداخلية ، فإن الأحوال العامة في الشرق وما كان في الأندلس من اختلاف[1] أدّى لمثل هذه النتائج .

كان الالتزام بالاسلام دوماً — في الأندلس وفي عموم التاريخ الاسلامي في حِقَبِه المتطاولة حتى اليوم ، وهي كذلك للمستقبل — قِوام الخير والنصر والسعادة في الدارين . أُصيب المسلمون يوم تخلّوا عن أيٍّ جانب أو أمر من أمور الإسلام . ولقد نهى الله — جلّت قدرته — عن الخصومات ، واعتبرها جاهلية . فالخير في طاعة الله والاجتماع على دينه والأخذ بشريعته ﴿ وأطيعوا اللهَ ورسولَه ولاتنازعوا فتفشلوا وتَذْهَبَ ريحكُم واصبروا إن اللهَ مع الصابرين ﴾[2]

جدول بأسماء الولاة

استمر عهد الولاة اثنتين وأربعين سنة ، حكم الأندلسَ خلالها عشرون والياً. وهذا ثَبْت بأسماء هؤلاء الولاة[3] ، بعد الفتح الذي قاده موسى وطارق وآخرون .

١ — عبد العزيز بن موسى بن نُصَيْر . تولى الحكم في ذي الحجة سنة ٩٥ هـ (٧١٤ م). دامت ولايته سنة وعشرة أشهر ، حتى رَجب سنة ٩٧ هـ . استُشهد مقتولاً بالأندلس[4] . كان مستقره في إشْبِيلِيَة : العاصمة .

٢ — أيوب بن حبيب اللَّخْمي ، ابن أخت موسى بن نُصَيْر . تولى الحكم سنة ٩٧ هـ (٧١٦ م) . ولايته ستة أشهر ، حتى ذي الحجة سنة ٩٧ هـ[5] . في أيامه — أو أيام الحر ، بعده — نقلت العاصمة إلى قُرْطُبَة[6] .

---

(١) العبر ، ٢٥٦/٤ ، ٢٦٠ . (= نفح الطيب ، ٢٣٤/١ ، ٢٣٨) .

(٢) الآية ٤٦ من سورة الأنفال .

(٣) عن هؤلاء الولاة وتسلسل ولاياتهم ، راجع : العبر ، ٢٥٦/٤ — ٢٦١ (= نفح الطيب ، ٢٣٤/١ — ٢٣٨) ؛ نفح ، ٢٩٨/١ — ٢٩٩ ، ٤٨٠ ، ١٤/٣ — ٢٦ ؛ أعمال الأعلام ، ٦/٢ — ٧ .

(٤) جذوة المقتبس ، ٢٨٩ (رقم : ٦٥١) ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ٢٧٦/١ (رقم : ٨٢٥) ؛ بغية الملتمس ، ٣٨٦ (رقم : ١٠٩٨) ؛ نفح الطيب ، ٢٨١/١ ؛ البيان المغرب ، ٢٣/٢ ؛ أعلاه ، ١٣٢ ، ١٥٩ .

(٥) نفح الطيب ، ١٤/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٥/٢ ؛ جذوة المقتبس ، ١٧١ (رقم : ٣١٥) .

(٦) أعلاه ، ١٣٦ .

٣ ــ الحر بن عبد الرحمن الثقفي . تولى الحكم شهر ذي الحجة سنة ٩٧ هـ (٧١٦ م). ولايته سنتان وثمانية أشهر أو أقل ، حتى رمضان سنة مئة هجرية[١] .

٤ ــ السَّمْحُ بن مالك الخَوْلاني . تولى الحكم في شهر رمضان سنة مئة هجرية (٧١٩ م) . ولايته سنتان وثلاثة أشهر ، حتى شهر ذي الحجة سنة ١٠٢ هـ . **استُشهد جنوبي فرنسا**[٢] .

٥ ــ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (ولايته الأولى) . تولى الحكم سنة ١٠٢ هـ (٧٢١ م) . ولايته شهران[٣] .

٦ ــ عَنْبَسَة بن سُحَيْم الكلبي . تولى الحكم في شهر صفر سنة ١٠٣ هـ (٧٢١ م) . ولايته أربع سنين وستة أشهر ، حتى شعبان سنة سبع ومئة . **استُشهد جنوبي فرنسا**[٤] .

٧ ــ عُذْرَة بن عبد الله الفهري . تولى الحكم سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥ م) . ولايته شهران[٥] .

٨ ــ يحيي بن سَلَمَة الكلبي . تولى الحكم في شهر شوال سنة ١٠٧ هـ (٧٢٦ م) . ولايته سنتان وستة أشهر[٦] .

٩ ــ حُذَيْفَة بن الأحْوَص القيسي (الأشْجَعي) . تولى الحكم في شهر ربيع

---

(١) نفح الطيب ، ١٤/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٥/٢ ؛ أعلاه ، ١٣١ ، ١٣٦ .

(٢) جذوة المقتبس ، ٢٣٦ (رقم : ٤٩٨) ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ١٩٥/١ (رقم : ٥٨٦) ؛ بغية الملتمس ، ٣١٦ (رقم : ٨٣٩) ؛ نفح الطيب ، ١٤/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٦/٢ ؛ جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم الأندلسي ، ٤١٨ ؛ أعلاه ، ١٨٥ – ١٨٧ .

(٣) نفح الطيب ، ١٥/٣ – ١٦ ؛ جذوة المقتبس ، ٢٧٤ (رقم : ٦٠٣) ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ٢٥٦/١ (رقم : ٧٧٢) ؛ بغية الملتمس ، ٣٦٥ (رقم : ١٠٢١) ؛ التكملة ، ٣٥٤/١ ؛ الذيل والتكملة ، ٣٢٧/٦ ؛ جمهرة أنساب العرب ، ٣٢٩ ؛ تاريخ افتتاح الأندلس ، ٩٥ ؛ المقتبس ، ١٤٠/٢ ؛ أعلاه ، ١٣٢ ، ١٩٣ وبعدها .

(٤) جذوة المقتبس ، ٣١٩ (رقم : ٧٤٠) ؛ تاريخ علماء الأندلس ، ٣٤٤/١ (رقم : ١٠١٣) ؛ بغية الملتمس ، ٤٣٢ (رقم : ١٢٥٩) ؛ نفح الطيب ، ١٦/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٧/٢ ؛ أعلاه ، ١٩٠ – ١٩١ .

(٥) نفح الطيب ، ١٧/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٧/٢ ؛ أعلاه ، ١٨٠ .

(٦) نفح الطيب ، ١٧/٣ ، ١٨ ؛ البيان المغرب ٢٧/٢ .

الأول سنة ١١٠ هـ (٧٢٨ م) . ولايته ستة أشهر أو أكثر[١] .

١٠ ــ عثمان بن أبي نِسْعَة الخَثْعَمي . تولى الحكم في شهر شعبان سنة ١١٠ هـ (٧٢٩ م) . ولايته خمسة أشهر[٢] .

١١ ــ الهيثم بن عَدِي (عبيد) الكلابي (الكِناني) . تولى الحكم في المحرم سنة ١١١ هـ (٧٢٩ م) . ولايته خمسة أشهر أو أكثر[٣] .

١٢ ــ محمد بن عبد الله الأشْجَعي . تولى الحكم سنة ١١١ هـ (٧٣٠ م) . ولايته شهران[٤] .

١٣ ــ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (ولايته الثانية) . تولى الحكم في شهر صفر سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ م) . ولايته سنتان وثمانية أشهر ، حتى رمضان ١١٤ هـ (تشرين الأول = اكتوبر ٧٣٢ م) . **استُشهد في وقعة « بَلاط الشهداء »**[٥] .

١٤ ــ عبد الملك بن قَطَن الفِهْري (ولايته الأولى) . تولّى الحكمَ حول شهر شوال سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) . ولايته سنتان[٦] .

١٥ ــ عُقْبَة بن الحجاج السَّلُولي . تولى الحكم في شهرشوال سنة ١١٦ هـ (٧٣٤ م) . ولايته خمس سنوات وشهران أوأكثر ، حتىسنة ١٢١ هـ أوحتىشهر صفر سنة ١٢٣ هـ . **استُشهد خلف جبال البُرْت**[٧] .

١٦ ــ عبد الملك بن قَطَن الفِهْري (ولايته الثانية) . تولى الحكم في شهر صفر

---

(١) نفح الطيب ، ١٨/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٧/٢ .

(٢) نفح الطيب ، ١٨/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٨/٢ .

(٣) نفح الطيب ، ١٨/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٨/٢ .

(٤) التكملة ، ٣٥٤/١ (رقم : ٩٥٢) ؛ الذيل والتكملة ، ٣٢٧/٦ ؛ نفح الطيب ، ١٨/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٨/٢ .

(٥) الحاشية رقم ٣ في الصفحة السابقة ؛ أعلاه ، ١٩٣ وبعدها .

(٦) تاريخ علماء الأندلس ، ٢٦٩/١ (رقم : ٨١٤) ؛ نفح الطيب ، ١٨/٣ ، ١٩ ؛ البيان المغرب ، ٢٨/٢ ، ٣٠ ؛ أعلاه ، ٢٠٣ ــ ٢٠٤ .

(٧) جذوة المقتبس ، ٣١٩ (رقم : ٣٩١) ؛ بغية الملتمس ، ٤٣٢ (رقم : ١٢٥٨) ؛ نفح الطيب ، ١٩/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٩/٢ ؛ أعلاه ، ٢٠٤ ــ ٢٠٦ .

سنة ١٢٣ هـ (٧٣٤ م) . ولايته سنة واحدة وشهر واحد[١] .

١٧ ـ بَلْج بن بِشْر بن عياض القُشَيْري . تولى الحكم سنة ١٢٤ هـ (٧٤٢ م) . ولايته أحد عشر شهراً أو أقل[٢] .

١٨ ـ ثَعْلَبَة بن سَلامة العامِلي . تولى الحكم سنة ١٢٤ هـ (٧٤٢ م) . ولايته عشرة أشهر أو أقل[٣] .

١٩ ـ أبو الخَطَّار حُسام بن ضِرار الكلبي . تولى الحكم في رجب سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣ م) . ولايته أربع سنوات وستة أشهر أو أقل[٤] .

٢٠ ـ ثُوابَة بن سَلامَة الجُذَامي . تولى الحكم في رجب ـ شعبان سنة ١٢٨ هـ (٧٤٦ م) . ولايته سنة واحدة أو أكثر[٥] .

٢١ ـ عبد الرحمن بن كَثير اللَّخْمي. تولى الحكم أوائل سنة ١٢٩ هـ (٧٤٦ م) . ولايته بضعة أشهر . نصبه أهل الأندلس « للأحكام خاصة »[٦] .

٢٢ ـ يوسف بن عبدالرحمن الفِهْري (آخر ولاة الأندلس) . تولى الحكم فيربيع الثاني سنة ١٢٩ هـ (كانون الثاني سنة ٧٤٧ م) . ولايته تسع سنوات وتسعة أشهر أو أكثر[٧] ، « جَدُّه عُقْبَة بن نافع صاحب إفْريقيَة وباني القَيْروان المجاب الدعوة صاحب الغزوات والآثار الحميدة ، ولهذا البيت في السلطنة بافريقية والأندلس نباهة . وذكر الرازي أن مولده بالقَيْروان ، ودخل أبوه الأندلس من إفريقية مع حبيب بن أبي عُبيدة الفِهْري عند افتتاحهم »[٨] . انتهت ولايته بعد وصول عبد الرحمن الداخل الى الأندلس سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) ، حيث مبتدأ عهد الإمارة .

---

(١) راجع : الحاشية رقم ٦ في الصفحة السابقة .

(٢) نفح الطيب ، ٢٠/٣ ؛ البيان المغرب ٣١/٢ ؛ جذوة المقتبس ، ١٨٠ (رقم : ٣٣٦) .

(٣) نفح الطيب ، ٢٢/٣ ؛ البيان المغرب ، ٣٢/٢ .

(٤) نفح الطيب ، ٢٢/٣ ؛ البيان المغرب ، ٣٣/٢ .

(٥) نفح الطيب ، ٢٤/٣ ؛ البيان المغرب ، ٣٥/٢ .

(٦) العبر ، ٢٦١/٤ (= نفح الطيب ، ٢٣٨/١) ؛ البيان المغرب ، ٣٥/٢ .

(٧) نفح الطيب ، ٢٥/٣ ؛ البيان المغرب ، ٣٥/٢ . (٨) نفح الطيب ، ٢٥/٣ .

الخلاصة

بذل المسلمون جهداً كبيراً في دعوة الناس الى الاسلام في الأندلس . عملوا له بإخلاص أصيل وعمق بعيد ، في سلوكهم وتعاملهم ودعوتهم . وتغيّر بذلك وجه الحياة في جنبات الجزيرة .

غدت الجزيرة الأندلسية رباط جهاد[1] وموئل حضارة ومنبت إنسانية كريمة. سقت أرضها وأفاضت على مَن حولها بَرغبة ودِيّة وحرص حنون ، تلك لها رسالة هي عبادة . أبت سلطاتُ بلدان إلا رفض هذا النبع ، وغلّقت على نفسها وعلى غيرها الأبواب ، وأبقت أهلها مرتعاً للخراب ، وفيما بعد لم تجد إلاه مرجعاً ، فهُرعتْ إليه وألقت بكلكلها الثقيل عليه ، لتستلب ثمارها مجرّدة ، وتنقل غرساً ترويه بغير مائه . نقلت علوماً لوحدها دون عناية بأصلها ، خالٍ من طبيعة جوها مُفْرَغٍ من مقومات بنائها . كان جافاً خشناً وعوداً نَخِراً ، عرضةً للسقوط في هوة سحيقة تتكسر كالهشيم . مستعدة للاحتراق في أي وقت ، فيحرق أهله ويذهب بمن حوله .

كانت غَيْرَةُ هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم . فَدَوْه — وشريعتَه — بالنفس ، وهي عندهم له رخيصة ، فهو أغلى من حياتهم ، أُشْرِبت نفوسُهم حُبَّه : غدا تصورَهم وفكرَهم ونورَهم وربيعَ حياتهم . لذلك حَرَصوا — بأصالة — على مصالح العباد والبلاد ووحدتها وإزالة مافيها من معوّقات .

حَمَلوا مَدَّهُ الكريم الى أماكن أخرى وراء البُرْت ، ربما لتنفيذ خطّة موسى ابن نُصَيْر[2] . وبذل المسلمون لكل ذلك جهوداً بَرَّة ، وقَدَّموا عملاً دائباً ملحوظاً فيما وراء البُرْت ، واستُشهد عدد من الولاة — وهم من الخِيرَة البَرَرة — وكانوا في جهاد مستمر لسنوات ، ما عَرفَوا كللاً ولا كسلاً . فالدوافع ثَرَّة قوية لاتنفد، متولّدة جديدة لا تتوقف . استمداد من الإيمان بالله سبحانه : مصدر القُوى ، واتصال بالاسلام العامر المُعَمِّر . استُشهد غير واحد في أيام التروية أو عرفة ورمضان[3].

---

(1) انظر : جغرافية الأندلس وأوروبا ، ١٣٠ (= الروض المعطار ، ٣) ؛ البيان المغرب ، ٢٧/٢ (= أعلاه ، ١٩٠ — ١٩١) ؛ أعلاه ، ٥٦ ، ١٨٠ — ١٨١ ، ١٨٣ ، ٢٠٥ .

(2) انظر : أعلاه ، ١١٣ — ١١٥ .

(3) انظر : أعلاه ، ١٨٣ — ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩٣ — ١٩٤ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

هم في الميدان دوماً ، لايطلبون راحة ، بل راحتهم في هـذا الجهاد ، وهو لله عبادة ولأمره استجابة ولخلقه هداية . يجاهدون حتى في هذا اليوم ، يوم العيد الذي يستريح فيه الإنسان ويَقيل ، هم ليسوا في الميدان وحسب ، بل في المعمعة الغامرة والمقدّمة . أول من يواجه الخطر ويدفع بنفسه عن غيره — لابغيره — من أجل الهدف ، لذلك كان القائد أول من يتعرض له أو ينكشف . يواجه الخطر ملتحماً ويسير نحوه متقدّماً . حين تشتدّ الملحمة تناالهم المكرمة ، فيرتفع شهداءُ العقيدة بالله متسابقين ، يكونون أوائل الرّكب سائرين . تلك سمة مجيدة فريدة ، لكنها في التاريخ الاسلامي كثيرة مزيدة . هي بعض مايُرى في درب الإيمان بالله ونهج الحق الذي أنزله — جلّت قدرتُه — على رسوله الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

لم ينحصر الجَهْد في الميدان العسكري ، بل شَمَل كذلك الميدان الإصلاحي في كل وجوه الحياتية . نُظّمت الإدارة ، وتمت الإصلاحات المالية والزراعية والعمرانية ، عرفنا قنطرة قرطبة العجيبة ، كما ضربت العملة الإسلامية .

كان عهدُ الولاة عهدَ تأسيس . تمت فيه إنجازات كثيرة من الفتوح المتعدد الألوان ، الشامل لكل ميدان . مثَّلَ بدايةَ الوجود الاسلامي في تلك البقعة ، وماصاحب ذلك من مجهودات الإنعاش فيها . كانت أيامه أيام غَرْس لم يَحِن بعدُ موسم حصاد كبير من إنتاجه الفكري والعمراني ، الذي وُضعت أسسُه وتهيأ مجاله . كان منها بداية لوضع أسس الحياة العلمية وتهيئة المجال لقيامها ، سليمة متينة ، آتت — غير بعيد — أكُلَها ، يانعة دانية .

كان أكبر الإنجازات : ذلك الذي كرّم الإنسان وأعلاه وحقق وجودَه وهَداه . غدا « **إنساناً ربّانياً** » ، لأنه سار في الطريق المنير الوحيد ، في طريق الله القويم الكريم وصراطه المستقيم . أورث الأرضَ - وحده - خيراً وبركة ، هداية ونوراً ، وأشرقت بنور الله سُبْحانه وتعالى وجلّت قدرته .

الفصل الثالث

عهد الإمارة

١٣٨ – ٣١٦ هـ (٧٥٥ – ٩٢٩ م)

أولاً : أبرز الأحداث في هذا العهد .

ثانياً : الجهاد في عهد الإمارة .

ثالثاً : نشوء الدويلات الإسبانية في شمالي الأندلس وتحرشاتها .

رابعاً : خصائص عهد الإمارة وأحواله وإنجازاته .

خامساً : السياسة الخارجية .

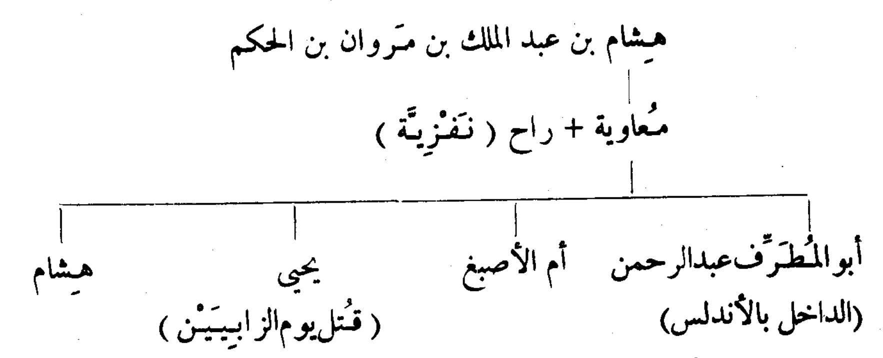


عهد الإمارة

تعريف بالعهد

ينتهي عهدُ الوُلاة – الذي يليه عهدُ الإمارة – بمجيء عبد الرحمن الداخل الى الأندلس ، حيث آخر الولاة يوسف الفِهْري . وذلك بعد سقوط الدولة الأموية في الشام سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) . وقد تعقب العباسيون الأمويين ، وكان ممن هرب أبو المُطَرِّف عبد الرحمن (الداخل) بن مُعاوية . ومُعاوية هذا ، هو « جَدُّ أمراء الأندلس . »[1] ويكون عبد الرحمن الداخل حفيد هِشام بن عبد الملك (١٠٥ – ١٢٥ هـ = ٧٢٤ – ٧٤٣ م) عاشر الخلفاء الأمويين في الشام .

قائمة نسب الداخل[2]



لحق ابن مُعاوية بالأندلس وغدا لها أميراً ، وبه ابتدأت الإمارة فيها ولم تعد الأندلس – منذ الآن – تابعة للخلافة الإسلامية ، كما كانت أيام الوُلاة .

وصل عبد الرحمن إفريقية (تُونُس الحالية) متخفياً ، عن طريق مِصْر وبَرْقَة. واختفى هناك مدة ، ثم استأنف سيره نحو المغرب الأقصى ، قرب مدينة طَنْجَة ،

---

(١) العبر ، الذهبي ، ١٥١/١ .

(٢) انظر : جمهرة أنساب العرب ، ٩٢ – ٩٤ ؛ الحلة السيراء ، ٣٥/١ – ٣٧ ؛ البيان المغرب ، ٤٧/٢ ؛ نفح الطيب ، ٢٧/٣ وبعدها ؛ العبر ، الذهبي ، ١٥١/١ .

حيث نزل عند أخواله قبيلة نَفْزَة[١] . وعند أخواله وفي سنة ١٣٦ هـ (٧٥٣ م) ، بدأ عبد الرحمن بن مُعاوية يُعدّ العدة لدخوله الأندلس .

كانت السلطة في الأنْدلس لرجلين ، هما : الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري ، ثم الصُّمَيْل بن حاتِم . وأرسل ابنُ مُعاوية معاونَه بدراً (وهو رومي الأصل[٢]) إلى الأندلس ، وبعد أن بلغته الأخبار بأحوالها ووجود عدد من المؤيدين له فيها ، وَجَّه بدراً إلى الأندلس بكتاب يدعو إلى تأييده لتولي الأندلس ، وأجرى بدر مفاوضات للموافقة على مجيء عبد الرحمن بن مُعاوية وتَوَلّيه حكم الأندلس ، واستطاع مع بعض أصحابه أن يجمع المؤيدين الذين كانوا في زيادة مستمرة ، ثم عاد إلى عبد الرحمن في المغرب سنة ١٣٧ هـ (٧٥٤ م) وأخبره بما رأى وجرى .

لم يكن يوسف الفِهْري يعرف بذلك . كان مشغولاً بأعمال حربية في الشمال، وبمعالجة بعض الأحداث . كانت الأندلس – في هذا الوقت – غير هادئة الأوضاع ومشجعة لعبد الرحمن بن مُعاوية في الحضور إلى الأندلس الذي وصلته أنباؤه . وجاز عبد الرحمن المضيق سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) ، وأرسى في مدينة المُنَكَّب (Almuñécar) على الساحل الجنوبي الشرقي للجزيرة الأندلسية ، على البحر المتوسط ، وحَلّ بقرية طُرُّش (Torrox) ، « وفي سنة ثمان وثلاثين ومئة ، دخل عبدُ الرحمن بن مُعاوية الأندلس في غُرَّة ربيع الأول ، وهو أبو الملوك ، وكان خروجه من المركب بموضع يعرف بالمُنَكَّب ، ثم نزل بقرية طُرُّش من كورة إلْبِيرَة . »[٣]

اجتمع الناس حول ابن معاوية وكثر مؤيدوه ، وبدأ ينظم أموره ويلَمّ جمعه للوقوف في وجه الذين سيعارضونه ، وسار بأتباعه فأيدته عدة مدن . واجتمع معارضوه بقيادة الوالي الفِهْري يُؤَيِّدُه الصُّمَيْل ، وبينما كانا راجعين من سَرَقُسْطَة وَرَدَ عليهما كتاب من قُرْطُبَة يخبرهما بأمر عبدالرحمن بن معاوية . وجرت - بادىء الأمر - مفاوضات معه وأرسلوا إليه الهدايا وأخذوه بالتلطف والعروض المغرية ، للتخلي عن

---

(١) العبر ، ابن خلدون ، ٢٦٢/٤ (= نفح الطيب ، ٣٢٨/١) . كذلك : أخبار مجموعة ، ٦٧ .
(٢) الإحاطة ، ٤٤٤/١ .
(٣) البيان المغرب ، ٤٤/٢ . كذلك : نفح ، ٣١/٣ – ٣٢ ؛ الروض ، ٣٠ .

الولاية ، كما دعوه برفق إلى المصاهرة ، ورفض ابن مُعاوية ذلك ، وقبل الهدية[1] .

انتهت كل هـذه المحاولات إلى صدام بين الفريقين ، فسار ابن معاوية بجموعه التي كانت في ازدياد الى قُرْطُبَة ، وعند الوادي الكبير جرت – لتسع أو لعشر خَلَوْنَ من ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ[2] (٧٥٦ م) – معركـة حاسمة عُرفت بمعركة المُصَارَة (المُسَارَة) . وتغلب فيها عبد الرحمن على خصومه ، وفر يوسف هارباً ونجا بنفسه ، ودخل عبد الرحمن قُرْطُبَة وبويع بها أميراً على الأندلس في اليوم التالي[3] . وأبقى قُرْطُبَة عاصمة ، وهي من قواعد الأندلس الكبرى ، وقام يوسف الفِهْري والصُّمَيْل بمحاولات يائسة انتهت بموتهما .

لُقِّبَ عبدُ الرحمن بن مُعاوية بـ « الداخل »[4] ، لأنه أول مَن دخل الأندلس مِن بني أمية حاكماً ، وبه يبدأ عهدٌ آخر في الأندلس ، نسميه « **عهد الإمارة** » حسب شكل الحكم . فقد كان كُل من حكامه يُسمى أميراً . واستمر « عهد الإمارة » هذا حوالي قرن وثلاثة أرباع القرن ، حتى إعلان الخلافة في الأندلس من قبل عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م)[5] . وعرف عبد الرحمن بن مُعاوية بـ « الأول » لأنه أولُ ثلاثة حكام (أو أكثر) من بني أمية في الأندلس حملوا هذا الاسم : مع عبد الرحمن الثاني ، الأوسط (٢٠٦–٢٣٨ هـ = ٨٢٢ – ٨٥٢ م) وعبدالرحمن الثالث ، الناصر لدين الله (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ = ٩١٢ – ٩٦١ م)[6] .

وقد لَقَّبَ أبوجعفر المنصور عبدَ الرحمن الأول بـ « **صقر قُرَيش** » لبراعته وقوة نفسه ، وتوليه الحكم في الأندلس بعد أن كان هارباً من أيدي العباسيين[7] .

ولدينا موضوعات معينة تنتظم هذا العهد ، وهذا عرضٌ لها .

---

(١) البيان المغرب ، ٤٥/٢ .

(٢) انظر : الحلة ، ٣٥/١ ؛ البيان ، ٤٦/٢ – ٤٧ ؛ أعمال الأعلام ، ٨/٢ .

(٣) نفح الطيب ، ٣٠٠/١ (نقلا عن ابن حيان) .

(٤) انظر : نفح الطيب ، ٢٧/٣ .

(٥) أدناه ، الفصل الرابع .

(٦) انظر : نفح الطيب ، ٣٤٧/١ .

(٧) راجع : نفح الطيب ٣٢٩/١ ؛ البيان المغرب ، ٥٩/٢ .

أولاً : أبرز الأحداث في هذا العهد

وقعت في هذا العهد عدة أحداث في داخل الأندلس وخارجها ، الخارجية منها مهمة وخطيرة . وتشمل هذه الأحداث في الأغلب : الأخطار التي داهمت الأندلس من الخارج نتيجة لاعتداءات خارجية ، وردّ المسلمين لها وجهادهم فيها وفي مناطق غيرها ، وبعض الأحداث المتنوعة في الداخل التي كان لها ارتباط بالحياة في الأندلس .

١ – الأحداث الخارجية

الأحداث الخارجية متنوعة . كان بعضها أخطاراً هدّدت الأنْدلس من خارج شبه الجزيرة الأندلسية ، وبعضها نشاط أندلسي تمثّل في رد عدوان إسبانيا النصرانية في شمال الجزيرة[1] أو نشاط أندلسي تمثل في جهاد المسلمين خارج الجزيرة[2] . ويتناول حديث الأخطار الخارجية – لهذا العهد – قضيتين :

آ – هجوم شارلمان على الأندلس .

ب – هجوم النورمان على الأندلس .

آ – هجوم شارلمان على الأندلس

بعد قيام الإمارة في الأندلس انشغل عبدالرحمن الداخل (دمشق،١١٣ : قرطبة، ذو الحجة سنة ١٣٨ – قرطبة ، ربيع الآخر سنة ١٧٢ ه أو قبلها[3]) – في بداية العهد – بمواجهة مشكلات حلّها ، وأحوالٍ نظّمها ، ومعارضة أزالها وقضى عليها . واستقرت بذلك الأمور له ، وساد الهدوء في الأندلس ، وبدأ عصر الإنتاج والنمو والازدهار . وكان الجو مهيئاً والغرس مستعداً للإثمار مجدداً . بفضل جهود مَن سبقه من الجنود ، من أيّ مستوى واستعداد ومكانة ، في كل ميدان . وهو دوماً بحاجة إلى الرعاية من أكثر من جهة ليستمر نموه .

---

(١) أدناه ، ٢٦٩ .

(٢) أدناه ، ٢٤٤ وبعدها .

(٣) نفح الطيب ، ٤٨/٣ (نقلاً عن ابن حيان) ؛ البيان المغرب ، ٥٨/٢ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ١٩٢/١ .

امتاز عبد الرحمن الداخل بصفات القيادة السياسية والعسكرية . وصفه شيخُ المؤرخين الأندلسيين ابنُ حيَّان القُرْطُبي (٤٦٩ هـ) بقوله : « كان عبد الرحمن راجحَ الحلمِ ، فاسحَ العلم ، ثاقبَ الفهم ، كثيرَ الحزم ، نافذَ العزم ، بريئاً من العجز ، سريع النهضة ، متصلَ الحركة ، لايُخْلِد إلى راحة ، ولايسكن إلى دَعَة ، ولا يَكِلُ الأمور إلى غيره ، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه ، شجاعاً مقداماً ، بعيدَ الغَوْر ، شديدَ الحِدَّة ، قليلَ الطُمَأنينَة ، بليغاً مُفَوَّهاً ، شاعراً مُحْسِناً ، سَمْحاً سَخِيَّاً ، طَلْقَ اللسان ، وكان يَلْبَس البياضَ ويَعْتَمُّ به ويؤثره ، وكان قد أُعْطِي هيبة من وَلِيِّه وعدوِّه ، وكان يَحضر الجنائز ، ويصلي عليها ، ويصلي بالناس إذا كان حاضراً الجُمَع والأعياد ، ويخطب على المنبر ، ويعود المرضى ، ويكثر مباشرة الناس والمشي بينهم »[1] . بهذا التعامل سار عبد الرحمن الداخل في الأندلس وأخضع الثائرين وثَبَّتَ أركانَ الدولة ، وكَفَّ العادية عنها ، فعادت للأندلس وَحْدَتُها واستقرارُها .

سعى بعض العصاة الأندلسيين ــ شمالي البلاد ــ للانفصال عن قرطُبَة بمقاومة السلطة المركزية الأندلسية والقضاء عليها بأي ثمن . استدعوا شارلمان (١٥١ ــ ١٩٩ هـ = ٧٦٨ ــ ٨١٤ م) إمبراطور الدولة الفِرَنْجِيَّة إلى الأندلس ، ليعاونهم في تحقيق هذا الهدف الأثيم ، ويكونوا له عليها وكلاء بهيئة أمراء : و « ياحبذا الإمارة ولو على الحجارة » .

كان الفِرَنْج سلطة قوية قريبة من الأندلس مجاورة له وكانوا يتخوفون من الدولة النامية فيه . لاسيما بعد أن رأوا حاكمه الجديد قضى على كل المقاومة ، وظهرت دولة الأندلس مرة أُخرى قوية متماسكة . ومنذ السنوات التي سبقت عبد الرحمن الداخل كانت سياسة الفِرَنج نحو الأندلس غير سلمية . لا تترك فرصة إلا واستغلتها في إضعاف هذه القوة . واتخذت عدة وسائل لمهاجمتها ، وقامت بتحريض العصاة تارة أُخرى في الداخل ، أو بتأييدهم وبمدهم بوسائل القوة الممكنة . زيادة إلى أنهم أحياناً اتخذوا بعض المراكز في شمال الجزيرة الأندلسية وجعلوها بمثابة مستعمرات

(١) نفح الطيب ، ٣/٣٧ .

قريبة ، ليضايقوا بها الأندلس . بجانب المحاولات لتقليص حكم الإسلام وطرد المسلمين من المناطق الجنوبية في غـّاله خلف البُرت .

كان هجوم شارلمان على الأندلس حدثاً غريباً له أسبابه ، كما له نتائجه . وقصد من ورائه الاستيلاء على الأندلس وإلحاقَه بالإمبراطورية الكارولنجية وريثة الميروفنجية سابقتها .

استَدعَى شارلمان لمهاجمة الأندلس بعضُ العصاة فيها : سليمان بن يقظان الأعرابي الكلبي – والي بَرْشَلُونة أو سَرَقُسْطَة – والحسين بن يحيى الأنصاري – والي سَرَقُسْطَة – مع آخرين .

كان عصيان الحسين بن يحيى سنة ١٥٧ هـ ، « وفي سنة سبع وخمسين ومئة ثار بسرقسطة الحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي ، وشايعه سليمان ابن يقظان الأعرابي الكلبي رأس الفتن ، وآل أمرهما الى أن فتك الحسين بسليمان ، وقتل الداخلُ الحسين »[١] . وابن عذاري يتحدث عن هذا الأمر إلا أنه يضعه سنة خمس وستين ومئة[٢] .

والظاهر أنه جرت مراسلات بينهم وبين قُرْطُبَة . فقد نقل المَقَّري عن ابن حيَّان بأن الداخل كتب إلى سليمان يدعوه إلى الطاعة ولزوم الجماعة : « قال ابن حيَّان : ووقّع إلى سليمان بن يقظان الأعرابي على كتاب منه ، سلك به سبيل الخداع : أما بعد فدعني من معاريض المعاذير ، والتعسُّف عن جادة الطريق ، لَتَمُدَّنَّ يداً إلى الطاعة ، والاعتصام بحبل الجماعة ، أو لأزوِيَنّ بنانها عن رَصَف المعصية ، نَكالاً بماقَدَّمت يداك ، وما اللهُ بظلاّم للعبيد . »[٣] ولم تُجدِ هذه المراسلات واتفق هؤلاء على دعوة شارلمان لمهاجمة الأندلس ، على أن يقوموا هم بمساعدته .

تذكر الرواية الفِرَنْجيَّة ذَهاب بعض هؤلاء العصاة إلى بلد الإفْرَنْجَة لدعوة ملكها قَارْلُهْ . في حين لاتشير الرواية الأندلسية – التي تمتاز بالدقة – إلاّ إلى تسليم العصاة قائدَ الداخل (ثَعْلَبَة) إلى قَارْلُهْ (شارلمان) . ذلك حين أرسل الداخل

---

(١) نفح الطيب ، ٣/٤٨ .

(٢) البيان المغرب ، ٢/٥٦ – ٥٧ .

(٣) نفح الطيب ، ٣/٣٩ . أوردها ابن عذاري (البيان المغرب ، ٢/٥٨) مع بعض اختلاف : « أو لألقين بنانها على رضف المعصية » بديلاً .

جيشاً لمحاربة الأعرابي بقيادة ثَعْلَبَة ، على مانقله العُذْري (٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م) عن أحمد بن محمد بن موسى الرازي (٢٧٤ ـ ٣٤٤ هـ)[1] : « كان سليمان بن يقظان من نازِل سَرَقُسْطَة . . . فخرج من قُرطُبَة ودخل سَرَقُسْطَة . وخرج لمحاربته ثَعْلَبَة بن عُبَيْد سنة أربع وستين ومئة ، ونزل مدينة طَرَسُونَة ، ووالى حربه وأضطرب على باب سَرَقُسْطَة بمعسكره ، فافترس سليمان بن يقظان غفلته وافتراق أهل الجيش ، فهجم عليه وأسَرَ ثَعْلَبَة بن عُبَيْد ، وبعث به إلى ملك الإفْرَنْج . وتأهَّب الإمام عبد الرحمن بن معاوية لغزوه ، فوثب حسين بن يحيي على سليمان بن يقظان فقتله وملك مدينة سَرَقَسْطَة . »[2]

ويُفهم من كلام ابن الأثير (٢٥ شعبان ٦٣٠ هـ) المؤرخ المشرقيّ ، في كتابه **الكامل في التاريخ** أن الأعرابي استدعى شارلمان وسلَّمَه ثَعْلَبَة رهينة في الأندلس . ذلك أنه سنة ١٦٤ هـ « سار عبد الرحمن الأموي الى سَرَقُسْطَة بعد أن كان قد سَيَّر إليها ثَعْلَبَة بن عُبَيْد في عسكر كثيف ، وكان سليمان بن يقظان ، والحسين بن يحي قد اجتمعا على خلع طاعة عبد الرحمن كما ذكرنا ، وهُما بها ، فقاتلهما ثَعْلَبَة قتالاً شديداً ، وفي بعض الأيام عاد إلى مُخَيَّمه ، فاغتنم سليمان غِرَّتَه ، فخرج إليه ، وقبض عليه ، وأخذه ، وتفرق عسكره ، واستدعى سليمانُ قَارْلُهْ ملكَ الإفْرَنْج ، ووعده بتسليم البلد وثَعْلَبَة إليه ، فلما وصل إليه لم يُصبح بيده غير ثَعْلَبَة ، فأخذه وعاد إلى بلاده ، وهو يظن أنه يأخذ به عظيم الفداء ، فأهمله عبد الرحمن مدة ، ثم وضع مَن طلبه مِن الإفْرَنْج ، فأطلقوه . »[3]

يُلاحظ من خلاصة النصوص السابقة أنها تشير إلى مسألتين ، تذكر الرواية الاوربية خلافَهما :

١ ـ أن الأعرابي لم يذهب بنفسه إلى ملك الإفْرَنْج قَارْلُهْ (شارلمان) بل ذهب آخرون ، ولم تُسَمِّ الرواية الأندلسية أحداً منهم . على حين تذكر الرواية الأوربية

(١) تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ٤٢/١ (رقم : ١٣٧) .

(٢) نصوص عن الأندلس ، ٢٥ .

(٣) الكامل في التاريخ ، ٦٣/٦ ـ ٦٤ .

وفداً برئاسة الأعرابي ذهب إلى شارلمان[1] .

٢ ـ أن الأعرابي قام بأفعاله تلك في سَرَقُسْطَة ، وأنه كانت له عليها ولاية قبل الحسين بن يحيى أو معه ، بإذن قُرْطُبَة أو بلونه . ويذكر ابن الأثير أن الأعرابي والحسين اجتمعا على خلاف عبد الرحمن بن معاوية في سَرَقُسْطَة[2] ، وحين قَتَل الحسينُ الأعرَابيَّ انفرد الأول بحكمها[3] .

ذكر ابن خَلْدون أن الأعرابي كان « عاملاً على بَرْشَلُونَة »[4] . أما ابن الأثير فيشير تلميحاً إلى أنه كان بِبَرْشَلُونَة[5] من غير تصريح بولايته عليها ، كما فعل ابن خَلْدون وتذكره الرواية الأوربية بوضوح ، بل وتزيد في ولايته جَيْرُونَة (Gerona) إلى جانب بَرْشَلُونَة (Barcelona)[6] .

تسند الروايةُ الأوربية إلى هؤلاء العصاة أدواراً أو أموراً لانجد لها ظلاً في الرواية الأندلسية ، وهي أدق وأوثق . زيادة على أنها أمور حدثت داخل الأندلس ، فهي بها أدرى ولها أوعى . اللهم إلا إذا ضاعت تلك الأصول التي ألَمَّت بهذا الأمر ، فيما ضاع من أصول التاريخ الأندلسي . فالرواية الأوربية تُضَخِّم وتُجَسِّم دور هؤلاء العصاة المخالفين .

ويجد الباحث اختلافَ تاريخ هذه الأحداث في الرواية الأندلسية ، ولعل سببه امتداد هذه الأحداث ـ متقطعة ـ أكثر من سنة واحدة ، انتهت بعد ذلك في أواسط العَقْد السابع بعد المئة الهجرية[7] . وللتفصيل يمكن تفحص ذلك في المراجع الأندلسية والدراسات الأخرى .

---

(١) *La Chanson de Roland y el Neotradicionalismo,* Menéndez Pidal, 179 ; *Andalusian diplomatic relations,* 141 ; دولة الإسلام في الأندلس ، ١٦٩/١ .

(٢) الكامل ، ٦٢/٦ ، ٦٣ .

(٣) الكامل ، ٦٤/٦ .

(٤) العبر ، ٢٦٨/٤ .

(٥) الكامل ، ٥٤/٦ .

(٦) *La Chanson,* 179 ; *Muslim colonies,* 85 ; *Andalusian diplomatic relations,* 140 ; دولة الإسلام ، ١٦٨/١ .

(٧) نصوص عن الأندلس ، ٢٦ .

أرسل الداخل سنة ١٥٨ هـ (٧٧٥ م) جيشاً إلى العصاة في سَرَقُسْطَة بقيادة ثَعْلَبَة بن عُبَيْد الجذامي ، فلم يظفر الجيش بهم ، بل أسروا ثَعْلَبَة ، ثم أرسلوه مع وفد إلى شارلمان — عُرْبُوناً ودليلاً — بدعوته لمهاجمة الأندلس والاستحواذ عليها بمعاونتهم . لكنهم باؤوا بإثمهم وتفرّق شملهم ، وعاد شارلمان بحملته العسكرية على الأندلس بالخيبة المرّة .

ويمكن القول — اعتماداً على الرواية الأندلسية — إن عاصياً أو أكثر دعا شارلمان لمهاجمة الأندلس بمعاونتهم ، وكان إرسال ثَعْلَبَة رهينة منهم لديه دليل تأكدهم واستمرارهم . وإن لم تتوفر إشارة يُهتدى بها إلى معرفة عدد أعضاء الوفد ، أو أسمائهم ، أو أنه برئاسة الأعرابي . يذكر صاحب **أخبار مجموعة** ماذكره العُذْري في نصه السابق وزاد عليه : « ثم ثار سليمان الأعرابي بسَرَقُسْطَة وثار معه حسين ابن يحيي الأنصاري من وَلَد سعد بن عُبَادَة ، فبعث إليه الأميرُ ثَعْلَبَةَ بن عبد [عبيد] في جيش ، فنازل أهل المدينة وقاتلهم أياماً ، ثم إن الأعرابي طلب الفرصة من العسكر ، فلما وضع الناسُ عن أنفسهم الحربَ وقالوا قد أمسك عن الحرب وأغلق أبواب المدينة ، أعدّ خيلاً ثم لم يشعر الناسُ حين هجم على ثَعْلَبَة فأخذه في المِظَلّة ، فصار عنده أسيراً وانهزم الجيش ، فبعث به الأعرابي الى قَارْلُهْ فلما صار عنده طَمِع قَارْلُهْ في مدينة سَرَقُسْطَة من أجل ذلك ، فخرج حتى حلّ بها فقاتله أهلُها ودفعوه أشد الدفع ، فرَجَع إلى بلده ، وخرج الأميرُ غازياً إلى سَرَقُسْطَة ... ومضى في غَزاته حتى حلّ بقرية شَنْتَبَرْيَة »[1] .

وغير معروف — تماماً — عددُ وأسماء الأشخاص الذين وافقوا الأعرابي على هذه الوجهة ، ومَن منهم قاد أوشارك في الوفد الذاهب لدعوة شارلمان لمهاجمة الأندلس وهل كان الأعرابي معهم ؟ كان الأنصاري شريكَ الأعرابي في موقفه ، إلا أنه لم يكن في وفد شارلمان . فالأحداث تؤكد أن الأنصاري لم يفارق مدينة سَرَقُسْطَة ، حتى الرواية الفِرنْجيَّة لم تذكر شيئاً عن مصاحبته لأحدٍ في وفدٍ إلى بلاد الفِرَنْجَة لدعوة ملكها . فهل كان الأنصاري متفقاً مع الأعرابيّ أو غيره على دعوة ملك

(١) أخبار مجموعة ، ١١٢ — ١١٣ .

الفِرَنْج ؟ يذكر آخرون أن دعوة شارلمان لمهاجمة الأندلس لم تأتِ من هؤلاء العصاة[1] .

التقى الذاهبون إلى بلاد الفِرَنْجَة بشارلمان ملكها ، كما تقوله الرواية الأوربية[2] .

وكان يقيم في مدينة بادربورن (Paderborn) في مقاطعة وستفاليا (Westphalia) في إمارة سكسونيا (Saxony) ، شمالي ألمانيا حالياً .

وكان شارلمان قد انتهى — لِتَوِّه — من إخضاع السكسونيين . فسَلَّمه العصاةُ ثَعْلَبَة رهينةً ، دليلاً على وجهتهم وجدِّيَّتها . وقَبِلَ شارلمان العرض ورحَّب بالفرصة وجهز جيشاً كبيراً منتخباً من كافة مقاطعات الدولة الكارولنجية ، ثم قاد هذا الجيش بنفسه إلى الأندلس .

سار شارلمان نحو الجزيرة الأندلسية مخترِقاً جبال البُرْت بعد أن قسم جيشه إلى قسمين : قسم اجتاز البُرْت من الجانب الشرقي : خلال ممر « باربينيان » (Perpignan) ، والقسم الآخر منه بقيادته من ممر باب الشِّيزرو (الشِّيزْرى) وهو ممر رُنْشِفَالَة (Roncesvalles) . ليلتقي الجيشان عند سَرَقُسْطَة ، حسَب الخُطة المتفق عليها . وعند وصول شارلمان ، مع العصاة إلى سَرَقُسْطَة وجدوا واليها الحسين بن يحيى الأنصاري قد حصّن نفسه فيها — ربما قبل وصولهم بمدة — وامتنع من تسليم المدينة الى شارلمان ، مخالفاً مااتفق عليه — إن صح ذلك — مع زملائه العصاة . ويشير هذا إلى أن الأنصاري لم يكن في جملة الوفد الذي ذهب لمقابلة شارلمان واستدعائه ، وحاول الأعرابي - عبثاً - إقناع الأنصاري الذي أصر على موقفه . ولابد أن أسباباً دعته إلى اتخاذ مثل هذا الموقف ، إذا كان قد اتفق - أصلاً - مع الأعرابي أو غيره في ذلك .

قاومت مدينة سَرَقُسْطَة الحصار الشديد الذي ضربه حولها شارلمان ، وعندما طال الحصار — دون جدوى — ووصلت أنباء ثورة السكسونيين إلى شارلمان ، اضطر الى العودة أدراجه خائباً ، وشَكَّ - أمام ذلك - في نوايا الأعرابي ، فأخذه أسيراً لديه وعاد به إلى بلاده ، ومَرَّ — خلال عودته — بمدينة بَنْبَلُونَة (Pampelona) عاصمة

---

(١) راجع : دولة الاسلام في الأندلس ، ١/١٦٩ .

(٢) . (تاريخ غزوات العرب ، ١٥٧) *Muslim colonies*, 88 ; *La Chanson de Roland*, 179

نَبَارَّة (نافار) ودَكَّ حصونَها للمرة الثانية ، حيث كان خربها خلال مجيئه إلى الأندلس في هذه الحملة .

وحين علم ولدا الأعرابي عَيْشُون ومَطْروح بمصير أبيهما لَحِقا بشارلمان لإنقاذه . وفي الوقت نفسه تهيأ البَشْكُنْس للأخذ بثأرهم . واتفقت مصالح الطرفين : البَشْكُنْس في الشمال والمسلمون من أبناء الأعرابي ومن الآخرين الذين كانو ا يسكنون في مناطق قريبة من البَشْكُنْس . وهاجموا متعاونين جيش شارلمان . وتآزر الطرفان ، ونُظِّمَت خُطة انقضاض على مؤخرة الجيش ، وهو يعبر البُرْت عائداً إلى بلاده عند ممر باب الشِّيزْرى (الشِّيزْرو) . وأبادت القوة المتعاونة مؤخرة جيش شارلمان ، حيث كان فيها كبار ضباطه مع الغنائم والأسرى ، وذلك سنة١٦١ هـ (٧٧٨ م) .

كان ممن قُتل القائد رولان (Roland) ، وفيه كانت الأنْشودة المعروفة (أنشودة رولان Chanson de Roland) . واستطاع أولاد الأعرابي انقاذَ أبيهم . فهل حقاً كان هذا بتدبير من السلطات الأندلسية ؟

تذكر الروايات التاريخية أن الداخل جَهَّزَ جيشاً لرد شارلمان ، الذي كان قد ترك الأندلس قبل أن يلحق به هذا الجيش . ثم أن هؤلاء العصاة قَتَل بعضُهم بعضاً وانتهى أمرهم[1] . وفَشِلت هذه المؤامرة الآثمة ومحاولة شارلمان المعتدية .

يُجمل ذلك ابن الأثير فيقول في حوادث سنة ١٥٧ هـ : إنه «أخرج سليمانُ بن يقظان الكلبي قَارْلُهْ ملكَ الإفْرَنْج إلى بلاد المسلمين من الأندلس ، ولقيه بالطريق وسار معه إلى سَرَقُسْطَة ، فسبقه إليها الحسين بن يحيي الأنصاري من وَلَد سعد بن عُبادَة وامتنع بها ، فاتَّهم قَارْلُهْ ملكُ الإفْرَنْج سليمانَ فقبض عليه وأخذه معه إلى بلاده ، فلما أبعد من بلاد المسلمين واطمأن هجم عليه مَطْرُوح وعَيْشُون ابنا سليمان في أصحابهما ، فاستنقذوا أباهما ورجعا به إلى سَرَقُسْطَة ، ودخلوا مع الحسين ووافقوا على خلاف عبد الرحمن »[2] .

---

(١) انظر : أخبار مجموعة ، ١١٤ – ١١٥ ؛ نصوص عن الأندلس ، ٢٦ ؛ نفح الطيب ٤١/٣ .

(٢) الكامل في التاريخ ، ١٤/٦ .

ذُكر عبد الرحمن بن حبيب الفِهْري (الصَّقْلَبي) ومحمد بن يوسف الفِهْري (ابن آخِر ولاة الأندلس) ، حين الحديث عن هذه المسألة[1] . فهل كانت لهما أيَّةُ عَلاقة بها ؟ لايبدو أن لهما علاقة بهذا الأمر . يذكر ابن عِذَاري أنه « في سنة إحدى وستين ومئة ، وقيل سنة اثنتين وستين ومئة ، دخل إلى الأندلس عبد الرحمن بن حبيب الفِهْري المعروف بالصقلبي ، فنزل كُورة تُدْمير ، فاستقر بها ، ولم تبدُ منه في تلك السنة عادية . وإنما لُقِّبَ بالصقلبي لأنه كان طويلاً ، أشقر أزرق ، أمعر . »[2] وأن الصقلبي خالف سنة ١٦٣ هـ[3] . يذكر ابن خَلْدون ذلك ويزيد عليه : بأن الصقلبي عبر إلى الأندلس داعياً للعباسيين وكتب إلى سليمان يدعوه لتأييده ، فما أجابه وتحاربا ، فهُزم الصقلبي الذي اغتيل سنة ١٦٢ هـ[4] . أما أبو الأسود محمد بن يوسف الفِهْري (١٧٠ هـ) فلم يكن له دور في هذه الأحداث لأنه كان سجيناً خلالها وقبلها[5] .

كان من نتيجة هذه الحادثة أن تغيرت سياسة دولة الفِرَنْج نحو الأندلس ، وبدا شارلمان وكأنه يؤثر السياسة السلمية تجاهها . يروي المَقَّري في **نفح الطيب** أنه قامت معاهدة سلم بين شارلمان والداخل ودعوه للمصاهرة ، « وَخَاطَبَ عبدُ الرحمن قَارْلُهْ ملكَ الإفْرَنْج — وكان من طغاة الإفْرَنْج — بعد أن تَمَرَّسَ به مدة ، فأصابَه صُلْبَ المَكْسِر ، تَامَّ الرجولية ، فمالَ معه إلى المداراة ، ودعاه إلى المُصاهرة والسِّلْم ، فأجابـه للسلم ولم تتم المُصاهرة . »[6] فمن الذي دعا الآخر إلى المُصاهرة والسلم ؟[7]

---

(١) انظر : دولة الاسلام في الأندلس ، ١٩٠ ؛ *Andalusian diplomatic relations*, 142

(٢) البيان المغرب ، ٥٥/٢ . كذلك : نصوص عن الأندلس ، ١١ ؛ الكامل في التاريخ ، ٥٤/٦ .

(٣) البيان المغرب ، ٥٦/٢ .

(٤) العبر ، ٢٦٨/٤ .

(٥) الحلة السيراء ، ٣٥١/٢ — ٣٥٣ ؛ *Andalusian*, 142

(٦) نفح الطيب ، ٣٣٠/١ — ٣٣١ .

(٧) انظر مناقشة ذلك في : *Andalusian*, 129 ff

ب – هُجوم النورمان على الأندلس

هاجم النورمان – لأول مرة – سواحلَ الأندلس الغربية فَجْأة في ذي الحجة سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٤ م) ، أيام عبد الرحمن الأوسط (الثاني) ، وتُسَمّي مصادرنا الأندلسية هؤلاء النورمان : « **المَجُوس** » ، ولا تقصد بهم : عبدة النار في إيران . بل أطلق المؤرخون والجغرافيون المسلمون – لا سيما الأندلسيون – هذا الاصطلاح « المجوس »[1] على هؤلاء النورمان سكان الدول الإسكندنافية . وتسميهم أحياناً أخرى : « **الأُرْدُمانيُّون** » . وتَستعمل الرواية الأندلسية كلا الأسمين « **المجوس الأُرْدُمانِيُّون** »[2] . ويُعرف هؤلاء النورمان (المجوس أو المجوس الأُرْدُمانِيُّون) باللغة الانكليزية Vikings أو Norsemen وبالإسبانية Normandos أو Wikingos . وهم الذين تسميهم المصادر الحديثة : **النورمان أو النورمانيون** .

اشتهر هؤلاء النورمان (المجوس الأُرْدُمانِيُّون) بنشاطهم البحري التجاري أو الحربي . واتخذت اعتداءاتهم شكلاً خطيراً على سواحل الدول الأوربية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)[3] .

ويرجعُ هذا الشعب إلى أصلٍ جَرماني ، وينقسمُ إلى ثلاث مجموعات : السويديون والنرويجيون والدنماركيون . وكان للظروف الجغرافية وغيرها أثر في الوجهة التي قصدتْها كل مجموعة من هذه الثلاثة في نشاطها التجاري أو الحربي . ويعنينا منهم الدنماركيون : سكان دنماركة (الدنمارك) . اتجه هجومُ هؤلاء إلى هولندا أو بعض سواحل إنجلترا وسواحل الإمبراطورية الفِرَنْجِيّة[4] .

---

(١) المقتبس في أخبار بلد الأندلس (بيروت) ، ابن حيان ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٨ ؛ جغرافية الأندلس وأوربا ، ١١٢ ، ١٤٥ ؛ الحلة السيراء ، ٣٧٢/٢ ؛ نصوص عن الأندلس ، ٣١ ، ٧٢ ، ٩٨ – ١٠٠ ، ١١٨ – ١١٩ ؛ المغرب في حُلى المغرب ، ٤٩/١ ؛ البيان المغرب ، ٨٧/٢ – ٨٨ ، ٩٦ ؛ الروض المعطار ، ٢٠ ، ٢٨ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ١٥٠ ، ١٨٣ ؛ المطرب من أشعار أهل المغرب ، ابن دحية ، ١٣٨ ؛ نفح الطيب ، ١٦٧/١ ، ٣٤٥ – ٣٤٦ ، ٣٥٠ ، ٣٨٣ ، ٢٥٧/٢ .

(٢) المقتبس (بيروت) ، ٢٣ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ٩٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٤١/٢ ؛ المغرب ، ٤٩/١ .

(٣) راجع : أوربا العصور الوسطى ، ٢١٠/١ .

(٤) أوربا العصور الوسطى ، ٢١٣/١ .

هاجم الدنماركيون كذلك سواحل شبه الجزيرة الأندلسية ، وإفريقية أحياناً . ومهاجمة الدنماركيين لشبه الجزيرة الأندلسية هو الذي يعنينا في البحث الحالي .

الهجوم الأول — الذي تَعَيَّن تاريخُه — لم يكن الوحيد الذي قاموا به . لكنه أقوى وأشهر اعتداءاتهم على الأندلس ، وفاجؤوه به .

تكرر اعتداء المجوس الأرْدُمانيين (النورمان) الدنماركيين المُخَرِّب على الأندلس ، فقد كانوا مَهَرة في ركوب البحر والتحرك فيه ، بل وفي صناعة أنواع من السفن تعينهم في ذلك . وجاء وصفهم وبيان عوائدهم في الهجوم لدى كتاب الجغرافية — المنسوب إلى أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزُّهْري — حوالي النصف الثاني من القرن السادس الهجري أنــه كانت تخرج من البحر (المتوسط وكذلك الأطلسي) « مراكب عظام كان أهل الأندلس يُسَمُّونها القَراقِير وهي مراكب كبار بقُلوع مربعة ، تجري إلى أمامها وإلى خلفها . وكان يخرج فيها أقوام يُعرفون بالمجوس كانت لهم شدةٌ وبأسٌ وقوة وجَلَدٌ على ركوب البحر ، وكانوا متى ما خرجوا خلَت منهم سواحل البحر مخافة منهم . وكانوا لا يخرجون إلا على رأس ستة أعوام أو سبعة . وكانو أقل ما يخرجون في أربعين مركباً ، وربما بلغوا المئة مركب ، ويَغْلِبون كُلَّ مَن لَقُوه في البحر ويَسْبُونَهم ويأسرونهم . »[1]

الهجوم الأول

تذكر مصادرنا التاريخية ، فيما يتعلق بهجوم المجوس (النورمان) الأول على الأندلس : أنه في أوائل شهر ذي الحجة ٢٢٩ هـ (آب = اغسطس ٨٤٤ م) ظهر المجوس الأرْدُمانيُّون (النورمان) فجأة ، أمام مدينة لِشْبُونَة (أُشْبُونَة ، الأُشْبُونَة) في أربع وخمسين مركباً ومثلها أو أكثر قوارب . وانحدروا بعدها إلى إشْبِيلِيَة ، بعد أن مَرّوا مهاجمين مدينة لَبْلَة (Niebla) ثم قَادِس (Cadiz) ثم شَذُونَة (Sidona) . وغادروا إشْبِيلِيَة ليهاجموا قُرطُبَة براً على الخيل[2] .

---

(١) كتاب الجغرافية ، ٢١٥ (رقم: ٢٤٠) . قراقير : جمع قُرْقُور : « السفينة الطويلة العظيمة » . المعجم الوسيط .   (٢) تاريخ افتتاح الأندلس ، ابن القوطية ، ٨٦ .

ثم عادوا إلى اشْبِيلِيَة — بعد أحداث ومعارك — فمدينة لَبْلَة وأُكْشُونُبَة (Ocsonoba) فباجَة ، ثم لِشْبُونَة ليغادروها إلى عرض البحر ويتغيبوا فيه منقطعين. وارتكبوا خلال ذلك فظائع وفضائح من القتل والنهب والتخريب .

ويذكر العُذْري أنه : « في سنة تسع وعشرين ومئتين ، ورد كتاب وَهْب الله ابن حَزْم عامل الأُشْبُونَة ، بذكر أنه حَلّ بالساحل قِبَلَه أربعة وخمسون مركباً للمجوس ، ومعها أربعة وخمسون قَارِباً . فخرجت الكتب إلى العمال بالاحتراس ، وفيها نَزَع إلى الإمام عبد الرحمن غَلَنْدَر بن وَنَقُهْ وحضر قتال المجوس . »(١)

يذكر ابن سعيد الأندلسي خبرهم وظهورهم على شواطيء إشْبِيلِيَة — مختصراً — فيقول : « وفي سنة تسع وعشرين ظهرت مراكب الأُرْدُمانين [الأرُدْمانِيِّين] المجوس بسواحل غرب الأندلس . ويوم الأربعاء لأربع عشرة خَلَت من محرم سنة ثلاثين ومئتين حَلَّت على إشْبِيلِيَة — وهي عَوْرة — فدخلوها واستباحوها سبعة أيام الى أن جاء نصر الخَصِي ، وهزم عنها النصارى المعروفين بالمجوس ، وعاث في مراكبهم . »(٢) وأورد تفاصيل هذا الهجوم وما تلاه ، عدد آخر من مراجعنا — بعضها مفقود — منها :

* **المُقْتَبِس من أنباء أهل الأندلس** لابن حَيَّان القُرْطُبي (٤٦٩ هـ) . ما يتعلق بهذا الهجوم — من الجزء الثاني — كان موجوداً وفُقِد .

* قطعة من جغرافية أحمد بن عمر بن أنس العُذْري (٤٧٨ هـ) المعروف أيضاً بابن الدلائي . هي الجزء السابع من مُؤلَّفِه الجغرافي المُسَمَّى : **ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك** . نشرت بعنوان : **نصوص عن الأندلس** .

---

(١) نصوص عن الأندلس ، ٩٨ . كذلك : البيان المغرب ، ٨٧/٢ .

(٢) المغرب في حلى المغرب ، ٤٩/١ .

* بيان ابن عِذارِي (٧٠٦ هـ) الموسوم : **البيان المُغْرِب في أخبار الأندلس والمَغْرِب**، الجزء الثاني منه .
* مؤلفات أندلسية أخرى سبقت وتتلو مقتبسات منها أو الإشارة إليها ، وأورَدَتْه باختصار .

ونص **البيان المُغْرِب** المنقول أدناه أخصر من نصَّيْ سابقيْه وأولهما نص **المُقْتَبِس** مفقود . يقول ابن عِذارِي : « فخرج المجوس في نحو ثمانين مركباً ، كأنما ملأت البحر طيراً جُوناً ، كما ملأت القلوب شَجْواً وشُجوناً . فحلُّوا بأشبونَة ثم أقبلوا إلى قادِس ، إلى شَذُونَة ، ثم قَدِموا على إشْبِيلِيَة ، فاحتلُّوا بها احتلالاً ونازلوها نِزالاً ، إلى أن دخلوها قسراً ، واستأصلوا أهلَها قتلاً وأسراً . فبقوا سبعة أيام ، يَسْقُون أهلها كأس الحِمام . واتصل الخبر بالأمير عبد الرحمن فقدَّم على الخيل عيسى بن شُهَيْد الحاجبَ ، واتصل المسلمون به اتصالَ العين بالحاجب وتوجَّه بالخيل عبد الله ابن كُلَيْب وابن رُسْتُم وغيرهما من القواد ، واحتل بالشَّرف . وكتب إلى عُمَّال الكُوَر في استنفار الناس ، فحلُّوا بقُرْطُبَة ، ونفر بهم نَصْر الفتى . وتوافت للمجوس مراكب على مراكب ، وجعلوا يقتلون الرجال ، ويَسْبُون النساء ، ويأخذون الصبيان ، وذلك بِطُول ثلاثة عشر يوماً . . . وكانت بينهم وبين المسلمين مَلاحِم . ثم نهضوا إلى قَبْطيل ، فأقاموا بها ثلاثة أيام ، ودخلوا قَوْرَة ، على اثني عشر ميلاً من إشْبِيلِيَة ، فقتلوا من المسلمين عدداً كثيراً ، ثم دخلوا إلى طَلْيَاطَة ، على ميلَين من إشْبِيلِيَة ، فنزلوها ليلاً ، وظهروا بالغداة بموضع يعرف بالفَخَّارين ، ثم مَضَوْا بمراكبهم ، واعتركوا مع المسلمين ، فانهزم المسلمون ، وقُتل منهم ما لا يُحصى . ثم عادوا إلى مراكبهم . ثم نهضوا إلى شَذُونَة ، ومنها إلى قَادِس ، وذلك بعد أن وجه الأمير عبد الرحمن قواده ، فدافعهم ودافعوه ، ونُصبت المجانيق عليهم ، وتوافت الأمداد من قُرْطُبَة إليهم . فانهزم المجوس وقُتل منهم نحو من خمس مئة عِلْج ، وأُصيب لهم أربعة مراكب بما فيها ، فأمر ابن رُسْتُم بإحراقها وبيع ما فيها من الفَيْء . ثم كانت الوقعة عليهم

بقرية طَلْيَاطَة يوم الثلاثاء لخمس بقِينَ من صَفَر من السنة ، قتل فيها منهم خلق كثير ، وأُحرق من مراكبهم ثلاثون مَرْكَباً . وعُلِّق من المجوس بإشْبِيلِيَة عدد كثير ، ورُفع منهم في جُذُوع النخل التي كانت بها . وركِبَ سائرُهم مراكبهم وساروا إلى لَبْلَة ، ثم توجهوا منها إلى الأُشْبونَة ، فانقطع خبرهم . »[1]

قَبطِيل (قَبْطِل أو قَبْطَال)[2] (Captel) : جزيرة قرب مصب الوادي الكبير . وهي « إحدى جزر إشْبِيلِيَة القريبة منها »[3] . تُسَمَّى اليوم بالإسبانية La Isla Menor (الجزيرة الصغرى) . بقربها وأكبر منها جزيرة أخرى هي : « قَبْطُور » أو « قَبْتُور »[4] (Captor) . « وقَبْطُور وقَبْطَال قريتان في وسط النهر »[5] ، يعني : الوادي الكبير قرب إشْبِيلِيَة . وتُسَمَّى هذه بالإسبانيَّة La Isla Mayor (الجزيرة الكبرى) .

طَلْيَاطَة (Tejada) تقع على ٣٠ كم شمال غرب إشْبِيلِيَة[6]. ولعل المقصود هنا طَبْلاطَة (Tablada) ضاحية لإشبيلية على بعد نحو ٢٠ كم شمالها، وهو موضع مطارها حالياً .

نجد مجملاً مفيداً حسناً لهذه الأحداث وبعض نتائجها لدى المَقَّرِي ، حين الحديث عن الأمير عبد الرحمن الأوسط :

---

(١) البيان المغرب ، ٢/٨٧ – ٨٨ . كذلك : نصوص عن الأندلس ، ٩٨ – ١٠٠ .

(٢) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ١٧٧ (= الحلل السندسية ، ١/٨٣) ؛ المغرب ، ١/٢٩٢ . كذلك : نفح ، ١/١٨٢ .

(٣) برنامج شيوخ الرعيني ، أبو الحسن الرعيني الإشبيلي ، ٨٧ . انظر : نفح الطيب ، ٣/٣٠٤ ؛ *Andalusian diplomatic relations*, 168. قارن : الروض المعطار ، ١٥٠ .

(٤) انظر : الصلة ، ١/٢١٦ (رقم : ٤٨٦) .

(٥) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ١٧٧ .

(٦) انظر : الروض المعطار ، ١٢٨ ؛ الصلة ، ١/٥٤ (رقم : ١١٦) ، ٢/٣٥٩ (رقم : ٧٧١) ؛ التكملة ، ١/١١٦ (رقم : ٢٩٣) ؛ الحلة السيراء ، ٢/١٨٣ ؛ *Recherches*, Dozy, I, 308 – 11.

« وفي أيامه ظهر المجوس ، ودخلوا إشْبِيلِيَة ، فأرسل إليهم عبدُ الرحمن العساكر من القواد من قُرْطُبَة ، فنزل المجوس من مراكبهم ، وقاتلهم المسلمون فهزموهم بعد مُقام صعب ، ثم جاءت العساكر مَدَداً من قُرْطُبَة فقاتلهم المجوس، فهزمهم المسلمون وغَنِموا بعض مراكبهم وأحرقوها ورحل المجوس إلى شَذُونَة فأقاموا عليها يومين ، وغَنِموا بعض الشيء ، ووصلت مراكب عبد الرحمن إلى إشْبِيلِيَة فأقلع المجوس الى لَبْلَة ، وأغاروا وسَبَوْا ، ثم إلى بَاجَة ثم أُشْبُونَة ثم انقطع خبرهم حين أقلعوا من أُشْبُونَة ، وسكنت البلادُ وذلك سنة ثلاثين ، وتقدّم عبدُ الرحمن بإصلاح ماخرّبوه من البلاد ، وأكْثَفَ حامِيَتَها . »[1]

م ذلك فَجْأة ، وأخذوا شواطىء الأندلس ومدنَه الساحلية على غِرّة وليس هناك استعداد ، إذ لم يُعرف مثل هذا الخطر ، وما عَرَفوا لأحد منه اعتداء . واستطاع الأندلسيون جمعَ شَتَاتهم ولَمّ شَمْلهم ونزلوا للمعركة ، وانتهى الأمر برد هؤلاء المجوس المعتدين وطردهم ، بعد أن قُتل منهم مِئُون كثيرة ، بينهم قائدهم[2] . ودُمّر من مراكبهم أربعة وثلاثون مركباً . كما قتل من الأندلسيين الكثير . لكنهم رُدوا بشدة ، وعُرف بهذا الحدث عدد من القادة الأندلسيين[3] .

استغرقت هذه العمليات — منذ ظهور المجوس ، أمام لِشْبُونَة في ذي الحجة سنة ٢٢٩ هـ وحتّى اختفائهم عنها وانقطاع خبرهم منها — نحو مئة يوم[4] .

ذُكر[5] — من غير مصدر — أنه بقيت منهم جماعة في الأندلس سكنت في في ضواحي إشْبِيلِيَة ، وأسلمت واحترفت تربية المواشي وصناعة الجبن ، فكانوا يُنتجون أحسن أنواعها . ولم يتوفر مصدر أندلسي ذكر هذا الأمر — ، لكن المَقَّرِي

---

(١) نفح الطيب ، ١/٣٤٥ — ٣٤٦ . كذلك : العبر ، ابن خلدون ، ٤/٢٨١ — ٢٨٢ ؛ الكامل ، ٧/١٦ — ١٧ . راجع : أعمال الأعلام ، ٢/٢٠ .

(٢) المطرب من أشعار أهل المغرب ، ابن دحية ، ١٣٨ (= أدناه ، ٢٣٣) .

(٣) انظر : الحلة السيراء ، ٢/٣٧٢ .

(٤) راجع : *Andalusian diplomatic relations*, 168 – 71 .

(٥) *Histoire de l'Espagne Musulmane*, I, 244 (Sp. tr. , IV, 149 – 150) ; *La Civilisation Arabe en Espagne*, 133.

يحدثنا — نقلا عن الحِجَاري ، ولعله من مُسْهِبه المفقود — عن مدينة شَرِيش (Jerez de la Frontera) بأنها « بِنْت إشْبِيلِيَة ، ووادِيها ابن واديها ، ... ومما اختصت به إحسان الصَّنْعة في المُجَبَّنات ، وطيب جُبنها ، يعين على ذلك ، ويقول أهل الأندلس : من دخل شَرِيش ولم يأكل بها المُجَبَّنات فهو محروم »[1] .

نتائج الهجوم الأول : كان لهذا الهجوم عدة نتائج ، منها :

١ — إرسال ملك دنماركة (الدانمارك : هوريك Horic : ٢٤٠ هـ = ٨٥٤ م) إلى الأندلس وفداً يطلب عقد معاهدة لإحلال السلم مكان العداء ، فوافقت السلطة الأندلسية وأرسل عبد الرحمن الأوسط سفارة جوابية إلى دنماركة مقر المهاجمين ، وكانت هذه السفارة الأندلسية برئاسة الشاعر الحكيم الأندلسي المعروف بـ « الغَزَال » . وهو يحيى بن حَكَم البَكْري الجَيَّاني[2] .

سَفَرَ الغَزَال مع وفد المجوس النورمان العائد مُبحراً من مدينة شِلْب[3] (Silves) في غرب الأندلس على المحيط الأطلسي ، تُجاه الشمال « ولما وفد على السلطان عبدِ الرحمن رُسُل مَلك المجوس يطلب الصلح بعد خروجهم من إشْبيلِيَة وإيقاعهم بجهاتها ثم هزيمتهم بها وقتْل قائد الأسطول فيها ، رأى أن يراجعهم بقبول ذلك . فأمر الغَزَالَ أن يمشي في رسالته مع رُسُل ملكهم ؛ لِما كان الغَزَالُ عليه من حِدَّة الخاطر وبَديهة الرأي وحسْن الجواب والنجدة والإقدام والدخول والخروج من كل باب ، وصُحْبَتَه يحيى بن حبيب . فنهض إلى مدينة شِلْب وقد أُنشىء لهما مركب حسن كامل الآلة ، ورُوجعَ ملك المجوس على رسالته وكوفىء على هديته ، ومشى رسولُ ملكهم في مركبهم الذي جاءوا فيه مع مركب الغَزَال .

---

(١) نفح الطيب ، ١٨٤/١ . والمجبنات — كما يشرحها المقري في نفس الصفحة — « نوع من القطائف يضاف إليها الجبن في عجينها ، وتقلى بالزيت الطيب » .

(٢) عنه راجع : نفح الطيب ، ٢٥٤/٢ وبعدها . المطرب من أشعار أهل المغرب ، ابن دحية ، ١٣٣ وبعدها ؛ *Andalusian diplomatic relations*, 166 – 8.

(٣) انظر : الروض المعطار ، ١٠٦ ؛ الحلة السيراء ، ٦٢/١ ، ١٣١/٢ .

فلما حاذَوْا الطَّرَفَ الأعظم الداخل في البحر ـ الذي هو حَدُّ الأندلس في آخر الغرب ، وهو الجبل المعروف بألُويَه ـ هاج عليهم البحر ، وعصفت بهم ريح شديدة »[1] .

استمر سير الوفد المرافق حتى بلغ الدنمارك ، كما وصف ابن دِحْيَة في **مُطْربه** ، حيث لاقَوْا الأهوال وتعرضوا للأخطار ، وانفق الغزّال وأعضاء الوفد الأندلسي هناك ما قد يزيد على السنة ، كانت فيها « للغزّال معهم مجالس مذكورة ، ومَقَاوِمُ مشهورة ، في بعضها جادل علماءهم فبكّتهم ، وفي بعضها ناضل شُجْعانَهم فأثبتهم . »[2] وعاد الوفد الأندلسي إلى قُرْطُبَة عن طريق جِلِّيقيَة ، حيث أقام فيها « ثم انفصل الغزّال عنهم ، وصَحِبَهُ الرسلُ الى شَنْت يَعقوب بكتاب ملك المجوس إلى صاحبها ، فأقام عنده مُكَرَّماً شهرين ، حتى انقضى حَجُّهُم فَصَدَرَ إلى قَشْتَالَة مع الصادرين ، ومنها خرج إلى طُلَيْطُلَة حتى لَحِق بحضرة السلطان عبد الرحمن بعد انقضاء عشرين شهراً »[3] .

٢ ـ بناء سور إشْبيليَة أيام عبد الرحمن الأوسط . يذكر ابن حَيَّان (٤٦٩ هـ) نقلاً عن كتاب مفقود لمُعاويـة بن هِشام الشَّبِينْسي[4] : « كتب عبد الملك بن حبيب إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم إثْر محنة أهل إشْبِيليَة وتحصينها ، ووافق ذلك أيام شروع الأمير عبد الرحمن في بُنيان زيادته بالجامع بِقُرْطُبَة المشهور بها ، وذكر له في كتابه أن بنيان سور مدينة إشْبِيليَة وتحصينها أوْكَد عليه من بُنيان الزيادة في المسجد الجامع ، فعمل برأيه في بُنيان سور إشْبِيليَة . ولم يُثْنِ ذلك عَزْمَه عن بُنيان الزيادة ، فأعطى كلاً منهما بقسطة من إرهاق العزيمة والسَّخْو بالنفقة إلى أن

---

(١) المطرب من أشعار أهل المغرب ، ١٣٨ ـ ١٣٩ (= مخطوط المتحف البريطاني رقم : OR. 77 ، ورقات ١٠٤ ب ـ ١١١ ب) .

(٢) المطرب ، ١٤٢ .

(٣) المطرب ، ١٤٦ .

(٤) انظر : التكملة ، ٦٩٢/٢ (رقم : ١٧٤١) ؛ المقتبس ، ٢٣/٢ ، ٤٤٣ ؛ الحلة السيراء ، ٤٠/١ .

كَمَلا معاً كما أراده . »[1] ويذكر البكري أنه « كان سور إشبيليّة من بناء الإمام عبد الرحمن بن الحكم ، بناه ــ بعد غلَبة المجوس عليها ــ بالحَجَر أحكم بناء وكذلك جامعها اليوم من بنائه ، وهو من عجيب المَباني وجليلها ، وصومعتُه بديعةُ الصنعة غريبة العمل »[2] .

٣ ــ نمو البحرية الأندلسية بسرعة كبيرة بحيث أن المجوس لم يحققوا شيئاً وخسروا كثيراً في بداية هجومهم الثاني سنة ٢٤٥ هـ ، بعد خمسة عشر عاماً من الأول . وقد رُدُّوا عن سواحل الأندلس وتكبدوا الكثير . كما زادت دُور صناعة السفن كثْرة وقوة ومهارة . غدا الأسطول الأندلسي مستعداً دوماً ، وحارساً ليس فقط لسواحل الأندلس ، بل يجول مياهَ الأطلسي حتى خليج بَسْقَايَة (بسكاي)[3] . بل من شواطيء الفِرَنْجَة على المتوسط في الشرق إلى شواطئهم أو أعالي شواطيء جِلِّيقِيَة على الأطلسي في الغرب[4] . أي : غطت حراستها جميع السواحل الأندلسية الأطلسية والمتوسطية ، وزادت عليها في كليهما .

لم تتوقف غزوات النورمان على الأندلس بعد هذا الهجوم ، بل كانت لهم هجمات أخرى تلته ، بعضها في عهد الإمارة وغيرها أيام الخلافة . وهذه نبذ عنها في بقية أيام الإمارة .

الهجوم الثاني

انتهى هجوم النورمان الدنماركيين الأول بقيام معاهدة في أيام ملكهم هوريك

---

(١) المقتبس (بيروت) ، ٢٤٤ . كذلك : المغرب ، ٤٩/١ ، ٩٦/٢ . عن عبد الملك حبيب (٢٣٨ هـ) الفقيه العالم المؤلف انظر : تاريخ علماء الأندلس ، ٢٦٩/١ (رقم : ٨١٦) .

(٢) جغرافية الأندلس وأوربا ، ١١٢ . كذلك : الروض المعطار ، ٢٠ .

(٣) انظر : المقتبس ، ٣٠٨/٢ ؛ البيان المغرب ، ٩٦/٢ ؛ الحضارة الإسلامية في الأندلس ، ٤٦ ؛ أدناه ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ؛ *Andalusian diplomatic relations*, 164 — 5.
كذلك : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي ، ١٦٠ (الإشارة هنا في القسم الذي كتبه الدكتور سالم) .

(٤) انظر : المقتبس ، ٣٠٨/٢ ، ٣١١ (= أدناه ، ٢٣٧ ، ٢٣٩) . كذلك : البيان المغرب ، ٩٦/٢ (= أدناه ، ٢٣٨) .

(Horic) . وبعد وفاته (٢٤٠ هـ) أيام الأمـير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ – ٢٣٨ هـ = ٨٢٢ – ٨٥٢ م) – عادوا إلى مهاجمة الأندلس سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) في اثنين وستين مركباً .

وأبحروا في هذا الهجوم عَبْر خط طويل حول الجزيرة الأندلسية . انحدروا جنوباً حتى الجزيرة الخضراء وأحرقوا مسجدها الجامع ، لعله مسجد الرايات[١] . ثم دخلوا البحر المتوسط وهاجموا مدينة نَكُور في الشمال الإفريقي على المتوسط شرق طَنْجَة « وغزا المجوس مدينة نَكُور سنة أربع وأربعين ومئتين ، فتغلبوا عليها وانتهبوها وسَبَوْا من كان فيها ، إلا من خلَّصَه الله بالفرار ، وكان ممَّن سَبَوْا أمَةُ الرحمن وخَنْعُولَةُ ابنتا واقف بن المعتصم بن صالح ففداهنّ الإمام محمد بن عبد الرحمن . »[٢] على حين يقول العُذْرِي : « وفي سنة خمس وأربعين ومئتين خرجت المجوس في ساحل الغرب في ثمانين مركباً ، فأبدى الأمير محمد بإخراج العساكر ومن انضوى إليهم من المُطَوِّعَة . . . وتقدمت مراكب المجوس . . . حتى وصلت ودخلت الجزيرة ، وتغلبت على الحاضرة ، وأحرقت المسجد الجامع ، ثم جازت إلى العُدْوَة ، وحلَّت بنَاكُور ، وعادت الى عُدْوَة الأندلس . »[٣]

عادوا – بعدها – إلى شواطيء الأندلس الشرقية مُصَعِّدين في البحر المتوسط ، فردهم المسلمون وطردوهم[٤] . ووصلوا حتى إفْرَنْجَة (جنوب شرق بلاد غالة) حيث أسروا ونهبوا ، وشَتَوْا في مدينة هناك حملت اسمهم ، ثم عادوا إلى الساحل الأندلسي – عبر مضيق جبل طارق ، تُجاه الساحل الغربي – فصعدوا فيه شمالاً حتى وصلوا خليج بَسْقايَة (بسكاي) ، وهاجموا بَنْبُلُونَة ، عاصمة نَبَارَّة (نافار) ، وأسروا ملكها غَرْسِيَه بن وَنَقُهْ (Garcia Iñiguez) ففدى نفسَه منهم .

---

(١) أعلاه ، ٧٣ ، ١٤٦ .

(٢) وصف افريقية ، البكري ، ٩٢ . كذلك : البيان المغرب ، ١٧٦/١ .

(٣) نصوص عن الأندلس ، ١١٨ – ١١٩ .

(٤) راجع : البيان المغرب ، ٧٥/٢–٧٧ ؛ جغرافية الأندلس وأوربا ، ١٣٨–١٤٠ ، ٢١٢ ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ٢٤٣/١ – ٢٤٦ ؛ تاريخ المسلمين ، ٢٢٢ – ٢٢٥ .

يُجْمِل ابن حَيَّان ذلك حين سَرَدَ أحداث سنة ٢٤٥ هـ : « وفيها خرج المجوس – لعنهم الله – الى ساحل الغرب من أرض الأندلس ، وهو خروجهم الثاني ، خرجوا في اثنين وستين مركباً ، فألْفَوْا البحر محروساً ومراكب الأمير محمد فيه جارية مابين حائط إفْرَنْجَة في الشرق إلى أقصى حائط غَلِيسْيَة في الغرب ، وتقدم من مراكبهم مركبان تلقتها المراكب المنصوبة الجارية من حائط جِلِّيقية مُغافِصة في بعض مراسي كُورَة باجَة فغنمتها بما كان فيهما من مال ومتاع وعدة وسبي .

« ومضت مراكب المجوس في الريف حتى انتهت إلى مصب نهر إشْبِيلِيَة وما يليها ، وذهب الرعب بهم كل مذهب ، وبادر الأمير محمد بإخراج الجيش الى الغرب واستنفار الناس إلى العدو الطارق ، فنفروا من كل أوب ، وكان القائد لجيش السلطان نحوهم عيسى بن الحسن بن أبي عَبْدَة الحاجب ، وتقدمت مراكب الكفرة عن إشْبِيلِيَة ، فاحتلت بالجزيرة الخضراء ، وتغلبت على الحاضرة ، فاستباحتها وأحرقت المسجد الجامع ، ثم أقلعت عن برِّ الأندلس تطلب العُدْوَة ، فاحتلت بها واستباحت أريافها ، ثم عادت إلى ريف الأندلس الشرقي وتوافت بساحل تُدْمِير ، ثم انتهوا إلى حصن أُورْيُولَة ، ثم تقدموا إلى إفْرَنْجَة فَشَتَوْا بها وأصابوا بها الذراري والأموال وتغلبوا بها على مدينة سكنوها فهي منسوبة إليهم إلى اليوم ، حتى انصرفوا الى ريف بحر الأندلس ، وقد ذهب من مراكبهم أكثر من أربعين مركباً فلقيتهم المراكب التي كان أعدها لهم قَرْقَاشِيش بن شَكُّوح وخَشْخَاش ، ومعهما نِيَم النَّفْط وأصناف العُدَّة البحرية والكثيف من الرماة بأوسع ما يحتاجون إليه من النِّشَّاب ، فأصابوا مركبين من مراكبهم بريف شَذُونَة ، فيهما أموال كثيرة وأمتعة واسعة ، صدمهم ابن شَكُّوح وخَشْخَاش صاحبه رئيسا أُسطول السلطان ، وقاتلاهما حتى غلباهم على مركبين آخرين ، فأحرقاهما بجميع من كان فيهما ، وحمي المجوس عند ذلك على خَشْخَاش ، فأحدقوا به وضاربهم في صدر مركبه دِراكاً حتى استُشْهِد رحمه الله .

« ثم مضت بقية مراكب المجوس مُصعِّدة حتى انتهت إلى حائط بَنْبُلُونَة فاستغارت على البَشْكُنس ، وأصابوا منهم ، وأسروا غَرْسِيَه بن وَنَقُهْ أميرَهُم ،

فافتدي منهم بسبعين ألفاً ارتهنوا منه في بعضها أولاده وخلّوْا عنه »[1] . لكن العُذْري يزيد شيئاً في أمر هذه الفدية : « بسبعين ألف دينار دراهم ارتهن في بعضها أولاده . »[2]

خسر النورمان في هذا الهجوم مايزيد على أربعين من مراكبهم وكثرة من رجالهم ورُدُّوا خائبين ، وكان الأندلسيون قد أخذوا درساً من الهجوم الأول ، فحصّنوا بعض المدن الساحلية ، وأنشأوا سفناً حربية لحماية شواطئهم في الجزيرة الأندلسية ، فلم يستطع الأُرْدُمانيُّون النَّيْل من الأندلس مثلما فعلوا في المرة الأولى ، حسب تقرير ابن حيَّان في أول نصه المُقْتَبَس آنفاً . وإلى ذلك يشير ابن عِذَاري بأن المجوس حين خرجوا على ساحل الأندلس الغربي في اثنين وستين مركباً « وجدوا البحر محروساً ، ومراكب المسلمين مُعَدَّةً ، تجري من حائط إفْرَنْجَة إلى حائط جِلِّيقِيَة في الغرب الأقصى . »[3]

الهجوم الثالث

يذكر العُذْرِي أنه بعد سنتين من الهجوم السابق قام المجوس النورمانيون بمهاجمة الأندلس فرُدُّوا على أعقابهم « وفي سنة سبع وأربعين ومئتين ظهرت مراكب المجوس في البحر ، فكُتب إلى عمال الساحل بالاحتراس والتحفظ ، فعطب بعضها في ناحية البُحَيْرة من الجزيرة ، وكتب بذلك العامل على الجزيرة مُطَرِّف بن نُصَيْر إلى الإمام محمد ، ونجا باقي المراكب إلى جهة إفْرَنْجَة . »[4]

ويقدمُ ابن حَيَّان ـ حين التعرض لأحداث سنة ٢٤٧ هـ ـ صورةً واضحة عن هذا الهجوم الثالث للمجوس على الأندلس ، الذي لم يجدوا فيه منفذاً وإليه مركباً

---

(١) المقتبس ، ٢/٣٠٧ – ٣٠٩ . كذلك : مجلة الأندلس (الإسبانية)
AL-ANDALUS, XIX, 308 (1954, fasc. 2).
مغافصة : الأخذ على غِرَّة ، نيم : جمع نِيمة : تعني – لدى الأندلسيين – القنينة . المقتبس ، ٢/٥٩٨ .

(٢) نصوص عن الأندلس ، ١١٩ . انظر كذلك : الكامل ، ٧/٩٠ .

(٣) البيان المغرب ، ٢/٩٦ . كذلك : المقتبس ، ٢/٣٠٨ (= أعلاه ، ٢٣٧) . عن هجوم المجوس الثاني راجع : *Andalusian,* 151 – 61

(٤) نصوص عن الأندلس ، ١١٩ .

ومعه مغنماً ، بقوله : « فيها كان خروج المجوس إلى الأندلس ، فلم يكن لهم في هذه الكَرّة من الانبساط في البحر والإضرار بأهل السواحل ماجرت به عادتهم ، ولم يجدوا في السواحل مطمعاً لشدة ضبطها ، ولاقوا مع ذلك من البحر هولاً عطبت له من مراكبهم أربعة عشر مركباً بناحية البُحَيرة من الجزيرة ، فنكبوا عن حائط الأندلس واعتلوا إلى جهة الفِرَنْجَة ، فلم يلقوا ظفراً ، وأسرعوا الانصراف إلى بلدهم بالخيبة ، فلم يكن لهم بعد إلى الأندلس الى اليوم عودة . وقال معاوية بن هِشام :

« خرجت المجوس إلى ساحل الغرب سنة سبع وأربعين ومئتين في خلافة الأمير محمد في ستين مركباً طالبين فرصة ، فألْفَوْا البحر محروساً والمراكب تجري فيه مابين حائط إفْرَنجَة ، في الشرق وحائط جِلِّيقِيَة في الغرب ، وتقدم من مراكبهم مركبان لقيا مراكب المسلمين ، فأصابوهما بمن فيهما ، وأخذوا بهما الكفرة .

« فصار أسطولهم قدماً حتى انتهى إلى مكان مصب نهر إشْبِيلِيَة في البحر الرومي ، فارتاع أهل الساحل ، وجرد الأمير الجيوش نحوهم ، واستنفر الناس إليهم ، وقدم كُلَيب بن محمد بن ثعلبة القائد في كثيف من الرجال إلى الجزيرة ، وأخرج أثيره الحاجب عيسى بن الحسن بن أبي عبدة إلى إشْبِيلِيَة ، وأخرج عبد السلام بن عبد الله ابن ثعلبة إلى رَيَّة ، وأكثَف بهم العَدد ، وأجلب المجوس بجهة إشْبِيلِيَة ، فذادهم عنها الحاجب عيسى بن الحسن بمن معه في الأسطول »[1] .

لم يهاجم المجوس النورمان هذه المرة ساحل الأندلس الغربي (على الأطلسي) بل انحدروا نحو الجزيرة الخضراء ورُدوا هنـاك ، فلم يظهروا بعده . ولعلهم عادوا إلى الشمال الإفريقي ، بعيدين عن الساحل الأندلسي .

بعد هذا الهجوم لانجد للنورمان هجوماً على الأندلس ، وتوقفوا نحو مايزيد على قرن من الزمان ، حتى أوائل النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، حيث قاموا بأكثر من هجوم أيام الخليفة الحكم المستنصر بالله (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ) بن عبد الرحمن

(١) المقتبس ، ٢/١/٣١١-٣١٢ . وترد (صار) - عند الأندلسيين - بمعنى (سار) . قارن : أدناه ، الفصل الرابع . فهل هذا كلام منقول عن مؤرخ سابق ، أم ذهب بعضه فبدا كذلك ؟

الناصر لدين الله (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) . هاجموا الأندلس في سنوات : ٣٥٥ هـ و ٣٦٠هـ و ٣٦١ هـ ، ورد الأندلسيون كل هذه المحاوت الخائبة ، وسوف تجد تفصيل ذلك مسطوراً في حوادث عهد الخلافة .

٢ ـ الأحداث والقضايا الداخلية

قامت في هذا العهد بعض المخالفات الداخلية . وكانت تنتهي بالصلح أو بالحرب بجَهْد قليل أو كثير . وكانت اسبانيا الشمالية ودولة الفرنجة كثيراً ما تمد يد المساعدة للعصاة ، أو تقوم بحثّهم على الاستمرار أو تحريضهم وإثارتهم ابتداءاً[1] .

آ ـ الدعوة للعباسيين

ذُكر أنه بعد مرور عشرة شهور على تولي الداخل إمارة الأندلس قطع الخطبة للعباسيين[2] . وبذلك قُطعت الأندلس عن بقية العالم الإسلامي وخلافته إدارياً وسياسياً ، ولهذا نتائجه وآثاره . لكنها لم تنقطع عنه بكافة علاقاتها الحياتية الأخرى ، بسبب قيام رابطة وضّاءة فريدة بينهم ، هي رابطة العقيدة الإسلامية التي جمعتهم وألّفت بينهم ، وليس مثلها رابطة من كافة الوجوه وعلى أية درجة[3] ﴿ وألّفَ بين قُلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفْتَ بين قُلوبهم ولكن الله ألّفَ بينهم إنّه عزيزٌ حكيمٌ ﴾[4] ، وما جرى من أحداث في غير هذا الاتجاه ــ كلياً أو جزئياً ــ كانت بسبب الانحراف عن منهج الله وشريعته . ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتَفرَّقوا واذكروا نعمةَ الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قُلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شَفَا حُفْرة من النار فأنقذكم منها كذلك يُبيِّن الله لكم آياته لعلكم تَهْتَدون ﴾[5] .

---

(١) انظر : أندلسيات ، ١٠٧/٢ ـ ١٢٧ . Muslim colonies, 133 - 4 (تاريخ غزوات العرب ، ١٩٢ ـ ١٩٣) .

(٢) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، ١٠/٦ . كذلك : الحلة السيراء ، ٣٥/١ ؛ نفح الطيب ، ٢٣٩/١ ؛ نقط العروس ، ابن حزم ، مجلة كلية الآداب (القاهرة) ، ٧٥/٢/١٣ .

(٣) انظر : أعلاه ، ١٣٥ .

(٤) الآية ٦٣ من سورة الأنفال . (٥) الآية ١٠٣ من سورة آل عمران .

لم تحدث مواجهات مباشرة بين الأندلس والخلافة في المشرق الإسلامي . ولم تتخذ الأندلس أي إجراء وما أبدت نشاطاً ما ضدها ، إلا مايروى من انتواء الداخل أخذ الشام ، الذي « أشاع سنة ١٦٣ الرحيل إلى الشام لانتزاعها من بني العباس »[١]، لكنه أقلع عن هذا الأمر

أما الخلافة العباسية فلم تقم – من جانبها – أو تشارك بعمل جاد لإعادة الأندلس إلى سلطان الخلافة ، منذ عهد الإمارة فيها ، إلا أنها لم تمانع من إظهار الرضى عمن يقوم في الأندلس داعياً إليها ، بصدق أو للاحتماء .

١ – قدم الأندلس من شمال إفْرِيقيا العلاء بن المُغيث الجُذامي سنة ١٤٦ ه داعياً للخلافة العباسية . ونزل مدينة بَاجَة[٢] ، أو في لَقَنْت من أعمالها ، وبها « نشر الأعلام السود »[٣] .

ولعله كان ببَاجَة أصلاً وقام بالمخالفة وراسل أبا جعفر المنصور العباسي ، فأرسل إليه بالتأييد ، أو جاءه التأييد من المنصور بعد ما سمع بعصيانه[٤] . وربما قام العلاء بالدعوة للعباسيين ابتداءاً ، بعد اتفاق معهم أو جاء التأييد تالياً . كان العلاء « رئيس جند بَاجَة ، فثار بها ، وقام بها بدعوة بني العباس ولَبِس السَّواد ، ورفع رايةً سوداء ، واجتمع إليه قيام من الناس ، فقاتله عبد الرحمن بن معاوية في قريةٍ من قُرى إشْبِيلِيَة تُعرف بالكَرْم ، حتى هزمه الإمام وقتله . »[٥] تجمع حوله الأتباع ودارت بينه وبين الداخل معركة شديدة قرب مدينة قَرْمُونَة ، قتل فيها العلاء وتفرق جمعه .

٢ – دخل الأندلس – سنة ١٦١ ه أو بعدها – من الشمال الإفريقي عبد الرحمن ابن حبيب الفِهْري ، المعروف بالصَّقْلَبي ولم يكن من الصَّقَالِبَة ولا صلة له معهم ،

---

(١) نفح الطيب ، ٥٤/٣ . كذلك : الكامل، ٦٢/٦.

(٢) البيان المغرب ، ٥٢/٢ ؛ العبر ، ٢٦٦/٤ (= نفح الطيب ، ٣٣٢/١) .

(٣) البيان المغرب ، ٥٢/٢ .

(٤) انظر : أعمال الأعلام ، ٩/٢ .

(٥) الروض المعطار ، ٣٦ .

لكنه سمّي بذلك لشبهه الشكليّ بهم[1] . وحَلّ بمُرْسِيَة (تُدْمِير) وتراسل مع سليمان بن يقظان الأعرابي . ولم يتفقا ، وجرى بينهما قتال هُزم فيه الصَّقْلَبي الذي قضي عليه فيما بعد وانتهى أمره[2] .

ب ـ وَقْعَة (هَيْج) الرَّبَض

حدثت سنة ٢٠٢ هـ (٨٠٨ م) في الرَّبَض الجنوبي من قُرْطُبَة المُسَمَّى : ربَض شَقُنْدَة (Secunda) ، على الضِّفَة الأخرى من الوادي الكبير[3] ، أيام الحكم الأول (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ = ٧٩٦ ـ ٨٢٢ م) . وقضى الحَكَم الرَّبَضي عليها بقسوة وعنف ، وطرد قسماً ممن قام بها وتتبع آخرين ، فسكن بعضهم مدينة فاس في المغرب وارتحل غيرهم إلى الإسكندرية في مصر ثم تركوها إلى جزيرة إقْرِيطِش (كريت Crete) وأسسوا فيها دويلة سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) واستمرت ما يزيد على قرن من الزمان[4] . ونَدمَ الحكم أشد الندم على الذي ارتكبه ، « ولما دَنَت وفاته عَتَب نفسه فيما تقدم منه عتاباً ، وتاب الى الله مَتاباً ، ورجع الى الطريقة المُثْلى ، وقال : إنّ الآخرة هي الأبقى والأوْلَى ، فتَزَيَّنَ بالتقوى ، واعتصم بالعُروة الوُثْقى وأقرّ بذُنوبه واعترف ، وأنِسَ إلى قوله تعالى : ﴿ إنْ ينتهوا يُغْفَرْ لهم ما قد سَلَفَ[5] ﴾[6] ، « فمات على توبة من ذنوبه ونَدِم على ما اقترف »[7] .

جـ ـ حدث غريب

ذكر عدد من المؤرخين الأوربيين والمحدثين[8] ، أنه أيام الأمير عبد الرحمن

---

(١) انظر : أعلاه ، ٢٢٦ .

(٢) العبر ، ٢٦٨/٤ ؛ الكامل في التاريخ ، ٥٤/٦ .

(٣) الحلة السيراء ، ٤٤/١ .

(٤) راجع : الروض المعطار ، ٥٧ ؛ وصف افريقية والمغرب (من المسالك والممالك) ، البكري ، ٩٢ ؛ نصوص عن الأندلس ، ١١٨ .

(٥) من الآية ٣٨ من سورة الأنفال .

(٦) البيان المغرب ، ٨٠/٢ . كذلك : الذيل والتكملة ، ١٥٢/٤ .

(٧) الحلة السيراء ، ٤٦/١ . كذلك : المغرب ، ٤٢/١ ؛ أعمال الأعلام ، ١٥/٢ ؛ نفح الطيب ، ٣٣٩/١ .

(٨) انظر : دولة الإسلام في الأندلس ، ٢٦٧/١ ـ ٢٧٣ .

الأوسط (٢٠٦ ــ ٢٣٨ هـ = ٨٢٢ ــ ٨٥٣ ،) . كانت حركة قام بها قلة من النصارى في تاريخ غير واضح ، ومارس هذا البعض شتم الإسلام وسب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) علناً وعمداً . بل فعلوا ذلك عند أبواب المساجد في أوقات الصلاة ، ووصف لين بول هؤلاء بـ « المنتحرون »[١] ، وكان الكثير من النصارى المعتدلين ضد هـذه التصرفات . جرى ذلك في الوقت الذي كانت فيه السياسة الإسلامية في الأندلس ــ وفي غيره من أنحاء العـالم الإسلامي ــ تقوم على العـدل والانصاف ، في معاملة الفئات غير المسلمة وتمتعت هذه الفئات بحرياتها وعدم التدخل مطلقاً في شؤونهم التعبدية وأحوالهم الشخصية ، بشكلٍ ماحدث ولن يحدث البته خارج العالم الإسلامي . ودعا عبد الرحمن الأوسط زعماء النصارى لمعالجة هذا الموضوع ، فعقدوا مؤتمراً ، سنة ٢٣٨ هـ (صيف ٨٥٢ م)[٢] ، وقرروا فيه رفض هـذه الأعمال ، ونصحوا رعاياهم بعدم الرضى عنها والاقلاع عن فعلها . وانتهت هذه الحركة ولم تترك غير بقايا من آثارها أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، عالجها بحكمة ، فانتهت تماماً بعد ذلك[٣] .

والأمر الذي يلفت النظر أن هذه الحركة لم تتحدث عنها ــ فيما يبدو ــ مصادرنا الإسلامية ومنها الأندلسية . جُلُّ معلوماتنا أو كُلُّها من المصادر الأوربية ، التي تتسم غالباً بالتعصب والتحامل أو التحيز والمغالاة[٤] . وذلك يدعوا الى التحفظ والاحتراس . لكن هل ان المصادر الأندلسية التي ذكرت هذه الحادثة فُقدت في طريقها الينا ؟ أو أن الأمر يتطلب إعادة النظر في واقعيتها أو بعض فصولها ؟

د ــ افتتاح الجزائر الشرقية

تم في هذا العهد فتح الجزائر الشرقية ، وسيفصل هذا الحدث في موضوع الجهاد لهذا العهد[٥] .

---

(١) *The Moors in Spain*, 84, 90. (الترجمة العربية : العرب في إسبانيا ، ٧٣ ، ٨٣) .

(٢) راجع : المقتبس ، ٥٢٤/٢ (تعليق المحقق) .

(٣) راجع : دولة الاسلام في الأندلس ، ٢٧١/١ .

(٤) انظر : أعلاه ، ١٩٧ . (٥) أدناه ، ٢٦٠ وبعدها .

٥ ـ بناء مسجد قرطبة الجامع

في بداية هذا العهد كان إنشاء مسجد قُرْطُبَة الكبير ، بدأ بناءه عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) وأتمَّه مَن جاء بعدَه . وأصبح هذا المسجد مِن أعظم المنشآت العمرانية فناً وروعة وتعبيراً[١] .

ثانيًا : الجهاد في عهد الإمارة

لانجد في عهد الإمارة ما ألفناه في عهد الولاة من أعمال الجهاد خلف البُرْت الا القليل ، ولعلَّ عدم الاحتفاظ بمراكز جهادية في الأرض الكبيرة أوقف جهاد المسلمين هناك وحرمها منه . وهو يعني عدم توفر الدعوة الى الإسلام فيها ، ليضم أهل تلك البلاد ببناء القاعدة الأخرى لهذا العمل . لهذا علاقة بأحوال الأندلس المرتبطة بدورها بما جرى للخلافة الإسلامية في الشرق وما صاحبها من أحداث . هذا مع غيره سبَّب وارتبط بأوضاع شبه الجزيرة الأندلسية وبنشوء الدويلات في إسبانيا الشمالية .

ولا يعني هذا خلو عهد الإمارة من أعمال جهادية ، اهتم بعضها بحماية الأندلس ورد هجومات دولة الفِرَنْجَة القوية الواسعة واعتداءات اسبانيا الشمالية المتكررة القاسية المتنكرة التي لم تلتزم بعهد أو تأخذ بعرف ، كما سيتبين . كلتا الدولتين — حين تشعر بقوتها واغتنام فرصة من الأندلس ـ لا تألوا جهداً في مهاجمتها أو العمل على إبادتها . وتكف عنه وتُظهر المسالمة حين ترى قوة الأندلس ومكنتها على المواجهة .

هكذا تردَّدت علاقات هاتين الجبهتين بين الحرب ـ وكانت سِجالاً — والسلم ، حين تعجز عن المواجهة ، ريثما تستعد أو تهتبل غِرَّة من غير عهد ولاذمة . وحين تُرَدُّ على أعقابها تلجأ إلى السلم احتماءً ، إذ لا قوة لها على غيره . في حين كانت الأندلس الإسلامية تلتزم بعهدها وتأخذ بالسلم أصالة ، في كل الظروف ، وهي قوية متمكنة .

---

(١) انظر عنه : أندلسيات ، ٢/١٥٧ — ١٦٢ .

أنفقت الأندلس جهوداً كثيرة في رد عدوان اسبانيا الشمالية والفِرَنْجَة ، وحماية نفسها وأهلها وكف العادية وتأديب أصحابها . هنا يتبين للناظر في خُطَّة المسلمين في الفتوحات أنه من الأهمية إتمام هذا الفتح وتأمينه وتأصيل قواعده . تلك غايته وهدفه ، وليس الخَوف من العدوان الذي يشمل خطره تهديد هذه الأهداف. تلك الخُطة سار عليها الفاتحون دوماً وحاولوه جاهدين ، ولم تقصر بهم وسيلة غير ظروف طرأت حول العالم الإسلامي تكاثفت عليه ، مكنته كذلك ظروف في داخل العالم الإسلامي والأندلس .

* * *

سارت حملات عدة نحو الشمال الاسباني لهذا الشأن . كان بعضها ينتهي بعقد صلح أومُتَارَكة ، يتفاوت أمدها والشروط. وكم آوت اسبانيا الشمالية ــ مثل دولة الفِرَنْجَة ــ مِن عاص معتد في الأندلس وأعانته بل حرضته ، إن لم تكن دعته لذلك ، إغراءً أو دعمته اعتداءاً .

كان هذا النوع من المجاهدة غير قليل لهذا العهد مذ بدايته . وتتفاوت الأخبار المدونة عنه بين الإيجاز والتفصيل . فذُكر عن عدة أعمال حربية ، منها مع الجبهتين أو واحدة منهما . وتساق أحياناً بشكل مجمل للحديث عن أعمال جهادية في الشمال الإسباني أو دولة الفِرَنْجَة أو دار الحرب عموماً[1] .

وأحيانا تُخَصّ الجبهة . ففي الشمال الإسباني ذُكرت أسماء مناطق كجِلِّيقَة وبَنْبُلونَة وألَبَة والقِلاع ــ أو أماكن ومدن فيها ، مثل : بَرَشَلُونَة ، التي ترددت ــ لمدة ــ تَبَعيَّتُها بين المسلمين واسبانيا الشمالية ، ولِيون وبَرْبَطَانِيَة وغيرها . ومثل ذلك بالنسبة للفِرَنْج عامة أو تخص ، لا سيما أُرْبُونَة التي سبق للمسلمين فيها وحولها نشاط وفير ، حتى غدت عاصمة لمنطقة هي حكومة سَبْتِمانية الإسلامية خلف البُرْت في عهد الولاة[2] .

---

(١) نفح الطيب ، ٣٥١/١ .

(٢) أعلاه ، ١٨٧ .

وتُذْكر – مرات – جهود قائد أو أمير في و صف عام : مثلما نقل المَقَّري عن الأمير هشام الأول (١٧٢ هـ – ١٨٠ هـ) أنه كان « كثير الغزو والجهاد »[١] . كذلك فعل ابن عِذاري حين الحديث عن الأمير محمد (٢٣٨ – ٢٧٣ هـ) ، الذي كان « غَزَّاءً لأهل الشرك والاختلاف . »[٢]

١ – الشِّمال الإسباني

واجهت السلطات الأندلسية جبهة الشمال بحملات يقوم الأمير بقيادتها بنفسه ، أو يرسل قائداً مجرباً . وتَوَلّى بعضَها ، بالعناية المستمرة ، قادةُ هذا النشاط على الجبهتين (الشِّمالية والفِرَنْجَة) . وأخذت بعضُ هذه الحملات طابَعَ الرد على هجوم سابق ودحر المعتدي ، يصاحبها أحياناً صور من الانتقام .

لَمَعَ أحفادُ مُغيث الرومي ، فاتح قُرْطُبَة ، أبناء عبدالواحد بن مُغيث الرومي في هذا الميدان كما في غيره . كان ثلاثتهم من كبار رجال الدولة ، سياسةً وقيادةً وكياسةً وعِلْماً . هم : عبد الكريم (٢٠٩ هـ) وعبد الملك وعبد الحميد ، الذين حَجَبوا لعدة أُمراء[٣] : هِشَام الأول (١٧٢ – ١٨٠ هـ) وابنه الحَكَم الأول (١٨٠ – ٢٠٦ هـ) وابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ – ٢٣٨ هـ) وابنه محمد (٢٣٨ – ٢٧٣ هـ) . ذَكر ابنُ عِذَاري في **بيانه** أن عبد الحميد – لعله أكبرهم – حَجَب لعبدالرحمن الداخل ، ولكن يجعله ابناً لمُغيث[٤] . في حين يَرِد عند ابن حَيَّان : عبد الحميد بن عبد الواحد بن مُغيث[٥] ، وجعله أيام الأمير محمد . فهل سقط اسم « عبد الواحد » عند ابن عِذَاري ؟

حَجَب أبوهم عبد الواحد (١٩٨ هـ)[٦] للأمير عبد الرحمن الداخل ولابنه هشام الأول[٧] .

---

(١) نفح الطيب ، ٣٣٨/١ . (٢) البيان المغرب ، ١١١/٢ .

(٣) انظر : المقتبس ، ٤٤٤/٢ ؛ الحلة السيراء ، ١٣٥/١ .

(٤) البيان المغرب ، ٤٨/٢ .

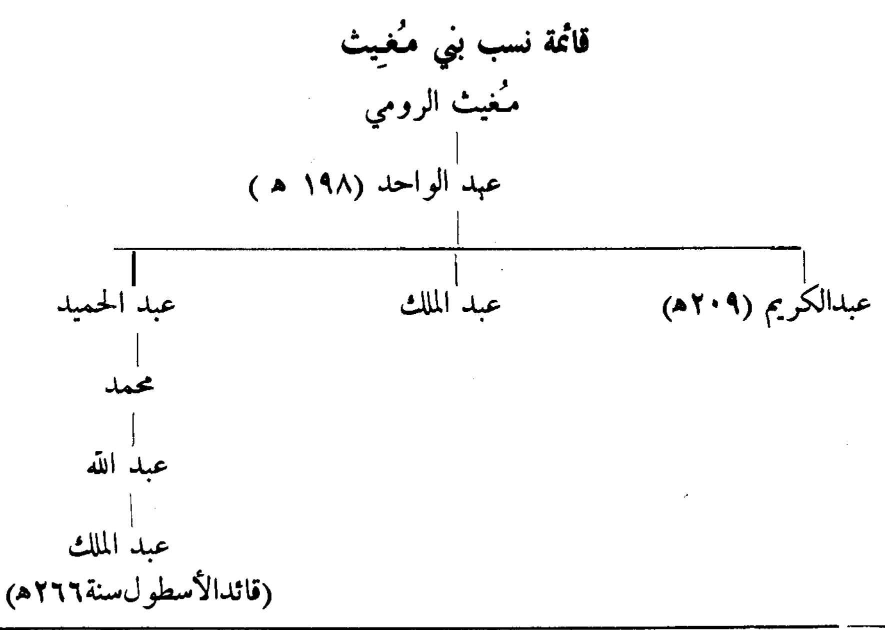
(٥) المقتبس ، ١٥٤/٢ .

(٦) المغرب في حلى المغرب ، ٤٤/١ . (٧) الحلة السيراء ، ١٣٥/١ .

أما عبد الكريم الوزير « الحاجب القائد الكاتب »[1] الوالي فقد حَجَب لِهِشَام الأول ولابنه الحكم الأول[2] . وابنه عبد الرحمن الأوسط[3] ، حيث توفي صدر إمارته (٢٠٩ هـ)[4] . والحاجب عبد الكريم « أكملُ مَن حَمَل هذا الإسم ، وأجمعهم لكل حسنة ، فأقره عليها إلى أن توفي عبد الكريم حميداً فقيداً »[5] . وتولى عبد الملك الحِجَابة والولاية[6] .

ظهر عبد الكريم – بشكل أكبر – في قيادة النشاط الجهادي شمالي إسبانيا ثم بلاد الفِرَنْجَة . في حين ظهر عبد الملك بعده في بلاد الفِرَنْجَة ثم الشمال الإسباني . نجد كذلك منهم أيام الأمير محمد : عبد الملك بن عبد الله بن محمد بن عبد الحميد بن عبد الواحد بن مغيث يتولى قيادة أُسطول ، في حملة بحرية على ساحل جِلِّيقِيَة ، شمالاً سنة ٢٦٦ هـ[7] .

قائمة نسب بني مُغِيث



(١) المقتبس ، ٢٨/٢ ، ٧٧ . كذلك : ٣١/٢ .

(٢) المغرب ، ٤٤/١ . (٣) المقتبس ، ٣٩/٢ .

(٤) المقتبس ، ٢٧/٢ ، ٧٧ ؛ البيان المغرب ، ٨٢/٢ .

(٥) المقتبس ، ٢٥/٢ . كذلك : ٣٠/٢ .

(٦) الحلة السيراء ، ١٣٥/١ . (٧) انظر : المقتبس ، ٣٩٨/٢ – ٣٩٩ .

تكررت الأخبار عن هذا اللون من النشاط ، قاده أمراء الأندلس بأنفسهم . إلاّ أنه يندر قيادة أمير لحملة وراء البُرْت لهذا العهد . لكن **نفح الطيب** يذكرخبراً عن حملة قادها عبد الرحمن الداخل بنفسه حين « غزا بلاد الإفْرَنْج والبَشْكُنْس ومَن وراءهم ، ورجع بالظفر »[1] من غير زيادة عن مكان وزمان وطبيعة هذه الحملة . تلَت ذلك – تتابعاً أو تَمَهُّلاً – حملة أخرى الى الشِّمال ، أيام هِشام الأول بداية توليه الإمارة (١٧٢ هـ) . قاده بنفسه وجال في أكثر مِن مكان سنة ١٧٥ هـ ؛ ووجَّه السرايا الى غيرها .

آ – بَرْشَلُونَة

خرجت بَرْشَلُونَة من أيدي المسلمين سنة ١٨٥ هـ[2] ، أيام الحَكَم الأول . وتَوَجَّه جيش بقيادة الحاجب عبد الكريم بن عبدالواحد بن مُغيث الرومي الى بَرْشَلُونَة وما حولها أو وراءها أيام عبد الرحمن الأوسط[3] . كذلك سارت نحوها حملة أخرى أيام الأمير محمد الذي « بعث عساكر أخرى إلى نواحي بَرْشَلونَة وما وراءها ، فعاثوا فيها ، وفتحوا حصوناً مِن بَرْشَلُونَة ورجعوا . »[4]

ب – بَرْبَطَانِيَة

أوردت بعض مصادرنا نشاطاً عسكرياً في مكان اسمته مرة « **بَرْطَانِيَة** »[5] ومرة أخرى « **بَرْبَطَانِيَة** »[6] . وظاهر كلام المَقَّري – في موضعين – أنه يعني بكليهما نفس المكان . مكان في بلاد الفِرَنْجَة خلف البُرْت (جنوبي فرنسا) ، ويُطْلِق عليه صفة « **أرض** » . ففي سنة ١٧٦ هـ أرسل هِشَام الأول وزيره عبد الملك ابن عبد الواحد بن مُغيث الرومي الى شِمالي الأندلس « ثم بعثه في العساكر سنة سبع

---

(١) نفح الطيب ، ١/٣٣٣ .

(٢) نفح الطيب ، ١/٣٣٩ .

(٣) نفح الطيب ، ١/٣٤٦ .

(٤) نفح الطيب ، ١/٣٥٠ .

(٥) نفح الطيب ، ١/٣٣٧ ، ٤/٤٤٩ .

(٦) نفح الطيب ، ١/٣٤٥ .

وسبعين الى أُرْبُونَة وجَرُنْدَة فأثخن فيها ، ووَطِيءَ أرض بَرْطَانِيَة »[1] . وفي سنة ٢٢٦ هـ أيام الأمير عبدالرحمن الأوسط توجهت « العساكر الى أرض الفِرَنْجَة ، وانتهوا الى أرض بَرْبَطَانِيَة ، وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تُطِيلَه ، ولقيهم العدو ، فصبر حتى هزم الله عدوهم ، وكان لموسى في هذه الغَزَاة مقام محمود . »[2]

وردت « **بَرْطَانِيَة** » عند المَقَّري في أكثر من موضع وقصد بها الجزر البريطانية[3] . أطلق عليها مرة « بلد »[4] وأخرى – في ثلاثة مواضع – « جزيرة »[5] . في حين ورد ذكر « بَرْبَطَانِيَة » بوضوح في شِمالي الجزيرة الأندلسية وأنها كُورَة من كُوَر الثّغر الأعلى الأندلسي[6]. ومرة أُخرى - مماثلاً - بصفة « بلد بَرْطَانِيَة »[7] .

لعل هنالك خلطاً – ربما في النسخ – أو خطأ في النقل بين « بَرْبَطَانِيَة » و « بَرْطَانِيَة » من ناحية اللفظ وفي توقيعها من ناحية أخرى . استُعملت « بَرْطانِيَة » اسماً للجزر البريطانية – كما مر – أحياناً . لكن « **بَرْبَطانِيَة** » (Barbitania) كانت اسم كُوَرَة في شِمالي الأندلس[8] ، وتُطْلَق اليوم على مدينة « بَلْطَانِيَة » (Boltaña) شِمال شرق مدينة وَشْقَة (Huesca)[9] ، قرب جبال البُرْت الأندلسية . **هكذا يُوَقِّعُها الحِمْيَرِي** ، في موضعين من **روضه**[10] .

فهل كان إيرادها – مكاناً في جنوبي فرنسا – يعني وجود موضع هنالك يحمل

(١) نفح الطيب ، ٣٣٧/١ .
(٢) نفح الطيب ، ٣٤٥/١ .
(٣) نفح الطيب ، ١٣١/١ . كذلك : الروض المعطار ، ٣ .
(٤) نفح الطيب ، ١٣١/١ .
(٥) نفح الطيب ، ١٣٢/١ ، ١٦٧ ، ١٩٧ .
(٦) نفح الطيب ، ١٦٦/١ .
(٧) نفح الطيب ، ٤٤٩/٤ .
(٨) انظر : فرحة الأنفس (قطعة منه) ، ابن غالب الأندلسي ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ٢٨٦/٢/١ .
(٩) الحلل السندسية ، أرسلان ، ١٨٤/٢ ، ١٩٦ ؛ المقتبس ، ٦١٨/٢ .
(١٠) الروض المعطار ، ٣٩ ، ١٩٥ .

مثل هذا الأسم ؟ أم قُصِدَ به نشاط حربي في شِمالي الأندلس في حديث عام ، حيث مرت بها الجيوش الإسلامية وهي متجهة الى بلاد الفِرَنْج ، أم أن مفهوم « الفِرَنْجة » مُحْتَوٍ لشِمالي الأندلس ، أم الوهم في أُرْبُونَة ؟

جالت العساكر الأندلسية في هذا المكان « بَرْبَطَانِيَة » وغيره ، خلال حملاتها شِمالي الجزيرة الأندلسية . مثلما جرى سنة ١٧٧ هـ أيام هِشَام الأول ، حين اتجهت اليها حملة بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد بن مُغيث[١] . وأخرى سنة ٢٢٦ هـ أيام الأوسط تَوَلاّها موسى بن موسى القَسَوِي[٢] .

ويُفْهَم من إشارة أوردها ابن حَيَّان القُرْطُبي في **مُقْتَبِسه** — حين الحديث عن قيادة الأمير محمد لحملة عسكرية في الثغر الأعلى سنة ٢٥٩ هـ — أن « بَرْبَطَانِيَة » كانت تابعة للأندلس[٣] . ويبدو أن تبعيتها ترددت بين الأندلس وإسبانيا الشمالية[٤] .

جـ — بَنْبُلُونَة

حين نشأت دويلات في إسبانيا الشّمالية كانت نَبَارّة (بلاد البَشْكُنْس) أحدها ، وعاصمتها بَنْبُلُونَة . وقاد الداخل — الذي اهتم بهذا الأمر — نشاطاً بنفسه إليها ، كما مر . وفي سنة ٢٢٩ هـ أرسل عبدالرحمن الأوسط « ابنه محمداً بالعساكر ، وتقدم الى بَنْبُلُونَة ، فأوقع بالمشركين عندها ، وقتل غَرْسِيَة صاحبها ، وهو من أكبر ملوك النصارى . »[٥] ومحمد هذا قام — خلال إمارته — بنشاط مماثل حيث « في سنة سبع وأربعين أغزى محمد الى نواحي بَنْبُلُونَة ، وصاحبُها حينئذٍ غَرْسِية بن وَنَقُه ، وكان يُظاهِر أُرْدُون بن أذْفُنْش ، فعاث في نواحي بَنْبُلُونَة ، ورَجَع وقد دَوَّخَها وفتح كثيراً من حصونها ، وأسر فُرْتُون ابنَ صاحبها ، فبقى أسيراً

(١) نفح الطيب ، ٣٣٧/١ .
(٢) نفح الطيب ، ٣٤٥/١ .
(٣) المقتبس ، ٣٣٢/٢ .
(٤) المقتبس ، ٦١٨/٢ .
(٥) نفح الطيب ، ٣٤٥/١ .

بِقُرْطُبَة عشرين سنة . »[1] ، وأرسل – سنة ٢٦٤ هـ – ابنَه المنذر إلى بلاد بَنْبُلُونَة[2] .

د – أَلَبَة والقِلاع

تكررت الحملات إلى أَلَبَة والقِلاع (قَشْتالَة ، قَشْتالَة القديمة)[3] منذ أيام هِشام الأول الذي « كان من أهل الخير والصلاح ، كثير الغزوِ والجهاد »[4] . قادها بنفسه أو سيَّرها بقيادة رجال مَهَرة ، اليها والى غيرها . مِن ذلك سنة ١٧٥ هـ حملة قادها بنفسه ، وأُخرى في السنة التالية بقيادة وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مُغيث الرومي[5] ، وثالثة مع الحاجب عبد الكريم ، أخي الوزير ، سنة ١٧٨ هـ .

قاد هؤلاء الأخوة عمليات عسكرية جهادية كثيرة في عموم الشمال الاسباني ، مِن بَرْشَلُونَة الى بَنْبُلُونَة إلى أَشْتُرْقَة في جِلِّيقية وبلد الفِرَنْجَة وراء البُرْت ، منذ أيام هِشام الأول . وترددت السرايا الى كل هذه المناطق ، وكثيرة منها بقيادة هؤلاء الأخوة ، منفردين . ويُجْمِل المَقَّري ذلك في نَفْحه بقوله عن هِشَام الأول أنه « قصد الى بلاد الحرب غازياً ، وقصد أَلَبَة والقِلاع ، فلقي العدوَّ وظفر بهم ، وفتح الله عليه سنة خمس وسبعين . وبعث العساكر الى جِلِّيقية مع يوسف ابن بُخْت فلقي ملكها بِرْمُنْد ، وهزمه ، وأثخن في العدوِّ .

« وفي سنة ست وسبعين بعث وزيره عبدَ الملك بن عبد الواحد بن مُغيث لغَزاة العدوِّ ، فبلغ أَلَبَة والقِلاع ، فأثخن في نواحيها ، ثم بعثه في العساكر سنة سبع وسبعين الى أَرْبُونَة وجُرُنْدَة فأثخن فيها ، ووَطِيء أرض بَرْطَانِيَة ، وتَوَغَّل عبد الملك في بلاد الكفار وهزمهم ، ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد الى أَلَبَة والقِلاع سنة ثمان وسبعين ، ومع أخيه عبد الملك بن عبد الواحد الى بلاد

---

(١) نفح الطيب ، ٣٥١/١ . كذلك : البيان المغرب ٩٧/٢ .

(٢) المقتبس ، ٣٨٥/٢ ؛ نفح الطيب ، ٣٥١/١ .

(٣) ألبة (Alava) والقلاع (Castilla la Vieja = قشتالة القديمة) : تقعان بين نبارة وليون شمال إبره . انظر : دولة الاسلام في الأندلس ، ٢١٦/١ ؛ الحلة السيراء ، ١٣٥/١ .

(٤) نفح الطيب ، ٣٣٨/١ . (٥) نفح الطيب ، ٣٣٧/١ .

جلِّيقية، فانتهى إلى أَسْتُرْقَه ، فجمع له ملكُ الجلالقة واستمد بملك البَشْكُنْس، ثم خام عن اللقاء ، ورَجَع أدْراجَه ، واتَّبَعَه عبدُ الملك ، وكان هِشَام قد بعث الجيوش من ناحية أُخرى ، فالتَقَوْا بعبد الملك ، فأثخنوا في البلاد ، واعترضتهم عساكر الفِرَنْج ، فنالوا منه بعضَ الشيء ، ثم خرجوا سالمين ظافرين . »[1]

تكرر تَوَلِّي عبد الكريم وعبد الواحد بن مغيث الرومي قيادة الجيوش إلى ألَبَه والقِلاع وغيرها في نفس الحملة ، اليها أو في أُخرى ، كما تولاها غيرُه . ففي سنة ٢٠٨ هـ أيام الأمير عبدالرحمن الأوسط، تَوَجَّه عبدالكريم بجيش إلى ألَبَه والقِلاع ففتح الكثير من حصونها « وصالح بعضَها عل الجزية وإطلاق أسرى المسلمين ، وانصرف ظافراً . »[2] وفي سنة ٢٢٤ هـ كان توجيه عبيد الله بن عبد الله البَلَنْسي « صاحب الصوائف » — قريب الأمير الأوسط — الى ألَبَة والقِلاع[3] .

قائمة نسب عُبيد الله البلنسي

عبد الرحمن الداخل بن مُعاوية (١٧١ هـ)

- هِشَام الأول (١٨٠هـ)
  - الحَكَم الأول (٢٠٦ هـ)
    - عبدالرحمن الأوسط (٢٣٨ هـ)
- عبدالله البَلَنْسي (٢٠٨ هـ)
  - عُبَيْد الله (صاحب الصوائف)
- سُليمان (١٨٤ هـ)

قاد الأمير محمد سنة ٢٢٦ هـ حملة الى ألَبَة والقِلاع[4] . وفعل مثل ذلك بعد سنوات عديدة في سنة ٢٣١ هـ «كتب الى موسى بن موسى وأهل الثغور بالإحشاد إليه

(١) نفح الطيب ، ٣٣٧/١ — ٣٣٨ . كذلك : الحلة السيراء ٣٧٥/٢ .

(٢) نفح الطيب ، ٣٤٤/١ — ٣٤٥ .

(٣) نفح الطيب ، ٣٤٥/١ ؛ الحلة السيراء ، ٣٦٤/٢ ؛ المغرب ، ٤٤/١ .

(٤) المقتبس ، ١٠٢/٢ — ١٠٣ .

والدخول معه الى ألبَة والقِلاع ، . . . ، وفتح كثيراً من حصونهم . »[1] وفي سنة ٢٤٩ هـ تولى عبد الرحمن بن الأمير محمد قيادة حملة الى « بلد ألبَة والقِلاع من دار الحرب »[2] . وفي سنة ٢٥١ هـ قاد أخوه المنذر حَمْلَةً « الى نواحي ألبَة والقِلاع »[3] .

هـ ـ جِلِّيقِيَة

شَمَلَت الحملات الأندلسية عديداً من مناطق الشِّمال الإسباني ، كان منها جِلِّيقِيَة . ففي سنة ١٧٦ هـ سارت حملة أندلسية وَجَّهها هِشام الأول بقيادة يوسف بن بُخْت ـ من غير تعيين للمكان ـ داخل جِلِّيقِيَة « وبعث العساكر الى جِلِّيقِيَة مع يوسف بن بُخْت فلقي مَلِكَها بِرْمُنْد ، وهزمه ، وأثخن في العدو . »[4] ووجَّه حملة أُخرى سنة ١٧٨ هـ بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث الرومي ووصل إلى أَشْتُرْقَة ، فأنجده هِشَام بحملة أخرى وعادوا جميعاً ظافرين . فقد سار « إلى بلاد جِلِّيقِيَة ، فانتهى الى أَسْتُرْقَة ، فجمع له ملك الجلالِقَة واستمد بملك البَشْكُنْس ، ثم خام عن اللقاء ، ورجع أدْراجَه ، واتَّبَعَه عبدُ الملك ، وكان هشام قد بعث الجيوش من ناحية أخرى ، فالتقوا بعبد الملك ، وأثخنوا في البلاد ، واعترضتهم عساكر الفِرَنْج فنالوا منهم بعضَ الشيء ، ثم خرجوا سالمين ظافرين . »[5] وحوالي سنة ١٨٥ هـ « بعث الحكم العساكر مع الحاجب عبد الكريم ابن مُغيث الى بلاد الجَلالِقَة ، فأثخنوا فيها ، وخالفهم العدو الى المضايق ، فرجع على التعبية ، وظفر بهم ، وخرج الى بلاد الاسلام ظافراً . »[6]

وقامت عمليات نشطة في جِلِّيقِيَة سنة ٢٢٤ هـ . فقد وَجَّه اليها الأمير عبد الرحمن الأوسط الجيشَ ، وقاد بعضَه بنفسه . يقول المقري : « ثم خرج لُذرِيق ملكُ الجَلالِقَة ،

---

(١) المقتبس ، ٢/٣٠٤ . (٢) المقتبس ، ٢/٣١٨ .
(٣) نفح الطيب ، ١/ ٣٥١ . كذلك : المقتبس ، ٢/ ٣١٩ .
(٤) نفح الطيب ، ١/٣٣٧ . كذلك : البيان المغرب ، ٢/٦٣ .
(٥) نفح الطيب ، ١/٣٣٨ .
(٦) نفح الطيب ، ١/٣٣٩ .

وأغار على مدينة سالم بالثغر ، فسار اليه فُرْتُون بن موسى ، وقاتَلَه ، فهزمه وأكثر القتل والسبي في العدو والأسر ، ثم سار الى الحِصْن الذي بناه أهل ألَبَة بالثغر نِكايةً للمسلمين ، فافتتحه وهدمه ، ثم سار عبدالرحمن في الجيوش الى بلاد جِلِّيقِيَة ، فدوخها وافتتح عدة حصون منها ، وجال في أرضهم ، ورجع بعد طول المَقَام بالسبي والغنائم »[1] ثم تحركت حملة أخرى سنة ٢٣١ هـ ، وصلت مدينة لِيون[2]. وفي سنة ٢٥١ هـ قاد الأمير محمد بنفسه حملة الى بلاد الجَلالِقَة[3]

وجرت صيف سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٧ م) معركة استُشْهِد فيها عدة مئات من المجاهدين المرابطين في الثغور ، والتقى فيها مجاهدو أحد الرُّبُط الثغرية وعددهم سبع مئة فارس بجيش يضم أعداداً كبيرة من جيش أشْتُوريش والمخالف عبد الرحمن ابن مروان الجِلِّيقي الذي كان لاجئاً عند ملكها أذْفُونْش بن أُرْدُون بن رُذْمِير (الفونسو الثالث بن أردونيو الأول بن راميرو الأول ، ٢٥٢ ـ ٢٩٧ هـ = ٨٦٦ ـ ٩١٠ م) . ووَجَدَ الجِلِّيقي عند أذْفُونْش الترحيب والاهتمام ،كيما يستعمله أداة يُضعف به قوةَ الأندلس وتشجيعاً لمثل هذه الأفاعيل .

وأرسل الأمير محمد صائفة بقيادة ابنه المنذر نحو لِيون ، فالتحقت بهذه الصائفة سريةُ رابطةٍ ثغرية ، تَعدادها ٧٠٠ فارس ، كَمَنَ لها الجِلِّيقي وحلفاؤه من جند أذْفُونْش ، ودارت معركة عنيفة انتهت بإبادة السَّرِيَّة الثَّغْرِيَّة الأندلسية . يقول ابن خلدون : « فخرج عليهم ابنُ مروان ، ومعه جمع من المشركين استظهر بهم فقتل تلك الطائفةَ عن آخرهم »[4] . وتُسَمَّى هذه المعركة : « البربرية » (La Polvoraria).

ويقدم ابنُ حَيَّان عنها صورةً حسنة ، إذ حين سار المنذر بجيش الصائفة نحو الشمال لحق بعسكره « رابطة من روابط المسلمين ، فجمعت أهل الكُوَر ، وخرجت مُبْطِنَةً طامعةً في لُحوق الصائفة وهم في نحو سبع مئة فارس ، فخرج عليهم

---

(١) نفح الطيب ، ٣٤٥/١ .
(٢) نفح الطيب ، ٣٤٦/١ .
(٣) نفح الطيب ، ٣٥١/١ .
(٤) العبر ، ٢٨٦/٤ .

الفاسق عبد الرحمن بن مروان بمن معه من المشركين وهم قد بَعُدوا عن لِحاق العسكر ، فأوقع بهم في موضع يُعرف بالبربرية ، وصَبَّر له المجاهدون ، فقاتَلوه قتالاً شديداً حتى قَتلوا من المشركين عدة ، ثم كَثُرَهم أعداءُ الله ، فَقَتَلوا الرابطة عن آخرهم ، وحلّت بالمسلمين فيهم مصيبةٌ عظيمة . فهي الوقيعة المعروفة هنالك بالبربرية الى اليوم . »[1]

ذكر هذه الوقعة كذلك ابنُ الأثير (٥٥٥ — ٦٣٠ هـ) في كتابه **الكامل في التاريخ** ، ولعله نقلها عن ابن حيّان أو غيره من كُتّاب مراجعنا الأندلسية . إذ حين استظهر ابنُ مروان الجِلّيقي بأَذْفُنْش (الثالث) وجيشه وكَمَنوا للسَّرِيَّة ، فخرجوا لها و« اقتتلوا قتالاً كثيراً صبروا فيه ، وقُتل من المشركين عدد كثير ، ثم استظهر ابن الجِلِّيقي ومَن معه من المشركين على السبع مئة ، فوضعوا السيفَ فيهم فقتلوهم عن آخرهم ، أكرمهم الله بالشهادة . »[2] .

وقاد البَرَاءُ بنُ مالك في السنة التالية (٢٦٤ هـ) حملة الى جِلِّيقِيَة « فكانت هناك وَقيعَة ضَرِسَة . »[3]

هذه الأحداث مثل غيرها تؤكد قيام المسلمين بالجهاد عقيدةً في الله وحرصاً على الشهادة في سبيله ، وابتغاء مرضاته ورغبةً في جنته وإيثار ماعنده ﴿ وماعند الله خيرٌ وأبقى ﴾[4] وطالما اشترك فيها العلماء ، وهم في المقدمة . ووجودُ العلماءِ الأعلام في طليعة هذه المواجهات وَسْط معمعة المعترك شاهدٌ على عملية العِلْم والأخذ به إيماناً، وثمر أمثلةٌ متعددة عن هذا الأمر وهو جدير بالاهتمام وأن **يُفرد ببحث مُستقل** ، ولدى ابن الفَرَضي في **تاريخ علماء الأندلس** صفحات من هذه الصور الكريمة ، تمتاز بطيبها وطرافتها كذلك .

---

(١) المقتبس ، ٣٨٤/٢ . كذلك : قضاة قرطبة ، الخشني ، ٨٣ .
(٢) الكامل ، ٣١٠/٧ — ٣١١ .
(٣) المقتبس ، ٣٨٥/٢ . كذلك : الكامل ، ٣٢١/٧ .
(٤) من الآية ٦٠ من سورة القصص .

هذا يحي بن حَجَّاج من أهل طُلَيْطلَة ، رجل طالباً العلم إلى إفْرِيقِيَة (وربما الى غيرها) وسَمِع « من مَشْيَخَة القَيْرَوان »[1] .

عاد إلى الأندلس يؤدي واجبه عالماً ومتعلماً وجندياً للإسلام في كل ميدان « واسْتُشْهِد في المعترك العظيم الذي كان بين المشركين والمسلمين سنة ثلاث وستين ومئتين . »[2] وكان لابن حَجَّاج صاحبٌ ، سَمِيُّه وبَلَدِيُّه : يحي بن القصير ، شَهِدا سَوِيَّةً المعتركَ المذكور فلم يَفُز بالشهادة مثل صاحبه . وظل يبحث عنها حتى ظفر بها في السنة التالية : رِزْقاً من الله ونِعْمَةً . كان ابنُ القصير صاحبَ ابن حَجَّاج « في السَّماع ، والفضل ، والعمل . وكان كثير الجهاد ، وشَهِد المعتركَ سنة ثلاث وستين فلم يُقتل وقُتل أصحابُه وكان يرى على نفسه من ذلك غَضَاضَة ، ثم عسكر المسلمون سنة أربع وستين فخرج معهم مُسْتَعْرِضاً للشهادة ، فلما التقى الجمعان أبلى بلاءً كريماً ورَزَقَهُ اللهُ الشهادة . »[3]

الظاهر بوضوح كبير أن هذين الشهيدين قَضَيَا الواحدُ بعد الآخر في معركتَيْ سنة ٢٦٣ هـ والتي تليها كل في واحدة متتابِعَيْن ، رحمهما اللهُ تعالى وأنعم عليهما .

شَمِلَت هذه الحملاتُ مدناًومناطق متعددة من إسبانيا الشمالية ، ترددت اليها بين حين وآخر ، ولا يبدو أنها كانت دوماً تَقْصِد الفتح المقيم ، بل ظاهرها لرد عدوان أو تأديبٍ وكبح أهله . ولابد أنها وأمثالَها كانت نتيجة لتحرشات ابتدأت بها اسبانيا الشمالية ، والا لما أخذت هذا الشكل ؛ فقد قامت سياسة حكام إسبانيا الشمالية على التحرُّش وإثارة وتشجيع إيجاد المتاعب، بل وإرسال المعونات العسكرية وغيرها .

مثل ذلك كانت تَفْعله دولة الفِرَنْجَة ، مما دعا الأندلس الى أن ترد عليه وتحتاط له ، وكانت تقبل صلحاً ـ لأي أمد ـ طالما تقوم سلطات الشمال الإسباني بنقضه ، كلما تَقْوى عليه .

(١) تاريخ علماء الأندلس ، ١٨٤/٢ (رقم : ١٥٦٠) .
(٢) نفس المصدر . أي أن استشهاده كان في معركة : البربرية .
(٣) تاريخ علماء الأندلس ، ١٨٢/٢ (رقم : ١٥٠٢) .

٢ ـ بلد الفِرَنْجة

لم يَخْلُ هذا العهدُ من جهاد وراء البُرْت . لكنه لم يكن كله من أجْل عمليات فتح مكين . بل لعله لرد مكيدة وكف عادية وتأديب آثم وتثبيت هيبة ، أو محاولة فتح تحت نية جهاد ورغبة فتح واهتبال فرصة . والظاهر أنه منذ الأحداث الداخلية ـ نهاية عهد الولاة[1]ـ خسر المسلمون مواقع وراء البُرْت ، وكانت جديدة . وغير واضح احتفاظهم منها بمقدار .

إذا كانت مناطق في الشمال الاسباني لم يثبت فيها فتح أو هي بحاجة الى جهاد، فما جدوى بذل الجهد وراء البُرْت ؟ إلا أن يكون للحفاظ على مابقي لهم منها ، أو ضرب مراكز قوة فِرَنْجية لردها . وردت إشارات متفرقة بحملة جهاد للمسلمين وراء البُرْت ، بالاشارة الى الفِرَنْج . ظاهر القصد منها الأرض الكبيرة ، وأشار المَقَّرِي الى حملات ، للأخوين عبد الكريم وعبد الملك وغيرهما ، ترددت الى مدينة أُرْبُونَة وما حولها منذ أيام هِشَام الأول . لكن اسلوب ذكرها مرة ، وموضع الإتيان بها أخرى ، يدعو الى التوقف والتعليل .

الحالة الأولى : كان فتح أُرْبُونَة سنة ١٧٧ هـ ، فعاقب هشام مجموعة من أسرى جِلِّيقِيَة بنقل أحمال التراب من سورها إلى قرطبة .

« وفي أيامه فُتحت أُرْبُونَة الشهيرة ، واشتَرط على المُعاهِدين من أهل جِلِّيقِيَة من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أُرْبُونَة المفتتحة يحملونها الى باب قصره بقُرْطُبَة ، وبنى منه المسجدَ الذي قُدَّام باب الجِنَان ، وفَضُلَت منه فضلة بقيت مكَّومة . »[2] وهو خبر غريب مرتين :

١ ـ غرابة تعامل : فرض مثل هذا الشرط ، سياسة غير معروفة في سياسة الفتح الإسلامي ، إلا أن يكون إجراءً أو علاجاً لحالة معيَّنة .

٢ ـ أن يقوم أسرى أو مُعاهِدون (جَلالِقَة) لجلب التراب من أُرْبُونَة (إلى قُرْطُبَة) . كيف تم ذلك ، وأين كان الفتح أولاً ؟ لكن لو حدث مثل هذا فهي

---

(١) أعلاه ، ١٨٨ ، ٢٠٦ .

(٢) نفح الطيب ، ١/ ٣٣٧ . قارن : البيان المغرب ، ٢/ ٦٤ .

ستُحمل على دواب قد يطلب اليهم توفيرُها . ومع أن هذا النص لا يخلو من غموض أو قلق فقد يكون مبتوراً أو وارداً منقطعاً عن تفصيلات سبقته أو لَحِقته

الحالة الثانية : أن هِشَاماً بعث وزيره عبدَ الملك بن عبد الواحد بن مُغيث « في العساكر سنة سبع وسبعين إلى أَرْبُونَة وجُرُنْدَة فأثخن فيها ، ووطيء أرض بَرْطانِيَة »[1] . لكن لماذا ذُكرت أَرْبُونَة (جنوبي فرنسا) مع كل من جُرُنْدَة (جِيَرُونَه Gerona) وبَرْطَانِيَة (بَرْبطَانِيَة Boltaña , Barbitania) ، وهما شمالي الجزيرة الأندلسية ؟ فهل ان أَرْبُونَة محرفة عن اسم لمدينة غيرها شمالي إسبانيا ، وان جُرُنْدَة هي جِيَرُونَة شمالي الأندلس . أو هي جِيَرُون (Gironde) منطقة جنوب غربي فرنسا[2] ، وكما يفهم من إيراد المَقَّري لها (جُرُنْدَة)[3] ، أو أن الخبر كله من باب الحديث العام ؟ وهل أن التعيين (في الحالتين : الأولى والثانية) متعلق بحادثة واحدة ، كانت أولهما عامة والثانية تخصيصاً .

يوردُ المَقَّري بعد ذلك أعمالاً عسكرية بين الأندلس والفِرَنْجَة لكنها غير واضحة ولا كافية لفهم وضعها أو تفاصيلها . ففي أيام الحكم الأول سنة ١٩٢ هـ (٨٠٧ م) « جمع لُذْريق بن قَارْلُهْ ملكُ الفِرَنْج جموعَه ، وسار إلى حصار طَرَسونَة ، فبعث الحَكَمُ ابنَه عبدَ الرحمن في العساكر ، فهزمه ، ففتح الله على المسلمين ، وعاد ظافراً . »[4] لُذْريق أو رُذْريق كما عند ابن عِذاري[5] أو لُذْويق لدى ابن حَيَّان[6] هو لويس الأول (عندهم : التقي Louis le Pieux, Ludovico Pio) . لكن لويس بن شارلمان لم يكن في ذلك الوقت ملك الفِرَنْج ، لأن أباه شارلمان توفي سنة ١٩٨ هـ (٨١٤ م) . إلا أن يكون قد تَوَلَّى هذه الحملة في حياة أبيه ،

---

(١) نفح الطيب ، ٣٣٧/١ .

(٢) انظر : *Andalusian diplomatic relations*, 135.

(٣) نفح الطيب ، ٣٤٦/١ (= أدناه ، ٢٥٩ = النص المشار اليه) .

(٤) نفح الطيب ، ٣٤٠/١ . كذلك : العبر ٢٧٦/٤ ؛ المغرب ، ٤٠/١

(٥) البيان المغرب ، ٧٢/٢ .

(٦) المقتبس ، ٢/٢ .

وهو أمر ممكن ، فَوُصِفَ بأنه مَلكُ الفِرَنْج تَجَوُّزاً أو في غير معرفة دقيقة له ، أو ربما وُصْفُ ملك الفِرَنْج يعود الى قَارْلُهْ (شارلمان) لا على ابنه لُذْرِيق (لويس) وهذا احتمال قليل الورود .

تلت ذلك عدة اعتداءات قام بها الفِرَنْج ، ردها الأندلسيون . ففي سنة ١٩٦ هـ قاد الحكم بنفسه حملة « لَمَّا كَثُرَ عَيْثُ الفِرَنْج في الثغور »[١] ، وفي سنة ٢٠٠ هـ وَجَّه الحكم حملة بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مُغيث الى بلاد الفِرَنْج مخترقاً الشمال الاسباني نحو الأرض الكبيرة وقفل ظافراً ظاهراً[٢] . وجرى مثله سنة ٢٢٦ هـ أيام الأوسط الذي وَجَّه « العساكر الى أرض الفِرَنْجَة ، وانتهوا الى أرض بَرْبَطانية »[٣] .

وفي سنة ٢٣١ هـ أرسل الأوسط حاجبَه عبد الكريم « وأجاز الدروب التي تُسَمَّى البُرُت الى بلاد الفِرَنْجَة فدوخها قتلاً وأسراً وسبياً ، وحاصر مدينتها العظمى جُرُنْدَة ، وعاث في نواحيها ، ، وقفل . »[٤] ظاهر هذه الأحداث يدل أنها كانت رداً على اعتداء وتخريب في الأندلس قام به حكام الفِرَنْجَة ، كما فعلوا في طَرَسُونَة وغيرها من تلك الأعمال التي لم يَجْرِ في هذا البحث ايرادها واستقصاؤها . ولعل أحداثاً مماثلة — قلَّت أو كثرت — جرَت تِلْوَ ذلك ، إلا أن النصوص المتعلقة مختصرة وغير كافية .

بينت النصوص السابقة أن هذا النوع من الأحداث بين اسبانيا الشمالية ودولة الفِرَنْجَة لم تكن هي المسيطرة على ذلك الجو وإن تعددت . بل جرى نشاط مماثل في حسن العَلاقات وإقامة الصلات وعقد المعاهدات . ولدينا ثروة لابأس بها حول هذا الجانب ، ينظر فيها حين الحديث عن سياسة الأندلس الخارجية مع العالم غير الإسلامي[٥] .

---

(١) نفح الطيب ، ٣٤٠/١ . كذلك : العبر ، ٢٧٦/٤ .

(٢) نفح الطيب ، ٣٤٠/١ ؛ العبر ، ٢٧٦/٤ — ٢٧٧ . كذلك : البيان المغرب ، ٧٥/٢ .

(٣) نفح الطيب ، ٣٤٥/١ . كذلك : العبر ، ٢٨٠/٤ .

(٤) نفح الطيب ، ٣٤٦/١ . كذلك : العبر ، ٢٨٢/٤ .

(٥) أدناه ، ٢٨٩ ، الفصل الرابع .

٣ ـ افتتاح الجزائر الشرقية

جرى ذكر الجزائر الشرقية (مَيُورْقَة ومَنُورْقَة واليابسة) حين الحديث عن فتح الأندلس والتمهيد له[1] . إذ قد عرفتها الجيوش الإسلامية الفاتحة في تاريخ مبكر، منذ سنة ٨٩ هـ ، قبل البدء بفتح الأندلس . ولعلها كانت حملة استطلاعية ، ثم جاء فتح الأندلس ، جهاداً وفيراً للمسلمين في الجزيرة الأندلسية والأرض الكبيرة ، سبق الوقوف عنده عن كَثَب .

أمر يُلفت نظر الباحث ألاّ يجد في مراجعنا الأندلسية المتوفرة أخباراً عن فتح هذه الجزر أومحاولات له . واعتبرها ابن سعيد الأندلسي (تونس، ٦٨٥ هـ) « مضافة إلى الأندلس »[2] . فهل كانت هناك أخبار افتقدناها ؟ إن الأخبار المتعلقة بافتتاحها الذي تم في وقت جِدُّ متأخر عن فتح الأندلس ــ كما سيتبين بعد ــ تُقَوِّي عدم توفر نشاط جهادي جديد واضح ، قبل افتتاحها سنة ٢٣٤ هـ ــ أيام الأوسط ــ أوبعدها، سنة ٢٩٠ هـ . لو أمكن التثبت من عدم توفر مثل هذا الجهاد فلا أقل من أن تكون محاولات فتح لها ، لم تتم لأي سبب . وقد ذُكر ــ من غير مرجع ــ أن الحكَمَ الأول (٢٠٦ هـ) وَجَّه حملتين الى الجزائر الشرقية : سنة ١٨٢ هـ وسنة ٢٠٠ هـ[3] . وكلا الحالين يجلب الإنتباه ويدعو الى التعليل ، حتى تتوفر نصوص تقطع بأمر . أليس مستغرباً أن تكون أول تَجْرِبة للمسلمين مع الجزائر الشرقية سنة ٨٩ هـ ــ قبل فتح الأندلس ــ ويتوقف كل نشاط لهم معها طوال قرن ونصف القرن ؟ فلا نكاد نسمع شيئاً عن ذلك حتى سنة ٢٣٤ هـ ، وهو أمر يتفق عليه عدد من مؤرخينا الأندلسيين .

يذكر ابن حَيَّان (٤٦٩ هـ) في **مُقْتَبِسه** أن الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) سَيَّر « أُسطولاً من ثلاثة مئة مركب إلى أهل جزيرتي مَيُورْقَة ومَنُورْقَة ، لنقضهم العهد وإضرارهم بمن يمر اليهم من مراكب المسلمين ، ففتح

(١) أعلاه ، ٤٤ ــ ٤٥ .

(٢) المغرب ، ٢/٤٦٥ .

(٣) المسلمون في أوربا في العصور الوسطى ، إبراهيم علي طرخان ، ١٠٣ .

الله للمسلمين عليهم ، وأظفرهم بهم فأصابوا سباياهم ، وفتحوا أكثر جزائرهم .»[1]

ويورد الخبر باختلاف ابن عِذاري (بعد ٧١٢ هـ) في بيانه فيقول إنه « في سنة ٢٣٤ ، أمر الأمير بتوجيه العساكر إلى أهل جزيرة مَيورْقَة ، لنكايتهم ، وإذلالهم ، ومجاهرتهم بنقضهم العهد ، وإضرارهم بمَن مَرَّ عليهم مِن مراكب المسلمين . فغزتهم ثلاث مئة مركب ، فصنع الله للمسلمين جميلاً ، وأظفرهم بهم ، وفتحوا أكثر جزائرهم .»[2]

كما أورده ـــ مع اختصار ـــ آخرون كابن سعيد (٦٨٥ هـ) الذي يقول في حوادث سنة ٢٣٤ هـ : « جهَّزَ عبدُ الرحمن أُسطولاً من ثلاث مئة مركب الى جزيرتي مَيُورْقَة ومَنُورْقَة لإضرار أهلها بمن يمر بهما من مراكب الاسلام ففتحوهما . »[3] وابن الخطيب يذكر أنه في أيام الأوسط « انتقض المُعاهِدة بجزيرة مَيُورْقَة فغزاهم في ثلاث مئة مركب ، فافتتحها ثانية »[4] .

يمكن ملاحظة مايأتي من هذه النصوص السابقة :

١ ـــ أن الأمير الأوسط سَيَّر أُسطولاً من ثلاث مئة مركب الى الجزائر الشرقية .

٢ ـــ سار الأسطول نحو مَيُورْقَة ومَنُورْقَة ، كبريا الجزائر الشرقية قاطبة . لم تُذكر اليابسة ثالثتهما وأقربها الى الشاطيء الأندلسي تجاه دَانِيَة (Denia) .

٣ ـــ هناك جزر أخرى صغيرة افتتح الأسطول بعضها .

٤ ـــ كانت للمسلمين في الأندلس صِلات مع أهل بعض هذه الجزر ، لا سيما مَيُورْقَة ومَنُورْقَة . وتقوم هذه العهود على تأمين أمور المسلمين والجزيرة . وهذا يعني أنه جرت اتصالات بين أهل هذه الجزر والأندلس .

٥ ـــ لم تكن أي من هذه الجزر قد فتحت أو انضوت تحت سلطان الأندلس قبل ذلك .

٦ ـــ أن أهل الجريزتين (مَيُورْقَة ومَنُورْقَة) تعرضوا لسفن المسلمين التجارية

---

(١) المقتبس ، ٢/٢ ـــ ٣ .

(٢) البيان المغرب ، ٢/٨٩ .

(٣) المغرب في حلى المغرب ، ١/ ٤٩ .

(٤) أعمال الأعلام ، ٢/١٨ .

أو الجهادية ، ناقضين هذا العهد . وقد تكون عبارة « مراكب المسلمين » عامة وليست مقصورة على أهل الأندلس . قد يشير هذا الى أن أهل هذه الجزر لم يكونوا قد دخلوا الإسلام بعد ، ربما بمقدار . ويرجّح عدم فتحها .

٧ ـ وَصَفَت النصوص السابقة هذا العمل بالفتح ، فهل تعني به الفتح الدائم ؟ أم إخضاعهم وإجبارهم على الالتزام بالعهد والكف عن اعتدائهم بعد ردّه ؟ الأقرب فهم عبارة ابن الخطيب « فافتتحها ثانية » على المعنى الأخير من قيام العهد بين أهل تلك الجزر والأندلس ، سوية أو منفردة .

لكن لماذا لم يتم افتتاح هذه الجزر أو بعضها حتى الآن (سنة ٢٣٤ هـ) ؟

* ألِعَدم استطاعة الأندلس ، الذي بذل جهداً يزيد عما تتحمله لاسيما أيام الولاة الذي توفر فيه الجهاد وامتد لمسافات بعيدة تجاوزت الجزر ، وهي عليها أسهل؟
* ألِبُعدها عن الجزيرة الأندلسية ، وعدم مجاورتها كلاً من المغرب والأندلس ، والمسافة عنها ليست كبيرة جداً ولا عسيرة ؟
* أم لأوضاع الأندلس الداخلية ؟
* أم لضعف الأسطول الأندلسي ؟
* ألِتعدد سلطات الأندلس والمغرب ، كل خاضع لسلطة ؟ وذلك من مخاطر ومحاذير انقطاع السلطة في الأندلس عن سلطة العالم الإسلامي وعدم الارتباط بخلافته ودولته[1] .

تؤكد الأحداث التالية أن الأعمال الحربية السالفة تجاه الجزر لم تكن فتحاً ولا مستقراً . يذكر ابن حَيَّان أنه سنة ٢٣٥ هـ « ورد كتاب أهل مَيُورْقَة على الأمير عبد الرحمن بن الحكم مستغيثين مما دهمهم مِن سَخَطَه ، مستقيلين لعثراتهم لديه ، راغبين في صفحه وإقالته ، فعطف عليهم ، وأقالهم زلتهم ، وأجابهم الى مسألتهم ، وأعطاهم ذِمَّتَه وجَدَّد لهم عهده . »[2] وما أورده ابن عِذاري عن

---

(١) انظر : أعلاه ، ١٣٥ ، ٢٤٠ .

(٢) المقتبس ، ٢/٤ .

هذه الحادثة أوفى : « في سنة ٢٣٥ هـ ، ورد كتاب أهل مَيُورْقَة ومَنُورْقَة الى الأمير عبد الرحمن ، يذكرون ما نالهم من نِكاية المسلمين لهم ، فكتب اليهم كتاباً أذْكُر هنا فصولاً منه وهو : أمَّا بَعْدُ ، فقد بلغنا كتابكم ، تزكرون فيه أمركم ، وإغارة المسلمين الذين وجَّهناهم اليكم لجهادكم واصابتهم ما أصابوه منكم من ذراريكم وأموالكم ، والمبلغ الذي بلغوه منكم ، وما أشفيتم عليه من الهلاك . وسألتم التدارك لأمركم ، وقبول الجزية منكم ، وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة ، والنصيحة للمسلمين ، والكف عن مكروههم ، والوفاء بما وتحملونه عن أنفسكم . ورجونا أن يكون فيما عوقبتم به صلاحكم ، وقمعكم عن العَوْد الى مثل الذي كنتم عليه . وقد أعطيناكم عهدَ الله وذِمَّته . »[1]

تُسَجِّل المراجعُ أخبارَ الفتح الإسلامي الدائم للجزائر الشرقية – أو لبعضها – وتؤرخ حدوثَه سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٢ م) أيام الأمير عبدالله (٣٠٠ هـ) . فيذكر الحِمْيَري في رَوْضِه – حين الحديث عن جزيرة مَيُورْقَة : كبراها – أن المسلمين افتتحوها سنة ٢٩٠ هـ[2] ، ويقدم ابن خَلْدون في عِبَره معلومات أكثر عن فتح جزيرة مَيُورْقَة ، فيَقولُ : « كانَ فَتحُ مَيُورْقَة سنة تسعين ومئتَين على يَدِ عِصامِ الخَوْلاني »[3] ، ويُفَصِّل الكيفية التي فُتحت بها هذه الجزيرة . ولم يتوفَّر خبر فتح الجزيرتين الأُخْرَيين (مَنُورْقَة واليابسة) لكن لابد أن يكون ذلك تلا افتتاح مَيُورْقَة .

غدت هذه الجزر الشرقية إسلاميةً ، لا بفتحها فقط بل بحياة سكانها وكافة أحوالها . وهو أمر مألوف في البلدان التي فُتحت ، حيث يدخل أهلُ البلدِ الإسلامَ طواعية . يُحبون الإسلامَ ويدافعون عنه ويحمونه بأنفسهم ، مثلما رأيناه في الأندلس وغيرها .

---

(١) البيان المغرب ، ٢/٨٩ . لعلَّ هناك خطأً أو سقطاً بين كلمتي : « بما » و « تحملونه » .

(٢) الروض المعطار ، ١٨٨ .

(٣) العبر ، ٤/٣٥٣ .

وهو أمر ليس مقصوراً على أحد ، جرى عليه المسلمين الأوائل ومَن تلاهم في مختلف الأعصار والأمصار .

تَعَمَّرت هذه الجزر في كل جانب وغَمَرَها الخيرُ من كل نوع ، وظهر فيها العلماء وسادها العلم والمعرفة ، وأنارت شِعابها قناديلُ الإيمان ، وأقام طُرُقاتِها ، نَيِّرَة ودُرُوَبها خَيِّرَة ، دينُ الله وشَرْعُه ، وغدت موطناً لأهل العلم والفضل في كل ميدان ، واتَّخذَت مَوْئلاً للعديد من الأعلام .

فإن أحمد بن رحيق بن إبراهيم بن حارث بن خلف بن راشد السُّمَاتي « وُلِّي قضاء الجزائر الشرقية ، بعد ابن أخيه نافع بن محمد بن رَحيق في سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مئة . فلم يزل قاضياً بها إلى أن تُوُفِّي لعشر خَلَوْنَ من رمضان سنة ثلاث وأربعين وثلاث مئة غريقاً في البحر مع رَشيق عامل الجزائر مولى الناصر . ذكر ذلك : ابن حارث . وذكر ابن حَيَّان : أن جعفر بن عثمان المُصْحَفي خرج في يوم الخميس لثلاث بَقِينَ من جُمادى الأخيرة سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مئة قائداً الى الجزائر الشرقية مَيُورْقَة وذَوَاتها ، وَوُلِّي أحمد بن رَحيق القضاء بها .»[1]

ومن علماء جزيرة مَيُورْقَة الحُمَيْدي [2] صاحب **جَذْوَة المُقْتَبِس** وغيرها. المُحَدِّث الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبي نَصْر فَتُّوح الحُمَيْدي الأندلسي المَيُورْقي (مَيُورْقَة ، قبل سنة ٤٢٠ ــ بغداد ، ٤٨٨ هـ) . مستوطن بغداد الموصوف « بالنباهة والمعرفة والإتقان والدين والورع ، وكانت له نغمة حَسَنة في قراءة الحديث . »[3] ، « وكان إماماً من أئمة المسلمين في حفظه ومعرفته وإتقانه وثقته وصدقه ونبله وديانته وورعه ونزاهته »[4] . ويَروي المَقّري أن الحِجَاري ذكره

(١) التكملة ، ابن الابار ، ١٣/١ (رقم : ١٦) . كذلك : الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي ، ١١٦/١ (رقم : ١٥٤) ؛ الحلة السيراء ، ٢٥٧/١ .

(٢) الصلة ، ابن بشكوال ، ٥٠٦/٢ (رقم : ١٢٣٠) ؛ وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، ٢٨٢/٤ (رقم : ٦١٦) . قارن : نفح الطيب ، ١١٣/١ .

(٣) وفيات الأعيان ، ٢٨٢/٤ .

(٤) نفح الطيب ، ١١٣/٢ .

« في المُسْهِب وقال عنه : إنه طرق مَيُورْقَة بعدما كانت عُطْلاً من هذا الشأن ، وترك لها فخراً تُباري به خواص البلدان ، وهو من علماء أئمة الحديث ، ولازمَ أبا محمد بن حَزْم في الأندلس واستفاد منه ، ورحل الى بغداد ، وبها ألّف كتاب الجَذْوة »[1] .

رحل إلى ميورقة بعض علماء وأدباء الجزيرة الأندلسية، منهم : ابن حَزْم الأندلسي (٤٥٦ هـ) الذي كان له فيها نشاط ملحوظ ، وناظر أبا الوليد الباجي (٤٧٤ هـ) الوارد اليها[2] ، في مجلس واليها أحمد بن رَشيق[3] ، التالي ذكره . استقدمه اليها أحد فقهائها الأصولي : أبو عبد الله محمد بن سعيد ، من أهل مَيُورْقَة .[4]

حَلَّ بمَيُورْقَة وبها تُوُفّي الشاعر أبو بكر محمد بن عيسى المعروف بابن اللّبّانَة (٥٠٧ هـ) . من أهل دَانِيَة الذي « كان من جِلّة الأدباء ، وفحول الشعراء ، مَعين الطبع واسع الذرع ، غزير الأدب ، قوي العارضة ، متصرفاً في البلاغة وله تواليف »[5] .

وأبو العباس أحمد بن رشَيق الكاتب والعالم الأديب ، الذي وَلاّه أبو الجيش مجاهد بن عبد الله العامري (٤٣٦ هـ = ١٠٤٤ م) ولايةَ جزيرة مَيُورْقَة « فكان يَنظر في أمور الجهة التي كان فيها نظَر العدل والسياسة ، ويشتغل بالفقه والحديث ، ويجمع العلماء والصالحين ، ويؤثرهم ، ويُصْلح الأمور جَهْده ... مات بعد الأربعين واربع مئة عن سنّ عاليَة »[6] . وله عدة تصانيف ذكر بعضَها الحُمَيْدي في جَذْوَته . وهنالك أعلام آخرون في مَيُورْقَة وأخَواتها من الجزائر

---

(١) نفح الطيب ، ١١٤/٢ . كذلك : المغرب في حلى المغرب ، ٤٦٧/٢ .

(٢) نفح الطيب ، ٦٨/٢ ، ٧٧ . كذلك : الذيل والتكملة ، ٢١٦/٦ .

(٣) الحلة السيراء ، ابن الأبار ، ١٢٨/٢ .

(٤) التكملة ، ابن الأبار ، ٣٩١/١ (رقم : ١٠٩٤) .

(٥) التكملة ، ٤١٠/١ (رقم : ١١٦٢) . كذلك : المعجب ، ٢١٢ ؛ المغرب ، ٤٠٩/٢ ، ٤٦٦ ؛ نفح الطيب ، ١٦٩/١ ؛ المطرب من أشعار أهل المغرب ، ابن دحية ، ١٧٨ .

(٦) جذوة المقتبس ، ١٢٢ – ١٢٣ (رقم : ٢٠٨) . انظر عنه كذلك : المغرب ، ٤٠٩/٢ – ٤١٦ .

الشرقية[1] . كذلك كان صاحبها (معدَانِيَة) أيام الطوائف مجاهد العامري (٤٣٦هـ[2]) عالماً كريماً اهتمَّ بالعلماء والفضلاء ورعى العلم وأهله وكرَّمَهم[3] .

ثم أصاب الجزائر الشرقية ما أصاب جزيرة الأندلس قبلها من سوء العاقبة . فَنُكِبَت بنكبتها ، حين أحاط بها ما أحاط الأندلس ، مع الذي كان من صنع يدها وسيء فعلها . فذهبت بذَهَابها[4] ونالت مثل عقابها . وتلك ﴿ سُنَّةَ الله في الذين خَلَوْا مِن قَبْلُ ولن تَجِدَ لسنَّةِ الله تَبديلاً ﴾[5] فهي كذلك فيمن تَلَوْا أو بَقَوْا مِن بَعْدُ .

فهل كل تلك تعود : تُخْضِر وتُزْهِر ، تُشِير وتُنِير ، تَفيض خيراً وبِراً ، نعمة وبركةً ؟ مَن يدري ، لعل الله جَلَّت قدرتُه ﴿ يُحْدِثُ بعدَ ذلك أمراً ﴾[6] وهو العلي القدير ، سبحانك إنك أنت علَّامُ الغيوب .

ثالثاً : نشوء الدويلات الإسبانية في شمال الأندلس وتحرشاتها

يُهم دارسُ التاريخ الأندلسي التعرفَ على تاريخ إسبانيا الشمالية (النصرانية) وبقية التاريخ الأوربي . وهو ذو صلة بالأندلس في عدة أمور ، مثلما يُهم دارسُ تاريخ اسبانيا الشمالية وأوربا التعرفَ على التاريخ الأندلسي . الهدف من ذلك أن تكون صورة الأحداث ـ عموماً ، وما له منها علاقة ، من أي نوع ـ بين الطرفين واضحة .

---

(١) انظر : المغرب ، ٤٦٧/٢ ـ ٤٧٠ ؛ نفح الطيب ، ٤٧١/٣ . كذلك : أعمال الأعلام ، ٢٧٥/٢ ـ ٢٧٧ ؛ الذيل والتكملة ، ٧/٦ ، ٥٨ ، ١٠٦ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ٢١٦ ، ٣٢٧ ، ٤٥٥ ؛ التكملة ، ١٩٦/١ (رقم : ٥٢٠) ، ٢٩٧/١ (رقم : ٨٠٩) ؛ الصلة ، ابن بشكوال ، ٤٢٢/٢ (رقم : ٩٠٦) .

(٢) العبر ، ٣٥٤/٤ ؛ دول الطوائف ، محمد عبد الله عنان ، ١٩٨ .

(٣) المتين (مفقود) ، ابن حيان . راجع : البيان المغرب ، ١٥٦/٣ ؛ اعمال الاعلام ، ٢١٧/٢ ـ ٢١٨ ؛ المغرب في حلى المغرب ، ٤٠١/٢ ، ٤٦٦ .

(٤) انظر : نفح الطيب ، ٤٦٩/٤ ـ ٤٧٢ ؛ المغرب ، ٤٠٢/٢ ؛ أدناه ، الفصلان السادس والسابع .

(٥) الآية ٦٢ من سورة الأحزاب .

(٦) الآية ١ من سورة الطلاق .

وفّى مؤرخونا الأندلسيون هذا الأمر كثيراً من حقه ، وليس فقط في ثنايا حديثهم عن التاريخ الأندلسي وعرض مُجراياته . أمثال : **مُقْتَبِس** ابن حيَّان **وأخبار مجموعة وبيان** ابن عِذاري **وحُلّة** ابن الأبَّار **وإحاطة** ابن الخطيب ، وكذلك ابن الكردبوس في كتابه **الاكتفاء**[1] ، كما يتبين في الحواشي لهذا الفصل وأمثاله . بل إن بعض مؤرخينا أفردوا فصولاً عن تاريخ اسبانيا النصرانية . مثل : ابن سعيد في **المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب**[2] . وابن الخطيب في **أعمال الأعلام** [3] ، وابن خلدون في **العِبَر** [4] .

وغير بعيد أن يكون ابن حيَّان (٤٦٩ هـ) قد كتب فصلاً أو أكثر عن هذا التاريخ ، ولكنه لم يصلنا ؛ فإن المنقولات عنه وما تبقى لنا من **مُقْتَبِسه** والنَّزْر من غيره يلاحظ فيها الاهتمام الواضح بتاريخ إسبانيا النصرانية وبقية أوربا وأنه كان على معرفة جيدة بذلك . والمطّلع على كتابات ابن حيَّان يلحظ اهتمامه بأمور كثيرة جليلة أو مهمة في كتاباته التاريخية . يشار — بهذه المناسبة — الى عدة أمور منها :

١ — تاريخ اسبانيا النصرانية وأوربا[5] .

٢ — النشاط الدبلوماسي ، ومع دويلات اسبانيا الشمالية والأوربية[6] .

٣ — الخُطط الأندلسية : الإدارية (التنظيمات) والعمرانية (المعمارية)[7] والظواهر الحضارية الأخرى ، مع العناية بأعلام هذه الميادين وغيرها ، لاسيما القضاة

---

(١) تاريخ الأندلس ، ٧٣ — ٧٧ (نص ابن الكردبوس) .

(٢) المغرب ، ٤٧٣/٢ . (٣) أعمال الأعلام ، ٣٢٢/٢ — ٣٣٨ .

(٤) العبر ، ٤/ ٣٨٥ — ٣٩٧ .

(٥) انظر مثلا : المقتبس ، ٢٤٠/٢ ، ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٥٦ ، المقتبس (بيروت) ، ٢٣-٢٤ ، ١٦٨-١٦٩ ، ٢١٨ ، مجلة الأندلس (الاسبانية *AL-ANDALUS*) ، ٢٩٦/٢/١٩ — ٣٠٠ ، ٣٠٤ — ٣١٠ . كذلك : العبر ، ٣٠٧/٤ .

(٦) المقتبس ، ٧٩/٢ ، المقتبس (بيروت) ، ٢٠ — ٢٣ ، ٢٧-٣٢ ، ٧١ ، ٧٦ ، ١٣٨ — ١٣٩ ، ١٤٧ — ١٤٨ ، ١٦٨ — ١٦٩ ، ١٨٢ — ١٨٣ ، ١٨٨ — ١٨٩ ، ٢٤١ ، مجلة الأندلس ، ١٩/ ٢/ ٣٠٠ ، ٣٠٤ .

(٧) انظر : المقتبس ، ٢٥٩/٢ ، ٢٦٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٥ ، المقتبس (بيروت) ، ٢٥ — ٢٦ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ٢١٦ .

والحُجّاب والوزراء والعلماء ، وكذلك الأمراء ، مع ذكر أعمالهم وما قدّموه من إسهام عام[1] ، وفي خاصة أحوالهم وبيئتهم .

٤ ــ الاهتمام بالوثائق الرسمية وإثباتها بنصوصها[2] .

كل ذلك مزوّد بالإحصائيات ، ما أمكن .

لضرورة التعرف على تاريخ اسبانيا النصرانية يُفرَد هذا الفصل لإعطاء صورة أفضل وتقديم رؤية أوضح للأحداث ، لاسيما المشتركة منها .

* * *

تَعَثَّرت خُطوات المد الإسلامي في الأندلس والأرض الكبيرة ، ولاح ذلك ــ بحدود ومواضع متفرقة ــ منذ نهاية عهد الولاة ، وشاركت فيه أسباب ، منها : بُعد الأندلس عن مركز الخلافة وسرعة تغير الوالي أو مقتله ، مما يسبب القلق ويتيح المجال لهذا الاستقرار الداخلي ويتأخر الإصلاح . ولتغير الولاة أثر على مجرى تلك الأمور ، فلا يمكث بعضهم في منصبه غير شهور . وما يكاد يأخذ مكانه ويدرس الأحوال ويضع خُططه للإصلاح حتى يتغير أو يُستَشهَد ، فيأتي وال جديد .هذا التبدل ــ بجانب مايؤدي من تأخر الاصلاح ــ يضع الأندلس بمواجهة بعض الأخطار. ولعله كان سبباً مهماً ساعد فلول القوط المنهزمة أمام جيش الفتح أن تُعيد صفوفَها وتبدأ المحاربة .

افتَتَحت القواتُ الإسلامية شِبهَ الجزيرة الأندلسية بقيادة فاتح الأندلس طارق ابن زياد والوالي المحنَّك موسى بن نُصَيْر ، لكنها لم تفتحها كلها ، ولم تتابع الفلول المنهزمة أمامهم مِن بقايا الجيش القوطي ، حين لجأت الى الشمال في الجبال ، لتحمي نفسها من الجيوش الإسلامية المظفرة .

لم تسبب هذه الأحوال في الأندلس اطمئنان الفلول وتجميع نفسها فقط ، بل

---

(١) انظر : المقتبس (بيروت) ، ٦٤ .

(٢) انظر : المقتبس (بيروت) ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ٩٧ ــ ١٠٠ ، ١١١ ــ ١١٤ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ــ ١٢٧ ، ١٢٩ ــ ١٣١ ، ١٤٩ ، ١٧٨ ــ ١٨٢ ، ٢٠٧ ــ ٢٠٨ .

كذلك على النمو ومنازله القوات الفاتحة أحياناً ، حيث كان ما يسمى بحركة الاسترداد (La Reconquista) .

ولعل الأفضل لو اتجه ولاة الأندلس الى تطهير أرض الجزيرة ، قبل – أو مع – الاتجاه الى ماوراء البُرْت .

تجَمّع بعض تلك الفلول في شمال شرقي الجزيرة في نَبَارَّة (نافار Navarra) أو بلاد البَشْكُنْس ، تحت قيادة بُطْرُه (Pedro) . وهذا التجمع قليل الأهمية ، إذ كان هدفاً للقوات الإسلامية الذاهبة إلى بلاد الفِرَنْج ، وراء جبال البُرْت . أما التجمع الآخر فقد التجأ الى المرتفعات الشمالية الغربية . هناك في شمالي الجزيرة الأندلسية في مكان يُعرف – لدى المؤرخين والجغرافيين المسلمين ، لاسيما الأندلسيون – « الصخرة »[1] أو صخرة بِلاي[2] (Peña de Pelayo) ، بقيادة زعيم قُوطي يسمى بِلاي[3] أو بِلايُه[4] (Pelayo) . بدأ بِلاي وأتباعه تجمعهم – على مايذكر – حَوالي سنة ٩٨ هـ (٧١٨ م) أو بعدها . وليس من الضروري اعتبار هذه السنة أو غيرها تاريخاً لمعركة أو حادثة معينة ، لكنها بداية تجمعها ، وإن كان هذا يبدو بكل وضوحٍ مبكراً تماماً .

يذكر المؤرخون المسلمون قلةً من القُوط التجأوا الى الصخرة التي تعرف في المراجع الإسبانية : كهف أونكا (كوفادونكا Covadonga, Cova de Onga) . يقع في جبال قَنْتَبْرِيَة (كانتبرية) في أشْتُوريش (Asturias) الى الجنوب الشرقي من خِيخون على ساحل خليج بَسْقَايَة (بسكاي)[5] . كان هذا الملجأ بعيداً عن طريق الجيوش الإسلامية ، بجانب مناعة مكانه وقلة العدد في بادىء الأمر ، على مايذكر . مما ساعد على تركها ونموها ، وفيما بعد ، وبمساعدة جيوش أو إمدادات أتت من خارج اسبانيا . بل يشير ابن خَلْدون إلى أن « أرزَ الجَلالِقَةُ ومَن بَقِي مِن أمم العجم الى جبال قَشْتَالَة وأُرْبُونَة وأفواه الدُّرُوب فتحصنوا بها »[6] .

---

(١) نفح الطيب ، ١٧/٣ ؛ أخبار مجموعة ، ٢٨ . (٢) نفح الطيب ، ٢٧٦/١ .

(٣) نفح الطيب ، ١٧/٣ ، ٣٥٠/٤ ، ٣٥١ ؛ أخبار مجموعة ، ٢٨ .

(٤) أعمال الأعلام ، ٣٢٢/٢ . (٥) انظر : أعلاه ، ١٠٣ – ١٠٧ ، ١١٢ .

(٦) العبر ، ٢٩٦/٤ (= نفح الطيب ، ٢٣٤/١) ، ٣٨٦ .

الظاهر أن التجمع لم يعتمد على فُلول جيش القُوط بل كان يتلقى المَدَد مِن خَلف جبال البُرْت . ولعل استدعاء موسى وطارق الى دمشق - من قبل الخليفة الوليد - كان من الأسباب الكبيرة في نمو هذه القوة القوطية .

ثم كان للأحداث الداخلية في الأندلس بعدها ، وما صاحبها من تنازع ، لوقتٍ ما ، أثر وعلاقة بوجود هذه الدويلات وتوسعها . بجانب ارتباط الأندلس بمجرايات الأمور في المشرق الإسلامي — صاحبت نهاية الدولة الأموية وابتداء العباسية — تلاها انقطاع الأندلس إدارياً عن سلطة الخلافة الإسلامية[1] وقيام الإمارة في الأندلس سنة ١٣٨ هـ . يذكر ابن خلدون في **العِبَر** : أنه « عندما شُغِل المسلمون بعبد الرحمن وتمهيد أمره قَوِي أمر الجَلالِقَة ، واستفحل سلطانهم ، وعَمَد فَرْوِيلَه بن الأذْفُونْش ملكُهم الى ثُغُور البلاد ، فأخرج المسلمين منها ، ومَلَكَها من أيديهم ، فملك مدينة لُكّ وبُرْتُقال وسَمُورَة وشَلْمَنْقَة وقَشْتالَة وشَقوبيَة ، وصارت للجَلالِقَة حتى افتتحها المنصور بن أبي عامر آخر الدولة »[2] .

هكذا بدأت المحاربة ، التي انتهت بعد ثمانية قرون — وبمعاونة الإمدادات الصليبية الأوربية المستمرة — إلى إبادة سلطان المسلمين السياسي في شبه الجزيرة الأندلسية ، بقيادة المَلِكين الكاثوليكيين : فِرانْدة أو فِرْذِلَنْد (Fernando) ملك أرَغُون (Aragon) وايزابل (Isabel) ملكة قَشْتَالَة (Castilla) وليون (León) .

يبدو من النزاعات الداخلية[3] — من أي نوع كانت — وتعكير الاستقرار في الأندلس ، وعدم القضاء على هذه الفلول — ربما مع غيرها من الأسباب — هي التي أدت مجتمعة (وان اختلفت في الأهمية) الى هذه الحالة . أكثر من قيام هذه الفلول على قوتها الذاتية ، متعاونة مع بقية الإمدادات المستمرة من خلف البُرْت .

ليون

توفي بِلاي سنة ١١٩ هـ (٧٣٧ م) فورثه ابنه فَافِيلَه (Fafila) الذي استمر سنتين وتوفي من غير أن يترك عَقِباً . ولما توفي بُطْرُهْ ، ورثه ابنه أذْفُنْش

---

(١) انظر : أعلاه ، ١٣٥ . (٢) العبر ، ٣٨٦/٤ (= نفح الطيب ، ٣٣٠/١) .

(٣) انظر : العبر ، ٢٥٦/٤ .

(الفونسوالأول Alfonso, Alphonso I) ، الملقّب عندهم بالكاثوليكي ، وتزوج هـذا من إرمسندا (Ermesinda) ابنة بِلاي ، وبذلك توحدت جبهة الحرب واعتُبِر الفونش (الأول) مؤسسَ المملكة النصرانية في الشمال . وقد انتفع هذا بما كان من أحداث داخلية في الأندلس والشمال وانشغال آخر ولاة الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري . وورث فَرُويلَه (Fruela) أباه الفونش (الأول) واستولى على بعض المناطق المجاورة هناك .

بقي بعض المسلمين يعيشون في تلك المناطـق ، لكن — بمرور الزمن — كانوا يخرجون منها ، وجرت الحرب سِجالاً بين الداخل وفَرُويلَة ، الذي قامت ضده عدة ثورات داخلية لطغيانه ، مما ساعد المسلمين على استرداد بعض المناطق ، واغتيل فَرُويلَة . وبعد أحداث عُيِّن ابنُه الفونش حاكماً باسم الفونش(الثاني) (Alfonso II) ، الملقب في المصادر الإسبانية بالعفيف ، ودام حكمه حوالي خمسين سنة ، وقامت عده مواجهات عسكرية مع الأندلس . فقد وجَّه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) ، جيشاً بقيادة وزيره عبد الكريم بن عبد الواحد بن مُغيث الى ألبَة والقِلاع [1] في الشمال ، وانتهت الى عَقْد معاهدة سلام بين الطرفين . وحين توفي الفونش (الثاني) خلَفَه ابنُه رُدْمِيرأورَميرُهْ (Ramiro I) ، الذي قمع عدة ثورات داخلية قامت ضده . ولعـدة سنوات توقفت هجوماته على الأراضي الأندلسية ، لانشغاله برد عادية المجوس الأرْدُمانيِّين (النورمان)[2]. واستغل أُرْدُون (Ordoño I) — ابن رُدْمير(الأول) ووريثه — انشغال الأمير محمد (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) بن عبد الرحمن الأوسط مع بعض العصاة ، فهاجم الأندلس ، لكنَّ الأميرَ ردَّه في عدة معارك .

تولى السلطة من بعده ابنه أذْفُنْش (الثالث ، Alfonso III ، الملقب في المصادر الاسبانية أحياناً : الكبير ، ٢٥٢ — ٢٩٧ هـ = ٨٦٦ — ٩١٠ م) . وواجه هذا عدة ثورات ومؤامرات عائلية نجح في قمعها ، وفرض على عامة الشعب ضرائب أدت الى استيائه ، فَخُلِـع بمحاولة عائلية لصالح ابنه غَرْسِيَه (García) . ثم نُقلت العاصمة من أُوبيط (Oviedo) الى ليون (León) عاصمة « مملكة ليون » ، الأسم الذي أُطلق عليها منذئذٍ ، بدلاً من « مملكة غاليسيا واستَرياس » .

---

(١) انظر : أعلاه ، ١٠٦ ، ٢٥١ . (٢) أعلاه ، ٢٢٧ وبعدها .

قائمة حكام مملكة ليون (حتى نهاية ق ٤ هـ)

بُطْرُهْ

(١) بِلاي

فَرُويلَه — (٣) أَذْفُنْش الأول + إرْمِسِنْدا (١٢١ـ١٤٠هـ=٧٣٩ـ٧٥٧م)

(٢) فَافِيلَه (١١٩ـ١٢١هـ=٧٣٧ـ٧٣٩م)

(٥) أوريلو — (٨) بِرْمُودُهْ — (٤) فَرُويلَة الأول

حكم القسم الشرقي (عُزل سنة ١٧٥ هـ (١٥٩ هـ = ٧٧٥ م)

وحكم : = ٧٩١ م)

(٦) سيلو (زوج أدوسندا ابنة أَذفُنْش الأول) القسم الغربي . توفي أوريلو فحكم سيلو القسم الشرقي كذلك ، حتى وفاته سنة ١٦٨ هـ (٧٨٤ م)

(٩) أَذْفُنْش الثاني (١٧٥ ــ ٢٢٧ هـ = ٧٩١ ــ ٨٤٢ م)

(١٠) رُدْمِير الأول (٢٢٧ ــ ٢٣٦ هـ = ٨٤٢ ــ ٨٥٠ م) انشغل برد هجوم المجوس الأول ٢٢٩هـ

(١١) أُرْدُون الأول (٢٣٦ ــ ٢٥٢ هـ = ٨٥٠ ــ ٨٦٦ م)

(٧) مورقاط

(١٢) أَذْفُنْش الثالث (خُلِع) (٢٥٢ ــ ٢٩٧ هـ = ٨٦٦ ــ ٩١٠ م)

(١٣) غَرْسِيَه الأول (أكبرهم)
(٢٩٧ – ٣٠١ هـ =
٩١٠ – ٩١٤ م)
نقل العاصمة من أبيط إلى
ليون وسميت المملكة بها

(١٤) أُرْدُون الثاني
(٣٠١ – ٣١٢ هـ =
٩١٤ – ٩٢٤ م)

(١٥) فَرُويلَه الثاني
حكم سنة بعد أخيه
أُرْدُون الثاني

(١٦) أَذْفُنْش الرابع (اعتزل)
(٣١٣–٣٢٠هـ = ٩٢٥–٩٣٢م)

(١٧) رُدْمِير الثاني
(٣٢٠–٣٣٩هـ = ٩٣٢–٩٥٠م)
الخندق سنة ٣٢٧ هـ

(٢٠) أُرْدُون الرابع (خُلِع)
(٣٤٧–٣٣٩هـ = ٩٥٨–٩٦٠م)

(١٨) أُرْدُون الثالث (أكبرهما)
(٣٣٩– ٣٤٥ هـ = ٩٥٠ – ٩٥٦ م)

(١٩) شَانْجُه الأول
(٣٤٥–٣٥٥هـ = ٩٥٦–٩٦٦م)
خُلع وأعيد ومات مسموماً

(٢٢) بِرْمُودُه الثاني
(٣٧٢ – ٣٨٩ هـ = ٩٨٢ – ٩٩٩ م)

(٢١) رُدْمِير الثالث (خُلع)
(٣٥٥–٣٧٥هـ = ٩٦٦–٩٨٥م)

(٢٣) أَذْفُنْش الخامس
(٣٨٩ – ٤١٨ هـ = ٩٩٩ – ١٠٢٧ م)

كانت تقوم الى جانب « مملكة ليون » مملكتان أُخريان أصغر منها . ترددت علاقتهما – مع ليون ، وفيما بينها – من حرب وخصومة الى صفاء وتعاون . هاتان المملكتان ، هما : قَشْتَالَة ونَبَارَّة . وكانت هذه الممالك تقوم – على انفراد أو

متجمعة ـ بتحرشات ضد الأندلس ، بلغت أحياناً حداً كبيراً . ففي حُكْم أُرْدُون (الثاني Ordoño II) حدث مثل ذلك . ثم كان صراع في الإسرة المالكة في ليون ، انتهى بفوز أذْفُنْش (الرابع) بن أُرْدُون (الثاني) وخَلَف أذْفُنْش أخوه رُدْمير (الثاني Ramero II) الذي وُصف بالقوة والشجاعة وقد حارب المسلمين بكل الوسائل ، وكانت معركة الخندق (٣٢٧ هـ = ٩٣٩ م) أعلى صور هذا الصراع ، إذ أُصيب فيها المسلمون . ولدى وفاة رُدْمير (الثاني) سنة ٣٣٩ هـ (٩٥٠ م) قامت حرب أهلية بين ولديه : أُرْدُون (أكبرهما) وشَانْجُهْ الذي اعتمد على عون أخواله البَشَاكِسَة وجَدَّته الملكة طُوطَة (Toda) ، وصية عرش نَبَارَّة ، وملك قَشَالَة . وهزم شَانْجُهْ أمام أخيه أُرْدُون (الثالث) ، وخَلَف شَانْجُهْ (الأول) أخاه أُرْدُون (الثالث) عند وفاته سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ م) . وجرَت أحداث بين شانْجُهْ (الأول) وبين ابن عمه أُرْدُون (الرابع) المعروف بالرديء بن أذْفُنْش (الرابع) ، انتهت بوفاة أُرْدُون . واستمر شانْجُهْ (المعروف بالسمين) في الحكم حتى وفاته ، فخَلَفَه ابنُه رُدْمير (الثالث) (٣٥٥ ـ ٣٧٥ هـ = ٩٦٦ ـ ٩٨٥ م).

تحرش رُدْمير (الثالث) بالأندلس ، مُتَّحِداً مع قوات الشمال الإسباني . لكن المنصور بن أبي عامر (٣٧١ ـ ٣٩٢ هـ) واجهه وهزمه في موقعة شَنْت مَنْكَش (Simancas) سنة ٣٧١ هـ (٩٨١ م) . وخُلع رُدْمير (الثالث) عن الحكم وانفرد به ابن عمه بِرمُودُهْ (الثاني Vermudo II)[1] . وعند وفاته خَلَفه ابنُه أذْفُنْش (الخامس Alfonso V) الذي كان طفلاً فوُضِع تحت وصاية الأمير الجِلِّيقي مِنِنْدُو جنثالث (Menendo Gonzalez)[2] .

(١) *Historia de Espana, VI, Espana Cristiana,* F. J. Perez de Urdel, 156.

(٢) انظر : دولة الاسلام في الأندلس ، ٢/٥٦٤ ، ٥٩٨ ـ ٥٩٩ ؛ دول الطوائف ، ٣٧٧ ؛ *Manual de historia de Espana,* P. A. Bleye, I, 489.

قَشْتَالَة

تقع قَشْتَالَة بين : ليون ونَبَارَّة . يحكمها زعيم محلي مقره بُرْغُش (Burgos) العاصمة ، خاضع لملك ليون . حصلت قَشْتَالَة على استقلالها منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) . على يَدِ فَرَّان غُنْصالِص (Fernán Gonzalez ، ٣٥٩ هـ = ٩٧٠ م) ، وخلَفه ابنهُغرْسيَه (García Fernandez) ، وحكم حتى سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٥ م) . وورِث هذا ابنُه شَانْجُهْ غَرْسِيَه (Samcho García) ، حاكماً حتى سنة ٤١٢ هـ (١٠٢١ م) .

حُكام قَشْتَالَة

(١) فَرَّان غُنْصالِص بن غُنصالو نُونيه (٣٥٩ هـ = ٩٧٠ م)

حكم ٣٩ سنة ، عمل على استقلال قَشْتَالَة حوالي منتصف ق ٤ هـ (١٠ م)

|

(٢) غَرْسيَه فَرَّانْدِس (٣٨٩ هـ = ٩٩٥ م)

|

(٣) شَانْجَهْ (٤١٢ هـ = ١٠٢١ م)

نَبَارَّة (نافار)

تقع مملكة نَبَارَّة في بلاد البَنشْكُنْس ، وقاعدتُهم بَنْبُلُونَة ، وفي نهاية القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ، بدأت محاولات الاستقلال عن أمراء ليون . من أمراء نَبَارَّة المستقلين شَانْجُهْ ، الذي خلَعه غَرْسيَه بن وَنَقُهْ (Garcia Iñiguez) أحد زعماء البَشْكُنْس . وخلَف غَرْسيَه ابنُه فُرْتُون (Fortun Garces) المعروف بالأنقر . وعُزِل وجاء مكانه شَانْجُهْ غَرْسيَه (الأول) (Sancho Garcés I ، ٣١٤ هـ = ٩٢٦ م) . وكان أول مَن تَلَقَّب ملكاً من أمراء نَبَارَّة ، وخاض مع المسلمين – في تحرشاته – عدة معارك ، وخلَفه ابنُه غَرْسيَه شَانْجُهْ (الأول) (Garcia Sanchez I) الذي حكم تحت وصاية أمه الملكة طُوطَه (Toda) ، ولعلها عمة الخليفة عبدالرحمن الناصر عن طريق الأمومة[1]. تُوفي غَرْسيَه سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠م) ،

---

(١) راجع : أندلسيات ، ١/٨٤ – ٨٦ .

فَخلفه ابنُه شَانْجُهْ غَرْسِيَه (الثاني) (أَبَرْكَه) (Sancho Garcés II, Abarca) الذي تُوفي سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٤ م) . خلَف شانجُه ابنُه غَرْسِيَه شَانجُهْ (الثاني) (García Shanchez II) . وخلَفه عند وفاته سنة ٣٩١ هـ (١٠٠٠ م) ابنُه شانْجُهْ غَرْسِيَة (الثالث) (Sancho Garcés III ، ٣٩١ ـ ٤٢٧ هـ = ١٠٠٠ ـ ١٠٣٥ م) ، الملقب عندهم : (الكبير El Mayor)[1] .

حكام نَبَارَّة

(١) شَانْجُهْ (خُلع) (حوال ٢٢١ = ٨٣٦ م)

مِن قِبَل :

(٢) غَرْسِيَه بن وَنَقُهْ أريستا (قُتل) (٢٤٨ هـ = ٨٦٢ م)

(٣) فرتون الأنقر ، خلَفه :

(٤) شَانْجُهْ غَرْسِيَه (الأول) (٢٩٣ ـ ٣١٤ هـ = ٩٠٥ ـ ٩٢٦ م)

أول حاكم نَبَارِّي حمل لقب « ملك »

(٥) غَرْسِيَه بن شَانْجُهْ (الأول) (٣١٤ ـ ٣٥٩ هـ = ٩٢٦ ـ ٩٧٠ م)

حكم تحت وِصاية أُمه طُوطَه

(٦) شانجُهْ غَرْسِيَه (الثاني) (أَبَرْكَه) (٣٥٩ ـ ٣٨٥ هـ = ٩٧٠ ـ ٩٩٤ م)

(٧) غَرْسِيَه شَانْجُهْ (الثاني) (٣٨٥ ـ ٣٩١ هـ = ٩٩٤ ـ ١٠٠٠ م)

(٨) شَانْجُهْ غَرْسِيَه (الثالث) (الكبير) (٣٩١ ـ ٤٢٧ هـ = ١٠٠٠ ـ ١٠٣٥م)

خُلاصة العرض السابق لدويلات إسبانيا الشمالية ـ وكان وجودها قلقاً مهدداً خلال عهدي الإمارة والخلافة ـ إنه يعطينا فكرة عنها وعن علاقتها فيما بينها ومع الأندلس[2].

(١) انظر: *Manual de historia de Espana*, I, 499 ; *Historia de Espana*, VI, *Espana Cristiana*, 313 تاريخ الأندلس ، ٧٥ (نص ابن الكردبوس) ؛ البيان المغرب ، ٤/٥٠ ؛

(٢) راجع تفاصيل ذلك في : أندلسيات ، ٢/٣٩ ـ ٥٦ ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ١/٢٠٧ ـ ٢٢٢ ، ٣٥٣ ـ ٣٦٣ .

وكانت تقوم الخصومة بين هذه الدويلات وثورات المتنفذين فيهـا ، محاولين الاستقلال بمقاطعاتهم .

وحين يشعر هؤلاء الحكام - أحياناً - بالقوة أو يظنون ضَعف السلطة في الأندلس يقومون بتحرشاتهم[1] ، ويقطعون المواثيق والمعاهدات السلمية مع الأندلس التي - عموماً - لم تنقض عهودها . وهكذا بقيت الأندلس تصدّ هذه الهجومات ، لكن الأحوال الداخلية للأندلس - مع غيرها - مكنت هذه الدول من مضايقة الأندلس واقتطاع أراضيها . حتّى انتهى الأمر أيام غَرْنَاطَة بالقضاء عليها . ثم إبادة المسلمين بعد ذلك قمعاً ونفياً وقتلاً وإفناءً ، وكذلك الحُكْم بالإعدام على أهم مابقي من إنتاجهم ومآثرهم وآثارهم[2] .

رابعًا : خصَائِص عَهْد الإمارة وَأحوَاله وَانجازَاته

١ - خصائصه

يمثل عهدُ الولاة عهدَ انتقال الى حال أخرى في حياة جديدة قائمة على أسس إسلامية ، وقد بذل العديد من الولاة والمسلمون الجهودَ لتوفير هذه الحياة ومد رحابها وتهيئة الجو الملائم لها . وبذا زاد دخول الكثير من أبناء البلاد في الإسلام ، الذي به بدأت تسير في طريق التحضر الحقيقي الرفيع والخط الإنساني الكريم . ونتيجة للاستمرار في هذا الاتجاه وتعميقه جعل الغرس يؤتي ثماره مع تقدم الزمن ، وبدأ كثير من هذه المظاهر تبرز في مدة الإمارة التي استمرت قريباً من قرنين ، وسنلمس كثيراً من هذه الجوانب في دراستنا هذه .

خصائص هذا المجتمع المسلم بدأت تظهر تدريجياً ، واضحة جلية . لذا بدا هذا المجتمع في عصره الإسلامي مُختلفاً تماماً عمَّا قبله ، مع اشتراك العهود الأندلسية الإسلامية بالصفات المميزة لها عما قبل الفتح الإسلامي . ونجد في بعضها

---

(١) انظر : دولة الاسلام في الأندلس ، ٢/٥٩٨ .

(٢) أندلسيات ، ٢/١٦٨ ؛ الحضارة الاسلامية في الأندلس ، ٣١ .

أموراً ويختص بأمور معينة ، قد يكون عدد منها ممتد الجذور الى ماسبقه أو لَحِقه من العهود الإسلامية . وقد بدأ عهد الإمارة يجني ما غُرس أثناء عهد الولاة ، في جوانب التبدل الذي تمَّ نتيجةً لدخول هذا البلد رِحابَ الاسلام . وهو ماشَمَل الجوانب الحضارية المتعددة والأنسانية كافة[1] .

بدأ انتشار الاسلام واستمرار الانضواء تحت لوائه منذ دخول المسلمين هذه البلاد . كذلك كان نمو التنظيمات وتعميقها وشمولها ، بدا أكثر من ذي قبل واستمر . لكن الأندلس أصبح بلداً إسلامياً مستقلاً عن الخلافة الإسلامية[2] — بعد أن كان خاضعاًلمركز هذه الخلافة الإسلامية—مع بقائه أحدَ بلدان العالمالإسلامي . ذلك بعد قيام الدولة العباسية ، التي لم تحاول جدياً إعادته . لأن استقلاله سياسياً بهذا الشكل — على ما يبدو — لايمثل خطراً على الكيان الإسلامي . بل بقي يحمل رسالة الإسلام فيالداخل والخارج ، ولايدعو ذلك بالضرورة للخصومة والمواجهة . ويذكر المؤرخون محاولة عابرة — أوأكثر —لاعادة الأندلس إلى الخلافة الإسلامية ، لكنها لم تأت بشيء[3] .

ومنذ تولي الداخل حُكْمَ الأندلس سُمِّيَ حاكُمها : أميراً ، وبه بدأ عهد الإمارة . وبدأت فيه دويلات اسبانيا الشمالية (النصرانية) تظهر تدريجياً ، وكان لها أثر في عدد من أحداث الأندلس . واستمر نموها حتى انتهى — لظروف معينة — الى إزالة الحكم الإسلامي من الأندلس ، ثم بذل الجهد في القضاء على كل ما يتعلق بوجودهم .

نَمت التنظيمات المختلفة — التي سبقت ملاحظتها — في عهد الولاة . لكن الرسوم والتنظيمات — رغم نموها — كانت تتبسط . ووجد منصب الحِجَابة والوزارة ، كما ظهرت القوة الحربيـة البحريـة وتقدمت التنظيمات العسكرية ، مع العناية بالثغور والأساطيل . وظهر في مختلف هذه الميادين التنظيمية رجالات اشتهروا بمقدرتهم[4] .

---

(١) انظر مثلا : (العرب في إسبانيا ٣٨، وبعدها) *The Moors in Spain*, Lane-Poole, 44 ff .

(٢) راجع : أعلاه ، ١٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٦٢ .

(٣) انظر : أعلاه ، ٢٤٠ — ٢٤١ .

(٤) راجع : دولة الاسلام في الأندلس ، ١/١٩٧ — ١٩٨ ، ٢٧٤ — ٣١١ .

تميز هذا العهد ــ وما تلاه ــ بالانتاج في مختلف النواحي العلمية . ونمت العلوم وازدهر الميدان الثقافي وكثر الإنتاج فيه واتسع نطاق التعليم ، وزاد الاهتمام بالكتب والمكتبات في أنحاء الأندلس كافة ، وشَمَلَت كلا الجنسين ، وغدت الأندلس أحد مراكز الثقافة في العالم الإسلامي .

وكان العمران أحد الجوانب الحضارية التي أوْلَتها النهضة العامة في الأندلس عنايتها . فوصلت الأندلس ــ فيه وفي غيره ، لهذا العهد ــ قمةً عالية . وقام العمران على أسس هندسية وفنية غاية في الدقة والذوق والأناقة . ولم يشمل هذا المنشآتِ العامة والطرق فقط بل كثيراً من المنشآت الخاصة ، كالدور والقصور والحمامات وغيرها .

كانت العنايةُ موجهةً الى المرافق كافة ، فشَمَلت بعضَ المدن ، على منافذ أو ثغور ، ونلاحظ ذلك بعد غزو المجوس الأول للأندلس سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٥ م)[١] . كذلك أُنشأت مدن وأقيمت تحصينات ودور لصناعة السفن . كما أُنشأت مرافق عامة في داخل المدن وحدائق ومساجد .

أنشأ عبد الرحمن الداخل في قُرْطُبَة داراً للسِّكَّة ، تُضرب فيها النقود . وكان موسى أول مَن سَكَّ النقود الإسلامية في الأندلس[٢] . لكن بمرور الزمن تقدمت أنظمة السِّكَّة .

أما قَنْطَرة قُرْطُبَة الشهيرة التي بناها السَمْحُ بن مالك الخَوْلاني على الوادي الكبير[٣] فقد جدّدها هِشَام الأول الذي قام بانشاءات أُخرى ، وكان هِشَام يُشرف على إصلاح هذه القنطرة بنفسه[٤] .

من أبرز المنشآت العمرانية العامة مسجدُ قُرْطُبَة الجامع . ابتدأ بناءَه عبدُ الرحمن الداخل سنة ١٧٠ هـ (٨٧٦ م) . وقد وَسَّعَه وأتَمَّه مَن جاء بعده[٥] .

---

(١) أعلاه ، ٢٣٤ــ٢٣٥ .

(٢) أعلاه ، ٨٥ .

(٣) أعلاه ، ١٤٢ــ١٤٣ .

(٤) البيان المغرب ، ٦٦/٢ . كذلك : نفح الطيب ، ٣٣٨/١ ؛ أدناه ، ٢٨٥ .

(٥) راجع : دولة الاسلام في الأندلس ، ١/ ٢٠٠ ، ٢٢٨ ، ٢٧٨ ؛ أندلسيات ، ١٥٧/٢ – ١٦٢ .

وتوفر في هذه المدة الأمن والرخاء ، لولا ما يعكر ذلك من الاحداث الداخلية التي كانت محلية محدودة ـ كانت مرهقة للأندلس ، أحياناً ـ وكذلك تحرشات إسبانيا الشمالية والفِرَنْج .

قامت ـ طَوال هذا العهد ـ عَلاقات دبلوماسية مع عدد من الدول ، في أوربا وغيرها . بعد أن ظهرت هيبة الدولة في الأندلس ووَضُحَت قوتُها وعلَت مكانتُها ، وحَرَصت هذه الدول ، شديد الحرص ، على صداقة الأندلس وإقامة عَلاقات ودية معها ؛ لذلك وُجِّهت الى الأندلس سفارات كثيرة[1] .

ووُجِدَ تبادل ثقافي ، سواء في المؤلفات أو في العلماء ، بين الأندلس والبلدان الإسلامية . كما كانت الأنْدَلُسُ المنبعَ الدائم الثرَّ والمنتجع الواسع المقصود ، يمنح القائم فيه الشمسَ الدائمة والظل الممدود ، ويُكسب الأنسانيةَ والعلمَ النافع في أروقته الفسيحة المنيرة . كان على استعداد لاستقبال القادمين الراغبين في خيره من كل مكان ، وهو للأخوة أوسع وأرحب وأبر وأكرم ، لذا اتجه الكثير من العلماء المشارقة الى الأندلس كما اتجه عدد من الأندلسيين الى الشرق الإسلامي . ويمتاز هذا العصر ـ بعد نمو وتطور العلوم ـ بالإبتكارات في مختلف الميادين ، وماثَلَ غيره من مواقع وبقاع العالم الإسلامي الممتد المديد .

٢ ـ أحواله

رأينا كيف استمرت الأندلس ـ خلال هذا العهد ـ في تقدمها وتحسين أحوالها ، على أسس جديدة تنسجم والشريعة الإسلامية في العمق والشمول ، عموماً . ونمت الجوانب كافة وأثمرت تلك الجهود في إيجاد مجتمع جديد زالت فيه الأحوال السيئة التي كانت قبل الفتح الإسلامي للأندلس ، وعَبِقَ الإسلامُ عِطْراً بحياة هذا البلد ، وتدارس الناس هذا الدين ، ونمَت دراسته وعلومه وزادَ الاهتمامُ بها .

كان أهل الأندلس ـ بادىء الأمر ـ على مذهب الإمام الأوْزاعي . والأوْزاعيُّ هو: أبو عَمْرو عبد الرحمن بن عَمْرو بن يُحْمِد الأوزاعي الفقيه (بَعْلَبَكُّ ، ٨٨ ـ

(١) راجع : أندلسيات ، ١/٤٥ .

بيروت ، صَفر ١٥٧ هـ)[١] ، « كان رأساً في العلم والعمل ، جَمّ المَناقِب . ومع علمه كان بارعاً في الكتابة والترسُّل . »[٢]

وظهر عدة علماء في الأندلس على نهج الأوزاعي في الفقه . منهم أبو عبد الله صَعْصَعَة بن سَلاَّم الشامي الأندلسي (١٩٢ هـ[٣] أو ٢٠٢ هـ[٤]) ، تلميذ الأوزاعي ، الذي « كانت الفُتْيَا دائرةً عليه بالأندلس أيام الأمير عبد الرحمن بن مُعاوية وصدراً من أيام هِشام بن عبد الرحمن . وَوُلِّيَ الصَّلاة بِقُرْطُبَة ، وفي أيامه غُرست الشجر في المسجد الجامع . »[٥]

انْتَفَع بعمله وتَتَلْمَذَ على يديه عِدَّةٌ ، ورَوَى عنه الكثير ، أمثال : عبدالملك ابن حبيب السُّلَمِي (٢٣٨ هـ)[٦] وعثمان بن أيوب (٢٤٦ هـ)[٧] وأبو مروان عبد الملك بن الحسن بن محمد بن زُرَيْق بن عُبيد الله بن رافع بن أبي رافع مَوْلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم المعروف زُونَان (٢٣٢ هـ) و« كان مُفْتِياً في أيام هِشام بن عبد الرحمن وأيام عبد الرحمن بن ا لحكم ، وله رحلة »[٨] .

ثم أخذ أهلُ الأندلس يَتَفَقَّهون على مذهب الإمام أبي عبد الله مالك بن أنَس الأَصْبَحيّ المَدَني بن مالك (٩٥ — المدينة المنورة ، ١٧٩ هـ) ، « إمام دار الهِجْرة وفقيه الأمَّة »[٩] منذ أيام الأمير هِشَام (١٧٢ — ١٨٠ هـ) بن عبد الرحمن الداخل.

يَذْكُر المَقَّرِي في **نَفْح الطيب** أن أبا عبد الله زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللَّخْمِي (٢٠٤ هـ أو قبلها) ، المعروف بـ « شَبَطُون » « كان فَقيهَ الأندلس

---

(١) وفيات الأعيان ، ١٢٧/٣ .
(٢) العبر ، الذهبي ، ٢٢٧/١ .
(٣) تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، ٢٠٤/١ (رقم : ٦١٠) ؛ العبر ، الذهبي ، ٣٠٩/١ .
(٤) المغرب ، ٤٤/١ .
(٥) تاريخ علماء الأندلس ، ٢٠٣/١ (رقم ٦١٠) . كذلك : جذوة المقتبس ، ٢٤٤ (رقم : ٥١٠) .
(٦) تاريخ علماء الأندلس ، ٢٠٣/١ (رقم : ٦١٠) ، ٢٦٩/١ (رقم : ٨١٦) .
(٧) تاريخ علماء الأندلس ، ٢٠٣/١ ، ٣٠٢ (رقم : ٨٨٩) .
(٨) تاريخ علماء الأندلس ، ٢٦٩/١ (٨١٥) .
(٩) العبر ، الذهبي ، ٢٧٢/١ ؛ وفيان الأعيان ، ١٣٥/٤ .

على مذهب مالك ، وهو أول من أدخل مذهبه الأندلس ، وكان قبله يتفقهون على مذهب الأوزاعي »[1] ، « وهو أول مَن أدخل مُوَطَّأَ مالك الى الأندلس مُكَمَّلاً مُتْقَناً ، فأخذه عنه يحي بن يحي »[2] . ويحي بن يحي اللَّيْثي (قُرْطُبَة ، ٢٣٤ ﻫ) هو الفقيه المُحَدِّث الواسع الشهرة . ولقد ذُكر عن محمد بن يحي بن عمر بن لُبَابَة (٣٣٠ ﻫ) أنه كان يقول : « عبد الملك بن حبيب عالِمُ الأندلس ، ويحي بن يحي عاقِلُها ، وعيسى بن دينار فَقيهُهَا . »[3] وكان ابن لُبَابَة هذا « حافظاً للفقه على مذهب مالك وأصحابه ، عالماً بِعَقْد الشروط ، بصيراً بعللها واستقضاه الإمام الناصر على إلْبيرَة ، ثم عزَلَه ووَلاّهُ في آخر عمره الوثائق . »[4]

رحل أيام هِشَام بعضُ الأندلسيين ، من أنظار شَبَطُون ، الى الحج والتقَوْا بالإمام مالك « فَلَمَّا رَجعُوا وَصَفُوا مِن فَضْل مالك وسَعَة علمه وجَلالة قدره ماعَظُمَ به صِيتُه بالأندلس ، فانتشر يومئذٍ رأيُه وعلمُهُ بالأندلس ، وكان رائدَ الجماعة في ذلك شَبَطُون . »[5] واعتبر ابنُ الفَرَضي (٤٠٣ ﻫ) عبدَ الله بن محمد ابن خالد بن مَرْتَنيل (٢٥٦ ﻫ) « رأسَ المالكية بالأندلس والقائم بها الذاب عنها »[6] .

ولما خَلَفَ الحَكَمُ (٢٠٦ ﻫ) أباه هِشَاماً (١٨٠ ﻫ) غدا المكان الأول للفقه في الأندلس على مذهب الإمام مالك . وحتّى الآن ما تزال بلدان الشمال الإفريقي كذلك . « واعلم أن أهل الأندلس كانوا في القديم على مذهب الأوزاعي ، وأهل الشام منذ أول الفتح ، ففي دولة الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل — وهو ثالث الولاة بالأندلس مِن الأمويين — انتقلت الفَتْوى الى رأي مالك بن أنس وأهل المدينة ، فانتشر علم مالك ورأيُه بِقُرْطُبَة والأندلس جميعاً ، بل والمغرب ، وذلك

---

(١) نفح الطيب ، ٤٥/٢ . (٢) نفح الطيب ، ٤٦/٢ .

(٣) تاريخ علماء الأندلس ، ٢٧١/١ (رقم : ٨١٦) ، كذلك : ١٨٠/٢ (رقم : ١٥٥٦) ؛ نفح الطيب ، ٧/٢ ، ٩ .

(٤) تاريخ علماء الأندلس ، ٥١/٢ (رقم : ١٢٣١) . كذلك : أعلاه ، ١٦٨ .

(٥) نفح الطيب ، ٤٦/٢ . راجع كذلك : تاريخ علماء الأندلس ، ٣٤٥/١ (رقم : ١٠١٥) .

(٦) تاريخ علماء الأندلس ، ٢١٣/١ (رقم : ٦٣٥) .

برأي الحكم واختياره »[1] . كانت لذلك أسباب[2] .

وتتوفر تَراجِم الكثير من علماء المالكية في الكتب المعنية بذلك ، **وللقاضي عياض** (٥٤٤ هـ) كتاب كبير في هذا الموضوع ، وهو : **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك** .

ووُجِد كذلك في الأندلس مَن أخذ بالفقه الشافعي ، وأيضاً الفقه الظاهري ، الذي يُعتبر ابنُ حَزْم القُرْطُبي (٤٥٦ هـ) مِن كبار علمائه . وآخرون ، جَمَعوا وانتفعوا بالفقه عموماً .

يَذكر المَقَّرِي في **نفح الطيب** ، حين الحديث عن تَدَيُّن أهل الأندلس ، فيصفهم بأن « الأغلب عندهم إقامة الحدود ، وإنكار التهاوُن بتعطيلها ، وقيام العامة في ذلك وإنكاره إنْ تهاون فيه أصحاب السلطان »[3] . ويسرد بعد ذلك أموراً كثيرة تتعلق بأحوال أهل الأندلس . ويتحدث عما يتعلق بالعلم ، وتمجيد الرغبة الأصلية في طلب العلم وشغفهم به . ويتحدث عن أُمور أخرى طريفة ، فيذكر مثلاً امتناع التسوُّل في الأندلس ، وعن أزياء أهله وأسلحتهم وعنايتهم بالنظافة فيما يَلْبَسون ويَفْرُشُون وغير ذلك من العادات والمظاهر[4] .

عناصر المجتمع

لعلَّ من المُناسب هُنا التحدث عن عناصر المجتمع الأندلسي . فهم بصورة رئيسية : المسلمون وغير المسلمين . فالمسلمون منهم : المسلمون الأوائل الفاتحون أو مَن جاء خلال عمليات الفتح ، وهم من المسلمين ، العرب والبربر وغيرهم . ثم الذين دخلوا الإسلام مِن أهل البلاد الأصليين ويمثلون أكثرية المسلمين . وقد أطلق

---

(١) نفح الطيب ، ٣/٢٣٠ . كذلك : الإحاطة في أخبار غرناطة ، ابن الخطيب ، ١/١٣٤ . قارن : نفح ، ١/٥٥٦ .

(٢) نفح الطيب ، ٢/١٠ ، ٣/٢٣٠ .

(٣) نفح الطيب ، ١/٢٢٠ .

(٤) انظر : كذلك الإحاطة ، ١/١٣٤ .

بعدها المؤرخون على الذين دخلوا الإسلام من الإسبان : « **الأسالمة** »[1] أو « **المُسالمة** »[2] وعلى أبنائهم « **المُولّدون** »[3]. ولعل بعضها استعمالات غير مبكرة ، جدّت فيما بعد. ثم الصَّقالِبَة وهم الذين كان يُؤتى بهم من مختلف البلاد الإفرنجية أطفالاً ، ذكوراً وإناثاً . فتتعهد الدولة برعايتهم ، ويُنَشَّأون نَشْأة اسلامية برعاية الدولة . وقد كان لهم دور في بعض الأحداث . والحَكَم الأول الربَضي (٢٠٦ هـ) أولُ مَن أكثر استعمالهم[4]

أما غير المسلمين : منهم الأقلية التي تتكون من اليهود والنصارى بصورة كلية أو غالبة ، وأطلق عليهم : **المُعَاهِدُون** (المُعَاهِدة) أو **أهل الذِّمَّة**[5] . اختلط هؤلاء بالمجتمع الأندلسي . وبعضهم الذين قَبِلُوا اللغةَ العربيةَ لغةً لهم وتَبَنَّوْا بعضَ العادات الإسلامية عادةً سُمُّوا بـ « **المُسْتَعرَبون** » (Los Mozarabes) .

كان غير المسلمين يتمتعون بنعمة الإنصاف والسيَاسة العادلة ، وكُفلت حقوقهم ، وضمنت حرياتهم . وقد تحدث عن هذا الأمر المؤرخون الأروبيون ومن كان منهم متحاملا[6] . والعدل والإنصاف لغير المسلمين في المجتمع الاسلامي واضح من التعاليم والوصايا الإسلامية وثابت من الأحداث التاريخية . لاينكرها إلا مجانب للصواب مهمل للثابت من التاريخ ، مبتعد عن الروح العلمية ، رافض للاسلوب المنهجي السليم ، والمصادر متوافرة[7] .

---

(١) انظر : المقتبس ، ١٥/٢ ؛ جمهرة أنساب العرب ، ٩٦ ؛ نقط العروس ، ٧٣/٢/١٣ ؛ أعلاه ، ١٦٣ .

(٢) انظر : ترتيب المدارك ، ٣-٦٤٢/٤ ؛ الحلة السيراء ، ١٤٩/١ ؛ التكملة ، ١٣٨/١ (رقم : ٥٢٣) ، ٧٣١/٢ (رقم : ١٨٤٨) ؛ أعلاه ، ١٦٣ ، ١٦٦ .

(٣) أعلاه ، ١٦٣ .

(٤) دولة الاسلام في الأندلس ، ٢٠٢/١ – ٢٠٦ ، ٢٤٩ ؛ الصقالبة في إسبانيا ، أحمد مختار العبادي ، ٨ وبعدها .

(٥) انظر : الاحاطة ، ١٠٦/١ ، ١٠٨ ؛ أدناه ، الفصل السادس . كذلك :
Muslim colonies, 216 (تاريخ غزوات ، ٢٩١ – ٢٩٢) .

(٦) انظر مثلا : *Muslim colonies,* 87, 208 ff (تاريخ غزوات ، ١٥٦ ، ٢٨٨ – ٢٩١) ؛
Histoire, I, 232 - 3, III, 224 (Sp. tr. , IV, 153, V, 124-5).

(٧) راجع : الاحاطة ، ١٠٦/١ ؛ دولة الإسلام ، ٩٨/١ ، ٢٣٨ ، ٢٦٩ ، ٣١٥ ؛ أندلسيات ، =

٣ – إنجازاته

تمت انجازات كثيرة في هذا العهد أولها هذه الحياة الجديدة ، والاستمرار فيها ، التي كانت نتيجة لوصول المد الإسلامي لهذا البلد ودخول أهله فيه . وفيما ذُكر من التنظيمات والأساليب الجديدة بيان لبعضها ، ويُشير الى ما قامت به الدولة والمسؤلون، والاستمرار بكافة التنظيمات والترتيبات والحياة الإنسانية ومظاهر الحضارة ، كل ذلك إنجاز رائع ، بقي مستمراً ، بعد هذه المدة . شارك فيه المجتمع بكليته ، حاكم ومحكوم ، عالم ومتعلم ، قائد وسائر في الطريق يرجو هدفه ويخدم أمته ومجتمعه .

شَمَلَت الإنجازاتُ والأعمالُ النواحيَ كافة . في العمران ذُكر ما تمَّ من إنشاء المساجد ، لاسيما مسجد قُرطُبَة الجامع والمساجد الأخرى في مدن عديدة . ثم الإنشاءات المتعلقة بالقوة العسكرية كالأساطيل وإقامة دُور صناعة السفن ، التي كان يَعمل فيها العمال والفنيون والمَهَرة ، وقد خُصصت لهم الرواتب العالية ، وجُلِبَ لصناعة السفن أجود أنواع الخشب كخشب الصنوبر الطُرْطُوشي المشهور ، نسبة الى مدينة طُرْطُوشَة[1] . كما انشأت الحصون والأسوار[2] ، وارتقت التنظيمات العسكرية . وعمرت المدن بما تم فيها من رصف الشوارع وإنارتها ، وبما قامت فيها من إنشاءات غير رسمية ، وتجمَّلت بالحدائق الغنَّاء وجُلِبت اليها الأزهار والنباتات المختلفة ، لا سيما العاصمة .

واستمرت العناية بقَنْطَرة قُرْطُبَة العظيمة ، التي بناها السَّمْحُ بن مالك الخَوْلاني[3] ، فأصْلِحت ورُمِّمَت مرات[4] . ومِن طريف ما يُروى في ذلك أنه لما جَدَّد الأميرُ

= ١٩/٢ – ٣٦ ؛ الحضارة الاسلامية في الأندلس ، ٢٤ ؛ أعلاه ، ١٣٨ ؛ الحاشية السابقة ؛ *Andalusian*, 55 – 60 ; *The Moors in Spain*, 83 (العرب في إسبانيا ، ٧٢) .

(١) أدناه ، ٢٥٣ . كذلك ، *Andalusian* , 165

(٢) أعلاه ، ٢٣٤ – ٢٣٥ .

(٣) نفح الطيب ، ٢٣٥/١ ، ٣٣٨ ، ٤٨٠ ، ١٥/٣ ؛ البيان المغرب ، ٢٦/٢ ؛ أعلاه ، ١٤٢–١٤٣ .

(٤) نفح الطيب ، ٣٣٨/١ ، ٤٠٨ ، ٤٦٠ ، ٥٥٩ ؛ البيان المغرب ، ٦٦/٢ ، ٢٨٨ ؛ المقتبس (بيروت) ، ٦٥ ؛ قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ١٩٧/١ – ٢٠١ .

هِشَام (١٧٢ – ١٨٠ هـ) بن عبد الرحمن الداخل القَنْطَرَةَ وأشرف على العمل بنفسه سَمِعَ تَقَوُّلَ البعض : إنه بناها لأموره الخاصة ، فأقسم الأميرُ هِشام ألاَّ يَعْبُرَ عليها إلاّ للجهاد أو لمصلحة عامة[1] .

وفي ميدان الزراعة : جُلِبت إلى الأندلس الغُروس والبُذور المتنوعة[2] ، وتقدمت وسائل الري ، وأُجريت المياه بواسطة طرق فنية وبالقنوات وكذلك بالنسبة لمياه الشرب[3] .

وفي النواحي العلمية والثقافية كان نشأة العلوم وانتعاشها مبكراً ، وقد ذَكَرَ المَقَّري في **نفح الطيب** شَغَفَ الأندلسيين واهتمامهم بالنواحي العلمية والثقافية[4] . ونجد في رسالة ابن حَزْم القُرْطُبي (٤٥٦ هـ) وتذييل ابن سعيد الأندلسي (٦٨٠ هـ) عليها ذِكْراً لكثير من المؤلفين ومؤلفاتهم[5] .

ويُذكر عباس بن فِرْناس المعروف باختراعاته وإلمامه بالعلوم والمشهور بمحاولة الطيران التي ذهب ضحيتَها . عاش في القرن الثاني – الثالث الهجري (الثامن – التاسع الميلادي)[6] . وكان أولَ مَن استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجَارة « وعَمِلَ الميقَاتَة لمعرفة الأوقات »[7] .

وشاع التعليم في هذا العهد وما بعده في أنحاء الأندلس ، وأصبح عاماً ، وشَمَل الذكور والإناث ، كما شَمَل كافة النواحي ، وعَمَّت المدارس أو معاهدُ التعليم ومؤسساتُه الأنْدَلُسَ . منها ما كان تقوم به الدولة وتنفق عليه ومنه التعليم الحر .

كانت اللغة العربية هي لغة الثقافة والتفاهم عند المسلمين ، بصورة رئيسية .

---

(١) نفح الطيب ، ٣٣٨/١ ؛ البيان المغرب ، ٦٦/٢ ؛ أعمال الأعلام ، ١٢/٢ .

(٢) نفح الطيب ، ١/ ٤٦٦ – ٤٦٩ ، ٥٤٦ ، ٥٤/٣ ؛ البيان المغرب ، ٦٠/٢ ؛ الحلة السيراء ، ٣٧/١ ؛ رحلة ابن بطوطة ، ٦٦٩ – ٦٧٠ .

(٣) العبر ، ٣١٢/٤ ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ٢٠٠/١ .

(٤) نفح الطيب ، ٢٢٠/١ – ٢٢٢ ، ٣٧٣/٣ . كذلك : الحلل السندسية ، ٢٥٤/١ – ٢٥٦ .

(٥) نفح الطيب ، ١٥٦/٣ – ١٨٦ .

(٦) راجع : نفح الطيب ، ٣٧٤/٣ ؛ الحضارة الاسلامية في الأندلس ، ٥٢ .

(٧) المغرب في حلى المغرب ، ٣٣٣/١ .

ويُذكر أن هشَاماً الأول (١٨٠ هـ) اتخذ إجراءاً مهمـّاً « إذ جُعِلَت اللغة العربية لغة التّدريس في معاهد النصارى واليهود . وكان لذلك الأجراء ، بالرغم من بساطته، أثر عميق في التقريب بين أصحاب المذاهب المختلفة . وفي بث روح التفاهم والوئام بينها ، ولا سيما بين المسلمين والنصارى وكان من أثره أيضاً أن كثر اعتناق النصارى للإسلام بعد أن وقفوا على أحواله وتفاصيله »[١] .

كانت هذه الإنجازات وغيرها نتيجة لدخول هذا البلد رِحَاب الإسلام . وكان خيرُ إنجاز هو تحرير الإنسان من العبودية ، تحريرُ نفسِه وتحريرُ رأسِه وتَعْبِيدُه لله ربِّ العَالمين .

مع شُمُول الرقي في الميادين الحياتية المختلفة ، ونخص جانباً آخر هو تحقيق كرامة الإنسان ، وهذا يتمثل في خلُق المجتمع وعاداته ومُعامَلاته . كذلك في القضاء الذي بَقِيَ مستقلاً نزيهاً ، وتلك سُنَّة القضاء في تاريخ الإسلام الطويل[٢] . وكان للقضاة في الأندلس مواقف – حتى مع الحكام – تدل على تمسُّكهم بالحقِّ ، وعدم خوفهم في الله لَوْمَةَ لائم . وظهر في هذا الميدان قضاة كثيرون[٣] .

وظهر أعلام في كل الميادين العلمية والسياسية والإدارية والعسكرية . ستُذْكر أمثلة منها في موضوعات تالية ، وسَيُلْحَظ كيف غدَت الأندلس مصدرَ إشعاع أساسي للبلدان المُجاورة التي كانت تستظل رُكامَ دُجُنَّةٍ تَنْعَمُ بها في تيهٍ وحِرْمَانٍ تَامّ .

اتَّبعَت السلطة الأنْدَلُسِيَّة سياسةً رشيدة مع الرعية ، قائمةً على أُصول إسلامية عموماً . من سياسة العدل والرفق بالرعية واتِّبَاع الإنصاف مع غير المسلمين . وكان الحكام يَخْضَعُون لهذا التشريع ، وقد ذكَر المؤرخون لذلك الأمثلة[٤] .

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس ، ٢٢٩/١ .

(٢) انظر : بحث « القضاء ودراسته في الأندلس » ، مجلة كلية الإمام الأعظم ، ١٨٩/١ وبعدها .

(٣) نفح الطيب ، ٥٧٠/١ . وموضوع القضاء في الأندلس بحاجة الى بحث مستقل وعميق .

(٤) نفح الطيب ، ٢١٩/١ – ٢٢٠ .

ومع ذلك كانت هناك بعض الأحداث وقامت بعض المخالفات المحلية ، أثَّرَت في برامج الإصلاح وربما في نمو دول الشمال . هذه وتلك كان لها أثر في إيقاف وتعويق أعمال الجهاد فيما وراء البُرْت .

خامسًا: السِّيَاسة الخارجيَّة

كانت السياسة الخَارجية العامة – لهذا العهد ، وما يليه – سياسَة عدم اعتداء والتزامٍ بالعهود والمواثيق ، وهي من صبغة السياسة الإسلامية دَوْماً ، إلا أن نَشاط الفتح والجهاد غَدا ضئيلاً في هذه المدة . وكانت أعمال الجهاد وراء البُرْت - لأكثر من سبب - قليلةً في هذا العهد . لكن بعضَ مصادرنا التاريخية تَذْكر مثالاً أو أكثر بحاجة الى تمحيص[1] . قام هِشَامُ الأول (١٧٢ – ١٨٠ هـ) وأمراء آخرون بعمليات جهادية غير قليلة في أكثرِ من مكان[2] . ويبدو أن كثيراً منها كان لرد هجوم أو عمليات تأديب ، وليس جهاداً لفتح جديد مُقيمٍ ، وكانت تنتهي بإبرام اتفاق مُعَيَّن مع دويلات إسبانيا النصرانية التي طالما كانت على استعداد لنقضه . هذا فيما يتعلق بدول مجاورة مثل إسبانيا الشمالية والفِرَنْج . وقد اتَّبَعَت الأنْدَلُسُ – مع هذه الدول وغيرها ، البعيدة أيضاً – سياسةَ قَبُول عُروض الصداقة وإبداء التعاون والمعاونة والمحافظة على ذلك والوفاء به . وهو أمر يُلْحَظ بوضوح حين الحديث عن الجانب السياسي والدبلوماسي في الحضارة .

كَثُرَت الوفود السَّفَارِيَّة – في هذا العهد ، وما يليه – من الدول المختلفة . وبعضُها كانت برئاسة حاكم البلد أو رئيس الدولة المُرْسِلَة . وكان دَيْدَنُ أهلِ الأنْدَلُس إكرام هذه الوفود وإحسان الاستجابة لمطالبها .

وبالإمكان تقسيم السياسة الخارجية للأندلس قسمين : مع العالم الإسلامي ، ومع العالم غير الإسلامي .

---

(١) أعلاه ، ٢٥٧ – ٢٥٨ .

(٢) أعلاه ، ٢٤٤ وبعدها .

١ ــ مع العالم الإسلامي

قامت السياسةُ الخارجية للأندلس على أساس الارتباط بهذا العالم ؛ رغم ما كان من الجَفوة بين السلطة الأندلسية وغيرها من السلطة (أو السلطات) الإسلامية . واستمرت الصلاتُ الأخرى والسفرُ من وإلى تلك البلدان قائماً دائماً . وقد سبق ذِكْرُ انقطاع الأندلس سياسياً عن الخلافة الإسلامية (العباسية) ، منذ وصول الداخل إليه[١] . ولم تقم محاولات جادَّة إيجابية مِن قِبَل الخِلافَة لإعادة الأندلس لسلطانها[٢] . ذلك بسبب خضوع كِلَيْهِما وارتباطِه بعقيدة الإسلام الواحدة . ولعل لبعد الأندلس عَلاَقَةً مّا ، وأن ذلك سيكلف أحداثاً وخَسارة للطرفين مما لاداعي لها .

لايبدو وجودٌ لمُعَاهَدة ثُنائيَّة مُزْدَوَجَة : بين الدولة العباسية ودولة الفِرَنْجَة مِن جهة ضد الدولة الأندلسية والبِيزَنْطِيَّة مِن جهة أُخرى[٣] . لكن هذا لايمنع قيامَ نَوْعٍ مَا مِن العَلاقات بين بعض مِن هذه الدول ، كتلك التي كانت بين الأندلس ودولة بِيزَنْطَة[٤] .

كما لم يَقُمْ نَشَاطٌ سياسي ملحوظ في العَلاقات الوِدِّيَّة بين هذه السلطات الإسلامية ، كذلك لم نجد بينها مواجهاتٍ ، إلاّ ما نَدَر . كتلك المحاولة التي قام بها العَلاءُ بن المُغيث اليَحْصُبي (الجُذَامي) ، بتأييد أبي جعفر المنصور بالعصيان في الأندلس ضد الداخل سنة ١٤٦ هـ[٥] . في حين قامت أحياناً عَلاقاتٌ طيبة مع سلطة الشمال الإفريقي في دول استقلت ، كالدولة الرُّسْتُمِيَّة[٦] .

---

(١) أعلاه ، ١٣٥ ــ ٢٤٠ ، ٢٦٢ ، ٢٧٨ .

(٢) أعلاه ، ٢٤٠ ــ ٢٤١ .

(٣) راجع : « المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية » ، حسين مؤنس ، المجلة التاريخية المصرية ، ٤/١/١٥٧ .

(٤) راجع بحثاً لكاتب هذه السطور تحت الطبع : « العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة حتى نهاية القرن الرابع الهجري » . مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد التاسع عشر ، ١٩٧٦ . كذلك : الإسلام في المغرب والأندلس ، ليفي بروفنسال ، ٩٢ .

(٥) أعلاه ، ٢٤١ .

(٦) راجع : « دولة الرستميين أصحاب تاهرت » ، محمد بن تاويت التطواني ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ٥/١١٦ .

وقد رَحَّبَت السلطة الأندلسية بكل ذلك وبكل قادمٍ مِن الشمال الإفريقي ومِن الشرق الإسلامي ، واحتَفلَت بالأعلام القادمين من هناك ، في استقبالهم وإكرامهم . كما حدث مع زرْياب الذي قدم من بغداد إلى قُرْطُبَة أيَّام عبد الرحمن الأوسط(1) .

٢ — مع العالم غير الإسلامي

رَحَّبَت الأندلس بكل حُسْن علاقة ، سياسةً عامةً نحو هذه الدول : المجاورة منها والبعيدة . لكن حَدَثَ مع الدول المجاورة مواجهاتٌ عسكرية ، لاسيما مع دويلات إسبانيا الشمالية ، التي إذ اتَّبعَت سياسة الاعتداء والتحرش كلما وَجَدَت لذلك مَجالاً ، حتى حين تقوم معاهدةٌ وبين الطرفين . بل كانوا يُثيرون(2) ويُشَجِّعون كلّ عاصٍ أو مخالف ، أو يُؤونَه(3) . قامت الأندلسُ أحياناً بتأييد ثائر أو مساعدته ، ربما رَدّاً على هذا أو حين تكون حالة حَرْبٍ . وللأندلس أحداثٌ قليلة في فِعلِها ، لكن لإسبانيا الشمالية أمثلةٌ عليها كثيرة(4) .

كان كثير من النصارى ، خارج نطاق السلطات النصرانية في الشمال ، يَرتادون الأندلس ويَسكنون أماكن منه . عدا النصارى الذين يَسكنون في المجتمع الأندلسي . في حين نَفَت السلطاتُ الإسبانية — في الشمال — المسلمين الساكنين هناك أو قَمَعَتْهُم وفتحت الأندلُس أبوابَها للقادمين من إسبانيا النصرانية ، طلباً للعلم والخير والسلم ، ولاقَوْا منها الترحيب(5) . بل إن السلطاتِ الأندلسية لم تمانع من المصاهرات مع إسبانيا الشمالية نفسها ، حتى الحكام(6) . وقد أضَرَّت — أحياناً — مثلُ هذه الخطوة.

وكانت سياسةُ دولة الفِرَنْجَة عدائيةً — وأحياناً ، لضرورة أو خطورة — ودِّيَّة . وهي شبيهة من بعض النواحي بسياسة إسبانيا النصرانية .

---

(1) نفح الطيب ، ١٢٥/٣ ؛ تاريخ الموسيقى الأندلسية ، ٢٩ .

(2) راجع : *Muslim colonies*, Reinaud, 113 (تاريخ غزوات العرب ، ١٩٢) .

(3) انظر : أندلسيات ، ١٠٨/٢ ؛ *Andalusian diplomatic relations* , 100 .

(4) انظر : أندلسيات ، ٤٥/٢ .

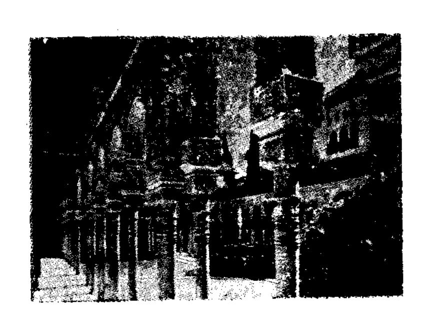
(5) الحضارة الإسلامية في الأندلس ، ٣٣ — ٣٥ ، ٤٩ — ٥٠ .

(6) أندلسيات ، ٧٥/١ — ٨٦ .

ومَرَّت مُدَدٌ تبادَلَت فيها دولةُ الفرَنْجَة وإسبانيا الشمالية مع الأندلس السفارات والزيارات ، وكثيراً مايقود رئيسُ الدولة وَفْدَها القادِمَ إلى الأندلس ، ولم يَحْصَل ذلك مع الأندلس .

لم تتم مع الدول البعيدة مواجهة مباشرة ، وأتت منها الى الأندلس – في المناسبات أو الضرورات – سفاراتٌ ، حيث تعَوَّدَت أخْذَ زِمام المُبادَرَة ، وتمَهَّدَت طُرُقُ الأندلس وتعَبَّدَت دُروبُها واتسعت بَسَائِطُها لهؤلاء القادمين ، تُكْرِمُهم غايةَ الإكرام وتُلَبِّي الممكِنَ مِن مَطَالِبِهم ، والأمثلةُ على ذلك كثيرة[1] .

هكذا كانت سياسة الأندلس في هذه المدة : اتَّسَمَت – مع قلة نشاط الفتح – باعتماد عدم الاعتداء ، بل واحترام للعهود والمواثيق والصداقات ، مع إكرامهم والمحافظة على التزاماتها . وذلك غير ما ألِفْناه عموماً لدى الآخرين في القارة الأوربية ،



(١) أندلسيات ، ٦٥/١ ، ٧٥ ، ٢٦/٢ ، ٥٧ ، ١٠٧ ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ٢٢٦/١ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠ – ٢٤١ ، ٢٥٦ ، ٣٠٤ .

قائمة لأمراء وخلفاء الأندلس

هذه قائمة بأسماء حكام الأندلس في عَهْدَي الإمارة والخِلافة ، مع سنوات حكم كل منهم :

(١) عبد الرحمن الأول (الداخل) بن مُعاوية بن هِشَام بن عبد الملك
حُكْمُه : ثلاث وثلاثون سنة وأربعة أشهر ونصف
(١٣٨ — ١٧٢ هـ = ٧٥٥ — ٧٨٨ م)

(٢) هِشَام الأول (المُرْتَضَى)
حُكْمُه : سبع سنين وتسعة أشهر وأيام
(١٧٢ — ١٨٠ هـ = ٧٨٨ — ٧٩٦ م)

(٣) الحَكَمُ الأول (الرَّبَضي)
حُكْمُه : ست وعشرون سنة وأحد عشر شهراً
(١٨٠ — ٢٠٦ هـ = ٧٩٦ — ٨٢٢ م)

(٤) عبد الرحمن الثاني (الأوسط)
حُكْمُه : إحدى وثلاثون سنة وثلاثة أشهر وأيام
(٢٠٦ — ٢٣٨ هـ = ٨٢٢ — ٨٥٢ م)

(٥) محمد الأول

حُكْمُه : أربع وثلاثون سنة وعشرة أشهر وأيام

(٢٣٨ – ٢٧٣ هـ = ٨٥٢ – ٨٨٦ م)

(٦) المنذر

حُكْمه : سنتان غير أيام

(٢٧٣ – ٢٧٥ هـ = ٨٨٦ – ٨٨٨ م)

(٧) عبد الله

حُكْمُه : خمس وعشرون سنة ونصف شهر

(٢٧٥ – ٣٠٠ هـ = ٨٨٨ – ٩١٢ م)

تولى الحُكْمَ بعدَه حفيدُه ، إذ لم يحكم ابنه :

محمد (والد الناصر ، حفيد الأمير عبد الله)

(٨) عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله)

حُكْمُه : نصف قرن ونصف سنة وأيام

(٣٠٠ – ٣٥٠ هـ = ٩١٢ – ٩٦١ م)

(٩) الحَكَمُ الثاني (المُستنصر بالله)

حُكْمُه : خمس عشرة سنة وسبعة أشهر

(٣٥٠ – ٣٦٦ هـ = ٩٦١ – ٩٧٦ م)

(١٠) هِشَام الثاني (المُؤيَّد بالله)

(تُوفيَ حوالي سنة ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م)





الفصل الرابع



٣١٦ ـ ٤٠٠ هـ (٩٢٩ ـ ١٠٠٩ م)

أولاً : أبرز أحداث وقضايا هذا العهد .

ثانياً : الأحوال العامة لعهد الخلافة وإنجازاته .

ثالثاً : السياسة الخارجية للأندلس في عهد الخلافة .



عهد الخلافة

تمهيد

كان الأمير عبد الله بن محمد الأول آخر الأمراء . تمتع بالصفات الحسنة والقابليات الجيدة . وكان ورعاً متواضعاً محباً للخير كثير العناية بشؤون الحكم وتوطيده ونشر العدل ورفع الظلم ، وكان ينظر المظالم بنفسه[1] .

قامت في أيامه عدةُ مخالفات ، بعضها كان عنيفاً ، استنفدت كثيراً من الطاقات ، وقد عيّن — قبل وفاته — حفيدَه عبد الرحمن (الناصر) بن محمد بن الأمير عبد الله ، ليرثه في الحكم . ذلك أن أبا الناصر محمد بن الأمير عبد الله ، الذي كان مرشحاً لولاية العهد بعد أبيه الأمير عبد الله ، قتله أخوه المُطَرِّف حسداً — حسب إحدى الروايات — سنة ٢٧٧ هـ (٨٩١ م) حين بلغ السابعة والعشرين مِن عمُره . وكان عُمر عبد الرحمن الناصر ثلاثة أسابيع . وقد أولى الأميرُ عبدُ الله حفيدَه عبدَ الرحمن بن محمد عنايةً خاصة وجعله أميناً على بعض أعماله . وكان يُسند إليه بعض المَهام ليرثه في حكم الأندلس من بعده . ولم يخب ظن جده به ، فقد حقق آماله وآمال الناس فيه .

تلقى عبدُ الرحمن الناصر من جده الأمير عبد الله العناية وولاه العهد من بعده . وربما كان ذلك — أو هو اعتبره — تعويضاً لفقدان ابنه محمد . فما أن شب عبد الرحمن الناصر حتى ظهرت عليه علامات النجابة والذكاء ، وكان عند حسن ظن جده الذي توسّم فيه الخير .

لما توفي الأمير عبد الله تولى حفيدُه الناصر الحكم . وكانت الأندلس يومها تحتاج

---

(١) راجع : البيان المغرب ، ١٥٣/٢ . كذلك : دولة الاسلام ، ٣٤٦/١ وبعدها ؛ تاريخ المسلمين ، ٢٥٢ وبعدها . لكن ابن حزم (٤٥٦ هـ) يحمل عليه ، ملوِّماً إياه ومنتقصاً منه . كذلك : أعمال الأعلام ، ٢٦/٢ .

الى الهمة العالية والسياسة الحكيمة لحل مشاكلها وتوفير الاستقرار المطلوب والاستمرار في دفع موكب الحضارة الخيِّرة والانتاج الفكري المترعرع في ربوعها .

كانت الأندلس — يوم تولى عبد الرحمن الناصر الحكم — قد أزعجها القلق بسبب بعض المخالفات الكائنة فيها . كانت مهمته خطيرة وصعبة . وكان سنه يوم تولى الحكم ثلاثاً وعشرين سَنة ، لذلك بايعه كل أصحاب المكانة ولم ينافسه أحد . لخطورة المهمة التي كانت ستواجه مَن يتولى الحكم في الأندلس في ذلك الحين[1] .

كان الناصر أميراً حازماً ، وذكياً عادلاً ، وعاقلاً شجاعاً ، محباً للاصلاح وحريصاً عليه . قاد الجيوش بنفسه ، فأنزل العصاة من حصونهم ، لشجاعته وسياسته الحكيمة ، بالسيف أو بالسياسة الرشيدة التي اتبعها . عفا عمن طلب الأمان وعاد إلى الطاعة . حتى إنه عيَّن بعض المخالفين — بعد عودتهم إلى الطاعة — في مناصب مهمة ، إذ كانوا من أصحاب الكفاءات . أحبه الشعب وأخلص له ، وكان هو قدوة لَهُ . لذلك استطاع أن يقضي على العصاة ويعيد للأندلس وحدتها وقوتها ومكانتها[2] .

أدّب المتمردين من حكام الشمال الاسباني وجعلهم يدركون قوة الأندلس ، حتى انقلب تحرشهم إلى خضوع تام لرغباته . رضخوا للشروط التي يضعها لهم ويمليها عليهم . بلغت الأندلس — أيامَه ، في هذه المدة — من القوة بحيث أن حكام إسبانيا الشمالية طلبوا أحياناً إلى السلطات الأندلسية التدخل في حل مشاكلهم .

وتأكيداً لقوة الأندلس — مع أسباب أخرى — أعلن عبد الرحمن الثالث الخلافة الأندلسية ، فأنهى بذلك عهد الإمارة ، سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) . واستمر حكمه نصف قرن من الزمان (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ = ٩١٢ — ٩٦١ م) . يروي المَقَّري في **نفح الطيب** : « أنه وُجد بخط الناصر ـ رحمه الله ـ : أيام السرور التي صفت له دون تكدير ، يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ويوم كذا من كذا ، وعُدَّت تلك

---

(١) راجع : نفح الطيب ، ٣٥٣/١ ؛ دولة الاسلام ، ٣٧٣/٢ .

(٢) البيان المغرب ، ٢٢٣/٢ — ٢٢٤ ؛ العبر ، ٢٩٨/٤ (= نفح الطيب، ٣٥٣/٤) ؛ أعمال الأعلام ، ٢٩/٢ . كذلك : دولة الاسلام في الأندلس ، ٣٤٩/١ ، ٣٧٥/٢ — ٣٧٦ .

الأيام فكانت أربعة عشر يوماً »[1] .

حين توفي الناصر تولى الخلافة ابنُه الحكم الثاني المستنصر بالله (٣٥٠ – ٣٦٦ هـ = ٩٦١ – ٩٧٦ م) . كانت الأندلس مستقرة على أسس ثابتة موحَّدة ، حدودها آمنة ومتمتعة بالتقدم والعمران الباهر . كان الحَكم قد أعده أبوه لمِثْل هذا المنصب ، فأسند إليه أموراً مهمة في حياته ، واستمر الحَكم راعياً لهذا الموكب ، أكمل مشاريعاً بدأت قبله وأنشأ غيرها . عُرف بصفات كثيرة ، يبرز منها حبه للعلم ، وزادت العلوم ازدهاراً وزهت الأندلس بمجالس العلم والجامعات والمكتبات العامة ، وكان الحكم نفسه عالماً كبيراً ، جلب الكتب من البلاد الإسلامية كافة وبذل فيها الأموال الكثيرة .

كان الحَكم ميالاً إلى السلم مما جعل بعض حكام الشمال الإسباني يتصورونه ضعيفاً ، فبدأوا ببعض الهجومات . جهز جيشاً لتأديبهم ، وقاده بنفسه . رد المعتدين وأمن حدود بلاده . ولما توفي – بعد حُكم دام ست عشرة سنة – تولى وليده البالغ من العمر إحدى عشرة سنة ، وهو هِشام (المؤيد بالله) ، الحكم . وبموت الحكم تتبدل الأحوال في الأندلس وتأخذ الأمور والأحداث مجرى جديداً . إذ لم يكن باستطاعة هذا الوليد النهوض بأمور الأمة ، وهو غير قادر لصغر سنه على رعاية شؤون الدولة . ونهض بعض الرجال لتولية غيره ، كما رغب آخرون أن يبقى هو . ارتأت جماعة الصقالبة تولية المُغيرة بن عبد الرحمن الناصر (أخو الحكم المستنصر) . كان عمره يومها سبعاً وعشرين سنة ، وانتهى الأمر بقتل المُغيرة والإبقاء على هِشام (المؤيَّد بالله) .

كان الرجل القوي وراء هذه الأحداث : محمد بن أبي عامر . عُرف بالحاجب المنصور ، حيث استطاع أن يأخذ السلطة لنفسه ويحكم باسم هِشام . ولما توفي ابن أبي عامر ، حكم بعدَه ابنُه عبدُ الملك (المظفر) ثم ابنه الآخر عبد الرحمن (شنجول) وبمقتل الأخير تنتهي الخلافة في الأندلس .

يرى بعض المؤرخين أن الخلافة تنتهي بموت الحكم المستنصر[2] . لكني اعتبرت

---

(١) نفح الطيب ، ١/٣٧٩ . كذلك : البيان المغرب ، ٢/٢٣٢ .

(٢) راجع : البيان المغرب ، ٢/٢٥٣ ؛ أعمال الأعلام ، ٢/٤٨ ، ٩٨ ؛ دولة الإسلام ، ٢/٥٣٣ . كذلك : *Andalusian diplomatic relations* , 30 .

الدولة العامرية ــ في هذا البحث ــ امتداداً للخلافة ، إذ كانت تحكم باسمها وتحتمي بظلها . وقد تمت في عهد الخلافة أحداث وجرت أمور وقضايا ، هذا بعضها .

أولاً : أبرز أحداث وقضايا هذا العهد

وقعت في هذا العهد أحداث ، اختلفت في الأهمية والنوعية . كان بعضها من الخارج ، وبعضها في الداخل .

١ – الداخلية

أ – إعلان الخلافة

أعلنت الخلافة في الأندلس بعد مجيء عبد الرحمن الناصر إلى الحكم وإقراره للأوضاع وظهور السلطان الأندلسي بمظهر القوة ، ثم ضعف الخلافة العباسية وقيام الخلافة الفاطمية في الشمال الافريقي التي أصبحت تهدد سلطة الأندلس . ربما مع أسباب أخرى ، أعلن عبد الرحمن الناصر الخلافة في الأندلس وتلقّب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله[1] . نفّذ ذلك بأمر أصدره في ذي الحجة سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) . وهذه وثيقته مع مقدمة لها من نص لمؤلّف مجهول يتعلق بعبد الرحمن الناصر .

« أمر الناصر لدين الله بأن تكون الدعوة في مخاطباته والدعاء له على المنابر بأمير المؤمنين ؛ لما استحقه من هذا الاسم الذي هو له بالحقيقة ولغيره بالانتحال والاستعارة . فلبس هذا الاسم في هذا الوقت حلة لائقة بمنصبه وتراثاً . ونفذ كتابه في ذلك إلى عماله في النواحي على نسخة واحدة يوم السبت لليلتين خلتا من ذي الحجة من هذه السنة وهذه نسخة الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على نبيه محمد الكريم ، أما بعد فإنّا أَحَقّ مَنْ استوفى حقّه وأجدرُ مَن استكملَ حظه ، ولبِس مِن كرامة الله تعالى ما ألبسه . فنحن للذي فَضَّلَنَا الله به ، وأظهر أثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا إليه ، ويسّر على أيدينا

---

(١) انظر : جذوة المقتبس ، ١٣ ؛ المغرب في حلى المغرب ، ١٨٢/٢ ؛ مقدمة ابن خلدون ، ٧٥٠/٢ ؛ العبر ، ٢٩٨/٤ ؛ نفح الطيب ٣٣٠/١ ، ٣٥٣ ؛ الحلة السيراء ، ١٩٨/١ ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ٤٢٩/٢ – ٤٢٠ ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ٣١٩ ؛ « سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس » ، أحمد مختار العبادي ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، ٢٠٧/٥ .

دَرَكه ، وسَهَّلَ بدولتنا مرامه ، وللذي أشاد في الآفاق مِنْ ذكرنا وأعلى في البلاد مِنْ أمرنا ، وأعلن مِن رجاء العالمين بنا وأعاد مِن انحرافهم إلينا واستبشارهم بما أظلهم مِن دولتنا إن شاء الله ، فالحمد لله وَلِيّ الإنعام بما أنعم به وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه . وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا وورودها علينا كذلك ، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ومُتَسَمٍّ بما لا يستحقه منه ، وعَلِمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه واسم ثابت أسقطناه ، فَمُرِ الخطيب بموضعك أن يقول به وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله ، والله المستعان . وكتب يوم الخميس لليلتين خلَتا مِن ذي الحجة سنة ٣١٦ . »[1]

ب ـ أحداث متنوعة

إخضاع العصاة

قام عدة عصاة بمواجهات أيام الأمير عبد الله أو قبله ، استمر بعضها حتى أيّام الناصر ، الذي استطاع ـ بحسن سياسته ـ القضاء عليها . ومن هؤلاء العصاة ، الذي استمر مدة طويلة في مد وجزر ، عمر بن حَفْصون ، الذي اتخذ مركزه في جبل بُبَشْتَرُ (Bobastro) قرب مدينة مَالَقة (Malaga) في جنوبي الأندلس[2] . ولما لم يجد النجاح تَنَصَّر ، ظناً منه أن ذلك يجلب له التأييد ، فكان العكس ، واستطاع الناصر القضاء على عصيانه نهائياً خلال سني حكمه الأولى .

وقوع المجاعة

أصاب الأندلس سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م) قحط شديد . وخف للمحنة المسؤولون ـ وعلى رأسهم الناصر ـ بالعون ، مما كان له أثره الكبير في تخفيفها . وبعد مضي

---

(١) Una Cronica Anonima de Abd Al-Rahman III. Al-Nasir, 78
انظر كذلك : البيان المغرب ، ١٩٨/٢ . مخطوطة السفر الخامس من مقتبس ابن حيان المحفوظة في الخزانة الملكية في الرباط رقم ٨٧ ، الورقة ٩٩ ب .

(٢) المقتبس ، ٥٠/٣ ، ٥٨/٥ ب (مخطوطة الرباط) ؛ البيان المغرب ، ١٠٥/٢ ـ ١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١٧١ ؛ أعمال الأعلام ، ٣١/٢ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ٣٨٠/٢ .

حوالي خمسين سنة من هذا التاريخ ، سنة ٣٥٣ ﻫ (٩٦٤ م) : حلّت بقرطبة مجاعة عظيمة ساهم الحَكم ورجال الدولة في التخفيف من آثارها ، وسرعان ما تمّ التغلّب عليها[١] .

ﺣ ــ قرطبة مركز التوجيه

منذ العهد السابق (الإمارة) بدأت الأندلس تنمو وتظهر قوةً سياسية وحضارية . وغدت مركزاً ترنو إليه الأنظار . ويجد حكّام الدول الأخرى ــ لا سيما الأوربية ــ أنها بحاجة إليها ، أو تسعى لكسب ودّها وصداقتها . كما يجد طالبو العلم والمعرفة أنفسهم مشدودين نحوها . وردت وفود الدول المجاورة الى قُرطبة ، طالبة العون وملتمسة الصداقة ومقدمة الطاعة . أورد ابن خلدون في **العبر** والمَقّري في **نفح الطيب** نصوصاً قيّمة في بيان المكانة السياسية التي وصلتها الأندلس أيام الخلافة ، والأكثر أيام الخليفة الناصر لدين الله . يقول ابن خلدون ــ لعله معتمداً على ابن حَيّان ــ في ذلك : « ومَدّت اليه أمم النصرانية مِن وراء الدروب يدَ الإذعان . وأوفدوا عليه رسلَهم وهداياهم مِن رُومَة والقُسطنطينية في سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يَعِنُّ في مرضاته . ووصل الى سُدّته الملوكُ مِن أهل جزيرة الأندلس المتاخِمين لبلاد المسلمين بجهات قَشْتَالَة وبَنْبُلُونَة وما ينسب إليها من الثغور الجَوْفية . فقبّلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مراكبه »[٢] . ويقول المَقّري في **نفحه** : « ذكر ابن حيّان وغيرُ واحد أن مُلْك الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن ، وهادته الرومُ وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبق أمة سَمعت به مِن ملوك الروم والإفرَنْجَة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة وانصرفت عنه راضية »[٣] . ويروي المَقّري ــ خلال ذلك ــ أخبار وفود كثيرة من مختلف المناطق[٤] . ذُكر أن هذه الوفود كثيراً ما رأسها

---

(١) راجع : البيان المغرب ، ٢/٢٣٦ ؛ دولة الإسلام ، ٢/٣٧٨ ، ٤٨٧ .

(٢) العبر ، ٤/٢٩٩ (= نفح الطيب ، ١/٣٥٤) .

(٣) نفح الطيب ، ١/٣٦٦ .

(٤) نفح الطيب ، ١/٣٦٣ ــ ٣٦٩ ، ٣٨٣ ــ ٣٩٣ .

حكامُ الدول ، واسبانيا النصرانية بالذات تماماً[1] . ويذكر ابن الأبّار في كتابه **الحلة السيراء** أنه : « أذعن له ملوكُ الروم ورغبوا في مُصاهرته »[2] .

تقدمت القوة الحضارية للأندلس إلى قِمَّة عالية ، يبدو معها الفرق واضحاً بينها وبين الدول الأوربية المجاورة والبعيدة . حتى إن أذفونش (الفونسو الثالث) ملك أشْتُوريش وجِلِّيقِيَة (ليون) ، المخلوع سنة ٢٩٧ هـ ، لم يجد إلا أن يعهد بتربية ابنه إلى مربيين قُرطبيين[3] .

أصبحت قُرْطُبَة مُنْتَجَعاً ، وسبيلها الكريم الواسع مَهْيَعاً ، لطلاب العلم والمعرفة من كل مكان . قَصَدَها عدد مِن علماء الشرق الإسلامي كأبي علي القالي (اسماعيل بن القاسم البغدادي) صاحب كتاب **الأمالي** ، الذي ترك بغداد إلى الأندلس سنة ٣٣٠ هـ (٩٤١ م) أيام الخليفة الناصر . ووجد هؤلاء جميعاً فيها كل ترحيب وتقدير وعلى كل المستويات .

د – إنشاءات عمرانية

تمت في عهد الخلافة (وعهد الإمارة قبله) إنشاءات عمرانية كثيرة ، اشتهر بعضها بفخامته وجماله وفنيته .

مسجد قرطبة الجامع

ابتناه عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٠ هـ[4] (٧٨٦م) . وتتابع الأمراء والخلفاء في العناية به وتوسعته . وكان الناصر والمستنصر وابن أبي عامر ممن أسهموا في هذا الأمر[5].

مدينة الزهراء

بدأ الناصر ابتناء الزهراء – المدينة الخليفية – سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) . تقع

---

(١) راجع : دولة الإسلام ، ٤٨٤/٢ ، ٤٨٩ ، ٥٦٠ – ٥٦١ ، ٥٨٣ ، ٥٩٧ – ٥٩٨ ، ٦١١ .
(٢) الحلة السيراء ، ٢٦٩/١ .
(٣) راجع : أندلسيات ، ٥٨/٢ ؛ الحضارة الاسلامية في الأندلس ، ٢٥ – ٣١ .
(٤) البيان المغرب ، ٢٢٩/٢ .
(٥) البيان المغرب ، ٢٣٠/٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٨٧ ؛ نفح الطيب ، ٣٤٧/١ ، ٥٤٥ – ٥٥٦ ، ٥٥٨ – ٥٦٣ ؛ أعمال الأعلام ، ٣٨/٢ ، ٤٢ ، ٧٦ . كذلك : أندلسيات ، ١٥٩/٢ وبعدها ؛ دولة الإسلام ، ٤٤٥/٢ ، ٤٨٣ ، ٥٧٥ .

على بعد خمسة أميال إلى الشمال الغربي من قرطبة ، عند أقدام جبل العروس ، اكتمل نموّها في مدى أربعين سنة . لم يبق منها — بعد ذلك — إلا القليل . بدأ التنقيب عنها أوائل القرن العشرين ، وأعيد ترميم بعض أقسامها[١] .

مدينة الزاهرة

أنشأها محمد بن أبي عامر (الحاجب المنصور) ، في شرقي قرطبة سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م) ، على الوادي الكبير . تم بناؤها في حوالي عامين ، لتحلّ محلّ مدينة الزهراء أو تنافسها . احتوت — مثل الزهراء — على دواوين الدولة وبعض مرافقها الأخرى[٢] .

مدينة سالم

شمال شرق مدريد ١٣٥ كم . ابتنيت سنة ٣٣٥ هـ ، أيام الخليفة عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله « وفي سنة ٣٣٥ ، كان ابتداء بناء مدينة سالم بالثغر الأوسط . »[٣] ولعلها بنيت قبل هذا التاريخ الذي يمثل تعميرها للمرة الثانية[٤] .

مدينة المرية

بناها الخليفة الناصر سنة ٣٤٤ هـ[٥] . غدت ـ فيما بعد ـ قاعدة الأسطول الأندلسي في جنوبيه الشرقي ، على البحر المتوسط . كما أصبحت مدينة تجارية صناعية مهمة . فهي من أكبر موانيء الأندلس ومراصده البحرية ، يقيم فيها أُسطول أندلسي كبير ، إذ كانت مَرْفَأً للحط والإقلاع[٦] .

---

(١) راجع : نفح الطيب ، ١/٥٢٦،٥٧٧ ؛ البيان المغرب ، ٢/٢٠٩ ، ٢٣١ . كذلك : الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال ، ٣٥ وبعدها ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ٢/٤٣٥ وبعدها ؛ قرطبة حاضرة الخلافة ، ١/٢٢٩ وبعدها ؛

Andalusian diplomatic relations , 222 – 3 ; *Arte Hispanomusulman*, L.Torres Balbas 424 ff.

(٢) راجع : نفح الطيب ، ١/٦٦،٤٥٧٨ ؛ البيان المغرب ، ٢/٢٧٥ . كذلك : دولة الإسلام في الأندلس ، ٢/٥٣٥ وبعدها ، ٥٧٥ ؛ قرطبة حاضرة الخلافة ، ١/٢٥٨ وبعدها ؛ *Andalusian*, 30

(٣) البيان المغرب ، ٢/٢١٣ .

(٤) المقتبس ، ٢/١٣٢ . (= أدناه ، ٣٠٥)

(٥) الروض المعطار ، ١٨٣ ؛ تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، السيد عبد العزيز سالم ، ١٨ .

(٦) الآثار الأندلسية الباقية ، ٢٦٥ ؛ *Andulusian*, 164 . كذلك : الخريطة رقم (٢) ، مقابل صفحة ٣٣ من هذا الكتاب .

مدن أخرى

أُنشئت مدن متعددة في هذا العصر وسابقه ، مثل : مدينه مُرْسِيَة سنة ٢١٠ هـ ايام عبد الرحمن الأوسط[١] . ومدينة بَطَلْيَوْس (Badajoz) « حديثة الاتخاذ ، بناها عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجِلِّيقي بإذن الأمير محمد»[٢] .

وأُقيمت عدةُ حصون ، غدت فيما بعد مدناً . يذكر ابن حيَّان أسماء حصون أنشأها الأمير محمد : « ولمحمد في سلطانه الآثار الجميلة والآيات الجزيلة ، والفتوح العظيمة ، والعناية التامة بمصالح المسلمين ، والتهمّم بثغورهم ، والحفظ لفروجهم ، والضبط لأطرافهم ، والتوجيه لمصالحهم ، وهو الذي أمَرَ ببنيان حصن إسْتِبرَش لغلال مدينة سالم ، وهو منها بين الجَوْف والغرب ، وهو الذي بنى لأهل ثغر طُلَيْطُلَة حِصْن طَلَمَنْكَة وحصن مَجْرِيط وحصن بِنَّه فُرَاطَه . »[٣]

كان لعديد من هذه الحصون ــ بجانب أهميته الحربية والسكانية ــ إسهام ثقافي ونشاط علمي ظاهر ، ومَجْرِيط مثال واضح لهذا[٤] . وصف الحِمْيَري مَجْرِيط في **الروض المعطار** بأنها « مدينة صغيرة ، وقلعة منيعة ، وكان لها ــ في زمن الإسلام ــ مسجد جامع وخطبة قائمة »[٥] .

غدا حصن مَجْرِيط عاصمة إسبانيا حتى اليوم . فليس مَجْرِيط غيرَ مدريد

---

(١) نصوص عن الأندلس ، العذري ، ٦ ؛ البيان المغرب ، ٢/٨٢ ؛ الروض المعطار ، ١٨١ ؛ المغرب في حلى المغرب ، ٢/٢٤٥ . كذلك : أعلاه ، ٦٤ ، ٧٨ .

(٢) جغرافية الأندلس وأوربا (من كتاب المسالك والممالك) ، أبو عبيد البكري ، ١٢١ ؛ الروض ، ٤٦ ؛ المغرب ، ١/٣٦٣ ــ ٣٦٤ .

(٣) المقتبس، ٢/١٣٢ . انظر: التكملة، ١/١٢ (رقم: ١١). حصن إستبرش (Esteras d Medina)، لعله هو القرية التي تقع الآن على بعد ٩ كم جنوب مدينة سالم ، باتجاه مدريد (مجريط) . حصن طلمنكة (Talamanca) يقع على بعد ٥٠ كم شمال شرق مدريد ، على نهر شرنبه (Jarama) إحدى فروع وادي تاجه . حصن بنه فراطه (Peñahora,Peña Forata = الصخرة المحفورة) ، كان على بعد ٣٠ كم شمال مدينة وادي الحجارة عند ملتقى نهري سورب (Sorpe) وهنارس (Henares) فرعي تاجه . انظر: الخريطة رقم٢) ، مقابل صفحة ٣٣ من هذا الكتاب . كذلك : أعلاه ، ٦٥ .

(٤) انظر : الحلل السندسية ، شكيب ارسلان ، ١/ ٣٤٣ ــ ٣٤٥ .

(٥) الروض المعطار ، ١٨٠ .

الحالية ، اتخذها فيليب الثاني (Felipe Philip,II) عاصمة لإسبانيا سنة ٩٦٩ هـ (١٥٦١ م) . فمدريد هي العاصمة الأوربية التي بناها المسلمون الأندلسيون ، وينسب إليها عديد من أهلها العلماء الأندلسيين[١] .

أقام الخليفة الحكم المستنصر بالله مدينة حوالي طُلَيْطُلَة سنة ٣٥٣ هـ ، إذ أنفذ « أحمد بن نصر لبنيان مدينة بثغر طُلَيْطُلَة ، وتشييدها ، وتوثيق أمورها ، وجعل بين يديه أحمال أموال . »[٢]

هـ الحاجب المنصور

توفي الحكم الثاني المستنصر بالله سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) . وخلفه ابنه الصبي هشام المؤيد بالله في الخلافة ، وجرت أحداث أدت إلى الإبقاء عليه وعلى الأحوال . ظهر فيها رجل قوي هو أبوعامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي‌عامر محمد بن‌الوليد ابن يزيد بن عبد الملك المعافري.وجده عبد الملك أحد الوجوه الذين دخلوا الأندلس مع جيش طارق الفاتح المجاهد ،« في أول الداخلين من المغرب»[٣] . تلقب محمد بن أبي عامر بـ « الحاجب المنصور » ، وغدا الحاكم الحقيقي للأندلس. وورث الحُكْم أولاده من بعده؛ لذلك يَعتبر البعض زعامة محمد بن أبي عامر بدايةً لعهد جديد . فغدا هو الخليفة ، ولو أنه لم يحمل لقب الخلافة .

نجد كثيراً من المصادر تثني ثناءً عاطراً على محمد بن أبي عامر الملقب بالحاجب المنصور ، وتشيد بقوته الإدارية والعسكرية ، وأن هيبة الأندلس وقوتها بدت أكثر ظهوراً[٤] . في حين وجّه إليه البعض المآخذ وأنه كان سبباً في الحالة التي أصابت الأندلس وانتهت بقيام الطوائف ، بعد القرن الرابع الهجري[٥] .

---

(١) انظر : التكملة ، ٨٨٣/٢ ؛ الإحاطة ، ٥٠٤/١ .

(٢) البيان المغرب ، ٢٣٦/٢ .

(٣) قاله ابن حيان . انظر : الذخيرة ، ٣٩/١/٤ — ٤٠ ؛ الحلة ، ٢٧٥/١ ؛ البيان ، ٢٥٦/٢ ؛أعمال الأعلام ، ٥٩/٢ ؛ المغرب ، ١٩٩/١ .

(٤) عنه راجع: المغرب ، ١٩٩/١ ؛ الذخيرة ، ٣٩/١/٤ وبعدها ؛ الحلة السيراء ، ٢٦٨/١ ؛ البيان المغرب ، ٢٥٦/٢ وبعدها ؛ أعمال الأعلام ، ٥٩/٢ ؛ نفح الطيب ، ٣٩٦/١ — ٤٢٣ ، ٧٦/٣ وبعدها ، ١٨٩ . كذلك : دولة الاسلام ، ٤٨٣/٢ — ٤٨٩ ، ٥٠٠ ، ٥١٩ ، ٥٣١ وبعدها .

(٥) راجع: جغرافية الأندلس وأوربا ، ٣١ ؛ رحلة الأندلس ، ٧٩، ١٠٣—١٠٤ ؛اندلسيات ، ٨٠/١ .

٢ ـ الأحداث والقضايا الخارجية

أ ـ أحداث النشاط الحربي الخارجي

وُجِد في هذا العهد نشاط حربي لمواجهة الأخطار الخارجية في أكثر من ميدان. ولاشك أن هذه المواجهات لها تأثير على الأندلس ، فقد استهلكت كثيراً من جهوده ، لكنها أعطت للأندلس القوة والمقدرة والنمو في بعض الميادين . منها النشاط البحري ، الذي بدأ منذ عهد الإمارة . حيث وصل المسلمون في الأندلس إلى الجزائر الشرقية (مَيُورْقَة ومَنُورْقَة واليابسة) سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط ، ثم كان فتحها أيام الأمير عبد الله سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٣ م)[١] .

هجوم المجوس على الأندلس

الظاهر في هجومات المجوس الأُرْدُمانيين (النورمان) المتقاربة المتتالية : إما أنَّهُم اختلفوا إلى تكرار تحرشاتهم واعتداآتهم على مناطق أندلسية متعددة ، أو أنهم عادوا في بعضها إلى المهاجمة بعد وصولهم إلى مكانهم . غدا مكان بعضهم ـ أواسط عهد الخلافة ـ ليس الدنمارك ، أو عموم اسكندنافية ، بل منطقة نورماندي (Normandie ‹ Normandy) شمال غربي فرنسا .

استمر المجوس الأردمانيون (النورمان ، الفايكنك) في هجومهم على شواطىء فرنسا الشمالية والغربية ، منذ أواسط القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) . لاسيما الركن الشمالي منها ، الذي عرف ـ فيما بعد ـ باسمهم لاستقرارهم فيه ، في أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، حيث عقدت معاهدة بين ملك فرنسا شارل (الثالث) البسيط أو الأبله (Charles le Simple) وملك النورمان رولو (Rollo) . واستقروا بموجبها في نورماندي[٢] .

يطلق على النورمان الذين سكنوا نورماندي اسم : « النورمانديون » (Normans)[٣]

---

(١) أعلاه ، ٢٦٣ .

(٢) أوربا العصور الوسطى ، عاشور ، ١/٢٣٠ ـ ٢٣١ ؛ المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطالية ، محمد توفيق المدني ، ٣٠ .

(٣) انظر : *Andalsuian diplomatic relations*, 157.

ثم أقاموا في جنوبي ايطاليا . رحبت البابوية بهم لتستعملهم في حرب المسلمين[1] ، ونصحتهم بمهاجمة الأندلس ، فاستباحوا مدينة بُرْبُشْتُرْ (Barbastro) ، شمال شرق سَرَقُسْطَة ، سنة ٤٥٦ هـ[2] (١٠٦٤ م) . وهاجموا بعدئذ صِقِلِّيَة سنة ٤٦٤هـ (١٠٧٢ م) واحتلوها . ثم طردوا المسلمين منها ، مرتكبين : أفظع الجرائم .

غير واضح هجوماتهم التالية ، هل صدرت من دنمارکة (دانامرشة[3]) ، أم من نورماندي ، أو من كليهما ؟ لكن مراجعنا الأندلسية تتحدث عنها وكأنها من الدنمارك .

الهجوم الرابع[4]

وصلت قرطبةَ – أيام الخليفة المستنصر بالله (٣٥٠ – ٣٦٦ هـ) – بدايةَ رجب سنة ٣٥٥ هـ (٢٣حزيران = يونيو ٩٦٦م) رسالة من قصر أبي دانِس (Alcacer do Sal) ، جنوب أُشْبُونَة (الأُشْبُونَة ، لشبونة) تذكر هذا الهجوم .

جرت أحداث اعتركت فيها البحرية الأندلسية – التي نمت وقويت منذ زمن[5] – بقيادة أمير البحر عبد الرحمن بن رُماحِس ، فردُّوا وقد أُعطِبَت بعضُ مراكبهم . « وفي أوّل رَجب منها ، ورد كتاب من قصر أبي دَانِس على المستنصر بالله ، يذكر فيه ظهورَ أسطول المجوس ببحر الغرب بقرب من هذا المكان ، واضطراب أهل ذلك الساحل كله لذلك ، لتقدّم عادتهم بطروق الأندلس مِن قَبْله فيما سلف ؛ وكانوا في ثمانية وعشرين مركباً ؛ ثم ترادفت الكتب من تلك السواحل بأخبارهم ، وأنهم قد أضروا بها ووصلوا إلى بَسيط أُشْبُونَة . فخرج إليهم المسلمون ، ودارت بينهم حرب ، استُشْهِد فيها من المسلمين وقُتِل فيها من الكافرين . وخرجت أُسطول إشْبِيلِيَة ؛ فاقتحموا عليهم بوادي شِلْب ، وحطموا عِدةً من مراكبهم ،

---

(١) أوربا العصور الوسطى ، ٣٢٧/١ – ٣٢٩ ؛ المسلمون في جزيرة صقلية ، ٣١ .

(٢) جغرافية الأندلس وأوربا ، ٩٢ ؛ أدناه ، ٣٥٩ وبعدها .

(٣) هكذا وردت عند الأدريسي في « نزهة المشتاق » (القسم الأوربي) ، ١٧٦ ، وفي مخطوطة باريس (المكتبة الوطنية ، رقم : ٢٢٢١) ، ٣٤١ ب .

(٤) سبق الحديث عن هجوماتهم الثلاثة السابقة في عهد الإمارة : أعلاه ، ٢٢٧ – ٢٤٠ .

(٥) أعلاه ، ٢٣٥ .

واستنقذوا مَن كان فيها من المسلمين ، وقتلوا جملةً من المشركين ، وانهزموا إثْرَ ذلك خاسرين . ولم تزل أخبار المجوس تصل إلى قُرطبة في كل وقت من ساحل الغرب ، إلى أن صرفهم الله تعالى . »[1]

يظهر من كلام ابن الخطيب في **أعمال الأعلام** أن المجوس النورمان ظهروا عند مدينة المَرِيَّة التي أنشأها الناصر سنة ٣٤٤ هـ . « وفي أيامه ظهرت المجوس المُجلَبة على المسلمين من بحر الجَوْف ، فتحرك إلى المَرِيَّة ، وقد حَصَروا حِصْن القَبْطَة من حصونها ، فأوقع بهم ، وأنشأ الأُسطول لغزوهم ، فكان عدده ست مئة جَفْن بين غَزْوي وغيره . »[2] لكن ابن الخطيب لا يُعَيِّن سنة لهذه الحادثة ، إلاّ أنه يجعل — في كتابه : **الإحاطة** — ذَهاب الحكم إلى المَرِيَّة سنة ٣٥٣ هـ « فاحتسب شُخوصَه بنفسه إلى المَرِيَّة في رجب سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة ، في جحفل لَجِب من نَجدة الأولياء وأهل المراتب . »[3] فهل أن المجوس ظهروا في هذه السنة أيضاً ، قبلها ؟ أو أن الحكم ذهب في هذه السنة وكذلك في التي عنها الحديث (٣٥٥ هـ) أو أن هنالك اختلافاً في تاريخ ذَهابه بين سنتي : ٣٥٣ و ٣٥٥ هـ ؟

لكن ابن عذاري يذكر في **بيانه** سبباً آخر لتوجه الحكم إلى المَرِيَّة سنة ٣٥٣ : « وفيها تحرك الحكم من قُرْطبة إلى المَرِيَّة توقعاً لما يَصدر من صاحب إفريقية المحادّ لأهل الأندلس ، ولمعاينة ما استكمله بها من الحصانة ومطالعة حال رابطة القَبْطة ومشارفة حال الرعايا بتلك الجهة . »[4]

أما ابن خلدون فيجعل ظهور المجوس سنة ٣٥٤ : « وظهرت في هذه السنة مراكب المجوس في البحر الكبير ، وأفسدوا بَسائط أُشْبُونَة وناشبهم الناسُ القتالَ ، فرجعوا إلى مراكبهم ، وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل ، وأمر قائدَ البحر عبدَ الرحمن بن رُماحِس بتعجيل حركة الأسطول ، ثم وردت الأخبار بأن العساكر

(١) البيان المغرب ، ٢/٢٣٨ — ٢٣٩ .
(٢) أعمال الأعلام ، ٢/٤١ — ٤٢ .
(٣) الاحاطة ، ١/٤٧٨ — ٤٧٩ .
(٤) البيان المغرب ، ٢/٢٣٦ .

نالت منهم في كل جبهة من السواحل . »[1]

يلاحظ الاختلاف في تاريخ ظهور المجوس النورمان بين **٣٥٣ ــ ٣٥٥ هـ . فهل** أنهم ظهروا في كل هذه السنوات أم أن ظهورهم استمر منذ نهايات **٣٥٣ هـ حتى** بدايات سنة ٣٥٥ هـ ، أم أن هنالك اختلافاً في التاريخ ؟

الهجوم الخامس

ظهرت مراكب المجوس الأُرْدُمانيين مرة أخرى على ساحل الأندلس الغربي في بداية رمضان سنة ٣٦٠ هـ (أول صيف سنة ٩٧١ م) . صدر أمر الخليفة الحكم إلى أمير البحر ، قائد أُسطول المَرِيَّة في مياه البحر المتوسط ، ليبحر بأُسطولها نحو إشْبِيلِيَة ، وإلى أمراء البحر الآخرين كذلك ، لرد غائلة هؤلاء المجوس ، تمّ ذلك وعاد المجوس خائبين . « وفي صدر رمضان منها وقع الإرجاف بتحرك المجوس الأُردمانيين ــ لعنهم الله ــ وظهورهم في البحر الشمالي ورَوْمهم سواحلَ الأندلس الغربية على عادتهم . فانزعج السلطان لَمَّا سِيقَ إليه خبرُهم ، وعَهِدَ إلى عبدالرحمن ابن رُماحِس قائد البحر وهو حاضرٌ بقُرْطُبَة بالخروج إلى المَرِيَّة والتأهب للركوب إلى ناحية الغَرْب ، فنفذ بأمره يوم الاثنين لست خَلَوْنَ من شهر رمضان المؤرَّخ . »[2]
وفي عودتهم هاجموا مناطق في جِلِّيقِيَة ، لعل منها شَنْت ياقِب (Santiago de Compostela) في الركن الشمالي للجزيرة الأندلسية . يذكر ابن حيَّان في **مُقْتَبِسه** أنهم هاجموا الساحل الشمالي الغربي للجزيرة الأندلسية ، داخلين من نهر دُوَيْرُه على الأطلسي ، مهاجمين بعض المناطق ، لكنهم رُدُّوا وفروا . « وفي يوم السبت لخمس بَقِينَ منه دخل قُرْطُبَة سَلْس رسولُ القُومِس غَنْد شَلْب بن مَسَرَّة بكتابه من مدينة لَسْتَرة من أداني جِلِّيقِيَةَ بتاريخ يوم الأحد لاثنتي عشرة خلَت من شهر رمضان يذكر دخولَ المجوس ــ أهلكهم الله ــ يومَ السبت قبلَه وادي دُوَيْرُه ، وذلك شطرَ النهار ، وأنهم خرجوا في الغارة إلى شَنْتَبَرِيَة وبَسِيطها ، وأنهم انصرفوا خائبين . »[3]

---

(١) العبر ، ٣١٤/٤ (= نفح الطيب ، ٣٨٣/١ ــ ٣٨٤) .
(٢) المقتبس (بيروت) ، ٢٣ ــ ٢٤ . قارن : البيان المغرب ، ٢٤١/٢ .
(٣) المقتبس (بيروت) ، ٢٧ . كذلك : 85 , *Andalusian diplomatic relations* .

الهجوم السادس

عاد المجوس الأُرْدُمانيون لمهاجمة سواحل الأندلس الغربية ، بداية سنة ٣٦١ هـ (نهاية سنة ٩٧١ م) فردهم الأسطول الأندلسي بقيادة أمير البحر غالب بن عبد الرحمن الناصري الذي عاد منتصراً إلى قرطبة من مدافعته ورده لهم لينهي خبر ذلك إلى الخليفة الحكم المستنصر ويداوله في مهماته . « وفي ليلة الجمعة لليلتين خلَتا من صفر منها احتل الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن بمحلة فَحْص السُّرَّادق قافلاً من غَزاته إلى [ساحل] الغرب التي تجوَّل فيها وأشرف على المجوس الأُرْدُمانيين الجائشين في هذه السنة . فاستركب إليه الجيوشَ يوم السبت بعده ، من قصر قرطبة في التعبئة المنتظمة بالعُدَدِ الفَخْمَة ، فيها الشطرنج والألوية ، فتقدم مِن محلته وبين يديه المراكب على أَجَلِّ هيئة وأَتَمِّ أُهْبَة ، إلى أن وصل قصر قرطبة والخليفة يومئذ مقيم به ، فتوصل إليه وقعد بين يديه مَلِيّاً مفاوضاً له ومسائلاً عن حركاته وتقلبه في غَزاته التي كفى الله فيها المسلمين القتال وكان الله قوياً عزيزاً . فخلع عليه وانطلق إلى داره ، محموداً سعيُه . »[1] لعل المجوس هاجموا شَنْت ياقِب في قاصية جليقية ، كما يُشير إليه ابنُ حَيَّان في **مُقْتَبِسه** هذا ، إذ يقول : « وفي يوم الثلاثاء لخمسٍ خَلَوْنَ مِن ذي القعدة منها احتل مدينة الزهراء صاحب الخيل زياد بن أفلح وصاحب الشرطة العليا هشام بن محمد قائد الصائفة ، قافِلَيْن من غَزاتهما إلى ساحل الغرب لتتبع أخبار المجوس الأُرْدُمانيين — أهلكهم الله — المُتَوَقَّعَين بالناحية ، فتوصلا إلى أمير المؤمنين وأنبآه بما قضيا في وجههما وحيث بلغا من قصدهما وأنهما انتهيا إلى مدينة شَنْتَرين ، قاصيةِ ذلك الصُّقْع ، وتظاهرت لديهما الأنباءُ الصحيحةُ بأنَّ الأُرْدُمانيين — لَعنهم الله — نَكصوا عن الإقدام على المسلمين عند تَسَمُّعِهِم بخبر الدُّلُوف إليهم والاستعداد لهم ، براً وبحراً ، فانقلبوا على وجوههم وجَدُّوا في نُكُوصهم وأن الجواسيس الذين أُرسلوا لامتحان أخبارهم عادوا إليها بعد بلوغهم شَنْت ياقِب من قاصية بلد العدو ولم يختلف عليهم في فرارهم بفضل الله تعالى ومنته.»[2]

---

(١) المقتبس (بيروت) ، ٦٦ — ٦٧ . فيه اقتباس من القرآن الكريم ، سورة الأحزاب ، من الآية رقم : ٢٥ .

(٢) المقتبس (بيروت) ، ٩٢ — ٩٣ . كذلك : دولة الاسلام في الأندلس ، ٦٨٧/٢ .

ورد في كتاب **الجغرافية** المنسوب إلى أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزُّهْرِي (بعد ٥٤٥ هـ)[١] أنهم ظهروا على ساحل الأندلس بعد عام ٥٤٥ هـ في مركبين أصيبا في الساحل الجنوبي الغربي عند طَرَف الأغَر[٢] (Trafalgar) .

كان لنمو البحرية وقوتها الضاربة أثر كبير في رد الأسطول الأندلسي لهجومات المجوس الأُرْدُمانيين (النورمان) الذين هاجموا السواحل الأندلسية ثلاث مرات أيام الحكم الثاني المستنصر بالله : ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) و ٣٦٠ هـ (٩٧١ م) و ٣٦١ هـ (٩٧١ م) . لكنهم في هذه المرات رُدوا بقوة وقُتل الكثير من رجالهم ودُمرت وأُحرقت عدة من سفنهم . استفادت الأندلس من تجاربها الماضية في طريقة حربهم وتقدمت صناعة السفن ورعاها الأمراء والخلفاء . حتى إنَّ ابن الخطيب يذكر في **الإحاطة** أن الحكم المستنصر ذهب في رجب سنة ٣٥٣ هـ إلى المَرِيَّة « وأشرف على أمورها ، ونظر إلى أسطولها وجدّده ، وعُدته يومئذ ثلاث مئة قطعة »[٣] .

* * *

كانت هناك مواجهات بَرِّيَّة بين الأندلس وإسبانيا النصرانيَّة ، لا سيَّما أيَّام المنصور بن أبي عامر . وصل بها إلى مناطق بعيدة في جِلِّيقِيَة ، وأخضع مدينة بَرْشَلُونَة .

تمت أيام الناصر لدين الله مواجهة قويَّة بين الأنْدَلُس ودويلات إسبانيا النصرانية التي تحالفت ضد الأندلس . **تلك هي معركة الخندق** عند مدينة شَنْت مَنْكِش (سيمانقة Simancas) ، شمال نهر دُوَيْرُه ، وذلك يوم الجمعة ١١ شوال سنة ٣٢٧ هـ (آب = أغسطس ٩٣٩ م) ، وبعد عدة أيام من القتال ، سِجالاً . خسر الأندلسيون هذه المعركة التي قادها الناصر بنفسه . بيد أنه نجا من القتل بجهد كبير . كان الخائن أميّة بن إسحاق في هذه المعركة إلى جانب رُدْمِير (الثاني

---

(١) انظر : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مؤنس ، ٣٥٨ ؛ أعلاه ، ٢٢٨ .

(٢) كتاب الجغرافية ، ٢١٥ (رقم ٢٤٠) .

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة ، ٤٧٩/١ . كذلك : دولة الاسلام ، ٤٨٨/٢ – ٤٨٩ ؛ *Andalusian diplomatic relations*, 164 – 5.

Ramiro II) ملك ليون ، يحارب معه ويدله على عورات المسلمين[1] . واستشهد في هـذه المعركة بعض العلماء[2] ، واشتراك العلماء في المعارك ــ كما في أحداث المجتمع وحياته ــ واستشهادهم فيها أمر سنلحظه بوضوح ، فيما يأتي إن شاء الله .

ب ـ قيام دويلة جبل القِلال (فراكسنيتوم) وآثارها

يذكر بعض المؤرخين أنه حوالي سنة ٢٧٧ هـ (٨٩٠ م) رست سفينة تحمل بعض البحارة الأندلسيين في جنوبي شرقي فرنسا في منطقة البروفانس (Provence) واستقروا في شمال مرسيليا في أحد المواقع الجبلية المنيعة . بدأوا بفتح بعض المناطق ، ونظراً لنجاحهم فقد توارد إليهم المؤيدون من الأندلس وشمالي إفريقية .

عرفت قاعدتهم في المصادر اللاتينية : باسم فراكسنيتوم (Fraxinetum, Fnaximete Fraxinet) في حين تعرف في الرواية الإسلامية جبل القِلال. استمرت هذه الدويلة حتى سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) . شملت سلطة هذه الدويلة مناطق في جنوبي فرنسا وشمالي إيطاليا وسويسرا .

قامت هناك محاولات لكبتهم ، منها التبادل السفاري بين الأندلس والامبراطورية الرومانية (المقدسة) ، أيّام الامبراطور أوتو الأول (Otto I) .

وردت إلى بَلاط قرطبة سفارة ألمانية سنة ٣٤٢ هـ (٩٥٣ م) للتوسط لدى قرطبة في معالجة الوضع . لكن الأندلس لم تكن مسؤولة عن الأمر فعادت السفارة دون تحقيق هذا الهدف[3] .

---

(١) راجع : جغرافية الأندلس وأوربا ، ٧٦ ــ ٧٨ ؛ أعمال الأعلام ، ٢/٣٦ـ٣٧ ؛ دولة الإسلام ٢/٤١٣ ــ ٤٢٣ ؛ *Andalusian,* 114

(٢) انظر : تاريخ علماء الأندلس ، ٢/٤٦ ــ ٤٧ .

(٣) راجع : دولة الإسلام في الأندلس ، ٢/٤٦٧ وبعدها ؛ تاريخ غزوات العرب ، ٢٠٧ وبعدها ؛ أندلسيات ، ١/ ٤٦ ــ ٥٣ ؛ 27 . - *Andalusian,* 207 .

ثانياً : الأحوال العامة لعهد الخلافة وانجازاته

تمتعت الأندلس خلال هذا العهد بالقوة والرخاء والاستقرار . لكن ، هل إنّ الأندلس لم تمر بمشاكل ولم تحفها المخاطر ، أم أنها كانت تتغلب عليها ؟ كانت أكثر هذه المشاكل والمخاطر خارجية ، ليست من صنع الأندلس .

ومن ناحية أخرى فقد عم النمو والتقدم كافة المرافق والجوانب . فزهت الأندلس بعمرانها الخاص والعام . قامت فيها المنشآت الكثيرة التي ذكرنا بعضها ، المدني منها أو الحربي . غدت قرطبة دُرَّة في جبين الحضارة يومها ، فكانت تزهو بالشوارع المرصوفة التي تمتد أميالاً كثيرة ، مضاءة بالمصابيح العامة[1] . تتمايل حدائقها مزهرة ويفوح شذاها طيباً . جُلبت إلى قرطبة (ويبدو في غيرها) المياه من المناطق المختلفة ، في أنابيب الرصاص المحفوظة داخل قَنوات حجرية متقنة[2] . فكثر العمران واتسع . ونمت الزراعة والتجارة والصناعة ، وتقدمت العلوم والفنون وكثرت المدارس والجامعات وعُمرت الدور بالكتب وأُنشئت المكتبات الكثيرة . وُصفت قرطبة بأنها جوهرة العالم »[3] . أشاد العديد من كتّاب الأندلس بمكانتها وأحوالها ، مع باقي المدن الأندلسية الأخرى ، في كثير من هذه النواحي وغيرها .

« وقرطبة أعظم علماً وأكثر فضلاً بالنظر إلى غيرها من الممالك لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة فيها . »[4]

ينقل المَقّري أيضاً وصفاً للأندلس عن ابن سعيد الأندلسي « قال ابن سعيد : وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار ، فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة ، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع ، والصحارى فيها معدومة ، ومما اختصت به أنّ قراها

(١) انظر : نفح ١/٤٥٦ ، ٢/٢١٦ ؛ المعجب ، ٤٥٧ .كذلك : الحضارة الإسلامية في الأندلس ، ٦٩ .

(٢) راجع : أندلسيات ، ٢/١٦١ .

(٣) *La Civilisation Arabe en Espagne,* Levi-Provencal, al, 114 .

(٤) نفح الطيب ، ١/٤٥٦ .

في نهاية من الجمال لتصنّع أهلها في أوضاعها وتبييضها ، لئلا تنبو العيون »[1] .

ذُكرت أيضاً ـ لكل مدينة ـ صفات ومميزات وأحوال معينة . مثلاً عن إشْبيلِية يورد صاحب **نفح الطيب** : « وقال بعضهم في إشبيلية : إنها قاعدة بلاد الأندلس وحاضرتها ، ومدينة الأدب واللهو والطرب ، وهي على ضِفّةِ النهر الكبير ، عظيمة الشأن ، طيبة المكان ، لها البر المديد ، والبحر الساكن ، والوادي العظيم ، وهي قريبة من البحر المحيط ، إلى أن قال : ولو لم يكن لها من الشرف إلاّ موضع الشرف المقابل لها المطل عليها المشهور بالزيتون الكثير الممتد فراسخ في فراسخ لكفى ، وبها منارة في جامعها بناها يعقوب المنصور ، ليس في بلاد الإسلام أعظم بناءً منها . وعَسَل الشرف يبقى حيناً لا يترمّل ولا يتبدّل ، وكذلك الزيت والتين .

« وقال ابن مفلح : إنّ إشْبِيلِيةَ عَروس بلاد الأندلس ، لأنّ تاجها الشرف ، وفي عنقها سمط النهر الأعظم ، وليس في الأرض أتم حسناً من هذا النهر ، يُضاهي دجلة والفرات والنيل ، تسير القوارب فيه للنزهة والسير والصيد تحت ظلال الثمار ، وتغريد الأطيار ، أربعة وعشرين ميلاً ، ويتعاطى الناس السُرُج من جانبيه عشرة فراسخ في عمارة متصلة ومنارات مرتفعة وأبراج مشيدة ، وفيه من أنواع السمك ما لا يحصى . وبالجملة فهي قد حازت البر والبحر ، والزرع والضرع ، وكثرة الثمار من كل جنس ، وقصب السكر ، ويجمع منها القرمز الذي هو أجَلّ من اللّك الهندي ، وزيتونها يخزن تحت الأرض أكثر من ثلاثين سنة ، ثمّ يُعتصر فيخرج منه أكثر مما يخرج منه وهو طريّ »[2] . سبق ذكر كثير من الأحوال الثقافية والسياسية ، حين الحديث عن قرطبة ، مركزاً للتوجيه[3] .

أما الإدارة فقد سادت ، وأحدث فيها الجديد ، أحدث في الثغور إمارة مستقلة ، هي : **إمارة الثغور** ، ومقرها سرقسطة . وتوجد في الأندلس ثلاثة ثغور[4] . كما

---

(١) نفح الطيب ، ٢٠٥/١ .

(٢) نفح الطيب ، ٢٠٨/١ .

(٣) راجع : الحضارة الاسلامية في الأندلس ، ٢٥ وبعدها ؛ أعلاه ، ٣٠٢ ــ ٣٠٣

(٤) أعلاه ، ٣٨ .

أحدثت **إمارة البحر** ، ومقرها : المَرِيَّة . كانت للبحرية تنظيمات خاصة ، وبرز كيانها[1] . معلوم أيضاً أن القضاء كان مستقلاً ، وبقي كذلك دوماً . الظاهر أن استقلاله أكثر مما كان في الشرق الإسلامي ، حيث لم يكن قضاة الأقاليم في الأندلس مستقلين عن الإدارة أو السلطة فقط بل عن سلطة قاضي الجماعة بقرطبة[2] . هكذا كانت التنظيمات المختلفة .

كان البلد يتقدم نحو الرقي والرفاه رغم دفع ضريبة الحفاظ على هذا كله . سادت بين الناس العلاقات الحسنة ، وبين الحاكم والشعب كذلك في العموم .

أما الانجازات فقد ذكرت أمور كثيرة ، أَطْلَعت على ثمرات من جهود أهل الأندلس في كل ميدان . أنشئت المساجد ، وتمت التوسعات في مسجد قرطبة الجامع . الذي جلبَ له الحَكَمُ المستنصرُ الماءَ من عينٍ بجبل قُرطُبَة[3] . كما بنى معهداً للفقراء والضعفاء واليتامى وأقام مدارس لتعليمهم . جدد المنصور قنطرة قرطبة ،

---

(1) راجع : الحضارة الاسلامية في الأندلس ، ٤٦ .

(2) انظر : « القضاء ودراسته في الأندلس » ، بحث للمؤلف منشور في مجلة كلية الإمام الأعظم ، ١/٢١١ (بغداد ، ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م) .

(3) انظر أعلاه ، ٣٠٣ ، ٣١٤ .

زاد الحكم المستنصر (٣ رمضان ٣٥٠ – ٣ صفر ٣٦٦ هـ) بناء المسجد الجامع زيادته الشهيرة الكبيرة (نفح الطيب ، ١/٥٥٠ – ٥٥١ ، ٥٥٥ – ٥٥٦، ٥٦١ ؛ البيان المغرب ، ٢/٢٣٣–٢٣٤، ٢٣٦ ، ٢٤١ ؛ قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ١/٣٣٨ وبعدها) ، حيث « افتتح خلافته بالنظر في الزيادة في المسجد الجامع بقرطبة ، وهو أول عهد أنفذه » . البيان المغرب ، ٢/٢٣٣ . وقد « وجد بخط الخليفة المستنصر بالله : (ابتدىء بنيان الجامع – صانه الله – يوم الأحد لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٥١ وكمل سنة ٣٥٥ . . .) . البيان المغرب ، ٢/٢٤١ .

ومن طرائف مايروى في ذلك ما « حكي أبو مروان بن حيان – رحمه الله – في أخبار قرطبة ، أن الحكم لما زاد زيادته المشهورة في الجامع اجتنب الناس الصلاة فيها أياماً ، فبلغ ذلك الحكم ، فسأل عن علته ، فقيل له إنهم يقولون : ما ندري هذه الدراهم التي أنفقها في هذا البنيان من أين اكتسبها ، فاستحضر الشهود والقاضي أبا الحكم منذر بن سعيد البلوطي – المتقدم الذكر في قضاته – واستقبل القبلة وحلف باليمين الشرعية التي جرت العادة بها لأنه ما أنفق فيه درهماً إلا من خمس المغنم . وحينئذ صلى الناس فيه لما علموا بيمينه . » المعجب ، ٤٥٧ .

وأقام قَنطرة إسْتِجَّة على نهر شَنِّيل (فرع الوادي الكبير)[1] . تم بناء مدينتي : الزهراء والزاهرة[2] ، الأولى أيام الناصر والثانية أيام المنصور .

أنشئت حصون وأسوار ، لاسيما المدن الساحلية . ابتنيت مدينة المَرِيَّة التي كانت أكبر مرفأ للأسطول الأندلسي الذي نما وزاد قوة وفنية . أُعلنت الخلافة وظهرت هيبة الأندلس أمام الدولِ المجاورة وغيرها فَطَلِب وِدَّها . امتد سلطان الأندلس إلى بعض الشمال الإفريقي .

انتشرت الثقافة وكثُر الإنتاج العلمي وشاعت المعرفة ، حتى فشا العلم وعم . تشهد على ذلك المؤلفات الكثيرة والمكتبات العامة والخاصة[3] .

تقتضي الكتب ازدهار صناعة الورق التي ارتقت في الأندلس ، كما ارتقت الصناعات الأخرى المعروفة . كانت مكتبةُ الحَكَمِ تضُمُّ حوالي أربع مئة ألف مجلد . عَدَّت مكتبات الأندلس العامة حوالي سبعين . مكتبةٌ في البيت لأي أحد غدت الاهتمام العام والهواية المفضلة ، وضرورة لازمة تبارى بها الناس وتباهوا[4] .

تم إنهاء المخالفات ، التي ألحقت بأحوال الأندلس الضرر ، لاسيما أيام الناصر. كان من نتيجة ذلك قلة مجالات الدول الخارجية للتدخل ، نتيجة لعدم وجود من يستند إليه أو يعتمد عليه .

ثالثاً : السِّياسة الخارجيّة للأندلس في عهد الخلافة

١ ــ مع العالم الإسلامي

كانت العَلاقات مع العالم الإسلامي ــ عموماً ــ عَلاقات عادية مع الجهات الرسمية . فليس بالإمكان أن يُقبل بسهولة قيام معاهدة بين الأندلس أيام الناصر وبين

---

(١) دولة الإسلام ، ٢/٥٧٧ .

(٢) انظر : أعلاه ، ٣٠٣ ــ ٣٠٤ .

(٣) انظر : « الكتب والمكتبات في الأندلس » ، بحث للمؤلف ، مجلة كلية الدراسات الإسلامية ، ٤/٣٧٠ (بغداد ، ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م) .

(٤) راجع : دولة الاسلام ، ٢/٥٠٤ .

هوجو البروفانسي (Hugue de Provence) ملك إيطاليا ، لمقاومة النفوذ الفاطمي . وذلك بعد مهاجمة الفاطميين لميناء جنوة سنة ٣٣٤ هـ (٩٢٥ م)[١] . وذلك لانعدام الأدلة الكافية على قيام مثل هذه المعاهدة . لعلها أشبهت أختها ، تلك المعاهدة الثنائية المزدوجة بين الدولة البيزنطية والأندلس من جهه ضد تحالف بين الدولة الفِرَنْجية والعباسية . فالعلاقة ــ عموماً ــ كانت حسنة وودية مع الشمال الإفريقي . ولدى ظهور الخطر الفاطمي على الأندلس وضع الأندلس بعض مناطق الشمال الإفريقي تحت نفوذه ، مثل ثغر سَبْتَة ، كذلك خضعت مناطق أخرى من المغرب الأقصى .

كانت العَلاقة مع بقية العالم الإسلامي ،في الشرق ــ من الناحية العامة ــ عَلاقة ود ومحبة . الناس في الأندلس والمشرق على صلة ، يرتادون بلدان كل منها للسفر والحج والسياحة والتلقي والدراسة . كم استُقبل بالترحيب علماء الشرق ورجالهم في الأندلس ووجدوا فيها الأهل والتشجيع .

لم يحدث ــ على المستوى الرسمي ـ صدام أو مواجهة بينهما . بل حدث ـ فيما بعد ــ تعاون يدل على الصلة الحسنة . لاغرابة فالعقيدة تجمع بين هذه الأطراف . كان لذلك أثر في ألاّ تتخذ العداوة شكلاً عنيفاً ، بين الجهات الرسمية . وكما استَقبلت الأندلس العلماء من المشرق كذلك نقلت إليه الكتب في مختلف الفنون .

هكذا كانت الصلة بين غرب العالم الإسلامي وشرقه في العموم حسنة ، بصورة رئيسية على المستوى العـام . توفر في **نفح الطيب** الكثير من الأخبار المتعلقة بذلك ، مع أسماء من سافر من الأندلس إلى الشرق وبالعكس .

٢ ــ العالم غير الإسلامي

يتوفر شَبَهٌ كبير في عديد من القضايا ، بين ماذكر[٢]ــ حين الحديث عن مثل هذا الموضوع في عهد الإمارة ــ مع هذا العهد (الخلافة) . قامت السياسة الخارجية

---

(١) راجع : « سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس » ، بحث أحمد مختار العبادي ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ٥/٢٠٧ .

(٢) أعلاه ، ٢٨٩ــ٢٩١ .

على عدم الاعتداء عموماً ، والاستعداد لعروض الصداقة . كانت الأندلس — **في عهد** الخلافة ، لا سيما أيام الناصر — موجهة لسياسة شبه الجزيرة الأندلسية .

وردت أحياناً من دولة الفِرَنجة سفارات ودية . كذلك الحال مع الدول الأخرى في العالم غير الإسلامي . خطبت تلك الدول وِدّ قُرطبة وأرسلت إليها السفارات والهدايا . تسخو في ذلك وتقدم ماتراه قائداً إلى تأكيد المودة والرضا .

توسطت بعض الدول — كألمانيا — لدى الأندلس لتعاونها في حل بعض المشاكل ، كتلك السفارة الألمانية التي أرسلها أوتو الأول (Otto I) إلى عبد الرحمن الناصر ، لكبح جماح الأندلسيين في دولة **جبل القِلال** (فراكسنيتوم)[1] ، جنوبي فرنسا . كما طلب البعض الآخر كدول اسبانيا الشمالية — من السلطة الأندلسية التدخل في خاصة قضاياها وارتضت الاحتكام إليها فيما يعن من المشاكل حولها[2] .

أنشأت عَلاقات ودية مع العديد من الدول غير الإسلامية : مثل الأوربية ، وبيزنطة كذلك . رحبت الأندلس بالسفراء القادمين إليها أجمل ترحيب واستجابت لكثير من مطالبهم . تم استقبالهم في قُرطبة ، في قصرها الخليفي أو في الجناح المخصص لذلك من مدينة الزهراء . والجناح الذي يستقر فيه الوفد القادم هو « **دار الملك** » في مدينة الزهراء والبهو الذي يستقبل فيه الخليفة القادمين هو « **المجلس المؤنس** » الجميل الذي يطل على حديقة غنّاء فيها ، في حين خصص « **المجلس الزاهر** »[3] بَهْواً لهذه الاحتفالات في قصر قرطبة الخليفي ، على نهرها الوادي الكبير وقرب قنطرته وغير بعيد من مسجدها الجامع . ترك مؤرخونا صوراً من هذه الاستقبالات والمشاهد المشهورة . احتفظ المَقّري في **نفحه** و **أزهاره** بكثير منها . اعتاد حكام الأندلس الاحتفاء بهذه الوفود وإكرامهم وتقديم الهدايا لكافة الأعضاء ولشخص المُرْسِل . من ذلك مايذكره ابن خلدون في كتاب **العبر** وصفاً طريفاً لسفارة أرسلها أحد حكام

---

(١) راجع : أندلسيات ، ٤٢/١ وبعدها ؛ دولة الاسلام ٤٦٤/٢ وبعدها ؛ أعلاه ، ٣١٣ .

(٢) انظر : البيان المغرب ، ١٠/٣ ؛ أعمال الأعلام ، ٨٧/٢ ؛ *Andalusian* 69 .

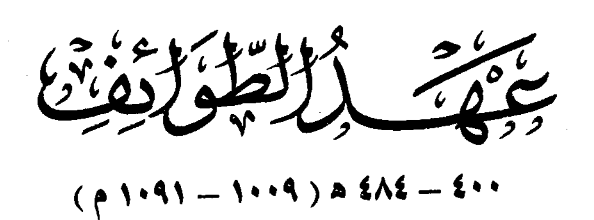
(٣) انظر : نفح الطيب ، ٣٦٧/١ ، ٥٧٧ — ٥٧٨ (= العبر ، ابن خلدون ، ٣١٢/٤) .

اسبانيا الشمالية إلى بَلاط قُرطبة أيام الحكم المستنصر . رأست أُمُّ هذا الحاكم الوفدَ القادم إلى قُرْطُبة ، فأكرمها الحكم غاية الإكرام ، وذلك سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) .
« وفي سنة خمس وستين وثلاث مئة وردت أم لذريق بن بِلاكِش القُومِس بالغرب من جِلِّيقِيَّة وهو القُومِس الأكبر فأخرج الحكم لتَلَقِّيها واحتفل لقدومها في يوم مشهود، فوصلها وأسعفها وعقد السلم لابنها كما رغبت وأحبت،ودفع لها مالاً تقسمه بين وفدها،وحُملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مُثْقلين بالذهب ومِلْحَفة ديباج . ثم عاودت مجلس الحكم للوداع فعاودها بالصلات لسفرها وانطلقت . »[١] ولذريق ابن بلاكش (Rodrigo Velazquez) هذا ، هو : أحد الحكام في غرب جِلِّيقِيَّة[٢] .



(١) العبر ، ٤/٣١٥ - ٣١٦ ؛ *Andalusian diplomatic relations*, 90 - 2.
(٢) قارن : دولة الاسلام ، ٢/٤٩٠ .

الفصل الخامس



٤٠٠ — ٤٨٤ هـ (١٠٠٩ — ١٠٩١ م)

أولاً : دول الطوائف والصراع مع إسبانيا النصرانية .

ثانياً : الدعوة إلى التوحد .

ثالثاً : ذكر أهم دول الطوائف والحديث عن بعضها .



عهد الطوائف

نظرة عامة

عاشت الأندلس – بعد ذهاب الخلافة وانتهاء حكم أسرة بني عامر – سنوات صعبة من الفرقة والتنافس. حاول عدد من المسؤولين المخلصين – حتى سنة **٤٢٢ هـ** (١٠٣١ م) – استمرار وحدته وإعادة خلافته، وبذلوا في ذلك الجهود الكبيرة، دون جدوى. فانتابت الأندلس حالة مريعة تبعث على الأسى. عندها يبدأ قيام الطوائف، حين تصدّع بنيان ذلك الصرح الشامخ. أعلن أهل قرطبة، وعلى رأسهم أبو الحَزْم جَهْوَر بن محمد بن جَهْور، إلغاء الخلافة[1]. أسند القرطبيون أمرهم إلى « شيخ الجماعة » الوزير أبي الحزم بن جهور في منتصف ذي الحجة سنة **٤٢٢ هـ**. « فأعطوا منه قوس السياسة باريها، وولّوا من الجماعة أمينها، فاخترع لهم – لأول وقته – نوعاً من التدبير حملهم عليه فاقترن صلاحهم به، وأجاد السياسة فانسدل به الستر على أهل قرطبة مدّته »[2].

أدار أبو الحزم بن جهور حكومة قرطبة ببراعة ونباهة أثنى عليها المؤرخون[3]، عاونه في ذلك صفوة من الرجال، كذلك كان ابنه أبو الوليد بن جهور[4]. ضمت هذه الحكومة عدة من مدن « متوسطة الأندلس »، مثل : جَيَّان وبَيَّاسة، من جبل الشارات (Sierra Morena) شمال قُرطبة حتى حدود ولاية غَرناطة.

---

(١) انظر : البيان المغرب، ٣/١٥٠ – ١٥٢ ؛ دول الطوائف، محمد عبد الله عنان، ١٢٠ ؛ أعمال الأعلام، ٢/١٣٩، ١٤٧ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ٣٦٣.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ١/٢/١١٥ (نقلاً عن ابن حيان). انظر كذلك : أدناه، ٣٤٥.

(٣) الذخيرة، ١/٢/١١٥ – ١١٧ ؛ الحلة السيراء، ١/٢٤٥–٢٥١، ٢/٣٠ – ٣٣ ؛ البيان المغرب، ٣/١٨٥ – ١٨٦ ؛ أعمال الأعلام، ٢/١٤٧ – ١٤٨ ؛ العبر، ٤/٣٤٣.

(٤) الذخيرة، ١/٢/١١٧ – ١١٨ ؛ الحلة السيراء، ٢/١٨١ ؛ البيان المغرب، ٣/١٨٧، ٢١٠، ٢١١، ٢١٣، ٢٣٤ ؛ أعمال الأعلام، ٢/١٤٨ ؛ العبر، ٤/٣٤٣.

بعدها قامت — في عدد من مناطق الأندلس — ممالك أو دويلات مستقلة ، يحكم كلاً منها أمير مستقل عن غيره من الأمراء . قُسِّمت الأندلس إلى ست مناطق رئيسية تضم كل منها إمارة أو أكثر ، حتى بلغت جملة عددها — أحياناً — عشرين إمارة .

قائمة نسب بني جَهْوَر (الجهاوِرَة)

محمد بن الغَمْر بن يَحي بن عبد الغافر بن أبي عبدة حسان بن مالك بن عبدالله بن جابر (أبو عبدة حسان ، الداخل إلى الأندلس سنة ١١٣ هـ)

|

عُبَيْد الله (قرطبة ، ٢٩٦ هـ)

أبو الحَزْم جَهْوَر — محمد

|

أبو الوليد محمد (٣٧٣ هـ)

|

(١) أبو الحَزْم جَهْوَر (رئيس قرطبة)
(١ محرم ٣٦٤ : منتصف ذي الحجة ٤٢٢ — ٦ محرم ٤٣٥ هـ)

|

(٢) أبو الوليد محمد
(٣٩١ : ٦ محرم ٤٣٥ — ٤٥٦ : شَلْطِيش ، ٤٦٢ هـ)

|

اقتسما الحكم ثم استبد به عبد الملك

(٤) عبد الملك (تولى أمر الجند) (٤٥٦ — ٢١ شعبان ٤٦٢ : ٤٧٢ هـ)

(٣) عبد الرحمن (كبيرهما) (تولى أمر الجباية)

سعى حكام عدد من هذه الدوَيلات ليضم إلى ملكه ماتحت يد غيره[1] .

استمرت حكومة قرطبة تنشر الأمن والطمأنينة لسنوات كثيرة . كانت تستند

---

(١) راجع : البيان المغرب ، ١٥٢/٣ ، ١٨١ ، ١٨٥ ، ٢١٣ — ٢١٥ ، ٣٠٧ ؛ الحلة السيراء ، ٣٠/٢ ؛ نفح الطيب ، ٢١٣/١ ، ٤٣٨ ، ٤٨٢ ؛ المعجب ، ١٠٩ ؛ الحلل السندسية ، ١٠١/٢ ، ١٠٥ ؛ دول الطوائف ، ١١٧ ، ٣٨١ .

في ذلك إلى مجلس استشاري مكوّن من خيرة الرجال . ممن خدم هذه الحكومة : مؤرخ الأندلس الكبير ابن حَيَّان القُرطبي[1] (أبو مروان حَيَّان بن خلف بن حسين بن حَيَّان بن محمد بن حَيَّان ، ٣٧٧ — ٤٦٩ هـ = ٩٨٧ — ١٠٧٦ م) والكاتب الشاعر الوزير (ذوالوزارتين) أبو الوليد ابن زيدون[2] (٣٩٤ — ٤٦٣ هـ = ١٠٠٣ — ١٠٧١ م) .

تختفي حكومة الجهاورة حين تُضم قُرطبة إلى بني عَبَّاد في إشْبِيلِيَة سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٩ م) .

هكذا وجدت في الأندلس أوضاع يحكمها أمراء ، اتصف عدد منهم — في بعض تصرفاته — بصفات الأثَرة والغدر ، هانت لديهم معه مصالح الأمة وتركت دون مصالحهم الذاتية . باعوا خلقهم (وبلادهم) للعدو المتربص ، ثمناً لبقائهم في السلطة . أصاب الأمة الضَّياع بقدر ما ضيعوا من **الخط الخلقي المسلم** . انحرف هؤلاء المسؤولون عن النهج الحنيف الذي به كانت الأندلس وحضارته . في مثل هذه الحالة تظهر العصبية والنزاعات التي تؤدي إلى التشتت والضياع « فتمخضت عن الفاقرة الكبرى ، وآلت بمن أتى بعدها إلى ماكان أعضل وأدنى ، مما طوى بساط الدنيا ، وعفّى رسمها ، وأهلك أهلها . »[3]

لكن هذه الحال لم تكن تخلو من إشراقات وَضَّاءة ، حين تلتقي عوامل الخير الأصيلة الكامنة في النفوس وتدعو الى الجهاد لمصلحة الاسلام . فتُلقي بعوامل الفرقة والآفاق الضيقة جانباً ، كما سيتبين من سرد الحوادث[4] . لو وَضع هؤلاء الأمراء المهازيل — رغم اختلافهم — مصلحة الأمة أولاً ، ووُجد بينهم نوع من العهود التي تقوم على

---

(١) الذخيرة ، ١١٨/٢/١ ؛ نفح الطيب ، ٥٦٦/١ . راجع : المقتبس ، ٤٣/٢ — ٤٥ (مقدمة المحقق) .
(٢) الذخيرة ، ٣٥٤/١/١ — ٣٥٧ (نقلا عن ابن حيان) ؛ المطرب من أشعار أهل المغرب ، ابن دحية ، ١٦٧ ؛ قلائد العقيان ، ابن خاقان ، ٧٩ (= المغرب ، ٦٣/١) ؛ إعتاب الكتاب ، ٢١٢-٢١٣ . للمؤلف بحث عن « ابن زيدون ، السفير الوسيط » ينشر في المغرب الأقصى .
(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٢٥/١/١ . انظر كذلك : البيان المغرب ، ٢٥٠/٣ .
(٤) انظر مثلاً : أدناه ، ٣٦١ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ .

المُسالَمة والتعاون ضد كل خطر خارجي ، لكان الأمر مختلفاً . لكنهم راحوا يستعينون بعدوٍّ أمَّتهِم المتربِّص — الذي يتَمنى هلاكَهم جميعاً — ضدَّ بعضهم البعض ، ولقاء دفع إتاوة وتنازل عن حصون ومدن . ولعل ما أصاب الأندلس بسوء فعالهم وسَقَم خلقهم كان أكثر مما أصيب به بقوة عدوهم . فالاستعانة بالعدو سُنَّة سيئة وجدناها تتكرر لدى آخرين من بعض الحكام .

سقطت — نتيجة لذلك ، في هذه الفترة — بعض المدن والقواعد الأندلسية بيد دولة أو دول اسبانيا النصرانية ، التي بدأ توسعها في هذا الوقت بمُهاجمة وأخذ الأراضي الإسلامية[1] . ولولا أن قيَّض الله - جلّت قدرته - للأندلس دولة إسلامية قوية ، في الشاطىء الآخر من المضيق ، في عُدْوَة المغرب تقدمت لحماية الأندلس وإنقاذها من سوء الحال ، لكانت الكارثة أكبر . تلك هي دولة المرابطين التي أعانت الأندلس في محنتها . ثم التحقت الأندلس بسلطانها سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) ، فشهدت الطوائف نهايتها .

أولاً : دُول الطوائِف والصِّراع مَع إسبَانيا النصرانية

سادت الأندلس — بعد سقوط الخلافة — حالةٌ من الارتباك والحيرة ، تبينت خيوطها السوداء بقيام دول متعددة فيه ، عُرفت بدول الطوائف (دويلات أو ملوك أو أمراء الطوائف) . هذه التسمية واضحة المدلول في وصف حالة الأندلس الذي توزعته عدة ممالك ، وإن تفاوتت قوتُها وأهميتها ومساحتها ودَوْرُها في أحداث الأندلس . كان بعضها يتربَّصُ لِيَحُوز ما بِيَد غيره من الأمراء . مثلما كانت سلطات اسبانيا النصرانية تتربص بهم جميعاً ، لاتميز حتى مَن كانت له معها صداقة أو عهد . ذلك ديدن سلطات اسبانيا النصرانية ، وقبل هذه الظروف ، يوم كانت تتمتع الأندلس بالقوة[2] ؛ فكيف الآن وقد تغير ميزان القوى في الجزيرة الأندلسية ، وغدت هذه السلطات هي الأقوى ؟

---

(١) انظر : المغرب في حلى المغرب ، ٤٧٣/٢ .

(٢) انظر : أعلاه ، ٢٧٧ .

١ - إسبانيا النصرانيّة (الشماليّة)

رأينا كيف أن مملكة ليون كانت أقوى وأكبر ممالك إسبانيا النصرانية الثلاث في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)[١] . لكن في هذه الفترة نرى الوضع يتغير ، حيث غدت نَبارَّة أكبرها ، في نهاية القرن المذكور .

توفي سنة ٣٩١ هـ (١٠٠٠ م) حاكم نَبارَّة غَرْسِيَة شَانْجُهُ الثاني (Garcia Shanches II) بن شَانْجُهُ غَرْسِيَه الثاني (Sancho Garces II) الملقب أَبَرْكَه (Abarca)[٢] . خَلَفه ابنه شَانْجُهُ غَرْسِيَه (الثالث ، الكبير) ، الذي كان متزوجاً من إلْبِيرة (Elvira) أخت غَرْسِيَه حاكم قَشْتَالَة .

اغتيل حاكم قَشْتَالَة غَرْسِيَه بن شَانْجُهُ (Garcia Sanchez) ، سنة ٤٢٠هـ (١٠٢٩ م) ، في كنيسة بمدينة ليون ، أثناء تأدية مراسيم زواجه ، من شانجا (Doña Sancha) أخت ملكها بِرَمُودُهُ (الثالث ، Vermudo III)[٣] .

عندها ورث شانْجُهُ غَرْسِيَه (الثالث ، الكبير) مُلكَ قَشْتَالَة وعيّن على عرشها ابنه فِرْدِلَند (Fernando I) ولَقّبه ملكاً ، فكان أول ملوك قَشْتَالَة . في حين تلقب شَانْجُهُ غَرْسِيَه (الثالث ، الكبير) - الذي احتل ليون - ملك اسبانيا . يشير هذا إلى اتحاد ممالك اسبانيا النصرانية في الشمال ، في عصر تنازع الطوائف وفرقتها في الأندلس . سنرى عراكاً حاداً مريراً ، تجاوزت فيه اسبانيا النصرانية حدود القسوة المتناهية .

حين تُوفي شَانْجُهُ (الثالث) سنة ٤٢٦ هـ (١٠٣٥ م) أخضع ابنه فِرْدِلَند مملكة ليون ، فتوحدت بذلك قَشْتَالَة وليون في مملكة واحدة . كان شَانْجُه قبيل وفاته قد قسّم المملكة بين أولاده الأربعة : أبقى فِرْدِلَند - أكبرهم - كما هو على

---

(١) أعلاه ، ٢٧٠ - ٢٧١ ، ٢٧٤ .

(٢) أعلاه ، ٢٧٦ ؛ تاريخ الأندلس ، ٧٥ (نص ابن الكردبوس) ؛

Historia de Espana, VI, *Espana Cristiana* 313 ff.

(٣) راجع : دول الطوائف ، ٣٢٧ ؛

Manual de historia de Espania, P. Aguado Bleye, I, 490.

حكم قَشْتَالَة ، واختص غَرْسِيَه بنَبَارَّة ، ورُدْمِير أرَغُون ، وغُنْصالُو (Gozalo) بأواسط البرتات . أدى هذا الوضع إلى قيام الحرب الأهلية بين الأخوة ، كان من نتائجها اغتيال الأخير – الذي ضمت منطقته إلى أخيه رُدْمِير – ومقتل غَرْسِيَه الذي خَلَفَة ابنُه شَانْجُهْ ملكاً على نَبَارّة .

كان لفِرْدِلَند ملك قَشْتَالَة وليون ، جَهد في مهاجمة الأراضي الأندلسية في هذه الفترة . استولى على بعض المناطق في قاصية الأندلس من الشمال الغربي سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، وحاصر مدينة بازو (Vizeu, Viseo) جنوب نهر دُوَيْرُهْ . ثبت أهلُها المسلمون ودافعوا عنها دفاعاً مجيداً ، وكان للرماة جهاد بارع في ذلك ، كما فعلوا قبل ثلاثين سنة يوم حاصرها الفنش (الخامس) ملك ليون وقتله أحد الرماة المسلمين[1] . لكن فِرْدِلَند زاد من استعداداته واقتُحمت المدينة بصورة عنيفة قتلاً وأسراً . كان بين الأسرى ذلك الرامي الماهر الذي أصاب الفونش (الخامس) . فأمر فِرْدِلَند بسمل عينيه وقطع يديه ورجليه وعُذّب حتى الوفاة . كما احتلت مناطق أخرى من مملكة بَطَلْيَوْس الخاضعة لبني الأَفْطَس . وفي سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) عاث فِرْدِلَند في الأنحاء الشمالية لمملكة طليطلة – وحكامها بنو ذي النون – وفي بعض مناطق إشبيلية ، حيث بنو عباد . وفي سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) سقطت بيده مدينة قُلُمْرِيَة (قُلُنبيرة Coimbra) ، لكن فِرْدِلَند (الأول) ملك قَشْتَالَة وليون توفي في العَام التالي (٤٥٨ هـ = ١٠٦٥م)[2] .

حكام اسبانيا النصرانية في الشمال أيام الطوائف

شَانْجُهْ غَرْسِيَه (الثاني ، أَبَرْكَه)
(٣٥٩ – ٣٨٥ هـ = ٩٧٠ – ٩٩٤ م)

غَرْسِيَه شَانْجُهْ (الثاني)
(٣٨٥ – ٣٩١ هـ = ٩٩٤ – ١٠٠٠ م)

(١) انظر : دول الطوائف ، ٣٧٧ ، ٣٨٣ ؛ *Historia de Espana,* VI *Espana Cristiana,* 320; *Manual de historia de Espana,* I, 489.

(٢) *Manual de historia,* I, 595.

شانْجُهْ غرْسيه (الثالث ، الكبير)
(٣٩١ — ٤٢٦ هـ = ١٠٠٠ — ١٠٣٥ م)
تزوج إلْبيرة ، أخت غرْسيه حاكم قَشْتالة)

غرْسيه
(حكم نبَارَّة)

شانْجُهْ
(حكم نبَارَّة)

(١) فِرْدِلند (فرناندو الأول ، أكبرهم)
(تولى حكم قَشْتالة)
(٤٢٦ — ٤٥٨ هـ = ١٠٣٥ — ١٠٦٥ م)

رُدْمير
(حكم أرَغُون)

غُنْصالُو
(أواسط البُرْتات)
(اغتيل)

(٢) شانْجُهْ (الثاني ، أكبرهم)
(حكم قَشْتالة)

(٣) الفُنْش (الفونسو السادس ، أوسطهم)
(حكم أشْتُورش وليون)
(٤٦٥ — ٥٠٢ هـ = ١٠٧٢ — ١١٠٩ م)

غرْسيه (أصغرهم)
(حكم جِلِّيقية والبُرْتُغال)

(٤) أُرّاكه + (١) الكونت رَمُنْد البَرْجُوني
(حكمت قَشْتالة وليون)
(٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م)

+ (٢) الفُونْش (الأول ، المحارب)
ملك أرَغُون وقَشْتالة فيما بعد
(٥٢٨ هـ = ١١٣٤ م)

(٥) الفُونْش السابع (السُلَيْطِين) بن الكونت رَمُنْد البَرْجُوني
(حكم جِلِّيقية تحت إشراف أمه ، ثم كذلك : قَشْتالة وليون وغيرها)
(٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م)

قسّم فردلند – قبل وفاته – المملكة بين أولاده الثلاثة . وضعَ شَانْجُهْ – ولده الكبير – بقشتالة ، والفُونْش بليون وأشْتُوريش ، وغَرْسِيَه بجلِّيقيَة والبُرْتُغال . ثارت الحرب بين الأُخوة . وجرت معارك بين شَانْجُهْ وأخيه الفُونْش (السادس ، فيما بعد) . انتصر فيها شَانْجُهْ الذي قبض على الفُونْش ، فأقام في دير ساهاجون حيث هرب منه إلى طُلَيْطُلَة ، لاجئاً عند ملكها يحيى بن اسماعيل بن ذي النون الملقب بالمأمون . رحب هذا به غاية الترحاب وبالغ في إكرامه وأنزله داراً مجاوراً لقصره ، وجعل له داراً أخرى خارج المدينة ذات حدائق ، تكون منتزهاً له ولمرافقيه.

قضى الفُونْش في منفاه بطُلَيْطُلَة تسعة شهور . دَرَس فيها أحوال المدينة ، تنفيذاً لاستيلائه عليها ، جزاءَ حسن المعاملة والمبالغة فيها ، الذي يعتبر نوعاً من الغفلة . ثمَّ إنَّ شانْجُهْ بعد أن ضم إليه ليون انتصر على غَرْسِيَه وضم إليه جِلِّيقيَة والبرتغال . لجأ غَرْسِيَه إلى إشبيلية عند بني عباد . وحينما ذهب شَانْجُه سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٢م) للاستيلاء على سَمُورَة ، التي كانت تحت إدارة أخته أُورّاكه (Urraca) ، اغتاله أحد الفرسان ، ربما بتدبير من أخته .

هنا يُسْتدعى الفُونْش – لاجئْ طُلَيْطُلَة – لتولي الحكم مكان أخيه شَانْجُهْ الذي لقبوه بالقوي لجرأته وشجاعته . فرحل عن طُلَيْطُلَة بالغبطة لما ناله ، وبالتكريم . لم يطلب المأمون منه إلاَّ الصداقة . وقطع الفُونْش له ما شاء من العهود ، ولم يكن – كما يُظهر مسلكه ، فيما بعد – ينوي الوفاء بها . أصبح الفونش ملكاً لقَشْتَالَة وليون وجلِّيقيَة[1] . هكذا أصبحت إسبانيا النصرانيّة موحدة . ثمَّ إنَّ الفُونْش قبض على أخيه غَرْسِيَه ، الذي دُعي على أساس التفاهم ، وقضى بقية عمره في السجن لمدة سبعة عشر عاماً .

٢ – سقوط طُلَيْطُلَة

لما توفي المأمون بن ذي النون (دنون) سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) خَلَفه حفيدُه الملقب بالقادر في حكم طُلَيْطُلَة[2] .

---

(١) انظر : تاريخ الأندلس ، ٧٥ – ٧٦ (نص ابن الكردبوس) ؛ البيان المغرب ، ٣/٢٣٢ .
(٢) أعمال الأعلام ، ٢/١٧٦ – ١٧٩ ؛ تاريخ الأندلس ، ٧٨ – ٧٩ (نص ابن الكردبوس) .

حكام طُلَيْطُلَة الطوائف : بنو دنون

(١) اسماعيل بن ذي النون

|

(٢) يحيى ، المأمون[١]
(قرطبة ، ١١ ذو القعدة ٤٦٧ هـ[٢])

|

اسماعيل

|

(٣) يحيى ، القادر[٣]
(حكم طُلَيْطُلَة : ٤٦٧ – ٤٧٨ هـ)
(حكم بَلَنْسِيَة حتى يوم الجمعة ٢٣ رمضان ٤٨٥ هـ)

أصبح الاستيلاء على طليطلة شغل الفُونْش (السادس) الشاغل . بدأ منذ سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٨ م) يعمل لتنفيذ هذا الأمر بالإغارة على أراضي مملكة طُلَيْطُلَة ويعيث فيها سفكاً وتخريباً وينتسف مزارعها . استمر على ذلك سنوات ، لينهك قواها ، حتى سقطت طُلَيْطُلَة في شهر محرم سنة ٤٧٨ هـ (مايس = مايو ١٠٨٥ م) ، مع اختلاف في اليوم[٤] . ينقل المَقَّري في **نفح الطيب** قول « بعض المؤرخين : أخذ الأذْفُونْش طُلَيْطُلَة من صاحبها القادر بالله بن المأمون يحيى بن ذي النون بعد أن حاصرها سبع سنين ، وكان أخذُه لها في منتصف محرم سنة ٤٧٨ هـ . »[٥]

كان إيواء طُلَيْطُلَة للأدفونش (الفونسوالسادس بن فردلند) — أيام نفيه — نِقْمة عليها وسبباً للتعجيل بسقوط المدينة ، أو البدء بشن الحرب عليها وإسقاطها . يشير إلى ذلك ابن الخطيب بقوله : « وسكناه بطُلَيْطُلَة واطلاعه على عوراتها هو

---

(١) الحلة السيراء ، ١٢٩/٢ .   (٢) الحلة ، ١٧٧/٢ ؛ أعمال الأعلام ، ١٧٨/٢ .

(٣) الحلة ، ١٧٧/٢ .

(٤) راجع : نفح الطيب ، ٤٤١/١ ، ٣٥٢/٤ – ٣٥٤ ، ٤٤٧ ؛ تاريخ الأندلس ، ٨٥ (نص ابن الكردبوس) ؛ الذخيرة ، ١٣٠/١/٤ ؛ أعمال الأعلام ، ٢٤٢/٢ – ٢٤٣ .

(٥) نفح الطيب ، ٣٥٢/٤ ، ٣٥٤ . كذلك : الذخيرة ، ١٥٨/٢ (مخطوطة المتحف العراقي) ؛ العبر ، الذهبي ، ٢٨٩/٣ .

الذي أوجب تملك النصارى بها »[1] . بل إنه فضلاً عن انتفاعه – حين إقامته في طُلَيْطُلَة – من معرفة دروبها وخططها ، تذكر بعض الروايات « أن الفونسو ، استمع ذات يوم ، وهو متظاهر بالنوم ، إلى حديث المأمون مع وزرائه ، في كيفية الدفاع عن طُلَيْطُلَة ، واحتمال مهاجمة النصارى لها ، واستيلائهم عليها ، وكيف يمكن ذلك وبأية وسيلة . وقد أجاب بعضهم أن النصاري لايستطيعون الاستيلاء على مدينة بمثل هذه الحصانة ، إلا إذا أنفقوا سبعة أعوام على الأقل ، في تخريب أحوازها وانتساف مؤنها »[2] .

العجيب أن بعض ملوك الطوائف وقفوا جامدين لا يتحركون لنجدة طُلَيْطُلَة ، وكأن الأمر لا يخصهم ، فاغرين أفواههم جبناً وغفلة وتفاهة . بل إن عدداً منهم كان يرتمي على أعتاب الفونش (أدفونش ، الفونسو السادس Alfonso VI) ، طالباً عونه أو عارضاً له الخضوع ، بذلّة تأباها النفس المسلمة . تغافلوا عن أن أدفونش لايفرّق بين طليطلة وغيرها من القواعد الأندلسية[3] . لكن العجب يزول إذا تذكرنا نزعتهم الأنانية والعصبية .

قام حاكم بَطَلْيَوْس (Badajoz) عمر بن محمد بن الأفْطَس ، الملقب بـ « المتوكل على الله » ببعضِ واجبهِ تجاه طُلَيْطُلَة في محنتها ، التي لو أدى بقية ملوك الطوائف مايجب عليهم لما لاقت هذا المصير ، ولحموها وحموا أنفسهم . كان بعضهم لاهمّ له إلا تحقيق مصلحته وإشباع أنانيته . يتصرف أحياناً وكأن الأندلس وُجدت لمنفعته وليتربع على كرسي حكم ، مهما كان قصير العمر ذليل المكان مهزوز القواعد . انتحلوا الأوصاف و« اقتسموا ألقاب الخلافة وتوزعوها لقوة استبدادهم عليها بما كانوا من قبيلها وعصبيتها ، فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها »[4] وساروا بأمتهم نحو الخراب . وقال في ذلك الشاعر أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني[5]

---

(١) أعمال الأعلام ، ٢/٣٣٠ . (٢) دول الطوائف ، عنان ، ٣٩١ .

(٣) انظر : تاريخ الأندلس ، ٨٢ (نص ابن الكردبوس) .

(٤) مقدمة ابن خلدون ، ٢/٧٥١ – ٧٥٢ .

(٥) انظر : الذخيرة ، ٤/١/١٣٤ ؛ نفح الطيب ، ١/٢١٤ ، ٤/٢٥٥ . رايات المبرزين ، ابن سعيد الأندلسي ، ١٠١ .

(٣٩٠ — ٤٦٣ هـ) أو غيره[1] :

مما يُزَهِّدُني في أرض أندلسٍ أسماءُ معتَمِدٍ فيهـا ومُعتضِدِ
ألقابُ مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صورةَ الأسدِ

وإن كان لااتفاق مع الشاعر في هذا النوع من الزهد ، فإن هذا الأمر يزهد في التخلّف عن نصرتها . فهم كما وصف آخر :

وتفرقوا شيعاً فكل محلة فيها أميرُ المؤمنين ومنبرُ

ومما وصفهم به أبو الحسن بن الجد[2]:

أرى الملوك أصابتهم بأندلسٍ دوائرُ السوء لا تُبقي ولا تذرُ

كان المتوكل بن الأفطس شهماً شجاعاً وله مواقف محمودة ، نلمس فيها النفحة الإسلامية من الغيرة والنجدة . كما كان « ملكاً عالي القدر مشهور الفضل ، مثلاً في الجلالة والسرور ، من أهل الرأي والحزم والبلاغة . وكانت مدينة بَطَلْيَوْس في مدته دار أدب وشعر ونحو وعلم . »[3]

حكام بَطَلْيَوْس الطوائف : بنو الأَفْطَس

مَسْلَمَة بن الأفطس

|

محمد

|

(١) أبو محمد عبد الله (المنصور)
٤١٣ — ١٩ جمادى الأولى ٤٣٧ هـ (١٠٢٢ — ١٠٤٥ م)

|

(٢) سيف الدولة أبو بكر محمد (المظفر) ، ٤٣٧ — ٤٦٠ هـ (١٠٤٥ — ١٠٦٧ م)

(٤) أبو محمد عمر (المتوكل على الله)	(٣) يحيى (المنصور)
٤٦٠—٤٨٧ هـ (١٠٦٧—١٠٩٤ م)	٤٥٦—٤٦٠هـ
حكم طُلَيْطُلَة سنة ٤٧٢ هـ لمدة عشرة شهور	(١٠٦٣—١٠٦٧م)

(١) وفيات الأعيان ، ٤٢٨/٤ ؛ مقدمة ابن خلدون ، ٧٥٢/٢ ؛ أعمال الأعلام ، ١٤٤/٢ .
(٢) أعمال الأعلام ، ٢٤٢/٢ . ولعل البيت السابق له كذلك ومن نفس القصيدة .
(٣) أعمال الأعلام ، ١٨٥/٢ . كذلك : الحلة السيراء ، ٩٦/٢ — ٩٨ . انظر : أدناه ، ٣٣٦ — ٣٣٧ .

لكن الطاقة كانت أقل والدفع أضعف لرد قوة الفُونْش (السادس) والقضاء على محاولته وإنقاذ المدينة . فحُوصرت المدينة وضُيق عليها الخناق حتى سقطت . وارتكبت – خلال ذلك وبعده – بها وبأهلها الأفاعيل وأنزلت الآثام . يذكر البعض أن الطابع الصليبي كان ظاهراً في هذه الأحداث ، حيث كان مع قوات قَشْتَالَة وليون جنود من أرَغُون ومتطوعون مغامرون من فرنسا وغيرها[1] .

دخل القونسو السادس طُلَيْطُلَة بعد أن أعطى أهلها الأمان ، بضمان حرياتهم واحترام شعائر دينهم وحقوقهم وحرمة مساجدهم . لكن بعد شهرين فقط نَقَض هذه العهود وحَوَّل مسجد مدينة طُلَيْطُلَة الجامع إلى كنيسة ، بقوة السلاح ، وحطم المحراب ليقام الهيكل مكانه . علماً أنه قد نص في شروط تسليم المدينة إلى الفونش بـ « أن يحتفظ المسلمون ، إلى الأبد ، بمسجدهم الجامع »[2] . بعد شهرين فقط « شرع لوقته في تغيير المسجد الجامع بها ، خاتمة النوائب ، ونكبة الشاهد والغائب . فقال له ششنند : إنك إن فعلت أوغرت الصدور ، وأبطلت التدبير ، وسكّنت من نشط ، وقبضت من انبسط ، فشمخ أدْفُونش – لعنه الله – بأنفه ، وثنى من عطفه ، وأصغى إلى طنانة جنونه وسخفه ، وأمر بتغيير المسجد الجامع يوم [ ][3] لربيع الأول سنة ثمان وسبعين وأربع مائة . وحدثني مَن شَهِد طواغيته تبتدره ، في يوم أعمى البصائر والأبصار منظره ، وليس فيه إلا الشيخ الأستاذ المغامي آخر من صدر عنه ، واعتمده في ذلك اليوم ليتزوّد منه ، وقد أطاف به مردة عفاريته ، وسرعان طواغيته ، وبين يديه أحد التلامذة يقرأ ، فكلّما قالوا له عَجِّل ، أشار هو إلى تلميذه بأن أكمل ، ثم قام ما طاش ولا تهيّب ، فسجد به واقترب ، وبكى عليه مليّاً وانتحب ، والنصارى يعظّمون شأنه ، ويهابون مكانه ، لم تمتدّ إليه يد ، ولا عرض له بمكروه أحد . »[4]

---

(١) انظر : دول الطوائف ، ٣٩٦ .

(٢) دول الطوائف ، ١١٣ . راجع : الذخيرة ، ٤/١/١٣٠ – ١٣٢ ؛ نفح الطيب ، ٤/٤٤٧ .

(٣) لم يذكر في الذخيرة اسم هذا اليوم .

(٤) الذخيرة ، ٤/١/١٣١ – ١٣٢ . كذلك : الحلل السندسية ، ١/٣٧٧ – ٣٨٠ ، ٤٢٧ – ٤٢٨ . أصلح التاريخ (سنة ٤٩٨) الوارد في الذخيرة .

سقط بيَد أدفُونْش وجيشِه بعد ذلك عدد من أعمال طُلَيْطُلَة ، غير قليل . إذ « لما حصل الطاغية الفنش ـ لعنه الله ـ بطُلَيْطُلَة ، شمخ بأنفه ، ورأى أن زمام الأندلس قد حصل في كفه ، فشن غاراته على جميع أعمالها ، حتى فاز باستخلاص جميع أقطار ابن ذي النون واستئصالها ، وذلك ثمانون منبراً سوى البُنَيَّات ، والقرى المعمورات ، وحاز من وادي الحِجَارة إلى طَلَبِيرة وفَحْص اللُّج وأعمال شَنْتَمَرِيَّة كلها »[1] .

بعد نزول النكبة بالأندلس الإسلامية بسقوط طُلَيْطُلَة وما حولها ، تَصَوّر ملك قَشْتَالَة أن أمراء الطوائف كافة غدوا رهن إشارته وطوع بنانه ، وأنه سيقضي عليهم الواحد بعد الآخر . لذلك علت مكانته بين ملوك النصرانية وتسمى بـ « الامبراطور» أو بـ « الامبراطور ذي الملّتين »[2] (الإسلامية والنصرانية) . بدأ يسعى لأخذ ما تحت أيديهم بكل وسيلة . نشر عُتُوَّه في الأرجاء دُون التزام بعهد أو صيانة لخلق أو رعاية للإنسان « وعتا الطاغية أدفونش — قصمه الله — لحين استقراره بطُلَيطُلَة واستكبر ، وأخلَّ بملوك الطوائف في الجزيرة وقصّر ، وأخذ يتجنّى ويتعتّب ، وطَفِق يتشوّف إلى انتزاع سلطانهم والفراغ من شأنهم ويتسبّب ، ورأى أنهم قد وقفوا دون مداه ، ودخلوا بأجمعهم تحت عصاه . »[3]

لكن الأمور لم تجر على هواه لما عصفت به رياح الأخوة في المغرب ، كاسحة أثمه ومطاردة جيشه . فكما يقول ابن بسّام في **الذخيرة** : « فالحمد لله مُوهِن أيْدِه ، ومُبْطِل كَيْدِه ، وجزى الله أميرَ المسلمين ، وناصرَ الدين ، أبا يعقوب يُوسف ابن تاشُفين ، أفضلَ جزاءِ المحسنين ، بما بَلّ مِن رِماق ، ونَفّسَ مِن خِناق ، ووصَل هذه الجزيرة مِنْ حَبْل ، وتَجَشَّم إلى تلبية دعائها واستنقاذ ما بها ، مِن حزَن وسَهْل ، حتى ثَلَّ عروشَ المشركين ، وظَهَرَ أمرُ الله وهم كارهون ، والحمد لله رب العالمين . »[4]

---

(١) تاريخ الأندلس ، ٨٧ (نص ابن الكردبوس) .

(٢) تاريخ الأندلس ، ٨٩ (نص ابن الكردبوس) ؛ أعمال الأعلام ، ٢/٢٣٠ ؛ دول الطوائف ، ١١٦ ؛ الاسلام في المغرب والأندلس ، ١٤٩ .

(٣) الذخيرة ، ٤/١/١٣٠ — ١٣١ . (٤) الذخيرة ، ٤/١/١٣٢ .

ثانيًا : الدّعوة إلى التوحُّد

ارتفعت – في الأندلس ، لهذا الوقت – دعوة لجمع الشمل ، كان على رأس مَن تولاّها العلاّمة القاضي الفقيه أبو الوليد الباجي[1] (٤٠٣ – ٤٧٤ هـ) ، الذي سيأتي الحديث عن جهاده لها ، وجهوده فيها[2] . عاونه في ذلك حاكم بَطَلْيُوْس عمر المتوكل (٤٦٠ – ٤٨٤ هـ) بن المظفر بن الأفْطَس . طاف أبو الوليد الباجي في مدن الأندلس وقواعده ، يحث على جمع الكلمة ووحدة الصف . كان هذا قبل سقوط طُلَيْطُلَة ، سنين عديدة استمرت بعد سقوطها مدة ، تكللت بالخير في الزَّلاَّقَة (٤٧٩ هـ) ، ثم استمر .

هذه الدعوة التي حمت ونمت ونضجت وأتت أكلها بعد سقوط طُلَيْطُلَة فكانت وقعة (معركة) الزَّلاَّقَة الفاصلة .

ثار أهل طُلَيْطُلَة سنة ٤٧٢ هـ ضد حاكمها الضعيف (القادر) وخلعوه . بقيت المدينة دون أمير ، فاستُدعي المتوكل صاحب بَطَلْيَوْس ليتولى حكمها ويقوم بواجب حمايتها ، فقَبِل ذلك مكرهاً « فدخل طُلَيْطُلَة عقب سنة اثنتين وسبعين ، وأقام عندهم نحواً من عشرة أشهر ، أضلّ مِن يدٍ في رَحِم ، وأذلّ من لحم على وضم . »[3] لكنه عاد إلى بَطَلْيَوْس حين علم باستعانة القادر بأدفونش ومقدمهما نحو طُلَيْطُلَة[4] .

أرسل أدْفُونش إلى المتوكل بن الأفْطَس حاكم بَطَلْيَوْس طالباً تسليم بعض قلاعه وحصونه وتقديم أموال معينة ، ويتوعده بشر العواقب إذا هو لم يفعل . رغم صعوبة الموقف رفض المتوكل التهديد وردّ على ملك قشتالة برسالة قوية تدل على الشجاعة والإباء . وهذا نصها :

---

(١) انظر : دول الطوائف ، ١١١ .

(٢) أدناه ، ٣٣٨ وبعدها .

(٣) الذخيرة ، ١٢٤/١/٤ . كذلك : أعمال الأعلام ، ١٨٠/٢ . أي : عاجز ضعيف .

(٤) انظر : دول الطوائف ، ١٠٨ . كذلك : أعلاه ، ٣٣٢ .

« وصل إلينا من عظيم الروم كتاب مدع في المقادير وأحكام العزيز القدير ، يرعد ويبرق ، ويجمع تارة ثمَّ يفرّق ، ويلدد بجنوده الوافرة وأحواله المتظافرة ، ولو علـِم أنّ لله جنوداً أعز بهم كلمة الإسلام وأظهر بهم دين نبينا محمد عليه السلام أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون . بالتقوى يـُعرفون وفي التوبة يتضرعون . ولئن لَمعت مِن خلف الروم بارقة فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليميز الله الخبيث من الطيبَ ويعلم المنافقين .

« أمّا تعييرك للمسلمين فيما وَهـِيَ مِن أحوالهم فبالذنوب المركوبة ، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك علمت أي مصاب أذقناك كما كانت آباؤك تتجرعه فلم تزل تذيقها من الحِمام ضروب الآلام شؤماً تراه وتسمعه وإذا المال تتورعه ، وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك أهدى ابنته إليه مع الذخائر التي كانت تفد كل عام عليه ، وأمّا نحن إن قـلّـَت أعدادنا وعدم من المخلوقين استمدادنا فما بيننا وبينك بحر نخوضه ولا صعب نروضه إلاّ السيوف تشهد بحدّها رقاب قومك وجلاد تبصره في ليلك ويومك ، وبالله تعالى وملائكته المسوّمين نتقوّى عليك ونستعين ، ليس لنا سوى الله مطلب ولا لنا إلى غيره مهرب ، وما تتربصون بنا إلاّ إحدى الحسنيين ، نصرعليكم فيالها من نعمة ومنة ، أو شهادة في سبيل الله فيا لها من جنة ، وفي الله العوض مما به هدّدت وفرج يفترّ بما مددت ويقطع فيما أعددت . »[1]

لعل المتوكل أيضاً أرسل القاضي العلاّمة الفقيه الجليل سليمان بن خلف ، شهرته أبوالوليد الباجي (بَطَلْيَوْس ، ذو القعدة ٤٠٣ — المَرِيَّة ، رجب ٤٧٤ هـ) ، إلى حواضر الأندلس ، داعياً إلى توحيد الصفوف[2] . يشير ابن الأبّار إلى ذلك في **الحلة السيراء** بقوله : « ولما عَظُم عَيْث الطاغية أذْفُونْش بن فِرْدِلَند ، وتطاول إلى الثغور ، ولم يقنع بضرائب المال انتدب للتطوّف على أولئك الرؤساء القاضي أبو الوليد الباجي ، يندبهم إلى لَمّ الشعث ومدافعة العدو ، ويطوف عليهم واحداً واحداً ، وكلـّهم يصغي إلى وعظه . »[3]

(١) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، مجهول المؤلف ، ٢٠ — ٢٣ . كذلك : دول الطوائف ، ٩٠ — ٩١ .   (٢) انظر : دول الطوائف ، ٩١ .   (٣) الحلة السيراء ، ٢/٩٨ .

وأبو الوليد الباجي فقيه كبير معروف ، له مصنفات كثيرة[1] . تولّى – في عدة مدن أندلسية ، وكذلك في المشرق الإسلامي – القضاء والتدريس[2] . إنّه أديب وشاعر . جمع شعره ابنُه أبو القاسم[3] . وأبو الوليد الباجي هو الذي ناقش ابن حزم في جزيرة ميورقة[4] ، كبرى الجزائر الشرقية (البليار) . وحين أقام الباجي في سَرَقُسْطَة أيّام حُكم المقتدر أحمد بن هود (حكمه : ٤٣٨ – ٤٧٤ هـ) تولى الرد على رسالة راهب فرنسي ، مفنِّداً فيها مزاعمه وداعياً إياه للإسلام[5] .

١ – الباجي والدعوة إلى توحيد الأندلس

في تَجَوُّل الباجي لدعوة ملوك الطوائف إلى التَّوَحُّد قضيتان بحاجة إلى عرض وبيان :

أولاهما : هل أن الباجي قام بهذه الدعوة مِن تلقاء نفسه أو بتكليف من المتوكل صاحب بَطَلْيَوْس أو من غيره ؟

ثانيتهما : متى كان ذلك وكم استغرقت هذه المهمة ؟

القضية الأولى : يُفهم – من عدد من النصوص – أن الباجي قام بهذا التطواف من تلقاء نفسه . وذلك بعد عودته من رحلته إلى المشرق الإسلامي التي استمرت ثلاثة عشر عاماً (٤٢٦ – ٤٤٠)[6] « ورجع إلى الأندلس بعد ثلاث عشرة سنة بعلم جَمٍّ حَصَّله مع الفقر والتعفف . »[7] يقول صاحب **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**

(١) نفح الطيب ، ٦٩/٢ .

(٢) ترجمته في : نفح الطيب ، ٦٧/٢ ؛ الذخيرة ، ٦٢/٢ (مخطوطة المتحف العراقي – بغداد) ؛ الصلة ، ٢٠٠/١ (رقم : ٤٥٤) ؛ المغرب ، ٤٠٤/١ ؛ المرقبة العليا ، ٩٥ ؛ بغية الملتمس ، ٣٠٢ (رقم : ٧٧٧) ؛ الديباج المذهب ، ١٢٠ ؛ ترتيب المدارك ، ٣ – ٨٠٢/٤ ؛ خريدة القصر وجريدة العصر ، العماد الأصفهاني ، ٤٩٩/٢/٤ ؛ وفيات الأعيان ، ٤٠٨/٢ ؛ العبر ، الذهبي ، ٢٨٠/٣ ؛ تاريخ الأندلس ، ١٤٦ (نص ابن الشباط) ؛ الروض المعطار ، ٣٦ .

(٣) نفح الطيب ، ٦٧/٢ ؛ ترتيب المدارك ، ٣ – ٨٠٧/٤ .

(٤) نفح الطيب ، ٦٧/٢ – ٦٨ ؛ التكملة ، ابن الأبار ، ٣٩١/١ ؛ ترتيب المدارك ، ٣ – ٨٠٥/٤ .

(٥) راجع : دول الطوائف ، ٢٨٢ . نشر النص العربي للرسالتين في مجلة « الأندلس » الاسبانية : *AL-ANDALUS*, XVII, 2 (1952), 287-310.

(٦) نفح الطيب ، ٧٦/٢ ؛ الصلة ، ٢٠١/١ ؛ ترتيب المدارك ، ٣ – ٨٠٢/٤ – ٨٠٣ ؛ الديباج المذهب ، ١٢٠ ؛ المرقبة العليا ، ٩٥ ؛ وفيات الأعيان ، ٤٠٨/٢ ؛ العبر ، الذهبي ، ٢٨٠/٣ .

(٧) نفح الطيب ، ٧١/٢ .

عن هذه المهمة بأن الباجي بعد عودته من المشرق: « لأول قدومه رفع صوته بالاحتساب ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبتّ من تلك الأسباب ، فقام مَقام مؤمن آل فرعون لو صادف أسماعاً واعية، بل نفخ في عظام ناخرة وعطف على أطلال داثرة، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب وأجزل حظه في التأنّس والتقريب وهو في الباطن يستجهل نزعته ويستثقل طلعته، وما كان أفطن الفقيه رحمه الله بأمورهم وأعلمه بتدبيرهم لكنه كان يرجو حالاً تثوب ومذنباً يتوب . »[1] يشير المَقَّري إلى هذا الأمر بقوله : « ولما قَدِم من المشرق إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر عاماً وجد ملوك الطوائف أحزاباً مفترقة ، فمشى بينهم في الصلح ، وهم يُجِلُّونه في الظاهر ، ويستثقلونه في الباطن ، ويستبردون نزعته ، ولم يفد شيئاً ، فالله تعالى يجازيه عن نيته »[2] . أما « مؤمن آل فرعون » ــ الوارد في نص ابن بسّام هذا ــ فهو الذي ذكره الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يَكتُم إيمانَه أتقتلون رجلاً أن يقولَ ربيَ الله وقد جاءَكم بالبيِّنات من ربِّكم وإن يكُ كاذباً فعلَيه كذبُه وإنْ يَكُ صادقاً يُصِبْكم بعضُ الذي يَعِدُكم إنَّ اللهَ لا يَهْدي مَن هُوَ مُسْرِفٌ كَذّاب ﴾[3]

يدل هذا على أن الباجي هو الذي ابتدر الأمر بالتطواف على ملوك الطوائف ، بجانب ما يُفهم منه أنه ابتدأ بهذه الدعوة بعد عودته من المشرق الإسلامي إلى الأندلس التي كانت سنة ٤٤٠ هـ . ولدينا إشارة واضحة بأن أبا الوليد الباجي سَفَر لأكثر مِن ملك مِن هؤلاء الطوائف إلى الآخرين منهم ، كما يذكر المَقَّرِي وغيره : « وكان لما رجع إلى الأندلس فشا علمُه ، وتهيأت الدنيا له ، وعظم جاهه ، وأُجزلت له الصِّلات ، فمات عن مال وافر ، وتَرَسَّل للملوك ، وولي القضاء بعدّة مواضع رحمه الله تعالى . »[4] ورد مثله في موضع آخر ، إذ « كان يستعمله الأعيان في تَرَسُّلهم »[5] . يذكر صاحب **الديباج المذهب** أنه «كان يستعمله الرؤساء في الرسل

(١) الذخيرة ، ابن بسام ، ٦٣/٢ (مخطوطة المتحف العراقي) .
(٢) نفح الطيب ، ٧٧/٢ .
(٣) الآية ٢٨ من سورة غافر « المؤمن » .
(٤) نفح الطيب ، ٧٢/٢ . (٥) نفح الطيب ، ٧٧/٢ .

بينهم »[1] . أورد القاضي عياض أنه : « كان يصحب الرؤساء ويرسل بينهم ويقبل جوائزهم ، وهم له على غاية البر »[2] . يفهم من هذه النصوص الأخيرة أنه كُلِّف بهذه المهمة وربما غيرها من قبل واحد أو أكثر من ملوك الطوائف . أما ما يُفهم من نص **الحلة السيراء**[3] فهو أكثر وضوحاً حيث يبادر إلى ذكر انتدلب المتوكل بن الأفطس له في هذا الأمر . انفق الباجي جُلّ أو كل وقته لخدمة الإسلام ، سواء في تدريسه الإسلام ، لاسيما الحديث الشريف ، أو التجول في دعوته إلى التوحّد الذي لم يكن يفتر عنه حتى خلال تطوافه الواسع . بل كان غرامُه في التدريس — مثل غيره من العلماء — يجعله يدرس في كل أحواله ، فلقد قال أحد أصحاب أو تلامذة **أبي الوليد الباجي** إن الباجي «كان يخرج إلينا للإقراء ، وفي يده أثر المطرقة »[4] ، أي : من عمله اليدوي الذي كان يمتهنه .

سمت بالباجي تقواه وهمتُه لهذا الواجب ، فقام بهذه الدعوة — لعله من تلقاء نفسه — منذ وقت مبكر ، ولو على أي إطار . زار أكثر من مملكة للطوائف ، يقيم في كل منها مدة ليست بالقليلة . ثم زاد نشاطه اشتدادُ حال الأندلس سوءاً منذ حادثة بَرْبَشْتْرُ(Barbastro) سنة ٤٥٦ هـ[5] . وما من شك أن هذه الحادثة أثارت الغَيارى من الناس ونبهتهم أكثر إلى الخطر الكامن وراء هذه الأحداث فحركتهم بازدياد .

من الممالك التي زارها الباجي في غربي الأندلس — بعد تجواله في شرقيها — مملكة بَطَلْيَوْس (حيث بنو الأفْطَس) ، المدينة التي ولد فيها . لعله تولى هناك بعض المهام وقام بالتدريس . غير بعيد أن دعوته لم تُوَجَّه إلى ملوك الطوائف فحسب بل كانت موجهة أيضاً إلى عموم الناس ، يدعو إلى ذلك في تدريسه وصلاته الأخرى ، وكان تولى قضاء بَطَلْيَوْس وغيرها . ارتأى المتوكل — أمام سوء الحالة — أن يرعى هذه القضية ، فَدَعَم الباجي في مجهوده وشدّ من عضُده ، فكلَّفه أو وجَّهه إلى

---

(١) الديباج المذهب ، ابن فرحون ، ١٢٠ .

(٢) ترتيب المدارك ، ٣ — ٤/٨٠٥ .

(٣) الحلة السيراء ، ٢/٩٨ (= أعلاه ، ٣٣٧) .

(٤) نفح الطيب ، ٢/٧٧ . (٥) انظر : أدناه ، ٣٥٩ وبعدها .

الجهاد ، فأخذت هذه الدعوة طريقها الرسمي بعد ذلك .

القضية الثانية : توفرت معرفة عدة مدن وقواعد أندلسية زارها الباجي ، فيذكر القاضي عياض في **ترتيب المدارك** حين ترجمته لأبي الوليد الباجي : « وكان أكثر تردد أبي الوليد بشرق الأندلس مابين سرقسطة وبلنسية ومرسية ودانية »[١] . يشير هذا أنه زار غير هذه المدن وأقام فيها ، سواء في شرقي الأندلس أو في غربيها ، لاسيما بَطَلْيَوْس . كما أنه زار جزيرة مَيُورقَة ، حيث ناقش ابن حزم هناك[٢] . ويؤخذ من بعض المعلومات والنصوص أنه أقام في بعض المدن الأندلسية مُدداً ليست قليلة ، مما قد يؤكد أن مهمته وما انتَدَب إليه نَفْسَه لم تقتصر على ملوك الطوائف بل كان يكلم عموم أهل الأندلس خلال إقرائه وتدريسه في المساجد وغيرها . لعله أقام في سَرَقُسْطَة مدة طويلة ، وربما تردَّد إليها أكثر من مرة وعمل في محافلها واتصل بحكامها كما يتضح من كتابة رسالته التي تولى فيها الرد على رسالة الراهب الفرنسي[٣] . إن أحد ابنيه (أبو القاسم خلف وأبو الحسن محمد) أبو الحسن محمد « توفي في حياة أبيه بسَرَقُسْطَة ، وكان نبيلاً ذكياً مرجوّاً ، فرثاه أبوه بمراثي شَجية »[٤] .

إلا أنه لم تتوفر معرفة كل المدن التي زارها وتاريخ ومدة تلك الزيارة أو نوع نشاطه واتصالاته أو نصوص مما خاطب به هؤلاء وأولئك أو أسلوب دعوته .

جلّ المصادر التي تَرجمت له وذكرت تُطوافه هذا ، على مدن الأندلس وقواعدها ، لم تُعَيِّن مدته أو تاريخ بدئه . لكن الظاهر أنه لم يبدأ بها توّاً بعد عودته من المشرق (نحو سنة ٤٤٠ هـ) . لايمنع هذا أنه كان مهتماً بالدعوة إلى التوحُّد في إطار محدود ؛ لم يأخذ بعد شكل المهمة الرئيسية ، التي هي العنصر البارز المهم من زياراته وتجواله في الحواضر الأندلسية . إن نص ابن بَسَّام في **ذخيرته** والمَقَّري في **نفحه** ـــ الذي يبدو

---

(١) ترتيب المدارك ، ٣ – ٨٠٣/٤ .

(٢) نفح الطيب ، ٦٨/٢ ، ٧٧ . كذلك : أعلاه ، ٢٦٥ .

(٣) أعلاه ، ٣٣٨ .

(٤) ترتيب المدارك ، ٣ – ٨٠٨/٤ .

مقتبساً من الذخيرة - يشير إلى أن الباجي ابتدأ الدعوة – أو اهتم بأمرها – بعد عودته من المشرق . يَظهر هذا التوجيه السابق مناسباً ، لأن ابن بَسَّام (٥٤٢ هـ) كان قريب العهد من هذه الأحداث ولابد أنه انتفع بشاهد عِيان ، رأى أو التقى بالباجي .

لعل الباجي تَوَلّى الدعوة إلى التوحّد مُطَوِّفاً في المدن الأندلسِية ، بعد أن تولى مهام القضاء في أكثر من مدينة واشتغل بالتدريس وعُرف مكانُه وذاع صيته العلمي . وكان خلال توليه هذه الأمور مهتماً بتلك الأحداث . بالإمكان القول إن حادثة بَرْبَشْتْرُ (٤٥٦ هـ) أَرَتْ حقيقة الحال وأوجبت الهروع للقيام بعمل . إنها كانت محرّكاً آخر قوياً لأبي الوليد الباجي وغيره . فهل على ذلك يحسن تقدير تواجد أو إقامة أبي الوليد الباجي في سَرَقُسْطَة – عاصمة مملكتها ، التي تقع فيها بَرْبَشْتْرُ – بعد هذه النكبة – من الممكن أن يكون قد تولّى الدعوة إلى الجهاد ، التي أثمرت استعادة بَرْبَشْتْرُ في السنة التالية . لعل الباجي أقام في سَرَقُسْطَة – مدة سنوات – قبل هذه الأحداث أو بعدها . لاسيما وأن مملكة سَرَقُسْطَة – التي يحكمها بنو هُود – كانت الثغر الأعلى المواجه لاسبانيا الشمالية وما يأتي من وراء البُرْت من هجومات.

جرى استقصاء – دون جدوى – لمعرفة تاريخ بَدْء تطواف الباجي ، بشكله الواضح أو الرسمي . لعدم توفر النصوص الكافية المتعلقة بهذا الموضوع المهم ، قَصُرت المعرفة عن الإحاطة به . ثم كان الاطلاع على ترجمة عبد العزيز بن عبد الله ابن هُذَيْل العَبْدَري – التي ينقلها صاحب **الحلل السندسية**[1] عن **تكملة** ابن الأبّار – التي ألقت بصيصاً على جانب من هذا الموضوع . تنص على أن ابن هُذَيْل « من أهل قلعة أيُّوب يكنى أبا يونس . يَروي عن أبي الوليد الباجي سمع منه صحيح البخاري بسَرَقُسْطَة في جيئته رسولاً إليها في رجب سنة ٣٧٠ هـ »[2] . الظاهر من هذا أن ذَهابه إلى سَرَقُسْطَة – هذه المدة – كان خلال تطوافِه الرسمي ، وجرى بعد معرفته لسَرَقُسْطَة قبلها وذَهابه وإقامته فيها قبل ذلك . ثم وجدت عبارة في **ترتيب المدارك** تُلقي ضوءاً زائداً على هذا الأمر ، أورها القاضي عياض

(١) الحلل السندسية ، شكيب أرسلان ، ٢/٩٧ .

(٢) التكملة ، ٢/٦٢٣ (رقم : ١٧٤١ ، نشر كوديرا) .

في آخر ترجمته للباجي . ينقل قول أبي علي الجياني عن الباجي بأن « مولده في ذي القعدة سنة ثلاث وأربع مئة ، وتوفي بالمَرِيَّة سنة أربع وسبعين لسبع عشرة خلَت من رجب وكان جاء إلى المَرِيَّة سفيراً بين رؤساء الأندلس يُؤلفهم على نُصرة الإسلام ، ويروم جمع كلمتهم مع جنود ملك المغرب المرابطين على ذلك ، فتوفي قبل تمام غرضه رحمه الله . »[1] يُلقي هذا النص ضياءاً على مسألة أخرى قادمة ، هي أن دعوة المرابطين لنصرة الأندلس كانت مبكرة ، سبقت سقوط طُلَيْطُلَة (٤٧٨ هـ) بعدة سنوات . إن نَصَّي ابن الأبَّار والقاضي عياض يشيران إلى أن الباجي كان سفيراً تَجَوَّل في ممالك الطوائف ، داعياً أمراءها إلى الوقوف صفاً واحداً ونَبْذ منازعاتهم وخلافاتهم التي تُودي بهم جميعاً . هو أمر لاينسجم مع الإسلام الذي يرفضه ويقرنه بالكفر . إنه يؤدي إلى الضَّياع ﴿ وأطيعوا الله ورسولَه ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحُكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾[2]

وُجد – خلال المتابعة المستمرة – أن أبا الوليد الباجي كان في بَلَنْسِيَة سنة ٤٦٨ هـ يُدَرِّس صحيح البخاري كما كان يفعل في سَرَقُسْطَة . يُشير هذا إلى أنه كان يدرس العلوم التي مهر فيها وأنه بها يُذَكِّر الناس ويدعوهم إلى التمسك وتفجير النبع الصافي في قلوبهم . كان يفعل ذلك في تدريسه أو يعمد للحديث عنه ، كلاماً يقوم على منابع الشريعة الإسلامية ، من : القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة المطهَّرة . ورد عند ابن الأبَّار – في **تكملته** ، حين ترجم أبا مروان ابن السمَّاد المُقْرِي – أنه : « من أهل بَلَنْسِيَة وصاحب الصلاة والخطبة بها بعد تغلب الروم عليها . سمع من أبي الوليد الباجي صحيح البخاري سنة ٤٦٨ هـ . »[3]

ثم كان التعرف على ما ذكره ابن الأبار حين ترجم لأبي الحسن ذَيَّال بن عبد الرحمن بن عمر الشَّريوني – من أن « له سَماع بسرقسطة من أبي الوليد الباجي ، مع أبي داود المقري وأبي محمد الركلي وغيرهما في سنة ثلاث وستين وأربع مئة . »[4]

---

(١) ترتيب المدارك ، ٣ – ٨٠٨/٤ . كذلك : كتاب الوفيات ، ابن قنفذ القسنطيني ، ٢٥٥ .
(٢) الآية ٤٦ من سورة الأنفال .
(٣) التكملة ، ٦٩٧/٢ (رقم : ١٧٧٧) . كذلك : التكملة ، ٢٩٨/١ (رقم : ٨١٣) .
(٤) التكملة ، ٣٢٠/١ (رقم : ٨٦٤) .

يتبين – ممّا سبق – أن دعوة الباجي استمرت عدة سنوات ، تجول خلالها في مدن وقواعد أندلسية كثيرة ، في مختلف جهات الأندلس[1] . كان حاملَ هذه الراية قبل أن يُكَلَّف بها رسمياً . لعل همّته وجهده ومسعاه هي التي حوّلت هذه المهمة إلى شكلها الرسمي بالنسبة له . ليس من الشطط أو البعد عن الصواب اعتبار قيامه بها منذ وقت مبكر ، يسبق سقوط طُلَيْطُلَة (٤٧٨ هـ) بعقدين من السنين أو يزيد ، وتوسّم أو نوّه بدعوة المرابطين بحوال العقد قبل هذا التاريخ . إن تحوّل اضطلاعه بهذا الأمر بشكل رسمي كان – حسب النصوص المتوفرة – ليس بعد سنة ٤٧٠ هـ ، بل قبلها . أنفق سنوات قبل ذلك بشكل تطوّعي. إن هذا التنبّه والوجهة وأخْذَ هذه المهمة استثيرت عنده ، بعد عودته من المشرق ، حين عاد ورأى سوء الحال . استمر في ذلك يشتد ويقوى . أثارته حادثة بَرْبَشْتْرُ(٤٥٦ هـ) بشكل قوي وهزته عنيفاً فقام بين مدن الأندلس وملوك الطوائف كمؤمن آل فرعون ، كما عَبَّر عنه ابن بَسَّام[2] . وما زال البحث بانتظار نصوص أخرى تجلّي هذا الأمر .

٢ – دعاة آخرون

لم يكن الباجي هو الوحيد الذي دعا إلى لَمّ الشعث . بل إن عدداً من العلماء الأعلام والحكام المسؤولين قاموا بذلك[3] .

كانت أحوال الأندلس في مثل هذه الظروف منذرة بخطر ، جعل عدداً من العلماء الأعلام أمثال الباجي وبعض حكام الطوائف كالمتوكل بن الأفطس يتخذ تنبهه هذا الشكل العملي ، دعوة بدورها جسّمت الخطر . اطّلع المتوكل على حال طُلَيْطُلَة عن قرب ، خلال حكمه لها سنة ٤٧٣ هـ ، لعشرة شهور تقريباً بدعوة من أهلها[4] . بدت هذه الأخطار بأبعادها مجسّمة أمام ناظريه . لعل الذي قدح الزناد وأبان النار المتوقعة من تحت الرماد في الإفصاح عن الخطر ماكان من أحداث وقعت

---

(١) انظر كذلك : الصلة ، ٤٢٢ (رقم : ٩٠٤) .

(٢) أعلاه ، ٣٣٨ – ٣٣٩ .

(٣) انظر : المغرب ، ٢٣٩/١ . كذلك : المرقبة العليا ، ٨٦ ؛ أعمال الأعلام ، ٢٣١/٢ .

(٤) الذخيرة ، ١٢٤/١/٤ . كذلك : الحلة السيراء ، ٩٨/٢ ؛ دول الطوائف ، ١٠٨ ؛ الحلل السندسية ، ١٩٥/٢ ؛ أعلاه ، ٣٣٦ .

على الثغور وما قام به الأدْفُونش (الفونسو السادس) من عمليات التناوش لإنهاك طُلَيْطُلَة وإضعاف مقاومتها وإهلاك محاصيلها لتخريب حصانتها[1] .

الظاهر أن هذه الأمور وأمثالها تخللت تطواف الباجي في الأندلس ودعوته لأمرائها، وأنها التي هيأت لمثل هذه الخطوة قبل سقوط طُلَيْطُلَة بربع قرن أو دونه . وتحرك غيره لمثل هذا الأمر .

أعطى عدد من العلماء والأمراء اهتمامه بهذا الأمر ، على تفاوت في همتهم وجهدهم ، سرعة ومقداراً . تردّدت استجاباتهم بالكلام المبثوث في : رسالة موجهة أو كلمة للبيان الوصفي للحال أو الحزن عليهم والشكوى منهم أو الدعوة لجمع الصف ونبذ التفرق ، وصفاً للداء وبياناً للعلاج ؛ أو يكون في دعوة عملية آخذة بالتنفيذ وبذل الجهد والمجهود . كانت دعوة الباجي مثالاً عملياً كاملاً واضحاً ، وتأييد المتوكل بن الأفطس له يأتي في المقدمة لهذه الظاهرة . وباستعراض الأحداث نجد الأمثلة المتعددة المتفاوتة .

كان أبو الحَزْم جَهْوَر بن محمد بن جَهْوَر (٣٦٤ : ٤٢٢ — ٤٣٥ هـ) أحد الأفاضل الداعين للوحدة ، منذ ملامح عصر الطوائف . سعى لها — مدة — حثيثاً ، فما أفلح ؛ فأعلن إلغاءها سنة ٤٢٢ هـ ، وتولى هو رياسة حكومة قُرطبة . تولى أبناؤه — بعده — حكمها[2] ، حتى ضمت لحكومة اشبيلية سنة ٤٦١ هـ .

بذل ابن حزم الأندلسي (٤٥٦ هـ) العالم الفقيه في هذا الأمر محاولات عدة[3]، لم تسفر عن طائل . كما وجه النقد اللاذع لملوك الطوائف لهذه الحال[4] . فعل مثله

---

(١) انظر : أعلاه ، ٣٣١ — ٣٣٢ .

(٢) عنه وعن الدولة الجهورية انظر : الذخيرة ، ١/٢/١١٤ — ١٢٦ ؛ جذوة المقتبس ، ٢٧ — ٢٩ ، ١٨٨ (رقم : ٣٥٨) ؛ الصلة ، ابن بشكوال ، ١٣١ (رقم: ٣٠٠) ، ٥٤٦ (رقم : ١١٩٥)؛ المغرب ، ١/٥٦ ، ١١٧ ؛ الحلة السيراء ، ٢/٣٠ — ٣٤ ؛ البيان المغرب ، ٣/١٨٥ — ١٨٧ ، ٢٣٢ — ٢٣٤ ، ٢٥٥ — ٢٦١ ؛ العبر ، ٤/٣٤٢ — ٣٤٤ ؛ أعمال الأعلام ، ٢/١٤٧ — ١٥١ ؛ أعلاه ، ٣٢٣ — ٣٢٤ .

(٣) انظر : أعلاه ، ٢٦٥ ؛ اندلسيات ، ١/١١٧ — ١١٨ . كذلك : طوق الحمامة ، ٨٥ — ٨٦ ، ١١٢ ، ١١٨ .

(٤) أدناه ، ٣٦٥ .

ابن حيَّان في تحليلاته حين تحدث عن الطوائف وعن نكبة بَرْبَشْتَرُ[1] (٤٥٦ هـ) ، التي بكاها بشعره الشاعر الفقيه الزاهد أبو محمد عبد الله بن العسَّال الطُلَيْطُلي (٤٨٧ هـ)[2] . شارك ابن العسَّال بشعره في الحث للانقاذ واستثارة الهمم للالتآم ، وفي إصلاح النفس وأخذها بتقوى الله وطاعته والجهاد في سبيله . ماثله قرينه الشاعر الغَرناطي أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري (٤٦٠ هـ)[3] ، الذي كان « من أهل العلم والعمل ، شاعراً مُجَوّداً ، وشعره مدوّن ، وكله في الحِكَم والمواعظ والأزهار ؛ ومسلكه سلك أبو محمد العسَّال الطُلَيْطُلي وكانا فرسي رهان في ذلك الزمان صلاحاً وعبادة . »[4] وهذا التوجُّه يصلح مناسبة للقول :

إن الدراسات الأدبية الحالية قَصُر باعُها ، وضاق مداها ، عن استيعاب هذا اللون من الإنتاج الأدبي النظيف – عمداً أو زهداً – وهو جدّ كثير في الأندلس وغيره . لكن « هذه الدراسات » نفخت في فنون جانبية سطحية ، ضخمتها ، لإعطاء صورة مشوهة للحياة . دراسة الإنتاج الأدبي الأصيل النظيف – شعره ونثره – هواليوم خصب المجال للدارسين . تجمعت خلال المتابعة منه قدر كبير من المادة العلمية الأصيلة صالح لبناء صرح منهجية جديدة ذات قواعد علمية ومقومات جدّية تقدّم نوعية قوية من الإنتاج والدراسة الواقعية على أسس منهج واضح أمين ، غير ماهو شائع ومألوف . أُعطي اسم لشعراء هذا اللون من الإنتاج النظيف « **صالح الشعراء** » . هو غزير المادة العلمية كثير النماذج واضح الطبيعة قوي المعاني رقيق العاطفة عميق الإحساس سلس الأسلوب منسجم التعبير سليم التفكير عفيف المعنى بعيد المرمى رقراق الوجه ومصداق النفس مطواع الإنشاد مكين العبارة . يرسم صورة دافقة صادقة : سواء وهي مشرقة مضيئة أو باكية بالحزن والشكوى مليئة تسعى للبناء وتدعو للصفاء في درب خيِّر أمين تحُفُّه الظلال ويغمره ﴿ من الله نور وكتاب مبين ﴾[5] . ترى اليوم بواكير

---

(١) أدناه ، ٣٦١ – ٣٦٢ ، ٣٦٤ – ٣٦٥ .

(٢) الروض المعطار ، ٤٠ – ٤١ . انظر ترجمته ؛ الصلة ، ٢٨٥ (رقم : ٦٢٩) ؛ المغرب ، ٢/٢١ .

(٣) انظر ترجمته : المغرب ، ٢/١٣٢ ؛ التكملة ، ١/١٣٦–١٣٧ (رقم : ٣٥٢) ؛ أعمال الأعلام ، ٢/٢٣١ – ٢٣٣ .

(٤) التكملة ، ١/١٣٦ . (٥) من الآية ١٥ من سورة المائدة .

إنتاج لهذا الاتجاه العلمي الرشيد ونرجو لها من الله تعالى السداد ومزيد .

كان ما سطره أبو عمر يوسف بن عبد البر[1] (قرطبة ، ٣٦٨ ــ شاطبة ، ٤٦٣ هـ) وابنه أبو محمد عبد الله (٤٥٨ هـ)[2] حول ذات النكبة[3] يقوي وينمي هذا الاتجاه .

تقلّب أبو عمر بن عبد البر في عديد من مدن الأندلس ، يُدرّس ويقرىء ويؤلف . أقرأ في بلنسية سنة ٤٥٣[4] ، وكان قد « فارق قرطبة وجال في غرب الأندلس مدة ، ثم تحوّل إلى شرق الأندلس وسكن دانِيَة من بلادها ، وبَلَنْسِيَة وشَاطِبَة ، في أوقات مختلفة . وتولى قضاء الأشْبُونَه وشَنْتَرِين في أيام ملكها المظفر بن الأفْطَس »[5] .

كان رحيله عن مدينته قُرْطُبَة « في الفتنة فكان بغرب الأندلس، ثم تحول منها إلى شرق الأندلس فتردد فيه مابين دَانِيَة وبَلَنْسِيَة وشَاطِبَة »[6] . لابد أن لقاءً تم بين الباجي وابن عبد البر الذي « ذكره القاضي أبو الوليد الباجي في كتاب الفرق ولم يكن الذي بينهما بالحسن لتجاذبهما سؤدد العلم في وقتهما . »[7] كذلك كان ابن عبد البر في بَلَنْسِيَة سنة ٤٥١ هـ[8] . لعله كذلك اهتم بالدعوة إلى جمع الشمل ، خلال تنقله وتدريسه .

توفر في الأدب ــ شعره ونثره ــ إنتاجُ النكبات هذه ، سواء الباكي لها أو الداعي للتنبيه على مواطن الخطر لأخذ الحيطة وتجنب المثيل أو استعادة ما ضمر من

---

(١) انظر ترجمته : الصلة ، ٦٧٧ (رقم : ١٥٠١) ؛ المغرب ، ٤٠٧/٢ ؛ الديباج المذهب ، ٣٥٧ ؛ ترتيب المدارك ، ٣ ــ ٨٠٨/٤ .

(٢) انظر ترجمته : الصلة ، ٢٧٩ (رقم : ٦١١) ؛ المغرب ، ٤٠٢/٢ ؛ جذوة المقتبس ، ٢٦٨ (رقم : ٥٥٦) ؛ نفح الطيب ، ٥٩٧/١ ؛ اعتاب الكتاب ، ٢٢٠ .

(٣) انظر : تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ، إحسان عباس ، ١٧٧ .

(٤) فهرسة ابن خير ، ٨٥ .

(٥) وفيات الأعيان ، ٦٧/٧ .

(٦) ترتيب المدارك ، ٣ ــ ٨٠٨/٤ .

(٧) ترتيب المدارك ، ٣ ــ ٨٠٩/٤ .

(٨) التكملة ، ١٣٧/١ .

الأوطان وسقط من الهيبة وإزالة بؤس النكبة . ممكن أن يسمى هذا النوع « رثاء المدن (أو : البلدان) أو « الرثاء البلداني » أو « الرثاء السياسي » . مرت منه أمثلة وتتلوه أخرى[١] .

من العلماء الذين خاضوا في ذلك الأديب المحدث أبو حفص عمر بن حسن الهُوَزَني (٣٩٢ – ٤٦٠ هـ)[٢] ، من أهل إشْبِيلِيَة . لَقي الهوزني – أثناء سكناه بشرقي الأندلس – أبا الوليد الباجي[٣] . هو الذي كتب إلى أبي عمرو عَبَّاد المُعْتَضِد (٤٣٣ – ٤٦١ هـ) بعد نكبة بَرْبَشْتْرُ (٤٥٦ هـ) – رسالة يحثه على الجهاد ، لكنه قتل فيما بعد بيد المعتضد نفسه[٤] .

ترجم ابن الأبَّار في **التكملة** أبا المعالي إدريس بن يحيى بن يوسف الواعظ (من أهل إشبيلية) ، قال : إنه « كان يجول في البلاد يعظ الناس ويذكرهم . »[٥] سمع منه بالمَرِيَّة أبو علي الصَّدَفي (٥١٢ هـ) سنة ٥٠٦ هـ . غير بعيد أن يكون في وعظه نصيب واضح في الدعوة إلى الالتئام . ولابدَّ أنه أنفق طويلاً في تجوله ودعوته ، إذ سُمع ينشد في مسجد رَحْبَة القاضي من بِلَنْسِيَة أبياتاً منها[٦] :

أنا في الغربةِ أبكي ما بكت عينُ غريبِ
لم أكن يوم خروجي من بلادي بمصيبِ
عجباً لي ولتركي وطناً فيه حبيبي

كان المسجد في هذا النشاط وغيره ميداناً رحباً ومجالاً مألوفاً عذباً ، قبل غيره ؛

---

(١) انظر : تاريخ الأدب الأندلسي ، ١٧٧ – ١٨٧ ؛ أدناه ، الفصل الثامن .

(٢) انظر : المغرب ، ٢٣٩/١ – ٢٤٠ ؛ نفح الطيب ، ٩٣/٢ ؛ الصلة ، ٤٠٢ (رقم : ٨٦٥) . كذلك : تاريخ الأدب الأندلسي ، ١٧٩ – ١٨٠ .

(٣) ترتيب المدارك ، ٣ – ٨٢٥/٤ .

(٤) راجع : المصدر السابق . كذلك : الحلة السيراء ، ٤١/٢ . توفر مثال آخر ، انظر : البيان المغرب ، ٢٣٩/٣ . قارن : التكملة ، ٤١٩/١ (رقم : ١١٩١) .

(٥) التكملة ، ١٩٥/١ (رقم : ٥١٩) .

(٦) التكملة ، ١٩٦/١ .

فهو محضن كل عمل خيّر ولأهله ودعاته .

الظاهر أنّ أبا بكر محمد بن أحمد بن محمد بن حسن بن إسحاق بن عبد الله بن إسحاق بن مهلب بن جعفر (نحو ٤٥٠ هـ) ، من أهل قرطبة ، تطوّع في إزالة خلافات بين ملوك الطوائف وسعى بينهم بجمع كلمتهم ، فـ « هو من بيت وزارة وجلالة . »[١] مما نال به مكانة عند ملوك الطوائف ، « وكانت له عند ملوك الأندلس في عصره حُظْوَة ومكانة يَسْفِر لأجلها بينهم في تسكين ما ينبعث لبعضهم مع بعض أيام الفتنة . »[٢] كان من تلامذة أبي بكر هذا ، الذي سلك سبيله في الوعظ والتذكير ، أبو عبد الله محمد بن سفيان بن أبي إسحاق الواعظ ، من أهل بَلَنْسِيَة . هو الذي سمع أبا المعالي ينشد أبياته السابقة في مسجد رَحْبَة القاضي . كان أبو عبد الله « يعظ بمسجده المشتهر بمسجد الغَلَبَة . »[٣] في بَلَنْسِيَة .

وذُكر عن أبي عبدالله محمد بن حسين بن محمد بن عُريب الأنصاري (بعد ٥٠٨ هـ) من أهل طُرْطُوشَة أنه « سكن سرقسطة وتجوّل كثيراً في بلاد الأندلس والعُدوة ... وكان وجيهاً عند الملوك متردداً عليهم . »[٤] فلعله قام بما يجب عليه من المساهمة في الدعوة إلى للتوحيد .

باستطاعة دارس هذا الموضوع « الدعوة إلى توحيد الأندلس أيام الطوائف » — الذي يستحق أن تكتب فيه رسالة جامعية — أن يجد كثيراً من أخبار الأحداث والأشخاص الذين عملوا في هذا الشأن . غير بعيد أن يكون أبو الوليد الوَقَّشِي[٥] (وَقَّش ، ٤٠٨ — دانِيَه ، ٤٨٩ هـ) قد شارك بهذه المهمة[٦] . الظاهر أنه كان في طُلَيْطُلَة أواسط القرن الخامس[٧] ولم يتوفر تاريخ رحيله إلى بَلَنْسِيَة ، إلاّ أنه — في خبر —

---

(١) التكملة ، ٣٩٠/١ (رقم : ١٠٩٠) . (٢) التكملة ، ٣٩٠/١ .

(٣) التكملة ، ٤١٤/١ (رقم : ١١٧٤) .

(٤) التكملة ، ٤١١/١ (رقم : ١١٦٤) .

(٥) الصلة ، ٦٥٣ (رقم : ١٤٣٧) ؛ معجم البلدان ، ٩٣٥/٤ — ٩٣٦ ؛ المطرب ، ٢٢٤ ؛ الروض المعطار ، ١٩٦ .

(٦) قارن : البيان المغرب ، ٣٩/٤ .

(٧) التكملة ، ١٣٦/١ (رقم : ٣٥١) .

كان موجوداً بها في رجب سنة ٤٧٧ هـ[١] .

وقد تكون مشاركة في هذا الميدان للفقيه الزاهد ابن أبي رَنْدَقَة أبي بكر محمد ابن الوليد الطُرْطُوشي (طُرْطُوشَة ، ٤٥١ ــ الإسكندرية ، ٥٢٠ هـ) الذي « صحب القاضي أبا الوليد الباجي رحمه الله تعالى بسَرَقُسْطَة ، وأَخذ عنه مسائل الخلاف ، وسمع منه وأجازه ، وقرأ الفرائض والحساب بوطنه ، وقرأ الأدب على أبي محمد بن حزم بمدينة إشْبِيلِيَة ، ثمَّ رحل إلى المشرق سنة ست وسبعين وأربعمائة ، ودخل بغداد والبصرة ، فتفقَّه عند أبي بكر الشاشي ، وأبي محمد الجُرْجاني ، وسمع بالبصرة من أبي علي التُّسْتَري ، وسكن الشام مدة ، ودرس بها ، وكان راضياً باليسير . »[٢] ، « وكان رحمه الله تعالى زاهداً ، متورّعاً ، متقللاً من الدنيا ، قوّالاً للحق . »[٣]

آخرون ممكن أنهم خاضوا هذا الميدان ، على أي إطار . أمثال : القاضي الفقيه أبو الوليد محمد بن أحمد بن رُشْد (٤٥٠ ــ ٥٢٠ هـ) قاضي الجماعة بقرطبة . هو ابن رشد الأكبر والجَدّ لابن رُشْد الأصغر الفيلسوف[٤] (٥٢٠ ــ ٥٩٥ هـ) . كان الجَدّ « من أهل الرياسة في العلم والبراعة والفَهْم مع الدين والفضل والوقار والحلم والسَّمْت ، والهدى الصالح . . . وكان الناس يلجأون إليه ، ويُعَوِّلُون في مهماتهم عليه وكان حَسَن الخلق ، سهل اللقاء كثير النفع لخاصته وأصحابه ، جميل العشرة لهم حافظاً لعهدهم كثيراً لبرهم . »[٥]

كذلك أبو مروان عبيد الله بن مالك الذي « كان كثير الجهاد والرباط مُذَكِّراً للعامة يقرأ عليها كتب التفسير والرقائق . »[٦]

---

(١) التكملة ، ٨٢٢/٢ (رقم : ٤٠١٠) . كذلك : التكملة ، ٤٢٣/١ ــ ٤٢٤ (رقم : ١٢٠٤) .

(٢) نفح الطيب ، ٨٨/٢ . كذلك : الصلة ، ٥٧٥/٢ (رقم : ١٢٦٩) ؛ وفيات الأعيان ، ٢٦٢/٤ .

(٣) نفح الطيب ، ٨٧/٢ .

(٤) التكملة ، ٥٥٣/٢ (رقم : ١٤٩٧) ؛ المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، أبو الحسن النباهي ، ١١١ .

(٥) الصلة ، ٥٧٦/٢ ــ ٥٧٧ . كذلك : المرقبة العليا ، ٩٨-٩٩ . قارن : المغرب ، ١٦٢/١ ؛ الذيل والتكملة ، ٢٨/١ (رقم : ١١) .

(٦) ترتيب المدارك ، ٣ ــ ٨١٤/٤ .

لكن مع هذه الأحوال وتلك الصيحات فإنّ أغلب ملوك الطوائف بقوا في غيّهم سادرين ، ففوتوا فرصة التآم أحلّت بهم مصيبة وأوقعت الكارثة فسقطت طُلَيْطُلَة ، إحدى قواعد الأندلس ومراكز القوة فيه .

لا شكّ أنّ سقوط طُلَيْطُلَة أكد مثل هذا الموقف الرهيب ، لأنه أشار إلى المخاطر المحيطة بالأندلس . الأمر لا يتوقف عند سقوط طُلَيْطُلَة ، بل هو سقوط أول حجر من الصرح ، ولا بدّ من تدارك الحال . تخوفاً من هذا المصير قال عبد الله بن فرج اليَحْصُبي المشهور بابن العَسَّال[1] :

حُثُّوا رَوَاحِلَكم يا أهلَ أندلسٍ ... فما المُقامُ بها إلاَّ مِنَ الغَلَطِ
السلكُ يُنْثَرُ مِن أطرافه وأرى ... سلكَ الجزيرةِ منثوراً مِن الوَسَطِ
مَن جاورَ الشرَّ لا يأمَنْ عَواقِبَه ... كيف الحياة مع الحيّات في سَفَطِ

لكن أليس الرحيل هو الغلط بعينه ، بل هو الجبن الشديد والأنانية ؟

لم تسقط مدينةُ طُلَيْطُلَة وحدَها – في هذه الأحداث – بل سقط أيضاً عدد من المدن والحصون حولها ، بلغت – فيما يذكر بعض المؤرخين – ثمانين منبراً ، بين مدن وقرى[2] . كان لسقوطها وقع أليم مُريع لا في الأندلس وحدَها بل في سائر أنحاء العالم الإسلامي الواحد المتوحد . كما أنها أظهرت تقصير ملوك الطوائف ومسؤوليتهم عنها ، نتيجة لسياساتهم المنحرفة . نُظِمت في سقوط طُلَيْطُلَة القصائد ، منها :

لثُكْلِكَ كيف تبتسم الثُّغُورُ ... سروراً بعد ما سُبِيَتْ ثغورُ
لَقد قُصِمَت ظهورٌ حين قالوا ... أمير الكافرينَ لــهُ ظُهُورُ
طُلَيْطُلَةٌ أَبَاحَ الكُفْرُ منها ... حِماها إنَّ ذا نَبأٌ كبيرُ
مَسَاجِدُها كنائسُ أيُّ قَلْبٍ ... على هذا يَقَرُّ ولا يَطِيرُ
فيا أسَفَاه يا أسَفَاهُ حُزناً ... يُكَرَّرُ ما تكرَّرتِ الدُّهُور

(١) نفح الطيب ، ٣٥٢/٤ ؛ رايات المبرزين ، ابن سعيد الأندلسي ، ٥٠ . كذلك : الذخيرة ، ١٥٩/٢–١٦٠ (مخطوطة المتحف العراقي) . عنه انظر : أعلاه ، ٣٤٦ .
(٢) أعلاه ، ٣٣٥ .

يَطولُ عَليّ ليلي رُبَّ خَطْبٍ يَطُولُ لهَوْله الليـلُ القَصير
وقيـلَ تجَمَّعوا لفراقِ شَمْلٍ طُلَيْطُلَـةُ تَمَلَّكَهـا الكفُورُ
ولا تجْنَحْ إلى سلمٍ وَحارِبْ عسى أنْ يُجْبَرَ العَظْمُ الكَسيرُ
ونَرْجُو أنْ يُتيحَ اللهُ نَصْراً عَلَيْهم إنَّهُ نِعْمَ النَّصِيرُ

وهي ٧٢ بيتاً أوردها المَقَّري في **نفح الطيب**[١] ، لمجهول .

يبدو أن بعض ملوك الطوائف هؤلاء كان فيهم شيء من معاني الخير — مهما هزَلت — يمكن أن تستجيب لنداء كريم وتتكاتف لدفع البلاء وتُبدي ضروباً من النَّجابة والفداء ، وقد رأينا جهد المتوكل بن الأفْطَس[٢] . كان ممن استجاب لدعوة التوحّد والالتآم وقام بها المُعتَمِدُ بن عَبَّاد أمير إشْبِيلْيَة . سنرى كيف يَقوى هذا الاتجاه ويتوّج باستدعاء المرابطين . يقف الجميع صفاً واحداً ليسطروا مأثرة الزَّلاَّقَة[٣] ، التي كانت واحدةً من النتائج السَّريعة لسُقوط طُلَيْطُلَة إحدى القواعد الأندلسية الكبرى .

على أثر استدعاء المرابطين للأندلس تتغير الأحوال . تدور معارك عديدة بين المسلمين (المرابطين والأندلسيين) وبين قوات قَشْتَالَة التي تصاب بخسائر كبيرة ، أولها معركة الزَّلاَّقَة سنة ٤٧٩هـ . آخر معركة يخوضها جيش أدْفُونْش (السادس) هي معركة أُقْلِيش . تقعُ مدينة أُقْلِيش (Ucles) شمال جبال طُلَيْطُلَة إلى الشرق ، وذلك سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) . انتصر فيها المسلمون انتصاراً عظيماً أعاد ذكريات وقعة الزَّلاَّقَة . لايفوتنا أن الأندلس دخلت — بعد الزَّلاَّقَة — سلطان المرابطين ، الذين استمروا مجاهدين في الأندلس ، حيث بدأه أميرهم يُوسُف بن تَاشُفين (٥٠٠ هـ = ١١٠٧ م) . حمله مَن جاء بعده ، مواصلين العمل من المغرب ، أو بالعبور إلى الأندلس مرات ، قصد الجهاد .

نتيجةُ معركة أُقْلِيش أثرٌ بالغ السوء لأدْفُونْش ملك قَشْتَالَة ، لَيسَ فقط

---

(١) نفح الطيب ، ٤/٤٨٣ — ٤٨٦ .
(٢) أعلاه ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ .
(٣) أدناه ، ٣٣٥ وبعدها .

للخسارة الكبيرة التي أُصيب بها جيشه ، رغم تفوقه في العدد ، لكن لمقتل ابنه الوحيد شانْجُهْ في المعركة . وهو من زوجته (أو حظيته) زائدة (أو سيدة) ، المسلمة التي تنصرت فيما يذكر . وربما أجبرت أو حملت على ذلك . وهي كَنَّة المعتمد بن عباد . إذ كانت زوجة ابنه أبي نصر الفتح المُلَقَّب بالمأمون ، حاكم قرطبة الذي قتل أثناء عمليات المرابطين لدخولها سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م)[١] . أشاع بعض كتبة التاريخ الأوربيين أنها ابنة المعتمد قدمها إلى أدْفُونْش (الفونسو السادس) خليلة ، بل تم في اتفاق علني بين الطرفين[٢] .

لم يحضر أدْفُونْش هذه المعركة ، فتأثر لهذا المصاب وتوفي في العام التالي (٥٠٢ هـ = ١١٠٩ م) ، بعد أن حكم سبعاً وثلاثين سنة .

كان أدْفُونْش (السادس) قبل وفاته — حيث لم يكن له ولد غير شانْجُهْ الذي قتل في معركة أُقْليش — قد جعل ابنته أُرّاكه (Urraca) وريثة لعرش مملكة قَشْتَالَة وليون وإشْتُوريش . وأن يجعل ابنَها الفُونْش (السابع) بن رَمُنْد[٣] (Alfonso Raimundez) ، بن الكونت المتوفى رَمُنْد البُرْجُوني الفرنسي (Raimundo de Borgoña) ، حاكم جِلِّيقيَة وتحت إشراف أمه أُرّاكه . تزوجت أُرّاكه زواجها الثاني من الفونش (الأول) ملك أرَغُون (الملقب عندهم بالمحارب) في السنة التالية لوفاة أبيها . ولما انفصلت أُراكه بنت الفونش (السادس) عن زوجها الثاني الفونش (الأول ، المحارب) ملك أرَغُون استمر هذا الملك على أرَغُون وقَشْتَالَة ، وأُرّاكه ملكة على ليون وجِلِّيقيَة . لما توفيت أُرّاكه سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) أعلن ابنُها الفُونْش بن رَمُنْد نفسَه ملكاً باسم الفونْش (السابع) على قَشْتَالَة وليون

---

(١) الحلة السيراء ، ٢/٦٢ ؛ أعمال الأعلام ، ٢/١٦٣ ؛ المغرب ، ١/٥٧ ؛ البيان المغرب ، ٤/٥٠ .
عن موضوع زائدة راجع : أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر ، أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمساني الونشريشي ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ٥/١٨٩ ؛ دول الطوائف ، ٣٤٥ — ٣٤٨ ؛ الاسلام في المغرب والأندلس ، ١٥٢ — ١٦٤ .

(٢) أنظر : *Munual de historia de Espana*, I, 604.

(٣) أدناه ، ٣٥٧ — ٣٥٨ .

والمنـاطق الأخرى التي حكمها جَده الفونْش (السادس)[1] . جرت بين الفونش (السابع) وبين ملك أرغون الفونش (المحارب) حروب حتى وفاة الأخير سنة ٥٢٨ ﻫ (١١٣٤ م) في معركة إفراغه شرق مدينة سَرَقُسْطَة[2] . حارب ملك أرَغُون الأندلس في عدة معارك .

أقرّ الفُونْش (السابع) الأوضاع في مملكته ، بدأ بحربه ضد الأندلس واشتبك مع المسلمين (الأندلسيين والمرابطين) في عدة معارك . توفي سنة ٥٥٢ ﻫ (١١٥٧م) . لُقّب الفُونْش (السابع) بالأمبرطور[3] . تسميه مصادرنا الإسلامية : أدْفُونْش ابن رَمُنْد المعروف بالسُّلَيْطِين .

ثالثاً : ذكر أهمّ دُول الطوائِف وَالحَديث عَن بَعضها

قامت في هـذه الفترة في الأندلس عدة دُوَيلات تفاوتت في المساحة والقوة ، كما تفاوتت أعمارها . توزعت الأندلس وحكم كل منها — في الأغلب — أسرة ما ، يتوارثها أبناؤها . يستعينون بغيرهم — أحياناً — أو يكون هناك مجلس شورى .

لكل حاكم وزراؤه وكُتّابُه وقضاتُه وقوادُه ورجال مملكته وعصبتُه . كان للعصبية ـ في هذه الفترة ـ آثار مُشينة . لكل مملكة عاصمة ، هي إحدى القواعد الأندلسية . تتبعها مناطق أخرى حولها من المدن والقرى والحصون . ترددت حدود عدد منها بين مد وجزر ، سواء في نزاعها فيما بينها أو مع اسبانيا النصرانية . والضعيفة منها ـ أحياناً ـ تحتويهـا القوية . خضعت دويلات (أو إمارات) : البكريين في وَلْبَة (Huelva) وشَلْطِيش (Saltes) والعامريين في مُرْسِيَه (Murcia) وبني مُزَيْن في باجَه (Beja) وشِلْب (Silves) لبني عبَّاد حكام مملكة إشْبيليَة في غربي الأندلس[4].

قد تتوالى أسرتان لحكم إمارة واحدة بعد إخضاع التالية لسابقتها ، كما حدث لمملكة بلنسية التي حكمها بنو ذي النون بعدَ العامريين . وقد يتولى شخصٌ ما

(١) عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، محمد عبد الله عنان ، ١/٤٧٨ وبعدها .

(٢) انظر : الروض المعطار ، ٢٤ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١/١٢٠ — ١٢٦ .

(٣) *Manual de historia de Espana,* I, 635.

(٤) الحلة السيراء ، ٢/١٨١ — ١٨٢ .

السلطة لفشل آخر في المهمة ، كما حدث لابن حَجَّاف في بَلَنْسِيَة . وحيناً يَخلع الناس الحاكم ويُستدعى غيره ، كما حدث لطُلَيْطُلَة حين خُلع القادر واستدعى أعيانُها المتوكل بن الأفْطَس صاحب بَطَلْيَوْس[1] . بل حدث أن تنازع بعضهم وترك الإمارة – أمام المضايقات – لغيره ، كما فعل عبد العزيز البكري (والد الجغرافي أبي عبيد البكري صاحب كتاب **المسالك والممالك**) ، حاكم إمارة وَلْبَه وجزيرة شَلْطِيش ، حيث تخلى عن حكمها إلى المُعْتَضِد بن عَبَّاد نتيجة للضغط الذي واجهه . ومنهم مَن كان يحاول الإصلاح بين المتنازعين ويأوي اللاجىء ، كأبي الوليد محمد بن جَهْوَر حاكم إمارة قُرطبة « سادّ الخَلَّة ومأوى الطريد . » ، كما عبر عنه ابن حَيَّان[2] . وإلى أبي الوليد بن جهور لجأ عبد العزيز البكري وآخرون . وكان أبوه أبو الحَزْم جهور سابقاً للابن في هذه الهمة[3] .

لم تقم هذه الدويلات في وقت واحد ، وأن نهايات التي استمر منها ، على يد المرابطين ، كانت متفاوتة وإن تقاربت .

هذه بعض دويلات أو ممالك الطوائف المهمة ، هي :

١ – مملكة سَرَقُسْطَة ، الثغر الأعلى : بنو هُود .
٢ – إمارة قُرْطُبَة ، وسط الأندلس : بنو جَهْوَر .
٣ – مملكة طُلَيْطُلَة ، الثغر الأوسط : بنو ذي النون (دنّون = ذنّون) .
٤ – مملكة بَطَلْيَوْس ، الثغر الأدنى : بنو الأفْطَس .
٥ – مملكة إشْبِيلِيَة ، غربي الأندلس : بنو عَبَّاد .
٦ – مملكة بَلَنْسِيَة ، شرقي الأندلس : تداولها عدد .
٧ – مملكة غَرْنَاطة ، جنوبي الأندلس : بنو زيري .

يتناول الحديث ثلاث ممالك ، هي : سَرَقُسْطَة وبَلَنْسِيَة وإشْبِيلِيَة .

١ – مملكة سَرَقُسْطَة

كانت هذه المملكة من أعظم ممالك الطوائف ، من حيث سَعَةُ رُقعتها وموقعها

---

(١) أعلاه ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ . (٢) الحلة ، ١٨١/٢ . (٣) انظر : أعلاه ، ٣٢٣ – ٣٢٥ .

بين دول اسبانيا النصرانية في الشمال ، وعُرفت بولاية الثغر الأعلى ، وعاصمتها مدينة سَرَقُسْطَة التي بقيت عاصمة المملكة أيضاً .

حكمت بقية أسرة بني تُجيب هذه المملكة ، لدى أول وقوع الفتنة المؤدية إلى قيام الطوائف ، ثم انتقل الأمر إلى أسرة بني هُود ، وأولهم أبو أيوب سليمان بن محمد بن هُود الجُذامي الملقَّب المُستعين بالله (٤٣١ — ٤٣٨ هـ = ١٠٣١ م — ١٠٤٦ م)[1] .

قسَّم المستعين المملكة ـ قبل وفاته ـ بين أبنائه الخمسة ، وسبَّب هذا التصرف السيء قيام صراع بين بعض الأخوة . وكان أشدهم طموحاً أبو جعفر أحمد الملقب المُقْتَدِر بالله ، الذي استطاع بوسائله الغاشمة أن يحقق الكثير مما أراد .

وقعت أيام المقتدر مأساة مدينة بَرْبَشْتْرُ (Barbastro) — الآتي ذكرها — سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) . وتوفي المقتدر سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) ، بعد أن حكم خمساً وثلاثين سنة ، وقسم المملكة بين ولديـــــه : أبو عامر يوسف الملقب المُؤْتَمَن وأخيه المنذر . وجرت بين الأخوين أحداث وحروب ، استعان كل منهما بملوك اسبانيا النصرانية ، لقاء مايَدفع لهم من أموال أو تقدم من حصون أو يعطون من الامتيازات . وواضح مايحدثه ذلك في النهاية من إضعاف الجبهة الإسلامية . فذا أمر مهم تسعى إليه ساطات اسبانيا النصرانية حثيثاً ، فكيف به يتحقق دون بذل بل يبذل له ؟ فأي تغافل هذا ، أم أي هبوط ؟

حارب لُذْرِيق (رُذْرِيق = رُدْرِيق) ، القَمْبِيطور (الكنبيطور) ، المغامر القَشْتَالي — سيذكر في أحداث بَلَنْسِيَة — إلى جانب المؤتمن ، الذي توفي سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، بعد حكم أربعة أعوام . ثم خلَفه ابنُه أبوجعفر أحمد الملقب المستعين بالله (المستعين الأصغر) .

حاول أذْفُونْش — (الفونسوالسادس) بن فِرْدِلَند ، حفيد حاكم نَبَارَّة شَانْجُهْ غَرْسِيَة (الثالث ، ٤٢٧ هـ) ، الملقب عندهم بالكبير[2] — بعد سقوط

(١) انظر : الحلة السيراء ، ٢/٢٤٥ .

(٢) انظر : أعلاه ، ٢٧٦ ،

طُلَيْطُلَة ، الاستيلاء على سَرَقُسْطَة ، فحاصرها ، ولم ينقذها غير عبور المرابطين إلى الأندلس ، في السنة التالية (٤٧٩ هـ) ، لشهود وقعة الزّلاّقة ، سوية مع أهل الأندلس ، الأمر الذي جعل أذفُونْش يفك حصاره لسَرَقُسْطَة ، كيما يعد عدته لملاقاة المرابطين .

جرت لهذا المستعين أحداث ، آخرها معركة شديدة ـ بينه وبين قوات الرَّنْك البرتغالي (Enrique de Borgoña) وقوات أذفُونْش بن رُذْمير (الفونسو الأول ابن راميرو) ملك أرَغُون الملقب بالمحارب (El Batallador) ـ قرب تُطِيلَة (Tudela) عند بَلْتيرَّة (Valtierra) ، في يوم الاثنين أول رجب سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) ، واستُشهد فيها المستعين[١] . وخلفه ابنه أبو مروان عبد الملك الملقب عماد الدولة ، ثم خضعت سَرَقُسْطَة للمرابطين حوالي هذا التاريخ وفي نفس السنة .

مملكة سَرَقُسْطَة آخر دولة من دول الطوائف تدخل طاعة المرابطين ، أواخر سنة ٥٠٣ هـ ، وترتبط بتاريخهم . يرتحل عندها عبد الملك ليلتحق مستقراً في حِصْن رُوطَة (Rueda de Jalon) ، أو رُوطة اليهود كما يسميها ابن الأبَّار[٢] ، أحد معاقل سَرَقُسْطَة المنيعة على نهر شَلُون (Jalon) أحد فروع نهر إبْرُه الجنوبية . لكن سَرَقُسْطَة تسقط بيد ابن رُذْمير ملك أرَغُون سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) ، إذ « جرت قصص طويلة أفضت إلى تغلب الروم على سَرَقُسْطَة في يوم الأربعاء الرابع من شهر رمضان سنة اثنتي عشرة . »[٣] .

عند وفاة عماد الدولة ، في شعبان سنة ٥٢٤ هـ[٤] ، خَلَفه ابنه أبو جعفر أحمد الملقب سيف الدولة والمستنصر بالله والمستعين بالله ، آخر حكام بني هُود فيها . ولمّا لم يستطع الاحتفاظ برُوطَة سلمها إلى ملك قَشْتالة « فأقام برُوطة إلى أن تخلى عنها للطاغية أذفونْش

(١) تاريخ الأندلس ، ١١٧ (نص ابن الكردبوس) ؛ البيان المغرب ، ٥٣/٤ ، ٥٥ . كذلك : الحلة السيراء ، ٢٤٨/٢ ؛ أعمال الأعلام ، ١٧٤/٢ .

(٢) الحلة ، ٢٤٦/٢ . كذلك : الإحاطة ، ٤٠٥/٢ .

(٣) الحلة ، ٢٤٨/٢ . راجع : دول الطوائف ، ٢٨٤ وبعدها .

(٤) الحلة السيراء ، ٢٤٩/٢ ؛ المغرب في حلى المغرب ، ٤٣٨/٢ .

ابن رَمُنْد المعروف بالسُّلَيْطِين »[1] . فعوضه عنها أملاكاً ، في تُطيلَة[2] أو طُلَيْطُلَة[3] ، سنة ٥٢٩ هـ[4] أو سنة ٥٣٤ هـ[5] ، وبقي في حمايته . لكنه قتل سنة ٥٤٠ هـ[6] ، في معركة شديدة قادها سيف الدولة وغيره في جيوش أندلسية ضد جيوش قَشْتَالَة النصرانية في موضع يعرف باللُّجّ والبسيط (Albacete) قرب جِنْجالة (Chinchilla de Monte de Aragon) في شرقي الأندلس عند « بلنسية في اتّباع الروم المغيرين على نواحيها أصحاب الطاغية أذْفُونْش ، فاستُشهد ابن هود وابن سعد لما التقى الجمعان، ونجا ابن عياض . وكانت هذه الوقيعة الكبرى على المسلمين بالموضع المعروف باللُّجّ وبالبَسيط – على مقربة من جِنْجالة – يوم الجمعة الموفي عشرين لشعبان من سنة أربعين ، وقيل يوم السبت بعده . »[7] .

قائمة نسب بني هُود حكام سَرَقُسْطَة

(١) أبو أيوب سليمان بن محمد بن هُود الجُذامي المستعين بالله (المستعين الأكبر)
(٤٣١ – ٤٣٨ هـ)

(٢) أبو جعفر أحمد ، المُقْتَدِر بالله (٤٣٨–٤٧٤ هـ) استرجع مدينة بَرْبَشْتْرُ سنة ٤٥٧ هـ

أبو عامر يوسف المظفر حسام الدولة (حكم مَارِدَة وبَرْبَشْتْرُ، مدة)

(٣) أبو عامر يوسف ، المُؤْتَمَن (٤٧٤–٤٧٨ هـ)

المنذر

---

(١) الحلة ، ٢٤٩/٢ . كذلك : أعمال الاعلام ، ١٧٦/٢ . عن السليطين ، انظر : أعلاه ، ٣٢٩ ، ٣٥٣ – ٣٥٤ .
(٢) أعمال الأعلام ، ١٧٦/٢ . قارن : تاريخ الأندلس ، ١٢١ (نص ابن الكردبوس) .
(٣) الحلة ، ٢٤٩/٢ – ٢٥٠ ؛ العبر ، ٣٥٢/٤ ؛ نفح الطيب ، ٤٤١/١ .
(٤) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، ٣٣/١١ . (٥) الحلة ، ٢٥٠/٢ .
(٦) المغرب ، ٤٣٨/٢ ؛ تاريخ الأندلس ، ١٢٠ (نص ابن الكردبوس) ؛ أعمال الأعلام ١٧٦/٢ . كذلك : نظم الجمان ، ابن القطان ، ٢٠٠/٦ .
(٧) الحلة ، ٢٥١/٢ – ٢٥٢ . كذلك : الحلة ، ٢٢٣/٢ ؛ بغية الملتمس ، الضبي ، ٤٣ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٣٦١/١ .

(٤) أبو جعفر أحمد ، المستعين بالله (المستعين الأصغر)
(٤٧٨ – ٥٠٣ هـ) استُشهد قرب تُطيلَة ، رجب ٥٠٣ هـ

(٥) أبو مروان عبد الملك ، عماد الدولة
انتقل إلى رُوطَة سنة ٥٠٣ هـ ، توفي ٥٢٤ هـ

أبو جعفر أحمد ، سيف الدولة والمستنصر بالله والمستعين بالله
آخر حكام بني هُود ، قتل سنة ٥٤٠ هـ

المأساة البَرْبَشْتْرِيَّة

بَرْبَشْتْرُ (Barbastro) إحدى مدن الثغر الأعلى ، تقع على بعد ٦٠ كم شمال شرق سَرَقُسْطَة . واحدة من القواعد الأندلسية المنيعة ، من أعمال كُورَة بَرْبَطَانِيَة[1] ، وحيث اعتبرها ابن حيان مدينتها « وفي سنة ست وخمسين وأربع مئة تغلب العدو على مدينة بَرْبَشْتْرُ قصبة بلد بَرْبَطَانِيَة الواسط مما بين بلَدَيْ لارِدَة وسَرَقُسْطَة ركني الثغور العليا »[2]. ثم كانت من مدن مملكة سَرَقُسْطَة الطوائف ، حكمها بنو هُود أيام الطوائف . غدت من أعمال أبي عامر يوسف حسام الدولة الملقب المظفر ، الذي شارك أخاه أبا جعفر أحمد المقتدر بالله (٤٣٨ – ٤٧٤ هـ) . حكم المقتدر ، إمارة سَرَقُسْطَة ، بعد وفاة أبيهما أبي أيوب سليمان المستعين بالله (٤٣١ – ٤٣٨ هـ) ، المستعين الأكبر .

وقوع المأساة : حلَّت مدينةَ بَرْبَشْتْرُ – أيام يوسف المظفر – نكبةٌ اهتزت لها الأندلس ، اعتبرت من أشد وأفظع ماحدث فيها ، لما ارتكبت معها من أعمال وحشية مبيرة وجرائم مذهلة مثيرة ولم ينجدها المظفر ولا أخوه المقتدر. هذه الحادثة مهاجمة النورمانيين أو النورمانديين للمدينة وفتكهم بأهلها . اتصفت هذه الحملة

(١) عنها راجع : أعلاه ، ٢٤٨ – ٢٥٠ .

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (مخطوطة) ، ابن بسام الشنتريني ، ٩٦/٣ . اصلحت « برطانية » في النص إلى « بربطانية » .

بطابعها الصليبي ، فأعظمت في المسلمين النكاية .

احتلت جماعة من النورمان الوثنيين ، الذين دخلوا النصرانية ، منطقة في شمالي غربي فرنسا ، سكنوها في بداية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) . حملت اسمهم (نورماندي Normandie, Normandia, Normandy) حصلوا عليها من شارل (الثالث) الملقب البسيط أو الأبله (Charles, III, le Simple : ٢٨٠ — ٣١١ هـ = ٨٩٣ — ٩٢٣ م) بعد حروب ومفاوضات سنة ٢٩٩ هـ (٩١١ م)[١] . وقائد هذه الحملة جيوم دى مونرى (Guillaume de Montreuil) « من أكابر فرسان عصره ، وقد وفد قبل ذلك على إيطاليا في أواسط القرن الحادي عشر [الخامس الهجري] ، وخدم الكرسي الرسولي حتى أصبح قائد الجيوش الرومانية والبابوية . »[٢] لدينا بعض المصادر - منها الأوربية - تؤيد أن البابا اسكندر الثاني (Alexander II) هو الذي أشار على النورمان بحرب المسلمين في الأندلس[٣] .

احتشدت القوات في ولاية نورماندى لهذا الغرض ، مكونة من النورمانديين وجموع كبيرة من الفرنسيين بقيادة جيوم المذكور أو روبرت كرسبن (Robert Crespin) . تسمي الرواية الإسلامية قائد الحملة بأسماء : « البيطبين » و« البيطين» و « البيطش »[٤] أو « قائد حملة رومة » كبيرهم ، في وصف ابن حيان القادم . سارت الحملة الى جنوبي فرنسا ، متجهة نحو الأندلس . حاصروا أولاً مدينة وَشْقَة ، إحدى مدن مملكة سَرَقُسْطَة والثغر الأعلى ، ولما فشلوا في اقتحامها تركوها متوجهين إلى مدينة بَرْبَشْتُرُ ، من القواعد الأندلسية المنيعة ، فحاصروها سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) ، لعله في شهر جمادى الآخرة منها . ويُقدَّر عدد أفراد هذه

---

(١) راجع : أوربا العصور الوسطى ، ٣٣٠/١ — ٣٣١ ؛ الحلة السيراء ، ٢٤٧/٢ (الحاشية) .

(٢) دول الطوائف ، ٢٧٤ .

(٣) راجع : تاريخ الأندلس ، ٦٩ — ٧١ (نص ابن الكردبوس) ؛
Los Mozarabes, I. de las Cagigas, II, 453.

(٤) جغرافية الأندلس وأوربا ، ٩٣ ؛ تاريخ الأندلس ، ٦٩ (نص ابن الكردبوس) ؛ الروض المعطار ، ٤٠ .

الحملة بأربعين ألفاً أو يزيدون ، واستمر الحصار أربعين يوماً وجرت معارك عديدة خارج المدينة . لما قلّت الأقوات واشتد الضيق بالمدينة استطاع النورمانديون ــ بعد قتال عنيف ــ اقتحام المدينة الخارجية . وجرت معارك أخرى وتحصّن المسلمون بالقصبة والمدينة الداخلية ، مصممين على الثبات حتى آخر رمق . لكن حدث أن تعرض المهاجمون إلى مكان مجرى الماء الأرضي ــ أو دلّهم عليه خائن ــ فقطعوه ، واشتد بالمدافعين العطش ، فعرضوا على النورمانديين التسليم بشروط ، فرفضوا . ثم دخلوا المدينة ، ربما في شهر شعبان من العام عَنْوة ، واستباحوا المدينة الباسلة بكل ما فيها ومن فيها ، وقُدِّر عدد القتلى والأسرى بين أربعين ومئة ألف ! ثم أعطى قائد الحملة الأمان ، لكنه ــ حين رأى كثرة أهل المدينة ــ أمر جنده أن تقلل أعدادهم ، حصاداً بالسيف . فأطيح أرضاً بستة آلاف من الرؤوس !؟ ثم إنهم انتهبوا المدينة واحتلوا دورها لأنفسهم وارتكبوا أبشع الجرائم قتلاً وهتكاً للأعراض . وكان الخطب « أعظم من أن يُوصف أو يُتقصى . » كما يقول ابن حَيَّان[1] .

استرجاع بَرْبَشْتُرُ : كان لهذه النكبة أثر كبير وصدى عميق ، في أنحاء الأندلس كافة . قام تيار الدعوة إلى الجهاد في أنحاء البلاد الأندلسية واهتزلها الأمراء . والمقتدر بن هود ــ الذي يتحمل الكثير من وزرها ــ في مقدمتهم . ولبى الدعوة كثير ، وسار المتطوعون من الجهات إلى الثغر ، جهاداً في سبيل الله تعالى . فأشرقت النفوس بمعاني الإسلام حين استثيرت ، وعلت الهمم حين تنادت بدعوة الإسلام ، فاستجابت لندائه الخالد : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وهُتافه الماجد « الله أكبر » . وقامت الأمة المُسلمة في وحْدتها الإيمانيَّة تسير برسالتها السماويَّة ، تستظل معاني الإسلام تستمدُّها من كتاب الله تعالى : القُرآن الكريم ؛ ومن سُنَّة رسوله الأمين ﷺ ، قائدها وإمامها أبد الآبدين ، متجهين إلى الله وحده . حين استثيرت النفوس بهذه المعاني وساد الجوّ هذه الدعوة استجابت بقوة أزرت بكثرة النورمان المعتدين فردتهم على أعقابهم يبحثون عن نجاتهم .

---

(١) الذخيرة (مخطوطة) ، ٣/٩٨ .

يذكر ابن عذاري في **البيان المغرب** أن عدد المجاهدين بلغ ستة آلاف[1]، حاصروا مدينة بَرْبَشْتْرُ ونجحوا في اقتحامها وجرت معركة شديدة مزّق فيها المعتدون. وتم استرداد بَرْبَشْتْرُ في جمادى الأولى سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥م)، بعد أن دام احتلالها والعيث فيها وإنهاكها تسعة شهور[2]. وعلى أثر هذا الانتصار تَسَمَّى أحمد بن هود « المقتدر بالله ».

تقدم مصادرنا التاريخية شروحاً مفصلة حول هذه الحادثة بمراحلها المختلفة، لاسيما ابن حيان (٤٦٩ هـ = ١٠٧٦ م) المؤرخ المعاصر لها، حيث كان يقيم في قرطبة. سجلها — بعد استقصاء — بما فاضت به قريحته الخصبة في تحليلاته ونظراته الثاقبة — خلال عرضه — بأسلوبه الرصين لتضاعيف مجرايات هذه النكبة وما أسفرت عنه — فيما بعد — من نصر الله المبين.

هاهي بعض ما حُفظ من كتابات المؤرخين في دواوينهم أو نقولات عنهم حول المأساة البَرْبَشْتْرِيَّة :

« وقد غزاها، على غرة وقلة عدد من أهلها وعُدة، أهلُ غاليش والروذمانيون. وكان عليهم رئيس يسمى البَيْطَبِين، وكان في عسكره نحو أربعين ألف فارس، فحصرها أربعين يوماً حتى افتتحها وذلك سنة ست وخمسين وأربع مئة، فقتلوا عامة رجالها وسَبَوْا فيها من ذراري المسلمين ونسائهم ما لا يحصى كثرة. »[3]

يفصّل ذلك ابن حَيَّان، فيما ينقله عنه ابن بَسَّام في **ذخيرته**، فيقول :

« إن جيش الأُرْدُمانين طلبوا عليها ووالوا حصرها وجدّوا في قتالها طامعين فيها، وقد أسلمهم أميرهم يوسف بن سليمان بن هود لخطبهم ووكلهم إلى أنفسهم وقعد عن النفير نحوهم، فأقام عليها العدو منازلاً لأربعين يوماً، ووقع بين أهلها تنازع على القوت لقلته، ولما علم العدو بذلك جدّ في القتال فدخل الكفرة المدينة البرانية في

(١) البيان المغرب، ٣/٢٢٧. كذلك : أعمال الأعلام، ٢/١٧١.

(٢) جغرافية الأندلس وأوربا، أبو عبيد البكري، ٩٥ ؛ الروض المعطار، ٤١.

(٣) جغرافية الأندلس وأوربا، ٩٢ — ٩٤. كذلك : الروض المعطار، ٤٠. غاليش : غالة، جنوبي فرنسا. الروذمانيون : النورمانديون.

نحو خمسة آلاف دارع ، فبهت الناس وتحصنوا بمدينتهم الداخلة ودارت بينهم حرب شديدة قُتل فيها من النصارى خمس مئة ، ثم اتفق ـ من قدر الله ـ أن قناة من عمل الأوائل سربا تحت الأرض بتقدير موزون إلى أن أفضت إلى شط النهر فانهارت في نفس ذلك السرب صخرة عظيمة الجرم من حجارة بناية الأول سدت السرب بأسره ، فعدموا الماء وآيسوا من الحياة ودعوا إلى تأمينهم على النزول بأنفسهم خاصة دون مال وعيال ، فأعطاهم أعداء الله ذلك ، فلما خرجوا نكثوا بهم وقتلوا معاً ، ولم يطلقوا منهم غير قائدهم ابن الطويل وقاضيهم ابن عيسى في نفر من الوجوه قليل عديدهم . فحصلوا من غنائم بَرْبَشْتْرُ على مالا يقدر كثرة زعموا أنه صار لأكبر رؤسائهم قائد خيل رومة في حصته نحو ألفاً وخمس مئة جارية أبكاراً كلهن ، ومن أوقار الأمتعة من الحلي والكسوة والوطاء خمس مئة حمل ، ويحدث أيضاً أنه أصيب في هذا القتل والسبي مئة ألف نَسَمة . وشد الكفار أيدهم بمدينة بَرْبَشْتْرُ واستوطنوها وهلك من نساء بَرْبَشْتْرُ جملة يكثر عدها عند إفلاتهن من عطش القصبة لتطارحهن على الماء يكرعن فيه بغير مهل ، فكبهم للأذقان موتى ، وكان الخطب في هذه النازلة أعظم من أن يوصف أو يُتقصى . »[1] ثم يذكر ابن حيَّان كيف أخذ النورمان الناس بالقتل حصداً ، بعد إعطائهم الأمان لهم عهداً ، فيقول :

« ولما بَرزَ جميع من بَقي من أهل المدينة عنها إلى فِناء بابها بعد مَن خَفَّف منهم بالقتل وهلك في الزحمة ؛ ظلوا قياماً ذاهلين منتظرين لنزول القضاء بهم ، نودي فيهم بأن يرجع كل ذي دار منهم إلى داره ووطنه بأهله وولده ، وأزعجوا لذلك فنالهم من الازدحام قريباً مما نالهم في خروجهم عنها ، فلما استقروا فيها اقتسمهم المشركون بأمر سلطانهم قسمة قرّروها بينهم . فكل مَن صارت في حصته دار حازها وحاز مافيها من أهل وولد ومال ، يحكم كل علج منهم فيمن سُلِّط عليه من أرباب الدور بحسب مايبتليه الله به ، يأخذ كلما أظهره عليه من نَشَب ، ويقرره على ما أخفاه عنه ، يعذبه أنواعاً من العذاب حتى يبلغ نفسه عذرها فيه ، فربما زَهَقت نفس المسلم

---

(١) الذخيرة (مخطوطة) ، ٣/٩٧ – ٩٨ (نقلا عن ابن حيان) . كذلك : نفح الطيب ، ٤/٤٤٩ – ٤٥٠ ؛ البيان المغرب ، ٣/٢٢٥ – ٢٢٦ .

دون ذلك فاستراح ، وربما أنظره أجَلُه إلى أسوأ من ذلك ، فإن عداة الله كانوا يومئذ يتولعون بهتك حُرم أسرارهم وبنيهم بحضرتهم وعلى أعينهم إبلاغاً في تعذيب قلوبهم ، يَغْشون الثيب ويفتضون البكر ، وزوج تلك وأبو هذه موثق بقيد أسره ناظر إلى محنته ، عينه بعينه ، فعينه تدمع ونفسه تُقطع ، ومَن لم يرض ذلك منهم أن يفعله في خادم أو ماهنته أو وخش أعطاهن خوله وغلمانه يعبثون بهم ، فبلغ الكفرة فيهم مالا تلحقه الصفة على الحقيقة : ولما كان ثلاثة أيام من استيلاء الكفرة عليهم نهدوا لمن كان بقيت من المتحصنين بذروة القصبة وأحاطوا بهم فنزلوا على أمان ، وقد شهمت وجوههم وتغيرت خِلَقُهم من عبث العطش ، فتخفى الكفرة عنهم وخرجوا يريدون مدينة مُنْتُشون أقرب مدن الاسلام إليهم ، فقضى أن لقوا سَرية من خيل النصارى لم يشهدوا فتح بَرْبَشْتُرُ ولا علموا خبر هؤلاء المسرحين المكروبين ، فقتلوهم جملة إلا مَن نجا به أجله منهم وقليل ما هم ، فمضوا على هذه السبيل تماماً بحكم الله فيهم . ولما عزم ملك الروم على القفول من بَرْبَشْتُرُ إلى بلده تخيّر من بنات المسلمين الجواري الأبكار والثيبات ذوات الجمال ومن صبيانهم الأيْفاع والمُرْد الحِسان عدة ، حملهم معه ليهديهم إلى مَن فوقه ، وترك ببَرْبَشْتُرُ مِن رابطة خيله ألفاً وخمس مئة ومن الرجال ألفين »[1] .

يذكر أبو عبيد البكري في **المسالك والممالك** أن النورمانديين المعتدين الوحوش الكاسرة المتوحشة « اختاروا من أبكار جواري المسلمين وأهلِ الحسن منهن خمسة آلاف جارية وأهدوهن إلى صاحب القسطنطينية »[2] . وليس من شك أن دين الله عز وجل ليبرأ من هذا الشَيْن وسوء الفعال .

علّق ابن حيّان على هذه الأحداث وعلل أسبابها ، وأنحى باللائمة على الناس والحكام بما ارتكبوا في جنب الله من ذنوب في إهمالهم ، بتقصيرهم في الأخذ بالشريعة وتهاونهم في تنفيذ أوامرها ، مما جرهم إلى حالة الفرقة التي أذهبت قوتهم . فقد

(١) الذخيرة (مخطوطة) ٣/٩٨ - ٩٩ . كذلك : البيان المغرب ، ٣/٢٢٦ ؛ نفح الطيب ، ٤/٤٥٠ - ٤٥١ ؛ دول الطوائف ، ٢٧٦ - ٢٧٧ . « ملك الروم » : قائد الحملة . ورد في البيان المغرب أن عدد الرابطة النورماندية التي تركت ببربشتر خمسة آلاف .

(٢) جغرافية الأندلس وأوربا ، ٩٤ . كذلك : البيان ، ٣/٢٥٣ .

« أركستهم الذنوب ووصمتهم العيوب . فليسوا في سبيل الرشد بأتقياء ، ولا على معاني الغي بأقوياء . نَشْءٌ من الناس هامل ، يعللون نفوسهم بالباطل . من أدل الدلائل على فرط جهلهم بشأنهم واغترارهم بزمانهم وبعادهم عن طاعة خالقهم ورفضهم وصية رسوله نبيهم عليه السلام ، وهو وهم عن النظر في عاقبَة أمرهم وغفلتهم عن سد ثغرهم ، حتى لظل عدوهم الساعي لإطفاء نورهم يتبجح عراض ديارهم ويستقري بسائط بقاعهم . يقطع كل يوم طرقاً منهم وسرامة ، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكرهم ، لُهاتٌ عن بثهم ،ما أن يسمع عندنا في مسجد من مساجدنا ومحفل من محافلنا مذكر بهم أو داع لهم فضلاً عن نافر إليهم أو مواس لهم ، حتى كأن ليسوا منا وكأن فتقهم ليس بمفض إلينا . قد بخلنا عليهم بالدعاء بُخْلَنا بالغَنَاء ، عجائب مغربة فاتت التقدير وعرضت للتغيير ، ولله عاقبة الأمور وإليه المصير . »[1]

ويُوقع ابن حَيَّان نصيباً كبيراً لهذه الأحوال على أمراء السوء في دول الطوائف وحكامها البشعين الجشعين ، الذين انحرفوا عن النهج الإسلامي ، ملوّماً الناس لركونهم إلى أمثال هؤلاء الأمراء ، فكانت هذه نتيجة « الاغترار بالأمل والاستناد إلى أمراء الفرقة الهمل ، الذين هم منهم مابين فشل ووكل ، يصدونهم عن سواء السبيل ويلبسون عليهم وضوح الدليل »[2] .

فعل ابن حزم الأندلسي (٤٥٦ هـ) ــ معاصر الطوائف ــ مثل ابن حَيَّان في تعرية حال الطوائف وبيان استهتار ملوكهم وما أورثوا الأمة من الوهن والانحدار[3] .

ولولا دعوة العلماء الأفاضل إلى توحيد الأندلس ونجدة الأخوة المسلمين في دولة المرابطين بعُدْوة المغرب والعمل على استثارة الروح الإسلامية والإيواء إلى ظلال

---

(١) الذخيرة (مخطوط) ، ٣/١٠١ . كذلك : البيان المغرب ، ٣/٢٥٥ ؛ نفح الطيب ، ٤/٤٥٢-٤٥٣ .
(٢) الذخيرة (مخطوط) ، ٣/٩٦ . كذلك : البيان المغرب ، ٣/٢٥٤ ؛ نفح الطيب ، ٤/٤٥٣ .
(٣) راجع : رسالة ابن حزم « التلخيص لوجوه التخليص » المنشورة مع رسائل له أخرى بعنوان : الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى ، ١٧٣ - ١٧٧ . كذلك : نقط العروس ، ابن حزم، مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة) ٨٣/٢/١٣ - ٨٤ ، ٨٩ . انظر : دول الطوائف ، ٤٢٠ - ٤٢٣ .

لإسلام ، لضاعت الأندلس قبل ضياعها بقرون .

قامت إذاً دعوة إلى الجهاد ورفعت راية الإسلام بندائه الخالد ، فهب الناس مستجيبين مجاهدين نحو بَرْبَشْتْرُ فحازوا في جهادهم من الله النصر .

يحدثنا ابن حيَّان عن ذلك فيقول : « فلما كان عقب جُمادى الأولى من سنة سبع وخمسين شاع الخبر بقرطبة بارتجاع المسلمين لبَرْبَشْتْرُ ، وذلك ان أحمد بن هود الملقب بالمقتدر المفرط فيها والمتهم على أهليها لانحرافهم إلى أخيه ، صمد لها مع مدد عباد حليفه ، وسعى لإصمات سوء القالة عنه . وقد كتب الله عليه منها مالا يمحوه إلا عفوه ، فتأهب لقصد بَرْبَشْتْرُ . فسار نحوها ورجال ابن عباد نحو من خمس مئة فارس مقدمته من سُراة البرابرة وغيرهم من أبطال الأندلس ، فنزل عليها بجمعه ، فجالدوا المسلمين بباب المدينة جلاداً ارتاب منه كل جبان ، وأعز الله أهل الحفيظة والشجعان ، حمي الوطيس بينهم إلى أن نصر الله أولياءه وزلزل أعداءه وولوا الأدبار مقتحمين أبواب المدينة ، فاقتحم المسلمون عليهم وملكوهم أجمعين إلا مَن فر من مكان الوقعة ولم يأت المدينة ، فأجيل في الكافرين واستؤصلوا أجمعين ، إلا من استرق من أصاغرهم وانتقوا للفداء من أعاظمهم ، وَسَبَوْا جميعَ مَن كان فيها مِن عيالهم وبناتهم وأبنائهم وملكوا المدينة بقدرة الخالق البارع . وأصيب على منحة النصر المتاح طائفة من حماة المسلمين الجادين في نصر الدين نحو الخمسين ، كتب الله شهادتهم وقتل فيها مِن أعداء الله الكافرين نحو ألف فارس وخمس مئة راجل ، فاستولى المسلمون بحمد الله عليها وغسلوها من رجس الشرك وجَلَوْها مِن صدأ الإفك . ثبّت الله فيها قدم الاسلام وجبر صدع مَن تولى من إخوانهم بمنّه . »[1]

٢ ــ مملكة بَلَنْسِيَة

تقع مملكة بلنسية شرقي الأندلس . تجاور من طرفها الشمالي مملكة سَرَقُسْطَة

(١) الذخيرة (مخطوط) ، ٣/١٠١ — ١٠٢ . كذلك : نفح الطيب ، ٤/٤٥٤ . ورد عدد قتلى النورمانديين « نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل » عند المقري (نفح الطيب ، ٤/٤٥٤) وابن عذاري (البيان المغرب ، ٣/٢٢٧) وكلاهما ينقل عن ابن حيان . جرى تقويم بعض الكلمات في النص أعلاه على نفح الطيب .

المحكومة لبني هود في الثغر الأعلى . عاصمتها مدينة « بلنسية » ، من حواضر الأندلس، و « شَاطِبَة » من مدن هذه المملكة المهمة .

أ ــ حكمها أيام الطوائف

حَكم الصقالبة ــ بعد الفتنة العظمى ، التي انتثرت بها وحدة الأندلس ــ هذه المملكة مدة من الزمان . ثم حكمها بنو عامر (أبناء الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر) ، حين بايع الصقالبة لحكمها عبدَ العزيز بن عبد الرحمن[1] بن المنصور سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م) ، ولُقب بالمنصور. توفي عبد العزيز سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦١م) ، فخلفه ابنه عبد الملك الملقب بالمظفر ، الذي تزوج ابنة المأمون بن ذي النون حاكم طُلَيْطُلَة . وجرت بينهما أحداث انتهت بضم بلنسية وأعمالها إلى مملكة طليطلة ، وعَهِد المأمون بأمور بلنسية إلى أبي بكر محمد بن عبد العزيز (ابن رَوبش) ، وجعله وزيراً ونائباً عنه في حكمها . فأحسن إدارتها وضبط أمورها وسار سيرة حسنة، عدلاً ورفقاً .

ب ــ حكومتها الذنونية

تُوفي المأمون حاكم طليطلة سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) ، وخلَفه حفيدُه القادر . استقل أبو بكر في حكم بلنسية وجرت محاولات مِن قبل المؤتمَن بن هُود صاحب سرقسطة لضم بلنسية اليه ، كيما تغدو مع سرقسطة مملكة قوية . وكانت بينهما صلات ومصاهرة ، إذ تزوج أحمد المستعين بن المؤتمن من ابنة أبي بكر الذي لم يلبث أن توفي سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، بعد عشرة أعوام من حكم بلنسية ، وخلَفه في حكم بلنسية وأعمالها ابنُه أبو عمرو عثمان .

جرى سقوط طليطلة ــ عاصمة بني ذي النون ــ سنة ٤٧٨ هـ ، أمام جيش أدْفُونْش (السادس) ملك قشتالة الذي وعد القادر حاكم طليطلة ــ بعد إخراجه منها ــ أن يعاونه في الاستيلاء على بلنسية ، وسار القادر وجماعته صوب بلنسية ، برفقة سَرِية قوية من الجنود القشتالين ، أمده بها أدْفُونْش بقيادة البارهانش أو

---

(١) عبد الرحمن هو المعروف بـ (شَنْجول) .

البرهانس[1] (Alvar Háñez) ، ابن أخي رُذْرِيق[2] الكَنْبِيطور أو القُمْبِيطور .

أليس عجباً أن إدْفُونْش (الفُنْش) – الذي ارتكب الجرائم في تخريب طُلَيْطُلَة وإنهاكها لسنوات ، ثم إسقاطها وطرد القادر منها – هو الذي يمده بالقوة للاستيلاء على بلنسية ؟ لكن الفُنْش كان يعرف أن تمكين القادر من الاستيلاء على بلنسية سيجعلها وتوابِعَها واقعة تحت حمايته .

وصلت هذه القوة بلنسية لإخضاعها ، وجرت مراسلات مع أهلها ووعود من القادر لهم . انتهى الأمر بالموافقة على مطالب القادر واستبعاد مطالب أحمد المستعين ابن هود ، منافس القادر ، وخُلع أبو عمرو عثمان ، ودخل القادر وجنودُ قَشْتَالَة المدينة .

ساءت أحوال بلنسية بسوء السياسة وإرهاق أهلها بالضرائب لسداد مطالب القَشتاليين الذين كثر عيثُهم وغدت لهم السيادة الحقيقية على المدينة ، وغادرها كثير من أعيانها نتيجة لهذه السياسة الطائشة التي اتبعها القادر إرضاءاً لأنانيته ورغبة في البقاء بمركزه ، ولو كان في ذلك ضياع الدين وانتقاص البلد وإرهاق الناس ، وتحت حماية عدو متربص وخصم غادر .

كان هذا وأمثاله – من ملوك الطوائف – يسالمون أعداءهم ، فيركنون إلى حمايتهم لقاء : أموال يجبونها من الإرهاق وحصون يتنازلون له عنها طواعيَة ، حمتها فيما مضى سواعد الفرسان الأشداء ، الذين تحلوا بالشهامة وحسن البلاء . وعدوهم – في كل ذلك – يزداد ويَضْعُفون ، ويمد الأطراف المتنازعة فيقتتلون .

ولولا وجود براعم أخرى أنبتتها الأجواء الطيبة ، استمرت في العطاء ؛ وعَوْن الأخوة مِن عُدْوة المغرب ، تشد الأزر وتحمي الغرس – مُشيراً إلى أصالة النبت وبعد العمق – لما أفلتت جزيرة الأندلس من المصير القريب ، الذي ساقه إليها العديد من ملوك الطوائف المتناحرين ، بسوء فعالهم وضلال سعيهم : فكانوا كالذين قال الله

---

(١) نظم الجمان ، ابن القطان ، ٦/٦ ، ٧ ؛ تاريخ الأندلس ، ٨٦ (نص ابن الكردبوس) .

(٢) *Manual de historia de Espana*, I, 607.

ـ سبحانه ـ فيهم في سورة الكهف : ﴿ قُلْ هل نُنَبِّئُكم بالأخسَرينَ أعمالاً الذين ضَلَّ سَعْيُهُم في الحياة الدنيا وهم يَحْسَبونَ أنهم يُحْسِنونَ صُنْعاً ﴾[1].

كانت الأندلس ـ في هذا التاريخ ـ تُقبل على أحداث جديدة . تلك هي استدعاء المرابطين . ثم كانت وَقْعَة (معركة) الزَّلاَّقَة سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) ، حيث كتب الله تعالى النصر الباهر للجيش الإسلامي[2] . بذلك أُنجدت بلنسية واطمأن أهلُها وتحطمت قوى ملك قَشْتَالَة .

لكن بَلَنْسِيَة مازالت مُقبلة على أيام أخرى شديدة . يرتبط هذا بتاريخ فارس قَشتالي مُغامر يبحث عن طالِعه ويَسعى لمغنمه . تُشير إليه مصادرنا التاريخية باسم : القَنْبِيطور أو الكَنْبِيطور أو الكَبِيطور[3] (El Cid Campiador) . اسمه رودريجو (رُذْريق) دياث دي فيفار (الفيفاري) ، (Rodrigo Diaz de Vivar) . من مواليد قرية فيفار ، قرب مدينة بُرْغُش (Burgos) عاصمة قَشْتالة . كان من جنود شَانْجُهْ ، أخي الفُنْش (الفونسو السادس) ملك قشتالة وليون .

نُكبت مدينة بلنسية الإسلامية بتخريب رُذْريق نكبتها الكنبيطورية ، وذلك « أيام تغلب رُذريق المعروف بالكنبيطور على بلنسية وإحراقه لرئيسها أبي أحمد بن جَحَّاف »[4].

جـ ـ حصار بَلَنْسِيَة

تُشغل همجيةُ رُذْريق وأعمالُه الوحشية من تاريخ بلنسية ـ في هذه الفترة ـ جزءاً كبيراً وخطيراً . وقد اعتَبر التاريخ الاسباني رُذْريق هذا فارساً من أبطاله الوطنيين والقوميين[5] . صِيغت حوله القصص والأساطير . لكنه لم يزد عن كونه مغامراً جشعاً بشعاً ، سفّاكاً فتّاكاً ، يسير حيث الغنائم والأسلاب ، دون اعتبار لأية مُثل دينية أو غيرها . ويتضح هذا جليّاً من نظر الحوادث التالية[6] . ولا يُغيِّر

---

(١) الآيتان ١٠٣ ـ ١٠٤ من سورة الكهف . (٢) عن وقعة الزلاقة ، راجع : أدناه ، ٤٠٣ـ٤٠٩ .

(٣) كان أتباعه ينادونه « السيد » بالنطق الدارج لكلمة « السيد » . انظر : الحلة ، ١٢٥/٢ (الحاشية) ؛ « السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين » ، حسين مؤنس ، المجلة التاريخية المصرية ، ٧١/١/٣ .

(٤) الحلة السيراء ، ١٦٨/٢ .

(٥) انظر : دول الطوائف ، ٢٤٩ . قارن : دول الطوائف ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢ ، ٢٥٠ .

(٦) أدناه ، ٣٧٢ وبعدها .

من الأمر حبة من خردل كونه فارساً مشهوراً . ساعدت أوضاع الأندلس ــ يوم ذاك ــ على ظهوره في الميدان . يشير ابن بَسَّام في **الذخيرة** إلى هذا المعنى ، فيقول : « ولمّا أحَسّ أحمد بن يوسف بن هُود ، المُنتزى ــ إلى وقتنا هذا ــ على ثغر سرقسطة ، بعساكر أمير المسلمين تُقْبل من كل حدب وتطلع على أطرافه من كل مرقب ، آسد كلباً من أَكْلُب الجَلالِقة يُسمى بـ (رُذْريق) ويُدعى بالكنبيطور . وكان عِقالاً وداءً عُضالاً ، له في الجزيرة وقائع ، على طوائفها بضروب المكروه إطلاعات وطالع . وكان بنو هود قديماً هم الذين أخرجوه من الخمول مستظهرين به على بغيهم الطويل وسعيهم المذموم المخذول ، وسلّطوه على أقطار الجزيرة يضع قدمه على صفحات أنجادها . ويركز علمه في أفلاذ أكبادها ، حتى غلظ أمره وعم أقاصيها وأدانيها شره »[1] .

لما توفي شَانْجُهْ ، وورثه أخوه الفُنْش (الفونسو السادس) ، انتقل رُذْريق إلى خدمته . بدأ الفُنْش عملياته ضد ملوك الطوائف ، معتمداً رُذْريق في بعضها . لم يكن الفُنْش مرتاحاً إليه ، فقضى بإبعاده . وبدأ رُذْريق يؤجِّر نفسه للأمراء المسلمين أو النصارى . التحق أولاً بخدمة المقتدر بن هُود صاحب سَرَقُسْطَة . حين توفي المقتدر سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) وقسم المملكة بين ولديه : المؤتمن والمنذر ، التحق رودريجو بالمؤتمن مع جنوده المرتزقة . وعند وفاة المؤتمن ــ سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ــ استمر في خدمة ابنه أحمد المستعين .

عندما طلب القادر النجدة من المستعين لدفع خطر المنذر سار المستعين ورُذْريق صوب بلنسية لنجدة القادر . كان المستعين يطمع بالاستيلاء عليها . كانت قوة هذا الجيش بيد الطاغية القنبيطور ، حيث له ثلاثة آلاف فارس وللمستعين أربع مئة فارس . جرت مفاوضات بين هذه القوة ــ التي وصلت ظاهر بلنسية ــ وبين القادر ، الذي بعث ــ خِفْية ــ إلى رُذْريق يطلب إليه عقد التحالف سراً دون علم المستعين ، وبعث إليه بالتحف والهدايا . لما كانت خدمات رذريق تُباع وتُستأجر ، فإن المستعين دفع له المبالغ الكبيرة . حين طلب المستعين من رُذْريق معاونته في الاستيلاء على بلنسية ،

(١) الذخيرة (مخطوط) ، ٤٦/٣ - ٤٧ (= الحلل السندسية ، ٧٥/٣) .

ماطله في ذلك بحجة حماية أدفونش للقادر ، ولا بدّ في هذا من استئذانه . أخذ رذريق ينصح القادر سراً بعدم تسليم المدينة ، ويَعِد القادر والمستعين – كلاًّ بمَعْزِل – أن سوف يعاونه . في نفس الوقت يرسل إلى المنذر – عم المستعين وخصمه – ليعقد معه المودّة والتحالف ، ثمّ يبعث إلى الفنش بأنه « تابع له ، وأنّ أولئك الفرسان الذين يقودهم في أراضي المسلمين ، دون أية نفقة من الملك إنما هم تحت تصرف الملك ، ينزلون ضرباتهم بـ (الكفرة) ، وفي وسعهم أن يحصلوا على شرقي الأندلس بسهولة . »[1] وافقه الفُنش وأطلق له الإذن للتجول أنى شاء من مناطق الأندلس . ثمّ ذهب رُذريق بنفسه لمقابلة الفُنْش في قَشتالة وحصل منه على وثيقة يؤكد له فيها بأنّ المناطق التي ينتزعها من المسلمين تكون ملكاً له ولأولاده من بعده ، ميراثاً شرعياً .

عاد من قَشتالة يقود سبعة آلاف مقاتل ، مرتزقة . وغدا زعيم عصابة يفرض بالقوة ما يريد من الأموال والمطالب ، واتجه صوبَ بَلَنْسِيَة ، وفرض أموالاً طائلة تُدفع له سنوياً من صاحب شَنْتَمَرِيَّة الشرق (Santa Maria de Albarracin) التابعة إلى أبي مروان عبد الملك بن هُذَيْل بن رَزِين[2] ومن أبي عيسى بن لَبُّون صاحب مُرْبيطر[3] (Murviedro) وغيرهما . ونزل في الكُدْيَة شمال بلنسية ، فأرسل إليه القادر بالأموال ، واضعاً نفسه تحت حماية رُذْرِيق ، ويدفع له أموالاً طائلة سنوياً .

ثمّ تغيّر الفُونْش على هذا الفارس ، فأمر « بإخلاء سائر الحصون والدور الخاصة بالسيد ، وبالقبض على زوجه وأولاده الصغار ، وذلك لأنّ القانون القديم كان ينص على تضامن الأسرة في الأمور الجنائية ، ولا يسمح بذرّة من التهاون أو الرأفة في تهمة الخيانة . »[4]

---

(١) دول الطوائف ، ٢٣٦ .

(٢) انظر : أعلاه ، ١٣٧ .

(٣) انظر : الحلة السيراء ، ٢/١٦٧ ؛ المغرب ، ٢/٢٧٥ .

(٤) دول الطوائف ، ٢٣٩ . ذلك في دول اسبانيا الشمالية وما يماثلها .

عقد المستعين حلفاً مع رُذْريق ، المتحالف مع ملكيْ أَرْغُون ونَبَارَّة . وأراد الفونش — انتقاماً من رُذْريق — الاستيلاء على بلنسية . فعقد حلفاً مع جمهوريتيْ جَنوة وبيزَة في إيطاليا ، لتعاوناه بالأساطيل في تحقيق ذلك . وسار الفُونش بقواته إلى بلنسية ، وتهيأ رُذريق لمقابلة الفُونش بالقوة ، وأرسل إليه بذلك . أدرك الفُونش صعوبة موقفه ، فرفع الحصار عن بلنسية راجعاً إلى قَشتالة . وانتقم رُذريق لنفسه ، بالعيث في أراضي قَشتالة وأمعن فيها قتلاً . مما حمل الفونش على إصدار عفوه عن رذريق ، وكتب إليه بذلك ، فشكره . ذلك سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) .

سَرَت في بلنسية رغبة شديدة للتخلص من النِّير المُرهق الذي فرضه رذريق على المدينة ، وتزعَّم هذا الاتجاه قاضي بلنسية أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جعفر بن جَحَّاف بن يُمْن . يَنصبّ هذا الاتجاه ضد رُذريق والقشتاليين ، مثلما هو ضد القادر . فاوض ابن جَحَّاف ابنَ عائشة قائدَ المرابطين (داود بن عائشة أحد كبار قادة ابن تاشفين) ليعينه في ذلك ويسلمه المدينة . وبعث إليه سَرِيَّة من جند المرابطين . قاد ابن جَحَّاف الثورة وقبض على القادر ، الذي وُجد مختفياً في حمام القصر ومعه صندوق من الحلي والجواهر (!!؟) ، فكانت نهايته .

اختير القاضي ابن جَحَّاف رئيساً للجماعة ، وتولّى زمام السلطة سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، وأخذ ينظم الأمور ويستعد لحماية المدينة والدفاع عنها . لعل أهل بلنسية فعلوا ذلك تخوّفاً من القادر على بلنسية « أن يُملّكها للفُونْش كما ملّكه طُلَيْطُلَة » ، على حد تعبير ابن عِذاري في **البيان المغرب**[1] .

أبو أحمد جعفر بن جَحَّاف من أسرة بَلَنْسِيَّة . تقلَّد عددٌ من أفرادها القضاء ، فيها أو في غيرها ، كان هو آخرهم . فهو « من أهل بلنسية وقاضيها ورئيسها في الفتنة وهو المحرَّق . . . وامتُحن بالقنبيطور المتغلّب على بلنسية إذ ذاك ، فاستصفى ماله ، ثمَّ أحرقه بالنار في جُمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وأربعمئة . »[2] يذكر ابن عَميرة الضَّبِّي في كتابه **بغية الملتمس** أنه « قاضي بلنسية ورئيسها وآخر

---

(١) البيان المغرب ، ٣/٣٠٥ . كذلك : أعمال الأعلام ، ٢/٢٠٣ .

(٢) التكملة ، ١/٢٣٩ — ٢٤٠ (رقم : ٦٣٣) .

القضاة من بني جَحَّاف بها ، أحرقه القنبيطور لعنه الله سنة ثمان وثمانين وأربع مئة . »[1]

سار رذريق نحو بلنسية — إثر ما جرى فيها — بقواته وضرب حولها الحصار ، بعد إحراق ما حولها من المروج والزرع ، فاستولى على المناطق المجاورة . وأعَدَّ ابنُ جَحَّاف — مع المرابطين — قوة من ثلاث مئة فارس لمقاومة الحملات المخرّبة التي يقوم بها رذريق في أحواز المدينة :

كتب رُذريق إلى ابن جَحَّاف أن يترك بلنسية له بعد إخراج المرابطين منها ، وكانت تلك خديعة يَقْصِد من ورائها إضعاف المدينة حين يعود لمحاصرتها . جرت مفاوضات انتهت بأن تُدفع للطاغية رُذريق الأموال السنوية وتخرج قوة المرابطين ويترك الجيشُ القشتالي المدينة . لكن رذريق — وتلك طبيعة فيه — نقض العهد بعد مدة قليلة ، وبدأ عيثه خارج بلنسية وإرهاق ابن جَحَّاف بمطالبه المالية . كما طلب أن ينزل هو وجيشه في مناطق حول بلنسية ، شمال شرقها وجنوب غربها ، ليُحكم الطوق حول المدينة . ثمَّ زاد فطلب إلى ابن جَحَّاف أن يُسلِّمَه موارد المدينة ويُقَدِّم ابنَه رهينة . عند ذلك رفض ابن جَحَّاف المطالب ، وأغلق أبواب المدينة ، وبعث إلى ابن عائشة قائدِ المرابطين وإلى المستعين صاحب سَرَقُسْطَة طالباً المعونة ، كما كتب إلى أَدْفُونْش . لم يستطع المرابطون تلبية النداء بسرعة ، لبعد الشُّقَّة وانشغالهم ، وشَدَّد الطاغية الحصار حول المدينة الباسلة وكثُر عَيْثُه حولها وقطع الأقوات عنها ، حتى لا يطول ثباتها . لكن ابن جَحَّاف قرر المقاومة حتى النهاية . لم يصل للمدينة أي مدد خارجي ، استمر الحصار عشرين شهراً . « فطمع في أخذ بَلَنْسِيَة ، فضايقها مضايقةً شديدة وحَصَرَها حصراً عظيماً ، وقطع عنها المرافق ونصب المجانيق ، ونَقَبَ الأسوار ، وعَدِمَ الناس الطعام وأكلوا الفيران والكلاب والجياف إلى أن أكلَ النَّاسُ النَّاسَ ومَن مات منهم أكلوه ، فبلغ الناس من الجهد ما لا يُطيقون . وقد ألَّفَ ابنُ عَلْقَمَة كتاباً في أمرها وحصارها يبكي القارئ

---

(1) بغية الملتمس ، ٢٥٧ (رقم : ٦١٥) . كذلك : الحلل السندسية في الآثار والأخبار الأندلسية ، ٣/٨٧ — ٨٨ .

ويذهل العاقل . »[1]

لقيت بلنسية من الكَنْبيطور المغامر الأمرّين ، حتى « هلك أكثر الناس جوعاً ، وأُكلت الجلودُ والدواب وغير ذلك ، ومن فرّ إلى المحلة فُقئت عيناه ، أو قُطعت يداه ، أو دُقت ساقاه ، أو قتل . »[2]

فوق ذلك كله عامل الطاغية الصليبي رُذْريق وجندُه أهلَ بلنسية أقسى معاملة وأكثرها تطرفاً في الإنهاك والتنكيل وأعرقها وحشية وهمجية . لكن هذا ديدنه[3] وأمثاله ، كما سنلحظ ذلك في اطلاعنا السريع على أحداث « **الحروب الصليبية في الغرب الإسلامي** » ، وهو موضع جدير بعناية الدارسين[4] .

فاعجب – ما شئت – أن يُتَّخذ هذا الفارس المغامر والمتوحش الكاسر ، مستودع رذائل العصر[5] ، وأصنافه ، بطلاً ، ويجعل منه مثلاً . بل إن بعض المستشرقين وكتبة التاريخ الأوربيين ألصقوا السوء بالقاضي ابن جَحَّاف واعتبروه أهلاً لما لقيه[6] : فما فعله رُذريق كان واجباً وحقاً . منهم من زاد شططاً فدافع عن فِعال رُذريق واعتبرها قانوناً ودستوراً ، لا مذمة فيه ولا لوم عليه . بل اعتبره مفخرة ومأثرة[7] تغنت بها .

بشيء من الإنصاف والأمانة العلمية وحسن النظر ونزاهة البحث والمتابعة والاطلاع ، تَظهر حقيقة هذا الأمر وشيكاً . يقول في ذلك مؤرخ انجليزي :

(١) البيان المغرب ، ٣/٣٠٥ (= ٤/١٤٧–١٤٨) . الظاهر أن ما دوّنه ابن عذاري في « البيان المغرب » – المقتبس منه هنا – عن أحداث بلنسية المروّعة والمأساة المفزعة ، نقله ابن عذاري – جله أو كله – عن كتاب ابن علقمة « البيان الواضح في الملم الفادح » المفقود ، مؤرخ فاجعة بلنسية . انظر : أدناه ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ .

(٢) البيان المغرب ، ٤/٣٣ .

(٣) راجع : دول الطوائف ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٩ .

(٤) انظر : أعلاه : ١٣٦ .

(٥) انظر : دول الطوائف ، ٢٥٠ .

(٦) الاسلام في المغرب والأندلس ، ليفي بروفنسال ، ١٦٧ ؛ الحلل السندسية ، ٣/٦٥ .

(٧) راجع : دول الطوائف ، ٢٤٩ ؛ الحلة السيراء ، ٢/١٢٦–١٢٧، ٢٤٧ ؛ المجلة التاريخية المصرية ، ٣/١/٧٧ – ٧٨ .

« نخطىء خطأ فاحشاً إذا اعتبرنا محاربي ليون وقشتالة شيئاً مّا يداني مثالية شرف الفروسية والبطولة ، كما نرتكب خطأ حين نتخيّلهم رجالاً نبلاء مهذّبين . فنصارى الشمال (الإسباني) يكوّنون أعجب مغاير ممكن لأقرانهم الأندلسيين . »[1]

مقارنة جدية ، خفيفة سريعة — مع ما رأيناه في الفتح الإسلامي للأندلس وفي غيره من الفتوحات الإسلامية الأخرى ، وعموم التعامل مع الآخرين — تظهر حقيقة الفارق ومقداره المترامي مع غيره كله ، وهو طبيعي . كلهم بشر ، لكن الفعل فعل العقيدة الربانية التي اختارها الله للإنسان وارتضاها لأهل الأرض شِرْعَةً ومنهاجاً . وبأي شيء غيره ، لا ولن يكون .

حَلّت بأهل بلنسية أنواع المحن وامتحنوا بأفانين البلاء ، أنهكتهم اللأواء . كان منها أبشع ألوان البلاء التي تَساوى فيها الفقراء والأغنياء .

استسلمت بلنسية سنة ٤٨٧ هـ ، في جُمادى الأولى منها ، بعد أن عاث رذريق فيما حولها عيث الأعداء الحاقدين . لا عجب : مَن يعمد إلى إفناء الإنسان ، هل يبالي بغيره ، أم يعبأ حيثما وكيفما يصب وبال شره ؟

نقل ابن الأبّار (٦٥٨ هـ) وابن عِذاري (بعد ٧١٢ هـ) وغيرهما عن ابن عَلْقَمَة البَلَنْسِي الأحداثَ بالشهور — لا سيما التي سبقت احتلاله بلنسية — وصفاً دقيقاً ، يعتبر وثيقة ناطقة ذات قيمة عالية . واحتوت **تكملة** ابن الأبَّار العديد من الأخبار المتعلقة ببلنسية ، نقلها عن ابن عَلْقَمَة ، منها — حين ترجم أبا أحمد ابن جَحّاف المحرق — : « وامتحن بالقُنْبيطور المتغلّب على بلنسية إذ ذاك فاستصفى أمواله ، ثمّ أحرقه بالنار في جُمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وأربع مئة . فيه عن ابن علقمة والرُّشَاطِي وغيرهما . »[2] أما ابن عِذَاري فيذكر أحداث سنة ٤٨٧ هـ ، قبيل استسلام بلنسية ، أنه « مما امتحن به أهل بلنسية في هذه السنة المؤرخة الغلاء ، قال محمد بن عَلْقَمَة : بلغ رطل القمح في ربيع الأول بمثقال ونصف ، ورطل الشعير

---

(١) *The Moors in Spain*, S. Lane-Poole, 189.

راجع : الترجمة العربية : العرب في إسبانيا ، ١٦٤ . كذلك : الحلل السندسية ، ٣/٦٦ .

(٢) التكملة ، ١/٢٤٠ (رقم : ٦٣٣) (أعلاه ، ٣٧٢) . كذلك : التكملة ، ١/٢٨٦ (رقم : ٧٧٠) .

بمثقال ، ورطل زريعة الكتان ستة أثمان مثقال ، وأوقية الجبن ثلاثة دراهم ، وأوقية البصل بدرهم ، ورطل البقل بخمسة دراهم ، وبيضة دجاجة بثلاثة دراهم ، ورطل اللحم البغلي بستة دنانير ، ورطل الجلد البقري بخمسة دراهم .

« وفي ربيع الثاني ، عظم البلاء ، وتضاعف الغلاء ، واستوى في عدم القوت الفقراء والأغنياء . فأمر ابن جَحّاف اقتحام الدور فحصاً عن القوت . . .

« وانسلخ هذا الشهر ، ورطل القمح بثلاثة مثاقيل غير ربع ، وما سواه تابع له . ولا يصل إلى إدراك شيء من الموجود إلاّ أهل الجاه ، وترمّق سائر الناس بالجلود والأصماغ . وعروق السوس ، ومن دون هؤلاء بالفئرة والقطاط وجيف بني آدم . وهجم على نصراني وقع في الحفير ، فأخذ باليد ، ووزع لحمه .

« وجَدّ الطاغية في حرق مَن خرج من المدينة إلى المحلة ، لئلاّ يخرج الضعفاء ويتوفر القوت على الأغنياء . فهان على الناس الإحراق بالنّار ، فعيث فيهم بالقتل ، وعلقت جثثهم في صوامع الأرباض وبواسق الأشجار .

« ودخل جُمادى الأولى ، وعُدمت الأقوات بالجملة ، وهلك الناس . ولم يبق من ذلك الجم إلاّ نزر يسير . وتوالى اليبس ، واستحكم الوباء ، وبينما الرجل يمشي ، سقط ميتاً . ولم يبق ما يدب على أربع إلاّ اثنان لابن جَحّاف وابنه واثنان لابن رتبير . وباع ابن رتبير فرسه من الجزّارين بمائتي مثقال ، واستثنى منه عشرة أرطال ، فبيع الرطل منه أوله بعشرة دنانير ، وآخره باثني عشر ديناراً ، ورأسه بخمسة عشر مثقالاً . »[1]

هكذا ارتكب الطاغية وجنده الأفاعيل البشعة ، وقد لا يكون الاستمتاع بالقتل أرذلها .

د ـ استسلام بلنسية وسقوطها

تبعاً لهذه الحالة طاب أعيان المدينة ـ والناس من ورائهم ـ إلى ابن جَحّاف الموافقة على المفاوضة والتسليم ، حيث لم تبق مقدرة للبقاء في هذه الحال ، فضلاً عن الثبات والمقاومة . اضطرّ القاضي ابن جَحّاف للإذعان وترك لهم المفاوضة . سار وفد لمفاوضة الطاغية ، وسلمت بلنسية له على الشروط التالية : « أن يبقى ابن جَحّاف

(١) البيان المغرب ، ٣٨/٤ ـ ٣٩ . كذلك : البيان المغرب ، ١٤٨/٤ . انظر : دول الطوائف ، ٢٤٣.

قاضياً للمدينة وحاكماً لها ، وأن يؤمّن في نفسه وماله وأهله ، وأن يؤمّن السكان في أنفسهم وأموالهم ، وأن يتولى مندوب السيد الإشراف على تحصيل الضرائب ، وأن تحتلّ المدينة حامية من النصارى المعاهدين الذين يعيشون بين المسلمين ، وأن يرابط السيد بجيشه في جبالة . وألاّ يغير شيئاً من شرائع المدينة وأحكامها . »[1]

فتحت أبواب المدينة للطاغية وجنده يوم الخميس منسلخ جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ (حزيران سنة ١٠٩٤ م) ، بعد حصاره لها عشرين شهراً [2] ، منذ آخر رمضان ٤٨٥[3] . واحتلّوا — لتوّهم ، وخلافاً للشروط — أبراج المدينة ، ونزل الطاغية في القصر . ثمّ ألقى خطاباً ، وعد أهلها بالعدل وإعادة الحقوق إلى أصحابها ورفع الظلم . لكن احتُلت أكثر دور المدينة وضياعها ، ولم ينصف أحد أو يعاد إليه حقه[4] .

لنستمع إلى ما كتبه بعض مؤرخينا حول هذا الموضوع . يذكر ابن عِذَاري في **البيان المغرب** أنه سنة ٤٨٧ هـ « لما بلغ بأهل بلنسية الماء الزبى ، وانتهوا من الصبر إلى الغاية القصوى ، ولا نصر ولا غوث ، ألجأتهم الحال إلى دخول العدو بحكم الاضطرار ، لا بحكم الاختيار . فتجمّعوا إلى قاضيهم أبي المُطَرِّف بن جَحَّاف ، وسَفَروا إلى الطاغية الكَنْبيطور — لعنه الله — مَن يتوسط لهم معه أخذ الأمان . فأجاب في هذا الشأن ، وعقد نيته على الختر ، ونقض العهد ، وإعطاء أمان مثله من الأنجاس . فخرج إليه القاضي ، وعقد عليه العقود ، وأخذ المواثيق والعهود ، وحزم في كل ذلك ، وبلغ الغاية التي ما بعدها غاية ، ولا وراءها لمجتهد نهاية ، فلما كمل الأمر فتحت له الأبواب ، ودخل المدينة بجملته ، وذلك في جُمادى الأولى من هذه السنة »[5] .

---

(١) انظر : دول الطوائف ، ٢٤٤ . النصارى المعاهدون : المستعربون . جبالة : إحدى ضواحي بلنسية .
(٢) التكملة ، ١/٤٠٤ (رقم : ١١٣٦) ، ٢/٨٠٦ — ٨٠٧ (رقم : ١٩٦٨) . كذلك : الذيل والتكملة ، ٦/٣٣٣ ؛ أعمال الأعلام ، ٢/٢٠٤ . تذكر رواية أخرى أن سقوط بلنسية كان سنة ٤٨٨ هـ . انظر : الذخيرة (مخطوطة) ، ٣/٤٤ ، ٤٨ ؛ البيان المغرب ، ٤/١٤٨ . كذلك : دول الطوائف ، ٢٤٤ .
(٣) التكملة ، ١/٢٩٨ ، ٤٠٤ ، ٢/٨٠٧ .
(٤) دول الطوائف ، ٢٤٤ — ٢٤٥ .
(٥) البيان المغرب ، ٤/٣٤ . كذلك : البيان المغرب ، ٤/٣٩ .

يحدثنا عن ذلك أيضاً أبو الحسن علي بن بَسَّام الشَّنْتَريني (٥٤٢ ﻫ) في معجمه التاريخي والأدبي **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** الذي كتبه في قُرطبة وأتمّه فيها سنة ٥٠٣ ﻫ[(١)] . ويُعتبر هذا الكتاب الضخم مرجعاً مهماً عن عصر الطوائف ، حيث كان المؤلف معاصراً لها . فيعطينا صوراً ناطقة مذهلة عما جرى للمسلمين في بلنسية على يد الطاغية وجنده المرتزقة ، مما يؤكد الذي ذكر أعلاه من أنّ هذا « القنبيطور » يبيع كل شيء ليسد شرهه ، حتى الناس ، غير مبال بمثل أو عهود يقطعها[(٢)].

ولدينا على وجه الخصوص وثيقة ذات أهمية أساسية كتبها لنا مؤرخ وأديب بلنسي ، شاهد عيان لهذه الحوادث اشترك في بعضها ، كما يشير ابن عِذَاري : « وقال أبو العباس أحمد بن عَلْقَمَة في تاريخه ، وهو ممن شهد الموطن ، وكان في الحصار »[(٣)] . هو أبو عبد الله محمد بن خَلَف الصَّدَفي المعروف بابن عَلْقَمة (٤٢٨ ـ ٥٠٩ ﻫ) . سجل تاريخ بلنسية ، وهذه الأحداث المروعة بالذات ، في كتابه **البيان الواضح في المُلِم الفادح** . يذكر ابن الأبَّار أنّ ابن علقمة « ألَّف تاريخاً في تغلُّب الرُّوم على بلنسية قبل الخمس مئة سماه **بالبيان الواضح في المُلِم الفادح** »[(٤)] ، أي ربما بعد دخولها في طاعة المرابطين سنة ٤٩٥ ﻫ . ليس بعيداً أنه اهتمّ أيضاً ـ ولو على نطاق ضيّق ـ بتدوين أحداث أندلسية أخرى كسقوط طُلَيْطُلَة[(٥)] ، مع الاهتمام بأحداث بلنسية . أشار إليه ابن عِذَاري ، كما مرَّ بنا . لكن ضاع أصل هذا الكتاب ، ووجدت ترجمة إسبانية غير أمينة لكثير من نصوصه ، كما نقل عنه عدد من مؤرخي الأندلس . وأخيراً عُثر على قطعة من **البيان المغرب** لابن عِذاري وفيه فقرات ـ لعلها كاملة ـ من تاريخ ابن علقمة[(٦)] .

---

(١) انظر : تراجم إسلامية مشرقية وأندلسية ، **محمد عبد الله عنان** ، ٣٠١ .

(٢) راجع : دول الطوائف ، ٢٤٩ ـ ٢٥١ ؛ **حضارة العرب** ، ٢٨٠ .

(٣) البيان المغرب ، ١٤٨/٤ . لعل خطأ ما وقع في هذه الصورة من اسمه ، فهو أبو عبد الله محمد ، كما يتبين بعد .

(٤) التكملة ، ٤١٢/١ (رقم : ١١٦٥) . كذلك : التكملة ، ٢٨٦/١ ، ٤٠٤ ؛ الذيل والتكملة ١٨٤/٦ ؛ البيان المغرب ، ٢٨٩/٣ ، ٣٠٥ وبعدها .

(٥) انظر : التكملة ، ٢٣/١ (رقم : ٥٤) ؛ نفح الطيب ، ٣٥٤/٤ .

(٦) البيان المغرب ، ٥/٤ ، ٣١ ـ ٤١ .

هـ ـ أخذه بلنسية واحتلالها

نكّل الطاغية بأهل بلنسية تنكيلاً أثار فيهم العويل ، لكنه لم يسمع كلمة من قائل ، فليس من وراء ذلك طائل . انساق مع هواه لئيماً ، يفتك بهم فتكاً أثيماً . احتل المدينة وجلس في قصرها حاكماً وأصدر أوامره قيوداً ونِقمة . أصدر أمراً في شهر شعبان من العام (٤٨٧ هـ) « ومشى بريحه : (مَن وُجد عنده شيء من آلات الحديد ، فمالُه ودمه حلال !) فبرئ الناس منه حتى من الإبر والمسامير ، ووضعوا ذلك بباب القصر ، وقد تضاعف الجزع والخوف . ثمّ مشى بريحه من الغد بالخروج إلى البحر لجر القطع التي فيه إلى البر ، فلما تكامل الناس ، لحق بهم المترجم مع زعماء الروم ، فميزهم ، فمن كان من أهل اليسار صُرف إلى المدينة ، ومَن كان من أهل النجدة جُرِد ونُفي ، وغلب على الظن أنهم قُتلوا ، فكان الحزن في دورهم . واستمرت الحال على ذلك شهر رمضان »[1] . نفى من أراد نفيه وفتك بالكثير مدة شهرين أو تزيد . إذ في الثامن من شوال أصدر أمره أو « مشى بريحه باجتماع المسلمين إلى القصر ، ثمّ خرج عليهم ونظر إليهم وعرّض بذكر المرابطين وكثرتهم وأنّ ذلك ما أغنى عنهم ، وجعل ينظر في عِطْفِه ، ويشمخ بأنفه . ثمّ قال : (انظروا إليّ في سبع مئة ألف مثقال ، وإلاّ هلكتم ، وأحلَلْت السيوف عليكم) ثمّ خرج وبقي المسلمون في القصر ، وأغلق عليهم الباب ، فصاروا في سجن ، والروم تحفهم بالأسلحة ، فرأوا الموت ، ووقع البهت ، وخرِسَت الألسنة . »[2]

حوّل الطاغيةُ مسجدَ بَلَنْسِيَة الجامع إلى كنيسة[3] . يتبين ذلك مما يذكره ابن الأبّار حين ترجم أبا بكر بن المعلم حمدون بن محمد من أهل بلنسية أنه : « تولى الصلاة والخطبة بمسجد رَحْبَة القاضي مِن بلنسية بعد تغلب الروم عليها واحتيازهم المسجد الجامع بها . وذلك سنة تسع وثمانين وأربع مئة ، ثم خرج منها مع جماعة من أهلها فراراً

(١) البيان المغرب ، ٤/٤٠ . مشى بريحه : أصدر أمره .

(٢) البيان المغرب ، ٤/٤٠ ـ ٤١ .

(٣) الإسلام في المغرب والأندلس ، ١٩٣ .

بدينهم في شهر ربيع الآخر سنة تسعين وأربع مئة ، بعضه من تاريخ ابن علقمة . »[1]

شرح أحداث بلنسية هذه مؤرخون آخرون ، أمثال ابن الأبَّار[2] وابن الخطيب في **أعمال الأعلام** و**الإحاطة**[3] . ونقل هؤلاء وغيرهم من ابن علقمة[4] أو من غيره شذوراً مهمة ، وسبق ذكر شواهد ممَّا دوَّنه هؤلاء المؤرخون عن **المأساة البَلَنْسِيَّة** وسترد شواهد أخرى .

تسلم رذريق أموال القادر من القاضي ابن جَحَّاف ، الذي بقي في مَنْصِبه قاضياً للمدينة ، لكنه أخذ يشدد عليه في السؤال عما إذا كان لديه بقية من هذه الأموال . ثم طلب إليه أن يُقسم على ذلك وأنه إن وجد شيئاً منها فيما بعد فسيسفك دمه . أقسم القاضي على ذلك أمام شهود من المسلمين والنصارى ، ثم اتهمه رذريق بإخفاء بعض المال فأصدر حكمه بإعدام القاضي ابن جَحَّاف حرقاً في ساحة المدينة . لعلها الموضع يعرف اليوم باسم : « رَحْبَة القاضي » (Rahbatalcadi) أمام كنيسة (Santa Catalina) ، أصلها مسجد لعله « مسجد رَحْبَة القاضي » . ورد ذكرها عند ابن الأبَّار[5] وقد تكون هذه الرحبة هي ساحة السوق (La Plaza Mercado) الحالية في بلنسية[6] .

ولنستمع إلى وصف مؤرخينا لهذا الحادث الجلل .

يقول ابن الأبَّار في **الحلة السيراء** بصدد الحديث عن ابن جَحَّاف : « فقضى الله أن تَسَلَّط عليه الطاغية الكَنْبِيطُور ، بعد أن أمَّنَه في نفسه وماله عند دخوله بلنسية صلحاً ، وتركه على القضاء نحواً من عام ، ثم اعتقله وأهلَ بيته وقرابته وجعل

---

(١) التكملة ، ٢٨٦/١ (رقم : ٧٧٠) . كذلك : المعجم ، ابن الأبار ، ١٩٦ (رقم : ١٦٧) .

(٢) التكملة ، ٤١٢/١ (رقم : ١١٦٥) ؛ الحلة السيراء ، ١٢٥/٢ - ١٢٦ ، ١٦٨ . مواضع أخرى وردت الإشارة إليها في الحواشي .

(٣) أعمال الأعلام ، ٢٠٣/٢ - ٢٠٥ ؛ الإحاطة ، ٨٣/١ .

(٤) انظر : دول الطوائف ، ٢٥١ - ٢٥٢ ؛ « السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين » ، المجلة التاريخية المصرية ، ٥٧/١/٣ .

(٥) التكملة ، ١٩٥/١ (رقم : ٥١٩) ، ٢٨٦ (رقم : ٧٧٠) .

(٦) الحلل السندسية ، ٨٥/٣ .

يطلبهم بمال القادر بن ذي النون : ولم يزل يستخرج ماعندهم بالضرب والإهانة وغليظ العذاب ، ثم أمر بإضرام نار عظيمة كانت تلفح الوجوه على مسافة بعيدة ، وجيء بالقاضي أبي أحمد يرسف في قيوده ، وأهله وبنوه حوله ، فأمر بإحراقهم جميعاً . فضج المسلمون والروم ، وقد اجتمعوا ، ورغبوا في ترك الأطفال والعيال ، فأسعفهم بعد جهد شديد . واحتُفر للقاضي حفرة — وذلك بوَلْجَة بَلَنْسِيَة — وأُدخل فيها إلى حُجْزَته ، وسُوِّي التراب حولَه ، وضُمت النار نحوه . فلما دنت منه ولفحت وجهه ، قال : بسم الله الرحمن الرحيم ، وقَبَض على أقباسها وضمها إلى جسده يستعجل المنية ، فاحترق رحمه الله ، وذلك في جُمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وأربع مئة . ويومَ الخميس منسلخ جُمادى الأولى من السنة قبلها كان دخول الكنبيطور المذكور بلنسية . »(1)

يذكر ابن بَسَّام (٥٤٢ هـ) ، معاصر هذه الأحداث ، نصاً آخر فيه زيادة نافعة تلقي ضياءاً على الحادثة ، ذلك أنه لما « تم للطاغية لُذْرِيق مراده الذميم من دخول بلنسية سنة ثمان وثمانين على وجهٍ من وجوه غَدْره . وبعد إذعان من القاضي المذكور بسطوة كبره ودخوله طائعاً في أمره على وسائل اتخذها ، وعهود ومواثيق بزعمه أخذها ، لم يمتدَ لها أمد ولا كثر لأيامها عدد ، وبقي معه مُدَيْدة يضجر من صحبته ويلتمس السبيل إلى نكبته ، حتى أمكنته ، زعموا بسبب ذخيرة نفيسة من ذخائر ابن ذي النون ، كان لُذْريق لأول دخوله قد سأله عنها واستحلفه بمحضر جماعة من أهل الملتين على البراءة منها ، فأقسم بالله جهد أيْمانه غافلاً عما في الغيب من بلائه وامتحانه ، وجعل لُذْريق بينه وبين القاضي المذكور عهداً أحضره الطائفتين وأُشهد عليه أعلام الملتين ، إن هو انتهى [بعد] إليها وعثر عنده عليها ، ليستحلن إخفار ذِممه وسفك دمه . فلم ينشب لذريق أن ظهر على الذخيرة المذكورة لديه لما كان قَدَّرَ الله [حُمَّ] من إجراء محنته على يديه ، ولعلها كانت منه حيلة أدارها وداهية من دواهيه أسداها وأثارها ، فانحنى على أمواله بالنهاب وعليه وعلى أهله وولده بأنواع العذاب ،

(1) الحلة السيراء ، ٢/١٢٦ . راجع كذلك : أعمال الأعلام ، ٢/٢٠٤ ؛ البيان المغرب ، ٣/٣٠٦ ، ٤/٣٧ ، ١٤٨ ؛ الحلل السندسية ، ٣/٨٥ .

حتى بلغ جهده ويئس مما عنده ، فأضرم له ناراً أتلفت ذِماءه وحرقت أشلاءه . حدثني مَن رآه في ذلك المقام وقد حُفر له حفير إلى رُفْغَيه وأضرمت النار حواليه وهو يضم ما بَعُد من الحطب حواليه [بيديه] ليكون أسرع لذهابه وأقصر لمدة عذابه ، كتبها الله له في صحيفة حسناته ، ومحابها سالف سيئاته ، وكفانا بعد اليوم نقماته ، ويسَّرنا إلى مايزْلُف إلى مرضاته . وهمَّ يومئذ [الطاغية] — لعنه الله — بتحريق زوجته وبناته ، فكلَّمه فيهن بعض طغاته . فبعد لأْي مالفته عن رأيه وتخلصهن من يدي نكدائه . »[1]

هكذا فعل ويفعل الطاغية ليُزيل كل أحد يمكن أن يقف في وجهه ، وله الكلمة في حيّه والاستجابة للنفير وينقاد إليه الجم الغفير . فكان ابن جَحَّاف رأساً فيهم يقوم لرد الأذى عنهم ، لذا أطاح به القمبيطور لينثني على أمثاله بالحرق والتهجير « ولم يكن غضب الطاغية عليه إلا لشدة صبره على تلك الأزمة ، واجتهاده في طلب النصرة ، ودفعه إياه بالمطاولة ، رجاءً في استمساك البلدة وابقاء الكلمة . »[2] فهو لايكف ولايشبع ، فيحرث الأرض طغياناً ويرتع . حتى تأتيه كف مؤمن ، تَلْطِم - باسم الله - رأسه المغرور وتُمْعِن ، فتذره حصيداً ، ولرياح الإيمان طَريداً ﴿ وكان الله على كل شيءٍ مقتدراً ﴾[3].

قام رُذريق بكل ذلك رغم معايشته للمسلمين ، وكان يَحظى بحسنِ المعاملة والتقدير ، ورأى الإنصاف الذي غمر أبناء ملته ، متمتعين به في المجتمع الإسلامي .

ليس ذلك فقط بل أحرق رذريق أيضاً مجموعةً من أهل بلنسية وأعيانها ، نعرف أسماء المشهورين منهم[4] : أمثال الشاعر الشهيد والأديب اللبيب أبي جعفر أحمد بن عبد الولي بن أحمد بن عبد الولي البلنسي الملقب البَتِّي ، نسبة إلى قرية بَتَّة من قرى

---

(١) الذخيرة (مخطوطة) ، ٣/٤٨ — ٤٩ (= الحلل السندسية ، ٣/٧٧ — ٧٨) .كذلك : المجلة التاريخية ، ٣/١/٧٣ . انتفع بالحلل في قراءتها وزيادة ما بين الأقواس منها . الذِّماء : بقية الروح . الرفغ : أصل الفخذ . وورد اسم لذريق في المخطوطة رذريق .

(٢) البيان المغرب ، ٤/٣٨ . كذلك : أعمال الأعلام ، ٢/٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٣) من الآية ٤٥ من سورة الكهف .

(٤) انظر : الحلل السندسية ، ٣/٧٨ .

بلنسية . نقل عدد من المؤرخين خبر استشهاده حرقاً على يد القمبيطور عن أبي محمد عبد الله الرُّشَاطي الأندلسي المَرِيي (٤٦٦ ــ ٥٤٢ هـ) من كتابه **اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار**[(١)] ، أو من غيره . نقل ابن الأبّار أنه « كان ربما كتب لبعض الوزراء ولم يكن ممن يعلّم . أحرقه القَنْبِيطُور ــ لعنه الله ــ حين تغلبه بالروم على بلنسية ، وذلك في سنة ثمانين وأربع مائة . »[(٢)] وذكر « أن إحراقه كان سنة تسعين وأربع مئة . »[(٣)]

لدى ابن عِذاري وغيره خلاصة مُعَبِّرة عما جرى لابن جَحَّاف وأمثاله ولغيرهم من أهل بلنسية على يدالطاغية الكنبيطور وما أذيقت المدينة من الويلات وتجرعها كؤوس النكبات . طال ــ كما بَعُد ــ إرهاق الناس بالمطالب الجشعة ، المملوءة بالحقد الناقع والجور البارع ، وانهاكهم بضغوطه المتنمّرة ومحنها المكشِّرة ، قضمت انسهم وأتلفت جنسهم . بعدها ساقهم إلى الموت جزافاً ، فألقى بهم في شعلة النار ذِفافاً . حين تمكن الطاغية من المدينة واستنزف خيرها واستصفى أموالها وأحكم أقفالها .

ساق رذريق قاضيَ بلنسية ابنَ جَحَّاف أبا المُطَرِّف وهو في قيوده يرسُف . دافعاً به إلى الموت حرقاً في ساحة رَحْبَة القاضي البلنسية . أضرم هنالك النار واحتفر له حفرة ، حاشداً الناس للمشاهدة والعبرة . أحضر أهله وبنيه حَوله وقرر عليهم الحرق مثله ، في جمادى الأولى سنة ٤٨٨ هـ . فاجتلبه على هذه الحال « وأمر به

(١) انظر ترجمة الرشاطي : الصلة ، ٢٩٧ (رقم : ٦٥٣) ؛ المعجم ، ابن الأبار ، ٢٢٧ (رقم : ٢٠٠) ؛ وفيات الأعيان ، ١٠٦/٣ ؛ نفح الطيب ، ٤٦٢/٤ . استشهد في سقوط مدينة المرية الأول سنة ٥٤٢ هـ .

(٢) التكملة ، ٢٤/١ (رقم : ٥٦) . كذلك : الحلةالسيراء ، ١٢٧/٢ ، ١٦٨ ؛ البيان المغرب ، ٣٨/٤ ؛ المطرب من أشعار أهل المغرب ، ١٩٥ ؛ نفح الطيب ، ٢١/٤ ، ٤٥٦ ؛ الوافي بالوفيات ، الصفدي ، ١٦٠/٧ ؛ الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي الأنصاري ، ٢٧٣/١ ــ ٢٧٦ (رقم : ٣٥٣) ، ٥٩٠/٢/٥ (حاشية) ؛ خريدة القصر وجريدة العصر ، العماد الاصفهاني ، ٣٥٥/١/٤ ؛ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، ٣٣٢/١ (رقم : ٦٢٩) ؛ الحلل السندسية ، ٧٨/٣ ، ٨٦ ؛ دول الطوائف ، ٢٤٦ .

(٣) التكملة ، ٢٤/١ . كذلك : الذيل والتكملة ، ٢٧٦/١ .

وبجملته إلى ذلك الضرم ، وقد لفح الوجوه على المسافة البعيدة . فضج المسلمون والروم [النصارى] ، وتضرعوا إليه في ترك الأطفال والعيال ، إذ لاذنب لهم ، ولاعلم بتلك الأمور عندهم ، فأسعف الرعية في رغبتهم بعد جهد ومدة ، وترك النساء والصبية . وحفرللقاضي حفرة وأدخل فيها إلى حُجْزَته ، وسُوِّي التراب حوله ، وضمت النار إليه فلما دنت منه ولفحت وجهه ، قال : (بسم الله الرحمن الرحيم) ثم ضمها إلى جسده فاحترق ، رحمه الله تعالى .

« ولم يكن غضب الطاغية عليه إلا لشدة صبره على تلك الأزمة ، واجتهاده في طلب النصرة ، ودفعه إياه بالمطاولة ، رجاء في استمساك البلدة [للإسلام] وإبقاء الكلمة [فيها] .

«وعمد الطاغية — لعنه الله — بعد إحراق القاضي — رحمه الله — إلى الجِلَّة من أهل بلنسية ، فثقَّفهم [بحال تفرقة بين سجون الرجال منهم والنساء ، يتجاوب صراخهم أمام المحنة] وأغرمهم حتى استأصل جميع ما عندهم ، وجعل الناس في المحنة أسوة ، يأخذهم على طبقاتهم ، حتى عمتهم المحنة ، وهلك في ذلك الثقاف كثير منهم ، رحمهم الله وجعلها كفارة لهم . »[1]

التحق برذريق بعض الأشرار ، وقاموا بأعمال الأذى ضدَّ المسلمين وأخذوهم أسرى « إلى أن انتهى بيعهم للمسلم الأسير بخبزة وقدح خمر ورطل حوت ، ومن لم يفد نفسه قطع لسانه وفقئت أجفانه ، وسلطت عليه الكلاب الضارية ، فأخذته أخذةً رابية . »[2] بعد كل هذا وجدنا من يثني على رذريق ، بل ـ وكذلك ـ من يبرر جرائمه[3] .

صوَّر الشعر الأندلسي هذه المأساة . يقول فيها الشاعر البلنسي المعاصر أبو إسحاق ابن خفاجة[4] (٤٥٠ — ٥٣٣ هـ) .

---

(١) البيان المغرب ، ٤/٣٧ — ٣٨ . ما بين الأقواس المعقوفة من : « أعمال الأعلام » ، ابن الخطيب ، ٢/٢٠٤ — ٢٠٥ . كذلك : الحلة السيراء ، ٢/١٢٦ (= أعلاه ، ٣٨٠ — ٣٨١) ؛ الذخيرة (مخطوطة) ، ٣/٤٨ — ٤٩ (= أعلاه ، ٣٨١ — ٣٨٢) . الثقاف : التأديب والامتحان والأذى .

(٢) تاريخ الأندلس ، ١٠٣ — ١٠٤ (نص ابن الكردبوس) .

(٣) انظر : أعلاه ، ٣٧٤ . (٤) راجع : نفح الطيب ، ٤/٤٥٥ .

عاثت بساحتك الظبــا يــا دارُ	ومحا محــاسنك البــلى والنــار
فإذا تردّد في جنــابك ناظر	طــال اعتبــار فيك واستعبــار
أرضٌ تقــاذفت الخطوب بأهلهــا	وتمخضت بخرابهــا الأقــدار
كتبت يد الحدثــان في عرصاتها	لا أنت أنت ولا الديــار ديار

و — استعادة بلنسية

اهتزت الأندلس لسقوط بَلَنْسِيَة ، كما كان بالنسبة لطُلَيْطُلَة . فلمّا وصلت أخبارها إلى يوسف بن تاشفين سَيَّر جيشاً نحو الأندلس ، وعند وصوله سبته تولى قيادته ابن أخيه محمد بن تاشفين[1] الذي توجّه نحو بلنسية وضرب الحصار حولها ، وجرت مناوشات أصيب فيها المسلمون .

كانت الجيوش المرابطية تخوض في ذات الوقت معارك أخرى غربي الأندلس قرب طُلَيْطُلَة ، مع جيوش الفُونْش (السادس) الذي هُزم في هذه المعارك . وفي أحدها قتل ديجو (Diego) — ابن رُذْريق الوحيد — سنة ٤٩١ ﻫ (١٠٩٧م)[2] . كمادارت معركة هزم فيها القَشتاليون وقتل قائدهم البارهانش (Alvar Hañez) قائد الفونش الشهير قرب قُونْقَه (Cuenca) . جرت معركة أخرى مع فرقة من جيش رذريق قرب جزيرة شُقَر أبيدت فيها هذه الفرقة .

كان قائد هذه الوقائع أو أغلبها أبوعبدالله محمد بن عائشة بن يوسف بن تاشفين[3]. أصدر يوسف أمراً إلى ابنه بالتوجُّه نحوَ هذه الأماكن ، من قرطبة أو مَرْسِيَه ، وكان أمير المسلمين في الأندلس ، لثالث جواز له إليه ، « أنفذ جملة من جيشه إلى كُنْكَه ، وقَدّم عليه محمد بن عائشة فالتقوا مع البرهانس — لعنه الله — فانهزم أمامهم ، واستأصلوا محلته ، وانصرفوا فرحين ، بالظفر مستبشرين .

« ثم نهض [أي محمد بن عائشة] إلى ناحية جزيرة شُقَر ، وذكر أنه يؤمها ويقصدها . فالتقى بجملة من جند القنبيطور ، فأوقع بهم وقتلهم أشر قتلة . ولم يفلت

---

(١) انظر : جدول أمراء المرابطين : ص ٤٤٢ .

(٢) *Manual de historia ds Espana*, I, 614.

(٣) عنه انظر : الحلة السيراء ، ٢/٢١٢ ؛ نظم الجمان ، ٦/٨ .

إلا اليسير من تلك الجملة ، فلمّا وصل الفلُّ إليه ، مات همّاً وغمّاً لا رحمه الله . »[1]
كل ذلك أثر في نفس رذريق الطاغية ، فتوفي سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩ م)[2] .

توجّهتْ قوات مرابطية لحصار بلَنسيَة بقيادة الأمير أبي محمد مَزْدَلِي - (استُشهد ٥٠٨ هـ)[3]- ابن عم يوسف بن تاشفين، سنة ٤٩٥ هـ[4] . لكن الفُونْش كان قد عجَّل بدخولها استجابة لطلب جيش رُذْريق ومن معهم « فأقام الأذفونش ببلنسية نحو شهر والروم [النصارى] ترومه على التمسك بها ويرغبونه فيها ويهونون عليه أمر جيوش المسلمين »[5] . نصح الفونش شيمانه (Jimena) بتَرك المدينة ، وكانت تحاول الدفاع عنها . اضطروا جميعاً لترك المدينة وخرجت شيمانه ومعها رفاة زوجها القنبيطور والأموال التي انتهبها . ثم خرج الفونش من بلنسية ، بعد حرق المدينة التي غدت أطلالاً دارسة . دخل المرابطون بلنسية بعد استرجاعها في منتصف رجب سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م)[6] .

ترك الفونش وجيشُه بلنسية « وجدّ في إخلائها وخرج بجميع من كان فيها من الروم ، وأضرمت النار في الجامع والقصر وبعض الدور ، وصدر الأمير مزدلي إلى بلنسية في شهر رجب فأنقذ الله بلنسية من يد الشرك وملكة الروم وطهّرها وصرف إليها نور الإسلام ودين محمد عليه [الصلاة] والسلام بعد ثمانية أعوام وشهر ونصف ، وبعد نفوذ القدر السابق في علم الله تعالى ، ... ، وهلك من هلك بها ، جعل الله ذلك

---

(١) تاريخ الأندلس ، ١٠٨ - ١٠٩ (نص ابن الكردبوس) .

(٢) *Manual,* I, 615.

(٣) البيان المغرب ، ٤/٦٠ ؛ نظم الجمان ، ٦/١٩ .

(٤) البيان المغرب ، ٤/٤١ .

(٥) البيان المغرب ، ٤/٤٢ .

(٦) التكملة ، ١/٤٢٢(رقم : ١١٩٨) .
أشار ابن الأبار (التكملة ، ٢/٩١٤ ، رقم : ٢١٤٣) إلى هذا الخبر كذلك حين ترجم أبا محمد عبد الله بن سعيد الوجدي (بلنسية ، قبل ٥١٠ هـ) ، من أنه « ولي قضاء بلنسية - لأول فتحها في الدولة اللمتونية ، واسترجاعها من الروم - في رجب سنة ٤٩٥ . وعلى يديه وتحت نظره تم بناء المحراب بالمسجد الجامع منها في سنة ثمان وتسعين . وفي جانبه ،كان اسمه مخطوطاً إلى أن ملكها الروم ثانية في آخر صفر سنة ٦٣٦ . »

تمحيصاً لهم وتطهيراً بعزته . »[1] بذلك عاد ثغر بلنسية للإسلام ، بعد العيث والخراب والإهلاك الذي بثه الطاغية لذريق تحت حماية الفونش ، بروح صليبية غادرة ماكرة لاترعى حرمة ولاتعرف خلقاً .

وباختفاء الطاغية ورحيل أتباعه وأعوانه رأت تلك الربوع وجه الطمأنينة يطل عليها وريح الهدوء تهب فوقها[2] .

٣ ــ مملكة إشْبِيلِيَة

تأتي مملكة إشْبِيلِيَة في مقدمة دول الطوائف ، من حيث سعتها وتفوقها السياسي . وكان لها شأن في أحداث هذه الفترة ، لاسيما في غربي الأندلس ، حيث تقوم هذه المملكة . كما كان لها شأن وافر أيضاً في النشاط العلمي . وقد حكم بنو عَبَّاد هذه المملكة وحاولوا إلحاق مناطق أو ممالك أخرى إلى مملكتهم ، وخضعت قُرطبة ــ لوقت مَّا ــ لهذه المملكة[3] .

حكمت أسرة بني عباد إشبيلية موطنها حتى انتزعها المرابطون ، وظهر نجم هذه الأسرة ، عقب ذهاب الخلافة ، على يد كبيرها القاضي أبي الوليد اسماعيل بن محمد بن عَبَّاد اللَّخْمي . وشغل أفراد من هذه الأسرة مناصب للحكم المستنصر وابنه هشام المؤيد والمنصور بن أبي عامر . تولى جدهم أبو الوليد الشرطة لهشام المؤيد وخُطة الإمامة والخَطابة بالجامع الأعظم .

يقول ابن حَيَّان عن هذه الأسرة : « ثم انتقلوا إلى إشْبِيلِيَة فنَموا ، وتصدّروا للوجاهة والنباهة في دولة الحكم المستنصر بالله ودولة ابنه هشام وحاجبه المنصور . وقد كان نشأ فيهم صدر بيتهم ومؤسس مجدهم اسماعيل بن عَبَّاد ؛ فقدّمه المنصور على خُطة القضاء بها؛ فاتصل استعماله إلى زمن انقراض الإمامة الأموية . »[4] ولما « انقرضت دولة الإمامة من قرطبة ونزول الفتنة المبيرة فأقام على خُطة القضاء والأمانة

---

(١) البيان المغرب ، ٤٢/٤ .

(٢) راجع : دول الطوائف ، ٢٤٦ ــ ٢٤٨ .

(٣) انظر : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، عبد الواحد المراكشي ، ١٨٩ ؛ دول الطوائف ، ٣١ ، ٦١ ، ٧١ ؛ أعلاه ، ٣٢٥ ، ٣٤٥ .

(٤) أعمال الأعلام ، ١٥٢/٢ .

بإشْبيلِيَة » على حد تعبير ابن حيَّان[1] . ثم إنه نظر « في صلاح القطر ، وحمله على الطريقة المثلى من السياسة إلى أن نزل في عينيه الماء سنة ٤١٤ ؛ وقدح ؛ فعاد بعض بصره ؛ فلم يستجز الحكم بين الناس ؛ فولّى ولده أبا القاسم القضاء ، واقتصر هو على رياسة البلد وتولي رأي المشيخة . »[2] كان اسماعيل عميد هذه الأسرة ومؤسس ملكها في إشبيلية . يبدو أن الذين توالوا بعده من أسرته في الحكم تنقصهم عدد من صفاته ، والمعتمد لديه شيء منها . وهم : ذو الوزارتين أبو القاسم محمد بن إسماعيل ابن عباد ، ثم ابنه أبو عمرو عَبَّاد بن محمد الملقب بالمعتضد ، ثم ابنه القاسم محمد بن عباد الملقب بالمعتمد وهو آخرهم .

أثنى مؤرخ الأندلس ابن حَيَّان القرطبي على اسماعيل فقال :

« اسماعيل بن عَبَّاد قاضيهم القديم الولايـة ، ورجل الغرب قاطبة المتصل الرئاسة في الجماعة والفتنة . وكان أيسر مَن بالأندلس وقته : ينفق من ماله وغَلاّته ، لم يجمع درهماً قط من مال السلطان ، ولا خَدَمَه . وكان واسع اليد بالمشاركة . آوى صنوف الجالية من قرطبة عند احتدام الفتنة . وكان معلوماً بوُفور العقل وسُبوغ العلم والزَّكانة ، مع الدهاء وبعد النظر وإصابة القَرطسة . »[3] ثم إن اسماعيل وافاه أجله سنة أربع عشرة وأربع مائة . فيها خرجت إشبيلية عن طاعة الحموديين . إذ لما خرج القاسم بن حمود الملقب بالمُستعلي (الخليفة الحمودي) من قرطبة توجه إلى إشبيلية ، فأغلقت أبوابها دونه ، وأسندوا أمرهم إلى ثلاثة من رجالهم الأعيان : أحدهم وأقواهم محمد بن اسماعيل بن عباد ، ثم الفقيه أبو عبد الله الزبيدي ، والوزير أبو محمد عبد الله بن يَرِيم ، سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م) . وكانوا سويَّة يشتركون في إدارة شؤون المدينة ، ثم انفرد ابن عَبَّاد بالأمر ورضي به الناس[4] .

---

(١) البيان المغرب ، ١٩٤/٣ . (٢) أعمال الأعلام ، ١٥٢/٢ .

(٣) الحلة السيراء ، ٣٥/٢-٣٦ . كذلك : ترتيب المدارك ، ٣-٧٤٩/٤ ؛ المرقبة العليا ، ٩٤ . الغرب : غرب الأندلس . الزكانة : الفراسة ، صواب الظن وصدقه . القرطسة : هدف يوضع ليتدرب الرماة على إصابته .

(٤) الحلة السيراء ، ٣٧/٢ ؛ البيان المغرب ، ٣١٤/٣ - ٣١٥ ؛ دولة الاسلام في الأندلس ، ٦٦٢/٢ - ٦٦٤ ؛ دول الطوائف ، ٣٤ .

جرت بعض أحداث بين مملكة إشبيلية وغيرها من دول الطوائف المجاورة ، حتى وفاة القاضي محمد بن اسماعيل بن عَبَّاد سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤٢ م) ، ويعتبر هذا القاضي مؤسساً لملك بني عباد ، بقوته وحزمه ، وكانت هذه المملكة قوية بين ملوك الطوائف ، وورثه ابنه أبو عمرو عَبَّاد الملقب بالمُعْتَضِد بالله . وبذل هذا جهوداً كبيرة في ضم إمارات غربي الأندلس إلى إشبيلية وتحقق له بعضها . وفي أيامه تخلى أبو زيد عبد العزيز البكري (والد أبي عبيد البكري ، الجغرافي) عن إمارته في وَلْبَه وجزيرة شَلْطِيش ، ولجأ إلى قُرطبة ، كما سبق ذكره[١] . وصف ابن بَسَّام المعتضد بن عباد أنه « قُطب رحى الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة »[٢] .

صرف المعتضد جهوداً عسكرية كبيرة لهذا الشأن ، وكان أولى بها أن تصرف في تقوية مملكته وفي مصلحة الأندلس العامة ضد الأخطار الخارجية ، وتكاثر الأعداء وكَلَبهم ، ويبدو أن هؤلاء الملوك أهملوا حسابهم في بادىء الأمر ، ومهدوا بفعالهم لظهورهم عليهم بهذا الشكل بل وأطمعوهم فيهم[٣] .

أمَا كان أفضل لو استعمل المعتضد حزمه وجرأته وقوة مجالدته في التفاهم مع جيرانه للوقوف ضد قوى ملك قشتالة فِردِلَنْد (الأول ، Fernando I) ، الذي تسميه الرواية الإسلامية أيضاً فِردْلَنْد[٤] . وهو والد أدْفُونش (السادس)[٥] الذي استولى على طليطلة (٤٧٨ هـ)[٦] ، والمنهزم في معركة الزَّلاّقَة (٤٧٩ هـ)[٧] . في حين نجد المعتضد بن عبَّاد يخضع لفَرْدِلَنْد ويذهب بنفسه إلى معسكر الملك القشتالي ليطلب إليه الصلح ويتعهد بدفع المال وتنفيذ مطالبه[٨] . أمَا كان الأجدر به

---

(١) أعلاه ، ٣٥٥ .

(٢) الذخيرة ، ٢/١١ — ١٢ (خطية مكتبة المتحف العراقي) (= الحلة السيراء ، ٢/٣٩) .

(٣) راجع : نفح الطيب ، ٤/٣٥٦ ؛ دول الطوائف ، ٣٩ ، ٤٨ ، ٧٤ .

(٤) البيان المغرب ، ٤/٥٠ ؛ أعمال الأعلام ، ٢/٣٣٠ .

(٥) انظر : الحلة السيراء ، ٢/١٤٢ .

(٦) أعلاه ، ٣٣٠ وبعدها .

(٧) أدناه ، ٤٠٣ وبعدها .

(٨) انظر : دول الطوائف ، ٤٨ .

أن يقف هذا الموقف الأخير مع إخوانه أمراء الطوائف ويشحذ الهمة للوقوف ضد القوى المتربصة الغـادرة في الشمال ؟ وفي ذلك مصلحة له ولهم وللأندلس وأهله وللإسلام وقوته . فلم الاستئساد هنا والاستخذاء هناك ؟ لكن ملوك الطوائف هؤلاء ذاقوا وبال أمرهم وجَنَوْا مازرعته أيديهم ، وإنك لاتجني من الشوك العنب . لم تفرق القوى المعادية بينهم ، بل ربما كانت الصداقة والمواصلة سبباً في التعجيل بالمصير الذي أعد للجميع ، وفيما حدث لطليطلة ــ التي آوى ملكها المأمون الفونش (السادس) ــ يكمن المثل . لكن الله ــ سبحانه ــ قيّض للأندلس مَن يدفع عنها الغائلة ويعينها على الحماية والصيانة .

توفي المعتضد سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٩ م) ، بعد ولاية ثمانية وعشرين عاماً ، وخلفه ابنه أبو القاسم محمد بن عباد الملقّب بالمعتَمِد على الله ، الذي يبدو ــ رغم مايؤخذ عليه ــ أقرب أمراء هذه الأسرة شبهاً بمؤسسها القاضي أبي الوليد اسماعيل بن عباد المذكور بحسن السيرة والعفة عن القسوة . وصف ابن الأبّار المعتمد بن عباد بأنه « من الملوك الفضلاء ، والشجعان العقلاء ، والأجواد الأسخياء المأمونين . عفيف السيف والذيل »[1] .

كانت أيامه نهاية بني جهوَر ، فضم قرطبة إلى مملكة إشبيلية . واستمر المعتمد على سياسة سلفه في بذل الجهود لتوسيع رقعة هذه المملكة ، حتى كان استيلاء أذفُونْش بن فِردِلَند (الفونسو السادس) على طليطلة في محرم سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) . وأيقظ هذا الحادث ــ وأمثاله قَبْلَه ــ المعتمد ، وبقية أمراء الطوائف ، من أحلامهم وخطورة أطماعهم وآثارها السيئة على دينهم وأمتهم . وجرت أحداث خلال السنوات العصيبة التي رافقت سقوط طليطلة ومضايقات من قبل الفونش (السادس) لابن عباد جعلته ينـدم ويدرك « فداحة الأخطار التي تردّى فيها بمصانعة الفونش ومحالفته واستعدائه على زملائه أمراء الطوائف ، ولاحت له طوالع المصير المروع الذي سوف ينحدر إليه ، إذا لم تتداركه يد العناية بعون أو نجدة غير منتظرة »[2].

(١) الحلة السيراء ، ٢/٥٤ . كذلك : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، عبد الواحد المراكشي ، ١٥٨ ؛ أعمال الأعلام ، ٢/١٥٧ . عنه وعن أولاده ، راجع : الحلة السيراء ، ٢/٦٢ ، ٦٨ ، ٧٠ .

(٢) دول الطوائف ، ٧٤ .

قائمة نسب بني عباد[1]

القاضي أبو الوليد اسماعيل بن محمد بن عَبَّاد اللَّخْمي (٤١٤ هـ)

(١) ذو الوزارتين أبو القاسم محمد (٤٣٣ هـ)

(٢) أبو عمرو عباد ، المعتضد بالله
(٤٠٧ : الاثنين غُرة جُمادى الآخرة
٤٣٣ — الأحد ٦ جُمادى الآخرة ٤٦١ هـ)

اسماعيل
(قُتل أوائل المحرم ٤٣١ هـ)

(٣) أبو القاسم محمد ، المعتمد على الله (الظافر ، المؤيد)
(٤٣٢ : ٤٦١ — ٤٨٤ : ٤٨٨ هـ)

أبو الحسين عبيد الله (أكبرهم) ، الرشيد (ولي عهد أبيه ، ولاه قضاء إشبيلية)

أبو بكر عبد الله ، المعتد

أبو سليمان الربيع ، تاج الدولة

أبو عمرو عباد ، سراج الدولة (الظافر) ، (تولى قرطبة حتى مقتله : ٦ شوال ٤٦٢ — ٤٦٧ هـ)

أبو خالد يزيد ، الراضي (تولى الجزيرة الخضراء ثم أُنْدة

أبو هاشم المعلَّى ، زين الدولة

أبو نصر الفتح ، المأمون (تولى قرطبة حتى مقتله ٢٧ ذي القعدة ٤٦٧ — ٤٨٤ هـ)

أ — استدعاء المرابطين للأندلس

بين أخاديد هذه الظروف ظهرت فكرة وشاعت ، كانت وليدة ولها جذور، تردّدت قبل ذلك . هي الاستعانة بالأخوة المرابطين في العُدْوة المغربية ، حيث أقاموا فيها دولة مجاهدة . وكان يُوسُف بن تاشفين أميرها — في ذلك الوقت — مشهوراً بتقواه وجهاده وقوته وحسن إدارته وسياسته .

---

(١) انظر كذلك : الحلة السيراء ، ٢/٣٤ — ٧٥ ، ١٧٧ ؛ نفح الطيب ، ٢٥٦/٤ .

مضت سنوات عدة على فكرة الاستعانة بالمرابطين ، نمت خلالها . لكنها ظهرت قوية ، أثناء وبعد سقوط طُلَيْطُلَة . عُقِد في قُرطبة اجتماع حضره الزعماء والفقهاء وكثير من الناس ، منهم المُعْتَمِد بن عَبَّاد ، اتُّخِذَ فيه قرار الموافقة على استدعاء المرابطين إلى الأندلس للنصرة . وأُشير — خلاله — إلى التخوُّف من نتائج ذلك ، فأجاب المعتمد « بكلمته السائرة مثلاً : (رَعْيُ الجِمال خير من رعي الخنازير) أي أن كونه مأكولاً لابن تاشُفين أسيراً يرعى جماله في الصحراء ، خير من كونه ممزقاً لابن فِرِدْلَند أسيراً يرعى خنازيره في قَشْتَالَة »[1] .

عندها دعا المعتمد غيره من ملوك الطوائف إلى هذا الأمر ، اجتمعوا لاتخاذ ترتيبات عبور الوفد إلى العُدوة ودعوة أمير المسلمين ابن تاشفين ، الذي استجاب : عقيدةً في الله وجهاداً في سبيله وإعلاءً لرايته وإنقاذاً لأخوة الدين . فكانت معركة الزَّلاَّقَة سنة ٤٧٩ هـ . « فلما عزم خاطب جارَيْه المتوكل عمر بن محمد صاحب بَطَلْيَوْس ، وعبد الله بن حَبُّوس بن ماكسن الصِّنْهاجي صاحب إغْرَناطة يأمرهما أن يبعث إليه كل واحد منهما قاضي حضرته ، ففعلا ؛ ثم استحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن أدهم ، وكان أعقل أهل زمانه ؛ فلما اجتمع القضاة عنده بإشبيلية ، أضاف إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون ، وعرَّفهم أربعتهم أنهم رسلُه إلى يوسف بن تاشفين ، وأسند إلى القضاة مايليق بهم من وعظ يوسف ، وترغيبه في الجهاد ، وأسند إلى ابن زيدون ما لا بدّ منه في تلك السفارة ، من إبرام العقود السلطانيَّة . وكان يوسف ابن تاشفين لا تزال تفد عليه وفود ثغور الأندلس ، مستعطفين ، مجهشين بالبكاء ، ناشدين الله والإسلام ، مستنجدين بفقهاء حضرته ، ووزراء دولته ، فيستمع إليهم ، ويصغي لقولهم ، وترقّ نفسه لهم ، فما عبرت رسل ابن عبَّاد البحر إلا ورسل يوسف بالمرصاد ؛ وقد آذن صاحب سبتة بقصده الغزو ، وتشوّقه إلى نصرة أهل الإسلام بالأندلس ، وسأله أن يخلي الجيوش تجوز في المجاز ؛ فتعذّر عليه ، فشكاه يوسف إلى الفقهاء ، فأفتَوا أجمعين بما لايسرّ صاحب سبته . »[2]

---

(١) الروض المعطار ، ٨٥ . كذلك : أعمال الأعلام ، ٢/٢٤٥ ؛ وفيات الأعيان ، ٧/١١٥ (= البيان المغرب ، ٤/١١٤) .

(٢) الروض المعطار ، ٨٦ . كذلك : الحلة السيراء ، ٢/٩٨ — ٩٩ (= أدناه ، ٣٩٦) .

الظاهر أن فكرة استدعاء المرابطين سبقت سقوط طُلَيْطُلَة (٤٧٨ ﻫ) حوالي عقد من السنين[١] . ولدينا — في هذه الأحداث — مسألتان بحاجة إلى تجايه وبيان ومناقشة ، ثانيتهما أقل وضوحاً .

أولاً : عدم وضوح تسلسل بعض الأحداث .

ثانياً : من الآخذ زمام المبادرة في استدعاء المرابطين ؟

المسألة الأولى : يذكر بعض المؤرخين — خلال حديثهم عن استدعاء المرابطين — أموراً بعضها غير واضح موضعها في التسلسل وزمن الحدوث ، ذلك :

١ — إن الفنش (السادس) أرسل سفارة الى المعتمد بن عبَّاد عام ٤٧٥ ﻫ (١٠٨٢ م) ، غرضها تسلم الأموال التي تعهَّد المعتمد بتأديتها الى ملك قشتالة[٢] . أو أنه كانت للسفارة مهمة أخرى ، زيادة على استحصال الضريبة التي يدفعها المعتمد للفنش . إذ أن السفارة سألت المعتمد السماح لزوجة الفنش أن تلد في مسجد قرطبة الجامع ، حسب إشارة القسيسين والأساقفة ؛ كما سألوا أن تنزل الزوجة في مدينة الزهراء ، حسب إشارة الأطباء[٣] . وكان ابن شاليب اليهودي — وزير الفنش — رئيس هذه السفارة ، وبصحبته عدد من الفرسان القشتاليين[٤] .

جرت المفاوضات مع المعتمد مباشرة في إشبيلية ، وأرسل ممثليه وفي مقدمتهم وزيره أبو بكر بن زيدون (ابن الشاعر المشهور أبي الوليد ابن زيدون ، المتوفى سنة ٤٦٣ ﻫ = ١٠٧١ م) ، إلى ظاهر إشبيلية حيث يعسكر الوفد القشتالي . لكن السفير القشتالي شطَّ في مطالبه ، كما في اسلوبه المملوء بالتهديد ، وانتهى الأمر بقتل هذا السفير واعتقال بقية الوفد . تطورت الأمور ، وأقسم الفنش أن ينتقم بشدة ، فجهز جيشاً ضخماً من مناطق اسبانيا النصرانية كافة ، وأرسل سرايا تعيث في أراضي غربي الأندلس : بَاجَه ولَبْلَه وإشْبِيلِيَة ، وسار هو في جيش آخر صوب إشبيلية ، يحرق في طريقه

---

(١) انظر : أعلاه ، ٣٤٣ . كذلك : دول الطوائف ، ٩٢ ، ٣١٥ — ٣١٦ .

(٢) أعمال الأعلام ، ٢/٢٤٤ ؛ دول الطوائف ، ٧٣ .

(٣) الروض المعطار ، ٨٤ ؛ نفح الطيب ، ٤/٣٥٧ — ٣٥٨ .

(٤) أعمال الأعلام ، ٢/١٥٩ .

العمران وينسف الزروع . محاصراً إشبيليّة لأيام ، ثم انحدر جنوباً حتى وصل مدينة طريف . لكن هل عاد إلى محاصرة إشبيلية ــ بعد ذلك ــ أم عاد إلى طليطلة ؟

٢ ــ تذكر بعض مراجعنا أن الفونش كتب ــ أثناء محاصرته لإشبيلية ــ رسالة الى المعتمد بن عباد ، وأجابه المعتمد عليها . هل كان ذلك قبل وصول الفنش إلى طريف أم بعده ؟ اليك نصاً يتضمن هذه المراسلة ويتعلق أوله بالفقرة السابقة . بعد ذكر السرايا التي سبقت الفونش بن فردلند يقول الحميري : « ثم زحف ابن فردْلند بنفسه في جيش آخر عرمرم ، فسلك طريقاً غير طريق صاحبه ، وكلاهما عاث في بلاد المسلمين وخرّب ودمّر ، حتى اجتمعا لموعدهما بضفة النهر الأعظم ، قُبالة قصر ابن عباد ، وفي أيام مُقامه هناك كتب الى ابن عباد زارياً عليه : (كثر بطول مُقامي في مجلسي الذبان ، واشتدّ عليّ الحرُّ ، فألقني من قصرك بمروحة أروّح بها على نفسي ، وأطرد بها الذباب عني) فوقّع له ابن عباد بخط يده في ظهر الرقعة : (قرأت كتابك ، وفهمت خيلاءك واعجابك ، وسأنظر لك في مرواح من الجلود اللمطيّه ، في أيدي الجيوش المرابطيّة ، تروّح منك ، لا تروّح عليك إن شاء الله) فلما تُرجم لابن فردْلند توقيع ابن عباد في الجواب ، أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببال .»[1] يشير هذا إلى أن الفونش فهم إشارة ابن عباد ، فكان استدعاء المعتمد على الله للمرابطين[2] .

ترتيب هذه الأحداث غير واضح ، بالنسبة لوقت حدوثها مع تاريخ سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ) ، ويبدو أنها هكذا متتابعة في الزمن .

المسألة الثانية : معروف أن المعتمد بن عبّاد هو الذي أخذ زمام المبادرة في استدعاء المرابطين ، « ومما يؤثر من فضائله ، ويعد في زهر مناقبه ، استعانته على الروم بملك المغرب حينئذ ــ وهو يوسف بن تاشفين ــ وسعيه في استقدامه ، وجدّه

(١) الروض المعطار ، ٨٥ (= نفح الطيب ، ٣٥٨/٤) . الجلود اللمطية : نسبة إلى مدينة لمطة بالمغرب « بليدة عند السوس الأقصى » . البيان المغرب ، ١١٤/٤ . وهي « معدن الدرق اللمطية » . صورة الأرض ، ابن حوقل ، ٩١ .

(٢) أعمال الأعلام ، ١٥٩/٢ . كذلك : أعمال الأعلام ، ٢٤٥/٢ .

في ملاقاة الطاغية ملك النصارى ، والإيقاع به بالموضع المعروف بالزّلاّقة في رجب سنة تسع وسبعين وأربع مئة . »[1] وتمّ هذا الاستدعاء بعد سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ)[2]. إذ بعدها كثرت رسل الأندلس على يوسف بن تاشُفين تحمل إليه صريخ أهلها وتحثه على إنقاذهم ، وهو مما يقتضيه واجبه الإسلامي نحو إخوانه[3] .

لكن ترتيب هذه الأحداث لايبدو أنه وقع بهذا الشكل دون غيره ، ولا كان المعتمد بن عباد آخذاً زمام المبادرة في دعوة المرابطين لإنقاذ الأندلس . ذلك :

١ — يذكر ابن الخطيب أن المعتمد بن عباد خاطب « يوسف بن تاشفين غرّة جمادى الأولى من سنة ٤٧٨ ، يستأذنه في القدوم عليه لتقرير أحوال الأندلس . »[4] يعني هذا أن الاستدعاء تم بعد ثلاثة شهور من سقوط طليطلة الذي وقع في محرم نفس العام ، ٤٧٨ هـ (مايس = مايو ١٠٨٥ م) .

في حين مرّ بنا[5] أن فكرة استدعاء المرابطين كانت لدى المعتمد بن عبّاد وغيره قبل سقوط طليطلة بمدة ، فأخرجها سقوط طليطلة للتنفيذ . حيث أرسل المعتمد على الله وفداً — مع وفود أخرى لأمراء الطوائف — إلى يوسف بن تاشفين في العُدوة المغربية . وتزيد بعض المصادر أن المعتمد ذهب بنفسه إلى المغرب والتقى بأمير المسلمين المرابطي في سبتة أوفاس[6] .

٢ — لكن نجد صريخ أهل الأندلس ووفوداً منهم سبقت هذه السفارة إلى يوسف

---

(١) الحلة السيراء ، ٢/٥٤ — ٥٥ . كذلك : المعجب ، ١٩٠ — ١٩١ ؛ أعمال الأعلام ، ٢/١٥٩ ، ٢٤٥ (و ٢/ ٢٤٣) .

(٢) أعمال الأعلام ، ٢/٢٤٥ .

(٣) راجع : تاريخ الأندلس ، ٨٩ — ٩٠ (نص ابن الكردبوس) .

(٤) أعمال الأعلام ، ٢/٢٤٥ .

(٥) أعلاه ٣٤٣ ، ٣٩٣ .

(٦) راجع : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ١٩٠ ؛ نفح الطيب ، ٤/٣٥٩ ؛ أعمال الأعلام ، ٢/٢٤٦ ؛ الحلة السيراء ، ٢/ ١٨٦ ؛ التبيان (مذكرات الأمير عبد الله) ، ١٠٢ ، عبد الله بن بُلقين بن باديس بن حبوس بن زيري (ثالث وآخر أمير لمملكة غرناطة الطوائف) ؛ دول الطوائف ، ٧٧ .

ابن تاشفين . يذكر صاحب **الروض المعطار** : « وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تفد عليه وفود ثغور الأندلس ، مستعطفين ، مجهشين بالبكاء ، ناشدين الله والإسلام ، مستنجدين بفقهاء حضرته ، ووزراء دولته ، فيستمع إليهم ، ويصغي لقولهم وترق نفسه لهم »[1] .

معنى ذلك : كانت وفود ومراسلات من الأندلس إلى يوسف بن تاشفين ، قبل سفارة المعتمد إليه . ويبدو أنه يوم وصلت رسل المعتمد — برفقة آخرين — كان ابن تاشفين يعد العدة للعبور إلى الأندلس لنجدة أهلها . ونص ابن الأبّار التالي يعين على فهم هذا الأمر : « وازدلف خلال ذلك إلى سبتة أمير المغرب حينئذ — أبو يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتوني — حِسْبَةً ورغبةً في الجهاد ، وقد دانت له بلاد العُدوة ، وسأل من سَقُّوت بن محمد صاحب سبته أن يُبيح له فُرَض الإجازة إلى الأندلس ، فأبى وتمنع من ذلك ، فأفتى الفقهاء بقتاله لصده عن سبيل الله ، فقُتل هو وابنُه في خبر طويل . وفتح الله على ابن تاشفين سبته ، وأمكنه الحصول على مراده بذلك .

« وعلم المُعْتَمِدُ محمد بن عباد تصميمه على نيته ، فخاطب جارَيْه : صاحبَ بَطَلْيَوْس وصاحبَ غَرناطة ، في تحريك قاضيَيْها إلى حضرته للاجتماع بقاضي الجماعة بقرطبة . فوصل من بَطَلْيَوْس قاضيها أبو إسحاق بن مُقَانا ، ومن غَرْناطة قاضيها القُلَيْعِي ، واجتمعا في إشبيلية بالقاضي أبي بكر بن أدهم ، وانضاف إليهم الوزير أبو بكر محمد بن أبي الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون . وتوجهوا جميعاً إلى ابن تاشفين ، على شروط لا تُتعدى إلى غيرها . ووصلوا إلى الجزيرة الخضراء — وعليها يزيد بن المعتمد ، الملقب بالراضي — ثم أجازوا البحر منها ، واجتمعوا بابن تاشفين مرةً بعد مرة . وتفاوضوا في مكان تنزله العساكر ، فأشار ابن زيدون بجبل طارق »[2] .

---

(١) الروض المعطار ٨٦ (= أعلاه ، ٣٩٢) . كذلك : نفح الطيب ، ٣٥٩/٤ — ٣٦٠ ؛ أعمال الأعلام ، ٢٤٣/٢ .

(٢) الحلة السيراء ، ٩٨/٢ — ٩٩ . كذلك : البيان المغرب . ٢٥٠/٣ ؛ وفيات الأعيان ، ١١٣/٧ — ١١٦ (= البيان المغرب ، ١١٢/٤—١١٥) ؛ الحلة السيراء (مخطوط) ، ١٥١/٢—١٥٢ (إعتاب الكتاب ، ٢٢٣) .

٣ ــ يتبين ــ من النصوص الواردة في الفقرة السابقة ــ أن استعداد أمير المرابطين لعبور الأندلس كان قبل سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ) ، الذي تلته سفارة المعتمد إلى ابن تاشفين . ذلك أن مقتل سَقُّوت ــ الذي ذكره ابن الأبار في نصه السابق ــ كان سنة ٤٧٦ هـ . ويشير هذا إلى أن أخذ المبادرة في دعوة المرابطين لم تكن من المعتمد أمير إشبيلية ، وأن دعوتهم كانت قبل سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ) بعدة سنوات.

٤ ــ يبدو ــ على ذلك ــ أنّ دعوة المرابطين جاءت من عدد من الأندلسيين ، من المسؤولين فيها ومشايخها[١] . وكانت لدعوة الفقيه أبي الوليد الباجي المبكرة وأمثاله بداية الوجهة . يظهر في موقف المتوكل عمر بن الأفطس بداية الدعوة ، كثير من المبادرة . أدرك المتوكل بن الأفْطَس (عمر بن محمد) ــ صاحب بَطَلْيَوْس[٢] ــ منذ وقت سابق ، ضرورة عمل شيء ضد قوى اسبانيا النصرانية وحملات الفنش (السادس) .

تولى ابن الأفطس حُكْم بطليوس سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م) . أراد أن يكوِّن صفاً واحداً من ملوك الطوائف في وجه الخطر المتزايد . سبق ذكر إرساله القاضي أبا الوليد الباجي إلى أمراء الطوائف يدعوهم لذلك[٣] . وليس واضحاً تاريخ إرسال الباجي لهذه الدعوة ، لكن إذا علمنا أن وفاة الباجي كانت سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) ، نجد من الصواب أن نضع محاولات المتوكل هذه قبل سقوط طليطلة بعقد من السنوات ــ على الأقل ــ كما مرت مناقشته[٤] . لكن لمّا لم يجد المتوكل نجاحاً مُرضياً ولم تَلْقَ دعوتُه استجابة كافية أو تقود إلى عمل جاد مفيد في هذا الشأن ، اتجه بفكره ثم بفعله نحو المرابطين في عُدوة المغرب ، فكاتب أميرهم ابن تاشُفين[٥] .

كانت مبادرة المتوكل بن الأفطس مبكرة في استدعاء المرابطين لنجدة الأندلس ، مع أنه ليس بالإمكان اعتبار المتوكل الآخذ أولاً بهذا الاستدعاء لأخوة العُدوة ــ من

---

(١) انظر : أعمال الأعلام ، ٢/٢٤٥ .

(٢) عنه راجع : الحلة السيراء ، ٢/٩٦ وبعدها .

(٣) أعلاه ، ٣٣٨ ــ ٣٤١ .

(٤) أعلاه ، ٣٣٦ ــ ٣٣٧ ، ٣٤٢ ــ ٣٤٤ ، ٣٩٣ ، ٣٩٥ ــ ٣٩٧ .

(٥) انظر : الحلة السيراء ، ٢/٩٩ (حاشية) ؛ دول الطوائف ، ٩٢ .

الأمراء ، أو مطلقاً — إلاّ أن اتجاهه في هذا كان قبل قيام المعتمد العبّادي بها بعدة سنوات ، ويُفهم هذا من مجرايات الأحداث السابقة . ومعقول كذلك أن يكون المتوكل مسبوقاً في ذلك بأحد الأمراء أو العلماء أو غيرهم بمبادرة استدعاء المرابطين .

أورد صاحب **الحلل المُوشيِيَّة في ذكر الأخبار المَرّاكُشيِيَّة** لمؤلف مجهول ، حين الحديث عن دولة المرابطين وأميرها يوسف بن تاشفين ، أنه « في سنة أربع وسبعين وأربع مئة . وفد عليه جماعة من الأندلس شكوا إليه ماحلّ بهم من أعدائهم فوعدهم بمرادهم وأعانهم . وكان ممن كتب إليه حين ذلك المتوكل على الله بن الأفطس »[1] ٤٧٤ هـ — تاريخ كتابة المتوكل إلى أمير المرابطين — هي سنة وفاة أبي الوليد الباجي ، مَن عرفنا بجهده وطول جهاده في الدعوة إلى التوحد ، مثلما تحمّل الدعوة إلى الاستعانة بالمرابطين . وسبق إيراد قول القاضي عياض في **ترتيب المدارك** عن الباجي أنه « توفي بالمَرِيَّة سنة أربع وسبعين لسبع عشرة خلت من رجب ، وكان جاء إلى المَرية سفيراً بين رؤساء الأندلس ، يُؤلِّفُهم على نُصرة الإسلام ، ويَرُوم جمع كلمتهم مع جنود ملوك المغرب المرابطين على ذلك ، فتوفي قبل تمام غرضه رحمه الله . »[2]

تبنّى المتوكل بن الأفطس دعوة الباجي إلى القضيتين المهمتين :

١ — الدعوة إلى تَوَحُّد الأندلس وجمع كلمة ملوكها .

٢ — الاستعانة بالمرابطين لنصرة الإسلام في الأندلس .

واتخذ المتوكل لها إجراءات ، منها : الكتابة إلى المرابطين . فدعوة الباجي سابقة لكتابة المتوكل إلى ابن تاشفين . ثمّ كان الاستمرار في الدعوة مُنَضِّجَة[3] ، حتى جاء سقوط طليطلة (٤٧٨ هـ) الطاهي السريع والنار الفوّارة لإيناع الفكرة بسرعة واقتطاف الثمرة الطيبة بقوة .

---

(١) الحلل الموشية ، ٢٠ . كذلك : الحلل الموشية ، ٢٢ ؛ الروض المعطار ، ٨٦ (= أعلاه ، ٣٩٥ — ٣٩٦ ، الفقرة ٢) .

(٢) ترتيب المدارك ، ٣ — ٨٠٨/٤ (= أعلاه ، ٣٤٢ — ٣٤٣) .

(٣) انظر : أعمال الأعلام ، ٢٤٣/٢ ، ٢٤٥ .

انتشرت فكرة استدعاء المرابطين في الأندلس ، حتى جعل سقوطُ طليطلة منها ضربةَ لازب ، فتّت كل اعتراض وأطارت أي تخوف . ثمَّ كان المؤتمر الذي دعا إليه المعتمد وأفضى إلى إرسال وفد إلى المغرب ، مستصرخاً أمير المرابطين . هذا ما أُشير إليه في الفقرة قبل السابقة[1] ، حيث كان ابن تاشفين يتهيأ للأندلس بعد أن وصلته الرسائل والوفود .

لعل سير الحوادث المتعلقة بهذه المسألة وتطوراتها تمت بالشكل المذكور أعلاه ، أو قريباً منه . ومهما يكن من أمر فإن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين تجهز للعبور إلى الأندلس لنجدة إخوانه ، فكانت وقعة الزّلاّقة الشهيرة .

الخلاصة

يُعطي العرض السابق صورةً لعصر الطوائف ، إن كانت مقتضبة فهي موضحة لجوانب كثيرة منه . تُطلع على حالة التفكك الذي أصاب الأندلس ، نتيجة النكوص عن ترسّم الخط الإسلامي وعدم العض عليه بالنواجذ ، حين « زالت من النفوس الأنفة الإسلامية »[2] . جنت الأندلس — بسيآتها — من الهبوط والضعف بقدر ما أصابها من الانحراف ،الذي سارت به عن المنهج الإسلامي . خذلت الفرقةُ أهلَها ، حتى الخيّرين منهم ﴿ * واتقوا فِتنةً لا تُصيبنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ * ﴾[3] ثمَّ قوله صلى الله عليه وسلم «لتَأمرنَّ بالمعروفِ ولتنهونَّ عن المنكر ، أو ليسلّطنَّ الله عليكم شراركم ثمَّ يدعو خياركم فلا يُستجاب لهم . »[4] أشار إلى هذا عدد من الكتاب والمؤرخين الأندلسيين ، أمثال : ابن حزم (٤٥٦ هـ) وابن حيان (٤٦٩ هـ) وابن بسام (٥٤٢ هـ) .

---

(١) أعلاه ، ٣٩٥ — ٣٩٦ (الفقرة ٢) .

(٢) تاريخ الأندلس ، ٧٧(نص ابن الكردبوس) .

(٣) الآية ٢٥ من سورة الأنفال .

(٤) جامع الأصول في أحاديث الرسول ، ١/ ٣٣٢ (حاشية ٢) . كذلك : تفسير الطبري ، ١٠/ ٤٩٤ ، ١١/١٥٠ .

لا يُقيم الإنسان ويقوّمه غيرُ عقيدة ربانيّة – وهي من مقتضيات وجوده – تقوده نحو الخير وتسلكه سواء السبيل ، بعبادة الله ودوام مراقبته . يعمر دنياه وآخرته حين يحوز رضاه ويفوز بجنته « إنّ الصدق يهدي إلى البر ، وإنّ البر يهدي إلى الجنّة »[1] .

نجد هذه الحقيقة متوافرة خلال أعصر التاريخ الإسلامي الشامخ الرائع ، ترتسم صورتها بريشة الوقائع ، بأحوالها رفعةً وهبوطاً . يصح رسم خط بياني بلونين ، يتطابقان تماماً . يكون فيهما التناسب طردياً بين التمسك بالإسلام وبين ازدهار الحياة في المجتمع المسلم (وغيره ، عموماً) وإثمار حضارته وقوته الإنسانيّة لا السياسية فحسب وبين التمسك بالإسلام والسير على شرعه المبين في قرآنه ، ومقابله صحيح . كان المسلمون أقوياء بإسلامهم وإن قلّوا ، كما مرت الأمثلة وهي متكاثرة ، ضعفاء بدونه ولو كثروا ، مثل الطوائف . « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تَدَاعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِها ، فقال قائل : من قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غُثاء كغثاء السيل ، ولينزعنّ اللهُ من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفنّ في قلوبكم الوهن ، قيل : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا ، وكراهية الموت . »[2] .

مهما أصاب الأمة المسلمة من التخلف الإيماني – المنتج لكل أنواع التخلف – يظهر قوة إيمانهم ، رغم السيئات أو مايصيبها من الآفات ، إذا أتيحت لها العوامل تنمو بسرعة وتظهر ساطعة وتسير مشرقة . تعود إلى المنهج بغيرة وندم على مافاتها ، كالأم إلى طفلها . بدمع يغسل الخطايا ويجدد النوايا . رأينا حين ترتفع راية الإسلام ويعلو نداؤه تهب بسرعة إليه . وهو ما لمسناه في : بَرْبَشْتْرُ والزّلاّقَة وأحداث بَلَنْسِيَة .

إن الحكام ، وحكام الطوائف ، مهما عاونوا أوأقاموا عوامل الانحراف فعملهم سيأتي عليهم قبل غيرهم ، وقد ينتج ذلك عودة حميدة جديدة إلى المنهج .

---

(١) جامع الأصول ، ٦/ ٤٤٢ .
(٢) جامع الأصول ، ١/ ٢٨ .

يكون صدق العودة والاعتبار بقدر ما يستطيعونه من الحفاظ على عقيدتهم . من هنا ، فأخطر حرب تلك التي تهدف هدم العقيدة واقتلاع جذورها في النفس المسلمة .

حافظت الأمة الإسلامية — خلال العصور الماضية — على العقيدة ، فكانت دِرْعَها الواقية ، وارتد محاربوها : المحليون من أهلها أو الدخلاء عليها ، متدسسين بأي قناع ؛ وخارجيون ، أعداءً واضحين . فإذا أُصيبت الأمة الإسلامية في قوة تمسكها بالعقيدة فهو الخطر ، لأنه أيضاً قد يتولى حربها مَن كان منتسباً إليها[1] .

كانت عودة المسلمين إلى دينهم في أيام الإسلام السالفة ، وفي ظروفهم الصعبة أيام الطوائف ، أيام الفرقة المريرة إذ « كانت أيامهم تسمى أيام الفرق . »[2] أو « الفتنة المبيرة »[3] ، بسرعة . لم يستطع حكام الطوائف هؤلاء حَجْبَ الناس دوماً .

يَظهر أنَّ أهل الأندلس كانوا أسرع استجابة إلى التَّوَحُّد وأكثر اهتماماً به من حكامهم . أخذ أهل الأندلس زمام المبادرة في التوجُّه إلى استدعاء المرابطين وإبلاغهم الاستغاثة[4] . كان هذا تقوية ودفعاً للحاكمين في اتجاه التوحد ، راغبين أو مضطرين . كان علماء الأمَّة في الأندلس — وهم حماتها الأمناء — أولَ الداعين . اتجهوا بدعوتهم للناس وللحكام[5] .

غدا هذا الاتجاه عند الأمة في الأندلس تياراً جارفاً ، كان من نتائجه إزالة ملوك الطوائف ذاتهم ، الذين استمر بعضهم في خط الخيانة والاستعانة بالعدو المتربص . حتى إنه حين استُشهد حاكم سَرَقُسْطَة أبو جعفر أحمد المستعين بالله (المستعين الأصغر) سنة ٥٠٣ هـ[6] وخَلَفَه ابنُه أبو مروان عبد الملك عماد الدولة « بايعه الناس

---

(١) انظر : الغارة على العالم الإسلامي ، أ . ل شاتليه ، ١٦ وبعدها ، ٨٠ ؛ الإسلام والغرب والمستقبل ، آرنولد توينبي ، ١٠ ، ١٨ ، ٢١ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٧١ .

(٢) تاريخ الأندلس ، ٧٨ (نص ابن الكردبوس) .

(٣) البيان المغرب ، ١٩٤/٣ (الكلام لابن حيان = أعلاه ، ٣٨٧) .

(٤) الروض المعطار ، ٨٦ (أعلاه ، ٣٩١ — ٣٩٢ ، ٣٩٤ — ٣٩٦) ؛ الحلل الموشية ، ٢٠ (= أعلاه ، ٣٩٨) .

(٥) قارن : الحلل السندسية ، ١٩٤/٢ .

(٦) أعلاه ، ٣٥٧ .

بسرقسطة بعد ما اشترطوا عليه أن لا يستخدم الروم ولايتلبس بشيء مِن أمرهم »[1] .

ظلت الأمة ــ كما سنرى ــ تقوى كلما عادت إلى دينها واتجهت نحو ربها . لكن وجود الأخطاء ــ الكبيرة أو الصغيرة ، العامة أو المحدودة ــ التي ارتكبتها في جنب الله جعلت تنحدر بالأمة : تصحو وتقوى حين تعود إلى ربها ، تنفرط وتهبط حين تتحلل ، حتى كانت نهاية الأندلس . مع ذلك ، فمهما أصيبت الأمة كانت تجد السلامة في دينها الذي تتحصن به . يمكن أن تعود إليه وتسير في طريق الخير وتدفع الاعتداء وتقيم البناء والأمثلة كثيرة ، كما هو أيام الحروب الصليبية في الشرق .

لكن يوم تمَسّ الحربُ العقيدةَ في النفس المعتقدة وتنال منها ، تكون الخطورة بمقدار ما يتم لها ، وتجب دون ذلك . بهذا تحوّلت الحرب الصليبية إلى هذا اللون واستهدفت الأمر ، فنالت من المسلمين هذا النيل . لم تُصب الأمة الإسلامية وتهوي مثلما أصابها في القرن الحالي ــ بعد ذهاب حصنها الحامي ، الدولة المسلمة ــ حين أصيبت في مقدار تمسكها ، ولو أن المنتسبين للإسلام كثير لا غَناء فيهم[2] .

لكن القوة التي تحملها العقيدة الإسلامية باقية فيها ، لأنها من عند الله . قوتها ذاتية وليس لغيرها من هذا نصيب . الفوز لمن يسلك طريق الله والهالك الجاني من يجتنبه ﴿ واللهُ الغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾[3] .

على ذلك كانت الحرب موجهة إليها . فإذا انتزعت الغصن من أرض ، فالأرض بمواصفاتها باقية . تنبت ــ بفضل الله ونعمته ــ أخضراً وتُزهرُ مثمراً . ذلك عند الله كائن ومقدر . ﴿ ولقد كَتَبْنَا في الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[4] .

---

(١) البيان المغرب ، ٥٣/٤ . كذلك : الحلة السيراء ٢٤٨/٢ ؛ أعمال الأعلام ، ١٧٥/٢ .

(٢) أعلاه ، ٤٠٠ .

(٣) من الآية ٣٨ من سورة محمد .

(٤) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .

إنَّ الخطأ الصغير والتقصير القليل قد ينحدر بالأمة إلى هاوية سحيقة ، إلاَّ مَن رحم الله . وإنَّ الأمة المسلمة مهما أصابها في سبيل دينها فلها في ذلك الأجر والعبرة والقوَّة والنصرة ، كما حدث في معركة أُحد (٣ هـ) ﴿ * وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * ﴾[١]

وفيما حدث في التاريخ الإسلامي ، في كل عصوره ، المزدهرة منها والمكفهرة — في الأندلس ، ومنها الطوائف ؛ وغيره ؛ حتى اليوم — التدليل المؤكد والبيان الواضح والصورة الناطقة ، وفيه كفاية ﴿ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ * ﴾[٢] .

ب — وقعة الزَّلاَّقة

على إثر الأحداث السابقة والقرار الذي اتخذه أميرُ المسلمين يوسف بن تاشُفين — بعد استشارة الفقهاء والأعيان — في نجدة الأندلس ، بدأ عبور الجيوش المرابطية المجاز (مضيق جبل طارق) من سبتة إلى الجزيرة الخضراء ، مستنفراً قواته للجهاد . « فاجتمع له نحو من سبعة آلاف فارس في عدد كثير مِن الرَّجْل »[٣] . عبرت الجيوش تباعاً : أولها قوة من الفرسان بقيادة داود بن عائشة ، وآخرها موكب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، في يوم الخميس منتصف ربيع الأول ٤٧٩ هـ (٣٠ حزيران = يونيه ١٠٨٦ م)[٤]. يُذكر أنه — خلال ذلك — هبت ريح عاصف أثارت أمواجاً عالية ، فرفع الأمير يوسف يديه إلى السماء يدعو الله عزّ وجلّ : « اللهُمَّ إن كنتَ تعلم أنَّ في جوازنا هذا خيرة للمسلمين ، فسهِّل علينا جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعِّبه حتى لا أجوزه »[٥] . استجاب الله القدير سبحانه دعاءه « حتى سهَّلَ اللهُ المركب ، وقرَّبَ المطالب »[٦] .

---

(١) الآية ١٢٩ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ١٦٢ من سورة الأنعام .

(٣) المعجب ، ١٩١ .

(٤) دول الطوائف ، ٣١٩ .

(٥) دول الطوائف ، ٣١٩ ، ٤٤٧ . (٦) نفس المصدر .

« واطردت الإجازة ، ثمّ تحركت العساكر إلى إشبيلية ، وَرَدَفَهُم ابن تاشفين ونزل بظاهرها . وبلغه على إثر ذلك موت ابنه أبي بكر ، فخيّره حتى لهمّ بالانصراف عن وجهه ، ثمّ آثر الجهاد ، وأنفذ مَزْدَلي إلى مَرَّاكُش . »[1]

سَرَت في الأندلس — خلال ذلك وقبله — روح جديدة ، ذكّرت الناس بأيام النصر التي رأوا بعضاً منها وسمعوا عن أمثالها الكثير ، يوم كان الخط الإسلامي واضحاً في حياتهم يموج بالسالكين .

سارع أمراء الطوائف للاشتراك بقواتهم . أعدوا ما أمكن للمشاركة في البذل والتضحية ، فرحين بشهود هذا اليوم الجليل . يقول عبد الله بن بُلُقِّين — أمير غرناطة — عن تلك الأحداث ، في كتابه **التِّبْيان** : « وأَمَرْنا بضرب الطبل وما يُستعد به للفرح ، عند مخاطبته لنا بدخول الجزيرة . وظننا أنّ إقباله إلى الأندلس منّة من الله عَظُمَت لدينا ، لا سيما خاصةً مِن أجل القرابة ، وللذي شاع من خيرهم ، وإقبالهم على طلب الآخرة ، وحكمهم بالحق ؛ فنعمل أنفسَنا وأموالَنا في الجهاد معه كلّ عام ، فمن عاش منا كان عزيزاً ، تحت سترٍ وحماية ، ومن مات كان شهيداً . والعجب في تلك السفرة مِن حُسن النيات وإخلاص الضمائر ، كأن القلوب إنما جُمِعت على ذلك .

« ولقينَا أميرُ المسلمين في طريقه إلى بَطَلْيَوْس بجَرِيشَة ، ورأينا من إكرامه لنا وتحفّيه بنا ما زادنا ذلك فيه رغبة ، لو استطعنا أن نمنحه لحومنا ، فضلاً على أموالنا . ولقينا المتوكل بن الأفطس محتفلاً بعسكره : كل يرغب في الجهاد ، قد أعمل جهده ، ووطّن على الموت نفسه . »[2]

لما اقترب يوسف بن تاشفين والجيش المرابطي من إشبيلية خرج المعتمد وجماعته من الفرسان لتلقيه وتعانقا ودعوا الله تعالى أن يجعل جهادهما خالصاً لوجهه .

استقرّ الجيش أياماً في إشبيلية ، ثمّ اتجه إلى بطليوس . كانت قوات عدد من

(١) الحلة السيراء ، ٢/١٠٠ . راجع : دول الطوائف ، ٣١٩ ، ٤٤٧ .
(٢) التبيان ، ١٠٤ .

ملوك الطوائف تلحق بهم ، وتلقّاهم المتوكل أمير بطليوس . بعد أيام انتظمت القوات الأندلسية لوحدها – في المقدمة – بقيادة المعتمد بن عباد . في حين جُعلت الجيوش المرابطية في المؤخرة .

سار هذا الموكب من الجيش الإسلامي إلى موضع سهل من عمل بطليوس (Badajoz) وأحوازها[1] ، يقع على بعد اثني عشركيلومتراً شمالها الشرقي ، في العُدوة الشمالية لوادي يانه (Guadiana) . يُسَمى هذا السهل في المصادر الإسلامية الزّلاّقَة (Sagrajas) . بقيت العساكر بظاهر بطليوس « في المضارب أياماً ، إلى أن قصدهم أذْفونش وتلاقوا بالزّلاّقة ، على مقربة من بطليوس ، يوم الجمعة في رجب سنة تسع وسبعين وأربع مائة ، فكان الظهور للمسلمين »[2] .

حينما سمع الفونش (السادس) أنباء هذا الجيش ترك فك حصار سرقسطة وبدأ يستعد . كاتب ملك أَرْغُون شَانْجُهْ بن رُدْمِير (Sancho Ramirez) وأمراء ما وراء البُرْت يطلب نجدة . تجمعت جيوش من جِلِّيقِيّة وأشْتُوريش وَنَبَارَّه مع جيوش قشتالة . لَحِقَ بهم سيل من الفرسان المتطوعين من جنوبي فرنسا وإيطاليا . سار الفونش بجيشه ، مزهواً بتفوقه في العُدة والعَدد والإمكانيّات الفنية لقواته[3] . وجعل على مقدمة جيشه قائده البرهانش (Alvar Háñez) .

تختلف المصادر في تقدير عدد جيش كل من الفريقين . قد يكون عدد الجيش النصراني خمسين ألفاً أو يزيد . ودون شك فإنّ الجيش الإسلامي أقل من ذلك وقد يصل إلى النصف[4] .

يذكر صاحب **الروض المعطار** أن الفونش قال حين نظر إلى جيشه : « بهؤلاء أُقاتل الجن والأنس وملائكة السماء ، فالمقلّل يقول : كان هؤلاء المختارون من

---

(١) انظر : أعمال الأعلام ، ٢/٢٤٦ ، ٣/٢٤٢ .

(٢) الحلة السيراء ، ٢/١٠٠ – ١٠١ . كذلك : وفيات الأعيان ، ٧/١١٦ .

(٣) راجع : دول الطوائف ، ٣٢٢ ؛ *Manual de historia de Espana*, I, 586 .

كذلك : أعمال الأعلام ، ٣/٢٤٢ .

(٤) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، ١٠/١٥٣ .

أجناده أربعين ألف دارع ، ولا بدّ لمن هذه صفته أن يتبعه واحد أو اثنان ، وأمّا النصارى فيتعجّبون ممن يزعم ذلك ويقوله . واتفق الكل أنّ عدّة المسلمين كانت أقل من عدة المشركين . »[1]

جرت مراسلات بين الطرفين . أرسل ابن تاشفين — عملاً بأحكام السنة — إلى الفونش يعرض عليه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب . مما جاء في الرسالة :

« وبَلَغنا يا أذفونش أنّك دعوتَ في الاجتماع بك ، وتمنيتَ أن تكون لك فُلْك تعبر البحر عليها إلينا ، فقد أجزناه إليك ، وجمع الله تعالى في هذه العرصة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ﴿ وَمَا دُعاءُ الكافِرِينَ إلاّ في ضَلال ﴾[2] . »[3]

فغضب الفونش لهذه الرسالة ورد بكتاب عنيف مملوء بالوعيد . اكتفى ابن تاشفين أن يكتب في ظهر الرسالة : « الذي يكون ستراه »[4] .

جرت الاستعدادات في المعسكرين بكل أشكالها وبالحث على الحرب والصبر فيها « وقامت الأساقفة والرهبان فرفعوا صلبهم ، ونشروا أناجيلهم ، وخرجوا يتبايعون على الموت ؛ ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما ، وقام الفقهاء والعُبّاد يعظون الناس ويحضونهم على الصبر ، ويحذرونهم الفرار ؛ وجاءهم الطلائع بخبر أن العدو مُشرف عليهم صبيحة يومهم ، وهو يوم الأربعاء ، فأصبح المسلمون قد أخذوا مَصَافّهم ، فكعَّ ابن فردْلند ورجع إلى إعمال الخديعة ، ورجع الناس إلى محلاّتهم ، وباتوا ليلتهم »[5] .

أراد الفونش خديعة المسلمين . كتب إليهم يوم الخميس (الحادي عشر من رجب) يخبرهم أن تكون المعركة يوم الاثنين ، بعده . لكن ابن عباد وابن تاشفين أدركا هذه الخديعة ، وأكدت ذلك أخبار استعداد معسكر النصارى فاتخذ المسلمون

---

(١) الروض المعطار ، ٨٨ (نفح الطيب ، ٣٦٣/٤) .   (٢) من الآية ٥٠ من سورة غافر .

(٣) وفيات الأعيان ، ١١٦/٧ (نفح الطيب ، ٣٦١/٤ — ٣٦٢) . كذلك : الروض المعطار ، ٩٠ .

(٤) نفح الطيب ، ٣٦١/٤ .

(٥) الروض المعطار ، ٩٠ (نفح الطيب ، ٣٦٤/٤ — ٣٦٥) . كع : جبن وضعف .

الحذر « وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس بجميع المحلات ، خائفين من كيد العدو ، وبعد مضي جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رُمَيْلَة القُرطبي (وكان في محلة ابن عباد) فرحاً مسروراً ، يقول إنه رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) فبشره بالفتح والشهادة له في صبيحة غد . وتأهب ودعا ودهن رأسه وتطيَّب . وانتهى ذلك إلى ابن عباد ، فبعث إلى يوسف فخبَّره بها تحقيقاً لما توقَّعه من غدر ابن فِردْلند ، فحذروا أجمعين ، ولم ينفع ابن فردْلند ما حاوله من الغدر . »[1]

فلما كان صباح الجمعة الثاني عشر من رجب سنة ٤٧٩ هـ[2] (٢٣ تشرين الأول سنة ١٠٨٦ م) زحف الفونش بجيشه على المسلمين . كان أمير المسلمين قد جلب مع جيشه إلى الأندلس الجمال فكانت ذات نفع . دارت المعركة حامية الوطيس ، عنيفة الحركة ، شديدة الضراب ، ظهرت فيها براعة الجيش الإسلامي والقائدين ابن عباد وابن تاشفين . بدا فيها أمير المسلمين ليس فقط فارساً صوالاً جوالاً بل ذا مقدرة عسكرية يبتكر الخطط المناسبة أثناء المعركة . فما أن اشتدت المعركة واختلَّ المعسكر الإسلامي حتى دفع ابن تاشفين إلى قلب معسكر العدو بمجموعة ، ثمَّ حمل نفسه بالقوَّة الاحتياطية إلى المعسكر القشتالي ، هاجمه بشدَّة . ثمَّ اتجه صوب مؤخرته فأثخن فيه وأشعل النار ، وهو على فرسه يرغّب في الاستشهاد ، وقَرْعُ الطبول يدوي في الآفاق . قاتل المرابطون في صفوف متراصة ثابتة ، مثل بقية أجنحة المعركة .

---

(١) الروض المعطار ، ٩٠ – ٩١ . كذلك : نفح الطيب ، ٣٦٥/٤ – ٣٦٩ . ترجم ابن بشكوال ابن رميلة في الصلة (٦٨ ، رقم : ١٤٤) فوصفه بأنه « كان معتنياً بالعلم ، وصحبة الشيوخ وله شعر حسن في الزهد . وكان كثير الصدقة وفعل المعروف . قال لي شيخنا أبو محمد بن عتاب رحمه الله : كان أبو العباس هذا من العلم والورع والفضل والدين ، واستشهد بالزلاقة مقبلا غير مدبر سنة تسع وسبعين وأربع مئة . »

(٢) ورد هذا التاريخ في رسالة كتب بها يوسف بن تاشفين بعد المعركة . انظر : دول الطوائف ، ٣٢٣ ، ٤٤٨ . كذلك : الذخيرة (مخطوطة) ، ١٥٢/٢ ، ١٦٢ ؛ الروض المعطار ، ٨٣ ؛ المطرب من أشعار أهل المغرب ، ابن دحية ، ١١٩ . جعله بعضهم في منتصف رجب من العام . انظر : أعمال الأعلام ، ٢٤٢/٣ ؛ وفيات الأعيان ، ٣٢٩/٣ ، ٢٩/٥ ، ١١٧/٧ . كذلك : الحلة السيراء ، ٥٥/٢ ، ١٠١ . في حين وضعها آخرون في رمضان . انظر : العبر ، الذهبي ، ٢٩٣/٣ ؛ وفيات الأعيان ، ٢٩/٥ .

ما أن حلّ المغرب حتى اضطر الفونش ، وقد أصيب هو نفسه ، إلى الانسحاب حفظاً لحياة من بقي . طورد الفارون في كل مكان حتى دخل الظلام فأمر ابن تاشفين بالكف . **استمرت المعركة يوماً واحداً لاغير** « وقد حطم الله شوكة العدو الكافر ، ونصر المسلمين وأجزل لديهم نعمه . وأظهر بهم عنايته ، وأجمل لديهم صنعه . »[1]

تسلل في الظلام مع الفونسو حوالي خمس مئة فارس – مثخَنين جراحاً – متجهين إلى طليطلة حيث توفي أكثرهم في الطريق ولم يدخل معه طليطلة إلاّ حوالي مئة فارس[2] .

هكذا ردّ الفونش وجيشه بالخيبة والخسران « فالحمد لله مُوهِن أيْدِه ، ومُبْطِل كيدِه ، وجزى اللهُ أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، أفضل جزاء المحسنين . بما بلّ من رِماق ، ونَفّسَ من خِناق ، ووصل هذه الجزيرة من حبل ، وتجشّم إلى تلبية دعائها واستنقاذ مابها ، من حَزَنٍ وسَهْل ، حتى ثلّ عروش المشركين ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، والحمد لله ربِّ العالمين . »[3]

على كل حال فقد كانت خسائر المعسكر القشتالي عالية ، أقل منها بكثير خسائر المعسكر الإسلامي . استُشهد عدد من العلماء ، كان منهم ابن رُمَيْلَة – المار الذكر – وأبو مروان عبد الملك المَصمودي قاضي مراكش[4] . كذلك منهم : الفقيه أبو رافع الفضل ولد الحافظ العالم الأندلسي الفقيه الأديب أبي محمد بن حزم (٤٥٦ هـ) . قضى في معركة الزلاّقة هذه شهيداً ، رحمه الله تعالى[5] .

سرت أنباء هذا النصر المبين إلى القواعد الأندلسية وكتب به ابن تاشفين إلى المغرب فأستبشر به الناس وسروا أيّما سرور . ثمّ لأسباب عجل أمير المسلمين بالعودة

---

(١) أعمال الأعلام ، ٣/٢٤٤ .

(٢) الروض المعطار ، ٩٣ .

(٣) الذخيرة ، ٤/١/١٣٢ (= أعلاه ، ٣٣٥) .

(٤) الروض المعطار ، ٩٤ – ٩٥ .

(٥) الصلة ، ابن بشكوال ، ٤٦٤ (رقم : ٩٩٧) ؛ وفيات الأعيان ، ٣/٣٢٩ . عنه انظر كذلك : الذيل والتكملة ، ٢/٥/٥٤٠ ؛ نفح الطيب ، ٢/٧٨ ، ٨٣ .

إلى المغرب مما فوّت الإفادة من هذا النصر المؤزّر في تتبع الجيش القشتالي ومهاجمته في عقر داره أو على الأقل استعادة طليطلة .

كانت الزلاقة يوماً مشهوداً من أيّام الإسلام ، وهي لاتعني فقط كف عدوان الفونش (السادس) وردّ جيشه خاسراً أو انتصاراً في معركة .فهي فضلاً عن أنها أنعشت النفوس وقوّت الآمال ، كما مهدت لإيواء الأندلس وانضمامها إلى سلطان المرابطين ، لكنها أعانت في مد عمر إسلامية شبه الجزيرة الأندلسية لأربعة قرون أخرى[1] .

رأينا هذه الفترة التي عاشت في كثير من الانحدار — لأحيان — كانت لا تخلو من إشراقات وضّاءة ساطعة . رأينا في تاريخ كل مملكة ليس أقل من مأثرة خالدة في ظل عقيدتها . لو أن المسلمين انتفعوا بهذه الدروس واستمروا بالروح الإسلامية العالية التي عاشتها الأندلس في أحداث الزّلاّقة والأيّام المشهودة المماثلة لها قبل ذلك ، واتخذوا العبرة منها وتجنبوا الفتن والنزاعات وابتعدوا عن العصبيات — وهو أمر يتنافى مع الإسلام ويعتبره من شيم الجاهلية — لاستمرت الأندلس المسلمة دائماً ولوجدنا مساجدها قائمة والمآذن سامقة حتى اليوم في سماء الجزيرة الأندلسية ، تنادي بالحق وترفع رايته وتدعو للخير وتبذل نفعه ، وهي تعلو على كل صوت وتسمو فوق أية دعوى : ندية منعشة ، جديدة مفعمة بالقوّة الخيّرة والحياة النيّرة .

رابعًا : الحركة العلمية

رأينا أحوال عهد الطوائف وما أصاب الأندلس خلاله من ضعف واستكانة وتفرق وتمزق ، نتيجة لضعف الخط الخلقي المسلم ، تعاونت عليه عوامل خارجية وداخلية . أنتج ذلك من السياسات السيئة التي اتبعها الكثير من ملوك الطوائف ، لا سيما نحو دينهم وإخوانهم ،وتقصيرهم تجاه بلدهم وممالأتهم أو محالفتهم — رغبة أو رهبة— لعدوهم المتربص . تعرّض للحديث عنهم وإدانتهم عدد من العلماء الأعلام المعاصرين

(١) قارن : الحلل السندسية ، ٢/١٩٥ .

لهم – مرَّ ذكر بعضهم ، في غير ما موضع[1] – وأنحوا عليهم باللائمة الشديدة وحمّلوهم أوزار كثير من سوء أحوال ذلك العصر .

نلاحظ أيّام الطوائف هذا الضعف السياسي الذي شاع في أغلب الفترة ، قاست فيه الأندلس النكبات ، وذلك التفكك الذي أصاب البناء الاجتماعي والحيرة والارتباك . بجانب الحسرة القاتلة والأسى العميق ، خلّفته هذه الأوضاع في النفوس .

بل يبدو أنَّ ذلك كان سبب الأوضاع السياسية والمخاطر المتربصة ، مما قد لا يستطيع القضاء على كثير من الصفات النفسية والخلقية التي انزوت في داخل النفس ، لإهمالها وغلبة هذه الأمور عليها . لذلك رأينا أنه ما تكاد تصح الفرصة لظهور هذه الصفات ، التي تجد طريقها خلال الجو الموحَّد والالتزام بالمثل ، إلاَّ وتنطلق من أكمامها ويزهو نموّها . فيتم تسجيل صفحة جديدة ، أو تدعو الجماعة إلى وقفات مجيدة حتى لو كانت التضحية بالنفس ثمناً لذلك من غير مصلحة أو مجد إلاَّ خدمة الدين ومن أجل حياة الأمة المسلمة . والعقيدة الإسلاميَّة وشريعتها أرادها الله –سبحانه وتعالى – أن تكون خالدة دائمة – كما أنزلها الله – والتكليف بها قائم ومستمر . فالأخذ بها نصر والبعد عنها خسر .

الأمة التي فيها مَن يجد الحياة في الفداء تتسابق له عقيدة ، هي أمة تحمل عوامل الاستمرار مهما ضمرت أو أحدقت بها ظروف سيئة ولفائف قاتمة . قد يؤدي دوام هذه الأحوال وإنهاك هذه الصفات إلى خسائر لا تعوض ، لكن من كبرى الدواهي الطامة هو الارتماء أمام العدو المتربص الغادر الذي اتبع سياسة الإضعاف والإنهاك ثمَّ الإفناء . تلك جريرة لملوك الطوائف التي يستحقون بها أشد النكير وأقسى النعوت .

مهما يكن فإيمان الأمة بعقيدتها والحفاظ على مقوماتها يكون باعثاً لروح جديدة وحياة مشرقة . من هنا رأينا عدم خلو حياة كل مملكة من ممالك الطوائف التي درسناها من صفحة وضاءة سجلتها تلك الصفات . كان ضدّ العدو في بلنسيَة تحمل وثبات وفي سَرَقُسْطَة (بَرْبَشْتَر) جهاد وبلاء ،وفي الزلاقة تضحية وانتصار . ففي هذه

---

(١) أعلاه ، ٣٢٥ ، ٣٣٢ – ٣٣٣ ، ٣٤٥ – ٣٤٦ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ – ٣٦٦ .

الأحداث – وفي غيرها مما سيأتي في العهود التالية ، محلية أو في عموم الأندلس – رأينا غلبة هذه الصفات النفسية والاجتماعية . بقي بعض هذه الصفات المتعددة الجوانب مستمراً في النّماء ويجد الجو المناسب للعمل والانتاج ، مع توفر شيء من الرعاية والعناية .

ما كان المجتمع الأندلسي أيام الطوائف مجتمعاً منقطعاً أو نشأ في أيامهم ، إذاً لما توفر له مستوى علمي رفيع . فالمجتمع الأندلسي ، مجتمع مسلم ، نشأ محباً للعلم وأهله ، وفطر أبناؤه على ذلك . لأنّ العلم فرض في العقيدة الإسلامية على كل مسلم ومسلمة ، ولا يمكن أن يكون المسلم غير متعلم أو مثقف . لذلك كان العلم منتشراً في الأندلس انتشاراً تفتقره كثير من البلدان المعاصرة لنا ، ولها حظ في التعليم كبير . والعلم والمعرفة بكل أوجهها (الدرس والتدريس والتعلم والتأليف) كانت مزدهرة وعامة ، مصدر فخر وعوامل تقدير . مع التزام بخط معلوم وشروط معروفة واهتمام بكل الوسائل والأسباب المؤدية لهذا . من هنا غدت الأندلس سوقاً للكتب كبيرة تُراجت بضاعتها وازدهرت صناعتها ، حتى الخلفاء والأمراء وأصحاب المراكز الأخرى كانوا بذلك يفتخرون . كيف لا وإن العلم شرط لمركزهم ، بل وضع الكثير منهم في مصاف العلماء الكبار الذين لهم مؤلفات أو يقيم العلماء لآرائهم وزناً ، وذلك في كل ميدان . كان في هذا العهد امتدادات لمعالم وصفات العهود الماضية في الأندلس ، بعضها فيه ضمر والآخر بقي واستمر ، رعته عوامل إنباته ولازمته أجواء نموه رغم نقصها . ليس بعيداً عن الصواب القول أنه لو استمر عهد الخلافة الأندلسية لوجدنا الحضارة والإنتاج العلمي في القرن الخامس الهجري (عصر الطوائف) أسمى وأقوى في الإنتاج والأصالة والشمول والإبداع . يعتبر العلم في هذا العهد (الطوائف) امتداداً للعهود السابقة وثمرة وضع أصولها رجال على كل مستوى[1] .

من خير ما يُقَدّم عصر الطوائف ، إلى جانب صفحات الجهاد المشرقة التي ذُكرت بعضها ، إنتاجاً غزيراً وفيراً ومشرقاً مبدعاً في مختلف الميادين . فهو زاخر

---

(١) راجع : جغرافية الأندلس وأوربا (المقدمة) ، أبوعبيد البكري ، ٣١ – ٣٢ .

بالمؤلفات الأمهات والأصول الضخمة التي وصلنا بعضها . قسم كبير من هذا ما يزال مخطوطاً بانتظار يد المحققين .

فلتكن للباحثين المجدين والدارسين المثابرين حصة في هذا الميدان يُسهمون في نَشر إنتاج سلف أمتنا المسلمة ، ويكون حافزاً ليس فقط لإنشاء إنتاج جديد مجيد ، بل لحياة يكونُ مِثْل هذا العلمِ والإنتاج إحدى ثمارها . كيف إذاً ، فإنَّ هذا الإنتاج أحد مَواليد تلك الحياة الطاهرة النقية ، ليكون بدوره كذلك . والجميع مَدْعَوْن للتقدم بجهودهم والتعلم والتتبّع ولكي يُسهموا . فالعِلْمُ شرطٌ لذلك والجِدُّ المُخْلِصُ أساس فيه .

لذلك أيضاً وجدنا أسماء لامعة في كل لون من ألوان المعرفة ، رغم أننا لا نعرف عن بعضهم إلاَّ الأسماء ، وقد نجهلها .

الحق أنَّ توافر هذا المستوى والإنتاج العلمي أيام الطوائف يستأهل اهتمام الدارس وتعليل الباحث . إذ أنَّ هذه الفترة أُحيطت بالمخاطر وتحولت إلى معارك أو امتلئت بالمشاكل وانشغلت بالانقسام فأوجدت عدم الاستقرار . نجد في الكثير منها هذه النوعية والكمية من الإنتاج الرفيع ومن شخصيات ، هي عنوان الأمة الحية وفخرها الماجد . فيما ذكر أعلاه ضياءً مهما غبشت فهي مهمة ، لأنها الثمرة التي تَشِي بهذا الروح وتنبئ عن هاتيك الأصول . فالمستوى العلمي السابق للقرن الرابع الهجري امتدَّ بأثره إلى عصر الطوائف .

الجو الفكري والروح العلمية ، التي اتسمت بالخلق العلمي وآدابه ، والرغبة في التحصيل والأخذ بأسبابه والبذل فيه والسخاء في تقديمه ، محبةَ واستجابة ، هذا كله مهم في تعليل هذه الظاهرة لعصر الطوائف . وهي : علو الحركة العلمية ووفرة إنتاجها ، رغم سوء الأحوال السياسية والاجتماعية ، مما لا ينتظر معه وجود مثل هذه الظاهرة مجردة عن تلك الأسباب وبدون تلك الأصول .

يُذكر عادةً من أسباب هذه الظاهرة اهتمام أمراء الطوائف بالأدب والعلم[1]

---

(١) انظر نفح الطيب ، ١/٤٣٨ – ٤٤٠ .

وتشجيعهم للعلماء وتقريبهم . حتى إنَّ قصور الكثير منهم غدت منتديات أدبية وعلمية . مع أنَّ الأدب كان غالباً ، لأكثر من سبب .

أشار أبو الوليد الشَّقَنْدي (٦٢٩ هـ) إلى ذلك في رسالته في فضل الأندلس « ولما ثار بعد انتشار هذا النظام ملوكُ الطوائف وتفرَّقوا في البلاد ، كان في تفرقهم اجتماع على النعم لفضلاء العباد ، إذ نَفَّقُوا سوقَ العلوم ، وتباروا في المثوبة على المنثور والمنظوم ، فما كان أعظمَ مباهاتهم إلاَّ قول : العالم الفلاني عند الملك الفلاني ، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني ، وليس منهم إلاَّ مَن بذل وسعه في المكارم ، ونبهت الأمداح من مآثره ما ليس طول الدهر بنائم »(١) .

بل إنَّ عدداً من رجالهم ومستشاريهم ووزرائهم كان من العلماء والأدباء . بجانب أنَّ بعضهم كانوا في عداد العلماء والأدباء والشعراء ، ومنهم المؤلفون . لكن هذا بدوره مرتبط إلى حد كبير بالأمور التي سبق ذكرها . إنَّ محبة العلم كانت عامة يقدرها الناس ويحثون عليه ، والعلم سبب للرفعة والتقدير ، واللهُ تعالى يقول في القرآن الكريم : ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا منكم وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(٢)

أُمراء الطَّوائف الذين عُرفوا بالمكانة العلمية هي أيضاً بقية نتاج هذا الجو الاجتماعي ، فضلاً عن تعلق الناس بالعلم ، مما جعلهم يتفاخرون به ويتنافسون فيه ، رعايةً للعلم وإيواءً للعلماء وأهل المواهب ، بل وتوليتهم المناصب . لأنَّ العالم أولى بهذه المناصب من غيره . ليملأها ويعطيها حقها ويفي بمسؤوليتها ، وليس مَن سطا عليها من أهل الجهل والادعاء ، يمسخون الحقائق ويروجون أباطيلاً .

بنو عباد في إشبيلية ، حيث عرفت هذه الأسرة بعلمها وأدبها ، منهم القضاة ، كمؤسس الأسرة إسماعيل وابنه محمد . منهم الأدباء والشعراء ، كعبَّاد المعتضد وابنه محمد المعتمد . جمعوا في بلاطهم كثيراً من رجالات العصر وكُتَّابه وشعرائه ،

(١) نفح الطيب ، ٣/١٨٩ — ١٩٠ .
(٢) من الآية ١١ من سورة المجادلة

أمثال ابن زيدون (٤٦٣ ه) وابن وهبون وابن اللَّبَّانة (ميورقة ، ٥٠٧هـ) وابن عمّار (٤٧٧ ه) . اشتهرت مع ابن زيدون الشاعرة الأديبة ولاّدة (٤٨٤ ه) بنت الخليفة المستكفي (٤١٦ ه) في قرطبة .

بنو الأفطس ببَطَلْيَوْس كانو حماة الأدب . وضع المظفر — أحد أمرائهم — كتاباً عرف باسمه (المظفري) يقع في مائة مجلد أو أقل ، لكن لم يصلنا منه شيء . كان من رجالهم ابن عَبْدون وبنو القَبْطُرنة[1] .

بنو صُمادح[2] في المَرِيّة الذين ضم بلاطهم الوشّاح ابن القزاز ، كانوا أيضاً من الأدباء ، كالمعتصم وولداه رفيع الدولة ورشيد الدولة وابنته أم الكرام . ممن عاش في المريّة الجغرافي الكبير أبو عبيد البكري (٤٠٥ — ٤٨٧ ه) . هو نفسه ابن أحد أمراء الطوائف . أبوه عبد العزيز صاحب وَلْبَة (Huelva) وشَلْطِيش (Saltes) التي مرّ ذكرها [3]. درس البكري على يد كبار علماء هذا العصر ، أمثال : المؤرخ ابن حيان القرطبي (٣٧٧ — ٤٦٩ ه) والحافظ ابن عبد البَر (٣٦٨—٤٦٣هـ) والجغرافي العُذْري (٣٩٣ — ٤٧٨ ه) . وصف ابن الأبّار أبا عبيد البكري أنه « من مفاخر الأندلس ، وهو أحد الرؤساء الأعلام ، وتواليفه قلائد في أجياد الأيام»[4].

بلاط طُلَيْطُلَة أيضاً اشتهر فيه علماء في الفلك والزراعة . الزَّرْقالي القُرطبي صاحب الجداول الفلكية أصله من طليطلة ، ومنها صاعد الأندلسي الطليطلي صاحب كتاب **طبقات الأمم** . كان لطليطلة أهمية في نقل العلوم إلى الغرب إذ غدت مركزاً مهماً لترجمة الكثير من هذا الإنتاج .

في إمارة سرقسطة عاش الشاعر ابن دَرّاج القَسْطَلي (٤٢١ ه) ، كان في شبابه من كتّاب المنصور بن أبي عامر . عدّ المقتدر بن هود وابنه المؤتمن من العلماء[5] في الفلسفة والرياضيّات والفلك .

---

(١) انظر : أعلاه ، ١٧٠ .   (٢) انظر : نفح الطيب ، ٣/٣٦٦ وبعدها .

(٣) أعلاه ، ٣٥٤ ، ٣٨٩ .   (٤) الحلة السيراء ، ٢/١٨٥ .

(٥) نفح الطيب ، ١/٤٤١ .

كانت قواعد الأندلس وحواضره مركزاً للعلم والمعرفة . فقرطبة وإشبيلية والمرية وطليطلة وبطليوس وبلنسية وغيرها عاشت عواصم ثقافية ، ضمت العلماء والمعاهد ، كما كانت هي وعموم مدن الأندلس مليئة بالمكتبات الخاصة والعامة . وكانت لعديد من الأمراء مكتبات ضخمة ، وعنايتهم بها كبيرة .

برز في هذه الفترة علماء أفذاذ وصلوا القمة ، وكذا شعراء وأدباء وكتاب ، **ولكن للاسباب التي ذكر بعضها** . عاش بعض هؤلاء شبابهم قبل الفتنة ، تركوا المؤلفات الكثيرة التي تحتل المكانة الرفيعة ، من أمثال : ابن حزم صاحب المؤلفات الغنية . هو ، كابن حيان وابن بسام وآخرين ، أرخوا لعصرهم أيضاً .

امتاز عدد من هؤلاء العلماء بصفة الموسوعية ، إنهم من كتاب الموسوعات . أمثال : ابن حزم وأبي عبيد البكري ، كتبوا في عدة فنون وميادين ، وإنتاجهم في ذلك يمتاز بالدقة والعمق والأصالة .

توفرت أعداد كبيرة من أعلام بهذه النوعية الفريدة ، مع البناء العلمي للمجتمع الأندلسي ، ألغى توقع وقوف عملية طلب العلم أو تعويق نموه .

يختلف المستوى العلمي الذي كانت عليه الأندلس خلال الطوائف عن الحالة السياسية . سمت نهضته فوق هذه الحالة ، وبرزت قوية وضاءة[1] .

كان هذا المستوى الفكري والنهضة العلمية نتيجة لما غرسه الإسلام في المجتمع الأندلسي ، من حب العلم والتعلق به وأنه مصدر فخر . لذلك ، فمع سوء الأحوال في هذه الفترة ، بقيت تلك الروح وحب العلم مبثوثة لدى الناس .

اقتات عصر الطوائف – أحياناً – على ما غرسه الأوائل ، بقي مستمراً في النماء والعطاء ، لبقاء روح ذلك الجو ، وهو دليل عمق هذا الاتجاه .

أمّا بعض جوانب الصفات التي أصابها الانزواء فقد وجدناها تثار حين تستثار ، أو تجد الجو المؤهل والعامل الممكن . أوذيت هذه لأن عوامل الفتك أول ما أصابتها .

وجدنا عصر الطوائف غنياً بالأحداث ، كما وجدناه ، رغم ترديه والتمزق

---

(١) انظر : دول الطوائف ، ٤٢٤ وبعدها .

الذي ساده في الجانب السياسي والاجتماعي ، ما إن تلوح المناسبة حتّى تظهر الصفات التي عانت الويلات ، مشرقة مضيئة مرة أخرى . تعتبر الطوائف من أسوأ ما مرّ بالأندلس ، وأنها ربما التي قادتها إلى الأذى والضياع . ولولا أن هيأ الله المرابطين ينجدون إخوانهم في عدوة الأندلس لكان الأمر أسوأ ﴿ واللهُ غالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [1]



(١) من الآية ٢١ من سورة يوسف .

الفصل السادس

عهد المرابطين

الانتعاش الأول

٤٨٤ – ٥٢٠ هـ (١٠٩٢ – ١١٣٤ م)

أولاً : المرابطون وجهادهم في الأندلس .

ثانياً : نتائج التعاون بين المرابطين وأهل الأندلس .

ثالثاً : الأحوال العامة .



أولاً : المرابطون وجهادهم في الأندلس

١ ـ المرابطون

قام المرابطون في المغرب الأقصى يدعون إلى تأكيد التمسك بالإسلام ، وتجديد جريان الحياة في تياره وإشباعها بروحه واتخاذه دستوراً شاملاً يحكم حياة الإنسان في كل أحوالها . وامتدّت حركتهم حتى أقامت دولة شملت مناطق كثيرة في المغرب الكبير ، وانضوت الأندلس تحت جناحها ، وعمّرت دولتهم نحو مئة عام .

يرجع تأسيس الدعوة والدولة المرابطية إلى قبيلة لَمْتُونَة ، إحدى بطون صَنْهاجة من البرانس ، واحدةُ كُبرى قبيلتين (البرانس والبُتْر) اللتين يتكوّن منهما البربر ، وعموم سكان الشمال الإفريقي . لذا تُسمّى الدولة المرابطية أيضاً بالدولة اللّمْتُونِيّةواللمتونيين . ولاتخاذ لَمْتُونَة اللِّثَامسموا بالمُلَثَّمِين[١] ، أوالمُلَثَّمَة[٢] والمُلَثَّم ، إشارة لأحد حكّامِها[٣] .

تعود أوليتها إلى يحيى بن إبراهيم الجدالي أمير جدالة (كدالة ، شقيقة لمتونة وبطن أخرى لصنهاجة) . توجّه يحيى في جماعة إلى الحج ، مستخلفاً ابنه إبراهيم[٤] . وعَرَّجُوا في عودتهم على القَيْرَوان للاستماع إلى بعض علمائها سنة ٤٤٠ هـ[٥] ، واتصلوا هناك بأبي عمران موسى الفاسي : موسى بن عيسى بن أبي حاج (٣٦٨ ــ ٤٣٠ هـ) ، شيخ المذهب المالكي[٦] ، وطلبوا منه أن يرسل معهم عالماً يفقههم في

---

(١) الحلة السيراء ، ٢/٢٥٠ ؛ المغرب في حلي المغرب ، ٢/٤٦٧ ؛ دول الطوائف ، ٢٩٩ .
(٢) التكملة ، ابن الأبار ، ١/٤٣٩ ، ٤٤٧ .
(٣) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق ، ١٩٧ = الحلل السندسية ، ١/١١٨) .
(٤) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، أبو العباس أحمد الناصري ، ٢/٦ .
(٥) البيان المغرب ، ٣/٢٤٢ ، ٤/٧ ـ ٩ .
(٦) انظر : الصلة ، ٦١١ ـ ٦١٢ (رقم : ١٣٣٧) ؛ ترتيب المدارك ، ٣ ـ ٤/٧٠٢ ؛ العبر ، ابن خلدون ، ٦/٣٧٣ ـ ٣٧٤ .

الدين ، لانقطاعهم في الصحراء . فأرسل معهم عبد الله بن ياسين الجزولي (٤٥٠ أو ٤٥١ هـ)[١] . وصحبهم إلى بلادهم وبدأ يفقّه الناس في دينهم ويعلمهم شريعة ربهم .

أقام ابن ياسين رباطاً ، والتفّ حوله جماعة انقادت له ، مستوعبة هذا الفهم ومخلصة له ، وبلغ عددهم حوالي ألف رجل ، فأطلق عليهم اسم « **المرابطون** » .

كان ممَّن التفَّ حول عبد الله بن ياسين زعيم قبيلة لَمتونة يحيى بن عمر بن إبراهيم ، خلف يحيى — بعد وفاته (٤٤٦ أو ٤٤٧ هـ)[٢] — أخوه أبو بكر بن عمر في السنة الثانية ، وكان — كأخيه — مثال الإخلاص والتضحية[٣] .

حين بدأت العقبات في وجه هذه الدعوة ، دافعوا عنها ضد من وقف في طريقها يهددها . وانطلق مِن رباط ابن ياسين تيارها فتياً قوياً ، ثمَّ أقام تلك الدولة[٤]

لما حدث خلاف بين بعض قبائل صَنْهاجة سنة ٤٦٣ هـ أو ٤٥٣ هـ[٥] ، دعي أبو بكر عمر للتوجّه من أجل حسمه ، وأوكل إدارة الدولة خلال غيابه لابن عمه يوسف بن تاشفين[٦] . فأدارها بمقدرة ومهارة ، الأمر الذي أكسبه مكانة عالية ، وعرف كرجل دولة ، بجانب شهرته العسكرية التي ظهرت في مهام كلفه أبو بكر ابن عمر بها[٧] .

وحين عاد أبو بكر بن عمر ورأى حال الدولة وما يتمتع به يوسف من مكانة ، وحازه من توفيق ؛ تنازل ليوسف[٨] ، الذي استمر حكمه حتى وفاته سنة ٥٠٠ هـ[٩] . تلك بادرة ذات مدلول ، جد كبير .

---

(١) المؤنس في أخبار افريقية وتونس ، ابن أبي دينار ، ١٠٤ — ١٠٥ ؛ أعمال الأعلام ، ٣/٢٢٧ ؛ ترتيب المدارك ، ٣ — ٤/٧٨٠ — ٧٨٢ .

(٢) الاستقصا ، ٢/١٣ .

(٣) راجع نسبهم في : البيان المغرب ، ٤/٧ وبعدها . كذلك : الحلة السيراء ، ٢/٢١٢ ؛ تاريخ الأندلس ، ١٠٦ (نص ابن الكردبوس) .

(٤) البيان المغرب ، ٤/ ٩ — ١٧ .

(٥) العبر ، ٦/٣٧٧ ؛ الاستقصا ، ٢/٢١ .

(٦) البيان المغرب ، ٤/٢٠ — ٢١ .

(٧) البيان المغرب ، ٣/٢٤٣ .

(٨) البيان المغرب . ٤/٢٤ .

(٩) راجع : دول الطوائف ، ٢٩٩ وبعدها ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١/ ٣٧ — ٣٨ .

٢ - جهادهم في الأندلس

قامت دولة المرابطين في البلاد المغربية على أسس إسلامية والحكم بما أنزل الله . وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أبرز أمراء هذه الدولة . عاصمتها **أغمات** التي تقع على بعد خمس وثلاثين كيلو متراً جنوب شرقي مدينة مراكش . ثمّ اختط يوسف مدينة مراكش سنة ٤٥٤ هـ[١] (١٠٦٢ م) ، أو بعدها[٢] ، متخذاً إياها عاصمة الدولة ، وأسس قصبةً ومسجداً ، وكان يشاركُ العمّال بنفسه في بناء المسجد[٣] .

رأينا أوضاع الأندلس وما صارت إليه - خلال الطوائف - من التفكك وإلحاح إسبانيا النصرانيّة في إنهاكها واستنزاف قواها ، حتّى سقطت طليطلة في محرم سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، واتجهت الأنظار صوب عُدوة المغرب مستنجدة بإخوانهم المرابطين . ولبّى أميرهم النداء . فعبر الجيش المرابطي إلى الأندلس مجاهداً في سبيل الله . كانت معركة الزّلاّقَة في رجب سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) . رُدّ الجيشُ القَشتالي على أعقابه خاسراً ممزّقاً ، وكان نصراً عزيزاً اهتزّت له النفوس في الأندلس والمغرب وبقاع العالم الإسلامي . قبل عودة أمير المرابطين إلى المغرب جمع رؤساء الأندلس - كما يخبرنا أحدهم - فنصحهم ووعظهم : « وأمرنا بالاتفاق والائتلاف ، وأن تكون الكلمة واحدة ، وأنّ النصارى لم تفترصنا إلاّ للذي كان من تشتتنا واستعانة البعض بهم على البعض . فأجابه الكل أن وصيته مقبولة وأنّ ظهوره مما يجمع الكل على الطاعة والجري إلى الحقيقة . »[٤] عاد الجيش المرابطي إلى المغرب

---

(١) العبر ، ٦/٣٧٧ ؛ الاستقصا ، ٢/٢٤ .

(٢) كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، مجهول المؤلف ، ٢٠٨ .

(٣) دول الطوائف ، ٣١٠ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، عنان ، ١/٣٨ ؛ أعمال الأعلام ، ٣/٢٣٤ (نشر بعنوان : تاريخ المغرب العربي ، وهو القسم الثالث من أعمال الأعلام) ؛ البيان المغرب ، ٤/١٢٣ .

(٤) التبيان ، ١٠٦ ؛ تأليف عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن زيري (٤٤٧ - بعد ٤٨٣ هـ) ، من صنهاجة . وهو ثالث وآخر أمير (٤٦٩ - ٤٨٣ هـ) لدويلة غرناطة أيام الطوائف . التبيان ، ٧ (المقدمة) .

في شعبان سنة ٤٧٩ هـ ، ولُقب يوسف بن تاشفين « **أمير المسلمين** » بعد وقيعة الزّلاّقة الشهيرة[١] .

أرسل الفونش (السادس) – عقِب استيلائه على طليطلة – قوات للإغارة على بعض مناطق شرقي الأندلس . ثمّ ابتنى قرب مُرْسِيَة حِصْناً ضخماً ليكون قاعدة للإغارة على تلك المناطق ، في مكان اسمه لييط (Aledo) . شحنه بالمقاتلة ، حتى بلغت حاميته ثلاثة عشر ألف مقاتل ، فيهم ألف فارس . وجد المعتمد بن عبّاد أنّه لا بدّ من الاستعانة بالمرابطين مرّةً أخرى لإنقاذ شرقي الأندلس من هذا العيث . فعبر بنفسه إلى المغرب والتقى بأمير المسلمين وعرض عليه الأمر ، فوعده يوسف بن تاشفين خيراً ووفّى يوسف بوعده ، فجاز إلى الأندلس – جوازه الثاني – سنة ٤٨١ هـ[٢] ، وتوجّه بقوته إلى حصن لييط ولحق به عدد من ملوك الطوائف بقواتهم وضربوا الحصار حول الحصن ، لكن لم يتمكنوا من فتحه . ثمّ آثر يوسف الانسحاب ، حين علم مجيء الفونش بجيشه . وفضل هذا الأخير إخلاء الحصن بعد تهديمه وذلك سنة ٤٨٢ هـ . وعاد يوسف إلى المغرب وترك في الأندلس حاميةً ، كما فعل بعد معركة الزّلاّقة .

ساءت أحوال الطوائف – مرّةً أخرى – وعادوا إلى خلافاتهم . ترددت الكتب والفتَاوَى إلى أمير المسلمين بإنجاد الأندلس وإنقاذه ، من ملوك الطوائف هذه المرة . كما وردت الفتَاوَى من بعض فقهاء المشرق وعلمائه ، أمثال : أبي حامد الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥ هـ) وأبي بكر الطُّرْطُوشي (٤٥١ – ٥٢٠ هـ)[٣] . أمام ظروف الأندلس وأحوالها استجاب يوسف لذلك . وجهّز جيشاً وعبر الأندلس – للمرة الثالثة – في أوائل سنة ٤٨٣ هـ[٤] ، واتجه لتوّه إلى طليطلة التي أصبحت عاصمة قشتالة ، وفيها أدفُونْش بن فِرْدِلَند (الفونسو السادس) ، خليفة شانْجُهْ

(١) أعمال الأعلام ، ٢٥١/٣ .
(٢) أعمال الأعلام ، ٢٤٩/٣ .
(٣) راجع : عصر المرابطين والموحدين ، ٤١/١ – ٤٤ .
(٤) أعمال الأعلام ، ٢٥٠/٣ .

ابن رَدمير ملك أرْغُون . وحين شاهد ابن تاشفين مناعتها ، تركها عائداً إلى جنوبي الأندلس متوجِّهاً صوب غَرناطة حيث استسلم له أميرها عبد الله بن بُلُقِّين في رجب سنة ٤٨٣ هـ (ايلول ١٠٩٠ م) . وفرح أهل الأندلس لهذا .

عاد أمير المسلمين إلى المغرب وترك عدداً من قادته ليتموا خلع ملوك الطوائف . وخضعت قرطبة ــ وكانت تابعةً لبني عباد ــ للمرابطين سنة ٤٨٤ هـ ، وقتل حاكمها الفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون . وقد مرت الإشارة إلى زوجته زائدة التي لجأت إلى ملك قشتالة[١] .

لما علم الفونش (السادس) باتجاه الجيش المرابطي صوب إشبيلية ــ بعد إخضاع قرطبة ــ بقيادة سِير بن أبي بكر ، أرسل إليهم حملةً بقيادة البَرْهانش مؤلفة من عدَّة آلاف ، من فارس وراجل . دارت في أحواز إشبيلية معركة عنيفة انتهت بانتصار المرابطين . بعد ما أُثخن القائد القشتالي بالجروح[٢] . استسلمت إشبيلية للمرابطين ــ في رجب من السنة المذكورة ــ بعد مقاومة شديدة من المعتمد ، الذي أسر ونفي إلى أغمات في المغرب ، وتوفي هناك في شوال سنة ٤٨٨ هـ (تشرين الأول = اكتوبر ١٠٩٥ م) . وأخذت المَرِيَّة من حاكمها معز الدولة أحمد بن المعتصم بن صُمادح في رمضان سنة ٤٨٤ هـ ، مرسية في شوَّال ، وكذلك شَاطِبَه ومدن أخرى سنة ٤٨٥ هـ .

تأتي صفحة أخرى من جهاد المرابطين في الأندلس ، حيث أنفقوا جهوداً كبيرةً لإنقاذ بلنسية من الطاغية القَمْبيطور والقَشتاليين . دخل المرابطون بلنسية ، معيدين فتحها في رجب سنة خمس وتسعين وأربع مائة للهجرة[٣] ، وحدثت موقعة أُقْليش بين المرابطين والجيش القشتالي ، الذي تمزَّق وقتل فيه الابن الوحيد لألفونش (السادس) ، سنة ٥٠١ هـ كما سبق بيانه[٤] . بعدها دخلت سرقسطة والثغر الأعلى تحت سلطان المرابطين .

---

(١) أعلاه ، ٣٥٣ . (٢) أعمال الأعلام ، ١٦٣ ؛ دول الطوائف ، ٣٥١ .

(٣) التكملة ، ١٨١/١ ؛ أعلاه ، ٣٨٦ .

(٤) أعلاه ، ٣٥٢ – ٣٥٣ .

دخلت سلطان المرابطين — سنة ٤٨٨ هـ — مملكة بَطَلْيَوْس ، في غربي الأندلس، التي كان يحكمها بنو الأفْطَس . وأرسلت — بعد ذلك — حملة مرابطية إلى أُشْبُونَة (لشبونة) ، حيث كانت تحتلها الجيوش القشتالية وفيها حامية من جيشهم . واستطاع المرابطون إخضاعها .

عبر — سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) ، أو بعدها — يوسف بن تاشفين إلى الأندلس — عبوره الرابع[١] — وكان قد عَهِدَ بأمور الأندلس إلى كبير قادته سير بن أبي بكر . ووجَّه جيشاً بقيادة محمد بن الحاج صوب طليطلة ، إذ غدت عاصمة قشتالة . والتقى بالقشتاليين بقيادة الفونش (السادس) قرب كنشرة (Consuegra) ، فانهزم الجيش القشتالي متكبداً خسائر كبيرة سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م)[٢] .

توجّه يوسف إلى قرطبة سنة ٤٩٥ هـ لأخذ البيعة لابنه أبي الحسن علي[٣] . وكان بصحبته هو وأخوه الأكبر أبو الطاهر تَميم . اشترط في هذه البيعة لعلي أن ينشئ في الأندلس جيشاً مرابطياً ثابتاً يوزعه على سائر القواعد[٤] . عاد يوسف بن تاشفين إلى مراكش ، حيث توفي أول محرم سنة ٥٠٠ هـ (٢ إيلول = سبتمبر ١١٠٦ م) . أوصى ابن تاشفين ولي عهده بأمورٍ تتعلق بحسن السياسة والرفق والعناية بالأندلس . هكذا انتهت حياة هذا البطل بعد عمر يقارب المئة سنة ، قضى أكثر من نصفها في جهاد دائم وأحرز انتصارات باهرة ، وخلد فعلاً حميداً . رحمه الله وجزاه خيراً[٥] .

خلف علي أباه يوم وفاته وأخذت له البيعة ، واختار يوسف علياً ليخلفه ، لما يتمتع به من النباهة والحزم والتقوى ، وكان مقتفياً سيرة والده[٦] . وعبر — في

---

(١) قارن : تاريخ الأندلس ، ١٠٧ ، ١١٢ (نص ابن الكردبوس) ؛ الحلل الموشية ، ٥٥ ؛ دول الطوائف ، ٣٧١ .

(٢) تاريخ الأندلس ، ١٠٧ — ١٠٨ (نص ابن الكردبوس) . كذلك : الروض المعطار ، ١٣٤ .

(٣) انظر : الحلل الموشية ، ٥٦ . لكن ابن الخطيب يذكر في الإحاطة (٥٢١/٢) أن البيعة كانت « في ذي الحجة سنة ست وتسعين واربع مئة . »

(٤) انظر : الحلل الموشية ، ٥٧ .

(٥) راجع : دول الطوائف ، ٣٧٠ — ٣٧٤ .

(٦) البيان المغرب ، ٤٤/٤ . كذلك : الحلل الموشية ٦١ .

السنة الأولى من حكمه – إلى الأندلس مجاهداً ، وأجرى بعض التغييرات الإدارية ، فعين أخاه أبا الطاهر تميماً قائداً أعلى للجيوش في الأندلس ، ثمّ عاد إلى المغرب .

آ – وقعة أُقْلِيش

كتب علي بن يوسف بن تاشفين إلى أخيه تميم ، أوائل سنة ٥٠١ هـ ، باستئناف الجهاد ، فاتجهوا صوب مدينة أُقْلِيش (Ucles) ، قاعدة كورة شَنْتَبَرِيَّة (Santaver) الواقعة شرق مدينة طليطلة ، ففتحوها ، وتركها الجيش القشتالي ، ليتحصن في قصبة أُقْلِيش المنيعة . أمدّ أدْفُونْش بن فِرْدِلَنْد (الفونسو السادس) حاميتها بعشرة آلاف فارس ، بقيادة ولي العهد ابنه الوحيد : شَانْجُهْ (Sancho) ، البالغ إحدى عشرة سنة ، مع قائده الكبير البَرْهانش وقادة آخرين . سميت معركة الأقماط السبعة (Batalla de los Siete Condes) ، أي : الأمراء السبعة الذين رافقوا شَانْجُهْ[1] . وكان عدد الجيش القَشْتالي يفوق كثيراً عدد الجيش الإسلامي . جرت وقعة أُقْلِيش (أُقْلِيج) الشهيرة هذه في ١٦ شوال سنة ٥٠١ هـ (٢٩ مايس = مايو ١١٠٨ م) وكانت هزيمة ساحقة للجيش القشتالي ، قُتل فيها شَانْجُهْ ، كما سبق ذكره[2] . وكان نصراً رائعاً أعاد ذكريات الزَّلاَّقة .

ممن استُشهد في وقيعة أُقْلِيش « الإمام الجَزُولي ، وكان رجل صدق . وجماعة من الأعيان »[3] . تبع ذلك بعام[4] أو أقل[5] وفاة أدْفُونْش أواخر سنة ٥٠٢ هـ (٣٠ حزيران = يونيه ١١٠٩ م) .

---

(١) نظم الجمان ، ٦/٥ – ٧ ؛ تاريخ الأندلس ، ١١٥ (نص ابن الكردبوس) ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١/٦٥ ؛ كذلك : *Manual de historia de Espana*, I, 604.

(٢) أعلاه ، ٣٥٢ – ٣٥٣ ، ٤٢٣ ؛ تاريخ الأندلس ، ١١٤ (نص ابن الكردبوس) ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١/٦٠ – ٦٧ .

(٣) نظم الجمان ، ابن القطان ، ٦/٩ .

(٤) البيان المغرب ، ٤/٥٠ .

(٥) البيان المغرب ، ٤/٥٠ ؛ تاريخ الأندلس ، ١١٥ (نص ابن الكردبوس) .

ب ـ مواجهات أخرى

في سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) عبر علي إلى الأندلس للمرة الثانية « برسم الجهاد ونصر الملّة وإعزاز الكلمة »[١] .

سار أمير المسلمين بجيش ضخم صوب طليطلة فاتحاً عدة مدن وحصون مثل طَلَبِيرَة ومَجْرِيط (مدريد) ووادي الحِجَارة ، وحدثت معركة شديدة عند إعادة فتح طلبيرة سنة ٥٠٣ هـ[٢] ، وكان ممن اشترك في هذه الحملة قاضي الجزيرة الخضراء ثمّ قاضي غَرناطة عبد الله بن علي بن عبد الملك بن سَمْجُون اللواتي (طنجة ، ٤٤٤ ـ تلمسان ، ٥٢٤ هـ)[٣] .

لسنوات عدّة حدثت معارك بين المرابطين ، ومعهم جيش الأندلس ، ضد قوات قشتالة ، وانتصر المرابطون في أكثرها ، وفي مناطق عديدة ، منها في غربي الأندلس . ثمّ انتقلت أعمال المرابطين في قلب قَشتالة واشتبك الفريقان في مواقع خسر المرابطون بعضها .

جـ ـ جهادهم في الجزائر الشرقية

للمرابطين مأثرة أخرى في هذا الجهاد هو استردادهم للجزائر الشرقية في البحر المتوسط (مَيُورْقَه ومَنُورْقَه واليابسة) . ذلك سنة ٥٠٩ هـ (١١١٦ م) ، بعد ما يزيد على سنة لغزوها من قبل قوات الحلف الثلاثي المكوّن من جمهوريتي بِيشَة (بِيزَة Pisa) وجَنوة (Genoa) وإمارة بَرْشَلُونَة[٤] .

يورد ابن الكردبوس في كتابه **الاكتفاء** معلومات مهمّة عن هذا الموضوع ، فيقول : « وفي سنة ثمان وخمس مائة، اجتمع أهل بيشة وجنوة ، وعَمَّروا ثلاث مئة مركب ، وخرجوا إلى جزيرة يابسة من عمل مَيُورْقَة ، فغلبوها وسبوها وانتهبوها ،

---

(١) الحلل الموشية ، ٦٢ .
(٢) نظم الجمان ، ١٣/٦ .
(٣) التكملة ، ابن الآبار ، ٩١٥/٢ ـ ٩١٦ (ترجمة رقم : ٢١٤٦) .
(٤) الروض المعطار ، ١٨٨ ؛ دول الطوائف ، ٢١١ ـ ٢١٣ ؛ عصر المرابطين ، ٧٦/١ ـ ٧٧ .

ثمَّ انتقلوا إلى جزيرة مَيُورْقَة »[1] . أوصل حاكمها عبد الله المرتضى وأهلها نداءهم الذي أنفذه البَحَّار أبو عبد الله بن ميمون حين حمل صريخ الجزيرة إلى أمير المسلمين علي بن تاشفين . وأرسل أُسطولاً من ثلاث مائة سفينة بقيادة أمير البحر تاقِرْطاس . ولما علم المهاجمون تركوا حصار الجزيرة (ميورقة) ورحلوا ، بعد أن خربوها نهباً وحرقاً ، فعاد الفارّون من سكانها . في طريق قوة العدو ـ مرتدة عائدة ـ ألقت العواصف بأربع سفن منها إلى ثغر دَانيَة ، فطاردها قائد البحر أبو السداد ، فغرقت واحدة وأُسرت الثلاث .

« وفي خلال ذلك الحصار ، كان ناصر الدولة (أي : مبشر الحصي) كتب إلى أمير المسلمين يستصرخه ويستنصره ، ووجه كتابه مع القائد أبي عبد الله بن ميمون ، وكان إذ ذاك عنده قائد غراب بين يديه . فلم يشعر العدو حتى خرج الغراب معمراً ليلاً من دار الصناعة عليه ، فانطلق في الحين يقفو أثره ، واتبعه نحو عشرة أميال والظلام قد ستره ، فلما قطع يأسه في الظفر به ، رجع خاسئاً على عقبه ، فوصل ابن ميمون بالكتاب إلى أمير المسلمين ، فأمر في الحين ، بتعمير ثلاث مائة قطعة ، وأن تلقى بعد شهر دفعة . فامتثل أمره في ذلك ، واندفعت بجملتها من هنالك ، وإذ ذاك تعين ابن ميمون عند أمير المسلمين .

« فلما شعر العدو بخروج ذلك الأسطول ، أخلى وصدر عن الجزيرة ، وعينُه بما احتمل من السبي والأموال قريرة . فلما وصل الأسطول وجد المدينة خاوية على عروشها محرقة سوداء مظلمة منطبقة. فعمرها قائد الأسطول ابن تاقرطاس ، بمن معه من المرابطين والمجاهدين وأصناف الناس، وجلب إليها مَن كان قد فَرَّ عنها إلى الجبال فاستوطنوها وعمروها وسكنوها . وانصرف الأسطول إلى مكانه ، وعاد إلى موضع مقره واستيطانه .

« وفي انصراف العدو إلى أوطانه ، هبت عليه ريح ببحار طامية ، فحملت منه أربع قطائع إلى ناحية دانية . فعمد إليها قائد البحر أبو السداد ، ففرت أمامه ، وغرقت واحدة منها قدامه ، وعكس الثلاث . »[2]

---

(١) تاريخ الأندلس ، ١٢٢ (نص ابن الكردبوس) .

(٢) تاريخ الأندلس ، ١٢٣ ـ ١٢٤ . كذلك : البيان المغرب ، ٦٦/٤ ؛ العبر ، ابن خلدون ، ٣٥٥/٤ .

د – سقوط سَرَقُسْطَة

في سنة ٥١١ هـ (١١١٧م) يعبر أمير المسلمين – للمرة الثالثة – ويقوم بنشاط عسكري وافر ويفتح مناطق عديدة منها قُلُمْرِيَة (Coimbra) ، عاصمة البرتغال يومها .

جرت أحداث خسر فيها المسلمون بعض المواقع والمدن ، ثم استولى ملك أرْغُون أدفونش بن رُدْمِير (الفونسو الأول الملقب بالمحارب El Batallador) على مدينة سرقسطة سنة ٥١٢ هـ (١١١٨م) ، بعد حصار شهور اشتركت فيه قوات من مختلف اسبانيا النصرانية ومن فرنسا ، وساروا في حملة تتسم بالصليبية[١] .

سارت الحملة الصليبية وقِوامها جيوش ، بلغت أعدادها خمسين ألف راكب[٢] ، فِرَنْجِيَّة من إسبانيا الشمالية وفرنسا . بقيادة ابن رُدْمِير ملك أرْغُون ، متوجهة إلى شمالي الأندلس ، وحاصرت سرقسطة في صفر ٥١٢ هـ (مايس = مايو ١١١٨م) سبعة أو تسعة شهور[٣] . بعد إنهاك المدينة ، وذاق أهلها ألوان الصعاب ، فنيت فيها الأقوات ، وهلك الناس ، ونال الجوع منهم مأرباً ، فاضطرت المدينة للاستسلام[٤] .

في يوم الاربعاء لأربع خلون من رمضان سنة اثنتي عشرة وخمس مئة للهجرة[٥] (كانون الأول = ديسمبر ١١١٨م) دخلوا المدينة صُلْحاً أو عَنْوة وعاثوا فيها[٦] .

كان من أسباب سقوطها عدم إحسان الجيش المرابطي الدفاع عنها[٧] « وجرت قصص طويلة أفضت إلى تغلب الروم على سرقسطة في يوم الأربعاء الرابع من شهر رمضان سنة اثنتي عشرة . »[٨]

---

(١) انظر : أعلاه ، ٣٥٧ .
(٢) الروض المعطار ، ٩٨ .
(٣) الروض المعطار ، ٩٧ .
(٤) انظر : عصر المرابطين والموحدين ، ١/١٠٥ – ١٠٦ .
(٥) التكملة ، ١/٢٠٠ ، ٣٠١ .
(٦) تاريخ الأندلس ، ١١٧ – ١٢٠ (نص ابن الكردبوس) .
(٧) الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي ، ٥/٤٨٠ .
(٨) الحلة السيراء ، ٢/٢٤٨ . راجع : عصر المرابطين والموحدين ، ١/ ٩٠ – ١٠٢ .

هـ ــ وقعة قُتَنْدَة

جرت وقيعة قُتُنْدَة (كُتُنْدَة) يوم الخميس الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول عام ٥١٤ هـ (أواخر حزيران = يونيه ١١٢٠ م) ، بقيادة أبي إسحاق ابراهيم ابن يوسف بن تاشفين ، أخي الأمير المرابطي علي بن يوسف[١] . وتقع مدينة قُتَنْدَة (Cutanda) ، التي جرت المعركة بظاهرها ، في حيز دَرُوقة (Daroca) ، من أعمال سرقسطة .

دارت المعركة شديدة على المسلمين[٢] واستشهد منهم الآلاف ، بينهم العديد من الفقهاء والعلماء ، منهم :

* القاضي الشهير الشهيد العلامة أبو علي الصَّدَفي (٤٥٢ ـــ ٥١٤ هـ) . وهو حسين ابن محمد بن فِيرُّه بن حَيُّون ، يعرف « ابن سُكَّرة الصَّدَفي » ، من أهل سرقسطة وسكن مرسية[٣] .

* قرين الصدفي في الفضل : أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد الله بن زكرياء ، قاضي المرية ، المعروف بابن الفَرَّاء[٤] « وحضرا يوم كُتُنْدَة المشهور بالثغر الأعلى يوم الخميس لست بقين من ربيع الآخر من السنة ، وحقت على المسلمين الهزيمة ، وكانا فيمن فقد رحمهما الله . »[٥] ممن حضر المعركة القاضي الإشبيلي أبو بكر بن العربي[٦] (اشبيلية ، ٤٦٨ ـــ فاس ، ٥٤٣ هـ) .

هؤلاء العلماء قدوة في كل أمر ، يعلّمون الناس الفقه والعلم والخلق بدروسهم وسيرتهم . فهم موجودن مع الناس في معترك الحياة ، يَعْتَلُون قممها ويمتطون

---

(١) المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي ، ابن الأبار ، ٥٤ ـــ ٥٥ (ترجمة رقم : ٤٠) .

(٢) نفح الطيب ، ٤/٤٦٠ ـــ ٤٦١ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١/١٠٣ . كذلك : التكملة ، ٢/٤٨٠ ـــ ٤٨١ ؛ الذيل والتكملة ، ٦/٢١٩ (رقم : ٦٤٠) .

(٣) انظر : الصلة ، ١٤٤ (رقم : ٣٣٠) ؛ نفح الطيب ، ٢/٩٠ ـــ ٩٣ . هو غير خلف بن أحمد بن داود الصدفي (٤٨٦ هـ) من أهل بلنسية ومن ثغرها رُكَّانة . التكملة ، ١/٢٩٨ .

(٤) الصلة ، ٥٧٢ (رقم : ١٢٦١) .

(٥) المعجم ، ٤ (رقم : ٣) . كذلك : أزهار الرياض ، المقري ، ٣/١٥٣ ـــ ١٥٤ .

(٦) نفح الطيب ، ٤/٤٦١ ؛ أزهار الرياض ، ٣/١٥٤ .

معامعها ، يحنون على الناس ، وهم يأوون إليهم ويلتفّون حولهم . كانوا يسيرون لمثل هذه المعارك ، يقفون في المقدمة ويرفعون الراية ليكونوا أول المتقدمين ، يبتغون الشهادة لدين الله،وإعلاءاً لكلمته في ، الأرض وتثبيتاً لشريعته في الحياة . هؤلاء جد كثير وموكبهم وفير . يذكر ابن عبد الملك المراكشي (٦٣٤ — تلمسان ، ٧٠٣ هـ) في كتابه **الذيل والتكملة** عن العالم أبي الحسن بن سَمْراء علي بن عبد الله الأنصاري بأنه اشترك في معارك « كثيرة على قدميه ابتغاء الأجر »[١] .

وحين تَوَجَّه الصدفي إلى معركة قُتَنْدَة رتب أموره كمن لايعود ، وأوصى إلى صهره (والد زوجته) أبي عمران موسى بن سعادة « وكان أحد الأفاضل الصلحاء ، والأجواد السمحاء ، يؤم الناس في صلاة الفريضة ، ويتولى القيام بمؤن صهره أبي علي وبما يحتاج إليه من دقيق الأشياء وجليلها ، وإليه أوصى عند توجّهه إلى غزوة كُتَنْدَة التي فُقد فيها سنة أربع عشرة وخمس مئة . »[٢]

يحسن هنا إيراد طُرْفَة رائعة ، ذات صِلَة وصِفَة علمية . تبيّن عمقَ ووضاءةَ ورسومَ وأعرافَ الجانب العلمي في الحضارة الإسلامية وطبيعةَ الحياة في المجتمع المسلم . وهذا — مع أمثاله — جدير الإفراد بالعناية .

ذهب أبو علي الصدفي إلى معركة قُتَنْدَة ، صادراً إليها من مرسية ، مرَّ بعدّة مدن ، منها شاطبة (Jativa) ، جنوب بلنسية . توقّف الجيش فيها للمرور ومآرب أخرى . ألقى فيها الصَّدَفِي — وربما في غيرها من مدن الطريق ، وحتى في مدينة المعركة « قُتَنْدَة » أو قربها[٣] — عدة دروس[٤] .

تلقّى عليه العديد من العلماء وسمع منه الناس . كما كان يفعل أيام الإقامة في مرسية وغيرها ، حيث لا انشغال بالحرب أو سواها ، مهيأً للتدريس ومعدّاً نفسه له ، فهو في جهاد وتدريس متصل . كان التلَقّي عليه في شاطبة ، متجهاً إلى الحرب

---

(١) الذيل والتكملة ، ٥/٢٢٢ (رقم : ٤٥٣) .

(٢) نفح الطيب ، ٢/٢٢١ . كذلك : المعجم ، ١٩٦ — ١٩٧ (رقم : ١٦٧) .

(٣) المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي ، ابن الأبار ، ١٧٢ (رقم : ١٤٩) .

(٤) المعجم ، ١١٦ (رقم : ٩٩) ، ١٧٦ (رقم : ١٥٣) ، ١٩٥ — ١٩٦ (رقم : ١٦٦) ١٩٨، (رقم : ١٦٩) .

في صفر سنة ٥١٤ هـ[١] . تَلَقَّى النـاس عليه ، في المحرم من نفس السنة[٢] ، في مرسية مقامه ، حتّى كان رحيله عنها .

لم ينقطع قيامه بالتدريس وهو سائر للحرب ، مستعداً لها ـ تَطَوُّعاً ـ مُوَدِّعاً ، كمن لايعود . أعدّ نفسه للشهادة ووطّنها على المقاتلة .

تولّى التدريس في حالة انشغال وإعداد للحرب واتجاه إلى ميدانه . إنه يفترص الوقت ـ وكل وقت ـ ويهتبل الساعات ليقدِّم ما عنده للمجتمع تطوعاً وتقرباً إلى الله ، وفي النفس لذلك متّسع ، فالحرب والعلم عنده في نفس المُتَّجِه وعين المبتغى . فهما عبادة وإن اختلفا في الصورة . لعلها للناس فرصة : تتلقى عنه ويُلقي هو إليهم الدرس ، متمثلاً إياه . فهو الصورة العملية لدروسه . أدّاها دون قلق وهو متّجه إلى الحرب ، وفي النفس متسع لكليمها : مقترنيْن ومنفردين ، فكلاهما جهاد . العِلْمُ نوع من الجهاد : « الجهاد العلمي » . و« الجهاد الحربي » ، علم ومعرفة بحق الله ودعوته وواجبات المسلم . فهو ثمرة العلم ، وإلا فالعلم عقيم .

كان العلماء على المقدمة في الميادين كافة ، فمِن مواصفات وطبيعة العلم في الإسلام أنه نافع وعملي ، قائم في الخط سائر في المنهج . العالِم في جهاد مستمر وإن تعددت ميادينه ، ينتقل فيه من واحد إلى آخر . لذا قام من مجلس الدرس ، حيث يقيم . ليتسلَّم مقبض السيف ، حيث يجول : نوع آخر من الدروس ، وكله في سبيل الله الواحد سبحانه وتعالى . وهو في الأول ، اختار الثاني ـ طوعاً ورغباً ـ وسار له فيه . لم يكن أقل رغبة واستعداداً له وفيه من الأول . لذلك سار إليه كمن لايعود إلى الدنيا ولايريد ، بنيَّة الاستشهاد ، يذهب إلى الله ، فوصى لصهره . إذاً فلا قلق ولا تغيير . هو في الأول يؤدي الثاني ، وفي الثاني يؤدي الأول ، بأكثر من شكل ، بالبيان المؤمن الصدوق أو بالسنان المهيمن المحبوك . كلام العلماء ، هم قدوة فيه . يتطوعون ، وفي المقدمة ، من غير توظيف أو تكليف ، بل هو تشريف .

هكذا كان علماء الأمة : حصونها وقادتها ومثالها . هم قدوة ليس للإنسان

---

(١) المعجم ، ١١٦ ، ١٩٥ – ١٩٦ .

(٢) المعجم ، ١٧٩ (رقم : ١٥٥) .

فحسب — فذلك شيء يسير — بل قدوة للمسلمين المؤمنين والأتقياء العارفين . مثالا صافياً نقياً دائماً . لأنهم اتجهوا إلى الله وأخذوا بشرعه ، وبغير هذا لاشيء يكون .

فما يعطيه الإسلام — حتى لغير المؤمنين به — مفاخر ، لولاها لما قدم الإنسان دليلاً على انسانيته أو امتلك مُثلاً خلقية : ممثَّلَة غزيرة ثرَّة نقية وعزيزة برَّة علية . لو أنصف غير المسلمين — مع بعدهم عنه — لأحبوا الإسلام ، لا أن يقاتلونه أو يعادونه ، فقتالهم له هو الدليل على هبوطهم وسبب في عقمهم . فهم يستمتعون بكثير من خيره مع بعدهم عنه ، في هذه الصورة أو بغيرها ، من : البر وحسن المعاملة والإنصاف والرعاية والتكريم ، من حيث الإنسانية ، وبما ورثه أهل الأرض من مقوّمات أو ثبته فيه من مثل عملية ، تمثلت وتتمثل في إنسان ، من كل مستوى ونوع ، أو قدّم لهم من معرفة وانتاج أو وفّر لهم من نور وضياء . لولاه لحرم الإنسان من شيء يراه مثالاً يترجم فيقتديه . كذلك كانت قبلاً أديان الله في صفائها ، وهكذا الاتباع الأصفياء ، لكل رسل الله وأنبيائه (صلوات الله وسلامه عليهم) ومحمد (صلى الله عليه وسلم) سيدهم وخاتمهم . فدين الله واحد ، آخر صورة له هو الإسلام الذي ارتضاه الله﴿ اليوم أكملتُ لكمْ دينَكم وأتممتُ عليكم نِعمتي ورضِيتُ لكمُ الاسلامَ ديناً ﴾[1] ولايرضى لأحد من عباده سواه ﴿ ومن يبْتَغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرةِ من الخاسرين ﴾[2]

لم يدع أبو علي الصدفي فرصة تمر دون عطاء للمجتمع . بل هنا قصد الناس ليعطيهم ، وفي الإقامة يقصده الناس ليأخذوا منه ، فهو لهم ومعهم دوماً ، عقيدة وعبادة . وفي ذلك رضى الله تعالى ، الذي لايبتغي غير وجهه ولايعمل لغيره .

و — المُعاهِدون

جاز الأمير علي في أوائل سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) إلى الأندلس — للمرة الرابعة والأخيرة — وذلك على إثر أحداث جرت في قرطبة ، واستطاع تهدئة الحال .

استدعى النصارى المعاهدون في غَرناطة ابنَ رُدْمير (الفونسو الأول ، المحارب)

---

(١) من الآية ٣ من سورة المائدة .

(٢) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .

ملك أرْغُون للاستيلاء على غَرْناطة ، يتعهدون هم له بكل مساعدة وكذلك برجالهم المسلحين . كان هؤلاء ينعمون بحسن المعاملة وسياسة العدل والإنصاف التي تمتَّعوا بها خلال القرون في المجتمع الإسلامي وفي ظل حكمه[1] .

استجاب ابن رُدْمِير لهذا الاعتداء ، فجهز جيشاً ضخماً بلغ خمسين ألفاً أو يزيد ، بعد انضمام آلاف النصارى المعاهدين إليه . تحرّك من سرقسطة نحو الأندلس أول شعبان سنة ٥١٩ هـ (أيلول = سبتمبر ١١٢٥ م) مخترقاً شرقي الأندلس نحو الجنوب فاتكاً وهاتِكاً ، وخرب في طريقه الزروع وعاث في الأحواز ، حاصر بعض المدن وفشل في اقتحامها أو إخضاعها . حاصر مدينة غرناطة مدة ، سنة ٥٢٠ هـ ، لكنه فشل في النيل منها أو تحقيق شيء من ذلك . استمر في تخريبه حتى وصل مدينة بَلِّش (Velez Malaga) قرب مدينة مَالَقَة (Malaga) على شاطىء الأندلس الجنوبي المتوسطي . رجع إلى أرغُون وقد أنفق أكثر من سنة . عاد أدراجه بعدما أصابه الإعياء وعصف به الوباء .

قام المعاهدون النصارى في الكتابة إلى ابن رُدْمِير لمهاجمة الأندلس والتمهيد لحملته والتعاون معه ضد الأندلس ، بالمال والسلاح والرجال والمعلومات . فعلوا ذلك رغم عيشهم فيه وتوفر كل ما يرغَبون من أمن وحرية في أمورهم كافة ، ناقضين للعهود المبرمة معهم وبهذا الشكل الواضح الفاضح العنيف المكشوف . لذلك تكلف قاضي الجماعة الفقيه أبوالوليد محمد بن أحمد بن رشد (الجدّ ، الأكبر : قرطبة ، ٤٥٠ — قرطبة ، الحادي عشر من ذي القعدة ٥٢٠ هـ) بالعبور إلى العُدْوَة المغربية ولقاء أمير المسلمين المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين للتحدث معه في هذا الشأن . أفتى القاضي بتغريب النصارى المعاهدين . أشار هناك على الأمير ببناء سور مدينة مراكش « وقدم أبو الوليد بن رُشْد إلى مَرّاكُش على علي بن يوسف ، وأشار عليه ببناء سور مراكش ، وقال له لايحل لك سكنى هذه المدينة دون سور فبناه وأنفق في

(١) عصر المرابطين والموحدين ، ١/١٠٥ — ١٠٦ .

في بنائه نحو سبعين ألف دينار . »[1] طلب القاضي كذلك من الأمير علي بن يوسف عزل أخيه أبي الطاهر تـَميم عن ولاية الأندلس ليتولاها غيره . هذان هما الهدفان (التغريب والعزل) من ذهاب ابن رشد للمغرب[2] .

عاد ابن رشد إلى المغرب حيث توفي بعد أشهر ، وتم أمر التغريب إلى المغرب في رمضان سنة ٥٢٠ هـ . ثم في نفس السنة عـُزل أبو الطاهر تـَميم أو توفي فيها قبل عزله ، ثم تعين تاشفين بن الأمير علي والياً على الأندلس ، نفس السنة أو بعدها ، حسبما يذكر بعد[3] .

بـَيَّن ابن الخطيب (ابن غرناطة ومؤرخها وأديبها ووزيرها) في كتابه **الإحاطة في أخبار غـَرناطة** هذا كله ناقلاً عن عدد من المؤرخين . تحدَّث فيه عن غير المسلمين في كورة غرناطة ، فيقول : « أمـَلـَّت المـُعاهـِدَة من النصارى لهذه الكورة إدراك الثـَّرَّة وأطـْمـَعـَت في المملكـة ، فخاطبوا ابن رُدْمـِير من هذه الأقطار ، وتوالت عليه كـُتـُبـُهم وتواترت رسلـُهم ، مـُلـِمـَّةً بالاستدعاء ، مـُطـْمـِعة في دخول غـَرناطة . فلما أبطأ عنهم ، وجـَّهوا إليه زِماماً يشتمل على اثني عشر ألفاً من أنجاد مـُقاتليهم ، لم يـَعـُدُّوا فيها شيخاً ولا غـِرّاً ، وأخبروه أن من سـَمـُّوه ، ممن شهرت أعيـُنهم لقرب مواضعهم ، وبالبعد من يـَخفى أمرُه ، ويظهر عند ورود شخصه ، فاستأثروا طمـَعه ، وابتعثوا جـَشـَعـَه واستفزُّوه بأوصاف غرناطة ، وما لها من الفضائل على سائر البلاد ، وبفـَحـْصها الأفـْيـَح ، وكثرة فوائدها من القمح والشعير والكـَتـَّان ، وكثرة المرافق من الحرير والكـُروم والزيتون ، وأنوع الفواكه ، وكثرة العيون والأنهار ، ومـَنـَعـَة قـُبـَّتها وانطباع رَعيـَّتها ، وتأتـِّي أهل حاضرتها ، وجمال إشرافها وإطلالها ، وأنها المباركة التي يمتلك منها غيرها ، المسماةُ سـَنام الأندلس عن الملوك في تواريخها . فـَرَمـَوْا حتى أصابوا غـَرْبه ، فانتخب واحـْشـَد ، وتحـَرَّك أول شعبان

---

(١) نظم الجمان ، ٦/١٠٦ – ١٠٧ . كذلك : الحلل الموشية ، ٧٠ – ٧١ .

(٢) الحلل الموشية ، ٧١ .

(٣) انظر : أدناه ، ٤٣٦ .

من عام [تسعة[1]] عشر وخمس مئة ، وقد أخفى مذهبه ، وكتم أربه ، فوافى بلنسية ، ثم إلى مرسية ، ثم إلى بيرة ، ثم اجتاز بالمنصورة ثم انحدر إلى برشانة ، ثم تلوّم إلى وادي ناطلة ، ثم تحرك إلى بسطة ، ثم إلى وادي آش ، فنزل بالقرية المعروفة بالقصر ، وصافح المدينة بالحرب ، ولم يحل بطائل ، فأقام عليها شهراً .

« قال صاحب كتاب **الأنوار الجلية** : فبدأ بحث المُعاهِدة بغرناطة في استدعائه ، فافتضح تدبيرهم باجتلابه ، وهمّ أميرها بتثقيفهم ، فأعياهم ذلك ، وجعلوا يتسلّلون إلى محلّته على كل طريق ، وقد أحدقت جيوش المسلمين من أهل العدوة والأندلس بغرناطة ، حتى صارت كالدائرة ، وهي في وسطها كالنقطة ، لمّا أُنذِروا بغرضه . وتحرّك من وادي آش فنزل بقرية دجمة ؛ وصلى الناس بغرناطة صلاة الخوف ، يوم عيد النحر من هذه السنة في الأسلحة والأبّهة ؛ وبُعيد الظهر من غده ، ظهرت أخبية الروم بالقَيْل شرق المدينة ، وتوالى الحرب على فرسخين منها ، وقد أجلى السواد ، وتزاحم الناس بالمدينة ، وتوالى الجليد ، وأظلت الأمطار . وأقام العدو بمحلّته ، بضع عشرة ليلة ، لم تسرح له سارحة ، إلا أن المُعاهِدة تجلب له الأقوات ؛ ثم أقلع وقد ارتفع طمَعُه عن المدينة ، لأربعٍ بقينَ من ذي الحجة عام عشرين ، بعد أن تفرّغ مستدعيه إليها ، وكبيره يُعرف بابن القلاّس ، فاحتجوا ببطئه وتلوّمه حتى تلاحقت الجيوش ، وأنهم قد وقعوا مع المسلمين في الهلكة . فرحل عن قرية مُرْسانة إلى بيش ، ومن الغد إلى السكة من أحواز قلعة يحصب ، ثم اتصل إلى لِدُوبيانه ، ونكب الى قبرة واللسّانة ، والجيوش المُسلِمة في أذياله . وأقام بقبرة أياماً ، ثم تحرّك إلى بلاى والعساكر في أذياله ، وشيجة في فحص الرنيسول ، مكافحة في أثنائها ، مناوشة ، وظهوراً عليه .

« ولما جنّ الليل ، أمر أميرهم برفع خبائه من وهدة كان فيها إلى نجدة ، فساءت الظنون ، واختلّ الأمر ، ففرّ الناس وأسلموا ، وتهيّب العدو المحلّة ،

(١) عند ابن الخطيب « خمسة » ، فأصلحت .

فلم يدخلها إلا بعد هدأة من الليل واستولى عليها . وتحرّك بعد الغد منها إلى جهة الساحل فشق العمامة الآمنة من الإقليم والشارّات . فيقول بعض شيوخ تلك الجهة ، إنه اجتاز بوادي شُلُوبانْيَة المُطِل الحافَّات ، والمُتَحَصِّن المجاز ، وقال بلغته : أيُّ قَبْرٍ هذا لو أَلْفَيْنا مَن يَصُبُّ علينا التراب ، ثم عَرَّج يِمنةً حتى انتهى إلى بَلَّش ، وأنشأ بها جَفْناً صغيراً ، يصيد له حوتاً ، أكل منه كأنه نَذْرٌ كان عليه ، وَفَّى به ، أوحديث أراد أن يُخَلَّد عنه . ثم عاد إلى غَرناطة ، فاضطرب بها محلته بقرية ذُكَر ، على ثلاثة فراسخ منها قِبْلةً ، ثم انتقل بعد ذلك بيومين إلى قرية هَمْدان ، وبرز بالكتب جاعرسطة من المدينة ، وكان بينه وبين عساكر المسلمين مُواقعة عظيمة . . .

« ... وانتقل بعد يومين إلى المَرْج ، مُضَيِّقاً عليه ، والخيل تحرجه ، فنزل بعين أطسة ، والجيوش مُحدقة به ، وهو في نهاية من كمال التعبية ، وأخذ الحذر ، بحيث لا تُصابُ فيه فرصة ؛ ثم تحرّك على البَراجِلات ، إلى اللقوق ، إلى وادي آش ، وقد أصيب كثير من حاميته . وطوى المراحل إلى الشرق ؛ فاجتاز إلى مُرْسِيَة ، إلى جَوف شَاطبَة ، والعساكر في ذلك تطأ أذياله ، والتناوش يَتَخَطَّرُ به ، والوباء يُسرع إليه ، حتى لحق بلادَه ، وهو ينظر إلى قَفاه ، مُخْتَرماً ، مَفْلولاً من غير حرب ، يكاد الموت يستأصل مَحَلَّته وجُمْلته .

« ولما بان للمسلمين من مكيدة جيرانهم المُعاهِدين ، ما أجْلَت عنه هذه القضية ، أخذهم الإرجاف ، ووَغِرَت لهم الصدور . ووُجِّه الى مكانهم الحزم ، ووجّه القاضي أبو الوليد بن رُشْد الأجْر ، وتجشّم المجاز ، ولحق بالأمير علي بن يوسف بن تاشُفين بمَرَّاكُش ، فبَيَّن له أمر الأندلس ، وما مُنيت به من مُعاهِدها ، وما جَنَوْه عايها من استدعاء الروم ، وما في ذلك من نَقْض العهد ، والخروج عن الذِّمَّة ، وأفتى بتغريبهم ، وإجلائهم عن أوطانهم ، وهو أخَفُّ مايؤخذ به من عقابهم ؛ وأخذ بقوله ، ونُفِّذَ بذلك عهدُه ، . . . »(١)

(١) الإحاطة ، ١/١٠٨–١١٤ . كذلك : البيان المغرب ، ٤/٦٩ – ٧٣ ؛ الحلل الموشية ، ٦٥–٧١ ؛ « وثائق تاريخية جديدة » ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ٧ – ١٢٣/٨ – ١٢٦ ، ١٦٧ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١/١٠٧ – ١١٤ .

ز – وقعة إفْراغَة

استعد أدْفُونش (المحارب) ابن رُدْمير الأرْغوني لحملة جديدة في الأراضي الإسلامية انتهت بهزيمته وتمزيق جيشه حول مدينة إفراغة (Fraga) جنوب غرب لارِدَة ، في رمضان سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٤ م)[1] .

كانت هذه المعركة من المعارك المهمة ، والجيش الإسلامي مكوناً من الأندلسيين والمرابطين بقيادة الأمير أبي زكريا يحي بن غانية والي بلنسية ومرسية ، ويُعتبر من أعظم قادة المرابطين لتلك المدة . وكان جيشه بمجموعه أقل من جيش ابن رُدْمير الذي حلّت به وبجيشه الهزيمة بعد قتال عنيف . وعلى إثر هذه المعركة هلك ابن رُدْميره وسارت أنباؤها في الأندلس والمغرب لتبعث الأمل والسرور وتذكر بأخواتها أمثال الزّلاّقة وأُقليش السابق ذكرهما[2] .

= الثرة : السعة . زمام: سجل . أنجاد : شجعان . فحصها الأفيح (لغة) : غراسها الواسع، وهنا علم : مرج غرناطة المطلة عليه (La Vega Granada) . تلوم : التلبث والتمكث . تثقيفهم : تأديبهم، أو اعتقالهم . القيل : منتصف النهار . جفن : مركب (أو حربي) . حوت : سمك ، مازالت مستعملة في المغرب بهذا المعنى . تجشم المجاز : تكلف العبور(عبر مضيق جبل طارق) .

كتاب « الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية » تأليف الأديب الكاتب : أبي بكر بن الصيرفي يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري (٥٧٠ هـ) . انظر : عصر المرابطين والموحدين ، ١/١١٠ ، ٤٤٣ – ٤٤٤ ؛ أدناه ، ٤٤٧ .

تقع أكثر الأعلام الجغرافية الواردة في النص جنوبي الأندلس ، لا سيما قرب غرناطة والساحل المتوسطي الجنوبي . هذه مقابلها الأسباني: بيرة : Vera. المنصورة: Cuevas de Almanzora . برشانة: Purchena . وادي بسطة : Baza . وادي آش : Guadix ، أدناه، ٥٥٨ . القصر : Alcazar . دجمة: Diezma . مرسانة: Maracena. بيش: Beas . قلعة يحصب : Alcala la Real . قبرة : Cabra . اللسانة: Lucena . بلاي: حديثاً أجيلار Aguilar . شيجة: Espejo. فحص الرنيسول: Arinsol . الشارات : الجبال (Sierras) ، ولعلها البشرات (موضع) : Alpujarras ، أدناه، ٥٥٤ . وادي شلوبانية : Salobreña . همدان : Alhendin .

(١) انظر: نظم الجمان ، ٦/٢٠٧ ، ٢١٨ ؛ بغية الملتمس ، الضبي ، ١٠٥ (رقم : ٢٠٥) ، ٤١٩ (رقم : ١٢٠٦) ؛ أعمال الأعلام ، ٣/٢٥٤ .

(٢) راجع : الروض المعطار ، ٢٤ ؛ البيان المغرب ، ٤/٩١ ؛ نظم الجمان ، ٦/٢٠٧ ، ٢١٨ – ٢٢٣؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١/١٢٠ – ١٢٤ ، ٤٠٣ ، ٤٢٥ .

ح – إجراءات وأحداث متنوعة

عيَّن علي أميرُ المسلمين – سنة ٥٢٢ هـ أو التي بعدها[١] – ابنَه تاشُفين والياً للأندلس « فولاه مدينة غَرناطة ، والمَرِيَّة ثم قرطبة مضافة إلى ما بيده . »[٢] تمت ولايته قرطبة في نفس السنة أو بعدها بسنتين[٣] . وقامت الجيوش المرابطية خلال ذلك وبعده بنشاط حربي وافر ، خاضوا عدة معارك في مناطق مختلفة مِن قَشْتَالَة وأَرْغُون وحققوا في كل ذلك نصراً ملحوظاً[٤] .

في سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٤ م) جَهَّزَ مَلِكُ قَشْتَالَة جيشاً ضخماً . وهو الفونش بن رَمُنْد (ريموندیث) (Alfonso Raimundez) أو الفونسو السابع (Alfonso VII) ، وتسميه الرواية الأندلسية « الطاغية أَذْفُونْش بن رَمُنْد المعروف بالسُلَيْطِين »[٥] ، أي : الملك الصغير . اتجه به صوب بَطَلْيَوْس ، وتقدم تاشُفين بن علي على رأس قوة عسكرية للقائه . جرت معركة عنيفة قرب سهل الزلاّقة الشهير هزم فيها القشتاليون هزيمة منكرة . وفي ذي الحجة من السنة المذكورة (٥٢٨ هـ) ، اتجه تاشفين بجيشه إلى شمال قرطبة . وضع القشتاليون خطة لاستدراج المرابطين فانتخبوا مجموعة من فرسانهم فاجأت المرابطين وقت الظلام فتخلخل معسكرهم وثبت تاشفين رغم نصيحة البعض له بالنجاة . لكنه أبى قائلاً : « لا أُسْلِم وأُسَلِّم الأمة ولا أبرح أو تنجلي عما انجلت عليه هذه الكرة ، فأَحْدَق به رجال من أهل الأندلس وأفذاذ من المرابطين ، لم يلتئم الجمع أربعين ، فاعترضوا بينه وبين

(١) البيان المغرب ، ٨٠/٤ ؛ الإحاطة ، ٤٤٩/١ .
(٢) الإحاطة ، ٤٤٦/١ .
(٣) البيان المغرب ، ٧٩/٤ ، ٨٧ .
(٤) البيان المغرب ، ٧٩/٤ – ٨٣ ، ٨٥ – ٨٨ ؛ الإحاطة ، ٤٤٦/١ ، ٤٥١ – ٤٥٣ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١٣٢/١ – ١٣٦ .
(٥) الحلة السيراء ، ٢٤٩/٢ . كذلك : نظم الجمان ، ١١٣/٦ ؛ تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ، عبد الملك بن صاحب الصلاة ، ٣٦٩/٢ ، ٣٧٠ ؛ تاريخ الأندلس ، ١١٦ ، ١٢٠ (نص ابن الكردبوس) ؛ البيان المغرب ، ٨٦/٤ ؛ أعمال الأعلام ، ٣٣٠/٢ – ٣٣١ ؛ العبر ، ابن خلدون ، ٣٩٢/٤ ؛ نفح الطيب ، ٤٦٣/٤ .

الروم فوقع الضرب واشتد الحرب وعظم الخطب ، والأمير تاشُفين في درعه متشحاً بسيفه ، ودرقته بيده ، يشد حملته ، ويبدي صفحته ، فلم يُرَ أربط جأشاً ولا أشم نفساً »[1] . قُتل قائد القشتاليين ، وانتهت المعركة بهزيمتهم . حدثت هذه الوقعة في مكان يعرف بالبكار (Albcar) على بعد عشرين كم شمال قرطبة[2] . كان حلوثها عين السنة التي وقعت فيها معركةُ إفراغة وهـُزم فيها أدْفُونش ابن رُدْمير (الفونسو الأول المحارب) ملك أرْغُون ، وبعد ثلاثة شهور منها .

ثم التقى تاشفين بالقشتاليين في عدة مواقع وهزمهم فيها .

في سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) عبر تاشفين إلى المغرب حسب أمر والده علي ، حيث عقد له البيعة بولاية العهد سنة ٥٣٣ هـ[3] .

٣ — نهاية المرابطين في الأندلس

خلال ذلك ضعف سلطان المرابطين في الأندلس « وفي سنة تسع وثلاثين أخذت دولة الملثمين في الانتفاض والانقراض ، فخرج سيف الدولة هذا ثائراً بالثغور الجوفية ، ومنها ورد على قرطبة »[4] . جرت أحداث ألحقت بالأندلس الضرر ، منها « الوقيعة الكبرى على المسلمين بالموضع المعروف باللّج وبالبسيط — على مقربة من جِنْجَالة — يوم الجمعة الموَفّي عشرين لشعبان من سنة أربعين ، وقيل يوم السبت بعده . »[5]

انتفعت اسبانيا الشمالية بهذه الحالة ، وتلقت الأندلس عدة هجومات ، كان منها سقوط مدينة المرية — ثغر الأندلس الشرقي وإحدى قواعد أساطيله الكبرى — على يد

---

(١) البيان المغرب ، ٩٠/٤ . كذلك : أعمال الأعلام ، ٢٥٩/٣ .

(٢) انظر كذلك : نظم الجمان ، ٢١٥/٦ .

(٣) راجع : الإحاطة ، ٤٥٣/١ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١٤٦/١ .

(٤) الحلة السيراء ، ٢٥٠/٢ . كذلك : الحلة ، ٩٢/٢ — ٩٣ ، ٢١١ ؛ الذيل والتكملة ، ٧١/٥ ؛ أعلاه ، ٣٥٧ — ٣٥٨ .

(٥) الحلة السيراء ، ٢٥١/٢—٢٥٢ . منطقة أو اقليم البسيط (Albacete) تقع شمال شرق كورة مرسية مع جزء من اقليم المنجى أو المنشا (La Mancha) . منها حصون مثل : اللج وجنجاله (Chinchilla de Monte de Aragon) . الحلة السيراء ، ٢٢٣/٢ (حاشية) .

جيوش اسبانيا الشمالية (قَشْتَالَة ونَبَارَّة وأرْغُون وقطلونية) مع قوات من جنوه وبيزة ومن خلف جبال البُرْت[1] . نظم هذه الحملة ملك قشتالة أدفونش بن رَمُنْد المعروف بالسُّلَيْطِين (الفونسو السابع)[2] .

تقدمت هذه الجيوش نحو المَرِيَّة وضربت حولها الحصار من البر والبحر لمدة ثلاثة شهور حتى نفد الطعام وشح الزاد وتم الاستيلاء عليها فسقطت بأيديهم ودخلوها « يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وخمس مئة عَنوة . »[3] استُشهد كثرة من المسلمين خلال دخولهم كان منهم عالم المرية الرُّشَاطِي الإمام المشهور[4] (أوريولة ، من أعمال مرسية ، ٤٦٦ — المرية ، ٥٤٢ هـ) . هو أبو محمد عبد الله الرُّشَاطِي[5] ، كما أسروا الكثير « وأحصي عدد مَن سبي من أبكارها فكان أربعة عشر ألفاً . »[6] بيد أن الموحدين استعادوها بعد عشر سنين ، سنة ٥٥٢ هـ[7] .

تابعت الحملات الصليبية مدن الثغر الأعلى ، بعد أن سقطت سرقسطة سنة ٥١٢ هـ (١١١٨م) ، من حصار شهور بجيوش كثيفة قادها أدْفُونْش بن رُدْمِير (الفونسو الأول ، المحارب) ملك أرَغُون ، ثم سقوط المَرِيَّة سنة ٥٤٢ هـ[8] . وفي يوم الخميس ١٦ شوال سنة ٥٤٣ هـ[9] (١١٤٨م) سقطت مدينة طُرْطُوشَة (Tortosa)

---

(١) عصر المرابطين والموحدين ، ٣٧١/١ ، ٥٠٨ ؛ تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ٢٤٩ .

(٢) أعلاه ، ٣٥٧ — ٣٥٨ ، ٤٣٨ .

(٣) نفح الطيب ، ٤٦١/٤ . كذلك : التكملة ، ٥٢/١ (رقم : ١٤٧) ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٣٧١/١ .

(٤) المعجم ، ٢٢٨ (رقم : ٢٠٠) ؛ التكملة ، ٥٢/١ ؛ وفيات الأعيان ، ١٠٧/٣ .

(٥) نفح الطيب ، ٤٦٢/٤ ؛ تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، السيد عبد العزيز سالم ، ٩٤ .

(٦) نفح الطيب ، ٤٦٣/٤ .

(٧) البيان المغرب (تطوان) ، ٣٣ ؛ نفح الطيب ، ٤٦٣/٤ ؛ الإحاطة ، ٢٦٥/١ ، ٢٧١ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٣٤٦/١ ، ٣٧١ ، ٥٠٨ .

(٨) نفح الطيب ، ٤٦٢/٤ ؛ تعليق منتقى من فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس ، محمد بن أيوب بن غالب الأندلسي ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ٢٨٤/٢/١ .

(٩) التكملة ، ٦٤/١ .

بيـد قُومِـس بَرْشَلُونَـة رَايْ مُنْـد بن بَلَـنْقِير. (رامون برنجير الرابع Ramon Berenguer IV) وحلفائه الداوية من فرسان الهيكل أو المعبد (Templarios, Templiers, Templars) وغيرهم[1] . وذلك بعد دفاع أهلها الباسل للحصار البري والبحري مدة أربعين يوماً .

سقطت لاَرِدَة ، في العام التالي ، وغيرها بخيانة محمد بن سعد بن مَرْدَنيش[2] (رجب ٥٦٧ هـ = ١١٧٢ م) ، المتغلب على بلنسية ومرسية ومناطق شرقي الأندلس وغيرها[3] ، وصهره إبراهيم بن هَمُشْك[4] (بعد ٥٧١ هـ) . قبل هذا التاريخ بدأت بوادر الدعوة الموحدية بزعامة محمد بن تُومَرْت .

بعد رحيل تاشُفين حدثت عدة صدامات مع القشتاليين انتصر المرابطون في بعضها . قام كل من القائدين عبد الله بن أبي بكر والي قرطبة ويحيى بن غانية والي بلنسية ومرسية بقيادة الجيوش . كان محمد بن غانية (أخو يحيى) والياً على الجزائر الشرقية سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦م) . لبث موالياً للمرابطين رغم ظهور دعوة الموحدين . ولما توفي علي بن يوسف بن تاشفين في رجب سنة ٥٣٧ هـ[5] (١١٤٢م) ، وتولى ابنه تاشفين حكم الدولة المرابطية ، تولى يحيى بن غانية – من قبل تاشفين – قرطبة وما إليها في السنة التالية . بقي يحيى يقود الأعمال الحربية حتى وفاته سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨م) . وذهب كثير من جهود المرابطين في المغرب في مقاومة الموحدين .

توفي الأمير المرابطي تاشفين ، أو « أهوى به فرسه من شاهق » كما يقول ابن الخطيب[6] ، في ٢٧ رمضان سنة ٥٣٩ هـ[7] (١١٤٥ م) . تولى الحكم بعـده

---

(١) انظر : عصر المرابطين والموحدين ، ١/٤٩٤ ، ٥١٨ – ٥٢٠ ؛ تاريخ الأندلس ، ١٠٠ (الحاشية) . كذلك : الإحاطة ، ٢/١٢٦ ؛ جغرافية الأندلس أوربا ، ٩٦ – ٩٧ .

(٢) الحلة السيراء ، ٢/٢٣٢ – ٢٣٣ ؛ التكملة ، ١/٧٦ ؛ الإحاطة ، ٢/١٢١ – ١٢٧ ؛ أعمال الأعلام ، ٢/٢٥٩ – ٢٦٣ .

(٣) عصر المرابطين والموحدين ، ١/٣٦٥ – ٣٧٠ ، ٥٠٨ .

(٤) الحلة السيراء ، ٢/٢٥٨ ؛ الإحاطة ، ١/٢٩٦ – ٣٠٣ ؛ أعمال الأعلام ، ٢/٢٦٣ – ٢٦٤ .

(٥) البيان المغرب ، ٤/١٠٠ ؛ الإحاطة ، ١/٤٤٧ ؛ أعمال الأعلام ، ٣/٢٥٦ .

(٦) أعمال الأعلام ، ٣/٢٦٤ .

(٧) البيان المغرب ، ٤/١٠٤ ؛ الإحاطة ، ١/٤٥٤ ؛ أعمال الأعلام ، ٣/٢٦٤ ؛ الحلة السيراء ، ٢/١٩٨ .

ابنه أبو إسحاق إبراهيم ، صغيراً ، وبعد عامين من هذا التاريخ في شوال ٥٤١ هـ (١١٤٧ م) ، يقتل إبراهيم[1] . بعد أن ينتهي حكم المرابطين ، ليرثه الموحدون في المغرب والأندلس سواء .

يجعل ابن عِذَاري اسم أبي اسحاق إبراهيم بن تاشفين : إسحاق ، بديلاً[2] . لعله وهم الناسخ . لكن رواية تذكر أن اسحاق أخا تاشُفين خرج على ابن أخيه إبراهيم بن تاشفين[3] ، أو أنهم بايعوا له[4] . لذلك فإن الصَّفَدي يجعل إسحاق (٥٤٢ هـ) آخر أمراء المرابطين[5] .

جدول أمراء المرابطين

اصطحب يحيى بن إبراهيم الجدالي

عبد الله بن ياسين الجَزولي من القَيْرَوان سنة ٤٤٠ هـ أو بعدها .

فكانت الدعوة ، وانضم إليها :

(١) يحيى بن عمر . تولى الأمر بعده سنة ٤٤٦ (أو بعدها) أخوه :

(٢) أبو بكر بن عمر . فأوكل هذا الأمر إلى :

(٣) يوسُف بن تَاشُفِين (٤٦٣ – محرم ٥٠٠ هـ)

أبوبكر سير ، ولي العهد ، توفي بسبتة أثناء أحداث الزلاقة (٤٧٩ هـ)

أبوإسحاق إبراهيم بن تميشت (قائد وقعة قتندة ٥١٤)

(٤) علي (محرم ٥٠٠ – رجب ٥٣٧)

أبو الطاهر تميم قائد وقعة أقليش (٥٠١) تولى الأندلس

أبو عبد الله محمد بن عائشة

أبو محمد سير

(٥) تاشفين (رجب ٥٣٧ – رمضان ٥٣٩ هـ)

(٧) اسحاق (٥٤٢ هـ)

(٦) أبو إسحاق إبراهيم (شوال ٥٤١ هـ)

---

(١) أعمال الأعلام ، ٣/٢٦٥ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١/٢٦٤ – ٢٦٥ .

(٢) البيان المغرب (تطوان) ، ٢٢ – ٢٣ . راجع : عصر المرابطين والموحدين ، ١/٢٦٤ – ٢٦٥ .

(٣) البيان المغرب ، ٤/١٠٥ . (٤) أعمال الأعلام ، ٣/٢٦٥ .

(٥) الوافي بالوفيات ، ٨/٤١٨ .

ثانيـًا : نتائج التعاون بين المرابطين وأهل الأندلس

يمكن التعرف ــ من الفقرة الأولى السابقة ، المتعلقة بجهاد المرابطين في الأندلس ــ على نتائج وأهمية هذا الجهاد في معاونة المرابطين لإخوانهم الأندلسيين ، وقد استغرق هذا التعاون كثيراً من طاقة الدولة المرابطية . دعاها لبذل الجهود المتوافرة المتتابعة ، في الرجال والمال وإمكانيات الدولة الأخرى ، بكل صدق وإخلاص واهتمام . تسببت هذه التضحيات والبذل والجهد تكليف الدولة وتقديم طاقاتها وإنفاق قوتها . مما أدى ــ وبسبب عوامل أخرى ــ إلى عدم استطاعتها النهوض بالعبء والاستمرار في أداء الواجب ، فدالت[1] . كان ضعفها ثم سقوطها سبباً واضح الأثر في إلحاق الضرر بالأندلس وضياع العديد من مدنه ، حتى قيض الله دولة الموحدين لتقوم بنفس المكان :

الدافع في كل ذلك حماية الإسلام وأهله ودولته في الأندلس ، قاموا به جهاداً في سبيل الله من غير ابتغاء لسلطان أو استحصال رقاع من الأرض أو ذكر عليها ، بل استجابة لواجب الدين ونصرة لإخوانهم .

الأحداث التي خاض المرابطون غمارها بكل صدق وجدية وبذل خلال أيام أمرائهم كافـة ، تدل بكفايـة على سلامة هـذا الكلام وتؤكده . يستوي في ذلك تعاونهم مع الأندلسيين قبل انضواء الأندلس تحت سلطانهم ، كما في الزَّلاَّقة ، أو بعده . تم هذا الانضواء بدعوة من الأندلسيين وإلحاحهم ومن كافة المستويات ، وبعد فشل ملوك الطوائف الهُزْل في حماية الأندلس من الأخطار الخارجية ، كان انضواء الأندلس تحت سلطانهم نتيجة لجهودهم وجهادهم في حمايتها ، واستمرت الأندلس منضوية تحت سلطان المرابطين حوالي نصف قرن ، بذلوا خلاله كل ما وسعته طاقتهم وملكته أيديهم .

أظهر جهادهم في الأندلس متانة بنائهم وصدق وجه دعوتهم التي قامت عليها دولتهم ، « وأنها دعوة مبنية على دين متين وتأسيس بفقه » على حدِّ تعبير ابن الخطيب

---

(١) قارن : تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، ٩٠ .

في كتابه **أعمال الأعلام**[1] . هكذا « كانت دولتهم دولة خير وجهاد وعافية ، وأكثر الدول جرياً على السُّنَّة ، رحمة الله عليهم . »[2]

ظهرت للمرابطين في الأندلس بطولات ومواقف باهرة . استعملوا خلال جهادهم خير قادتهم ورجالاتهم الذين أبلَوا أحسن البلاء . كانت الأندلس ميداناً ظهرت فيه طاقاتهم ، جنوداً وقادة وولاة وأمراء . أزالوا العصبيات وزعاماتها المحلية المتصارعة التي توزعت الأندلس ، وكانت ربما ستودي بها . أبانت خطورة مثل هذه الفرقة — ذات الجذور الجاهلية — وما للاتفاق من ضرورة يصيب الأمة بغيبته أشد الأضرار وتحدق بها الأخطار ، وقد ينادي بها نكير الزوال . اراد الله تعالى ، حماية لتلك الأمة ورعاية لما يكمن في نفسها من صفات الخير والولاء للإسلام ، أن يهيأ مَن يصون الدين ويحمي بيضته ، فكان المرابطون . وَجدت الأندلس في المرابطين المنقذ المخلص وعنوان الأخوة الصادقة في الدين ، وسيضطلع بإتمام هذا الواجب من بعدهم المُوَحِّدون ثم بنو مَرِين .

لكن استمرار أسباب الضعف ، وصلت بمرور الزمن ، إلى مرحلة عجزت الأندلس عن حماية نفسها . استطال عليها الوهن ، فقضى الله سبحانه بذَهابها . فهل ستبقى « الفردوس المفقود » ، أم ستعود وتكون **الفردوس** المردود ؟

كان الذي مرّ بعض نتائج هذا التعاون ، كما كان منه رد العدو المتربص وكفّ أذاه بعد المعارك العنيفة التي خاضوها معه وكبّدوه فيها الخسائر ، وحموا الأندلس من شروره . تبينت — خلال هذا الصراع — صفات وخلق لدى المسلمين الأندلسيين ، من النجدة والنخوة ، كانت قد ضمرت بفعل بعض العوامل . ساعد المرابطون — في هذا الجو — في إظهاره أو ظهوره ، مشرقاً متّسماً بنفحة علوية وضاءة .

كانت الأحوال التي سبقت هذا التعاون — منذ الزلاّقة — منذرة بالهلاك وبالفقدان الذي لاحت بوادره مروعة بسقوط مدينة طليطلة سنة ٤٧٨ هـ « وحَسْبُك بها فجيعةً

---

(١) أعمال الأعلام ، ٢/٢٤٣ . كذلك : أعمال الأعلام ، ٢/٢٤٥ .
(٢) أعمال الأعلام ، ٣/٢٦٥ .

وأعْظِم بها مصيبة »[1] . توجهت أنظار الأندلس إلى إخوانهم في الضِّفَّة الأخرى للغرب الإسلامي في عُدْوَة المَغرِب « فحَدَّقت إلى سَمْتِه العيون ، وصُرفت إليه الوجوه ، ثم ارتفع إليه الصراخ ، ثم أُعمِلَت الإشارات ، ثم مُدَّت الأيدي ، إلى أن كان مِن تَنَفُّس المخنق بمجاورة ملك لَمْتُونَة ما كان ، فانتعشت برهة وأقامت مدة . فسبحان مَن يقول : ﴿ إنّا نَحْنُ نَرِثُ الأرضَ ومَنْ عليها وإلينا يُرْجَعُون ﴾ »[2][3] كان تعاون المرابطين بداية المهمة في بذل الجهود لحفظ الأندلس – قروناً أربعة أخرى – والتي وَرِثَ الاضطلاع بها بعدهم إخوانهم المُوَحدون وبنو مَرِين .

ثالثًا : الأحوال العامّة

حرص الأمراء المرابطون ورجال دولتهم على التزام خط الدعوة الإسلامية ، والقيم التي قامت عليها دولتهم ، وعلى أخذ الناس بالحق والعدل . اتسم الحكم المرابطي بالصدق والولاء للإسلام ، وحملهم هذا على نصرة إخوانهم الأندلسيين وتكلفوا من أجله الكثير . بذلوه برضى وسرور ، يعملون لإعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله ، وابتغاء مرضاته . مُلِئت أيام المرابطين بأعمال الجهاد في الميدان العسكري في الأندلس ، وفي الميادين الأخرى . دَيْدنهم هذا الصدق في الإيمان بالإسلام والبذل لخدمته والسعي وراء تطبيقه وإشاعته ، ليس فقط في سُوح الحرب بل في جوانب الحياة الأخرى. ظهرت هذه المعاني في المجتمع بصورة أكثر وأوكد ، ترعاها الدولة وتحميها . عَمَّ الأمن والطمأنينة وكَثُر الخير والنعمة وساد العدل وانتشر العلم ونمت الدراسات المتنوعة . فالعلم والمعرفة ثمرة لابد منها لكل أرض يحل فيها الإسلام .

يحدثنا عن المرابطين القاضي أبو بكر بن العربي الاشبيلي (اشبيلية ، ٤٦٨ – فاس، ٥٤٣ هـ) فيقول : « المرابطون قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين وهم حماة المسلمين

(١) أعمال الأعلام ، ٢/٢٤٢ .

(٢) الآية ٤٠ من سورة مريم .

(٣) أعمال الأعلام ، ٢/٢٤٣ .

الذابون والمجاهدون دونهم »[1] . جاء في **روض القرطاس** لابن أبي زَرْع : « كانت لمتونة أهل ديانة ونية صادقة خالصة ، وصحة مذهب ، ملكوا بالأندلس من بلاد الفرنج إلى البحر الغربي المحيط ، ومن مدينة بجاية من بلاد العُدْوة ، إلى جبال الذهب من بلاد السودان . لم يجر في عملهم طول أيامهم رسم مكروه ، معونة ولاخراج في بادية ولا في حاضره ، وخُطب لهم على أزيد من ألفي منبر . وكانت أيامهم دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن ، . . . ، كان ذلك مصطحباً بطول أيامهم ، ولم يكن في بلد من أعمالهم خراج ولامعونة ولاتقسيط ، ولا وظيف من الوظائف المخزنية ، حاشا الزكاة والعشر ، وكثرت الخيرات في دولتهم ، وعمرت البلاد ، ووقعت الغبطة ، ولم يكن في أيامهم نفاق ولاقطّاع طريق ، ولا من يقوم عليهم ، وأحبهم الناس إلى أن خرج عليهم محمد بن تُومرت مهدي الموحدين سنة خمس عشرة وخمس مئة »[2] . هذا الوصف — دون شك — يشمل الأندلس كذلك . يقول صاحب **الحلل الموشية** حين الحديث عن يوسف بن تاشُفين : « أقامت بلاد الأندلس في مدته سعيدة جملية في رفاهية عيش وعلى أحسن حال »[3] « وكان من أهل الخير والاقتداء »[4] .

من طريف الأمثلة المشرقة ماذكره المَقَّرِي في **نفح الطيب** أنه لما كتب الأمير يوسف بن تاشُفين إلى أهل المَرِيَّة المساهمة في مَعونَة الجهاد رفض قاضيها الفَقيهُ أبو عبد الله بن الفَرَّاء (المستَشهد في موقعة قُتَنْدة سنة ٥١٤ هـ)[5] . ذلك في كتابه إلى الأمير ، ما لم يحلف أمام الناس في جامع مَرّاكُش أنْ ليس لديه في بيت المال درهم ينفقه ، أسوة بما فعل الخليفة عمر بن الخطاب « ولمّا كتب أمير المسلمين يوسف ابن تاشُفين إلى أهل المَرِيَّة يطلب منهم المعونة جاوبه بكتابه المشهور الذي يقول فيه :

---

(١) الحلل الموشية ، ١٠٥ .

(٢) نقلا عن : عصر المرابطين والموحدين ، ١/٤٢٥ . كذلك : الاستقصا ، ٢/٧٣ .

(٣) الحلل الموشية ، ٥٩ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ، ٢/٧٥٢ .

(٥) أعلاه ، ٤٢٩ .

فما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخري عن ذلك ، وأن الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعُدْوَة والأندلس أفْتَوْا بأن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه اقتضاها ، وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وضجيعه في قبره ، ولا يُشَكّ في عدله ، فليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا بضجيعه في قبره ، ولامن لايُشك في عدله ، فإن كان الفقهاء والقضاة أنزلوك بمنزلته في العدل فاللهُ تعالى سائلهم عن تقلدهم فيك ، وما اقتضاها عمر رضي الله تعالى عنه حتى دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم وحلَف أن ليس عنده درهمٌ واحدٌ في بيت مال المسلمين يُنفقه عليهم ، فتدخلُ المسجد الجامع هنالك بحضرةٍ من أهل العلم وتحْلِف أن ليس عندك درهم واحد ولا في بيت مال المسلمين ، وحينئذ تستوجب ذلك ، والسلام »[1] .

هذا الوصف لايختص به يوسف بن تاشفين ، بل يذكر المؤرخون أمثلة لأمراء المرابطين الآخرين ، سواء ابنه علي أو تاشُفين بن علي . تحدث عنهم ابن الصيرفي أحد كتاب الدولة المرابطية المتوفى بغَرناطة سنة ٥٧٠ هـ . وله كتاب عن الدولة المرابطية فُقِد ، هو: **الأنوار الجَلِيّة في أخبار الدولة المرابطية** . ينقل ابن الخطيب مما قاله ابن الصيرفي عن تاشفين في كتابه **الإحاطة في أخبار غَرناطة** فيقول بأنه « كان بطلاً شجاعاً حسن الرِّكبة والهيئة ، سالكاً ناموس الشريعة ، مائلاً إلى طريقة المستقيمين ، . . . ، أحبَّه الناس ، خواصهم وعوامهم ، وحسنت سياسته فيهم ، وسدَّ الثُّغور ، وأذكى على العدو العيون ، وآثر الجند ، ولم يكن منه إلا الجَدّ ، ولم تنل عنده الحُظوة إلا بالعناء والنجدة . وبذلك حمل على الخيل ، وقلد الأسلحة ، وأوسع الأرزاق واستكثر من الرماة ، وأركبهم ، وأقام همتهم للاعتناء بالثغور ومباشرة الحرب ، ففتح الحصون وهزم الجيوش وهابه العدو ولم ينهض إلا ظاهراً ولا صدر إلا ظافراً . وملك الملك ومهد بالحزم . وتملك نفوس الرعية بالعدل ، وقلوب الجند بالنَّصَفَة ، . . . ، ولما قدم غَرناطة أقبل على صيام النهار ، وقيام

(١) نفح الطيب ، ٣/٣٨٦ – ٣٨٧ . كذلك : وفيات الأعيان ، ٧/١١٩ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١/٥٢ ؛ تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، ٩٠ .

الليل ، وتلاوة القرآن وإخفاء الصدقة ، وإنشاء العدل ، وإيثار الحق . »[1] ومما نقل ابن الخطيب عن آخرين ــ حين الحديث عن ولاية تاشفين للأندلس ــ قولهم : « فقوّى الحصون وسدّ الثغور وأذكى العيون ، وعمد إلى رحبة القصر ، فأقام بها السقائف والبيوت ، واتخذها لخزن السلاح ومقاعد الرجال ، وضرب السهام ؛ وأنشأ السُّقى ، وعمل التِّراس ، ونسج الدُّورع ، وصقل البيضات والسيوف ، وارتبط الخيل ، وأقام المساجد في الثغور ، وبنى لنفسه مسجداً بالقصر ، وواصل الجلوس للنظر في الظُّلامات ، وقراءة الرِّقاع ، وردّ الجواب ؛ وكتب التوقيعات ، وأكرم الفقهاء والطلبة ، وكان له يوم كل جمعة ، يتفرغ فيه للمناظرة . »[2]

أخذت خدمات المصلحة العامة ــ في مثل هذا الجو ــ مكانها الواضح ، فلا يصح مجتمع مسلم إلا بذلك . وهل الجهاد في سبيل الله ولنصرة دينه وحماية أتباعه إلا صورة رائعة وإشراقة ساطعة لهذا ؟ والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

كان للأندلس قائد أعلى ، وهو ــ غالباً ــ الحاكم العام ، وللمدن قادة آخرون خاضعون للقائد الأعلى . هؤلاء جميعاً يضطلعون بالمهام العسكرية والإدارية والاهتمام بجوانب الإصلاح الأخرى[3] .

كانت سياستهم العادلة تدعو إلى أن يعاقبَ الوالي ويُعزل إذا قصر أو أهمل أو أساء السيرة ، ولدينا على ذلك أمثلة . من ذلك أن وانور بن بكر والي الجزائر الشرقية أيام علي بن يوسف أراد إجبار الناس على ترك ثغر ميورقة وإنشاء مدينة داخل الجزيرة بعيدة عن البحر . الظاهر لغرض عسكري بعد ما أصاب الجزيرة من هجوم أساطيل من جنوة وبيزة . لكن أهل الجزيرة رفضوا ذلك ، وربما أساء الوالي السيرة بعده ، فثار به الناس ، وقبضوا عليه وصفدوه بالأغلال وبعثوا للأمير علي يخبرونه بذلك ، فاستجاب علي ، وعيَّن محمد بن غانية (وهو أخو يحيى بن غانية والي الأندلس)

---

(١) الإحاطة ، ١/٤٤٨ ــ ٤٤٩ . كذلك : البيان المغرب ، ٤/٧٩ ــ ٨٠ .

(٢) الإحاطة ، ١/٤٤٩ ــ ٤٥٠ .

(٣) انظر : عصر المرابطين والموحدين ، ١/٧٢ ، ٤١٨ ، ٤٣١ .

والياً جديداً على الجزائر الشرقية سنة ٥٢٠ هـ . أقر الوالي الجديد أهل الجزيرة على ذلك وبعث الوالي السابق إلى مراكش ، لينظر في أمره[١] .

كان اختيار الوالي على أساس مكانته وتقواه وعدالته وعلمه و فهمه لمهمته . إذا أظهر تقصيره أو عدم كفايته ، غُيِّر أو نقل إلى مكان آخر يصلح له ، أو يعزل . كان التأكيد والتوصية بحسن السيرة والرفق بالناس أمراً أساسياً ، سواء بالنسبة لحاكم الدولة المرابطية أو للولاة والحكام المحليين . وهو ما أوصى به يوسف ابنه علياً[٢] . على ذلك أيضاً يكون اختيار ولي العهد ، كما فعل علي حين تعيين ابنه تاشفين لولاية العهد[٣] .

كانت الأندلس أيام المرابطين مقسَّمة إلى ست ولايات هي : إشْبِيلِيَة ، وغَرْنَاطَة ، وقُرْطُبَة ، وبَلَنْسِيَة ، ومُرْسِيَة ، وسَرَقُسْطَة التي سقطت سنة ٥١٢ هـ (١١١٨م) . كانت قرطبة هي العاصمة في بادىء الأمر ، ثم انتقلت — في أوائل عهد علي بن يوسف — إلى غرناطة ، ثم في أواخر أيامه عادت إلى قرطبة[٤] . كان هؤلاء الولاة والقادة من المرابطين بصورة رئيسية . بقي القضاء مستقلاً يتولى الأندلسيون مناصبه ، وكان للقضاة مكانتهم عند الناس وعند الدولة ، يُستشارون ويُؤخذ برأيهم ، وحين ذهب القاضي أبو الوليد بن رُشْد الجد (الأكبر) إلى مراكش يعرض على الأمير علي رأياً أخذ به[٥] .

ونظراً لتلك الظروف كان الطابع العسكري واضحاً في تنظيمات الدولة ، وفي كثير من إجراءاتها . استنفدت الناحية العسكرية والحماية والدفاع المجهود الكبير . لم تبخل الدولة المرابطية عليها بشيء من الرجال والمال ، وتماثل الأمراء في الاهتمام بذلك . عُرف المرابطون بشدة بأسهم في الحرب وثباتهم في ميادينه ، لهم نظام

---

(١) انظر : عصر المرابطين والموحدين ، ١/١٥٣ . كذلك : ١/١١٥ .

(٢) انظر : عصر المرابطين والموحدين ، ١/٥٨ .

(٣) انظر : عصر المرابطين والموحدين ، ١/١٤٧ .

(٤) انظر : عصر المرابطين والموحدين ، ١/٦٠ ، ١٤٤ ، ٤١٥ .

(٥) أعلاه ، ٤٣٣ — ٤٣٤ ، ٤٣٦ .

خاص في الحروب ، كما اهتموا بالأساطيل[1] وتحصين المدن[2] .

استمرت صناعة الأندلس أيام المرابطين في كل ميدان ، سواء في الصناعات الحربية أو المدنية المتنوعة والعمرانية . يذكر الإدريسي حين الحديث عن المرية : « ومدينة المرية كانت في أيام المُلَثَّم مدينة الإسلام ، وكان بها من كل الصناعات كل غريبة ، وذلك أنه كان بها من طُرز الحرير ٨٠٠ طراز ، يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والأصبهاني والجرجاني ، والستور المكلّلة والثياب المعيّنة ، والخُمُر والعتّابي ، والمعاجر ، وصنوف أنواع الحرير ، وكانت المريّة قبل الآن يصنع بها من صنوف الآلات النحاس والحديد ، إلى سائر الصناعات ، ما لايحدّ ولايُكيَّف »[3] .

هكذا في كل ميدان وضعوا خير الرجال الأكْفَاء . نجد في الأندلس أيام الدولة المرابطية حشداً من الأفذاد . كان بعض رجال الدولة في بَلاط مراكش هم أيضاً من الأندلسيين ، أمثال : عبد الرحمن بن أسباط ، وهو أندلسي من مدينة المرية ، وقد عمل كاتباً ليوسف بن تاشفين قبل عبوره الأول إلى الأندلس وخوض الزّلاّقة ؛ وأبو بكر بن القصيرة ؛ وأبو بكر عبد العزيز البطليوسي ، المعروف بابن القَبْطُرْنَة ؛ وابن عَبْدُون ؛ وأبو عبد الله بن أبي الخِصال[4] .

أما الناحية الفكرية والإنتاج العلمي فقد نما العلم في المغرب ، ومن المنشآت العلمية جامع ابن يوسف بمراكش الذي بناه الأمير علي بن يوسف وغدا جامعة كبيرة . شارك الأمير علي نفسُه في البناء ، « يحمل الأحجار بيده إلى البنائين وكان صائماً في تلك المدة كلها »

استمرت الحركة العلمية في الأندلس نحو مسيرتها إلى حدّ كبير . ظهر العلماء في كل فن من الرجال والنساء . إلى جانب من ذكر فيما سبق يشار إلى : ابن بسام

---

(١) عصر المرابطين والموحدين ، ٤١٧/١ – ٤٢٠ .

(٢) تاريخ مدينة المرية ، ٩١ ، ١٤٣ .

(٣) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ١٩٧ (= الحلل السندسية ، ١١٨/١) . كذلك : نفح الطيب ، ١٦٣/١ ؛ الروض المعطار ، ١٨٤ .

(٤) الإحاطة ، ٣٨٨/٢ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٢٤٣/١ – ٢٤٤ ، ٤١٧ .

الشنتريني (٥٤٢ هـ) ، صاحب كتاب **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** . منهم أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الحِجَاري صاحب كتاب **المُسهِب في فضائل المَغْرب** ، وأصله من وادي الحِجَارة ؛ والعلامة أبوالقاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بَشْكُوال (٥٧٨ هـ) صاحب كتاب **الصلة** ، وبلغت تصانيفه حوالي الخمسين ؛ وأبو الحسن بن أضحى (المرية ، ٤٧٢ — غرناطة ، ٥٣٩ هـ) القاضي الفقيه الأديب[1] ؛ وأبوجعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد من أسرة بني سعيد ، أمراء قلعة يَحْصُب التابعة لغرناطة ، ومنهم مؤلفو كتاب **المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب** ؛ وأبوبكر بن قُزْمان أمير الزجل الأندلسي ؛ وأبوعلي الصَّدَفي الحافظ العلامة والقاضي ؛ وأبو بكر بن العربي ؛ والقاضي أبوالوليد محمد بن أحمد بن رُشْد (الجَدّ) ، قاضي الجماعة بقرطبة ؛ وأبو بكر محمد بن يحي بن الصائغ المشهور بابن باجَه ، الذي نبغ في الرياضيات والفلك والفلسفة ؛ وعلي بن عبد الرحمن الخزرجي من طليطلة ، وهو من أشهر الأطباء . كذلك العلاّمة الطبيب والفلكي أميّة بن عبد العزيز بن أبي الصلت ؛ وبعض أفراد بني زُهْر ، الذين ظهروا في الأدب والطب[2] .

هكذا كانت الأحوال العامة للأندلس أيام المرابطين في مختلف نواحيها ، وفي المصادر التي أشير إليها تفصيلات ومناقشات حول هذا الموضوع .

(١) المغرب في حلى المغرب ، ٢/١٠٨ ؛ الحلة السيراء ، ٢/٢١١ ؛ الذيل والتكملة ، ٥/٢٧٠ .

(٢) راجع : عصر المرابطين والموحدين ، ١/٤٤٨ — ٤٧٣ .



الفصل السابع

عهد الموحدين

الانتعاش الثاني

(٥٤٠ – ٦٢٠ هـ (١١٤٥ – ١٢٢٣ م)

أولاً : الموحِّدون وجهادهم في الأندلس .
ثانياً : توحيد الأندلس وأهم الأحداث .
ثالثاً : السِّمات العامة .



أولاً : الموحِّدون وجهادهم في الأندلس

١ – الموحِّدون

ظهر الضعف في الدولة المرابطية أواخر أيامها ، نتيجة لأكثر من عامل . كان منها طول وعنف الصراع لدفع عدوان اسبانيا الشمالية ومَن عاونها مِن الدول الأوربية ، فكلفها ذلك الكثير ، في حين بدت آثار العوامل الأخرى . رغم هذا ، ومهما اعتبرنا أهميته ، فلا يبدو أنه السبب الوحيد . لو كانت أمور الدولة والمجتمع تقوم كافتها بنفس القوة على الاستمداد من الإسلام ، لتغيّرت نتائج هذا الجهاد إلى عوامل صفاء وبهاء وتجلية وتقوية .

كان ظهور القوى الموحدية الجديدة في المغرب وماجرى بينهما قد حَمَّل المرابطين الكثير واستهلك من قواهم ، ومثل هذا سبَّب لهم في الأندلس قيام بعض المواجهات[1] ضدّ المرابطين ، ونكوص نفر منهم عن التعاون معهم وفيما بينهم . مهما يكن فإن الدولة المرابطية لم تكن قوية في هذا الوقت كما كانت لأسباب .

كان ضعف الروح الإسلامية العالية عند البعض عاملاً كبيراً ، بَدأ أثَره . وبسبب انصراف عدد من العلماء في المغرب بدراساتهم إلى العناية المبالِغة بالفقه المذهبي وفروعه . قاد ذلك إلى شيء من قلة العناية بمصادر الشريعة الإسلامية : القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة (قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وفعله وتقريره) .

ظهرت بعضُ الأفكار مُعَتِّمَة النقاء ، تُكَدِّر صفاء العقيدة الإسلامية ، وتخالف الفهم الإسلامي السليم . هذه الوجهة تثير العلماء المخلصين وتدعوهم إلى التصحيح .

---

(١) راجع : الحلة السيراء ، ٢/١٩٧ – ٢٣٣ ، ٢٥٠ – ٢٥٢ ؛ أعمال الاعلام ، ٢/٢٤٨ ، ٢٦٥ ؛ البيان المغرب ، ٤/١٠٥ ؛ تاريخ الأندلس، ١٢٤ (نص ابن الكردبوس) ؛ المعجب ، ٣٤١ ؛ تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، ٩٠ – ٩٥ .

قامت جماعة تدافع عن هذا الفهم الواضح وتدعو إلى الصفاء بإزالة كل مايشوبه مما لاينسجم والإسلام . اعتبرت القائلين بهذه الشوائب مخالفة للإسلام وبعيدة عن صفاء التوحيد . دعت هذه الجماعة إلى الفهم النقي والتوحيد الخالص وصفاء العقيدة ، أطلقت على نفسها اسم « **المُوَحِّدون** » ، يرفضون كل مايسيء إلى عقيدة التوحيد .

كل هذه الأمور دعت الموحدين إلى تصحيح في الفهم الإسلامي والعودة بالمسلمين إلى القرآن والسنة ، وتجديد قوى الأمة على هذه الأسس[1] . لكن هل كان من الضروري – بسبب ذلك – اللجوء إلى حرب المرابطين وإنهاء دولتهم وتشتيت جماعتهم ؟

الزعيم الأول للموحدين هو أبو عبد الله المهدي محمد بن تُومَرْت (٤٨٥ –[2] رمضان ٥٢٤ هـ) . ينتسب إلى قبيلة هَرْغَه مِن مَصْمُودَة (البرانس) ، التي تسكن منطقة السوس ، جنوب المغرب .

يظهر أن ولادة ابن تُومَرْت سبقت هذا التاريخ (٤٨٥ هـ) عدة أعوام لاسيما وقد رحل في طلب العلم إلى الأندلس قبل تمام القرن الخامس ، إذ « جاز البحر إلى الأندلس طالباً للعلم ، ووصل قرطبة . ثم مشى من قُرطبة إلى المَرِيَّة ، فدخل منها في مركب إلى المشرق ، وغاب في رحلته في طلب العلم خمسة عشر عاماً . »[3] ورحلته المشرقية في بداية القرن السادس الهجري « كانت في السنة الأولى من المائة السادسة أو في التي قبلها »[4] .

رحل ابن تُومَرْت إلى الشرق الإسلامي بداية القرن السادس الهجري . التقى بالعلماء وتلقى عنهم[5] . ذُكر منهم كذلك : أبو حامد الغزالي[6] (طوس ،

(١) انظر : مقدمة ابن خلدون ، ٧٥٣/٢ .
(٢) وفيات الأعيان ، ٥٣/٥ .
(٣) نظم الجمان ، ٤/٦ .
(٤) نفس المصدر . راجع: عصر المرابطين والموحدين ، ١٥٨/١ .
(٥) المعجب ، ٢٤٥ – ٢٤٦ ؛ الحلل الموشية ، ٧٥ ؛ وفيات الأعيان ، ٤٦/٥ .
(٦) أعمال الأعلام ، ٢٦٦/٣ ؛ وفيات الأعيان ، ٤٦/٥ ؛ العبر ، الذهبي ، ٥٨/٤ . قارن : عصر المرابطين ، ١٦١/١ – ١٦٤ .

٤٥٠ ـ طوس ، ٥٠٥ هـ) . منذ عاد إلى الشمال الافريقي بدأ دعوة الناس إلى التمسك بالدين وتطبيقه ونبذ كل فهم لايرتضيه الإسلام . كان قد التحق به عبد المؤمن بن علي الكُومي ، بنواحي تِلِمْسان (الجزائر) ، الذي غدا من رجاله المعتمدين .

نشأت الدولة الموحدية في المغرب بعد أن امتلكت مكان الدولة المرابطية . كانت الدولة الموحدية ثمرة الدعوة التي بدأها ابن تُومَرْت في إقليم السوس سنة ٥١٥ هـ أو قبلها[١] . ثم وقعت الحرب بينه وبين المرابطين اتخذت الشكل المسلح . حين توفي ابن تُومَرْت سنة ٥٢٤ هـ[٢] أوصى بالأمر من بعده لعبد المؤمن ، الذي أنفق سنوات في حرب المرابطين . دخل الموحدون مدينة فاس سنة ٥٤٠ هـ ومدينة مراكش في السنة التالية ، حيث اتخذوها أيضاً عاصمة لهم .

٢ ـ جهادهم في الأندلس

وَرِث الموحدون دولة المرابطين في المغرب والأندلس ، ووصلت دولتهم مستوى عالياً من القوة . وشيدت للفضائل صروحاً وأسهمت في الاستمرار بالعلم والمعرفة . وحرست الحضارة الاسلامية في بقعها وحمت كيان الاسلام في الأندلس .

لما التاث أمر المرابطين في الأندلس أقبلت الوفود الأندلسية المتعددة إلى المغرب تدعو عبد المؤمن إلى الأندلس وتستنصره للجهاد فيه . ممن وفد على عبد المؤمن (وهو بمراكش) القاضي أبو بكر ابن العربي محمد بن عبد الله بن محمد الأشبيلي (اشبيلية ، ثمان بقين من شعبان ٤٦٨ ـ فاس ، ربيع الآخر ٥٤٣ هـ) ، على رأس مجموعة كبيرة من علماء إشبيلية لتقديم بيعتها إلى الموحدين ، سنة ٥٤٢ هـ[٣] . ومن مآثر هذا القاضي الكثيرة أنه هو الذي شارك بماله لإصلاح سور إشبيلية[٤] ، حين

---

(١) أعمال الأعلام ، ٢٦٧/٣ ـ ٢٦٩ ؛ وفيات الأعيان ، ٥٣/٥ ؛ العبر ، الذهبي ، ٣٢/٤ ، ٦١ .

(٢) نظم الجمان ، ١٢٦/٦ ؛ أعمال الأعمال ، ٢٧٠/٣ ؛ العبر ، الذهبي ، ٥٧/٤ .

(٣) راجع : المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، أبو الحسن النباهي ، ١٠٦ ؛ نفح الطيب ، ٣٠/٢ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٢٦٧/١ ، ٣٢٥ ، ٤٥٦ . راجع في ترجمته كذلك : الصلة ، ٥٩٠ (رقم : ١٢٩٧) ؛ العبر ، الذهبي ، ١٢٥/٤ ؛ مقدمة ابن خلدون ، ٧٥٢/٢ ؛ وفيات الأعيان ، ٢٩٦/٤ .

(٤) نظم الجمان ، ٢٠٧/٦ ؛ نفح الطيب ، ٢٧/٢ ؛ العواصم من القواصم ، ٢٦-٢٧ (المقدمة) ، =

توليه قضاءها[1] (٥٢٨ هـ) .

كان أول جيش أرسله الموحدون إلى الأندلس سنة ٥٤١ هـ ، لإزالة مابقي فيها للمرابطين من سلطان[2] . ثم خضعت مناطق أخرى للموحدين . لما استقر الأمر لهم في المغرب ، أولى عبد المؤمن اهتماماً أكثر بالأندلس . عزم على العبور إليها ليشارك بنفسه في ترتيب أمورها . كتب إلى الأندلس ليبتنوا مدينة في جبل طارق . تم ذلك ، بعد أن حشد ابنه أبو يعقوب يوسف الامكانيات اللازمة من المهندسين والعمال . كمل بناء المدينة في شهر ذي القعدة سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) ، بعد أن استمر العمل بها شهوراً . في نفس هذا الشهر عبر عبد المؤمن إلى جبل طارق . كان يوم عبوره مشهوداً يصفه لنا عبد الملك بن صاحب الصلاة في كتابه : **المَنّ بالإمامة على المُستضعَفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين**[3] . أطلق على الجبل اسم **« جبل الفتح »**[4] .

عاد عبد المؤمن إلى المغرب ، بعد أن أمضى مدة يرعى أحوال الأندلس وينظّم شؤونها ، ووفر حامية قوية من الموحدين والأندلسيين . من الأمور التي اهتم بها الموحدون توفير قوة دفاعية كافية للأندلس . جُعلت غرناطة مركزاً دفاعياً قوياً حشدت لها الامكانيات ، كما نقلت العاصمة من إشبيلية إلى قُرطبة سنة (٥٥٧ هـ) ، التي اعتبرت مستقراً للجيوش الموحدية . ثم بدأ الخليفة عبد المؤمن يتجهز لرد عدوان اسبانيا الشمالية على الأندلس . جهز جيشاً ضخماً وسار به من مَرّاكُش العاصمة إلى مدينة الرِّباط (رِباط الفتح) ، حيث بدأ انشاؤها سنة ٥٤٥ هـ[5] . بنيت مدينة كبيرة

= ١٣٧ – ١٣٨ ؛ تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ٤٠١–٤٠٢ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١١٥/١ ، ١٤٠ .

(١) نظم الجمان ، ٢٠٧/٦ ؛ البيان المغرب ، ٥٨/٤ ، ٩٢–٩٤ ؛ نفح الطيب ، ٢٩/٢ ؛ أزهار الرياض ، ٦٤/٣ ؛ العواصم من القواصم ، ٢٥ (المقدمة) ، ١٣٧–١٣٨ . قارن : المرقبة العليا ، ١٠٦ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٤٥٦/١ .

(٢) الحلة السيراء ، ١٩٩/٢ ؛ البيان المغرب (تطوان) ، ٢٢ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٣٢٧/١ .

(٣) المن بالإمامة ، ١٤٧/٢ . كذلك : عصر المرابطين والموحدين ، ٣٨٠/١ – ٣٨٢ ؛ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ٢٩٣ .

(٤) الروض المعطار ، ١٢١ ؛ أعلاه ، ٤٩ .

(٥) المن بالإمامة ، ٤٤٦/٢–٤٤٩ ؛ المعجب ، ٣٤١ .

أيام الخليفة أبي يعقوب يوسف وأتمها ابنه المنصور . لكن عبد المؤمن مرض المرض الذي توفي فيه ، اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ (١٥ مايس = مايو ١١٦٣ م) ، بعد حكم دام أكثر من ٣٣ سنة ، حيث تولى الحكم بعد وفاة ابن تُومَرْت في ٢٥ رمضان ٥٢٤ هـ[١] .

أثنى المؤرخون على عبد المؤمن وأشادوا بصفاته وباهر أعماله وعالي مآثره واهتمامه بالجهاد . يقول الحافظ شمس الدين الذهبي في كتابه **العبر** إنه « كان ملكاً عادلاً سائساً عظيم الهيبة عالي الهمة كثير المحاسن متين الديانة قليل المثل . كان يقرأ كل يوم سُبُعاً ، ويجتنب لِبْسَ الحرير ، ويصوم يوم الأثنين والخميس ، ويهتم بالجهاد والنظر في الأمور كأنما خلق للملك . »[٢]

بويع لابنه أبي يعقوب يوسف ، وهو في مدينة سَلا (قرب الرباط) ، فأصدر أمراً إلى الجيوش بالانصراف إلى بلادها حتى يتخذ قراراً جديداً . عاد هو والحاشية والأشياخ وأصحاب الشأن إلى العاصمة مَرّاكُش .

في سنة ٥٦٠ هـ عبرت حملة عسكرية إلى الأندلس لتعزيز دفاعات بعض المناطق الأندلسية ضد اسبانيا الشمالية . كما حدث صدام مع محمد بن سعد بن مَرْدَنيش — ومركزه مُرْسِيَه — الذي كان له صلات مودّة مع عدد من ملوك إسبانيا الشمالية . بلغ عدد المرتزقة النصارى في جيشه — في لقائه مع الموحدين — مايقرب من ١٣ ألف مقاتل . حارب الموحدون ، بعد أن تعاهدوا على الثبات والاستشهاد في سبيل الله .

يعتبر ابن مَرْدَنيش هذا من الشخصيات التي تتصف بشيء من القلق . من هذا الطراز معاونه وصهره ابراهيم بن هَمُشْك الذي كانت صفات القلق أظهر عليه .

تم النصر للموحدين في هذه المعركة التي عرفت بـ (فَحْص الجلاّب) على بعد ١٢ كم جنوب مُرْسِيَة ، وتوفي ابن مَرْدَنيش بعد ذلك[٣] .

---

(١) عصر المرابطين والموحدين ، ١/٢٩٤ — ٢٩٥ .

(٢) العبر ، ٤/١٦٥ .

(٣) انظر : الحلة السيراء ، ٢/٢٥٨ — ٢٦٠ ؛ المن بالإمامة ، ٢/٢٧٢ — ٢٧٣ ؛ الإحاطة ، ١/٢٩٦ — ٣٠٣ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٢/١٦ — ١٨ .

اهتّم الموحدون بعدَ ذلك بتنظيم أحوال الأندلس في مختلف النواحي . كتب الخليفة إلى الأندلس يأمر المسؤولين فيها بالعناية بالبلاد ، والاهتمام بأمور الرعية وأن تكون الأحكام جارية على سنن العدل ، وأن تُرفع أحكام الإعدام إليه مُدَوَّن فيها الشروح وتقييد الشهود والعدول مع تدوين حجج المظلومين . أما الجرائم الأخرى فلا بد من التدقيق فيها ، وكذلك في سائر المعاملات . أوصى بتقوى الله في السر والجهر وخيفته والجري على سنته ، وحث على العمل بكل ذلك « من إفاضة العدل ، وبسط الدَّعة والأمن ، وإقامة أمر الله تعالى على وجهه المتعيَّن ، وسننه الواضح المبيَّن إن شاء الله تعالى »[1] .

خلال هذه الأحداث كانت عدوانات ملك البرتغال تجد الفرصة السانحة لمهاجمة أراضي الأندلس واحتلال بعضها . ملك البرتغال هـذا[2] هو الفونسوانريكيث (Al Fonso Enriquez) ، الذي تعرفه الرواية الإسلامية وتصفه بصاحب قُلُمْرِيَة (قُلُمُورِيَة)[3] أو قُلُنْبرِيَة[4] (قُلُنْبِيرة) (Coimbra) ، وتسميه « ابن الرِّيق »[5] أو « ابن الرِّنْق »[6] أو « ابن الرِّنْك »[7] . كانت البرتغال حديثة الانفصال عن قشتالة وليون ، إذ أعلن هذا الملك استقلال البرتغال سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٨ م) أو بعدها[8] . لضعف امكانياتـه — حين أراد الاستيـلاء عـلى أُشْبُونَة (لشبونة) (Lisboa,Lisbon) — استنجد بالقوات الصليبية ، المتجهة إلى المشرق من الانجليز والألمان والهولنديين . بذلك أمكَنَه — بعد حصارٍ طويل — الاستيلاء على المدينة ،

---

(١) المن بالإمامة ، ٢/٣٠٦ — ٣٠٧ . (٢) أعمال الأعلام ، ٢/٣٣٦ — ٣٣٧ .

(٣) أعمال الأعلام ، ٢/٢٥١ ؛ الإحاطة ، ١/٥٢٢ .

(٤) الحلة السيراء ، ٢/٢٠٠ .

(٥) المن بالإمامة ، ٢/١٥٢ ؛ الحلة السيراء ، ٢/٢٠٠ ؛ المعجب ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٥٦ ، ٤٠٠ ، ٤٥٣ ؛ الذيل والتكملة ، ١/١٨٧ .

(٦) الذيل والتكملة ، ٥/١/١٩١ ؛ أعمال الأعلام ، ٢/٢٥١ ؛ الإحاطة ، ١/٥٢٢ ؛ الروض المعطار ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١٦١ ؛ العبر ، ابن خلدون ، ٤/٣٩٢ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١/٥٢٨ .

(٧) المن بالإمامة ، ٢/٢١٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٨٣ ، ٥٢٦ .

(٨) المن بالإمامة ، ٢/١٥٢ ؛ الإحاطة ، ١/٥٢٢ ؛ الحلة السيراء ، ٢/٢٠٠ ؛ عصر المرابطين والموحدين ١/٥٢٨ ، ٢/٦٠٩ .

واستباحتها سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) . ثم استولى على مدينة شَنْتَرين (Santarem). واستولى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) على ثغر منيع يعرف بـ « قصر الفتح أو قصر أبي دَانِس (Alcacer do Sal) نسبة إلى بانيه أبي دَانِس[١] ، على بعد ٩٤ كم جنوب شرق مدينة أُشْبُونَة[٢] .

تلت ذلك سلسلة جديدة من الاعتداءات قام بها مغامر برتغالي ، بقوات كانت تابعة له . تُطلق الرواية الاسلامية عليه اسم « العِلْج ِجرَانْدُهْ الجِلِّيقي »[٣] (Geraldo Sem Pavor el Gallego)[٤]. تذكرنا هذه الشخصية برُذْرِيق القَنْبيطُور[٥]. استولى جِرانْدُهْ غدراً على بعض مدن غربي الأندلس[٦] .

وقعت بعض الأحداث وأرسل الموحدون قوات عسكرية إلى الأندلس . قامت عدة اتصالات بين الموحدين وبعض حكام اسبانيا الشمالية أدت إلى عقد معاهدة صلح مع فِرَّانْدُهْ (فِرْذِلَنْد) (الثاني) (Fernando II de Leon) ملك ليون ، الذي خرق المعاهدة وهاجم الأراضي الأندلسية سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤م) . قامت القوات الإسلامية (الموحدية والأندلسية) بمهاجمة إحدى القواعد العسكرية لفِرَّانْدُهْ (الثاني) ، وهي : Ciudad Rodrigo de Leon : مدينةلُذْريق الليوني . تُسَمِّي الروايةُ الإسلامية هذه المدينة (السِّبْطاط) . كما تعرف فِرَّانْدُهْ (الثاني) هذا أيضاً باسم : البَبُوج ، وهو تحريف الكلمة القشتالية (El Baboso) ، أي : الكثير اللعاب ، أو الأحمق[٧] .

---

(١) جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم ، ٥٠١ .

(٢) راجع : الحلة السيراء ، ٢٧٢/٢ ؛ *Andalusian diplomatic relations*, 162

(٣) المن بالإمامة ، ٣٧٢/٢ ، ٥٢٦ ؛ البيان المغرب (تطوان) ، ٧٨/٣ .

(٤) *Manual de historia de Espana*,I,652

(٥) أعلاه ، ٣٦٩ وبعدها .

(٦) المن بالإمامة ، ٣٧٢/٢ – ٣٧٤ ؛ البيان المغرب (تطوان) ، ٧٨/٣ – ٧٩ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٢٦/٢ – ٢٧ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٣ .

(٧) راجع : المعجب ، ٤٠٠ ، ٤٥٣ ؛ المن بالإمامة ، ٢١٩/٢ – ٢٢٠ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٣١/٢ ، ٩٧ .

كان الخليفة أبو يعقوب قد عبر إلى الأندلس سنة ٥٦٦ هـ بجيش ، جند من الشمال الإفريقي ، للقيام بأعمال الجهاد في الأندلس . قام مع جيش الأندلس بأعمال حربية في عدد من مناطق الأندلس ، لم يَجْنِ من ورائها ماكان يَنتظر من النصر. استمر الخليفة يدير هذه الأعمال مدة خمسة أعوام ، فعاد إلى العاصمة مراكش سنة ٥٧١ هـ . تلت ذلك هجومات شنَّها عدد من ملوك اسبانيا النصرانية . قام الموحدون برد هذا العدوان وخاضوا معارك سنة ٥٧٨ هـ — قرب طَلَبِيرة — مع القشتاليين وملكهم الفونش (الثامن[1]) . عبر الخليفة أبو يعقوب سنة ٥٨٠هـ بجيش آخر ، اتجه صوب مدينة شَنْتَرِين (Santarem) شمال شرق لشبونة ، ونازلها في عدة معارك موفقة لكن الخليفة أمر بالانسحاب فجأة قبل افتتاحها، ثم أصيب الخليفة في المعركة وتوفي بعد قليل ، في شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ (تموز = يوليو ١١٨٤ م) . بويع بالخلافة ، ولي عهده وأكبر أبنائه ، أبو يوسف يعقوب الذي لُقِّب — فيما بعد — بالمنصور ، ثم رحل الخليفة إلى مراكش . بعد أحداث جرت في الشمال الافريقي بدأ يُعد العُدة لمواصلة أعمال الجهاد في الأندلس . جهز جيشاً لهذا الغرض واتجه به صوب الأندلس سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) .

جرت خلال ذلك في الأندلس أحداث ، حيث أن ملك البرتغال ابن الرِّيق (الفونسوانكريكيث) توفي سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥م) وخلفه ابنه شَانْجُهْ (Sancho I) الذي بدأ يشن الغارات على الأندلس منذ سنة ٥٨٥ هـ . ساعدته على ذلك ظروف المغرب ، إذ انشغل الخليفة المنصور الموحدي بإقرارها . فضلاً عن الإمدادات الصليبية المتجهة إلى الشرق لنجدة الجيوش الصليبية هناك . حيث خسرت مواقعها وكان سقوط دولتها باسترداد بيت المقدس من قبل المجاهدين بقيادة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) .

استطاع شَانْجُهْ (الأول) احتلال مدينة شِلْب الأندلسية ، بمساعدة السفن الصليبية التي تحمل آلاف المقاتلة . لم يكن ذلك ليتم بسهولة ، بل إن المدينة ، بعد ضرب الحصار حولها والقيام بمحاولات عديدة لاقتحامها ، ثبتت بقوة . وحين

(١) عصر المرابطين والموحدين ، ٢/٩٣ ، ٩٧ ، ١٠٤ .

استطاع المهاجمون قطع الماء عن المدينة اضطرت لطلب التسليم من شانْجُهُ (الأول) ، بينما رفض حلفاؤه الصليبيون ذلك . رغبوا بقتل أهلها المسلمين جميعاً لكنه أقنعهم بالاكتفاء بأسلاب المدينة بعد أن يتركها لهم أهلها بكل مافيها . هكذا دخلوا المدينة ــ بعد حصار دام ثلاثة شهور ــ سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م)(١) .

كان عبور الجيش الموحدي للأندلس بقيادة الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور سنة ٥٨٦ هـ لرد المعتدين واستعادة مدينة شِلْب . قام بنشاط عسكري في عدة مناطق ، إلا أنه لم يسترد المدينة . عاد من هذا النشاط إلى إشبيلية للاستعداد وتنظيم شؤون البلاد . ثم جهز جيشاً كثيفاً لإعادة الكرة . خرج من إشبيليّة في ربيع الآخرة سنة ٥٨٧ هـ (نيسان = ابريل ١١٩١ م) ، متجهاً نحو الشمال الغربي . استعاد قصر الفتح (قصر أبي دَانِس) ، جنوب شرق لشبونة ، ثم مدينة شِلْب(٢) . عاد بعدها إلى إشبيلية . أنفق مدة يشرف بنفسه على تنظيمات الأندلس المدنية والعسكرية . توجّه إلى مراكش في رمضان من نفس السنة(٣) .

وعند وفاة الفونش بن رَمُنْد (الفونسو السابع ، المدعو عندهم : الإمبراطور)، السُّلَيْطين ملك قَشْتَالَة (١٣ رجب ٥٥٢ = ٢١ آب ١١٥٧ م)(٤) خلَفَه ابنُه شَانْجُهُ (الثالث) في حكم قشتالة وابنُه فِرَّانْدُهُ في حكم ليون . ولما توفي شانْجُهُ (الثالث) في العام التالي ورثه طفلُه الصغير الذي غدا ــ فيما بعد ــ حاكم قشتالة باسم : الفُونش : الهُنْشَه بن شَانْجُهُ بن الهُنْشَه ، إنبرذور(٥) (الفونسو الثامن ، ولقبوه النبيل Alfonso VIII, el Noble) . جرت أحداث بينه وبين الأندلس بقيادة الموحدين ، عُقدت بعدها مُعاهدة بين الطرفين سنة ٥٨٦ هـ ، ومدتها خمس سنين(٦) أو أكثر .

---

(١) راجع : عصر المرابطين والموحدين ، ١٧٠/٢ ــ ١٧٨ ، ١٨٦ ــ ١٨٩ ، ٦١٠ .

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ٣٥٦ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١٨٦/٣ ــ ١٨٩ . قارن : الذيل والتكملة ، ١٩١/٥ ؛ الحلة السيراء ، ٢٧٢/٢ ــ ٢٧٣ .

(٣) عصر المرابطين والموحدين ، ١٨٦/٢ــ١٨٩ .

(٤) المن بالإمامة ، ٣٦٩/٢ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٥١٢/١ ؛ *Manual de historia de Espana* I , 637 .

(٥) الإحاطة ، ٣٨٣/١ .   (٦) وفيات الأعيان ، ٤/٧ .

حين انتهت الهدنة المعقودة مع الفونش (الثامن) ملك قَشْتَالَة — سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٤ م) — بدأ بمهاجمة الأندلس والعيث فيها . أعدّ الموحدون حملة للتوجه إلى الأندلس . تم العبور إليها في جُمَادى الآخرة سنة ٥٩١ هـ (حزيران = يونيو ١١٩٥ م) بقيادة الخليفة الموحدي نفسه ، متجهاً إلى إشبيلية العاصمة . اتجه للقاء جموع الفونش (الثامن) في مكان المعركة (الأَرَك) التي حملت اسمه سنة ٥٩١ هـ . هزمت جيوش الفونش ، كما سيأتي تفصيله ، بعد[1] . قام الجيش الإسلامي بجولات حربية أخرى ، كما قام الخليفة الموحدي والمسؤولون بإنجازات أخرى تتعلق بأمور الأندلس وتنظيمها وإقرار أحوالها وببعض الاصلاحات والانشاءات العمرانية ؛ ثم عاد إلى مَرَّاكُش سنة ٥٩٤ هـ (١١٩٨ م) .

في السنة التالية توفي الخليفة المنصور ، وخَلَفَه ابنُه أبو عبد الله محمد الملقب بالناصر لدين الله . لما عاد الفونش (الثامن) إلى عدوانه على الأندلس تجهز الناصر وعبر إلى الأندلس سنة ٦٠٧ هـ (١٢١١ م) . التقى الناصر بالفونش (الثامن) عند حصن العِقاب سنة ٦٠٩ هـ . كانت معه جيوش صليبية من عدد من دول أوروبا ، التي تولى البابا أنوصان (انوسنت الثالث Innocent III) تشجيعها على المشاركة في حرب المسلمين في الأندلس . انتهى اللقاء بهزيمة جيش الناصر وتشتت قوة الموحدين[2] . ثم عاد الناصر إلى مَرَّاكُش حيث توفي سنة ٦١٠ هـ (١٢١٣ م) ، ربما كمداً من نتيجة العِقاب التي عُدَّت نذيراً بانحلال الدولة الموحدية وانهيارها .

خَلَفَ الناصر ابنُه أبو يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر بالله . عقد معاهدة سلم مع قَشتالة بعد وفاة ملكها الفُونش (الثامن) . لكن الأندلس خسرت بهذه المدة بعض القواعد . منها قصر الفتح (قصر أبي دَانِس) في شهر ربيع سنة ٦١٤ هـ[3] بيد ملك البرتغال الفُونش (الثالث) ، بمساعدة اسطول الصليبيين الألمان — الذي كان متجهاً إلى الشرق — بعد مقاومة وقتال مرير أبداه حصن قصر أبي دَانِس .

---

(١) أدناه ، ٤٨٤ وبعدها .

(٢) عصر المرابطين ، ٢/٢٨٨ وبعدها ؛ أوربا العصور الوسطى ، عاشور ، ١/٥٤٩ — ٥٥١ .

(٣) الروض المعطار ، ١٦١ .

جرت أحداث « فُقد فيها آلاف من المسلمين ، بتخاذل رؤسائهم يوم التقى الجمعان ؛ وهي إحدى الكوائن المنذرة حينئذ بما آل إليه أمر الأندلس الآن » . كما يقول ابن الأبَّار (٦٥٨ هـ) في **الحُلَّة السِّيَرَاء**[1] .

لما لم يكن هناك أمل باستمرار دفاع المدينة (قصر أبي دَانِس) أمام ضغط الجيوش الكثيفة عرض أهلُها التسليم « على أن يُسمح لهم بالخروج بأموالهم ، فرفض النصارى ، ووافقوا فقط أن يُسمح لهم بالخروج أحياءً ، دون أن يحملوا شيئاً معهم . . . ودخل النصارى مدينة القصر أو قصر أبي دَانِس ، وقتلوا كل من كان بها ، وبالضياع المجاورة ، من المسلمين . »[2]

ممن استُشْهِد من العلماء في هذه الوقيعة أبو بكر محمد بن عبد النور من أهل إشبيلية ، « وكان من أهل المعرفة والعناية بالرواية ، كثير السماع ، وتصدَّر ببلده لإقراء القرآن ، وإسماع الحديث . وكان يبصره مع الفضل والصلاح والتواضع والزهد ، واستُشْهِد في وقيعة قصر أبي دَانِس بغرب الأندلس في احدى شهري ربيع سنة ٦١٤ . »[3] « وكان كثيراً ما يحضر الغزوات ويبلي فيها البلاء الحسن ، نفعه الله [وجدَّد الرحمة عليه .] »[4]

لكن هذا الخليفة الفتي (يوسف المستنصر) توفي فجأة ، دون عَقِب ، في مَرَّاكُش سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٤ م) . خَلَفَه أبو محمد عبد الواحد (المخلوع) بن الخليفة أبي يعقوب يوسف ، عم أبي الخليفة المستنصر . خُلِع عبدُ الواحد بعد ذلك بأشهر ، حيث تمت مبايعة أبي محمد عبد الله الملقب بالعادل ، ابن الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور . تلته بيعة أخيه أبي العلاء (العُلى) الملقب بالمأمون ، ثم بيعة ابنه أبي محمد الملقب بالرشيد (٦٤٠ هـ)[5] .

---

(١) الحلة السيراء ، ٢/٢٩٥ . كذلك : الحلة ، ٢/٢٧٢ – ٢٧٣

(٢) عصر المرابطين والموحدين ، ٢/٣٣٩ – ٣٤٠ .

(٣) التكملة ، ٢/٥٩٦ (رقم : ١٥٧٧) .

(٤) الذيل والتكملة ، ٦/٤١٣ (رقم : ١١١٢) . الزيادة من برنامج شيوخ الرعيني ، أبو الحسن الرعيني ، ١٨ .

(٥) راجع : المعجب ، ٤٠٣ – ٤١٩ ؛ أعمال الأعلام ، ٢/٢٦٥ – ٢٧٠ ؛ الإحاطة ، ١/١٤١، ٤٠٩.

جدول أمراء الموحدين

(١) محمد بن تُومَرْت (٥٢٤ هـ) الملقب بالمهدي ، مؤسس الدعوة الموحدية (٥١٤هـ)
ثم الدولة . تولى الحكم بعده معاونُه :

(٢) أبو محمدعبد المؤمن بن علي الكُومِي (تاجَرَة ، ٤٩٠ : ٥٢٤ – سَلا ، ٥٥٨ هـ)
عند وفاته توارثه أبناؤه :

(٣) أبو يعقوب يوسف (٥٥٨ – رجب ٥٨٠ هـ)

(٤) أبو يوسف يعقوب (المنصور)
(٥٨٠ – صفر ٥٩٥ هـ)

(٧) أبو محمد عبد الواحد (المخلوع)
(ذو الحجة ٦٢٠ – شعبان ٦٢١ هـ)

(٥) أبو عبد الله محمد (الناصر)
(٥٧٦ : ٥٩٥ – شعبان ٦١٠ هـ)

(٨) أبو محمد عبد الله (العادل)
(٦٢١ – شوال ٦٢٤ هـ)

(٦) يوسف (المستنصر)
(٥٩٤ : ٦١٠ – ٦٢٠ هـ)

(٩) أبو العلاء ادريس (المأمون)
(ذو الحجة ٦٢٩ هـ)

(١٠) أبو محمد عبد الواحد
(الرشيد) (٦٤٠ هـ)

قائمة ملوك قشتالة حتى قيام غرناطة[1]

الفونش السابع (Alfonso Raimundez) بن رَمُنْد
البُرْجُوني (السُّلَيْطِين ، الإمبراطور) (٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م)

(١) شَانْجُهْ الثالث (أكبرهما)
(٥٥٣ هـ = ١١٥٨ م)

فِرَّانْدُهْ الثاني (البَبُوج)
(٥٨٤ هـ = ١١٨٨م) ، حكم ليون

(٢) الفونش الثامن (النبيل) (٦١١ هـ = ١٢١٤ م)

(١) انظر : أعلاه ، ٣٢٩ .

الفونش التاسع بن البَبُوج (٦٢٨ هـ = ١٢٣٠ م) ، حكم ليون

(٣) فِرَّانْدُهْ الثالث (٦٥٠ هـ = ١٢٥٢ م)

حكم قشتالة وأضيفت إليه ليون بعد أبيه

(٤) الفونش العاشر (العالم) (٦٨١ هـ = ١٢٨٢ م)

قائمة حكام البرتغال

الفونْش (ابن الرِّيق ، ابن الرِّنْق ،
ابن الرِّنْك : AlFonso Enriquez
(٥٨١ هـ = ١١٨٥ م)

شانْجُهْ الأول (٦٠٨ هـ = ١٢١١م)

الفُونْش الثاني (٦٢٠ هـ = ١٢٢٣ م)

شانْجُهْ الثاني — الفُونْش الثالث

قائمة حكام أرْغُون

(١) شانْجُهْ بن رُدْمير (٤٨٧هـ=١٠٩٤م)
(Sancho Ramírez)

(٢) الفُونْش الأول (المحارب)
(٥٢٨ هـ = ١١٣٤ م)

(٣) رُدْمير الراهب
(اعتزل ٥٣١ هـ = ١١٣٧ م)

ينتقل حكم أرغون إلى :

(٤) رَمُنْد بن بَلَنْقِير الرابع
(٥٥٨ هـ = ١١٦٢ م)
(Ramón Berenguer IV)

حكم برشلونة وغيرها

(٥) الفونش الثاني (٥٩٣ هـ = ١١٩٦م)

(٦) بِطْرُهْ الثاني (الكاثوليكي)
(٦١٠ هـ = ١٢١٣ م)

(٧) جايْمِش الأول (الغازي)
(٦٧٥ هـ = ١٢٧٦ م)

٣ — الحالة العامة

هذه الأحوال، وما صاحبها أيضاً من التبدل السريع للخلفاء ، أباحت فرصة لملوك إسبانيا الشمالية للاعتداء على الأراضي الأندلسية واقتطاع بعض الحصون والمدن . قام ملك قَشْتَالَة فردلند (الثالث) (Fernando III) بقسط وافر في هذا الأمر . وأمام ضعف السلطة الموحدية في المحافظة على الدولة في المغرب والأندلس ، ظهرت زعامات محلية استقلت في أماكنها بالمغرب .

آ — المغرب

مهدت تلك الأحوال في المغرب (المغرب الكبير = الشمال الإفريقي) لظهور دُوَله .

ففي المغرب الأقصى ظهرت دولة بني مَرِين . إحدى قبائل زناته ، ولهم دور بطولي في معركة الأرك (Alarcos) مع يعقوب المنصور . كان زعيمهم — يوم بدأت تظهر قوتهم في تأسيس دولتهم في المغرب الأقصى — الأمير عبد الحق بن محيو المتوفى سنة ٦١٤ هـ[1] . استمرت هذه الدولة حوالي ثلاثة قرون . لها مجهود واضح في معاونة مملكة غرناطة للوقوف ثابتة في وجه عدوانات اسبانيا الشمالية . اتخذوا مدينة فاس عاصمة لهم ، ثم تحولوا إلى مدينة مراكش .

استقل بنوزَيَّان ، من بني عبد الواد ، في المغرب الأوسط (الجزائر) . أعلن زعيمهم يَغْمُراسِن (يَغْمَراسِن ، يَغُمْراسِن) بن زَيَّان بن ثابت استقلالهم في تلمسان سنة ٦٣٣ هـ[2] . استمرت دولتهم حوالي ثلاثة قرون .

استقل بنو حَفْص في المغرب الأدنى (تُونُس) . أقاموا دولتهم هناك بزعامة عبو (عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حَفْص) ، حوالي سنة ٦٢٣ هـ[3] . استمرت دولتهم ما يزيد على القرن .

---

(١) العبر ، ابن خلدون، ٣٤٩/٧ ؛ الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، علي بن أبي زرع الفاسي ، ٣٠ ؛ روضة النسرين في دولة بني مرين ، أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر ، ١٤ ؛ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ٦/٣ .

(٢) العبر ، ١٥٤/٧ ، ١٦٢ وبعدها .

(٣) العبر ، ٥٩١/٦ .

ب ـ الأندلس

جرت أحداث مهمة في الأندلس ، سواء في داخل شبه الجزيرة الأندلسية أو في الجزائر الشرقية التابعة لها . جرى في الجزائر الشرقية مما أصاب الأندلس .

سقوط الجزائر الشرقية

في يوم الاثنين ١٤ صفر سنة ٦٢٧ هـ (أول كانون‌الثاني = يناير ١٢٣٠ م) سقطت جزيرة **مَيُورْقَة**[١] (Mallorca) كبرى الجزائر الشرقية ، وقاعدتها (العاصمة) مدينة مَيُورْقَة[٢] ، بيد جيوش متحدة من مملكة أَرَغُون (رَغُون) وملكها« الطاغية جَايْمِش بن بُطْرُهُ بن جَايْمِش»[٣] (Jaime I) ، ومن فرنسا وايطاليا . أمعنوا في أهلها سفكاً ، رافضين المصالحة غير الحربية في استسلامها[٤] .

سَمَّى المؤرخون الأندلسيون سقوط مَيُورْقَة « الحادثة العظمى من قِبل الروم على مَيُورْقَة »[٥] أو « الحادثة الشنعاء على أهل مَيُورْقَة »[٦] أو « كائنة » . للقاضي أبي المُطَرِّف أحمد بن‌عبد الله بن محمد‌بن الحسين بن‌أحمد‌بن‌عَمِيرَة المخزومي (جزيرة شُقَر ، قرب بلنسية ، ٥٨٢ ـ تونس ، ٦٥٨ هـ)[٧] « تأليف في كائنة مَيُورْقَة وتغلب الروم عليها »[٨] . أبو المُطَرِّف ابن عَمِيرَة المخزومي غير كَنِيِّه

---

(١) التكملة ، ١/١٥٥ ـ ١٥٦ (رقم : ٤٠٠) ، ٦٢٤/٢ (رقم : ١٦٢٩) ؛ الحلة السيراء ، ٣١٨/٢ ؛ اختصار القدح المعلى ، ابن سعيد الأندلسي ، ٢٨ ؛ الذيل والتكملة ، ١٢/٥ (رقم: ١١) ، ١٨٣ (رقم : ٣٦٤) ، ٧/٦ (رقم : ٥) ، ١٠٦ (رقم : ٢٧٧)؛ نفح الطيب ، ٤٦٩/٤ .

(٢) المغرب ، ٤٦٦/٢ .

(٣) الإحاطة ، ٣٨٣/١ .

(٤) عصر المرابطين والموحدين ، ٤٠٢/٢ ـ ٤٠٨ .

(٥) التكملة ، ٦٢٤/٢ (ورقم : ١٦٢٩) . كذلك : التكملة ، ١/ ١٧١ (رقم : ٤٥١) .

(٦) الذيل والتكملة ، ٦/ ١٧٤ « (رقم : ٤٧٠) .

(٧) عنوان الدراية ، أبو العباس الغبريني ، ٣٠١ (رقم : ٩٢) ؛ اختصار القدح المعلى ، ٤٢ ؛ نفح الطيب ٣٠٥/١ ـ ٣٢١ .

(٨) الذيل والتكملة ، ١٧٦/١ (ترجمة ابن عميرة المخزومي ، رقم : ٢٣١) ؛ نفح الطيب ، ٣١٤/١ . كذلك : الاحاطة ١٧٨/١ .

وسَميه وبَلَديِّه أبي جعفر أحمد بن عَميرَة الضبِّي (مرسية ، ٥٩٩ هـ)[1]، صاحب كتاب **بُغْيَة المُلْتَمِس في تاريخ رجال أهل الأندلس** ، الذي « توفي : بمُرْسِيَة شهيداً ، سقط عليه هدم فأُخرِج منه وبه رَمَق فَنِيَ بسرعة . وذلك ظهر يوم الأحد الخامس والعشرين لشهر ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وخمس مئة ، ودفن عصر يوم الاثنين بعده ، بمسجده إزاء جنته التي وقع حائطها عليه . وكانت جنازته مشهودة . وهو ابن بضع وأربعين سنة . »[2] للضبّي هذا قريب هو أحمد بن عبد الملك بن عَميرَة بن يحيى الضبي (٥٧٧ هـ)[3] .

ينقل المَقّري في **نفح الطيب** ملخّصاً من كتاب ابن عَميرَة المخزومي المفقود فيقول : « ولما رأى ابن سيري أن العدو قد استولى على البلد خرج إلى البادية ، ولمّا كان يوم الجمعة الحادي عشر من صفر قاتلوا البلد قتالاً شديداً ، ولمّا كان يوم الأحد أخذ البلد ، وأُخذ منه أربعة وعشرون ألفاً قُتلوا على دم واحد ، وأُخذ الوالي وعُذِّب ، وعاش بعد ذلك خمسة وأربعين يوماً ، ومات تحت العذاب »[4] . أما صاحب **الروض المعطار** فيقول عن هذه الكائنة : « إن الطاغية البَرْشَلُوني تحرك إلى مَيُورْقَة عازماً عليها ، فنزل عليها أسطوله في شوال سنة ٦٢٦ ، فأراها من القتال وشدة الحصار وأنواع المحن مالم يَجْرِ مِثْلُه في زمان ، وحكم عليها عَنْوَةً بعد طول الحصار والقتل والسبي ، ثم أخذ واليها ابن يحيي فعذبه أشد العذاب حتى مات ، واستولى الشرك على الجزيرة في عام ٦٢٧ . »[5]

ممن استُشهد ، في هذه الكائنة مِن أهل مَيُورْقَة : أبو مروان عبد الملك بن إبراهيم بن هارون العَبْدَري ، الذي « كان مُقرئاً مُجَوِّداً مشاركاً في العربية ، تصدَّر لإقراء القرآن وتدريس النحو ، وخطب بجامع بلده نحو عشرين سنة ، واستُشهد رحمه الله في تغلب الروم عليه يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة سبع

(١) التكملة ، ١/٩٣ – ٩٤ (رقم : ٢٤٢) .
(٢) التكملة ، ١/٩٤ .
(٣) التكملة ، ١/٧٩ – ٨٠ (رقم : ٢١١) ؛ نفح الطيب ، ٢/٦٠١ .
(٤) نفح الطيب ، ٤/٤٧٠ – ٤٧١ .
(٥) الروض المعطار ، ١٩ . كذلك : الروض ، ١٨٥ ؛ المغرب في حلى المغرب ، ٢/٤٦٧ – ٤٧٠ .

وعشرين وست مئة . »[1] كذلك أبو عبد الله محمد بن عبد الله البكري « كان شاعراً بليغاً كاتباً متكلماً حَسَنَ الصحبة ، استُشهد بمَيُورْقَة عند تغلب الروم وقيامهم في قَصَبَتها على أهل البلد . »[2]

أما جزيرة **اليابسة** (Ibiza) ، صغرى الجزائر الشرقية الثلاث ، فسقطت بعد أختها الكبرى بسنوات قليلة[3] .

لكن جزيرة مَنُورْقَة (Menorca) لم تسقط إلا بعد حوالي ستين سنة ؛ سقطت سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) . دخلها الجيش الأرْغُوني وأَجْلَوْا المسلمين عنها . غادرها حاكمها أبو عمر حَكَم بن سعيد بن حَكَم مع أهله حاملاً رِمَّة أبيه ! ؟ أبي عثمان سعيد بن حَكَم (٦٠١ – ٦٨٠ هـ)[4] ، متوجهاً إلى الأندلس .

يحدثنا عن كائنة مَنُورْقَة هذه ابن الخطيب في **أعمال الأعلام** ويذكر حاكمها سعيداً وابنه أبا عمر حَكَماً : « فانصرفت أطماع العدو البَرْجَلُوني المجاور لثغره الى تملّكه ؛ فتمّ له ذلك ، ونفذ قدر الله فيه ، سنة ٦٨٦ . فاستولى على الجزيرة ، وأجلى عنها المسلمين . ولحق أبو عمر بسبتة ، وقد رفع اليها رِمَّة أبيه ، بعد أن كان قد نزل بالمَرِيَّة . ووصل الى غَرْناطة وأقام بها إياماً تحت جِراية أميرها .

وحدثني مَن رآه وروى عنه مِن شيوخنا أنه كان رجلاً قوي السمت والهَدْي ، جميل الرُّوَاء ، عظيم الوقار والتودّد . »[5]

مُجرايات الجزيرة الأندلسية

كانت الحالة في داخل شبه الجزيرة الأندلسية مماثلة في هذه الناحية ، حيث ظهرت زعامات محلية أدَّت إلى قيام **مملكة غرناطة** بزعامة بني الأحمر .

---

(١) الذيل والتكملة ، ١٢/١/٥ (رقم : ١١) .
(٢) الذيل والتكملة ، ٣٢٧/٦ (رقم : ٨٤٨) .
(٣) المغرب ، ٤٧٠/٢ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٤٠٨/٢ .
(٤) الذيل والتكملة ، ٣١/٤ ؛ عنوان الدراية ، الغبريني ، ٣٠٦ ؛ أعمال الأعلام ، ٢٧٦/٢ ؛ المغرب ، ٤٦٩/٢ . كذلك : الحلة السيراء ، ٣١٨/٢ .
(٥) أعمال الأعلام ، ٢٧٦/٢ – ٢٧٧ .

هناك أمر آخر في الأندلس ، لم يكن مثله في الشمال الافريقي ، حيث خطر اسبانيا الشمالية الجاثم ، كما هو الحال مع الجزائر الشرقية . كانت هذه الظروف في الأندلس هي فرصتها المرجوّة .

ففي المدة مابين ضعف الدولة الموحدية وقيام غَرْناطة ــ نحو سنة ٦٣٥ هـ ، أو بعدها ــ احتلت من جزيرة الأندلس عدد من قواعدها الكبرى ؛ بعد أن سقطت على يد جيوش اسبانيا الشمالية .

سقطت قُرْطُبَة يوم الأحد ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ[١] (١٢٣٦ م) . كان ذلك بجيوش ملك قَشتالة فِرَّانْدُهْ بن الفنش[٢] (هِرَّانْدُهْ بن الهُنْشَه[٣] ، فِرْدِلَنْد ، فرناندو الثالث Fernando III بن الفونسو التاسع Alfonso IX[٤]) .

قرطبة حاضرة الأندلس الكبرى وعاصمة الغرب الإسلامي ، التي أفاضت خلال القرون على مَن وما حولها خيراً وبركةً ونوراً ، حتى لِمَا وراء جبال البُرْت في الأرض الكبيرة . كانت قرطبة ــ خلال مايزيد على خمسة قرون ــ مثوى للفضل والمعرفة ومرتوىً للطلبة والعلماء ، وموطِناً مِن مواطن النجدة والفروسية ومُنْتَجعاً للقادمين اليها ، كما كانت ثغر جهاد ورِباط دعوة .

بذلت قرطبة جهوداً مشهودة للوقوف ضد المعتدين من جيوش قَشتالة بقيادة ملكهم ، فِرَّانْدُهْ بن الفُنْش (هِرَّانْدُهْ بن الهُنْشَه) . لكنها اضطرت الى التسليم . « وكان بعض الغلاة من صَحْب ملك قشتالة من الأحبار والأشراف ، يرون رفض التسليم واقتحام المدينة ، وقتل كل أهلها المسلمين ولكن ملك قشتالة ومعه فريق آخر من مستشاريه ، كان يرى أن هذا الإجراء قد يدفع أهل المدينة الى اليأس ، وتخريب المدينة ، ومسجدها الجامع ، وتحطيم سائر ذخائرها وثرواتها . »[٥]

ثم كان تحويل مسجد قرطبة الجامع الى كنيسة ، كما أُخرج منها أهلها المسلمون أو

---

(١) التكملة ، ١/١٢٠ ، ٣٢٣ .

(٢) أعمال الاعلام ، ٢/٣٣٢ .

(٣) الاحاطة ١/٣٨٣ ، ٥٥١ .

(٤) *Manual de historia de Espano*, I, 676 .

(٥) عصر المرابطين والموحدين ، ٢/٤٢٤ .

اضطروا لذلك« فحصرها [ابن] أذْفُنْش النصراني ملك طُلَيْطُلَة فأخذها . وخرج منها أهلها . والله يعيدها بمنّه وحوله . »[1]

في صفر سنة ٦٣٦ هـ[2] (١٢٣٨ م) سقطت بلنسية ، إحدى المدن المجاهدة وكبرى قواعد شرقي الأندلس وثغوره . وكانت مركزاً للعلوم والآداب والفضل والخير . هي التي قاست عن يد الطاغية القَمْبيطُور الكثير[3] . وكان أمير بلنسية أبا جميل زيَّان بن أبي الحَمَلات مُدافع بن أبي الحَجَّاج يوسف بن سعد بن مَرْدَنيش الجُذامي . اجتاحت الأندلس ظروف صعبة ، مع ضعف امكانياتها . استغرقت عمليات الاستيلاء على بَلَنْسِيَة عدة سنوات ومع الصفة الصليبية التي توجهت بها حروب ملك أرْغُون جَايْمِش (الأول) (Jaime 1) بن بِطْرُهْ (الثاني) (Pedro II[4]) . وصفته المصادر الاسبانية الغازي (El Conquistador) . يعرف في مصادرنا الأندلسية : جَايْمِش بن بُطْرُهْ بن جَايْمِش[5] أو جَاقْمَه[6] أو جَاقِم (جَاقْمَة) البَرْشَلُوني[7] الموصوف بالطاغية .

أصدر البابا جريجوري التاسع (Gregory IX) مرسومه بإسباغ الصفة الصليبية على حروب إسقاط بَلَنْسِيَة التي بدأت ٦٣١ هـ (١٢٣٣ م)[8] .

وقعت ـ خلال هذه الحروب ـ معركة أنيشه[9] (أنيجه) (Puig de Cebolla) ، « في يوم الخميس الموفي عشرين من ذي الحجة ، عام أربعة وثلاثين وست مئة »[10] .

---

(١) المغرب ، ١/٥٧ . وردت ، في الأصل « أذفنش » خطأ ، إذ هو ابن أذفنش (الفنش) : فرانده ، فردلند (فرناندو) الثالث بن الفونسو التاسع .

(٢) التكملة ، ١/١٢١ ، ٢/٤٧٩ ، ٦٩٤ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩١٤ ؛ الحلة السيراء ، ٢/٣٠٣ .

(٣) أعلاه ، ٣٦٩ وبعدها .

(٤) *Manual de historia de Espana*,I,719 .

(٥) أعمال الأعلام ، ٢/٣٣٧ ؛ الاحاطة ، ١/٣٨٣ .

(٦) الروض المعطار ، ٤٨ ؛ أعمال الأعلام ، ٢/٢٧٣ .

(٧) الحلة السيراء ، ٢/١٢٧ .

(٨) عصر المرابطين والموحدين ، ٢/٤٣٩ .

(٩) الروض المعطار ، ٣٢ ؛ العبر ، ابن خلدون ، ٤/٣٦٠ ، ٦/٦٠١ ؛ نفح الطيب ، ٤/٤٧٣ .

(١٠) برنامج شيوخ الرعيني ، ٧٠ . كذلك : عصر المرابطين والموحدين ، ٢/٤٤٢ ؛ الحلة السيراء ، ١/٣٥ (المقدمة) .

أنيشَه حصن يقع شمال مدينة بلنسية، على بعد سبعةأميال . هاجمه الملك الأرْغُوني وهدمه ، وابتنى حصناً منيعاً يكون مركزاً لعيثه وأعماله الحربية ضد بلنسية . لماأراد أبو جميل زَيَّان انتزاع حصن أنيشَه سار بقوة عسكرية ، اشترك فيها كثير من علماء بلنسية ، منهم كبير علماء الأندلس ومحدثيها[1] أبو الربيع سليمان بن سالم الكلاعي (مرسية ، رمضان ٥٦٥ — ٦٣٤ ﻫ) . انه جندي جريء خاض عدداً من المعارك ، وخاض هذه المعركة في المقدمة . « وكان رحمه الله من أولي الحزم والجرأة والبسالة والإقدام والجزالة وثبات الجأش والشهامة ويمن النقبية ، يحضر الغزوات ويباشر بنفسه القتال ويبلي فيه البلاء الحسن ، وآخرها الغزَاة التي استُشهد فيها بالكائنة على المسلمين بظاهر أنيشة من عَمَلِ بَلَنْسِيَة على نحو سبعة أميال منها ؛ حضرها وحرض المسلمين ، وقد اختلّوا ، على قتال عدوهم ورَغّبَهم في مكافحته . ولم يزل متقدّماً أمام الصفوف زحفاً الى الكفار مُقْبِلاً على العدو غير مُدْبِر [والراية بيده[2]] ينادي المنهزمين : أعَن الجنة تَفرون ؟ حتى قُتِل صابراً محتسباً غداة يوم الخميس لعشرٍ بَقِينَ من ذي حجة أربع وثلاثين وست مئة ، وكان خروجه اليها يوم الأربعاء المتصل به . . . واستُشهد في هذه الوقيعة جماعة من علماء بلنسية وفضلائها وصلحائها ، وفقد نحو سبعين من أهل الصف الأول بجامعها الأعظم منهم ، نفعهم الله بالشهادة »[3] .

رثى أبا الربيع وبقيةَ الشهداء ، تلميذُه ابنُ الأبَّار بقصيدة من مئة بيت وبيت ، منها مع المطلع[4] :

أَلمَّا بأشلاء العُلى والمكارمِ ... تُقَدُّ بأطراف القَنَا والصوارِمِ
هُمُ القومُ راحوا للشهادة فاغتَدَوْا ... وما لهمُ في فَوْزهمْ مِن مُقاوِمِ

---

(١) التكملة ، ٨٨١/٢ (رقم : ٢٠٨٧) .

(٢) المرقبة العليا ، ١١٩ .

(٣) الذيل والتكملة ، ٨٩/٤ — ٩٠ . عن أبي الربيع الكلاعي ، راجع كذلك : التكملة (مدريد) ، ٧٠٨ ؛ إعتاب الكتاب ، ٢٤٩ ؛ تحفة القادم ، ١٣٩ ؛ برنامج شيوخ الرعيني ، ٦٦ — ٧٢ ؛ الحلة السيراء ، ١٠٢/٢ ؛ نفح الطيب ، ٦١٦/١ ، ٤٧٣/٤ ؛ الديباج المذهب ، ١٢٢ ؛ تذكرة الحفاظ ، ١٤١٧/٤ ؛ عنوان الدراية ، ٢٧٩ ؛ الوافي بالوفيات ، ١٨٣/٨ (مخطوط) ؛ أدناه ، ٥٠٣ — ٥٠٤ .

(٤) الذيل والتكملة ، ٩٠/٤ — ٩٥ .

تَساقَوْا كئوسَ الموت في حَوْمَةِ الوغى ... فمالَتْ بهم مَيْلَ الغصون النواعمِ
مَضَوْا في سبيل الله قِدْماً كأنما ... يطيرون من أقدامهم بقوادم
يَرَوْنَ جِوارَ الله أكبرَ مَغْنَم ... كذاك جوارُ الله أسنى المغانم
ألا بأبي تلك الوجوهُ سَواهِماً ... وإن كُنَّ عند الله غيرَ سَواهِم
فلا يبعدِ الله الذين تقربوا ... اليه بإهداء النفوس الكرائم
مواقف أبرارٍ قَضَوْا من جهادهم ... حقوقاً عليهم كالفروضِ اللوازم
أُصيبوا وكانوا في العبادة أُسْوَةً ... شباباً وشيباً بالعواشي الغواشم
سقى اللهُ أشلاءً بسفحِ أنيشةٍ ... سوافحَ تُزجيها ثِقالُ الغمائم
وصلّى عليها أنفساً طاب ذكرُها ... فطَيَّبَ أنفاسَ الرياح النواسم
لقد صبروا فيها كراماً وصابروا ... فلا غَرْوَ أن فازوا بصفوِ المكارم
مُنَادٍ إلى دار السلام مُنادمٌ ... بها الحور ، واهاً للمنادي المنادم
أتاه رَداهُ مقبلاً غيرَ مُدبرٍ ... ليحظى بإقبالٍ من الله دائم
إماماً لدينٍ أو قِواماً لدولةٍ ... تولّى ولم تَلْحَقْهُ لومةُ لائم
ويا أيها المختوم بالفوز سعيُهُ ... ألا إنما الأعمال حُسْنُ الخواتم
هنيئاً لك الحسنى من الله إنها ... لكلِّ تقي خِيمُهُ ، غيرِ خائم
تبوأتَ جناتِ النعيم ولم تزل ... نزيلَ الثريا قبلها والنعائم
ولم تألُ عيشاً راضياً أو شهادةً ... ترى ماعداها في عداد المآتم
وحِمْتَ على الفردوس حتى وردته ... ففزت بأشتات المنى فوز غانم

أبدت معركة أَنيشَة صعوبةَ الموقف ودعت للاستعداد ورسم الخُطة واتخاذ الحيطة والأُهْبة واستصراخ الأُخوة في الأندلس والمغرب .

تجهز ملك أَرْغُون جايْمِش لإسقاط بلنسية . حاصرها في رمضان سنة ٦٣٥ هـ[١]. كان معه كثير من الجند الوافدين ، منهم حشود المتطوعة الفرنسيين ، بقيادة مُطران مدينة أُرْبُونَة ، وآخرون من جنوة[٢] . شددوا الحصار على المدينة وخربوها بالآلات

(١) التكملة ، ١/٢٦٧ ؛ الحلة السيراء ، ٢/١٢٧ .
(٢) العبر ، ٦/٦٠١ .

الحربية . صمم سكان بلنسية على الدفاع حتى الرمق الأخير ، أرسل أميرُها سفراءه إلى بعض المدن الأندلسية طالباً النجدة . وجّه الفقيه أبا عبدالله محمد بن عبد الله بن محمد بن خلف بن قاسم الأنصاري (بلنسية ، رمضان ٥٥٤ - أرْيُولَه ، رجب ٦٤٠ هـ) ، من أهل بَلَنْسِيَة ، الى مدينة مُرْسِيَة « لاستمداد أهلها . »[1]

وأرسل أبو جميل كاتبه ووزيره العلامة الأديب المؤرخ ابن الأبّار - مع وفد بلنسية - إلى إخوانه في العُدْوة المغربية ، يستنجدهم . توجّه إلى الحَفْصيين في تونس ، وأميرُها أبو زكريا يحيى بن أبي حفص ، يستصرخه لنجدة سريعة[2] . أمام هذا الأمير في تونس القى ابن الأبّار - في حفل مشهود - قصيدته التي مطلعها[3] :

أَدْرِكْ بخيلكَ خيلِ الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها دَرَسا

غير واضح تماماً - من النصوص المتوفرة - تاريخ هذه السفارة ، وما إذا توجهت إلى تُونُس أثناء حصار بلنسية الذي استمر حوالي ستة شهور ، ابتداء من رمضان ٦٣٥ هـ . تضع عدة من مراجعنا الأندلسية تاريخ السفارة بعد بداية هذا الحصار[4] (٥ رمضان ٦٣٥ - ١٧ صفر ٦٣٦ هـ) . يذكر ابن خلْدُون أن أبا جميل أوفد إلى تُونُس « أعيان بَلَنْسِيَة وهي محصورة فرجع الى دَانِيَة . »[5] إلا أن ابن الأبّار يذكر فائدة في كتابه **التكملة** ، حين الحديث عن أبي علي القَشْتليوني: حسن بن عبد العزيز بن إسماعيل التُّجيبي (بلنسية ، ٥٤٨ - تونس ، ٦٣٥ هـ) الذي «كان يكتب المصاحف وصار أخيراً إلى مدينة تُونُس وأقرأ بها القرآن . ورأيت الأخذ عنه في سَلْخ شعبان سنة خمس وثلاثين وست مئة . وعلى إثر ذلك تُوفي بها ، قَدِمْتُها رسولاً من قبل والي بَلَنْسِيَة ودَانِيَة أبي جميل زَيّان بن سعد في منتصف السنة التي بعدها فلم أجده . »[6] يُفهم من هذا أن وصول ابن الأبّار الى تُونُس

---

(١) التكملة ، ٦٥٢/٢ .

(٢) نفح الطيب ، ٥٩٠/٢ . كذلك : أزهار الرياض ، ٣ / ٢٠٥ ؛ عنوان الدراية ، ٣١١ .

(٣) نفح الطيب ، ٤٥٦/٤ - ٤٥٧ .

(٤) نفح الطيب ، ٥٩٠/٢ ؛ أزهار الرياض ، ٢٠٥/٣ ؛ اختصار القدح ، ١٩١ . كذلك : عصر المرابطين والموحدين ، ٤٤٤/٢ - ٤٤٦ .

(٥) العبر ، ٣٦٠/٤ . كذلك : العبر ، ٦/ ٦٠١ .

(٦) التكملة ، ٢٦٦/١ - ٢٦٧ (رقم : ٧٠٥) .

كان قبل بدء حصار بلنسية ، بعد وقعة أنيشَة . يقوي هذا الفهم ما ذكره ابن الخطيب في **أعمال الأعلام** ــ حين شرحه هذه الأحداث وجهود زيَّان ــ اذ « كانت عليه الوقيعة بأنيشَة من ظاهر بلَنْسِيَة ، هلك فيهـا من المسلمين مالا يحصيه إلا الله ؛ وكَلَب عليهم عدو الشرق ، ويئسوا من نصرة أهل الأندلس وأهل المغرب ؛ فتعلقوا ببيعةِ الأمير أبي زكرياء بتُونس ، واستصرخوه . . . ولم يصل جوابه وإمداده إلا والطاغية قد نازل بلنسية ، وذلك يوم الخميس خامس رمضان من سنة ٦٣٥ . »[١]

كانت وِفادة ابن الأبَّار إلى أمير تُونُس الحَفْصي،سفيراً لبلنسية ، في شعبان سنة ٦٣٥ هـ أو قبلها . حيث تلقى العلم عن القشتليوني . عاد نحو الأندلس بالنجدة إلى بلنسية مع وفدها . بعد ذلك مدة ، غادرها إلى تونس ، فاستوطنها دار إقامة « وعاد أبو عبد الله ابن الأبار إلى مرسله فألفى الأحوال قد أعضل دواؤها وقواعد قد غلب عليها أعداؤها ، فتركها هاجراً ، وقصد حضرة تونس مهاجراً »[٢] . وكان الأجدر به ألا يبرح الأندلس ، بل بها يقيم ، مجاهداً بكل وسيلة هيأها الله تعالى له هناك وامكانية وهبها ــ سبحانه ــ أياها .

بادر الأمير الحفصي بتجهيز أسطول ، شحنه بالمؤونة والسلاح ، من ثماني عشرة سفينة كبيرة وصغيرة . اتجهت إلى بلنسية ، صحبة ابن الأبَّار وبقية الوفد الأندلسي[٣]. لكن هذه السفن فشلت في إيصال الامدادات إلى المدينة المنكوبة ، لشدة الحصار حولها . واضطرت لإفراغ المؤن في ثغر دَانِيَة جنوب بلنسية . ضاق الحال بأهل المدينة الباسلة ودهمهم الجوع لانعدام المورد وفناء الأقوات . في حين كان المعسكر الأرْغُوني في سعة من أمره « وواصل عدو الله جَاقْمَة ملك أرْغُون منازلة بلنسية ورميها بالمجانيق وشدة القتال ؛ وما زال المسلمون تنقص أعدادهم ، والنصارى تتوارد أمدادهم ، إلى أن نفدت الأقوات ، واستولى الجوع وضعفت القوى وأُكلت الجلودِ والزقوق . وبلغ الكتاب أجَلَه ، فكانت المراوضة على إسلام البلد والخروج

---

(١) أعمال الأعلام ، ٢/ ٢٧٢ – ٢٧٣ .

(٢) الذيل والتكملة،٦/٢٦٩ (رقم: ٧٠٩،ترجمة ابن الأبار) .كذلك : العبر ، ٦/٦٠٤ – ٦٠٥ .

(٣) أزهار الرياض ، ٣/ ٢٠٥ .

عنه في الرابع عشر لشهر صفر من السنة ، بعد المنازلة . وخرج الأمير أبو جميل والشهود ، وعُقِدَ الصلح بعدها على دَانِيَة وقُلَّيْيِرَه . وكان الرزءُ على المسلمين في أخذ بلنسية عظيماً ، والخطب فيها أليماً . »[1]

أمام ذلك اضطرت المدينة للتسليم وأُبرمت شروطه ، يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة ٦٣٦ هـ[2] (أيلول = سبتمبر ١٢٣٨ م) ، بعد حوالي خمس سنوات من المعارك والأحداث .

يصف ذلك ابن الأبَّار في **الحُلَّة السِّيَرَاء** ، حيث كَانَ شَاهِدَ عِيان لهذه الأحداث ومشاركاً في وقفة المدينة ، فيقول : « ثم ملكها الروم ثانية ، بعد أن حاصرها الطاغية جَاقِم البَرْشَلُوني من يوم الخميس الخامس من شهر رمضان سنة خمس وثلاثين وست مئة إلى يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة ست وثلاثين ، وفي هذا اليوم خرج أبو جميل زَيَّان بن مُدافع بن يوسف بن سعد الجُذَامي من المدينة — وهو يومئذ أميرها — في أهل بيته ووجوه الطلبة والجند ، وأقبل الطاغية وقد تَزَيَّى بأحسن زي في عظماء قومه ، من حيث نزل بالرُّصافَة أول هذه المنازلة ، فتلاقيا بالوَلَجَة ، واتفقا على أن يتسلم الطاغية البلد سَلماً لعشرين يوماً ، ينتقل أهلُه أثناؤها بأموالهم وأسبابهم . وحضرتُ ذلك كلَّه ، وتوليتُ العقد عن أبي جميل في ذلك . وابتُدِىء بضَعَفَة الناس ، وسُيِّروا في البحر الى نواحي دَانِيَة ، واتصل انتقال سائرهم براً وبحراً . وصبيحةَ يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر المذكور كان خروج أبي جميل بأهله من القصر في طائفة يسيرة أقامت معه ، وعند ذلك استولى عليها الروم ، أَحَانَهم الله . »[3]

عند احتلال الطاغية الأرَغُوني ومن معه بلنسية — بعد استسلامها — رحل عنها عشرات الآلاف من أهلها ، بلغت خمسين ألفاً . وتحوَّلت — للتو — مساجدها

(١) أعمال الأعلام ، ٢٧٣/٢ .

(٢) التكملة ، ٦٤٠/٢ ؛ اختصار القدح ، ٤٧ — ٤٨ .

(٣) الحلة السيراء ، ٢/ ١٢٧ . كذلك : الحلة ، ٣٠٣/٢ ؛ التكملة ، ١٢١/١ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ؛ أعمال الأعلام ، ٢٧٣/٢ .

كنائساً[1] . نال المسلمين كلُّ أنواع الاضطهاد وتقلّبوا في فنون الأذى ، تعدى الأحياء إلى الأموات في قبورهم فنبشت . ذكره ابن الأبّار في **التكملة** حين ترجم أبا عامر ابن شرويه محمد بن جعفر بن خيرة (٥٤٧ هـ) « من أهل بلنسية وصاحب الصلاة والخطبة بجامعها ...

« وكان شيخاً فاضلاً ، نزيهاً ، جميل الشارة ، ذا جهارة في خطبته ، ونباهة في بلده . واقتنى من الدواوين والدفاتر كثيراً ، وأسَنَّ وعُمِّر طويلاً وثقل حتى كان لايرقى المنبر للخطبة الاّ بمعين .

« . . . وتُوفِي سَحَر ليلةالاثنين سادس ذي القعدة سنة ٥٤٧هـ ودفن خارج باب بَيْطالّة ، وما زال قبره هنالك معروفاً يتبرك به إلى أن أستولى الروم ثانية على بلنسية في أواخر صفر سنة ٦٣٦ فطمسوه وسائر قبور المسلمين . »[2] هذا في حين كرّم الله تعالى الإنسان حيّاً وميتاً .

كل هذه التصرفات والأساليب مُغْرِبةٌ في الانحراف عريقةٌ في الهبوط بعيدة عن أية رفعة مجردة من أدنى فضيلة . إنها خاوية حتى من رائحة لصفة فيها خير مّا ، لامبادأة ، بل — على الأقل — رداً لما سبق المسلمون اليهم بالخير وعاملوهم بالحسنى وجلبوا لهم من نور الله القدير . لكن هذا الشنار والشناعات لهؤلاء وأمثالهم — البعيدين عن طاعة الله وشرعه — معروفة عنهم مألوفة منهم . فلا ينشدون حقاً ولايرعون كرامة ولايحفظون كلمة ولايحفلون بشيء . إنهم ﴿ لايَرْقُبونَ في مُؤمنٍ إلاًّ ولا ذِمَّةً وأولئك هم المُعْتَدون ﴾[3] هم يُجيدون تلك ويفتخرون بها ولا يعرفون غيرها أو يتفهمون ؛ وانّى يأتيهم منه شيء ؟ رأيناً — ونرى — من ذلك الكثير .

تلا ذلك سقوط عدد من المدن القريبة ، مثل : جزيرة شُقَر (Alcira)

---

(١) انظر : عصر المرابطين والموحدين ، ٢/٤٥٠ .

(٢) التكملة ، ٢/٤٧٨ — ٤٧٩ (رقم : ١٣١٦) . كذلك : الذيل والتكملة ، ٦/١٥٢ (رقم : ٣٩٦) ؛ أدناه ، ٥٧٦ .

(٣) الآية ١٠ من سورة التوبة .

أواخر سنة ٦٣٩ هـ[١] ، ودانيَة (Denia) في ذي الحجة سنة ٦٤١ هـ[٢] ، وجيَّان (Jaén) سنة ٦٤٣ هـ[٣] ، وشَاطِبَة (Játiva) صفر سنة ٦٤٤ هـ[٤] ، ومُرْسِيَة (Murcia) سنة ٦٦٤ هـ[٥] . لابن الأبَّار في **الحُلَّة السِّيَرَاء** نص مفيد ، حين الحديث عن يحيي بن أحمد بن عيسى الخزرجي حاكم شاطبة وابنه أبي بكر محمد ، فيقول :

« وصارت اليه دَانِيَة مدةً يسيرة ، إلى أن تغلب الرومُ عليها مُستهلَّ ذي الحجة سنة إحدى وأربعين . ثم تَملَّك الرومُ أيضاً شَاطِبَة ، في آخر صفر من سنة أربع وأربعين ، بعد مهادنة ومداراة لطاغيتهم البَرْشَلُوني ، من حين تغلبه على بَلَنْسِيَة في صفر أيضاً ، وفي يوم الثلاثاء السابع عشر منه سنة ست وثلاثين ، وكانوا قد شارطوا على سكانها بإتاوة معلومة .

« وفي وقتنا هذا وصل بعض الشاطبيين يُخبر أنه أجلاهم عنها مع أهل جهاتها — وهم ألوف من المسلمين — فتفرقوا في البلاد ، وأوى أبو بكر هذا في خاصته إلى حصن بمقربة منها ، وذلك في رمضان من سنة خمس وأربعين . »[٦]

إجلاء المسلمين عن مدنهم — بعد سقوطها — سياسة واضحة ، من قبل حكام اسبانيا النصرانية (الشمالية) الذين لايلتزمون بالعهد . الشواهد والأمثلة على ذلك كثيرة متضافرة . يذكر ابن الأبَّار في **التكملة** عن الشاعر البلنسي أبي اسحاق ابن خفاجه (٤٥١ — ٥٣٣ هـ) ، من أهل جزيرة شُقَر أنه « لم يزل قبره معروفاً بظاهر الجزيرة ومنزله بداخلها إلى أن ملكها الروم صُلْحاً ، وأخْلَوْا أهلها في آخر

---

(١) التكملة ، ١٤٤/١ ؛ نفح الطيب ، ٤٧٢/٤ .
(٢) الحلة السيراء ، ٣٠٣/٢ .
(٣) الاحاطة ، ٩٩/٢ . كذلك : الاحاطة ، ٣٨٣/١ ، ٥٥١ .
(٤) الحلة السيراء ، ٣٠٣/٢ .
(٥) الحلة السيراء ، ٦٣/١ ، ٣١٦/٢ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٤٦٣/٢ . قارن : العبر ، ابن خلدون ، ٣٦٥/٤ ؛ البيان المغرب (تطوان) ، ٤٣٨ ؛ التكملة ، ٦٥٢/٢ ، ٦٥٦ .
(٦) الحلة السيراء ، ٣٠٣/٢ . كذلك : التكملة ، ٩٤٢/٢ .

سنة تسع وثلاثين وستمائة . »[1] يذكر كذلك عن أبي جعفر أحمد بن محمد بن وهب البكري ، من أهل شاطبة ، أنه « خرج عند إجلاء الروم أهلَ بلده ونقض مهادنتهم في شهر رمضان سنة خمس وأربعين وستمئة فتوفّي على إثر ذلك بأُورْيُولَه ودُفن بها . »[2] ويقول ، حين الحديث عن أبي العلاء بن زُهْر ، أنه : « نشأ بشرق الأندلس وبقايا داره بجفن شَاطِبَة لم تزل معروفة به إلى أن تملكها الروم وأَجْلَوْا عنها المسلمين ، وذلك في رمضان سنة ٦٤٥ . »[3] مثل هذا جرى لدانِيَة وشرقي الأندلس من « إجلاء الروم مَن كان يساكنهم من المسلمين ببلاد الشرق التي تغلبوا عليها وذلك في شهر رمضان سنة خمس وأربعين وست مئة . »[4] آخرون كانوا يلقون التعذيب ، كما حدث لأبي جعفر أحمد بن أبي حجة الذي « سكن إشبيلية بعد خروجه من قرطبة ، وأَسَرَتْه الرومُ في البحر وامتحن بالتعذيب وتُوفّي على إثر ذلك بميورقة في سنة ثلاث وأربعين وست مئة . »[5]

يذكر ابن عذاري في البيان المُغْرِب أنه بعد استسلام مدينة مُرْسِيَة صُلْحاً لجَايْمِش ملك أَرْغُون سنة ٦٦٤ هـ ، دخلها بجيشه . لم يَرْعَوْا في المسلمين عهداً ولا أدنى حد لإنسانية . تركها أهلُها « وخرجوا منها بأمان إلى الرشاقة ، فسكنوا بها مدة من عشرة أعوام إلى أن كان من أمرهم ما كان حين أخرجوهم في سنة ثلاث وسبعين وغدروهم في الطريق أجمعين ، وذلك بموضع يعرف بوركال ، فسَبَوْا النساء والأطفال ، وقتلوا جميع الرجال ، وقد كانوا أخرجوهم بالأمان دون سلاح ، فتحكموا فيهم كيف شاءوا بالسيوف والرماح ، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم . »[6]

---

(١) التكملة ، ١٤٤/١ (رقم : ٣٧٣) . عنه انظر كذلك : المعجب ، ٥٨ ؛ المغرب ، ٣٦٧/٢ ؛ وفيات الأعيان ، ٥٦/١ .

(٢) التكملة ، ١٢٤/١ (رقم : ٣١٠) .

(٣) التكملة ، ٣٣٤/١ (رقم : ٩٠٧) . كذلك : الإحاطة ، ٣٨٣/١ ، ٥٥١ ؛ نفح الطيب ، ٤٧٢/٤ .

(٤) التكملة ، ٢٤٤/١ (رقم : ٦٤٣) .

(٥) التكملة ، ١٢٣/١ (رقم : ٣٠٧) .

(٦) البيان المغرب (تطوان) ، ٤٣٨/٣ .

أما إشْبِيلِيَة فسقطت بيد ملك قَشْتَالَة فِرَّانْدُهْ (هِرَّانْدُهْ بن الهُنْشَه[1]) (فرناندو الثالث ، Fernando III بن الفونسو التاسع) عام ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) . وذلك بعد أعمال حربية لعدة سنوات وحصار طويل استمر حوالي سنة ونصف ، ابتداء من شهر ربيع الأول سنة ٦٤٥ هـ حتى أول شعبان ، أو أواخر[2] ، سنة ٦٤٦ هـ . اضطرت المدينة بعدها للتسليم بالشروط ، كان منها رحيل أهلها المسلمين عنها .

يذكر ابن الأبَّار في **التكملة** ، وهو يتحدث عن أحد العلماء ، أنه « تُوفِّيَ في حصار الروم إشبيلية : في صدر سنة ٦٤٦ – وفي يوم الاثنين الخامس من شعبان منها ، ملكها الطاغيةُ (صاحب قشتالة) صُلْحاً ، بعد مُنازلتها حولاً كاملاً وخمسةَ أشهر أو نحوَها – وقيل: (توفّي في ذي القعدة سنة خمس وأربعين) . وفي ربيع الأول منها ، ابتدأ الرومُ الحصار . »[3]

تجرّع أهلُ إشْبِيلِيَة كثيراً من الأذى ونالهم الأسى . أشد منه وأدمى رحيلُهم عنها وقلوبهم حَزْنَى ، يجللّهم النَّكَدُ ويفريهم فراقُ البلد . غادرها مِن أهلها ما يقدر بأربع مئة ألف[4] . قصدوا مدنَ الأندلس أو العُدْوَة الأخرى . ذلك في رمضان من نفس العام . كان ذاك لهم أيَّ عيد ، خسروا فيه الحاضر والتليد . يصف ابنُ عِذارِي ذلك وهو يشرح أحداث عام ٦٤٦ هـ ، حيث « جرَّعوا أهلَها كأسَ الحِمام ، من كثرة المجاعة وعدم الطعام ، فكل منهم في بحر المنايا غاص وعام ، مما حل بهم من الأوجال والآلام ، . . . ، فسلَّموا لهم في المدينة وخرج منها الخاص من أهلها والعام ، وكان ذلك في يوم سبع وعشرين من شهر رمضان المعظم من هذا العام »[5].

---

(١) الإحاطة ، ٣٨٣/١ ، ٥٥١ . كذلك : أعمال الأعلام ، ٣٣٢/٢ ؛ أعلاه ، ٤٧٢ .
(٢) الذيل والتكملة ، ٢٠٥/١/٥ .
(٣) التكملة ، ٩٠٣/٢ (رقم : ٢١٢١) . كذلك الروض المعطار ، ٢٢؛ التكملة ، ١٢٤/١ (رقم : ٣١١) ، ٩٠٨/٢ (رقم : ٢١٢٥) ؛ نفح الطيب ، ٤٧٢/٤ – ٤٧٣ ؛ البيان المغرب (تطوان) ، ٣٨٥ .
(٤) عصر المرابطين والموحدين ، ٤٨٦/٢ .
(٥) البيان المغرب (تطوان) ، ٣٨٥ .

ذهبت إشْبِيليَة ، تلك المدينةُ ذات التاريخ المجيد والفن والعمران وموطنُ العلماء والشجعان ، صاحبةُ الشرف الكريم بظلال زيتونه الملفوف[1] ؛ عروساً في حُلَّتها أسيرة لُطِّخَت بالدماء ، تَنْدُبُ حاميها الطعين ، وتَزْفُرُ من آلامها وهي أرملة وَلُود .

هكذا سَقط بيد ملوك اسبانيا الشمالية ومَن ساعدهم من الصليبيين عددٌ من قواعد الأندلس[2] ، في هذه المدة التي عاصرت نِهاية الدولة الموحدية .

استطاع المسلمون في الأندلس المحافظة على بعض المناطق في جنوبي الجزيرة الأندلسية . حيث قامت مملكة غرناطة ، التي سيأتي الحديث عنها قريباً ، وبالامكان تسميتها الأندلس الصغرى (الصغيرة) ، بعد انهيار الأندلس الكبرى (الكبيرة) .

ثانيًا : توحيد الأندلس وأهمّ الأحداث

بدا الضعف على الأندلس في ردّ عدوان اسبانيا الشمالية أواخر أيام المرابطين . كان من نتيجة ذلك أن ذهبت وفود أندلسية تدعو الموحدين لنجدة الأندلس وردّ العدوان عنها . ثم لما استقر أمر الموحدين في الشمال الإفريقي بدأوا جهودهم لحماية الأندلس والحفاظ عليها ، من الأخطار التي تهددّها . أنفقوا – لأجل ذلك ، خلال مدة – الكثير من الجهود . استطاعوا القضاء على محاولاتٍ شخصيَّة ضدّ وحدة الأندلس ، تعاونت مع عدوها ؛ وعلى بقايا الدولة المرابطية ؛ وكذلك على هجومات اسبانيا الشمالية . بعد ذلك استطاعوا توحيد الأندلس وجعلها جناح الدولة الموحدية الغربي . بذلوا لذلك الجهود والتضحيات التي سبق سردها .

أهم الأحداث في الأندلس – أيام الموحدين – القضاء على نشاط بعض الشخصيات التي قامت تدعو لنفسها ، بأسلوب ملتوٍ ، واستعانت أواتفقت مع قوات اسبانيا الشمالية ، من أمثال عصيان ابن مَرْدَنيش . ثم ردّوا العدوانات الشمالية والانتهاء

---

(١) انظر : نصوص عن الأندلس ، ٩٥ ؛ نفح الطيب ، ١/١٥٨ ؛ الروض المعطار ، ١٩ ، ١٠١ .
(٢) انظر : العبر ، ابن خلدون ، ٤/٣٦٨ .

بتوحيد الأندلس وخلوصها لطاعة الموحدين .

ويمكن اعتبار إخضاع الموحدين للجزائر الشرقية سنة **٥٩٩ هـ** (١٢٠٣ م) وإنهاء حكم بني غانية فيها من الأحداث التي تسجل في عهد الموحدين في الأندلس ، على اعتبار أن الجزائر الشرقية كانت تابعة للأندلس[١] .

لاشك أن هناك أحداثاً تتعلق بالمسائل الإدارية : مناشط عمرانية أو حضارية أخرى . لكن يقصد هنا بصورة رئيسية : الأحداث العسكرية التي يُكتفى بذكر أشهرها .

١ – وَقْعَةُ الأَرَك

حدثت سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥ م) بين الجيش الإسلامي – من الموحدين والأندلسيين – وبين جيش قَشْتَالَة بقيادة ملكها الفُونْش (الثامن) . أقام الفونش في محلة الأرَك حصناً (حصن الأرَك) . يقع على بعد حوالي عشرين كيلو متراً الى الغرب من قَلعة رَباح ، على أحد فروع نهر وادي آنه (**Guadiana**) . تقوم الأرَك (Alarcos) – وتشغل حالياً محلةً تسمى (**Sta. Maria de Alarcos**) – غرب المدينة الاسبانية الحديثة (Ciudad Real) : المدينة الملكية[٢] . يقع حصن الأرك الى شرق السهل الذي جرت فيه الزلاَّقة (٤٧٩ هـ) .

عُقدت هدنة سنة ٥٨٦ هـ مع الفونش (الثامن) ملك قشتالة لخمس سنين[٣] . حتى إذا ما انتهى أجلها (سنة ٥٩٠ هـ) أرسل لتجديدها ، وهو يضمر كيداً لمهاجمة الأندلس ، أو معه أنذر ثغور الأندلس بذلك ، وبدأ هجوماته وعيثه فيها ، على اختلاف في الرواية[٤] . لما « انصرمت مدة صلح ملك قشتالة فبعث المذكور اللعين الى جميع ثغور المسلمين المجاورة له لينذرهم ويحذرهم ، وقد كان وجَّه رسله الى عقد المهادنة وأظهر بعده المكيدة فأعقبه الله سوء غدره وأحاق به وبال مكره »[٥] .

---

(١) راجع : المعجب ، ٣٥٢ ، ٣٩٤ – ٣٩٥ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ١٥٨/٢ وبعدها .

(٢) عصر المرابطين والموحدين ، ٢٠٠/٢ .

(٣) انظر : أعلاه ، ٤٦٣ – ٤٦٤ .

(٤) البيان المغرب (تطوان) ، ١٩١ – ١٩٢ ؛ المعجب ، ٣٥٨ .

(٥) البيان المغرب (تطوان) ، ١٩١ – ١٩٢ .

يقول المقري في **نفح الطيِّب** عن ذلك ــ حين الحديث عن أبي يوسف يعقوب المنصور ــ : « ولما انقضت مدة الهدنة ، ولم يبق منها إلا القليل ، خرج طائفة من من الإفرَنْج في جيش كثيف الى بلاد المسلمين فنهبوا وسعَوا وعاثوا عَيْثاً فظيعاً ، فانتهى الخبر اليه ، فتجهز لقصدهم في جيوش مُوَفَّرة وعساكر مُكَتَّبَة ، واحتفل في ذلك ، وجاز إلى الأندلس سنة ٥٩١ ، فعلم به الإفرنج ، فجمعوا جمعاً كثيراً من أقاصي بلادهم وأدانيها ، وأقبلوا نحوه »[١] .

يقول ابن عبد المنعم الحِمْيَري في **الروض المعطار** إنه لما « بلغ المنصورَ يعقوب أن صاحب قَشْتَالَة شَنّ الغارات على بلاد المسلمين بالأندلس شرقاً وغرباً في يوم واحد ، وعَمّ ذلك جهة إشْبِيلِيَة ونواحيها ، فامتعض من ذلك ثم تحرك من حضرته مَرَّاكُش الى الأندلس واستقرّ بإشبيلية »[٢] .

توالت أخبار الأندلس بذلك ، على الخليفة الموحدي أبي يوسف يعقوب المنصور. وجَّه جيشاً ، جَهَّزه لأغراض أُخرى ، إلى الأندلس . قاد هذا الجيش بنفسه وعبر به إلى الأندلس (للمرة الثانية) . كان عبور الخليفة الى طريف يوم الخميس عشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٩١ هـ . توجه الجيش إلى إشبيلية العاصمة حيث أنفق أسبوعين في وضع الخطط المحكمة ، ثم رحل الى قرطبة ومنها صوب قلعة رَبَاح.

تَجَهَّز الفُونْش (الثامن) ملكُ قَشْتَالَة للقاء الجيش الإسلامي ، منذ سمع بعبور الموحدين . طلب العون مِن ملكيْ ليون ونَبَارَّة . سار مسرعاً ونزل في الأرَك، نقطة الحدود بين قَشْتَالَة والأندلس . نزل الخليفة الموحدي قريباً من المعسكر القَشْتَالِي .

مرّت عدة أيام لم يقع فيها اشتباك ، غير مناوشات خفيفة ألحقت بالجيش القَشتالي خسائر . أنفق المنصور أياماً يستشير أصحاب الرأي ويعقد معهم المجالس . أشار أبو عبد الله بن صناديد ــ كبير قادة الأندلس ــ على الخليفة برأيه في الأمر . وهو أن تبدأ معظم الجيوش الأندلسية ومن جاء مع الموحدين بالاشتباك ، ويبقى الخليفة في

---

(١) نفح الطيب ، ٣٨١/٤ .

(٢) الروض المعطار ، ١٢ ــ ١٣ .

جيش من الموحدين في موضع مستور . إن كان النصر للمسلمين فذاك ، والاّ فيبادر الخليفة بقواته للقاء العدو ، وليحمي ظهور المسلمين ، ويكون العدو قد خبت قوته . فأُعجب الخليفةُ برأيه وقرّر الأخذ به[1] .

كانت جموع القَشتاليين كبيرة ، اختلفت الروايات في تقديرها . يذكر ابن عَمِيرَة الضَّبِّي في كتابه **بُغْيَة المُلْتَمِس** أن جيش الفونش (الثامن) كان « يَنيف على خمسة وعشرين ألف فارس ومئتي ألف راجل ، وكان معَه جماعات من تجار اليهود قد وصلوا لاشتراء أسرى المسلمين وأسلابهم وأعدوا أموالاً ، فهزمهم الله تعالى »[2]. ويذكر عبد الواحد المَرّاكُشي ذلك في كتابه **المُعْجِب**، فيقول : « وكان الأدْفُنْش قد جمع جموعاً لم يجتمع له مثلها قط ؛ فلما تراءَى الجمعان اشتد خوف الموحدين وساءت ظنونهم لِمَا رأوا من كثرة عدوهم ؛ وأمير المؤمنين في ذلك كله لا مُسْتَنَدَ له الاّ الدعاءُ والاستعانة بكل من يظن عنده خيراً من الصالحين . »[3]

نُظِّمت الجيوشُ التنظيمَ المناسب ، وكانت القيادة العامة لأبي يحيى بن أبي محمد بن أبي حفص ، والخليفة مع جنده في المؤخرة — حسب الخُطة — يقف للحظة الحاسمة . يذكر ابن عِذاري في **البيان المُغْرِب** أنه حين كمل الحشد خاطب القائد العام الجند وأبلغهم بقول الخليفة المنصور : « يقول لكم أميرالمؤمنين اغفروا له — فإن هذا موضع غفران — وتغافروا فيما بينكم ، وطيّبوا نفوسكم وأخلصوا لله نياتكم . فبكى الناس وأعظموا ماسمعوه من سلطانهم وما جرى اليه من حسن معاملتهم »[4] . ثم قام الخطيب وحرّض على « الجهاد وفضله والتنبيه على مكانه وقدره ، ومدّ القول في ذلك بما وسعه من بيانه ،وانفصل الناس وقد تنورت بصائرهم وخلصت لله ضمائرهم وسرائرهم ، وقويت أنفسهم واعتزامهم وتضاعفت نجدتهم وإقدامهم »[5] .

---

(١) راجع : عصر المرابطين والموحدين ، ٢/٢٠٠ .

(٢) بغية الملتمس ، ٤٥ – ٤٦ . (٣) المعجب ، ٣٥٨ – ٣٥٩ .

(٤) البيان المغرب (تطوان) ، ١٩٤ .

(٥) نفس المصدر .

كانت محلة الجيش الإسلامي في سهل الأرَك في حين كان الجيش القَشتالي على المرتفع المشرف عليه ، قرب الحصن . وفي يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة **٥٩١** هـ[١] (١٨ تموز = يوليو **١١٩٥** م) بدأت المعركة الحاسمة . « وخلاصة الأمر : أن المنصور توجَّه بعد ذلك الى لقاء النصارى ، وتزاحف الفريقان ، فكان المَصافُّ شمال قُرطبة ، قرب قلعة رَباح ، في يوم الخميس تاسع شعبان سنة **٥٩١** هـ ، فكانت بينهم وقعة عظيمة استُشهد فيها جمع كبير من المسلمين . »[٢]

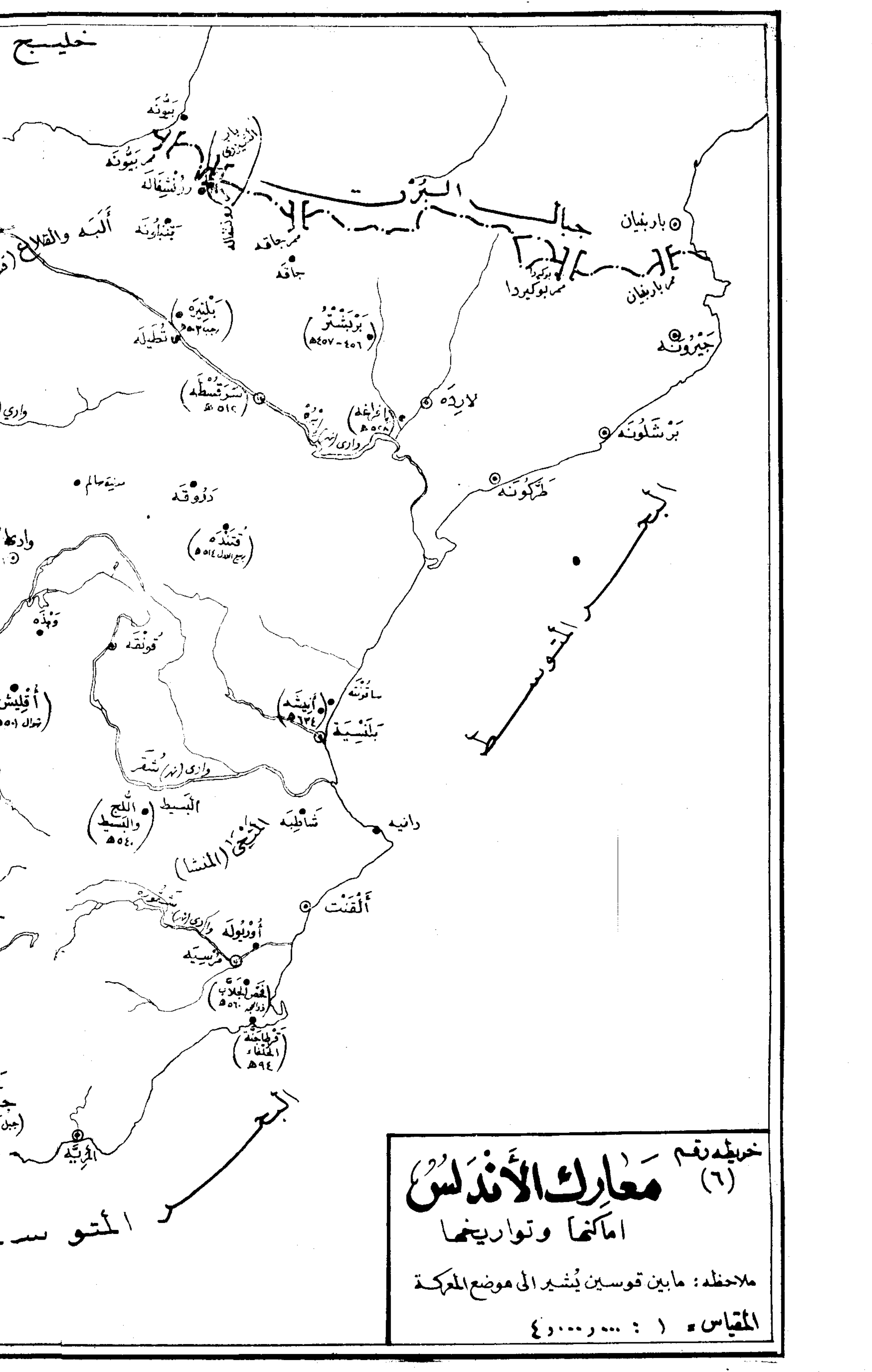
رأى القَشتاليون الجيشَ الإسلامي يزحف نحوهم ببطىء « فهبطوا من مركزهم كالليل الدامس والبحر الزاحز ، أسراباً تتلو أسراباً ، وأمواجاً تعقب أمواجاً ، ليس إلا الصهيل والضجيج والحديد على وقع العجيج ، فدفعوا حتى انتهوا الى الأعلام ، فتوقفت كالجبال الراسيات ، فمالوا على الميسرة فتزحزح قوم من المُطَّوِّعة ، وأخلاط من السوقة والرجرجة ، فصعد غبارها إلى الجو ، فقال المنصور لخاصته ومَن طاف به : جدّدوا نياتكم وأحضروا قلوبكم ، ثم تحرك وحده وترك ساقته على حالها ، وسار منفرداً مِن خاصته مقدماً بشهامته ونجدته ، ومرّ على الصفوف والقبائل وألقى اليهم بنفسه كلاماً وجيزاً في الهجوم على عدوهم والنفوذ اليه وعاد الى موضعه وساقته . »[٣]

التحم الطرفان في قتال عنيف وكثر القتل في مقدمة القَشتاليين التي أصيبت . ثم التحمت بقية الجيوش واضطر الجيش القَشتالي إلى التقهقر والفرار ، كما فرّ ملك قَشتالة صوب طُلَيْطُلَة . **استمرت المعركة يوماً واحداً** . غنم المسلمون مغانم كبيرة وافتتحوا حصن الأرَك . كان هذا النصر عظيماً ، أحرزه المسلمون بقيادة الموحدين ، وبذلك كبت ملك قشتالة ونجت الأندلس من اعتداءاته لحين . يسَمِّي بعض

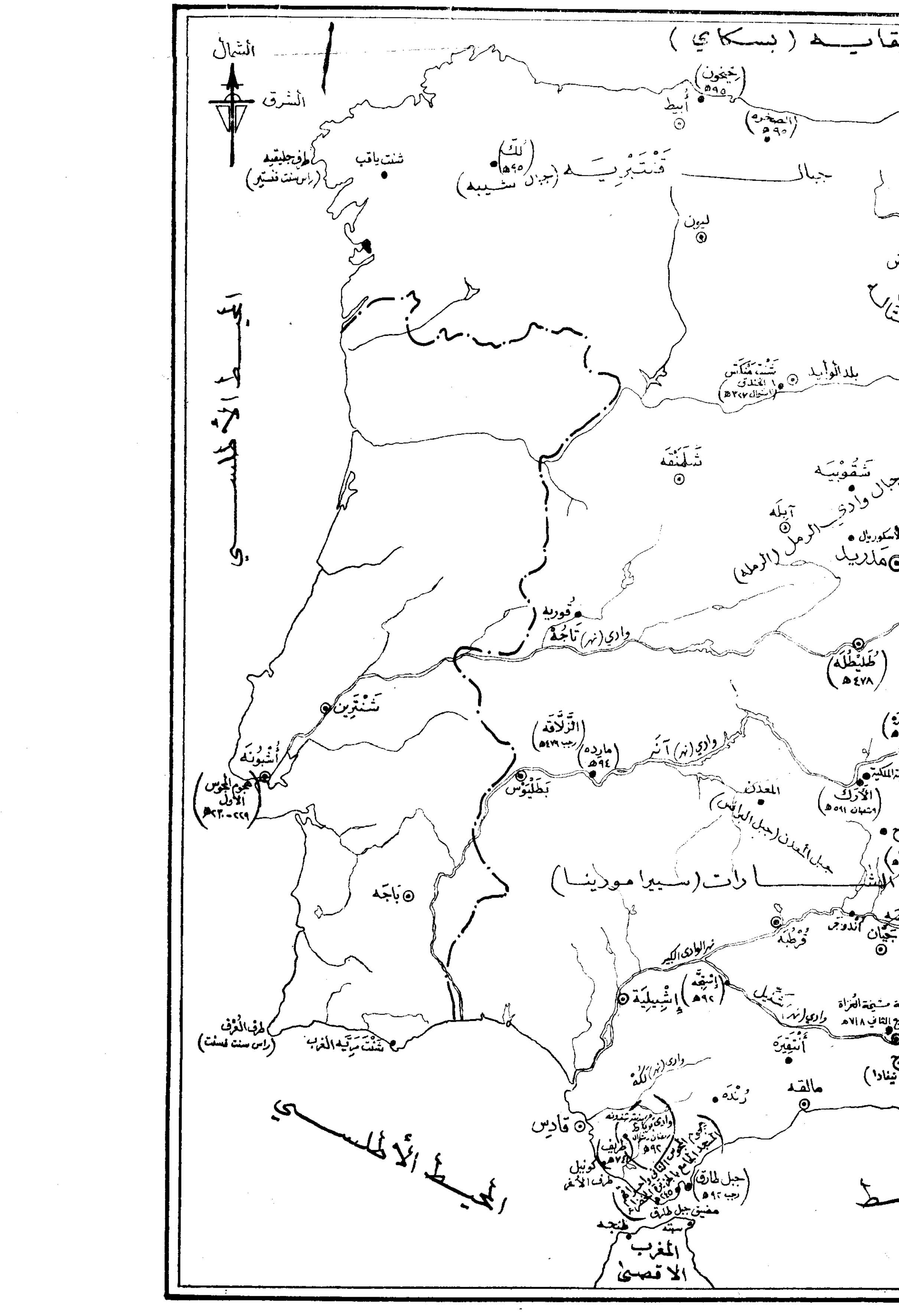
(١) التكملة ، ٢/٥٥٠ (رقم : ١٤٨٩) . كذلك : بغية الملتمس ، ٤٥ ؛ التكملة ، ٢/٥٥١ (رقم : ١٤٩١) . قارن : المعجب ، ٣٥٩ .

(٢) نفح الطيب ، ٤/٣٨٢ .

(٣) البيان المغرب (تطوان) ، ١٩٤ – ١٩٥ . راجع أيضاً النقول من « البيان المغرب » و « رفع الحجب المستورة » ، التي نشرها أمبروسيو ويثي ميراند في : صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ٢/٤٤ – ٤٥ ، ٥٨ – ٥٩ (القسم الفرنجي) .



خريطة رقم (٦)
معارك الأندلس
اماكنها وتواريخها
ملاحظة: ما بين قوسين يُشير الى موضع المعركة
المقياس = ١ : ٤٠٠٠٠٠٠
خليج
بيونه
ممر بيونه
رونسفاله
ألبه والقلاع
بنبلونه
جبال البرت
ممر جاقة
جاقة
باربنيان
ممر باربنيان
ممر بوكيردا
جيرونه
بلتيرة رجب ٥٠٣هـ
تطيلة
بربشتر ٤٥٦ - ٤٥٧هـ
سرقسطة ٥١٢هـ
لاردة
إفراغة ٥٢٨هـ
برشلونة
طركونة
مدينة سالم
دروقة
قتندة ربيع الاول ٥١٤هـ
وبذة
قونقة
أقليش شوال ٥٠١هـ
ساقونته
أنيشة ٦٣٤هـ
بلنسية
وادي (نهر) شقر
البسيط
اللج والبسيط ٥٤٠هـ
شاطبة
دانية
ألقنت
أوريولة
مرسية
قصر الجلاب ذو الحجة ٥٦٠هـ
قرطاجنة الحلفاء ٩٤هـ
المرية



(بسكاي)
الشمال
الشرق
خيخون ٩٥هـ
أبيط
الصخرة ٩٠هـ
لك ٩٥هـ
شنت ياقب
طرف جليقية
(راس سنت فنستير)
جبال قنتبرية (جبال شيبه)
ليون
بلد الوليد
شنت منكاس
الخندق
شلمنقه
شقوبيه
جبال وادي الرمل
آبله
الاسكوريال
مدريد
(الرمله)
قورية
وادي (نهر) تاجة
طليطلة ٤٧٨هـ
شنترين
الزلاقة رجب ٤٧٩هـ
ماردة ٩٤هـ
وادي (نهر) آنة
أشبونة
هجوم المجوس الأول ٢٢٩-٢٣٠هـ
بطليوس
المعدن
الأرك شعبان ٥٩١هـ
الشارات (سيرا مورينا)
باجه
قرطبة
أندوجر
جيان
نهر الوادي الكبير
إشبيلية
إستجة ٩٢هـ
شنيل
أنتقيرة
طرف الغرف
(راس سنت فنست)
شنت مرية الغرب
رنده
مالقة
قادس
طريف
كونيل
طرف الأغر
جبل طارق رجب ٩٢هـ
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة
المغرب الأقصى
المحيط الأطلسي
المحيط الأطلسي

المؤرخين هذه المعركة أيضاً « الأرَكة »[1] .

تذكرنا موقعة **الأرَك** (٥٩١ هـ) بأختها **الزّلاّقة** (٤٧٩ هـ)[2] أيام المرابطين . هي وإياها من أيام الإسلام المشهودة . بل إن ذكر الأرَك أربى على الزّلاّقة ، وإن كان كلاهما مما اعتزّ به الإسلام وعلت كلمته . لكن الزّلاّقة كانت « مقسومة الثقل مكدّرة الصفو ، وجاءت هذه الوقعة هنيئة الموقع عامّة المسرّة » كما يصفه ابن عِذَاري في **بيانه** حين المقارنة بين الزّلاّقة والأرَك[3] .

عاد المنصور إلى إشْبِيليَة لينظم أمور البلاد ويشرف على تنفيذ التعمير والاصلاح . أصلح مسجدها وأتمّ بناء صومعته (مئذنة) التي عرفت — فيما بعد بالجيرالدا (La Giralda) ، وسيأتي الحديث عن المسجد ومئذنته في موضوع « **السمات العامة** » . عاد الخليفة المُوحِّدي — في ربيع السنة التالية — ليتجهّز لاستئناف حركة الجهاد .

٢ — وَقْعَةُ العِقاب

بعد هزيمة الأرَك ، التي لحقت بجيوش قشتالة وملكها ، أخذ يعد العدة للانتقام . عقدت — بعدالأرك — هدنة بين الطرفين منذ ٥٩٤ هـ[4] (١١٩٨ م) ، والمدة عشر سنوات[5] أو أكثر[6] ، أيام الخليفة المنصور وقبل مغادرته إشْبِيليَة إلى مَرّاكش .

---

(١) الذيل والتكملة ، ١٩٨/٦ (رقم : ٥٦٩) ؛ بغية الملتمس ، ٤٥ .

(٢) أعلاه ، ٤٠٣ .

(٣) البيان المغرب (تطوان) ، ١٩٦ . كذلك : المعجب ، ٣٥٩ . تجد شرحاً وتفصيلا ت مفيدة — عن المقارنة — في : عصر المرابطين والموحدين ، ٢١١/٢ — ٢١٤ .

(٤) البيان المغرب (تطوان) ، ٢٠٢ — ٢٠٤ ؛ نفح الطيب ، ٣٨٢/٤ ؛ نص من « رفع الحجب المستورة » في : صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ٥٩/٢ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٢١٧/٢ ، ٢٣٤ ، ٢٨٧ . كذلك : *Manual de historia de Espana,* I, 643.

(٥) المعجب ، ٣٦٠ . كذلك : صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، بحث بالاسبانية عن الأرك : « La Campaña de Alarcos », Huici Miranda, II, 39-40 .

(٦) انظر : البيان المغرب (تطوان) ، ٢٣٨ ؛ عصر المرابطين ، ٢٣٤/٢ ، ٢٨٨ .

توفي الخليفة في مدينة مَراكش ليلة الجمعة ١٢ ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ[١] (١١٩٩ م) . خلَفه ابنه محمد الناصر لدين الله الذي كانت سنه دون العشرين .

بدأ الفونش (الثامن) سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) – قبل انتهاء أجل الهدنة[٢] – مهاجمة الأراضي الأندلسية[٣] . عاونه في ذلك بُطْرُهْ (الثاني) (Pedro II) ملك أرْغُون ، دون الالتفات إلى الاحتجاج على خرقها . توجّه أهل الأندلس إلى الناصر بالاستغاثة فتأهب لذلك . كتب إلى الجهات في المغرب والأندلس يأمرهم بالتأهب . تَمّ العبور إلى الأندلس في ذي حجة سنة ٦٠٧ هـ (١٢١١ م) . مشى نحو إشْبِيليَة فقُرطُبَة ، متجهاً صوب قلعة شَلْبَطَرَّة (Salvatierra)[٤] ، جنوب قلعة رَبَاح (Calatrava la Vieja) . اقتحمها أوائل سنة ٦٠٨ هـ . عاد الناصر إلى إشبيلية حيث حلّ فصل الشتاء المطير ، وللاستعداد من جديد .

مضى الفونش (الثامن) ، مبكراً ، يَستعد ما أمكنه . ليس بنفسه فقط بل ببقية ملوك اسبانيا النصرانية وعدد من أقطار أوربا وكذلك بالبابوية[٥] . كان البابا – لهذا الوقت – أنوصان الثالث (Innocent, Inocencio III) الذي يتمتع بروح صليبية عالية[٦] . بعث هذا البابا الى الأساقفة في جنوبي فرنسا « بأن يعظوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة ، وأنه أي البابا يمنح كل من لبّى هذه الدعوة الغفران التام . »[٧] !؟!

ذكرت عدد من مصادرنا هذا الأمر . فيقول الحِمْيَري صاحب **الروض المِعْطار** أن : « الأذْفُونْش بن شَانْجُهْ لم يقدر في ذلك الوقت على شيء حتى

---

(١) البيان المغرب (تطوان) ، ٢١١ .
(٢) عصر المرابطين والموحدين ، ٢/٢٨٣ – ٢٨٤ ، ٥٩٠ – ٥٩١ .
(٣) البيان المغرب (تطوان) ، ٢٣٥ . هذا هو ديدنهم . انظر : نفح الطيب ، ٤/٣٨١ .
(٤) انظر ، عن هذه القلعة (الحصن) : الروض ، ١٠٨ ، ١٣٧ . ترسم كذلك : شلبترة . المعجب ، ٣٩٩ .
(٥) *Manual de historia de Espana*, I, 644.
(٦) انظر : أعلاه ، ٤٦٤ .
(٧) عصر المرابطين والموحدين ، ٢/٢٨٩ .

استغاث بأهل ملته ، وكاتب من قَرُب وبَعُدَ منهم ، وشكا اليهم مادهاه من المسلمين ، وحَثَّهم على حماية دينهم ونصر ملتهم ، فاستجابوا له وجاؤوه من كل جهة وانثالوا عليه ، فكان من وقيعَة العِقاب على الملك النّاصر في عام ٦٠٩ مـا هو مذكور في مَوضعه . »[١] حتى إنَّ مَلِكَ نَبارَّةَ شَانْجُهْ (شانجُو السابع ، الملقب عندهم بالقوي) ، الذي كان قد ارتبط مع الموحدين في حلف وصداقة ، هدده البابا إذا لم ينقضه ويعاون ملك قشتالة ، ففعل .كان التجمع لهذا اللقاء واسعاً وضخماً .

يذكر عبد الواحد المرَّاكُشي في **المُعْجِب في تلخيص أخبار المَغْرِب** أن افتتاح قلعَة شَلْبَطَرَّة قد روع أهلَ قَشتالة ومَلِكَهم « وخامَرهُم الرعْب ؛ وخرج الأدْفُنْش ــ لعنه الله ــ إلى قاصية بلاد الروم مستنفراً من أجابه من عظماء الروم وفرسانهم وذوي النجدة منهم . فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن ألمان حتى بلغ نفيرُه إلى القسطنطينية ، وجاء معه صاحب بلاد أرْغُن المعروف بالبَرْشَنُوني لعنه الله . »[٢]

كذلك جاء الخبر عن هذه الأمور في كتاب الناصر الذي بعثه إلى مراكش وغيرها ، يعتذر عن الهزيمة في هذا اللقاء شارحاً أسبابها . نجدها في كتاب **البيان المُغْرِب** لابن عِذاري . يذكر أن ملك قَشتالَة « بث القسيسين والرهبان من برتقال إلى القسطنطينة العظمى ينادون في البلاد من البحر الرومي إلى البحر الأخضر غَوْثاً غَوْثاً ورُحْمَى رُحْمَى ، فجاءه عُبَّاد الصليب من كل فج عميق ومكان سحيق ، وأقبلوا إليه إقبال الليل والنهار من رؤوس الجبال وأسياف البحار ، وكان أولهم سبقاً الإفْرَنْج المتوغلون في الشرق والشمال . ثم تابعهم البَرْجَلُوني بما عنده من العدد والرجال . وكان صاحب نَبَرَّة متعلقاً من الموحدين بذمام ، ومنقاداً اليهم أبداً في أسمح زمام ، فسخط عليه صاحب رُومة أن لم يكن لقومه معسكراً ولسواد أهل ملته مكثراً ، فلحق بتلك الجموع »[٣] .

---

(١) الروض المعطار ، ١٠٩ . كذلك : الروض ، ١٣٧ .
(٢) المعجب ، ٣٩٩ . (٣) البيان المغرب (تطوان) ، ٢٤١ .

وصل تقدير بعض الروايات لهذه الجيوش الوافدة من أوربا بحوالي مئة ألف مقاتل بين فارس وراجل[1] . خرجت الجيوش بكليتها من طُلَيْطُلَة نحو الجنوب بهذا الطابع الصليبي للقاء الجيش الإسلامي ، الذي يبلغ عدده حوالي متي ألف مقاتل ، وفي ذلك اختلاف . « وخرج الأدْفُنْش – لعنه اللهُ – من مدينة طُلَيْطُلَة في جموع ضخمة ، حتّى نزل على قلعة رَبَاح – وهي كانت للمسلمين ، افتتحها المنصور أبو يوسف في الوقعة الكبرى – فَسَلَّمها اليه المسلمون الذين بها بعد أن أمَّنهم على أنفسهم ؛ فرجع عن الأدْفُنْش – لعنه الله – بهذا السبب من الروم جموعٌ كثيرة ، حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة ، وقالوا إنما جئتَ بنا لتفتتح بنا البلاد ، وتَمْنَعُنا من قتل المسلمين ؟ ما لنا في صحبتك من حاجة على هذا الوجه . »[2]

تم هذا اللقاء ، الذي كانت له نتائجه بمستقبل الأندلس والدولة الموحدية كذلك ، يوم الاثنين الخامس عشر (أو الرابع عشر) من صفر سنة ٦٠٩ هـ[3] (١٦ تموز = يوليو ١٢١٢ م) في سهل يقع جنوب غرب حصن العِقاب[4] الذي عرفت المعركة باسمه : وقعة العِقاب (Batalla de las Navas de Tolosa) . كان الخليفة الناصر يرى النصر حليفه لِما يشهد من التفوق العددي لجيشه (!؟) . انتهى اللقاء – بعد قتال شديد من قبل الطرفين – بهزيمة المسلمين الذين كثر فيهم القتل . كانت الخسارة فيها عظيمة ، ولها نتائج كبيرة ، مرت الإشارة إليها[5] .

لكن المَرّاكُشي صاحب المُعْجِب يقول : « فعبأ الأدْفُنْش جيوشه ورتب

---

(١) عصر المرابطين والموحدين ، ٢٩٤/٢ .

(٢) المعجب ، ٤٠١ .

(٣) الحلة ، ٢٧٣/٢ ؛ التكملة ١٠٢/١ ، ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٦٢٤/٢ ؛ الروض ، ١٣٧ ؛ المغرب، ٧٣/٢ ؛ النفح ، ٣٨٣/٤ ؛ الاحاطة ، ٣٨٣/١ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٣١٣/٢ ؛ *Manual de historia de Espana*, I, 645.

قارن : البيان المغرب (تطوان) ، ٢٤٠ – ٢٤١ .

(٤) عِقاب : جمع عَقَبة ، وهو المرتقى الجبلي .

(٥) أعلاه ، ٤٦٤ .

أصحابَه ودَهَم المسلمين وهم على غَيَر أُهْبَة ، فانهزموا ، وقُتِل من المَوحدين خلق كثير . »(1) لعل أُموراً كثيرة انتفع بها ملك قشتالة ، ومن عاونه من أهل ملته ، وقد اتبع لذلك كلَّ وسيلة حتى الغدر والاحتيال ، وتلك أمور يأنف منها الخلق الإسلامي . بجانب نقاط ضعف كانت تَفُتُّ عضد الجيش الموحدي . يذكر صاحب **الروض المِعْطار** بعض أسباب هذه الهزيمة ثم يقول : « ومخادعة النصارى لباقي الأجناد باشتهار الصلح والعمل على ضده ، حتى خالطوهم على غفلة فأخذ المسلمون في فرار ماسُمع بمثله »(2) .

كانت وقيعة العِقاب من أشنع الهزائم التي لحقت المسلمين بالأندلس ، إن لم تكن عديمة النظير لديهم . خسروا فيها الكثير ، وما خسروه بعد المعركة كان أكبر . لكن يبدو أن الخسارة التي ترتبت على الهزيمة في هذه الوقعة شاركت فيها عوامل أخرى . وقتل في هذه المعركة خلق كثير ، كان منهم عدد وافر من الأعيان وأكابر العلماء . وممن استُشهد فيها :

* أبو عمر أحمد بن هارون بن عات النَفْزي (٥٤٢ ـــ ٦٠٩ هـ) . من أهل شَاطِبَة ، صاحب التآليف الذي « كان أحد الحفاظ للحديث ، يسرد المتون والأسانيد ظاهراً ، لايخل بحفظ شيء منها . موصوفاً بالدراية والرواية ، غالباً عليه الورع والزهد ، على منهاج السلف ، يأكل الجَشِب ، ويلبس الخشن ، وربما أذَّن في المساجد ، وله تآليف دالة على سعة حفظه ، مع النظم والنثر .

« . . . ثم توجَّه إثر ذلك غازياً وشَهِد وقيعةَ العِقاب التي أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها . وكانت السبب الأقوى في تَحَيُّف الروم بلادَها حتى استولت عليها ، ففُقِد حينئذ ولم يوجد حياً ولاميتاً . وذلك يوم الاثنين منتصف صفر سنة تسع وستمائة . »(3)

(1) المعجب ، ٤٠١ .

(2) الروض المعطار ، ١٣٨ .

(3) التكملة ، ١/١٠١ – ١٠٢ (رقم : ٢٦٢) . كذلك : الذيل والتكملة ، ١/٢/٥٦٢ (رقم : ٨٥٨) ؛ نفح الطيب ، ٢/٦٠٢ .

* القاضي الفقيه أبو إبراهيم إسحاق بن يعمر المجابري . من سكان فاس الذي تولى قضاء سبتة ثم بلنسية « فُقِدَ في كائنة العِقاب يوم الاثنين الرابع عشر لصفر سنة تسع وست مئة . »[(١)]

* أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفِهْري . من أهل سبتة ، الذي « استوسع في الرواية . وكان معروفاً بالزهد ، . . . ، واستُشهد في كائنة العِقاب »[(٢)] .

* أبو محمد تاشُفين بن محمد المكتب . من أهل فاس « كان زاهداً ، عابداً ، معلماً بالقرآن له حظ من قرض الشعر ، ودخل الأندلس غازياً وقدم قرطبة في ذي الحجة سنة ثمان وست مئة ، فأقام هنالك أياماً يَلْقَى الزاهدين ، ويتكرر على قبور الصالحين ، ثم خرج إلى غزوة العِقاب . ذكره ابن الطيلسان وقال : أراه استُشهد بها فإنه انقطع عني خبره . »[(٣)]

* أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي ، من أهل اليُسَّانة عمل قرطبة ، « وليَ قضاء موضعه مدة طويلة ، مضافاً ذلك إلى الصلاة والخطبة بجامعه . وله تأليف في رجال الموطأ ، . . . ، واستُشهد في وقيعة العِقاب منتصف صفر سنة ٦٠٩ . »[(٤)]

هذا ، كما لاحظنا في أكثر من مكان فيما سلف ، دَيْدَنَ العلماء المسلمين وفقهائهم وقضاتهم الذين كانوا كهفاً وملجأ للناس وقت الشدة ، وكانوا القادة في الأحداث والملمات ، وفي المخاطر تجدهم في المقدمة . علّمهم الإسلام أن العِلْم — قبل كل شيء — خُلق وعمل . ويمكن بوضوح — خلال هذه الدراسة — ملاحظة هذا الخط واضحاً .

استولت جيوش الفُونش (الثامن) على الغنائم الكثيرة ، منها أشياء ثمينة كالعَلَم الموحدي ، الذي مازال محفوظاً في اسبانيا[(٥)] .

---

(١) التكملة ، ١/١٩٤ (رقم : ٥١٧) .
(٢) التكملة ، ١/ ٢٠٢ (رقم : ٥٣٦) .
(٣) التكملة ، ١/ ٢٣٥ (رقم : ٦٢٣) .
(٤) التكملة ، ٢/٥٨٥ — ٥٨٦ (رقم : ١٥٥٩) .
(٥) عصر المرابطين والموحدين ، ٢/ ٣١٧ ؛ الآثار الأندلسية الباقية ، ٣١٣ — ٣١٤ .

كان للهزيمة وقع وأثر سيء في كل من الأندلس والمغرب[1] . على الرغم من أن الموحدين قاموا بنشاط عسكري في الأندلس بعد هذه الوقيعة ، إلا أنها مثّلت بداية النهاية للدولة الموحدية ، وكذلك ضياع قواعد أندلسية كثيرة .

يصفها صاحب **الروض المعطار** بأنها كانت « أول وهن دخل على الموحدين . »[2] ووصفها ابن عِذاري في **البيان المُغْرب** ، أنها : « كانت السبب في هلاك الأندلس »[3] . كما ذكر ابن الأبّار أنها « التي أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها . وكانت السبب الأقوى في تَحَيُّف الروم بلادَها حتى استولت عليها »[4] .

لكن لابد من اعتبار أسباب أخرى ، سواء بالنسبة للهزيمة في موقعة العِقاب أو في نتائجها السيئة في الأندلس والمغرب[5] ، حيث تلا ذلك ذهاب قواعد أندلسية كبرى ، كما تقدم إيضاحه[6] .

استولى أَدْفُونْش – بعد العِقاب – على بعض الحصون والمدن ، فأخذ عَنْوَة مدينتيْ بَيَّاسَة (Baeza) وأُبْدَة (Ubeda) وعاث فيهما تخريباً وتدميراً ، حتى المساجد ، وقتلاً لم ينج منه الجرحى والضعفاء والأطفال والنساء . وجرى – خِلال حصار أُبْدَه ، التي ثبتت لجيش الفُونْش ومن معه – أن عرض أهلُها فدية كبيرة لقاء المحافظة على عقيدتهم وسلامة أنفسهم فوافق هو وكل مِن بُطْرُهْ (الثاني ، الكاثوليكي Pedro II,el Catolico) ملك أَرْغُون وشانْجُهْ (السابع ، الملقب عندهم القوي Sancho VII, el Fuerte) ملك نَبَارَّة . لكن الأحبار رفضوا ذلك ، وكان بينهم مطران طُلَيْطُلَة ومطران أَرْبُونَه عارضاه باسم البابا[7] ، وأصروا

(١) انظر : نفح الطيب ، ١/٤٤٦ .
(٢) الروض المعطار ، ١٣٨ .
(٣) البيان المغرب (تطوان) ، ٢٤٠ .
(٤) التكملة ، ١/١٠٢ (= أعلاه ، ٤٩٤) .
(٥) راجع : عصر المرابطين والموحدين ، ٢/٣١٧ – ٣٢٢ .
(٦) أعلاه ، ٤٧١ – ٤٨٣ .
(٧) *Manual de historia de Espana, I, 647.*

على عدم تنفيذ العهد وعلى استسلام المدينة دون قيد أو شرط . فوافق الملوك على ذلك « ونقضوا العهد المقطوع ، واقتحم الجنود النصارى المدينة ، وقتلوا من أهلها زهاء ستين ألفاً ، وسَبَوْا منهم مثل هذا القدر . وتعترف الرواية النصرانية نفسها بهذه الشناعات ، وتقدر من قتل وسبي من أهل أُبْدَة بمئة ألف ، ويقدر بعضها السبايا وحدهم بمئة ألف »[١] .

ولم يكن هذا التصرف المثل الوحيد على هذه السياسة الصليبية لديهم ، فتلك طبيعتها المألوفة التي مرت لها الأمثلة المؤكدة على كل ذلك[٢] . منها — بجانب هذا — ماجرى قبيل معركة العِقاب[٣] وسبق إيراده[٤] . ويحدثنا عن ذلك عبد الواحد المَرَّاكُشي (٦٤٧ هـ) المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث ، وكان وقتها في الأندلس[٥] ، فكان شاهد عِيان لبعضها[٦] ومتحرياً أو مستكتباً عن مُشاهد ومشارك لبعض آخر . فبعد وقيعة العِقاب « فصل الأذْفُنْش — لعنه الله — عن هذا الموضع بعد أن امتلأت يداه وأيدي أصحابه أموالاً وأمتعة من مَتَاع المسلمين ، فقصد مَدينتَيْ بَيَّاسَة وأُبْدَة ؛ فأما بَيَّاسَة فوجدها أو أكثرها خالية ، فحرَّق أدؤرها وخرَّب مسجدَها الأعظم ؛ ونزل على أُبْدَة وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كثير من المُنْهَزِمة وأهل بَيَّاسَة وأهل البلد نفسه ؛ فأقام عليها ثلاثة عشر يوماً ، ثم دخلها عَنْوَة فقتل وسَبَى وغنم ؛ وفَصَل هو وأصحابه من السَّبْي من النساء والصبيان بما ملئوا به بلادَ الروم قاطبة . فكانت هذه أشدَّ على المسلمين من الهزيمة . »[٧]

عاد الخليفة الناصر ومن معه إلى إشبيلية ثم الى حضرة مَرَّاكُش ، حيث تُوفي في شعبان سنة ٦١٠ هـ (كانون الأول = ديسمبر ١٢١٣ م) . اختُلف في أسباب

(١) عصر المرابطين والموحدين ، ٣٢٣/٢ .
(٢) أعلاه ، ٢٧٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ — ٣٣٢ ، ٣٥٩ وبعدها ، ٣٦٩ وبعدها ، ٤٣٢ وبعدها ، ٤٦١ — ٤٦٥ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ — ٤٧٤ ، ٤٧٨ — ٤٨١ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ — ٤٩٣ . قارن ذلك بمعاملة المسلمين لغيرهم ، خلال الفتح وغيره . انظر : أعلاه ، ٧٧ ، ٧٩ — ٨٢ ، ٢٨٣ .
(٣) المعجب ، ٤٠١ . (٤) أعلاه ، ٤٩٣ — ٤٩٤ .
(٥) المعجب ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٤٠٢ ، ٤١٠ .
(٦) المعجب ، ٤١٤ . (٧) المعجب ، ٤٠٢ — ٤٠٣ .

وفاته ، فربما « اغتم من أجلها غماً كبيراً كان السبب في وفاته بمراكش في شعبان سنة عشرة وستمائة »[1] . بويع بالخلافة — بعده — ابنُه يوسف المستنصر .

ثالثًا : السِّمَات العَامّة

بالإمكان تبين بعض سِمات العهد الموحدي في الأندلس في الفقرات السابقة المتعلقة بهم . كانت الأندلس — منذ انضوت تحت سلطان المرابطين ، والموحدين من بعدهم — احدى مناطق الدولة ، ليس مركزها في الأندلس ، لذلك كان اهتمام الخليفة بالأندلس يقتضيه الحضور إليها ورعايتها عن كثب . لم تكن هذه الرعاية تقتصر على الجهاد ومدافعة العدو المتربص ، الذي طالما استعان في حربه ضد الأندلس بحشود المتطوعة ، من بلدان أوربية أخرى بروح صليبية واضحة ، بل ان هذه الرعاية شملت النواحي المدنية كافة . كالعلم والعمران والإدارة والإصلاح والتراتيب المختلفة . كان الخليفة يمكث لهذه الأهداف السنوات العديدة ، تبلغ أحياناً خمساً، ثم يعود بعدها إلى حاضرته في المغرب . يكرر الخليفة المجيء إلى الأندلس كلما سنحت الفرصة وكانت ضرورة . هذه الوضعية سِمَة لهذا العهد ، حيث أضحت الأندلس ولاية ضمن الدولة الموحدية الكبرى .

اتخذت إشبيلية قاعدة للأندلس ، ثم انتقلت — لمدة قليلة — إلى قرطبة ، وأُعيدت إلى مكانها الأول إشبيلية . غدت لهذه الحاضرة في أيامهم مكانة كبيرة[2] .

تمتعت الأندلس في عصر الموحدين بمستوى كبير من القوة العسكرية والسياسية والعمرانية والعلمية وغيرها ، كما هو الحال في المغرب ، الجناح الآخر للدولة الموحدية . تميزت الأندلس بالمستوى الحضاري العالي الذي استمر نموه في كثير من الجوانب برعاية الموحدين مع مكانة المغرب الحضارية .

قامت الدولة الموحدية تستمد وجودها من الإسلام ، وعليه ارتكزت أصول

---

(١) الحلل الموشية ، ١٢٢ . كذلك : عصر المرابطين والموحدين ، ٣٢٤/٢ . قارن : المعجب ، ٤٠٣ .
(٢) عصر المرابطين والموحدين ، ٦١٨/٢ ، ٦٢٨ ، ٦٤٠ .

سياستها ، رغم وجود بعض الهفوات . انبثقت من الإسلام تنظيمات الدولة وسياستها الادارية وغيرها[1] . أكد الخلفاء والولاة إقامة العدل والضرب على العبث والتمسك بشريعة الإسلام ، في أمورهم وإدارتهم . طالما أكدوا « وجوب التزام الدقة في تطبيق الأحكام الشرعية ، ووجوب الكف عن اقتضاء أية مغارم أو مكوس ، لاتبيحها الشريعة ولاتتفق مع قواعد العدل ، وأنه لايجوز الحكم في مواد الحدود بالإعدام أو تنفيذه قبل الرجوع إلى الخليفة ، ليصدر هو قراره في هذا الشأن ، وأنه يجب تحريم الخمر ، ومطاردتها في سائر أنحاء الدولة ، وأنه يجب حماية أموال المخزن (أموال الدولة) ، وصونها وعدم التصرف في شيء منها ، دون استئذان الخليفة . »[2]

هذه المعاني الإسلامية وغيرها هي التي كانت تقوم عليها التوجيهات وبها تُساس الأمور . وظهرت آثار هذا النهج والالتزام بهذا الشرع في نواحي الحياة المتعددة ، سواء في ميدان الجهاد أو في النواحي المدنية الأخرى ومنها العلمية .

أُنقذت الأندلس من الأخطار التي كانت تهددها ، وحين زالت هذه القوة والحماية ، بدأ الخطر يتهدد الأندلس ، واقتُطع منها عدد من القواعد .

بلغت الدولة الموحدية مكاناً عالياً من القوة الحربية والسياسية والحضارية . كما حضرت الوفود الكثيرة سواء من دول اسبانيا النصرانية ، أو غيرها من الدول الأروبية ، الى البَلاط الموحدي للصداقة وعقد المعاهدات أو طلب المعونة . كذلك أُحدث في أواخر العصر الموحدي منصب وزاري يقوم باستقبال السفراء والاهتمام بأمورهم[3] . جرى ذلك عندما حضرت سفارة ملك انجلترا هنري (الثاني) ، أو ملك نَبَارَّة شَانْجُهْ (السابع)[4] ، الى الخليفة الناصر .

---

(١) انظر : أعلاه ، ٤٦٠ .

(٢) عصر المرابطين والموحدين ، ٦١٩/٢ .

(٣) البيان المغرب (تطوان) ، ٢٣٤ .

(٤) عصر المرابطين والموحدين ، ٢٨٩/٢ – ٢٩٠ .

الناحية العسكرية : مع المواقف الجهادية التي شهدناها كان يصحب ذلك اتخاذ الأُهبة اللازمة والاستعداد ، سواء بالحاميات الدائمة أو العناية بالإنشاءات العسكرية والتحصينات والأسطول . كانت للجيش تنظيماته وأسلوبه في التحرك والقتال . طالما كان الخليفة يقود النشاط الحربي في الميادين ، وحركة الجهاد قائمة والناس على أهبة واستعداد . اعتاد الخليفة (أو القائد) أن يستشير القادة (المجلس العسكري) في أمور الحرب وخُطط الميدان(١) .

كان الاهتمام **بالناحية الإدارية** وافراً . يشرف الخليفة عليها أثناء وجوده في الأندلس ، ويحاسب العمال ويستبدل من لايناسب منهم . استمر الاهتمام بأمور الناس وضمان حقوقهم على أساس من الشريعة ، كما سبق ذكره آنفاً . وكانت الخلافة وراثية . أما **الأمور المالية** فقد وضع لها منهاج . نظمت المعاملات وأمور المصارف والموارد ، ونعمت الأحوال الاقتصادية - في العموم - بالأمن والرخاء وتقدمت الزراعة والتجارة . وكان **القضاء** - كعادته - نظاماً جليلاً كبيراً تولاه أهل الأندلس ، بل إن من الأندلسيين من ولي القضاء في المغرب أيضاً . وللقضاء متعلقات منها الشورى والحسبة(٢) .

توفرت في **الجانب العمراني** الإنشاءات الحربية بجانب بعض الانشاءات المدنية . أُنجز الكثير من المشاريع العامة ، كما أسست بعض القصور الخاصة المزودة ببستان مزين بأنواع الغِراس تُسقى بالنواعير . أنشأ الخليفة أبو يعقوب يوسف بعض المشروعات في إشبيلية ، منها بناء القنطرة على نهر الوادي الكبير . كما عمل على تحصين هذه المدينة وتجميلها وإقامة المنشآت الفخمة ، وتهيئة المياه الجارية وتوفيرها لسقاية الناس ، ثم أقام جامع إشبيلية الأعظم ومئذنته الكبيرة .

شارك في هذه الأعمال عددٌ من المهندسين (العُرَفاء) المشهورين والبنَّائين

---

(١) البيان المغرب (تطوان) ، ١٩٨ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٢/٢١٧ ، ٦٣٦ - ٦٤٠ .

(٢) عصر المرابطين والموحدين ، ٢/ ٦١٩ - ٦٢٦ ، ٦٢٨ - ٦٣٠ .

والعمال المَهـرَة ، أمثال : أحمد بن باسـَه شيخ عـُرفاء الأندلس[1] (عريف البنائين = المهندسين) ، والحاج يَعيش المالـَقي (الذي شارك في الإشراف على بناء المدينة في جبل طارق[2]) وغيرهم[3] . بنى الخليفة أبو يعقوب يوسف الجامع الكبير سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) وكذلك المئذنة (الصومعة) التي اتمها ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور من بعده سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) . وبلغ ارتفاعها ٩٦ متراً ، ولا تزال قائمة رغم ما أُحدث فيها من تغيير ؛ أما المسجد فقد استبدل مكانه بكنيسة كبيرة[4] . يصف ابن صاحب الصلاة وصفاً عِيانياً بناء المسجد الجامع وعمليات إنشائه في كتابه **المَن بالإمامة**[5]. هناك إنشاءات ومشاريع أخرى ، لعله منها العناية أيضاً بالمشروعات الصحية والعلمية والاجتماعية .

استمرت **الناحية العلمية** بالنمو ورعاها الخلفاء الموحدون والمسؤولون منهم . **ذلك** وضع طبيعي للحياة الإسلامية وبناء مجتمع الإسلام وما يُغرسه لديهم من حب العلم والعلماء وطلبه . تـُصبح كثير من الجوانب العلمية والفكرية جزئيات في هذا الخط للمجتمع المسلم ، أو هي ثمرات طبيعية ، ويـُنظرُ أولاً إلى الأسس التي قامت عليه . كان الخلفاء والمسؤولون هم أنفسهم علماء ، وعلى مستوى عال من المعرفة ، وفي ميادين كثيرة منها .

سارت الحركة العلمية بالأندلس في النمو والإنتاج في كلّ ميدان ، وظهر الانتاج الكثير . ولدينا ثبت كبير من أهل المعرفة ، بفروعها ، والمؤلفات كثيرة والعناية بالمكتبات الخاصة والعامة مألوفة . تـُرجم عدد من هذا الإنتاج الرفيع إلى اللاتينية . وهذه بعض أسماء العلماء واللامعين منهم أيام الموحدين ، على سبيل المثال :

* أبو عبـد الله محمد بن عبد الرحيم بن الفرج الأنصاري (غرناطة ، ٥٠١ —

---

(١) انظر : المن بالامامة ، ١٣٩/٢ ، ٢٠٦ ، ٤٦٧ ، ٤٧٤ ، ٤٨٢ . قارن : المقتبس ، ٦٨/٢ ؛ الذخيرة ، ١١١/٢/١ — ١١٣ ؛ الصلة ، ٥٧٢ (رقم : ١٢٦٣) ؛ الاحاطة ، ٢٠٤/١ ، ٤٦٨ .

(٢) اعلاه ، ٤٥٨ .

(٣) راجع كذلك : المغرب ، ١٦٢/٢ ؛ نفح الطيب ، ٣٣٥/٢ ؛ المن بالإمامة ، ٢٥١/٢ .

(٤) عصر المرابطين والموحدين ، ٧٠/٢ ، ٢١٧ ، ٢٣٠ وبعدها .

(٥) المن بالإمامة ، ٤٧٤/٢ — ٤٧٩ .

إشبيلية ، ٥٦٧ هـ) . « كان عالماً حافلاً ، راوية مكثراً يتحقق بالقراءآت والفقه ، ويشارك في الأحاديث والأخبار مع البصر بالفتوى ووجوهها ، . . . ، أحد حُفاظ الأندلس في المسائل مع المعرفة بالآداب والأغربة إلى الضبط وجودة الخط . وكانت أصوله أعلاقاً نفيسة لا نظير لها ، جمع منها عظيماً وكتب بخطه أكثرها . »[1]

* أبو بكر محمد بن خير (إشبيلية ، ٥٠٢ — قرطبة ، ٥٧٥ هـ) . من أهل إشبيلية ، صاحب **فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف** . كان كثير التقييد معتنياً بالرواية « مقرئاً مجوداً ضابطاً محدّثاً جليلاً متقناً أديباً نحوياً لغوياً ، واسع المعرفة رضياً ، مأموناً ،كريم العشرة ، خيراً ، فاضلاً ، ما صحب أحداً ، ولا صحبه أحد إلا أثنى عليه . . . وكانت كتبه في غاية الصحة والإتقان لكثرة ما عاناها ، وعالج تصحيحها بحسن خطه ، وجودة تقييده وضبطه ، وفي ذلك قطع دهره ، وأنفق حياته ، فلحق بالمتقدمين ، وأربى على المتأخرين ، وأدّى ذلك إلى المغالاة فيها بعد وفاته حتى بلغت أثمانها الغاية »[2] .

* أبو إسحاق إبراهيم بن الحاج بن عمارة الأنصاري (غَرناطة ، ٤٩٥ — ميورقة ، ٥٧٩ هـ) . من أهل العلم والمعرفة ، واشتغل بعلوم القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه ، وألّف فيها ، وكان « فكه النفس حلو النادرة ، حميد العشرة ، نشأ بغرناطة على طلب العلم ، وتقييد الآثار ، ووليِّ القضاء بعدة كُوَر من أعمالها »[3].

* أبو بكر محمد بن عبد الله بن يحيى بن فرح بن الجد الفِهري (لبلة ، ٤٩٦ — اشبيلية ، ٥٨٦ هـ) . فَقيهُ الأندلس لوقتِه ، الحافظ المستبحِر الذي « انتهت إليه الرئاسة في الحفظ والفُتْيَا ، وقُدم للشورى مع أبي بكر بن العربي ونظرائه من الفقهاء حينئذ بإشبيلية في سنة ٥٢١ وأبو القاسم بن ورديلي قضاءها ، وتمادى به ذلك نيِّفاً على ستين سنة في ازدياد سُمُوِّ الرتبة ، واطِّراد تمكن الحُظْوَة عند الملوك ... وكان فصيحاً، خطيباً مفوهاً ، يبلغ بالبديهة ما لايبلغ بالروية . أخذ عنه جِلّةُ أهل الأندلس

(١) التكملة ، ٢/ ٥٠٩ — ٥١٠ (رقم : ١٣٩٤) .
(٢) التكملة ، ٢/ ٥٢٤ (رقم : ١٤٢٤) .
(٣) التكملة ، ١٥٥/١ (رقم : ٤٠٠) .

والعدوة ورحلوا إليه وانتفعوا به ، ولم يشتغل بالتأليف على غَزارة حفظه ، ومعانة مادة علمه . »[1]

* علي بن عتيق بن أحمد بن عبد الله بن مؤمن الأنصاري (قرطبة ، شوال ٥٢٢ ــ فاس ، ٥٩٨ هـ) . صاحب المؤلفات الكثيرة ، « وكان محدثاً راوية مكثراً ، عني بهذا الشأن طويلاً وبحث فيه ، حاضر الذكر للآداب والتواريخ عموماً ، وخصوصاً تواريخ المحدِّثين ، ماهراً في علم الكلام والطب موفق العلاج ، بارعاً في التعاليم ، أديباً شاعراً حسن التصرف ، متقدماً في صنعة التوثيق وفي ماكان ينتحله من العلوم ؛ ونظم في العقائد قصيدة جامعة كبيرة ، . . . ، وكان ممتع المجالسة »[2] .

* أبو الحسين محمد بن أحمد بن جُبَير (بلنسية ، ٥٣٩ ــ الاسكندرية ، ٦١٤ هـ[3]) . من أهل بلنسية ، الرحالة الشهير صاحب رحلة وكتاب **رحلة ابن جبير** . « وعني بالآداب فبلغ منها الغاية ، وتقدم في صياغة القريض وصناعة الكتابة ، ونال بها دنيا عريضة ثم رفضها وزهد فيها وتحرك لنيته الحجازية في شوال سنة ٥٧٨ »[4] . « وكان أديباً بارعاً كاتباً بليغاً شاعراً مجيداً سَنياً فاضلاً نزيه الهمة سَري النفس كريم الأخلاق أنيق الطريقة في الخط ، كتب في شبيبته عن أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن وعن غيره من ذوي قرابته »[5] .

* أبو الحسن علي بن محمد بن الفضل المَعافِري (إشبيلية ، ٦٢٧ هـ) . «كان كاتباً بارعاً ، شاعراً مجيداً ، حسن الخلق كريم الشمائل ، لوذعياً نظيف الملابس ، جميل العشرة »[6] .

* أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكَلاعي (بلنسية ، ٥٦٥ ــ أنيشه ، ٦٣٤ هـ) . الحافظ المحدث الأديب الذي أربت مؤلفاته على العشرين ، « وكان بقيةَ

---

(١) التكملة ، ٥٤٢/٢ ــ ٥٤٣ (رقم : ١٤٦٩) .
(٢) الذيل والتكملة ، ٥/١/ ٢٦١ (رقم : ٥٢٥) .
(٣) نفح الطيب ، ٣٨١/٢ .
(٤) التكملة ، ٥٩٨/٢ (رقم : ١٥٨١) .
(٥) الذيل والتكملة ، ٦٠٧/٢/٥ (رقم : ١١٧٢) ؛ الإحاطة ، ٢٣١/٢ . كذلك: المغرب، ٣٨٤/٢ .
(٦) الذيل والتكملة ، ٣٧٦/١/٥ (رقم : ٦٥١) .

الأكابر من أهل العلم بصُقع الأندلس الشرقي ، حافظاً للحديث مبرزاً في نقده تام المعرفة بطرقه ضابطاً لأحكام أسانيده ذاكراً لرجاله وتواريخهم وطبقاتهم ، ريان من الأدب ، كاتباً بليغاً شاعراً مجيداً خطيباً مِصْقَعاً خطب بجامع بلنسية في أوقات ، واستُقضي وعرف بالفضل والعدالة في أحواله جُمْع ؛ ورحل الناس اليه متنافسين في الأخذ عنه ، وله مصنفات في الحديث والسير والآداب تدل على رسوخ قدمه في المعارف وبراعته فيما تولاه منها ، جودة انتقاء وإجادة إنشاء »[1] . استُشهد في معركة أُنيشَة بظاهر بَلَنْسِيَة سنة ٦٣٤ هـ[2] . كان فوق كل ذلك « كاملَ المروءة طيبَ العِشْرَة حسن الخَلْق والخُلُق جميل الصحبة ممتع المجالسة عذب المنطق وجيهاً سَرِي الهمة أبي النفس نَفَّاعاً بجاهه وماله وعلمه »[3] .

كان أبو الربيع شخصية بدت فيها الصبغةُ الإسلامية التي صاغته وأمثالَه هذه الصياغة ، ينفرد بها الاسلام ومَن عاش في ظله وارتوى هَدْيَه واتخذ سَمْتَه . وتاريخنا الإسلامي مملوء بهذه الأمثلة الكريمة التي أضاءت تاريخ الإنسانية — مِن أيِّ لون وجنس وقبيل — وأعلت مكانتها وأجلت قدرها وأظهرت تكريم الله لها ، فتَقَدَّمت نماذج طاهرة كثيرة ونوعاً صالحاً وفيراً ، تظل تُشير إلى رفعة الإنسان حين ينهج طريقَ الله الوحيد السديد ويأخذ بشرعه القويم ، لكن هذا كله ينعدم حين يبتعد الإنسان عنه فيهبط ويشرد منه فيبيد ، وتاريخ القرون بذلك أبلغ ناطق وأقوى شهيد .

* أبو الحسن علي بن جابر الدَّبَّاج (إشْبِيلِيَة ، ٥٦٦ — إشبيلية ، ٦٤٦ هـ) . الأديب النحوي الذي « كان حسن السَّمْت والهَدْي ، دَيِّناً صالحاً سَنياً فاضلاً ، ظريف الدُّعابة حسن اللَّوْذَعِيَّة ، مُقرئاً مُجَوِّداً ، متعلقاً برواية يسيرة من الحديث ، متقدماً في العربية والأدب ، يقرض قطعاً من الشعر يجيد فيها ؛ عكف على إقراء القرآن

---

(١) الذيل والتكملة ، ٨٥/٤ (رقم : ٢٠٣) .

(٢) أعلاه ، ٤٧٤ .

(٣) الذيل والتكملة ، ٨٨/٤ .

وتدريس العربية والأدب نحو خمسين سنة لم يتعرض لسواه ولا عرّج على غيره نزاهةً عن الأطماع وأنفةً من التعلق بالدنيا وأهلها ، وكان مبارك التعليم فنفع الله بصحبته والأخذ عنه خلقاً كثيراً ؛ وكتب بخطه الرائق الكثيرَ وأتقن ضبطه وتقييده»[1].

* أبو عبد الله محمد بن الأبَّار (بلنسية ، ٥٩٥ – تونس ، ٦٥٨ ﻫ) . العلامة الموسوعي ، صاحب المصنفات الكثيرة التي جاوزت الأربعين[2] ، وقد مر ذكره[3] وتكرر نقل نصوص كثيرة من كتبه .

* أبو الحسن علي بن محمد الأنصاري الجيَّاني (مراكش ، ٦٦٣ ﻫ) . تلميذ الدبَّاج ، وصاحب المؤلفات الذي « كان أديب النفس كاتباً بليغاً شاعراً مُجيداً ، رقيق الغزل بارع المنازع فائق النظم والنثر مبرزاً في فهم المعاني ، نحوياً ماهراً ذاكراً للغات والآداب ، من أبرع مَن رأيته خطاً ، وكان لا يُحسن بَرْيَ القلم إنما كان يُبْرى له »[4] .

* أبو الحسن علي بن محمد الرُّعَيْني[5] (اشبيلية ، ٥٩٢ – مراكش ، ٦٦٦ ﻫ) . اشتغل بالتأليف ، له منها برنامج شيوخه ، يزيدون على مئة . كان أديباً كاتباً « غلبت عليه الكتابة واعتمدها وتقدم فيها وكتب لجلة من الملوك بالأندلس والعُدْوة »[6].

* من المؤرخين : أبو مروان عبد الملك بن محمد ابن صاحب الصلاة (بعد ٥٩٤ ﻫ)، مؤلف كتاب **المَنّ بالإمامة**[7] ؛ وعبد الواحد المَرَّاكُشي (٦٤٧ ﻫ) ، صاحب كتاب **المُعْجِب في تلخيص أخبار المَغْرِب** ؛ وعلي بن موسى ابن سعيد (٦٨٥ ﻫ)، أحد مؤلفي **المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب**؛ وابن عِذاري (بعد ٧١٢ ﻫ)، صاحب **البيان**

---

(١) الذيل والتكملة ، ١٩٩/١/٥ (رقم : ٣٩٤) . كذلك : برنامج شيوخ الرعيني ، ٨٩ .

(٢) انظر : الذيل والتكملة ، ٢٥٣/٦ ؛ نفح الطيب ، ٢/ ٥٩٢ .

(٣) أعلاه ، ٤٧٦ وبعدها .

(٤) الذيل والتكملة ، ٢٨٨/٥ (رقم : ٥٧٩) .

(٥) الذيل والتكملة ، ٣٢٣/١/٥ (رقم : ٦٣٦) .

(٦) صلة الصلة ، ابن الزبير ، ١٤١ . كذلك : برنامج شيوخ الرعيني ، المقدمة ، ١٠٢ ، ٢٠٠ .

(٧) الذيل والتكملة ، ٣٢/١/٥ (رقم : ٧٠) .

المُغْرِب ؛ ثم أبو عبد الله محمد بن عبدالملك الأنصاري (٧٠٣هـ)، صاحب موسوعة التراجم **الذيل والتكملة لكتابَيْ الموصول والصلة**[١] .

* في الطب : أبو جعفر أحمد الغافقي (٥٦١ هـ) ، برع في الطب والنبات[٢] ؛ وأسرة بني زُهْر[٣] ؛ وأحمد بن مفرج الأموي المعروف بابن الرومية (٦٣٧ هـ)، اشتهر بعلم النبات[٤] ؛ وأبو علي حسن بن مفرج البكري الأشبوني، المعروف بالزَّرْقالة[٥] (٦٠٣ هـ) ، درس الحديث والأدب واشتهر بالطب والعلاج[٦] ؛ وأبو بكر محمد الرقوطي ، برع في علوم كثيرة منها الهندسة والطب ؛ وأبو زكريا يحيى بن العوَّام الإشبيلي من علماء الزراعة وله كتاب **الفلاحة**[٧] . أما أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طُفَيْل (٥٨١ هـ) صاحب رسالة **حيّ بن يقْظان**[٨] ، وابن الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رُشْد (الحفيد) (٥٩٥ هـ[٩]) فقد اشتهرا بالطب والفلسفة[١٠] .

---

(١) عصر المرابطين والموحدين ، ٧٠٣/٢ — ٧١٠ .

(٢) عصر المرابطين والموحدين ، ٧١٢/٢ .

(٣) الذيل والتكملة ، ٣٩٨/١ (رقم : ١٠٧٦) ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٧١٣/٢ .

(٤) التكملة ، ١٢١/١ (رقم : ٢٠٤) ؛ الاحاطة ، ٢٠٧/١ ؛ نفح ، ٥٩٦/٢ ؛ أعلاه ، ١٧٠ .

(٥) عرف أكثر من عالم — في الأندلس — بهذا اللقب أو نحوه . انظر كذلك : التكملة (الجزائر) ، ٣٦ (رقم : ٧٥) ، ١٦٩ (رقم : ٣٥٨) ؛ درة الحجال في أسماء الرجال ، ابن القاضي ، ١٢٠/١ (رقم : ١٤٩) ، ٢٣٢/٣ (رقم : ١٢٥١) ، ٣٥٣ (رقم : ١٤٩٩) ؛ نفح الطيب ، ٢٠٦/١ ، ١٠٥/٦ .

يعتبر ابن الزرقالة أبو إسحاق إبراهيم بن يحي التجيبي النقاش (٤٩٣ هـ) ، من أهل طليطلة (التكملة ، ١٣٨/١ ، رقم: ٣٥٨) ، مخترع الزرقالة (الزرقلة) ، ربما نسبة اليه . وهي صفيحة (آلة) الرصد (الأسطُرلاب ، Astrolable ، مرآة النجوم) ، تستعمل لمعرفة الوقت والجهات ورصد النجوم .

(٦) التكملة ، ٢٦٤/١ (رقم : ٦٩٩) .

(٧) عصر المرابطين والموحدين ، ٧١٨/٢ .

(٨) المعجب ، ٣١١ ؛ الاحاطة ، ٤٧٨/٢ — ٤٨٢ .

(٩) التكملة ، ٥٥٣/٢ (رقم : ١٤٩٧) ؛ المعجب ، ٣١٤ .

(١٠) عصر المرابطين والموحدين ، ٧٢٣/٢ .

يكاد يكون لكل من هؤلاء العلماء انتاجه العلمي ، وبلغت مؤلفات بعضهم العشرات . وهم ليسوا إلا القليل من الكثير ، زخرت بهم الأندلس في هذه المدة ، مثلما بأمثالهم قبلها . شيوع العلم والمعرفة وتوفر الانتاج فيها أمر طبيعي في أي مجتمع مسلم . كان هذا الانتاج للجو الذي يهيئوه مثل هذا المجتمع بطبيعته . تم كله رغم الأحداث والمواجهات بين الأندلس وإسبانيا النصرانية ، الأمر الذي يستفرغ الكثير من الجهد ويهزم الجو الهادىء الذي يلزمه العلم وتوافر الناس عليه وإنتاجهم فيه .

لايفوتنا أن الكثير من العلماء من كل ميدان كانت لهم مشاركة في هذه الأحداث. وقف بعضهم في المقدمة ، كما تبين[1] . ليس العلماء وأهل الفكر عالة ، يَنْزَوون حين الأحداث ويبرزون في صفاء الجو والنعمة . فكم من عالم ، لا سيما علماء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وعلماء الشريعة المطهرة والتاريخ والقضاء ، كانوا دوماً في المقدمة . لأن العلم إيمان وعمل ، والصدارة في العلم لها مسؤوليتها وتكاليفها . ذلك واضح – تماماً ودواماً – في تاريخنا ، خلال مراحله المتلاحقة .

---

(١) أعلاه ، ٤٢٥ ، ٤٢٩–٤٣٦ ، ٤٤٠ ، ٤٤٦–٤٤٧ ، ٤٥٧ ، ٤٦٥ ، ٤٧٠ – ٤٧١ ، ٤٧٤ ، ٤٧٩ ، ٤٩٤ – ٤٩٥ .



الفصل الثامن

مملكة غرناطة

الأندلس الصغرى

٦٣٥ - ٨٩٧ هـ (١٢٣٨ - ١٤٩٢ م)

أولاً : نشأتها .

ثانياً : ثبات غرناطة وأسبابه .

ثالثاً : توقُّف الانحسار .

رابعاً : حالة إسبانيا النصرانية .

خامساً : الصراع بين غرناطة وسلطات إسبانيا النصرانية .

سادساً : أحوال غرناطة وأهم الإنجازات .

سابعاً : تزايد الخطر ووقوع الكارثة .

ثامناً : قائمة بأسماء ملوك غرناطة .

تاسعاً : محنة المسلمين بعد سقوط غرناطة ومحاكم التفتيش .

مملكة غرناطة

تقديم

تبيَّن – باختصار – عموم حال الأندلس في نهاية العصر الموحدي الذي أفضى الى سقوط القواعد الأندلسية الكبرى ، حين ضعفت المقاومة أمام قوى اسبانيا النصرانية المتحدة . رغم عدم مقدرة الموحدين على حماية الأندلس فإن أهل الأندلس رأوا أنه لابد من القيام بعمل دفاعي يحفظ لهم مابقي من بلدهم . كانت الأندلس لا تزال خاضعة للموحدين ، وقـــد تخلخل وضعهم وذهبت قوتهم وغدَوا لا يُغْنُون في الدفاع لإبعاد نهايتهم التي قَرُبت ؛ وتلك هي الحال في المغرب والأندلس . لكن زوال سلطانهم في الأندلس كان أسرع ، حيث لم يكن من السهل الانتظار والاعتماد عليهم .

استمرت الدولة الموحدية في المغرب تواجه القوى الناهضة حتى سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦١ م) . اختتمت حياتها ، لترثها هناك دولة بني مَرِين الفتية النشطة التي ستضطلع بمهمة الموحدين في الأندلس ، والمرابطين من قبلهم .

* * *

لعل تتابع الدول والسلطات في المغرب والأندلس – إثر ضعف السابق والتياث أمره ، لتلحق به أخرى فتية قوية – فيه معنى آخر ، هو : التجدد في هذه الأمة المسلمة . إنها تشير إلى الحيوية المستمرة ، مادامت إلى دينها راكنة ومعانيه فيها متمكنة ، مهما أصابها من ضعف في بعض الجوانب ، وتراكمت عليها عوامل في حَيِّز من عالمها أو رَدَحاً من حياتها المتطاولة ؛ فطالما كانت بوارق الأمل تبدو من بين ظلمات اليأس ويأتي النصر دون مخالبه . غير ضروري أن يكون ذلك جلاّباً للخوف ؛ وإن غدا مصدراً للأذى ، فهو مدعاة للاستعداد ودافع للتحفز ، ما دامت الأمة لم تخسر ايمانها بمصدر قوتها وينبوع وجودها ، بإسلامها . الأمة التي تحيى بعقيدتها لا تموت بموت قائد أو ذهاب دولة ، وإن كان هذا سبباً خطيراً وله أهمية

كبرى . خسارة أو ضعف الأمة الاسلامية في عقيدتها هي المكمن الحقيقي للنكبة المضيعة والطامة الفانية . ذلك ما يسعى اليه خصوم الاسلام ، وإليه توجهت سهامهم المسمومة المحمومة . كانت حملتهم مجنونة ، وما خلت دوما من رعونة . ذلك باد تماماً من خلال الأحداث الأندلسية التي مرت في مناسبات عديدة[1] ، ومواجهات كانت الحملات فيها قاسية شديدة . سنلحظ ذلك أيضاً في أحداث أخرى قادمة من تاريخ غرناطة . تلك فكرة فيها دورس وعبر ، تستأهل الاهتمام وتستحق النظر .

إذا كان الركب سائراً ، لابد له من قائد واع أمين . يقوده بحرص ويَقَظَة ، يعطي من نفسه أكثر مما يأخذ لها ، إن كان سيأخذ . إذا ذهب ـ ولأي سبب ـ فللإبقاء على الركب ، راعياً لمقوماته متمسكاً بعقيدته ، لابد من نبذ كل حالة تُفضي إلى الهُزال والتخلف ونَفْي المعوقات عن متابعة الركب لموكبه في الطريق المنير . هو ميدان واسع واضح عملي لإظهار أقدار هذا النوع من القيادة ، وأحياناً بعد مخاض طويل . طالما تحرك الركب بأجمعه في مثل هذه الأحوال ــ خلال الأحداث التي درسناها ــ لإجراء تصحيح في مكان ما من خطه ، أو تعميق ارتباطه بعقيدته أو إعادة نظر في حاله ، حسب ظروف جَدَّت أو نازلة حَلَّت ؛ بطارئة في بنائه أو تدبير من أعدائه ، فينتقض يتصرف في نحو ما متخذاً سبيلاً لتقييم الحال .

يحدث التغيير في شكل أو أكثر ، ويهيء لذلك الأسباب في أي موضع من المقدمة حتى النهاية أو في وسائل الرعاية والقيادة ، ليبقى الركب سائراً في نفس الوجهة والمضمار ، يحمِلُ الولاء لهذه العقيدة بكلّ أجزائه . ومن هـــذا الولاء ذاتِه ينبعُ ولاء الأجزاء واللَّبِنات بعضها لبعض . وقد يكون في الركب ملتصقٌ أو متهاونٌ . من ذلك ما يتم بمجيء قائد بسهولة تامّة مكان غيره ، استُشهد أو عُزل أو قُتل ، كما حدث في عهد الولاة مثلاً ، أو بعد جُهد وربما إثر تبدُّلات واجراءات أخرى يطول أمدها أو يقصر ، كما لاحظنا أيام الطوائف وكما سنلاحظ قبيل قيام غرناطة .

(١) انظر : أعلاه ، ٤٠٠ – ٤٠٢ .

لكن المروع لهذا النوع من العمل والنزوع الى التضحية والفداء منسجم مع مقدار صحة البِنْيَة ومرتبط ببعد الغور الذي وصلت إليه أُسسه . هذا أيضاً دليل بذاته إلى حقيقته وعنوان على طبيعته ، من غير بهرجة أو ادِّعاء ، فذاك أسلوب لايغيِّر ولا يصلح أداة للتغيير نحو الأحسن . على هذه الأضواء بالامكان فهم عدد من الأحداث في التاريخ الأندلسي ، من مثل عهد الولاة ثم الطوائف . وقد مرت قضايا تفصح عنه وتنبيء به .

الحالة قبل غرناطة

تلا ضَعْفَ السلطة الموحدية في الأندلس ضَيَاعُ العديد من قواعده . زيادة على عدم توفر القوة الكافية لمواجهة اسبانيا النصرانية المتنامية التي كثيراً ماكانت تتحد لتوجه سويةً ضربة للأندلس ، كان ذلك سبباً مهماً في هذا الاتحاد . مهم أن تظهر محاولات وتبرز شخصيات ، تُمسك على الأندلس مابقي منها . كانت تلك مهمة شاقة وجدّ عسيرة ، لكن الأمل بها قائماً والنفوس متطلعة والإمكانية متوفرة .

ابن هُود : أول شخصية أندلسية ظهرت في الميدان كانت من أسرة بني هود أصحاب سَرَقُسْطَة[1] . إنه أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هُود الجُذَامي الذي لُقِّب : أمير المسلمين سيف الدولة والمتوكل على الله[2] . كان يسكن مدينة مرسية ومن الأجناد فيها ، حيث بدأ نشاطه سنة ٦٢٥ هـ[3]. دخلت تحت طاعته عدة مدن أندلسية : مُرْسِيَة وقُرطُبَة وإشْبِيلية وغَرناطة ومَالَقَة والمَرِيَّة وغيرها[4] .

كان « قليل المبالاة » ، تغلب على تحركه الخفة والاستعجال . لذلك خسر بعض المعارك ، حيث نازل فِرَّانْدُهْ (الثالث) ملك قشتالة ، ووالده الفونش (التاسع)

(١) أعلاه ، ٣٥٥ وبعدها .

(٢) المغرب ، ١٠٩/٢ ، ٢٥١ ؛ العبر ، ٣٦٤/٤ ، ٣٦٥ ؛ نفح الطيب ، ٢١٥/١ .

(٣) الحلة السيراء ، ٣٠٨/٢ ؛ الروض المعطار ، ١١٨ ؛ المغرب في حلى المغرب ، ٢٥١/٢ ؛ أعمال الأعلام ، ٢٧٨/٢ ؛ العبر ، ٣٦٢/٤ .

(٤) أعمال الأعلام ، ٢٧٧/٢ — ٢٨٠ ؛ المغرب ، ١٠٨/٢ — ١٠٩ ، ٢٥١ — ٢٥٢ ؛ الاحاطة ، ١٣٠/٢ . كذلك : الاحاطة ، ١٤١/١ — ١٤٢ ؛ المغرب ، ٣٢٠/١ .

ملك ليون[1] . عمل ابن هود على إنهاء سلطان الموحدين في الأندلس ، الذين عجزوا — في هذه المدة — عن حماية الأندلس ، ثم الوقوف في وجه الأخطار وهجومات اسبانيا النصرانية . الظاهر أن ابن هود لم يكن في مستوى مقدرة قيادية يُعينه - في مثل تلك الظروف — للاحتفاظ بالأندلس . بل إن ابن سعيد علي بن موسى الأندلسي (٦١٠ — تونس ، ٦٨٥ هـ) يعتبر تولّي ابن هود أمر الأندلس ضاراً بها ، حيث وجد فيها « قلوباً منحرفة عن دولة بَرِّ العُدْوة ، مهيأة للاستبداد ، فملكها بأيسر محاولة ، مع الجهل المفرط وضعف الرأي »[2] . لكن ابن الخطيب يسوق حالَه مَساقاً آخر فيراه « شجاعاً ، كريماً حيياً وفياً ، متوكلاً عليه ، سليم الصدر ، قليل المبالاة بالأمور ، محدوداً ، لم يُنصر به جيش ، ولاوفق له رأي ، لغلبة الخفة عليه واستعجاله الحركات ونشاطه إلى لقاء الأعداء من غير كمال استعداد . وكان خروجه من مرسية تاسع رجب سنة ٦٢٥ ، وظهوره بالصخور من جهاتها في نفر يسيرمن الأجناد . »[3]

هُزم ابن هُود في عدد من المعارك ضد اسبانيا النصرانية ، ثم سقطت بعض القواعد الأندلسية — كما سبق بيانه[4] — منها قرطبة العاصمة التالدة . حيث حين حاصرها ملك قَشْتالَة فِرْانْدُهْ ، فِرْدِ لَنْد (الثالث) وتأهب أهلها للدفاع والاستماتة وطلبوا الغوث من ابن هُود نكل عنها وتركها لمصيرها المؤلم . في وقت واحد كانت الأندلس — وهي في هذه الظروف — تواجه هجوم عدد من ملوك اسبانيا النصرانية . حين بدأت الأندلس تجتاز هذه الظروف الصعبة ، كانت اسبانيا النصرانية تزداد قوة على حساب الأندلس ، وتتقارب وتتحد سلطاتها لحرب الأندلس ، وبسبب منه . استمر حصار قُرطبة عدة أشهر . كانت قواتُ قَشتالة قد احتلّت - قبل ذلك - بعض أبراج المدينة ودافع أهلها عن مدينتهم المسلمة أروع دفاع . لكن الحصار كان قاسياً وشديداً أرهق المدافعين الذين حين انقطع عنهم الأمل في مساعدة اضطروا الى

---

(١) راجع : أعمال الأعلام ، ٢/٢٧٧ — ٢٧٨ ؛ نفح الطيب ، ٤/٣٨٤ ؛ نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، عنان ، ٣٢ .

(٢) نفح الطيب ، ١/٢١٥ . كذلك : المغرب ، ٢/٢٥١ .

(٣) أعمال الأعلام ، ٢/٢٧٨ . كذلك : الاحاطة ، ٢/١٢٩ .

(٤) أعلاه ، ٤٧٢ وبعدها .

إلى التسليم . دخل الجيش القشتالي قرطبة في ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ (٢٩ حزيران = يونيو ١٢٣٦ م) . تكررت هذه الطريقة في الدفاع المستميت ونفاد كل وسيلة ، أو بعد حرب الجوع والعطش والحاجة ، حيث يضطر الناس إلى الاستسلام ، وبها تم ذَهاب عديد من المدن الأندلسية وقواعدها . ذلك ما لاحظناه خلال عدة أحداث . فلم تهزم هذه المُدُنُ أو تسقط في حرب تتكافأُ فيها الأسباب أو الفرص ، على الأقل .

ابن الأحمر : لم يكن ابن هُود وحده في الميدان إذ كان ينافسه أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر ، الملقب : الشيخ[1] والغالب بالله . توفي ابن هُود ، في مدينة المَرِيَّة أوائل سنة ٦٣٥ هـ[2] ، وهو يُعِدُّ نفسه لإنجاد بلنسية وأميرها أبي جميل زَيَّان[3].

استطاع ابن الأحمر أن يُكوِّن قوة احتفظت ببعض المناطق في جنوبي الأندلس وتأسيس **مملكة غَرْناطَة** « الأندلس الصغرى (الصغيرة) » . ورثَه — بعد وفاته — أبناء أسرته ، في حكم هذه المملكة حتى سقوطها بجيش الملكين الكاثوليكيين فِرَّانْدُه (الخامس Fernando V) ملك أرْغُون وإزابيل أو إزابيلا (Isabel, Isabella) ملكة قَشتالة وليون ؛ بعد حصار طويل ، خربت خلاله المزارع والمحاصيل وتضور الناس جوعاً وقطعوا كل أمل . جرى ذلك سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) ، على شروط اتفق عليها ، نقضت شيئاً فشيئاً على مراحل ، بعد حين ؛ وقاد رجال الكنيسة كبر هذا الأمر[4] .

عُمِّرت مملكة غَرناطة — رغم الصعوبات المتعددة في الداخل والخارج — ما يزيد على قرنين ونصف . توالى على حكمها خلال ذلك ما يربو على عشرين حاكماً (سلطاناً) ، وتمتع كثير من هؤلاء السلاطين بصفات ممتازة . كما ظهرت بغرناطة

(١) العبر ، ٣٥٩/٤ (= نفح ، ٤٤٦/١) ، ٣٦٦ (=نفح ، ٤٤٧/١) .
(٢) البيان المغرب (تطوان) ، ٣٣٥ ؛ أعمال الأعلام ، ٢٧٩/٢ — ٢٨٠ .
(٣) أعلاه ، ٤٧٣ وبعدها .
(٤) انظر : أدناه ، ٥٦٨ وبعدها .

شخصيات سياسية ذات كفاءآت عالية وقدرات ممتازة ، أدت كثيراً من واجبها نحو البناء . فضلاً عن أهل الملكات العلمية وأصحاب المواهب الأخرى ، وعلى تعدد المستويات كلها ، عاونت في البناء والحفاظ على هذه البقعة الأندلسية الصغيرة . ربما كان بالإمكان أن تستمر الأندلس في الوجود ، لكن العوامل الداخليَّة ثم الخارجية ساقتها إلى تلك النهاية المُرَوِّعة الكئيبة . فاندفَعت إلى نهايتها ، حين سقط سلطان المسلمين وكان انتهاؤهم سياسياً . لم يَقف الأمر عند هذا الحدِّ ، بل إن سياسة التعصب المقيت والحقد المميت ـ التي عاملت بها سلطات إسبانيا النصرانية الغالبة بقايا المجموعات الأندلسية المسلمة المغلوبة ـ قضت على وجود المسلمين ، بل حُرِم بعضهم حتى البقاء ، فكانوا طعمة للفناء . لاقوا خلال ذلك أسوأ ما عومل به مغلوب ، لاسيما مَن له عند الغالب أيادٍ بيضاء سَلَفت ، سواء بحسن معاملته إياه أو بغمره بإحسانه على أفانين ، وفي الميادين كافة .

حقيقة أن الضغط من الخارج كان قوياً ومستمراً ، أنهك قوى مملكة غَرناطَة ، وأكل كثيراً من طاقاتها ، مما كان يجعل دفعه شاقاً وصعباً تبدو مقصرة فيه . ويظهر أن العدو نال منها كثيراً في أوقات كانت تستفرغ قواها فيما بينها في نزاعات داخلية . فذهبت إلى مصيرها المأسوف ومصرعها المبكي . لكن تلك سنة الله سبحانه ـ في خلقه ، وهي لا تتخلف وقدرته القادرة في أمره ، وكما بين ـ جلَّت قدرته ـ في كتابه الكريم : ﴿ وأطِيعُوا اللهَ ورسولَه ولا تَنازَعُوا فتَفْشَلوا وتَذهَبَ رِيحُكُم واصبروا إن اللهَ مع الصَّابرين ﴾[1]

* * *

وبعد هذه المقدمات يشرع في تفصيل ما يتعلق بمملكة غَرْنَاطَة من موضوعات .

أولاً : نَشْأتها

ظهر ابنُ الأحمر في الظروف المذكورة واجتمع حوله الأعوان ليحتفظوا بما يمكن من مدن الأندلس المتبقية ، متمثلة في مملكة غَرناطة . ابن الأحمر هو : أبو

(١) الآية ٤٦ من سورة الأنفال .

عبد الله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خـَميس بن نصر بن قيس الخزرجي . يرجع نسبه الى سعد بن عُبَادة الأنصاري ، أحد كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان « نقيباً ، شَهِد العَقَبَة وبدراً »[1].

ولد محمد بن يوسف في مدينة أَرْجُونَة (Arjona) ، « من حصون قُرطبة »[2] في جهة الشرق ، سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥ م) ، وهو عام الأرَك[3] . كان جندياً وافر العزم والجرأة[4] ، دَعا لِلَمّ الشَّمْل ، فاجتمع حولَه الكثير . دخلت في طاعتَه عدة مدن ، لا سيما في وسَط الأندلس ، قبل سنة ٦٣٠ هـ ، ثم كانت بيعتُه ، أميراً لمملكة غَرناطة ، يوم الجمعة ٢٦ رمضان سنة ٦٣٥ هـ[5]. وكانت مناطق أخرى قد دخلت تحت سلطان ابن هُود ، شرقي الأندلس وكذلك غرناطة[6] . لكن بوفاة ابن هُود زال أكبر مُنافِسٍ لابن الأحمر ، ودخلَت غَرناطة في طاعته . ثم استُدعيَ إليها ، فدخلها في أواخر رمضان سنة ٦٣٥ هـ (نيسان ١٢٣٨ م) . أصبحت مدينة غَرْنَاطَة حاضرة المملكة ، وانضمت اليها مناطق أندلسية أُخرى منها مناطق جنوبي الأندلس وشرقيها[7] .

نشأت غَرْنَاطَة في هذه الظروف الشاقة وغَمْرة الأحداث التي كان بالإمكان أن تُودي بها . لكن غَرْنَاطَة لم تستطع المحافظة على كل الأندلس ، التي كانت خاضعة لسلطان الموحدين . خلال هذه الآونة العصيبة ، التي ظهرت فيها مملكة غرناطة ، سقطت عديد من القواعد الأندلسية ، كما سبق ذكره[8] . سقطت قرطبة عاصمة

---

(١) الاستيعاب ، أبو عمر بن عبد البر ، ٥٩٤/٢ (رقم : ٩٤٤) .
(٢) العبر ، ٣٦٦/٤ (= نفح الطيب ، ٤٤٧/١).
(٣) الاحاطة ، ٩٩/٢ ، ١٠٠ .
(٤) راجع عنه : نفح الطيب ، ٢١٦/١ ، ٤٤٧ ؛ المغرب ، ١٠٩/٢ ؛ الإحاطة ، ٩٢/٢ ؛ الروض المعطار ، ١٢ ؛ الوافي بالوفيات ، الصفدي ، ٢٥٥/٥ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ٤٣٦/٢ ؛ نهاية الأندلس ، ٣٨ .
(٥) الاحاطة ، ١٠٠/٢ — ١٠١ .
(٦) الاحاطة ، ١٤٢/١ .
(٧) نهاية الأندلس ، ٤٠ .
(٨) اعلاه ، ٤٧١ وبعدها .

الخلافة سنة ٦٣٣ ﻫ وبلنسية سنة ٦٣٦ ﻫ وإشبيلية سنة ٦٤٦ ، ثم تلتها مدن وحصون أخرى . أما المُدنُ والمناطق التي بقيت للمسلمين فقد احتوتها مملكة غَرْنَاطَة ، في الطرف الجنوبي من الجزيرة الأندلسية .

كانت غَرْنَاطَة (إغْرَنَاطَة) في الأصل – قبل الفتح الإسلامي للأندلس – مدينة صغيرة قرب مدينة إلْبِيره (Elvira) ، عاصمة الولاية أو الكورة التي تعرف بنفس الاسم . بمرور الزمن حَلَّت غَرْنَاطَة (Granada) محلَّها ، حتى غدت قاعدة إحدى إمارات الطوائف[1] ، ثم حاضرة مملكتها . وتقع مدينة غَرناطَة على وادي (نهر) شَنِّيل (Genil,xenil) أحد فروع الوادي الكبير .

ضَمت مملكة غَرْناطَة ، أيام بني الأحمر ، الطرفَ الجنوبي من الجزيرة الأندلسية : جنوب نهر الوادي الكبير إلى البحر المتوسط ، حيث الجزيرة الخضراء وجبل طارق ؛ ومن لُورْقَة في ولاية مُرْسِيَة شرقاً إلى البحر المتوسط ؛ ومن الشمال حتى قلعة يَحْصُب (Alcala la Real) ، في ولاية جَيَّان ، الى شَذُونَة في ولاية قَادِس غرباً . شَمَلت ثلاث ولايات كبيرة : ولاية غَرْنَاطَة في الوسط وفيها العاصمة غَرْنَاطة ، وولاية المَرِيَّة في الشرق ، وولاية مَالَقَة في الجنوب والغرب[2] .

هذه هي المنطقة التي استطاع الاحتفاظ بها نَفَر من رجال الأندلس بقيادة محمد ابن الاحمر مدى قرنين ونصف ، بقية عمر سلطان المسلمين في الأندلس . وكان شعار بني الأحمر **لا غالبَ إلاّ الله** . وقد أورد ابن الخطيب في **الإحاطة** وصفاً قَيِّماً لأحوال غرناطة الجغرافية والبشرية والعمرانية والسياسية[3] ؛ بجانب المعلومات المفصلة المتنوعة عما يتعلق بها .

ولقد اعتُبِر من الغرائب استمرار مملكة غرناطة هذه المدة ، رغم صغرها وقلة عدد سكانها ، محافِظةً على مابقي للمسلمين من سلطان سياسي ووجود حضاري معطاء .

---

(١) أعلاه ، ٣٥٥ ، ٣٩٥ (حاشية ٦) ، ٤٠٤ .
(٢) الإحاطة ، ١/١١٥ – ١١٩ ؛ نهاية الأندلس ، ٥٥ .
(٣) الإحاطة ، ١/٩١ – ١٤٣ . كذلك: الروض المعطار ، ٢٣ ؛ نفح الطيب ، ١/١٤٧ – ١٥٠ .

ثانيًا : ثبات غرناطة وأسبابه

لم يكن من الميسور على مملكة غرناطة البقاء كُلّ تلك المدة (قرنين ونصف) ، في هاتيك الظروف . حتى لقد كان ذلك مثاراً للدهشة والاستغراب لعديد من الباحثين المحدثين(١) . ووَجْه الغرابة أن دولةً بهذا الحجم اليسير ، من المساحة والأعداد البشريّة ، مع تلك الضخامة من التّكاليف والتّضحيات ، تُواجِه القوة العَدديّة والإمكانيّات الواسعة لدى دول إسبانيا النصرانية ، التي جعلت كلّ واحدة منها (منفردةً أو متحدةً) مُهاجَمةَ مملكة غَرناطة هَدفاً في المقدمة ، كلها تُعدُّ العدة وتضع الخُطط . لذلك كانت هـذه القرون مليئـةً بالصراع ، وهي لا تخلو من مهادنات ، تدفع مملكة غرناطة فيها أحياناً المبالغ الباهظة . رغم ذلك فقد وُجدت مدد من الهدوء والمُسالَمة ، لم يكن يحرص عليها حكام إسبانيا النصرانية التي غدت في هذا الوقت صاحبة القوة .

لابد لهذا الثبات من أسباب ، نحاول التعرف عليها أو على بعضها ، في النواحي : الجغرافية والتاريخية والبشرية (الانسانية) . لكن يجب أن تُفهم كل هـذه العوامل ضمن إطار معين ، سيتبعها ذكرُه .

١ ــ إن قوة العدو وتفوّقَه ووجودَ عوامل في داخل الأندلس مكنته من افتراص الظروف لتنفيذ مشاريعه باقتطاع أجزاء من الأندلس . كانت المناطق والحصون ثم القواعد الأندلسية ، الأقرب اليه ، هي أول ما يَلقى هذا المصير خلال تقدمه . إنّ ما ضمته مملكةُ غَرْناطَة كان أبعدَ ـ مكاناً ـ عن الوقوع في يد عدوِّ الأندلس ، فهي أبعد عن تناوله ، مع مناعة في الموقع . بجانب قربها من عُدْوة المغرب ، وعدم وجود خط معادٍ أمام مسلمي غَرناطة ، يقف حائلاً دون الاستعانة بإخوتهم في المَغرب وبقية الشمال الإفريقي .

٢ ــ إن موقع مملكة غرناطة في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الأندلسية ــ التي قد تبدو منقطعة ، حيث البحر من الجنوب والعدو من الشمال ــ لم يدعها تعيش طوال

(١) نهاية الأندلس ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ــ ٤١ ، ٧٤ ، ٧٦ .

سنيِّها وحيدة . بل كان الأخوة في المغرب لايتأخرون عن عون إخوانهم الأندلسيين. طالما جاهدوا صفاً واحداً لدرء الخطر ، لايبخلون بتضحية : استجابةً لأخُوَّة الدين ورغبة في نصرتهم مجاهدين ، وليس وراء ذلك مغنم .

كان بنومَرِين، أصحاب الدولة الفتية في عُدْوة المغرب، نعم المعاون ؛ وإن أصاب هذه العلاقة أحياناً بعض الضعف أو اعتراها التردد . بل اعتاد بنو مَرِين ترك فرق دائمة في الأندلس ، للمرابطة على تلك الثغور الأندلسية ، متفرغة للجهاد فيها .

لا بُدَّ من ملاحظة ظاهرة مع دول المَغرب ، التي سبقت بني مَرِين في هذه السُّنَّة الحسنة تجاه الأندلس ، والتي لم تبْخَل بأيِّ جُهْدٍ مُمكن . إذ قادت الأوضاع — أيام تلك الدول — إلى أن تنضم الأندلس تحت جناحها ، كما هو الحال مع المرابطين والموحدين . أما مع بني مَرِين فلم يحدث مثل ذلك ، لكنها استمرت تقوم بواجب المرابطة والجهاد في الأندلس . ما من شك كان لهذا الموقف أهمية بالغة في الحفاظ على الأندلس . ويوم ضعفت الدولة المرينية عن القيام بهذا الواجب — مع العوامل الأخرى — عجزت الأندلس عن المقاومة ، فقُطعت من أجنحتها مما تركها فريسة في النهاية .

لو استمرت الدولة المَرينية على قوتها ، أو خلَفَتها مباشرة دولة قوية ، لتغيرت مُجرايات الأمور في الأندلس . مع ذلك فقد كان الأوْلى والأحرى بالأندلس أن تُكَوِّن لنفسها من القوة الذاتية ما يعينها على البقاء . لو تم ذلك لاتخذت الأحداث صيغة أخرى ، وهي تلحظ بوضوح — من التجارب السابقة التي رأتها ، والأخرى التي تعيشها — أن العدو يتربص دوماً — مهما توقف — ليتخَطَّفَها . إن دولاً أخرى أصابها ما أصاب الأندلس من الضعف وحلّ بها ما ماثَل مشاكله ، لكن لا خطر خارجي يهدِّدها بالفناء[1] .

الأندلس — مثل صقلية وغيرها ، في مختلف العهود - كان الضعف يعني الفناء ، إذ هو مجلبة له . كان ذلك وحده يكفي دافعاً لتلافي العوامل المؤدية اليه ، وإن ذَهاب

(١) قارن : أعلاه ، ١٣٥ .

سلطان المسلمين السياسي في الأندلس باب لذهابهم وانتهاء وجودهم . هكذا — في هذا المكان وفي غيره — واجهت الصليبية الإسلام ، الذي لم يتخلف التعامل به عن الانصاف والإحسان في المعاملة إلى غير المسلمين الذين رضوا بالعيش في المجتمع الإسلامي . حتى ليبدو أنّ ذلك كان يُزعجهم ويقوّي لديهم ، ويثير فيهم ، رغبة الانتقام المفترس . والله تعالى يقول في القرآن الكريم : ﴿ لا يَنْهاكُمُ اللهُ عن الذين لم يُقاتِلُوكُم في الدين ولم يُخْرِجُوكُم مِنْ دِيَارِكُم أنْ تَبَرُّوهُم وتُقْسِطوا إليهم إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِين ﴾[1]

٣ — بعد الذي جرى للأندلس - مِن سقوط عديد من قواعده ، في هذا المدة - بقيت في بعضها أعداد من المسلمين تحت الحكم النصراني . سُمِّيَ هؤلاء : **المُدَجَّنون** (Los Mudejares) . احتملت مدن أخرى نفس المصير ؛ لكن البعض القليل نُصِّرَت بحملات — عديدة مديدة — ضد المسلمين . كان كثير من المسلمين يهجرون مدينتهم ، حين تسقط ، ليلتحقوا بمدينة ما زالت الكلمة فيها لسلطان المسلمين .

لما قامت مملكة غَرناطة ، بعد أن لاح لمُسْلِمة الأندلس شبحُ الفناء ، اعتبروها ملاذاً ، به يحتمون واليه يلجئون . وصل بلد الأندلس مرحلة عالية من الحضارة ، كثر فيه أهل المهارات والكفايات من النساء والرجال ، وعلى مستويات عالية . فتجمّعت فيها كثرة من هؤلاء الذين برعوا في كل ميدان ، حربياً كان أو مدنياً .

كان مِن هؤلاء رجال الحرب والدفاع الأشداء الذين صمّموا على الوقوف والاستعداد للتضحية . تَوَفُّرُ هذا اللون من الناس منح غَرناطة انتعاشاً في مختلف الميادين التي استمرت في النمو مهما اختلف الإطار ، وهيأ الرجال تحميها من الأخطار . استمر انتاج غَرناطة في أفانين الحضارة ، رغم الصراع الذي تطلب الجهود الكثيرة . وهو أمر يُلفت النَّظر ، مثلما فعل قيامُها واستمرار وجودها . فكانت غرناطة

---

(١) الآية ٨ من سورة الممتحنة .

لعل مملكة غرناطة انتفعت — الى أي حد ، في أوقات — بما كان يجري داخل أية من دول اسبانيا النصرانية من مشاكل أو تحدث من منازعات ، وحين تقوم فيما بين تلك الدول خصومات أو تدور مواجهات .

جَمَّاعَةً لطاقات أهل الأندلس من كل لون وميدان[1] . لكن هل كنا نتوقع منهم ، أو هم فكروا في استعادة مافقدوه أم فقط للمحافظة على ما استنقذوه ؟

انضافت تلك الطاقات البشرية المهاجرة ـ من مناطق الأندلس ، خارج غرناطة ـ الى ما كان في ذاتها ، فغدت بها غنية أنعشت بقية الأمل وأمدت ـ بتوفيق الله ـ في الأجل . تركزت في هذه البقعة ألوانُ القدرات ومعادنُ الهمم التي سمت بأصحابها عن الرضوخ لحياة ـ على حساب دينها ـ ذليلة ، واستعملت لهذه الغاية كل وسيلة .

ما الذي كان سيحدث لو تعايشت اسبانيا النصرانية الظافرة مع مملكة غَرناطة ، على الأقل كما بقيت اسبانيا النصرانية مدى القرون الأولى من الفتح ، أو حتّى لو ترك المسلمون يعايشون النصارى في الوضع الجديد ولو على شكل أقلية ، كما كان هؤلاء قبلاً في المجتمع الأندلسي المسلم ؟

٤ ـ لاتبدو ـ الأسباب الثلاثة الآنفة ـ كافيةً لتعليل وقوف غَرناطة ، مجردة من معانيها الأصلية وأطُرها الحقيقية ذات الطبيعة الواحدة . يجوز اعتبار هذا عاملاً واحداً ، أو أكثر ، مُنفَرِداً أو ناظماً لما سبق ، في عقد متناسق الشكل والمدلول .

ذلك المقدار الذي بقي من الالتزام بالإسلام هو الذي وهب هذه المعاني معنى حيّاً وحياة حقيقية . هو الذي جَمَّع هذه الطاقات ودفعها للوقوف مجتمعة ، والاستعداد للبذل ، وفتق القدرات ورفع الهمم . كما كان العامل وراء وقوف بني مَرين مع إخوانهم ، ثم الانتفاع بكل الإمكانيات الأخرى ضمن الظروف المتاحة . المعاني الإسلامية التي بقيت لدى الناس وما استمر من ذلك الغرس ، في حدود ما أتيح له من أجواء التنمية ، أنتجت ثمرات حضارية تحمل الألوان كافة وتمتلك صوراً شتى ، رغم ما أصيبت به من غَبَش أو حلّ بها من ظلام كان السبب فيما انبتّ منها أو ذهب .

لعل في هذا مايزيل من الاستغراب والدهشة التي صاحبت تعليل أسباب ثبات

---

(١) راجع : نهاية الأندلس ، ٧٠ ـ ٧١ .

هذه المملكة الصغيرة ، وهي في ذلك الخضم المزبد الزاحف . انه يوضّح حقيقة اللغز في ذُبالة تبدو قريبة الانطفاء اذا بها تجدد ، وظروفها شاقّة وما حولها عات مدمّر ، لتستمر في الاشتعال مادام يسري فيها هذا المعنى الأصيل . ويوم ذَوى ، ذَبَلَت ثم أُطفئت بسهولة رغم وجود بعض العوامل السابقة ، مجرّدة من معناها ذاك[1] .

ثالثًا : توقّف الانحسار

بدأت بوادر الانحسار منذ لاحت الطوائف . تداورت الأندلسَ الأحداثُ وتقاذفتها المحن . لكن تداركتها عنايةُ الله القدير ، مِن قَبْلُ ومِن بَعْدُ ، بجهاد إخوانهم في عُدْوة المغربَ من المرابطين والموحدين ، فَرَدَّت عنها المخاطر وحفظت عليها الدروب . حتى إذا ما ذهبت ريح هؤلاء ، فُتحت على الأندلس الباب المغلق وتتابع الانحسار ، في الفترة التي سبقت قيام مملكة غرناطة ، ولم يكن يلوح واضحاً تَوَقُّفُه قبل النهاية . لكن الله سلّم ، وقامت هذه المملكة لتأوي إليها البقية الباقية ، عدداً من الأجيال .

قيامُ غَرناطة – في الظروف والأسباب التي تبيّنّاها – كانت الحائط الذي حجب الانحسار عن بقية الأندلس والسد الذي عنده توقّف . كان بالإمكان – على ما يبدو – الثبات والاستمرار ، على الأقل حتى يتهيأ من الأسباب المماثلة .

مَن لا تقوى نفسُه على الثبات ووجد العونَ في يومه فقد يفقده في غده فيهوي . ومَن لاتحمله قوتُه في الوقوف يكون – رغم الإمداد – عرضة للسقوط . هذا إذا كان العون من أخ العقيدة ، يَمْحَض المحبةَ ويشارك المِحْنَة ، يجاهد متكاتفاً ويبذل محتسباً ، كما رأينا قبل قيام مملكة غرناطة وخلاله . لاحرج في استمداد العون وقت الحاجة فهو ضرورة وواجب ، على ألا يغدو الوسيلة الوحيدة ، تُفْتَقَد غيرُها . ومهما يكن من أمر فقد قامت مملكة غَرْنَاطة وتوقف الانحسار لقرون .

---

(١) قارن : نهاية الأندلس ، ٤٠ – ٤١ ؛ أدناه ، ٥٤٩ وبعدها .

رابعًا : حَالة إسْبَانيا النصْرَانيّة

سلف الحديث عن اسبانيا النصرانية ، منذ نشأتها وظهورها تُصارِع الأندلس أيام الطوائف وما بعدها[1] .

رأينا كيف بدأت دويلاتها صغيرة في الشمال (ليون وقَشتالة ونَبَارَّة) ، وكانت ليون أقواها . وفي نهاية القرن الرابع الهجري بدأت نَبَارَّة تظهر قوية . وَرِث ملكها شَانجُهْ (الثالث) عرش قشتالة ووضع ابنَه فِرَّانْدُهْ (فِرْدِ لَنْد) ملكاً عليها[2] . تَلَقَّبَ شَانْجُهْ بملك اسبانيا النصرانية ثم احتل ليون ، التي ضُمت بعد وفاته الى ابنه فِرَّانْدُهْ ، حيث توفي سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) . تُقَسَّم المملكة بين أولاده الثلاثة وتجري أحداث تنتهي بتولي الفونش (السادس) عرش قَشْتَالَة ولِيون ، وكان له جهد في الأحداث أيام الطوائف . ثم كانت وراثة الفونش (السابع) السُّلَيْطين لقشتالة وليون . جرت بين السُّلَيْطين والفونش (الأول ، المحارب) ابن ردمير ملك أَرْغُون أحداث حتى وفاة الأخير في معركة إفْراغَة سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٤م) . توفي الفونش (السابع) سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) .

بلغت دول اسبانيا النصرانية — في القرن السادس الهجري — خمساً ، هي : قَشْتَالَة ولِيون وأَرْغُون ونَبَارَّة والبرتغال . ظهرت الأخيرة مستقلة في عهد ملكها الفونش ابن الرِّيق (Alfonso Enriquez)[3] . حين توفي ابن الرِّيق سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) وَرِثه ابنُه شَانْجُهْ (الأول) .

استمرت مملكة قَشتالة قوية ، ونازل ملكُها الفُونْش (الثامن) الموحِّدين في معركتين فاصلتين ، هما : الأَرَك (٥٩١ هـ) والعِقاب (٦٠٩ هـ) .

تُضم مملكة نَبَارَّة — بعد ذلك — إلى الدول الأخرى ، وكذلك ليون . حيث

---

(١) أعلاه ، ٢٦٦ — ٢٧٧ ، ٣٢٦ — ٣٣٥ ، ٣٥٦ — ٣٥٨ ، ٣٦٧ — ٣٨٦ ، ٣٩٣ — ٣٩٤ ، ٤٠٣ — ٤٠٩ ، ٤٢١ — ٤٣٧ ، ٤٦٠ — ٤٦٥ ، ٤٦٩ — ٤٩٧ .

(٢) أعلاه ، ٢٧٦ ، ٣٢٧ .

(٣) أعلاه ، ٣٥٧ ، ٤٦٠ .

يرث فِرَّانْدُهْ (الثالث) ــ حفيدُ الفُونْش (الثامن) من ابنته بِرنْقالَه[1] Berenguela : زوجة الفونش التاسع ملك ليون) ــ عرشَ قَشْتَالَة . ثم يرث فِرَّانْدُهْ (الثالث) عرشَ ليون كذلك ، منذ وفاة أبيه الفونش (التاسع) سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) .

كانت ــ خلال عهد غَرناطة ــ ثلاث ممالك في اسبانيا النصرانية : البرتغال وأَرْغُون وقَشْتَالَة أقواها . وبجيوش قَشْتالة وملكها فِرَّانْدُهْ (الثالث) ومن معهم كان سقوط قُرطبة (٦٣٣ هـ) وإشْبيليَة (٦٤٦ هـ) وجَيَّان (٤٦٣ هـ) ، فانتقلت عاصمة قَشتالة من طُلَيْطُلَة إلى إشْبِيلِيَة . وبجيوش ملك أَرْعَون جايْمِش (الأول) (Jaime I) كان سقوط بَلَنْسِيَة سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) . كانت هاتان الدولتان (قَشْتالة وأَرْغُون) تتعاونان في مهاجمة الأندلس والقضاء فيها على الدولة والأمة الإسلامية ، في حين كانت البرتغال تعمل على ضم الأراضي الأندلسية الواقعة جنوبها في ولاية الغرب[2] . وعلى هذا الخط ، في الوضع السياسي لاسبانيا النصرانية ، جرت الأمور حتى العصر الحديث . حيث توجد الآن في شبه الجزيرة الأندلسية دولتان ، هما : اسبانيا (من اتحاد مملكَتَيْ قَشْتَالَة وأَرْغُون) والبرتُغال التي استمرت مستقلَّة في الخط الذي سلكَتْه .

قشتالَة :

توفي فِرَّانْدُهْ (الثالث) ملكُ قَشْتالة سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) فوَرِثَه ابنُه الفُونْش (العاشر) (الملقب عندهم : العالم El Sabio) ، الذي تُوفي سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) فورثَه ابنُه شَانْجُهْ (الرابع) (الملقَّب عندهم : الباسل El Bravo) . عقد هذا معاهدة سلام مع مملكة غرناطة . ولما توفي سنة ٦٩٥هـ (١٢٩٥م) خلَفَه ابنُه فِرَّانْدُهْ (الرابع) الذي تلاه سنة ٧١٢ هـ (١٣١٢ م) ابنُه الفونش (الحادي عشر) وكان رضيعاً وضع تحت الوصاية . وحدث في أيامه اللقاء الهائل بين المسلمين ، بقيادة شيخ الغُزاة أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء ، وبين جند قشتالة (ومن معهم) الذين هزموا ، وذلك سنة ٧١٨ هـ (١٣٠٨ م)[3] .

---

(١) أعمال الأعلام ، ٣٣١/٢ .

(٢) راجع : نهاية الأندلس ٨٧ - ٨٨ . (٣) أدناه ، ٥٤١ - ٥٤٣ .

قائمة ملوك قَشْتَالَة أيام غَرْنَاطَة[1]

(١) الفُونْش العاشر (العالم) (خُلع ٦٨١ هـ = ١٢٨٢ م)

(٢) شَانْجُه الرابع (الباسل) (٦٩٥ هـ = ١٢٩٥ م)

(٣) فِرَّانْدُه (فِرْدِلَنْد) الرابع (٧١٢ هـ = ١٣١٢ م)

(٤) الفونْش الحادي عشر (٧٥١ هـ = ١٣٥٠ م)

(٥) بِطْرُه الأول (القاسي) (٧٦٩ هـ = ١٣٦٩ م)

(٦) إنريق (هنري الثاني) (٧٨٠ هـ = ١٣٧٩ م)

(٧) يوحنا الأول (٧٩٢ هـ = ١٣٩٠ م)

(٨) إنريق الثالث (٨٠٩ هـ = ١٤٠٦ م)

(٩) يوحنا الثاني (٨٥٨ هـ = ١٤٥٤ م)

(١٠) إنريق الرابع (٨٧٩ هـ = ١٤٧٤ م) (١١) إزابيل (٩١٠ هـ = ١٥٠٤ م)

---

(١) انظر : أعلاه ، ٢٧٥ ، ٣٢٨ ، ٤٦٦ .

قائمة ملوك أرغون[1]

جَايْمِش الأول (٦٧٥ هـ = ١٢٧٦ م)

(١) بُطْرُهْ الثالث (٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م)

(٢) الفُونْش الثالث (٦٩٠هـ=١٢٩١م) (٣) جَايْمِش الثاني (٧٢٧ هـ = ١٣٢٧ م)

(٤) الفُونْش الرابع (٧٣٦ هـ = ١٣٣٦ م)

(٥) بُطْرُهْ الرابع (٧٨٩ هـ = ١٣٨٧ م)

ابنته : ألينور (Leonor) +

(٦) يوحنا الأول (٧) مرتين (الأول (Martin I) يوحنا الأول ملك قشتالة

(٧٩٨ هـ = ١٣٩٥ م) (٨١٣ هـ = ١٤١٠ م)

(٨) فِرْدِّانْدُهْ الأول (صاحب أَنْتَقِيره)

(Fernando el de Antequera)

(٨١٨ هـ = ١٤١٦ م)

(٩) الفُونْش الخامس (٨٤٦ هـ = ١٤٤٢م) (١٠) يوحنا الثاني (٨٨٤هـ=١٤٧٩م)

(١١) فِرْدِّانْدُهْ الخامس (٩٢١هـ=١٥١٦م)

+ (٨٧٤ هـ = ١٤٦٩ م)

إزابيل القَشتالية (٩١٠هـ=١٥٠٤م)

---

(١) انظر : أعلاه ، ٤٦٧ .

لما بلغ الفُونْش (الحادي عشر) أَشُدَّه قام بنشاط واضح في مهاجمة الأراضي الإسلامية ، كان منها « وقعة طريف » سنة ٧٤١ هـ[١] . وهو الذي حاصر جبل طارق وفشل في إسقاطه وفشا الوباء في جيشه فتوفي سنة ٧٥١ هـ[٢] (١٣٥٠ م) .
وَرِثَ الفُونْش (الحادي عشر) ابنُه بُطْرُهْ (الأول) (الملقب عندهم : القاسي El Cruel)[٣] . وعلى بُطْرُهْ (الأول) هـــذا وفد ابنُ خَلْدون في إشْبِيلِيَة سفيراً لملك غَرْناطة محمد (الخامس) الغني بالله سنة ٧٦٥ هـ (١٣٦٣ م)[٤] . جرت أحداث مع بُطْرُهْ (الأول) انتهت بمقتله سنة ٧٦٩ هـ[٥] (١٣٦٩ م) .
وَرِثَ العرشَ أخوه إنْريق (هنري الثاني Enrique II بن الفونش الحادي عشر Alfonso XI) من أسرة تراستمارا (Trastamara) . لما توفي إنْريق سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٩ م) خَلَفَه ابنُه يوحنا (خوان الأول Juan I) . عند وفاته جاء إلى العرش ابنُه إنريق (الثالث) سنة ٧٩٢هـ(١٣٩٠ م) . توفي هذا سنة ٨٠٩ هـ (١٤٠٦ م) فجاء ابنُه يوحنا (خوان الثاني) وكان طفلاً . توفي يوحنا(خوان الثاني) سنة ٨٥٨ هـ (١٤٥٤م)، وكانت له بنتاً هي إزابيل أو إزابيلا (Isabel,Isabella) التي لها مشاركة واضحة في الأحداث المعاصرة لسقوط غرناطة . ورث يوحنا (الثاني) ابنُه إنْريق (هنري الرابع الملقب بالعاجز El Impotente) . عند وفاته سنة ٨٧٩ هـ (١٤٧٤ م) ورثت اختُه إزابيل عرشَ قَشْتَالَة . وكانت إزابيل قد تزوجت ـ سنة ٨٧٤ هـ (١٤٩٦م) ـ ابن عمها فِرَّانْدُهْ الذي ورث عرشَ أَرْغُون باسم : فِرَّانْدُهْ (الخامس Fernando V)[٦] .

---

(١) أدناه ، ٥٤٣ .
(٢) أعمال الاعلام ، ٣٣٥/٢ .
(٣) *Manual de historia de Espana*, I, 755.
(٤) راجع : التعريف بابن خلدون ورحلته غرباًوشرقاً ، ابن خلدون ، ٨٤ ؛ نهاية الأندلس، ١٤٢، ١٧٣ .
(٥) راجع : العبر ، ٣٧٧/٤ – ٣٧٨ .
(٦) راجع : نهاية الأندلس ، ١٧٢ – ١٨٠ . كذلك :
Manual de historia de Espana, I, 763, 803 – 4.

أَرْغُون

لدى وفاة جَايْمِش (خايمي الأول Jaime I) ملك أَرْغُون ، سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٦ م) ، خَلَفَه ابنُه مُطْرُهْ (الثالث) حتى سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) ، حيث جاء ابنُه الفُونْش (الثالث) ، فورثه سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) أخوه جَايْمِش (Jaime II) ، حتى سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م) ، إذ ورثه ابنُه الفونش (الرابع) . حكم بعده ، سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٦ م) ، ابنُه بُطْرُهْ (الرابع) ، حتى وفاته سنة ٧٨٩ هـ (١٣٨٧ م) .

توالى الملوك على عرش أَرْغُون حتى كان يوحنا (خوان الثاني) الذي سعى بتزويج ابنه فِرَّانْدُهْ (الخامس) من ابنة عمه إزابيل القَشتاليـة . ترك يوحنا (خوان الثاني) العرشَ سنة ٨٨٤ هـ (١٤٧٩ م) لابنه فِرَّانْدُهْ (الخامس) . تم بهذا الزواج وحدة اسبانيا النصرانية . وبجيوش فِرَّانْدُهْ (الخامس) وإزابيل ، الملكين الكاثوليكيين (كما عُرفا) ، ومن معهم يكون استسلام غَرناطة سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) ، آخر حصون المسلمين في شبه الجزيرة الأندلسية .

خامسًا : الصِّراع بَيْنَ غرناطة وسُلطات إسبانيا النصرانية

مر شرح ألوان من الأحداث والمواجهات جرت بين الأندلس واسبانيا النصرانية ، منذ وقت مبكر ؛ أخذ عدة أشكال ، أحدها الطابَع الصليبي[1] الذي حُمِلت رايتُه في أكثر من مناسبة . وليس من الضروري أن يقتصر معنى « **الحروب الصليبية** » على تعدد الجهات التي ترد منها الجيوش لتتجمع في حرب المسلمين ، لكنها ربما حتى لو كانت جبهة واحدة فهي تحمل هذه الروح . ويراد بها : الحرب التي لاهدف لها ولامبرر ، وعلى شكل من القسوة المبيدة والافناء الشامل ، تخلو من أي مُثُل ، ولاترعى ذمة ولاتلتزم بعهد ولا تُبقي شيئاً أو تترك أحداً ، وتفعل ذلك ابتداء ، بل تقابل به — وبشكل أعنف — مَن سبَق لها منه خير وفضل وإحسان في المعاملة[2]

---

(١) أعلاه ، ٢٧٠ ، ٣١٢ ، ٤٩٧ ، أدناه ، ٥٧٦ .

(٢) انظر : أعلاه ، ٧٨ — ٨٢ ، ٢٨٤ ، ٣٣٠ — ٣٣٥ ، ٤٨١ ، ٥١٩ ، أدناه ، ٥٦٨ — ٥٧٨ .

تخللت المدة التي سبقت عصر الطوائف أحداث ومصادمات ، وكانت تبدؤها اسبانيا النصرانية ضد الأندلس . يتم ذلك — وفي أحيان كثيرة — رغم وجود معاهدة ومواثيق مع الأندلس . ولكن — في أغلب الأحوال — كانت تنتهي بالكف عن الاعتداء والعودة إلى سابق العهود ، حين ترى من القوة التي لا قبل لها بها ، بسبب قوة الأندلس ويقظتها . وكانت اسبانيا النصرانية — طول تلك المدة — في موقف الضعيف رغم اتحادها للوقوف صفاً واحداً ضد الأندلس .

أما في عهد الطوائف فقد توزعت الأندلسَ الفتنةُ الحالكة التي شاركت كثيراً في إبعادها عن التوحُّد ، حتى وقت الخطر . كان ذلك مبعثَ القوة لإسبانيا النصرانية التي نالت من الأندلس كثيراً ، بضعف الأخيرة وتوزعها ، أكثر مما نالت بقوتها . ثم تدارك الله الأندلس بالمرابطين ثم الموحدين . تلت ذلك أحداث أكدت هذا الاتجاه ، حتى قامت غَرْناطة ، مملكة صغيرة منزوية في الركن الجنوبي لشبه الجزيرة الأندلسية . هذا ما رأيناه خلال دراستنا الموضوعات السابقة عن الصراع الذي تحمل إسبانيا النصرانية رايتَه ، وطالما كان سبباً في توحُّدها للوقوف جبهةً واحدةً ضدَّ الأندلس .

لكن إسبانيا النصرانية — بعد قيام غَرْناطة — كانت في مصارعتها لها أعنف وأكثر وضوحاً حتى بالنسبة لمسلمي غرناطة ، وإن كانت أحياناً تَجِدُّ لدى بعض دولها أحداث داخلية أو فيما بينها تشغلها لوقت ما ، لكن غرناطة لم تكن لتخلو من هذا المظهر . رغم ذلك فإن أية من دول اسبانيا النصرانية منفردة ، كانت أقوى من مملكة غرناطة ، حيث تجمّع لدى هذه أو تلك من دول اسبانيا النصرانية الإمكانيات العسكرية في العدة والعدد والمورد ما يفوق كثيراً الذي لدى غرناطة . زيادة إلى أنه طالما استعانت ببعضها وبقوات من خارج شبه الجزيرة الأندلسية تحمل لواء الصليبية . وحتى لو لم تتعاون هذه الدول وقامت بأعمال حربية ضدَّ غرناطة فالأمر في صالح بعضها بإضعاف خصمها ، وذلك يعني أن على غَرناطة أن تحارب في أكثر من جبهة . كان سقوط أية بقعة أو حصن من غرناطة في حرب أية من دول إسبانيا النصرانيّة لا يعني انتهاء الوجود السياسي بل حرب الإفناء في العقيدة وفي الوجود البشري . هذا

ماكان يعطي طابَعاً مُريعاً مرعباً لتصارع اسبانيا النصرانية ضد بقايا الأمة المسلمة الأندلسية في ممكة غرناطة .

١ – المُدَجَّنُون

لعل هذا الوضع حمل بعض الأندلسيين ألا يهاجروا من مناطق الأندلس الذاهبة إلى غرناطـــة بل إلى الشمال الإفريقي فراراً بدينهم وبأنفسهم ، إدراكاً لهذا النذير المهلك . مما دعا أن يصاغ اللومُ لمن رضى بالبقـاء من المسلمـين تحت السلطة النصرانية في المدن الأندلسية الذاهبة ، وأُطلق على هؤلاء : « المُدَجَّنُون » (Los Mudejares)[١] ، اسماً عُرفوا به .

لعل هـذا أيضاً دعـا بعض العلمـاء إلى حث المدجنـين عـلى الهجرة إلى أراضي المسلمين . من أمثـال أبي العبـاس أحمد بن يحيى بن محمد التِّلِمْساني الوَنْشَرِيشي[٢] (نسبة إلى قَرية وَنْشَريش بالجزائر) ، أحد فقهاء المغرب (٩١٤ هـ = ١٥٠٨) . وقدعا صر سقوط غرناطة وكتب في ذلك كتاباً أو رسالة (بفتوى) يفصح عنوانه عن موضوعه وهو : **أَسنى المَتاجِر في بيان أحكام مَن غَلَب على وطنه النصارى ولم يهاجر ومايترتب عليه من العقوبات والزواجر**[٣] ، ويمثل قسماً صغيراً ضمن مجموعة الفتاوى (النوازل) التي وضعها ، المسماة : **المِعيار المُغْرِب والجامع المُعْرِب عن فَتاوَى أهل إفريقية والأندلس والمَغْرِب** .

لقي النصارى المعاهدون (أو المستعربون = Los Mozarabes) – في المجتمع (وغيره) – نظائر هؤلاء المُدَجَّنين ، كل رعاية وحرية وإنصاف ، ورأينا ذلك في أكثر من مناسبة[٤] .

---

(١) عنهم راجع : نهاية الأندلس ، ٥٦ – ٧٠ ؛ الحلل السندسية ، ١١٨/٢ ؛
Los Mudejares, Isidio de las Cagigas, 2 vols., Madrld, 1948; « Un documento sobre los Mudejares de Nuez (Zaragoza), siglo XV », P. Longas, *AL-ANDALUS,* vol. XXVIII (28)/2,431-43.

(٢) راجع ترجمته في : درة الحجال في أسماء الرجال ، ابن القاضي ، ٩١/١ (رقم : ١٣٠) . وترجمة ابنه عبد الواحد : ١٣٩/٣ (رقم : ١٠٩٤) .

(٣) صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، ١٢٩/٥ – ١٩١ .

(٤) راجع : اندلسيات ، ١٩/٢ – ٣٦ .

لم يحمل المسلمون حقداً ضد النصارى أو غيرهم ، لا في الأندلس ولاخارجها . وليس يُدّعى بالضرورة أن كافة النصارى كانوا يحملون هذا الحقد وبالشكل الذي دفع إلى شن هذه الحرب على الأمة الإسلامية في الأندلس . لكن الذي كان يزرع هذا الحقد ويثيره متأججاً هم جماعة من الرهبان والقسس ، كما مر ذلك مثلاً أيام عبد الرحمن الأوسط ، متمثلاً في حركة التعصب التي شهدتها قرطبة[1] . واستثارة هذا التعصب هو ما كانوا يفعلونه في إسبانيا النصرانية ذاتها[2] . فمن أسباب خلع شَانْجُهْ السمين (الأول) ملك ليون انه هُزم أمام المسلمين[3] ، وسنرى قريباً من هذا يحدث لالفُونْش (العاشر)[4] .

ظهرت بوضوح في هذا الصراع — منذ سقوط بعض القواعد الأندلسية بيد ملوك اسبانيا النصرانية ، قبيل قيام غرناطة — الحركة التي حملت لواء الإفناء ، طابعاً عاماً لها ، وسميت حرب الاسترداد (La Reconquista) ، وبدأت منذ أيام الطوائف .

لاتبدو هذه الحروب أنها كانت فقط لإسقاط الكيان السياسي للمسلمين في الأندلس وإزالة وجوده ، بل لإزاله وجودهم أفراداً ومحاربة عقيدتهم بأي شكل وأي مظهر متصل بها ، وعلى أسلوب من الإفناء غريب ؛ سالكين سبيل الأزهاق للناس والاجهاض لكل ماتتمثل فيه عقيدتهم . لذلك كانت بعض المدن الأندلسية التي تعرض الاستسلام صُلحاً ترفضه بعض عناصر جيش إسبانيا النصرانية لاسيما رجال الكنيسة ، طالبة مَن فيها من المسلمين . حتى قد ترفض السماحَ لهم بالخروج من المدينة بأنفسهم . أما تحويل المساجد إلى كنائس ، في المدن الأندلسية ، بعد سقوطها مباشرة ، فهي الطريق التي سارت عليها كافة القُوى العسكرية لإسبانيا النصرانية . كانت تعمل أيضاً على إزالة كل المعالم الإسلامية للمدينة ، حتى مع وجود العهود والمواثيق التي

---

(١) أعلاه ، ٢٤٢ — ٢٤٣ .

(٢) أندلسيات ، ٢/٥٧ — ٦٢ ، ٦٨ — ٦٩ ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، ١/٢١٩ .

(٣) *Andalusian diplomatic relations*, 46, 74.

(٤) أدناه ، ٥٣٩ .

تُبْرَم شروطاً للتسليم . في حين لم يحدث شيء من ذلك – ولا قريباً منه – من قِبَل المسلمين تُجاه النصارى في كل الأحوال .

أسباب الإبقاء على المُدَجَّنين في إسبانيا النصرانية

لبقاء المُدَجَّنين في إسبانيا النصرانية أيام مملكة غرناطة ، أسبابٌ منها :

١ – وجودُ كيان سياسي للمسلمين في الأندلس ، مُمَثَّلاً في مملكة غرناطة ، جعل الدول النصرانية تتحاشى عملاً صريحاً تثير به المتاعب ضدها ، أو الخوف من عمليات انتقام يقوم بها المسلمون تجاه النصارى المقيمين في غَرْناطة . هذه ظاهرة تبرز بقوة تدعو إلى اعتبار أهميتها . ذلك أنه رغم ما يلقاه المسلمون أثناء العمليات الحربية وبعدها ، بسبب سياسة اسبانيا النصرانية من الاضطهاد والقتل والمحاربة، فقد تمتع النصارى بالحرية في غرناطة .

إن طرد المُدَجَّنين من اسبانيا النصرانية واجلاءهم عنها إلى مملكة غرناطة قد يجعلهم يكوّنون عنصراً جديداً يواجه اسبانيا النصرانية ويزيد من النشاط ضدها بحربهم المباشرة والإثارة .

ليس بقاء المُدَجَّنين في بعض المناطق في اسبانيا النصرانية يعني أنهم كانوا يستمتعون بالحرية في أعمالهم وعباداتهم ويعامَلون بالانصاف في أحوالهم ومعاملاتهم . بل كانوا يلقون الكثير من العنف والتكاليف والضغط ، حتى ولو أُخذ أُسلوب الموادعة والمهادنة . الأمر الذي انتهى بكثير منهم الى الذوبان والانصهار في ذلك المجتمع ، فانتهى المدجنون بعد أجيال ، ابتداءً من العقيدة ثم اللغة إلى أحوالهم الأخرى كافة .

وَجَدَ المُدَجَّنُون لهم لغةً يكتُبون بها ، هي « الخميادو (Aljamiodo) : الأعجمية » ، إذ استعملوا اللغة القَشتالية وكتابتها بالحروف العربية . ولا يلغي هذا وجود نوع من العَلاقة بين بعض هؤلاء وبين أفراد من المجتمع النصراني ، التي ربما ماكانت في صالحهم ، على المدى القريب والبعيد . فلا يستبعد أن اسلوب الموادعة الظاهري كان يجنِّب السلطات النصرانية احتمال وقوع عمل يقوم به هؤلاء المُدَجَّنون ضدها ، بجانب ماتنتفع به سلطات اسبانيا النصرانية والسكان من وجودهم في مختلف الظروف .

لاحظنا – في الأحداث المبكرة للمواجهات بين الأندلس واسبانيا النصرانية –

أنه كان لايُسمح لبقاء المسلمين في المناطق النصرانية . كذلك الأمر مع المسلمين الذين استقروا بعد الفتح في مناطق قاصية من اسبانيا الشمالية[1] .

لو تركت الأمور على طبيعتها لخف هـذا التأزم كثيراً وتم تصييرهـا إلى الهدوء النفسي والإجتماعي والسياسي . رغم ذلك فلا تعني هذه الصورة انعدام العلاقات على الإطار الإجتماعي والسياسي . لكن العلاقات ، لاسيما في الاطار السياسي ، لم تكن تحدوها دائماً الرغبة الأصيلة من قبل اسبانيا النصرانية ، ولا الحرص على الالتزام بها . مهما يكن من أمر فقد كانت هناك علاقات ودية ، العامل الفعال في وجودها قوة المسلمين السياسية ورقيهم الحضاري .

٢ ـ تمتع أهل الأندلس ـ في كل ميدان ـ بالقدرات والمهارات والخبرات والمستوى الثقافي والتفنن الحضاري الذي كانوا عليه ، مما كانت اسبانيا النصرانية محرومة منه . ويشكل إخراجُ هؤلاء وطردُهم خسارةً للمجتمع والسلطة النصرانية ، بعد سقوط مدينة أندلسية بيدها ، فاخراجهم يعني توقف الحياة وإقفارها . لذلك حين همت السلطة الأسبانية يوماً باخراج هؤلاء المدجنين ، قامت جماعات من النصارى بمعارضة ذلك راجية العدول عنه . ولم يكن ذلك رفقاً بهؤلاء المدجنين بل حرصاً على مصالحهم وأحوالهم هم . فاقتنعت بذلك السلطة التي وافقت على عدم إخراجهم ، وإن كانت رفضت بقاءهم على الإسلام وأبت الا تنصيرهم بالقوة[2] .

٢ ـ مقارنة بين الأندلس وإسبانيا النصرانية

من طريف مايروى في المقارنة بين ما كانت تتمتع به الأندلس وتتفوق فيه على جارتها اسبانيا النصرانية ، حتى في الأمور القريبة المنال :

* استئذان أُسْقُف قُرطبة امبراطورَ اسبانيا شارلكان (شارل الخامس Carlos V) ـ سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢١ م) ـ في إقامة هيكل قُوطي كبير في وَسَط مسجد قرطبة الجامع فأذن له . واستدعى الأمر ـ وبسبب قبته العالية ـ إزالة السقف الأندلسي .

---

(١) راجع : أندلسيات ، ٢/٤٢ ـ ٤٣ .

(٢) نهاية الأندلس ، ٣٥٢ ـ ٣٥٣ .

ثم زار شارلكان مسجد قرطبة ، فتألم لهذا التشويه وندم على موافقته . كان مما قال « لقد بنيتم هنا ما كان يمكن بناؤه في أي مكان آخر ، وقد قضيتم بذلك على ماكان أثراً وحيداً في العالم »[1] . هذه الشهادة – من امبراطور اسبانيا – ذات مدلول خاص .

* بدا الأمر غريباً للأسبان حين اقترح البعض سنة ١١٧٤ هـ (١٧٦٠ م) « إزالة الأقذار التي كانت تملأ شوارع مدريد وتفسد هواءها ، وأن رجال الصحة احتجوا على ذلك بشدة ذاكرين أن آباءهم العقلاء كانوا يعرفون ما يصنعون ، وأنه يمكن للسكان أن يعيشوا مثلهم بين الأقذار ، فإن رفعها ينطوي على تجربة لايقدر أحد على كشف عواقبها . »[2]

٣ – علاقات ومواجهات

ساد الهدوء أحياناً بين الطرفين ، وأخرى قامت فيها علاقات المودة وعُقدت المعاهدات ، وكان لكل منها ظروفها ووراءها دوافعها . وُجدت مناسبات أُخرى ، طابعها التصارع والعنف ، كانت غرناطة خلالها تدفع عن حوزتها ، بنفسها أو بمعاونه أُخوتها في عُدْوة المَغْرب ، لاسيما المَرِنيين الذين لم يكلّوا عن إغاثة إخوانهم في الأندلس بكتائب الجهاد ، وكذلك عموم المتطوعين في المغرب[3] .

كان الشيخ محمد (الأول) بن الأحمر – الغالب بالله ، مؤسس مملكة غرناطة – يحاول تجنب الاصطدام باسبانيا النصرانية . أوغل في ذلك أحياناً إلى درجة شاذة ومهينة . في سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) قامت قوات اسبانيا النصرانية باعتدائها على مملكة غرناطة (أيام محمد بن الأحمر) . استطاعت قواتها – بمساعدة المجاهدين من المغرب – ردّها وهزيمتها . لكن هذه البادرة أثارت الفُونْش (العاشر) ملك قشتالة إلى مضاعفة الجهد ، فقام بهجومات عديدة أسقط بها بعض الحصون . تجدد طلب الغوث من عدوة المغرب ومناطق إفريقيّة أخرى حتى تُونس . ثم عقدت سنة

(١) الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال ، ٢٦ .
(٢) حضارة العرب ، ٥٨٥ – ٥٨٦ . قارن : أعلاه ، ٢٧٩ ، ٣١٤–٣١٧.
(٣) راجع : نهاية الأندلس ، ٤٧ .

٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) المسالمة بين غرناطة والفونش (العاشر) ، تنازل ابن الأحمر له عن عديد من المناطق والحصون[١] . هكذا ذهبت المناطق الأندلسية في فترة وجيزة — حوالي ثلث قرن — ساقطة بيد جيوش اسبانيا النصرانية .

شارك الأدب في ندب هذه الحال ، بُكاءً واستغاثةً . من المراثي الشهيرة قصيدة أبي البقاء صالح بن شريف الرُّنْدي (٦٨٤ هـ) ، مطلعها[٢] :

لكل شيء إذا ماتم نقصانُ — فلا يغر بطيب العيش إنسانُ

وهي أكثر من أربعين بيتاً ، وآخر أبياتها :

لمثل هذا يذوب القلب مِن كمد — إن كان في القلب إسلام وإيمانُ

لعله يمكن تسمية هذا النوع من الأدب (شعره ونثره) بـ « المَراثي السِّياسيَّة أو البلدانية »[٣] ، ولها في الأدب الأندلسي أمثلة كثيرة . من الممكن إفراد باب خاص بها في دراسة الأدب الأندلسي وجعلها أحد أغراض أدبه . **هذا الفن في الأندلس تقوم به دراسة شاملة** .

٤ — جهاد بني مَرِين في الأندلس

قبيل وفاة ابن الأحمر سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢ م) عاد الفونش (العاشر) إلى مهاجمة الأرضي الأندلسية ، فوجه ابن الأحمر إلى أمير المسلمين السلطان المريني أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور يطلب النجدة . لكن النجدة لم تصل إلا بعد وفاة ابن الأحمر ، أيام ولده محمد (الثاني) المعروف بالفقيه .

آ — الغَزاة الدونونية

أرسل السلطان المريني جيشاً ، قوامه خمسة آلاف ، عَبَرَ إلى جزيرة طريف في ذي الحجة سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٥ م) ، ثم لحق به السلطان في صفر من السنة

---

(١) نهاية الأندلس ، ٤٩ .

(٢) انظر عنه وعن القصيدة : الذيل والتكملة ، ١٣٦/٤ (رقم : ٢٦٣) ؛ أزهار الرياض ، ٤٧/١ ؛ نفح الطيب ، ٤٨٦/٤ ؛ « أبو البقاء الرندي » ، عبد الله كنون ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، ٢٠٥/٦ ؛ نهاية الأندلس ، ٤٩ ، ٤٥٦ .

(٣) انظر : أعلاه ، ٣٤٧ — ٣٤٨ .

التالية . جرت لهم أحداث مع جيوش قشتالة ، كان منها معركة هائلة في يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٦٧٤هـ(أيلول ١١٧٥م) ، عند مدينة إسْتِجَّة ، جنوب غرب قرطبة . تقدِّر الرواية الإسلامية عدد جيش قشتالة ، الذي يفوق الجيش الإسلامي اضعافاً ، بتسعين ألف مقاتل ، تحت إمْرة القائد القَشتالي الشهير الدون نونيو دي لارا (Don Nuño de Lara) ، صهر ملك قَشتالة الفونش(العاشر) . يعرف هذا القائد في مصادرنا الأندلسية باسم : دننه ، ذونونه ، ذُنونه[1] .

كان استعداد الجيش القَشْتالي ضخماً في العَدد والعُدد ، مقبلاً على الحرب بقوة وأمل وبقيادة مجربة مهرت في الحرب وخططها ، وما عرفت الهزيمة قبل ذلك[2] . لكن المسلمين جاهدوا صابرين محتسبين ، وباشر أمير المسلمين المريني القتال بنفسه ، وابنُه يوسف على المقدِّمة . وكانت مقدِّمات المعركة صورة شبيهة بما جرى في معركة الأرَك[3] . فإن الأمير المريني أبا يوسف يعقوب « تـرَجَّـل عن جواده فأسبغ وضوءه وصلى ركعتين ثم رفع يديـه وأقبل على الدعاء والمسلمون يؤمِّنون على دعائه ، فكان في آخر دعائه ما دعا به النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم بدر للصحابة (اللهمَّ انصُر هـذه العِصابة وأيِّدْها وأعِنْها على جهاد عَدوِّك وعدوِّها) فأجاب الله تعالى دعاءه ورحم تضرُّعَه وابتهالَه ، فلما فرغ من دعائه قام فاستوى على جواده ، واستعد للقتال وجلاده ، وعقد لولده الأمير الأجل يوسف على مقدمته ، ونادى على المسلمين فقال : يامعشر المسلمين ، وعصابة المجاهدين ، أنتم أنصار الدين ، الذابُّون عن حِماه والمقاتلون عِداه ، وهذا يوم عظيم ، ومشهد جسيم ، له مابعده ، ألا وإن الجنة قد فَتحت لكم أبوابها ، وزينت حورها وأترابها ، فبادروا إليها ، وجِدّوا في طِلابها ، وابذلوا النفوس في أثمانها ، ألا وإن الجنة تحت ظلال السيوف ، و﴿ إن الله اشْترَى من المؤمنين أنفسَهم وأموالهم

---

(۱) راجع : الاحاطة ، ١/٥٦٥ ؛ العبر ، ٤/٣٧٠ ، ٣٩٣ ، ٧/٣٩٦ – ٣٩٩ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٧٦٤ ؛ نفح الطيب ، ١/ ٤٤٩ ، ٤/٣٨٥ ؛ الذخيرة السنية ، ١٤٨ – ١٥٦ ؛ نهاية الأندلس ، ١٠٠

(٢) الذخيرة السنية ، ١٤٨ .

(٣) أعلاه ، ٤٨٦ .

بأن لهم الجنة﴾[1]، فاغتنموا هذه التجارة الرابحة، وسارعوا الى الجنة بالأعمال الصالحة، وشمروا عن ساعد الجد في جهاد أعداء الله الكفرة، وقتال المشركين الفجرة، فمَن مات منكم مات شهيداً، ومَن عاش رجع إلى أهله سالماً غانماً مأجوراً حميداً، فـ﴿ اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون * ﴾[2]

« فلما سمعوا منه هذه المقالة، تاقَت أنفسُهم للشهادة، وعانق بعضهم بعضاً للوداع، والدموع تنسكب والقلوب لها وجيب وانصداع، وكلهم قد طابت نفسه بالموت، وباعها من ربه بالجنة قبل الفوت، وارتفعت أصواتهم بالشهادة والتكبير، وكلهم يقول عباد الله إياكم والتقصير، فتسابقت أبطال المسلمين نحو جيش الروم معتمدة على الحيّ القيوم »[3].

حازت الجيوش الإسلامية (المغربية والأندلسية) نصراً حاسماً في هذه المعركة، التي أعادت ذكِريات الزّلاّقة والأرَك، وتشتت الجيش القشتالي وقتل قائده. ثم ان السلطان المريني أبا يوسف يعقوب المنصور (سَمِيَّ السلطان الموحدي الذي قاد معركة الأرَك) ذهب إلى الجزيرة الخضراء للاستراحة ليعود إلى أراضي قشتالة وحاصر إشبيلية العاصمة التي طلبت الأمان والصلح فأجابهم وعاد إلى الجزيرة الخضراء. عبر البحر إلى المغرب في أواخر رجب سنة ٦٧٤ هـ، بعد ان أنفق حوالي خمسة شهور في الأندلس، وبعد أن ترك في الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس لمعاونة إخوانهم الأندلسيين في رد اعتداء جند قشتالة ومن معهم[4].

* * *

عبر السلطان يعقوب المنصور إلى الأندلس للمرة الثانية سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨م). توغّل بجيشه في أراضي قشتالة والتقى بابن الأحمر، ثم عاد المنصور إلى المغرب. كان ابن الأحمر يتوجس من السلطان المريني، فتصرف تصرفاً شاذاً حيث تحالف مع ملك قشتالة الذي أنزل قواته في الجزيرة الخضراء تبعاً لذلك. أرسل المنصورُ ابنَه الأمير أبا يعقوب في أسطولٍ ضخمٍ في أوائل سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م).

---

(١) الآية ١١١ من سورة التوبة. (٢) من الاية ٢٠٠ من سورة آل عمران.

(٣) الذخيرة السنية، ١٤٩ — ١٥٠.

(٤) الذخيرة السنية، ١٥٩.

حدثت معركة بحرية مع الأسطول القَشتالي الذي انهزم واضطرت قواته ترك الجزيرة الخضراء . ثم بعث السلطان المريني إلى ابن الأحمر في وجوب التفاهم ، خشيةً على مصير المسلمين في الأندلس من هذا المسلك . تم التفاهم وعقد التحالف وصفا الجو . بموجبه أصبحت مالقة لبني مرين ، لتكون محطاً وقاعدة للقوات المرينية التي تعبر إلى الأندلس للجهاد فيه .

ثم إن شَانْجُهْ (الرابع) ثار سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) على أبيه الفونش (العاشر) ، الذي عرف بميله للعلم وكانت له صلات مع علماء الأندلس ، مما أثار السخط عليه في مملكته[١] . عبر السلطان المريني المنصور إلى الأندلس لمعاونة الفونش (العاشر) ، الذي هرع للقائه « بأحواز الصخرة من كُورة تاكُرُنَّا »[٢] ، قرب رُنْدَه (Ronda) ، فرهن تاجه عند السلطان . يذكر ابن خلدون أنه « خالف على هِرَّانْدُهْ ملك قَشتالة هذا ابنُه شَانْجُهْ فوفد هِرَّانْدُهْ على يعقوب بن عبد الحق صريخاً ، وقبَّل يده فقبل وِفادته وأمده بالمال والجيش ورهن في المال التاج المعروف من ذخائر سلفه فلم يزل بدار بني عبد الحق من بني مرين لهذا العهد . »[٣] ، كما يذكر ابن الخطيب « بقَشْتَالَة ، الفُنْش بن هِرَّانْدُهْ ، إلى أن ثار عليه ولدُه شَانْجُهْ ، واقتضت الحال إجازة سلطان المغرب ، واستجار به ؛ وكان من لقائه بأحواز الصخرة من كُورة تاكُرُنَّا ما هو معلوم . »[٤] ، لكن المَقَّرِي يجعل الذي استجار بالسلطان المريني هو شَانْجُهْ ، فيذكر « أن دُن شَانْجُهْ بن دُن الفُنْش ، استنصر على أبيه بالسلطان المجاهد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المَريني ، ولاذَ به ، ورَهن عنده تاجَه ذخيرةَ النصارى ، ولَقِيهُ بصخرة عَبَّاد ، من أحواز رُنْدَه ،

---

(١) نهاية الأندلس . ١٠٤ .

(٢) الاحاطة ١/٥٦٤ . كذلك : نهاية الأندلس ، ١٠٥

(٣) العبر ، ٣٩٣/٤ . ليس ملك قشتالة اللاجيء هو هرانده (لعله فرانده) بل الفنش بن هرانده (الفونسو العاشر بن فرناندو الثالث) ، كما يتبين من نص الاحاطة التالي . لعل ابن خلدون وهم في الاسم ، أو هو خطأ الناسخ ، سقط منه .

(٤) الاحاطة ، ٥٦٤/١ . كذلك : أعمال الأعلام ، ٣٣٢/٢ – ٣٣٣ . راجع : نهاية الأندلس ، ٨١ ، ١٠٥ ، ١٧٠ .

فسلم عليه »[1] .

ثم توفي الفونش (العاشر) طريداً سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) ، فانفرد ابنُه شَانجُهُ في حكم قَشْتَالَة .

عبر المنصور – للمرة الرابعة – في صفر سنة ٦٨٤ هـ إلى الأندلس ، واشتبك مع جيوش قَشتالة في البر والبحر . رغب شَانْجُهُ طلب السلم ، فأرسل وفداً من الأحبار يفوض السلطان المريني مايراه . ووضعت شروط ، منها مسالمة المسلمين كافة وعدم الاعتداء على الأندلس . « ثم هلك هِرَّانْدُهُ سنة ثلاث وثمانين ، واستقل ابنُه شَانْجُهُ بالملك ، ووفد على يوسف بن يعقوب بالجزيرة الخضراء بعد مهلك أبيه يعقوب ، وعقد معه السلم . »[2]

ب – مشيخة الغُزاة

كان من نتائج حسن التفاهم بين المرينيين وسلطان غرناطة أن نزحت مجموعة من المجاهدين إلى الأندلس للإقامة فيها ، ليكونوا على أهبة الجهاد مدافعين عن الأندلس . عُرِف المنصب – في هذه المهمة الدفاعية في الخُطط الأندلسية لهذه المدة – بـ « **مشيخة الغُزاة** » ورئيسها باسم « **شيخ الغُزاة** » . هي من الخُطط التي أنشأت في هذه المدة ، وتولى بنو العلاء (من أقارب السلطان المريني) قيادة المشيخة ، وهو منصب عسكري . تولى رياسة المشيخة عبد الله بن أبي العلاء حتى استشهد سنة ٦٩٣ هـ[3] ، فكانت لأخيه أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء .

عن هذه المشيخة يذكر المَقَّري في **نفح الطيب** أنه « لم يزل ملوك بني مَرين يُعينون أهل الأندلس بالمال والرجال ، وتركوا منهم حصة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غُزاة ، فكانت لهم وقائع في العدو مذكورة ، ومواقف مشهورة ، وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغَرناطة ، وعليهم رئيس من بيت ملك بني مَرين

---

(١) أزهار الرياض ، ٦١/١ . كذلك : نفح الطيب ، ١٢٠/٥ . نص المقري هذا يجعل الأمر مختلفاً وليس مشتبهاً . لكن صورة لجوء الفونش الملك القشتالي وحاله تبدو أكثر رجحاناً .

(٢) العبر ، ٣٩٣/٤ . كذلك : الاحاطة ، ٥٦٣/١ . راجع : نهاية الأندلس ، ١٠٦ .

(٣) العبر ، ٧٧١/٧ . كذلك : الاحاطة ، ١٦/٢ ، ٣٨ .

يسمّونه **شيخ الغُزاة** . »[1]

توفي أبو يوسف يعقوب المنصور المريني سنة٦٨٥ هـ (١٢٨٥م)،قبل أن يعود الى المغرب ، بعد حياة حافلة بالجهاد في المغرب والأندلس . كان من طراز يوسف بن تاشفين وأبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي . ورث حكم المرينيين ابنُه أبو يعقوب يوسف ، وله شأن في الجهاد في الأندلس إلى جانب إخوانه مسلمي غَرناطة . كان ابن الأحمر محمد الفقيه ذا نشاط واضح في هذا الميدان ومهتماً به ، لكنَّه جنح أحياناً إلى المسلك الشاذ في مهادنة بعض ملوك إسبانيا النصرانية ضدّ آخر منهم ، بل وأحياناً ضدّ بني مَرين .

توفي محمد (الثاني) الفقيه سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١ م) فخلفه ولدُه أبو عبد الله محمد الملقب بالمخلوع الذي خُلع سنة ٧٠٨ هـ ليتولى الحكم أخوه نصر .

ساءت العلاقات مع بني مرين وجرت أحداث داخلية في مملكة غرناطة ، انتهزها فِرَّانْدُهْ (الرابع) ملك قشتالة . أرسل جنده لحصار جبل طارق ومدينة المَرِيَّة بمعاونة ملك أَرْغُون جَايْمِش (خايمي الثاني Jaime II) ، بالرغم من المعاهدة القائمة بينه وبين سلطان غَرناطة . جرت قرب المَرِيَّة معركة قادها عثمان ابن أبي العلاء ضد جند أَرْغُون . هُزم ورفع الحصار عن المرية ، إلا أن جبل طارق ، بعد الحصار الشديد ، أُرغم على التسليم .

ثم أُرغم نصر على التنازل سنة ٧١٣ هـ (١٣١٤ م) ليتَولى الحكم أبو الوليد إسماعيل (بن الرئيس : أبو سعيد فرج بن أبي الوليد إسماعيل أخي محمد الأول بن ابن الأحمر المؤسس) . كان هذا السلطان وافر العزم ، وطد الأمن وأشاع الاستقرار وأعاد عهد الجهاد ، وحين عاد القَشتاليون إلى مهاجمة الأراضي الإسلامية استنجد أبي الوليد ببني مَرين وسلطانهم أبي سعيد الذي رفض المساعدة لعدم استجابة أبي الوليد لمطالب معينة .

زحف الجيش القشتالي على غَرناطة بجيش ضخم بقيادة دون بُطْرُه (Don Pedro) ودون خوان (Don Juan) الوصيين على مَلك قَشتالة الفُونْش (الحادي عشر) . جمعوا لذلك الجموع الكثيرة ، معهم عديد من أُمراء قشتالة ومن المتطوعين الإنجليز في

---

(١) نفح الطيب ، ٣٨٥/٤ . كذلك : ٤٥٣/١ ؛ نهاية الأندلس ، ١٠٧ .

نزعة صليبية . حدثت معركة هائلة في ٢٠ ربيع الثاني سنة ٧١٨ ه (مايس = مايو ١٣١٨ م) قرب مدينة غرناطة . كان عدد الجيش الإسلامي حولي ستة آلاف ، منهم ألف وخمس مئة فارس والباقي رَجَّالة . لكنهم لكنهم صفوة مختارة بقيادة شيخ الغُزاة أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء ، الذي أخلص وجنده النية لله ، مجاهدين مستشهدين . كان نصراً حاسماً شبيهاً بأمثالـه من الزَّلاَّقَة والأرَك وغيرهما[1] .

أورد المَقَّرِي في **نفحه** عن هذا الموضوع كلاماً هنا بعضه :

« وجاءها الطاغية دون بِـطْرُهْ في جيش لايحصى ومعـه خمسة وعشرون ملكاً ، وكان خبر هذه الوقعة أن الإفرنج حشدوا وجمعوا وذهب سلطانهم دون بِـطْرُهْ إلى طُلَـيْطُلَـة ، ودخل على مرجعهم الذي يقـال له الباب ، وسجد له ، وتضرَّع ، وطلب منه استئصال مابقي من المسلمين بالأندلس ، وأكد عزمه ، فقلق المسلمون بغرناطة وغيرها ، وعزموا على الاستنجاد بالمريني أبي سعيد صاحب فاس ، وأنفذوا إليه رسلاً ، فلم ينجح ذلك الدواء ، فرجعوا الى أعظم الأدوية وهو اللَّجأُ إلى الله تعالى ، وأخلصوا النيَّات ، وأقبلَ الإفـْرنج في جموع لاتحصى ، فقَضى ناصر من لاناصر له سواه بهزم أُمم النصرانية ، وقتل طاغيتهم دون بِـطْرُهْ ومن معه ، وكان نصراً عزيزاً ويوماً مشهوداً . »[2]

لم يقتل من المسلمين إلا العدد اليسير . ويقول عنها ابن الخطيب في **الإحاطة** حين جرى ذكر الطاغية بُطْرُهْ : « ثم صرفت المطامع عزمه الى الحضرة ، فقصد مرجها ، وكفّ الله عاديته ، وقمعه ، ونصر الإسلام عليه ، ودالت للدين عليه الهزيمة العظمى بالمرج من ظاهر غرناطة على بريد منها ، واستولى على محلته النهب ، وعلى فرسانه ورجاله القتل ، وعظم الفتح ، وبهر الصنع ، وطار الذكر ، وثاب السعد . وكانت الوقيعة سادس جمادى الأولى من عام تسعة عشر وسبع مئة »[3] .

يتحدثُ ابنُ خلدون عن ذلك باختصار شديد ، يذكرها في موضعـين .

---

(١) نهاية الأندلس ، ١١٨ ، ١٧١ .

(٢) نفح الطيب ، ٤٤٩/١ — ٤٥٠ . كذلك : نفح ، ٥١٠/٥ ؛ العبر ، ٣٧٣/٤ .

(٣) الاحاطة ، ٣٨٩/١ . لعل في هذا التاريخ (٧١٩ ه) أختلافاً أو تحريفاً .

« وصابروهم حتى خالطوهم في مراكزهم ؛ فصرعوا بُطْرُهْ وجوان ، وولوهم الأدبار . »[1] ، « ثم كان من تكييف الله تعالى في قتله وقتل رديفه ، واستلحام جيوش النصرانية بظاهر غرناطة ما ظهرت فيه معجزة من معجزات الله . »[2]

* * *

ثم جرت أحداث كما سادت أحوال من الهدوء والمسالمة . اغتيل – سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) – سلطان غرناطة أبو الوليد اسماعيل الغالب بالله ، فخلفه ولده أبو عبد الله محمد .

كان جبل طارق قد احتله الجيش القشتالي أيام فِرَّانْدهُ (الرابع) منذُ سنة ٧٠٩ هـ ، حتى استطاع المسلمون استعادته بمساعدة بني مَرِين سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) . إلا أن سلطان غَرناطة اغتيل أيضاً فورثه أخوه أبو الحجاج يوسف (الأول) بن أبي الوليد إسماعيل ، الذي كان من أبرع ملوك بني الأحمر ، بعيد الهمة عالي الخلال شاعراً عالماً وحامياً للعلوم والفنون ، وهو الذي أضاف إلى قصر الحمراء منشآت كثيرة[3] . بدأ يظهر – في أيامه – لسان الدين بن الخطيب في أعمال الدولة الكبرى – محل أبيه عبد الله ، عند وفاته – ثم تولى الوزارة سنة ٧٤٩ هـ[4] .

حدثت – سنة ٧٤٠ هـ – معركة بحرية ، هزم فيها المسلمون . اشتركت فيها قوات من قَشتالة وأَرْغُون والبرتغال ، وبارك البابا هذه الحملة ، ودخلت جيوشهم مملكة غرناطة .

جـ – وقعة طريف

تجهز – على إثرها – المسلمون لرد القشتاليين ومن معهم . المرينيون : بقيادة سلطانهم أبي الحسن علي بن عثمان بن أبي يعقوب ، والأندلسيون : بقيادة سلطان غرناطة أبي الحجاج يوسف (الأول) (غرناطة ، ٧١٨ : ٧٣٣ – ٧٥٥ هـ)[5] . نشبت معركة بين الفريقين في سابع جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ (٣٠ تشرين الأول =

---

(١) العبر ، ٧/٥٢٠ .

(٢) العبر ، ٤/ ٣٧٣ .

(٣) نهاية الأندلس ، ١٢٥ .

(٤) عنه انظر : لسان الدين بن الخطيب ، محمد عبد الله عنان ؛ درة الحجال ، ٢/٢٧١ .

(٥) أعمال الأعلام ، ٢/٣٠٤ – ٣٠٦ ؛ الاحاطة ، ١/٥٤١ ؛ نفح الطيب ، ٥/٨٠ .

كتوبر ١٣٤٠ م) . استعمل المسلمون فيها نوعاً من المدافع تقذف النيران[١] ؛ غدا هذا السلاح مستعملاً ، فيما بعد[٢] . لكن المسلمين خسروا هذه المعركة . ارتكب القشتاليون المناكر في المعسكر الإسلامي وغنموا مافيه . وتحفظ كنيسة طُليطلة — حتى اليوم ، بين ذخائرها — علمين لبني مَرِين من هذه المعركة[٣] ، ولعلهم خسروا فيها مصحف عثمان[٤] .

جرت هذه المعركة قرب طريف ، ولذا سميت « **وقعة طريف** »[٥] (Batalla del Salado) ، وهي تذكّرنا بـ « **وقعة العِقاب** »[٦] . لمّا استولى ملك قَشْتالَة الفُونْش (الحادي عشر) على معسكر المسلمين وموضع سُلطان المَغرب ، وفيه الحَرِيم والأولاد ، ذبحوا جمعاً بوحشية مُرَوِّعة[٧] .

يبدو أنّه حوالي هذا الوقت ظهر استعمال المسلمين لأسلحة جديدة ، تشبه المدافع ، مجهزة بآلات قاذفة ، وهي « **الأنفاط** »[٨] .

حضر هذه المعركة عدد من العلماء الأكابر والأعلام ، واستشهد بعضهم . ممن استشهد :

* أبو محمد عبد الله بن سعيد السلماني (غرناطة ، ٦٧٢ — طريف ، ٧٤١ هـ) . والد الوزير الغَرناطي والأديب الكاتب لسان الدين بن الخطيب (لَوْشَه ، ٧١٣ — فاس ، ٧٧٦ هـ) ، « وفقد يوم الوقيعة الكبرى بظاهر طريف ، يوم الاثنين سابع

---

(١) نهاية الأندلس ، ١٢٧ .
(٢) الآثار الأندلسية ، ٢٨٢ .
(٣) الآثار الأندلسية ، ٨٥ .
(٤) نفح الطيب ، ٦٠٦/١ .
(٥) عن وقعة طريف راجع : العبر ، ٣٧٤/٤ — ٣٧٥ ؛ نفح الطيب ، ٤٥٢/١ ، ١٤/٥ — ١٥ ، ٤١٣ ؛ نهاية الأندلس ، ١٣٧ — ١٢٨ ؛ يوسف الأول بن الأحمر ، محمدكمال شبانه ، ١٣٤ — ١٣٨ ؛ *Manual de historia de Espana*, I, 713.
(٦) أعلاه ، ٤٩٠ .
(٧) العبر ، ٥٤٦/٧ ؛ نهاية الأندلس ، ١٤٢ .
(٨) انظر : نبذة العصر ، ١٨ ، ٢١ ؛ نهاية الأندلس ، ٢٢١ . كذلك : درة الحجال ، ٣٣/٢ . قارن : أعلاه ، ٢٣٧ .

جمادى الأولى عام واحد وأربعين وسبع مئة »[1] . كما فقد فيهـا أخو لسان الدين الأكبر . يخبرنا عن ذلك لسان الدين بن الخطيب حين الحديث عن والده في هذه الوقعة الذي كان فيها « وفُقِـد في الكائنة العظمى بطريف يوم الاثنين سابع جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وسبع مئة ، ثابت الجأش ، غير جَزوعٍ ولا هيَّابة . حدثني الخطيب بالمسجد الجامع من غَرناطة الفقيه أبو عبد الله ابن اللَّوْشي قال : كبا بأخيك الطِّرْفُ ، وقد غَشِيَ العدو ، وجَنَحْتُ إلى إردافه ، فانحدر إليه والدُك ، وصرفني ، وقال : أنا أولى به ، فكان آخر العهد بهما »[2] .

* القاضي أبو عبد الله محمد بن بكر الأشعري المَالَقي (مالقة ، ٦٧٤ — طريف ، ٧٤١ هـ) . أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب كتاب **التَّمهيد والبيان في مقتل الشَّهيد عُثمان**[3] . كان « حسن التخلق عطوفاً على الطلبة محباً في العلم والعلماء مجلاً لأهله مُطَّرِح التصنع عديم المبالاة بالملبس بادي الظاهر عزيز النفس نافذ الحكم صَوَّالة معروفاً بنصرة مَن أرَزَ اليه . تقدم للشياخة ببلده مَالَقَة ناظراً في أمور العَقد والحل ومصالح الكافة . ثم وُلِّي القَضاء بها فأَعزَّ الخُطة وترك الهَوادة وإنفاذ الحق ملازماً للقراءة والإقراء محافظاً للأوقات حريصاً على الإفادة . ثم وُلِّيَ القضاء والخَطابة بغَرناطة »[4] .

وكان « ممَّن جمع له بين الدراية والرواية ؛ . . . ولم يزل مع ذلك ملازماً أيام قضائه للإقراء مع التعليم »[5] .

« وتصدَّر لبثِّ العلم بالحضرة يقرى فنوناً منه جَمَّة فنفع وخرَّج ودرَّس العربية والفقه والأصول وأقرأ القرآن وعلم الفرايض والحساب وعقد مجالس الحديث شرحاً وسماعاً على سبيل من انشراح الصدر وحسن التجمُّل وخَفْض الجَناح. »[6]

---

(١) نفح الطيب ، ١٧/٥ . كذلك : أزهار الرياض ، ١٨٧/١ .

(٢) نفح الطيب ، ١٢/٥ . كذلك : لسان الدين بن الخطيب ، ٣٣ — ٣٤ ، ٢٨٩ .

(٣) منشور (بيروت ، ١٩٦٤) ، بتحقيق الدكتور محمود يوسف زايد .

(٤) الاحاطة ، ١٧٦/٢ — ١٧٧ .

(٥) المرقبة العليا ، ١٤١ — ١٤٢ .

(٦) الاحاطة ، ١٧٧/٢ .

« واستمر على عمله من الاجتهاد ، والرغبة في الجهاد ، إلى أن فُقد — رحمه الله — في مصافّ المسلمين ، يوم المناجزة الكبرى بظاهر طريف ، شهيداً محرّضاً ، يشحذ البصائر و[يدمي] الأبطال ، ويشير على الأمير أن يكثر من قول : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾[1] وقد كتّف دابته التي كان عليها راكباً ، وهو رابط الجأش ، مجتمع القوى ، وأنشأ عليه بالركوب وقال له : (انصرف هذا يوم الفرح) يشير ، والله أعلم ، إلى قوله تعالى في الشهداء : ﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾[2] ؛ وذلك ضحى الاثنين السابع من جمادى الأولى عام ٧٤١ ، عن غير عقب من الذكور. ومولده أواخر شهر ذي الحجة من عام ٦٧٣ . »[3]

يذكر المَقّرِي أنه « فُقد رحمه الله تعالى في المصافّ يوم المناجزة بطريف ، زعموا أنه وقع عن بغلة ركبها ، وأشار عليه بعض المنهزمين بالركوب فلم يقدر ، وقال له : (انصرف هذا يوم الفرح) ، إشارة لقوله تعالى ﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ [آل عمران ، ١٧٠] وذلك ضحى يوم الاثنين ٧ جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ رحمه الله تعالى . »[4]

* أبو القاسم محمد بن جُزَيّ (غرناطة ، ٦٩٣ — طريف ، ٧٤١ هـ) ، وهو أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب المؤلفات . كان « فقيهاً حافظاً قائماً على التدريس ، مشاركاً في فنون من عربية وفقه وأصول وقراءآت وأدب وحديث ، حفظة للتفسير ، مستوعباً للأقوال ، جمّاعة للكتب ، ملوكي الخزانة ، حسن المجلس ، ممتع المحاضرة ، قريب الغور ، صحيح الباطن ، تقدم خطيباً بالمسجد الأعظم من بَلده على حداثة سنه ، فاتفق على فضله ، وجرى على سنَن أصالته . »[5]

« فُقد وهو يحرض الناس ويشحذ بصائرهم ويثبّتهم ، يوم الكائنة بطريف ،

---

(١) من الآية ١٧٣ من سورة آل عمران .
(٢) من الآية ١٧٠ من سورة آل عمران .
(٣) المرقبة العليا ، ١٤٦ — ١٤٧ .
(٤) نفح الطيب ، ٥/٣٨٧ .
(٥) نفح الطيب ، ٥/٥١٤ .

ضحوة يوم الاثنين ، السابع لجمادى الأولى عام واحد وأربعين وسبع مئة . تقبّل الله شهادته . »[1]

ممن حضر هذه الوقعة من العلماء[2] :

* الفقيه الامام أبو عبد الله محمد بن مَرْزوق[3] (تلمسان ، ٧١٠ – القاهرة ، ٧٨١ هـ) ، الذي ولاه السلطان أبو الحسن المريني (٧٥٢ هـ) عدة أعمال سلطانية . تولّى سفارات متعددة ، منها سفارته إلى بُطْرُهْ (الأول) بن الفُونْش (الحادي عشر) ملك قَشتالة[4] ، لعقد الصلح وافتكاك أسرى وقعة طريف[4] ، وكان بين الأسرى ابن السلطان أبو عمر تاشفين .

لم تتيسر معرفة تاريخ هذه السفارة . يذكر ابن خلدون أنها « الى ابن أدفنش ملك قشتالة »[5] ، أي إلى بُطْرُهْ (Pedro I) . تمت – على ذلك – بعد وقعة طريف بما لايقل عن عشر سنوات .

تعرف بعض مصادرنا الإسلامية الأندلسية بُطْرُهْ (الأول) هذا باسم : بُطْرُهْ ابن الهُنْشُه بن هِرَّانْدُهْ بن شَانْجُهْ بن الهُنْشُه بن هِرَّانْدُهْ[6] . وإلى ملك قَشتالة الطاغية بُطْرُهْ هذا سَفَرَ ابن خلْدون سنة ٧٦٥ هـ بإشبيلية ، خلال أول قدومَيْه إلى الأندلس ، سفيراً لسلطان غَرناطة محمد (الخامس) ، الغني بالله[7] .

---

(١) أزهار الرياض ، ١٨٧/٣ . كذلك : نفح الطيب ، ٥١٦/٥ ، ٥٢٦ ؛ الكتيبة الكامنة ، ٤٦ . عن أعلام من أسرته الشهيرة (بنوجزى) انظر : درة الحجال ، ١٣/١ (رقم : ١١) ، ٢٦ رقم : ٢٦) ، ٥٩ (رقم : ٨٠) ، ٢/ ٢٦٥ (رقم : ٧٦٦) ، ٢٦٦ (رقم : ٧٦٨) .

(٢) انظر : التعريف بابن خلدون ، ٣٠ .

(٣) التعريف ، ٥٠ ؛ نفح الطيب ، ٤١٣/٥ .

(٤) الحاشية السابقة .

(٥) التعريف ، ٥٠ .

(٦) الاحاطة ، ٥٣١/١ ، ٢٢/٢ ، ٤٢ ؛ أعمال الأعلام ، ٣٣٥/٢ .

(٧) التعريف ٨٤ ؛ أعلاه ، ٥٢٦ .

يذكر ابن خلدون (التعريف ، ٨٤) عن سفارته إلى إشبيلية ، موطن اسلافه « وسفرت عنه سنة خمس وستين إلى الطاغية ملك قشتالة يومئذ بطره بن الهنشة بن أذفونش لا تمام عقد الصلح » .
أما القدوم الثاني لابن خلدون إلى الأندلس فكان سنة ٧٧٦ هـ . التعريف ، ٢٢٦ .

وابن مرزوق أحد أشياخ ابن الخطيب[1] وصديق ابن خلدون[2] . عالم فاضل « غاص المنزل بالطلبة ، منقاد للدعوة ، بارع الخط أنيقه ، عذب التلاوة متسع الرواية ، مشارك في فنون من أصول وفروع وتفسير ، يكتب ويشعر ويقيّد ويؤلف ، فلا يعدو السداد في ذلك ، فارس منبر غير جزوع ولا هيّاب »[3] .

٥ ــ مجرايات الأحداث التالية في الجزيرة الأندلسية

كان الوباء الكبير سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) . شمل الأندلس وبقية الجزيرة الأندلسية ومناطق أخرى من العالم الاسلامي وحول البحر المتوسط[4] . لعل بدء ظهوره كان في إيطاليا . وضع ابن الخطيب ، معاصر وشاهد عيان ، في هذا الوباء كتابه **مقنعة السائل عن المرض الهائل** ، كما ألّف عنه شاعر المَرِيَّة أحمد بن خاتمة الأنصاري (٧٢٤ ــ ٧٧٠ هـ)[5] رسالة **تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد**[6] ، كما ألّف ابن خاتمة كتاباً عن المَرِيَّة **مزية المَرِيَّة على غيرها من البلاد الأندلسية**[7] .

تجهز ملك قشتالة الفونش (الحادي عشر) سنة ٧٥٠ هـ للاستيلاء على جبل طارق ، فضرب بجيشه حوله الحصار الشديد . لكن الوباء فشا في هذا الجيش وكان الفونش من ضحاياه ، وأنقذ الله العلي القدير جبل طارق[8] ، فاضطر جيشه ــ بعد قرابة سنة

---

(١) نفح الطيب ، ٥/ ٣٩٠ .

(٢) التعريف ، ٤٩ .

(٣) نفح الطيب ، ٣٩١/٥ .

(٤) انظر : العبر ، ٣٩٤/٤ ، ٦٧٩/٧ ، ٧٧٦ ؛ رحلة ابن بطوطة ، ٦٦٥ ؛ درة الحجال ، ٤٥/١ ، ٨٣ ، ٢٧٦/٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٣٣١ ؛ نهاية الأندلس ، ١٣٢ ، ١٧٣ ؛ لسان الدين بن الخطيب ، ١٨١ ــ ١٨٢ . كذلك : أعمال الاعلام ، ٣٣٥/٢ .

(٥) عنه راجع : الاحاطة ، ٢٣٩/١ ــ ٢٥٩ ؛ درة الحجال ، ٨٥/١ (رقم : ١١٦) ، ٢٩٤/٣ ؛ نفح الطيب ، ٢٨/٦ (= أزهار الرياض ، ٢٦٥/١) .

(٦) نهاية الأندلس ، ١٣٠ ، ٤٧٠ ــ ٤٧١ .

(٧) الاحاطة ، ٨٣/١ ؛ نفح الطيب ، ١٦٣/١ ، ١٧٥/٢ ، ٣٦٠/٥ ، ٤٧٥ ؛ أزهار الرياض ، ٢٣/١ ، ٢٥ ، ٢٥٢/٢ ، ٨/٣ ؛ درة الحجال ، ، ٨٦/١ ، ٢٣٣/٣ .

(٨) العبر ، ٣٧٥/٤ ، ٣٩٤ ، ٦٣٢/٧ ، ٦٧٨ ــ ٦٧٩ ، ٧٧٦ ؛ رحلة ابن بطوطة ، ٦٦٥ ؛ أعمال الاعلام ، ٣٣٥/٢ ؛ نهاية الأندلس ، ١٣٢ ، ١٧٣ ؛ لسان الدين ابن الخطيب ، ١٨١ ــ ١٨٢ .

من بدء الحصار – إلى فكه والانسحاب . ذكر ابن الخطيب هذا الأمر في أكثر من رسالة وجهت إلى الأندلس [١] والمغرب [٢] ومصر [٣] .

ترك المسلمون – تكريماً – موكب الملك يجتاز غَرناطة إلى إشبيلية ، وارتدى عدد منهم شارات الحداد (!) ، مجاملة [٤] .

استمرت قشتالة على سياستها من العيث في الأراضي الأندلسية ناقضة العهود [٥] . لكن صلحاً عقد بين الأندلس وبين ملك أَرْغُون بُطْرُهْ بن شَانْجُهْ (بيدرو الرابع Pedro IV : ٧٣٦ – ٧٨٩ هـ = ١٣٣٦ – ١٣٨٧ م) .

ساد السلام والأمن ربوعَ غَرناطة ، وازدهرت نهضة عامة خلال سنوات أبي الحجاج يوسف (الأول) . اغتاله سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) – مخبول [٦] ، لم يفصح عن دوافعه ، أثناء صلاته في المسجد الأعظم يوم عيد الفطر ، فبكاه أهل الأندلس بدمع غزير . خلفه ابنُه محمد (الخامس) ، الغني بالله ، الذي خُلعَ وأُعيد مرة أخرى .

قامت أحداث كانت تهدف إلى استصفاء غَرناطة ، وتوزيع تركتها بين حكام اسبانيا النصرانية ، وباركها البابا ، لكنها فشلت .

كذلك قامت مصالحة بينَ غَرناطة وبين أَرْغُون وقَشتالة . وجدت أحداث وَعلاقات صلح خلال حكم الغني بالله ، ثم ابنه محمد (السادس) الذي تولى الحكم سنة ٧٩٧ هـ (١٣٩٤ م) . عند وفاته سنة ٨١١ هـ (١٤٠٨ م) ، يرثه أخوه يوسف (الثالث) . تقدمت علَاقات المودة خطوة بين قشتالة وغرناطة . توفي يوسف (الثالث) سنة ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م) . تبعه عدة أمراء ، اختلفت قدرتهم بين القوة والضعف .

---

(١) نفح الطيب ، ٤٤٢/٤ ؛ نهاية الأندلس ، ١٣٢ ؛ لسان الدين بن الخطيب ، ١٨١ – ١٨٢ ؛ يوسف الأول ابن الأحمر ، رسائل رقم : ١٣ ، ١٦ .

(٢) يوسف الأول ، رسائل رقم : ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٧ ، ٢١ .

(٣) يوسف الأول ، رسالة رقم : ٣ .

(٤) ذكر ذلك عنان (نهاية الأندلس ، ١٣٢) وأشار إلى عبر ابن خلدون ، الذي لم أجده فيه .

(٥) كناسة الدكان بعد انتقال السكان ، ابن الخطيب ، ١٠٣ – ١٠٥ (الوثيقة العاشرة) ، ١٦٤ – ١٦٥ (= يوسف الأول ، رسالة رقم : ١٧) .

(٦) العبر ، ٣٧٥/٤ ، ٦٣٢/٧ ، ٦٩٠ .

جرت أحداث وخلافات داخل غَرناطة كان لها أسوأ الأثر . ثم جرت صدامات بين غرناطة وقشتالة ، كانت الحرب فيها سِجالاً . خسرت فيها غرناطة بعض القواعد والثغور واستولت عليها قشتالة بالحرب أو بالتنازل الذليل .

كان سقوط جبل طارق ، عن طريق المفاجأة ، بيد القَشتاليين سنة ٨٦٧ هـ (١٤٦٢ م) ضربة عنيفة لمسلمي غرناطة ، مما يحول دون وصول الإمداد من عُدْوة المغرب للأندلس . قل هذا العون نتيجة لضعف قوة الدولة المرينية التي تنتهي سنة ٨٦٩ هـ (١٤٦٤ م) . ، بعد أن عاشت قرنين من الزمان ، لتحل محلها دولة فتية نشيطة هي دولة بني وَطّاس . لكنها لم تكن في مستوى من القوة لتقوم بدور بني مَرين ومَن قَبْلهم تجاه نصرة الأندلس والجهاد فيه .

فتح المسلمون (العثمانيون) القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) ، بقيادة السلطان محمد (الثاني) الفاتح . قد لايخلو هذا الحدث من أثر في زيادة نشاط اسبانيا النصرانية لمهاجمة الأندلس . ساعد على ذلك سوء الأحوال الداخلية التي كانت تجتازها هذه المملكة الصغيرة غَرناطة . يبدو أنه ، في مثل هذه الأحوال (ومن غير اتحاد اسبانيا النصرانية في مملكة واحدة ، الأمر الذي سيتم بعد حوالي ربع قرن) ، لابد أن تسير الأندلس إلى نهايتها ، التي وصلتها فعلاً . في موعد لايتأخر كثيراً ، إن كان ، عن الذي تم فيه ، يوم غربت شمس الأندلس وزال سلطان المسلمين السياسي ، وتلاه وترتب عليه زوال وجودهم الحضاري والبشري .

تم اتحاد قَشتالة وأَرْغُون سنة ٨٨٤ هـ (١٤٧٩ م) بزعامة الملكين الكاثوليكيين. وكان قد تم الزواج بينهما قبل ذلك بعشر سنين[1] . حوالي هذا الوقت بدأت مفاوضات مع غرناطة ، حيث طلب إلى سلطانها أبي الحسن شروط ثقيلة . أنذر السفير القشتالي ، الذي جاء إلى غرناطة لهذا الغرض ، لكن لم يكن ليستعد الاستعداد المناسب ويسلك السلوك المطلوب[2] . هاجم فِرّانْدُهْ (الخامس ، زوج إزابيل ملكة قَشتالة) غَرناطة، واستولت جيوشُه ــ بعد مقاومة باسلة ــ على مدينة الحَمّة (الحامّة Alhama

(١) أعلاه ، ٥٢٧ .
(٢) نهاية الأندلس ، ١٩٥ - ٢٠١ .

جنوب غرب غَرناطة . فأمعنوا في أهلها قتلاً ، وذلك في محرم سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢م).
ثم زحف ملك قَشتالة على مدينة لَوْشَة (Lojo) — بلد لسان الدين بن الخطيب — وحاصرها . لكن حاميتها الاسلامية دافعت عنها دفاعاً مجيداً ، وردته على أعقابه ، بقيادة الأمير الشيخ علي العطار الجندي الباسل الذي أبلى بلاء حسناً ، وكان في الثمانين من عمره[1] . وما يزال سيف الشيخ العطار ـ رحمه الله ـ محفوظاً في المتحف الحربي (Museo del Ejercito) بمدريد .

تولّى حُكم غَرناطة — أواخر سنة ٨٨٧ هـ — محمد (الحادي عشر) بن علي مكان أبيه : أبو الحسن علي . يعرف الأمير محمد هذا : أبو عبد الله (Boabdil) أو أبو عبد الله الصغير[2] .

خاض هذا الأمير — في السنة التالية (٨٨٨ هـ) — معركة ضد جيوش قَشتالة ، انتصر فيها المسلمون . ثم قاد جيشاً ، اتّجه به نحو قُرطبة ، غَلَب في عدة معارك محلية. لكنه أُسر في معركة عند قلعة اللّسَّانة (Lucena) جنوب شرق قرطبة[3] . تولى حكم غرناطة — بعده — عمه : محمد بن سعد ، أبو عبد الله الزَّغَل (الشجاع الباسل).

أُطلق سراح أبي عبد الله محمد (الحادي عشر) سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥ م) ، بعد توقيع اتفاق في صالح قَشتالة . صاحَب ذلك قيام انقسامات في داخل غَرناطة ، حيث توزعتها الزعامات والأحزاب مؤيدة هذا الزعيم أو ذاك . هاجم جندُ قشتالة مدينة لَوْشَة مرة أخرى ولم تقو على الاستمرار في المقاومة فاستسلمت سنة ٨٩١ هـ ، بشروط لصالح قشتالة . ثم كانت حرب بين العم وابن أخيه انتهت بتقسيم غرناطة . بدأ ملك قشتالة يشدد الضربات على المدن الأندلسية ويرهقها حصاراً وحرباً . يذكرنا مالاقاه بعضها ، بأحوال بلنسية أيام القَمْبِيطُور[4] . كان يخرب ماحول غرناطة من

---

(١) راجع : نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر ، مجهول المؤلف ، ٩ ؛ نهاية الأندلس ، ٢٠٢ ؛ الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال ، ٣٣٥ .
(٢) وثائق عربية غرناطية ، ٤٠ .
(٣) انظر : أعلاه ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ .
(٤) أعلاه ، ٣٦٩ وبعدها .

الزروع والمحاصيل . وكانت البقية الباسلة المتفانية من فرسان الأندلس وجندها — في كل ذلك — يبذلون أرواحهم . عقد الزَّغَل — سنة ٨٩٥ هـ (١٤٨٩ م) — معاهدة مع ملك قشتالة ، ثم اضطر لترك الأندلس إلى تِلِمْسان بالجزائر .

٦ — سقوط غَرناطة

جرت أحداث ، تتضمن كثيراً من التفصيلات ، وقامت مفاوضات . لجأ العدو — خلال ذلك — إلى التحريش والتضريب بين المسلمين وإذكاء الفتنة[١] . وبعد حصار شديد لمدينة غَرناطة ينتهي الحال بتسليمها .

هكذا تسقط غَرناطة ، آخر حصن إسلامي في شبه الجزيرة الأندلسية . يورد المَقَّرِي قول شاهد عِيان[٢] أندلسي وبخطه هو الفقيه الأديب المؤرخ أبو عبد الله محمد بن الحداد الوادي آشي نزيل تِلِمْسان أنه « كان الاستيلاء على مدينة غرناطة آخر مابقي من بلاد الأندلس للاسلام في محرم عام سبعة وتسعين وثمان مئة »[٣]. ثم يردف المَقَّرِي « أنه قد يظهر من كلام بعضهم أن الصلح كان في محرم ، ودخول الجيش القصبة الحمراء كان في ربيع ، فلا منافاة ، والله أعلم . »[٤] .

وُقِّعت معاهدة التسليم بين حاكم غرناطة المتخاذل وبين ملكيْ قَشتالة في ٢١محرم سنة ٨٩٧ هـ[٥] (٢٥ تشرين الثاني = نوفمبر ١٤٩١ م) .

المصادر الأندلسية المتوفرة — التي احتوت هذه الأحداث ، وما تلاها — قليلة . لعل الأيام تأتي بمزيد منها — بعون الله — لتلقي ضوءاً أشد على تلك المرحلة القاسية . كانت أياماً حالكة مرت بالمسلمين وأهوالاً عاشوها وشدائد ذاقوها ، من ذخائر طغاة قَشتالة وليون . نجد بعض هذه الأخبار في المصادر الأوربية . لكن لدينا معلومات

---

(١) نبذة العصر ، ٣٩ — ٤٢ .
(٢) أزهار الرياض ، ٣٠٥/٣ .
(٣) نفح الطيب ، ٢٢/٦ (= أزهار الرياض ، ٦٦/١) .
(٤) أزهار ، ٦٦/١ . كذلك : نفح ، ٥٢٥/٤ (= أدناه ، ٥٥٣-٥٥٤) ؛ نبذة العصر ، ٣٩ — ٤٢ .
(٥) نبذة العصر ، ٣٩ — ٤٢ ؛ نفح الطيب ، ٥٢٥/٤ ، ٢٢/٦ ؛ أزهار الرياض ، ٦٦/١ ؛ نهاية الأندلس ، ٢٤٤ ، ٢٥٠ — ٢٥١ ، ٢٥٧ ، ٢٦٩ .

مهمة عن الأيام الأخيرة لغرناطة ، فيما بقي من مصادرنا الأندلسية . نجدها في كتاب شاهد عِيان اشترك في الأحداث[1] : **نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر** ، لمؤلف مجهول . لعله نسخة غير كاملة من هذا الكتاب . كذلك كتاب **جنة الرضى في التسليم لما قدّر الله تعالى وقضى** ، لابن عاصم ، الذي توفرت مخطوطته حالياً . نقل المَقّرِي منه ومن غيره مقداراً جيداً في كتابيه : **نفح الطيب و أزهار الرياض**[2] .

تضمنت معاهدة التسليم سبعة وستين شرطاً ، كما يذكر المَقّرِي[3] ، أو أقل[4] . لم يتيسر الحصول على المعاهدة بنصها العربي ، إن كان موجوداً الآن . لكن المَقّرِي يجملها بقوله : « وفي ثاني ربيع الأول من السنة ــ أعني سنة سبع وتسعين وثمان مئة ــ استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمس مئة من الأعيان رهناً خوف الغدر ، وكانت الشروط سبعة وستين منها : تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورِباعهم وعَقارهم ، ومنها إقامة شريعتهم على ماكانت ولا يحكم أحد عليهم إلاّ بشريعتهم ، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك ، وأن لايدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً ، وأن لايولّى على المسلمين إلاّ مسلم أو يهودي ممّن يتولى عليهم من قِبَل سلطانهم قبل ، وأن يفتكّ جميع مَن أُسر في غَرناطة من حيث كانوا ، وخصوصاً أعياناً نصّ عليهم ، ومن هرب مِن أسارى المسلمين ودخل غرناطة لاسبيل عليه لمالكه ولا سواه ، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه ، ومَن أراد الجواز للعُدوة لايمنع ، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ثم بعد تلك المدة يُعْطون عُشر مالهم والكراء ، وأن لايؤخذ أحد بذنب غيره ، وأن لايُقهر مَنْ أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر

(١) انظر : نبذة العصر ، ١٦ (المقدمة) ، ٤٤ ؛ الحلل السندسية ، ١/١٢١ .
(٢) نفح الطيب ، ٤/٥٠٧ – ٥٢٩ ؛ أزهار الرياض ، ١/٥٠ – ٧٢ .
(٣) نفح الطيب ، ٤/٥٢٥ .
(٤) يذكر عنان (نهاية الأندلس ، ٢٥٠ – ٢٥٢) أنها ست وخمسون مادة ، ترجمها معتمداً على الصورة القشتالية لها . انظر : حاضر العالم الاسلامي ، ٢/٤ (تعليق أرسلان) .

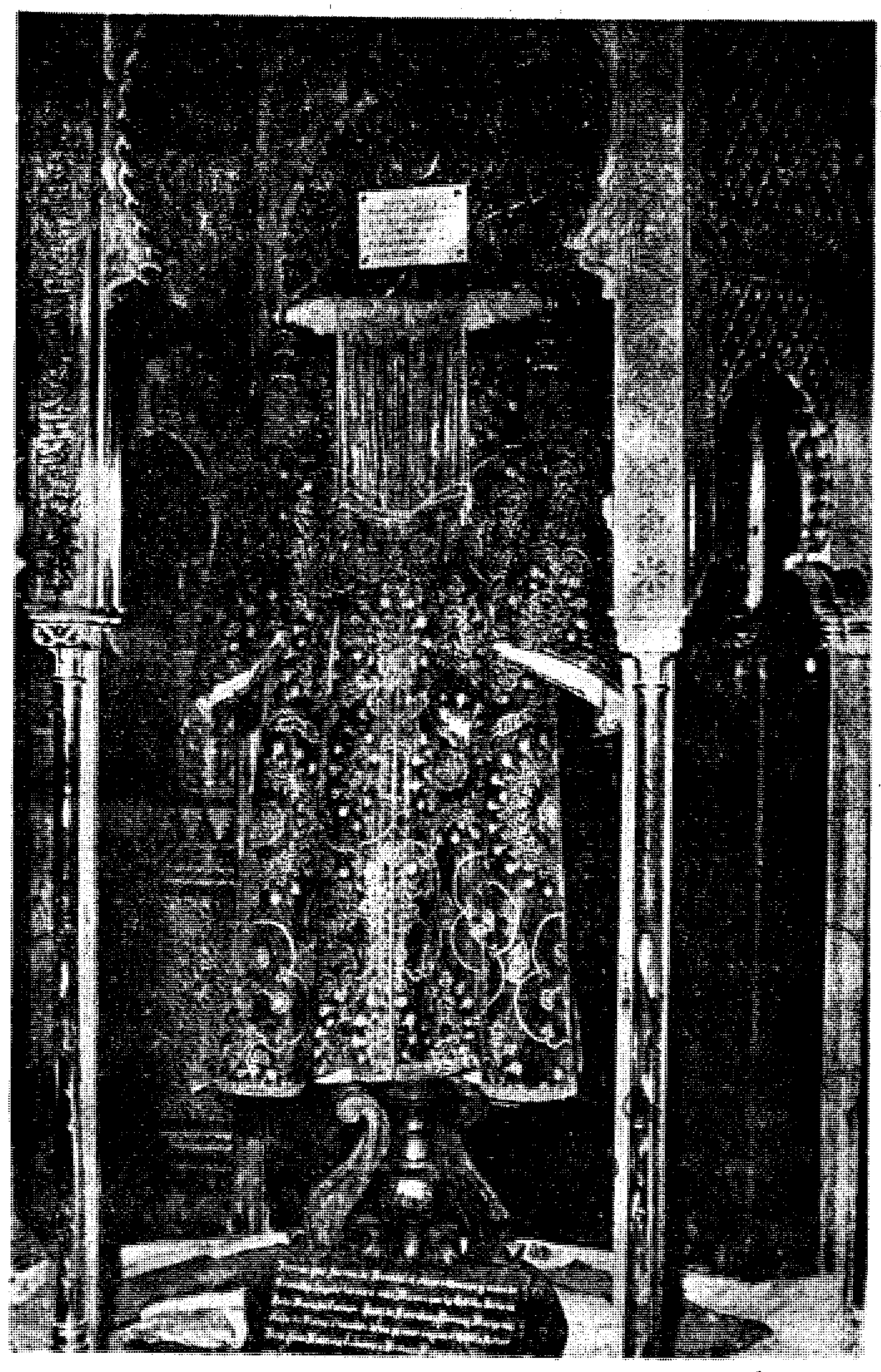
حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى ، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد ، ولا يعاتب على مَن قتل نصرانياً أيام الحرب ، ولا يؤخذ منه ماسلب من النصارى أيام العداوة ، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ولا يسفر لجهة من الجهات ، ولا يزيدون على المغارم المعتادة ، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة ، ولا يطلع نصراني للسور ، ولا يتطلع على دور المسلمين ، ولا يدخل مسجداً من مساجدهم ، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله ، ولا يجعل[لعلها : يحمل] علامة كما يجعل اليهود وأهل الدَّجَن ، ولا يمنع مؤذن ولا مصلٍّ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ، ومن ضحك منه يعاقب ، ويتركون من المغارم سنين معلومة ، وأن يوافق على كل الشروط صاحبُ رُومه ويضع خط يده ، وأمثال هذا مما تركنا ذكره . »[1]

حسب هذه المعاهدة تعهّد الملكان الكاثوليكيان بأمور كثيرة للمسلمين ، لكنها جميعاً نقضت ، الواحدة تلو الأخرى[2] ، كما سيتبين . بعد توقيع المعاهدة دخل الملكان قصر الحمراء بغرناطة في اليوم الثاني لربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ[3] (٢ كانون الثاني = ديسمبر ١٤٩٢ م) . تركها آخر ملوكها أبو عبد الله محمد (الحادي عشر) إلى أَنْدَرَش (Andarax) في منطقة البُشَرَّة (البُشَرَّات Alpujarras) جنوب جبل الثلج (Sierra Nevada = جبل شُلَيْر[4] Solarius Mons) في الأندلس . في العام التالي عبر أبو عبد الله محمد إلى المغرب ، حيث أن ملك قَشتالة « أمر — لعنه الله — بانتقال سلطان غرناطة أبي عبد الله إلى قرية أَنْدَرَش ، من قُرى البُشَرَّة ، فارتحل أبو عبد الله بعياله وحشمه ، وأقام بها ينتظر مايُؤمر به ، ثم ظهر للطاغية أن يُجيزه إلى العُدوة ، فأمره بالجواز ، وأعَدَّ له المراكب العظيمة ، وركب معه كثير

(١) نفح الطيب ، ٥٢٥/٤ — ٥٢٦ . كذلك : نبذة العصر ، ٤١ ؛ أزهار ، ٦٧/١ .
(٢) أزهار الرياض ، ٦٨/١ — ٧١ ؛ نبذة العصر ، ٤٤ ؛ نهاية الأندلس ، ٢٥٧ .
(٣) نفح الطيب ، ٥٢٥/٤ ؛ أزهار الرياض ، ٦٥/١ — ٦٦ ؛ نبذة العصر ، ٤٢ .
(٤) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ٢٠٣ (= الحلل السندسية ، ١٢٩/١) ؛ الإحاطة ، ٩٦/١ ، ٩٨ . كذلك : فرحة الأنفس ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ٢٨٣/٢/١ .


REPRODUCCIÓN

موافقة أبوعبد الله محمد (الحادي عشر) ، آخر ملوك غرناطة ، على ترك الأندلس ، بتاريخ ٢٣ رمضان ٨٩٨ ﻫ (٨ تموز = يوليو١٤٩٣ م) . عن الصورة المحفوظة في المتحف الحربي (**Museo del Ejercito**) بمدريد



جبة أبو عبد الله محمد (الحادي عشر) ، آخر ملوك غرناطة . محفوظة في المتحف الحربي بمدريد (Museo del Ejercito)

من المسلمين ، ممن أراد الجواز ، حتى نزلوا بمليلة من ريف المغرب ، ثم ارتحل السلطان أبو عبد الله إلى مدينة فاس — حرسها الله — وما زال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضعفاء السؤّال ، بعد المُلك الطويل العريض ، فسبحان المعزّ المذلّ ، المانح المانع ، لا إله إلا هو . »[1] أما في **نفح الطيب** فيذكر المَقّري ذلك مع زيادة .

« ثم أُمر سلطان المسلمين أن ينتقل لسكنى البُشَرَّات وأنها تكون له وسكناه بأَنْدَرَش ، فانصرف إليها وأخرج الأجناد منها ، ثم احتال في ارتحاله لبَر العُدوة ، وأظهر أن ذلك طلبه منه المذكور ، فكتب لصاحب المَرِيَّة أنه ساعة وصول كتابي هذا لاسبيل لأحد أن يمنع مولاي أبا عبد الله من السفر حيث أراد من بَر العُدوة ، ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه ويقف معه وفاء بما عهد له ، فصرف في الحين بنص هذا الكتاب ، وركب البحر ، ونزل بمليلة ، واستوطن فاساً ، وكان قبلُ طَلَبَ الجواز لناحية مَرَّاكُش ، فلم يُسْعَف بذلك وحين جوازه لبَر العُدوة لقي شدة وغلاءً ووباءً . »[2]

بعد أن استقر في فاس بقي مقيماً فيها حتى وفاته سنة ٩٢٤ هـ أو بعدها ، في ظل بني وَطَّاس — وارثي المرينيين — وحاكمهم : أبو عبد الله محمد الشيخ بن زكرياء[3] . يذكر المَقَّري أنه « انتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معتذراً عمّا أسلفه ، متلهّفاً على ماخلفه . وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس ، رأيتُها ودخلتُها ، وتوفي رحمه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمئة ، ودفن بإزاء المصلّى خارج باب الشريعة وخلّف ولدين اسم أحدهما يوسف والآخر أحمد ، وعَقِب هذا السلطان بفاس إلى الآن . وعهدي بذريته بفاس سنة ١٠٢٧ ، يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين ، ويُعَدُّون من جملة الشحاذين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . »[4]

---

(١) أزهار الرياض ، ٦٧/١ . كذلك : نبذة العصر ، ٤٣ ، ٤٧ .

(٢) نفح الطيب ، ٥٢٧/٤ .

(٣) انظر : نهاية الأندلس ، ٢٨٧ .

(٤) نفح الطيب ، ٥٢٩/٤ .

رحل بعض المسلمين الأندلسيين إلى العُدوة المغربية ، كان منهم « جماعة من علماء الأندلس خرجوا إلى تِلِمْسان ، منهم القاضي الشهير أبو عبد الله بن الأزرق ، صاحب « الشرح العجيب على مختصر خليل » ، وكتاب « السياسة » الملخَّص من مقدمة تاريخ ابن خَلْدون ، وفيه زيادات بديعات ، وكتاب « روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام » ، وغير ذلك ، وارتحل من تِلِمْسان إلى المشرق ، وسنلم بذكره . ومنهم بنو داود المذكورون في فهرسة الشيخ ابن غازي ، وهؤلاء خرجوا من الأندلس قبل أخذ غَرناطة ؛ ولكن لمّا رأوا استطالة العدو عليها ، وأنه آخذها لامحالة ، قوّضوا رحالهم عنها ، فنزلوا بتلمسان المحروسة ، وأُخذت الحضرة الغَرناطية بعد ارتحالهم بقريب ، رحمهم الله . ومنهم الفقيه الأديب حائز قصب السبق في كثرة النسخ والكتابة ، أبو عبد الله محمد بن الحَدّاد الشهير بالوادي آشي ، وسنذكره إن شاء الله ، رحم الله الجميع . وممن خرج بفاس من العلماء ، الفقيه أبو العباس البَقَنّي ، ثم رجع إلى غَرناطة ، وقضيته معروفة . »[1]

لكن ختام هذه المأساة الأندلسية لم يكن بهذا الشكل السريع أو السهل . بل كانت دونه دماء ودموع وحسرات وأحداث ومآسي وتضحيات من كل لون[2] . قدّمها المسلمون الأندلسيون دفاعاً عن عقيدتهم الإسلامية ، التي هي أغلى من كل شيء ،

---

(١) أزهار الرياض ، ١/٧١ – ٧٢ .

ابن الأزرق ، هو : أبو عبد الله محمد بن الأزرق (٨٩٦ هـ) ، قاضي الجماعة بغرناطة ، صاحب المؤلفات . انظر : نفح الطيب ، ٢/٦٩٩ ؛ أزهار الرياض ، ٣/٣٠٥ ، ٣١٧ ؛ نهاية الأندلس ، ٢٩٠ .

الوادي آشي ، هو : الفقيه الأديب المؤرخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد الوادي آشي ، نزيل تلمسان . أزهار الرياض ، ١/٥٥ ، ٣/٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ وبعدها . عدة أعلام يحملون هذا اللقب : « الوادي آشي » ، نسبة إلى بلد « وادي آش » (وادياش = وادي الأشات = مدينة الأشات = Guadix) ، من أعمال غرناطة ، ٥٣ كم إلى الشمال الشرقي منها . « مدينة الأشات وهي المشهورة بوادي آش ، وهي كثيرة الأشجار والفواكه ، وتنحدر إليها أنهار من جبل الثلج . » فرحة الأنفس ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ١/٢/٢٨٣ . عن « وادي آش » انظر كذلك : صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) ، ٢٠٢ (= الحلل السندسية ، ١/١٢٦) ؛ الروض المعطار ، ١٩٢ ؛ نفح الطيب ، ١/١٤٩ ؛ الحلة السيراء ، ٢/٣٥٤ ؛ درة الحجال ، ١/٧٧ .

(٢) راجع : نهاية الأندلس ، ٢١٥ – ٣٠٤ .

أمام الطغيان الأعمى والتعصب الأصم الذي استعمل كل وسيلة وتقلد كل سلاح في حرب لامبرر لها . ضد مَن أحسنوا إليه معاملةً ، ووفروا له حضارةً ، وأقاموا لإنارة الطريق مشاعلاً ، وأثاروا الأرض خيراً ، وعمّروا المكان إنسانيةً ، بعقيدة الإسلام القويمة وشريعته الربانية السمحاء وتعاليمها النقية البيضاء . فما تعلّموا منها ورفضوا خيرها ، كما فعل شارل مارتل في بَلاط الشهداء (١١٤ هـ)[1] . حتى لكأن النورَ يزيدهم بالظلام تمسكاً فيعادونه . والخيرَ يُقعدهم في الآثام فيبيدونه . تستثيرهم الفضيلةُ عداوةً فيحاربونها ، وتُشبعهم الحضارةُ تخلفاً فيحرقونها ، وتمنحهم السماحةُ الانسانية الربانية وتكريمها همجيةً فيذبحونها . معاني الخير تخنقهم ضدها فيدمرونها ، وشمائل المروءة تخنقهم فيقطعونها . توّجوا مآثرهم بمحاكم التفتيش إعلاناً ، يأبى إلا التبجّح والفخر ، بمُثُل في التخلّف فريدة ولرفض الخير عنيدة . غدت لهم سمة أصيلة ، وفضيلة يتبارون في الدفاع عنها والاخلاص لها . يحملون رايتها ويسخرون ممن لايرى رؤيتهم ، وذلك عنوان طبيعتهم وغاية أمجادهم .

تلت ذلك محن أخرى قاساها مسلموا الأندلس ، حتى قضي على وجودهم البشري وعلى عقيدتهم وكل ما يتصل بهم . اللهم إلاّ بقايا رماد ، تفلّتت من المخالب وهي عنيدة ؛ أما من الناس — إن وُجد — فتلك أخرى عجيبة ، أن تبقى تسكن القلب عقيدة[2] .

سادسًا : أحوال غرناطة وأهمّ الإنجازات

اتضحت — من الشرح السابق — أحوال مملكة غَرناطة ، كيف أنها كانت تتردّد بين القوة والضعف ، وبين الثبات والهزيمة ، وبين الأمن والقلق ، وبين الهدوء والاضطراب . رغم ذلك ، ففي الداخل كانت — كثيراً من الأوقات ، خلال عمرها البالغ حوالي قرنين ونصف — تمتليء بالإنتاج ، كما تطفح بالخير والرفاه . توفّرت لها

(١) أعلاه ، ١٩٣ وبعدها .
(٢) راجع : أندلسيات ، ١٦٩/٢ .

أيام مشهودة في الانتصار والغلبة ، ومع قلة الامكانيات وقسوة الظروف وكثافة الأعداء .

في هذه الظروف والفرص ــ وحتى مع الأيام العصيبة والانشغال ــ استطاعت أن تسير في الموكب الحضاري ، على قدر ما أوتيت من امكانيات ، وأن تقدم ألواناً عديدة من الانجاز . مما يدل على حيوية هذه الأمة المسلمة واستعدادها للعمل والانتاج ، بقدر مالديها من معاني الاسلام وما تمتلك من رسوخ عقيدته . إن الذي أصاب المسلمين بتقصيرهم وتخاذلهم ، حين الهبوط عن المستوى الكريم الذي أراده الإسلام ، كان أكثر مما أصابهم من عدوهم[1] . مع اعتبار أهمية هذا الأخير في الإشغال والاستنزاف والاطباق من كل جهة ، ينتقص من أطرافها ويأكل وجودها ويطحن حضارتها ، تراباً تذروه رياحها العاصفة .

أول إنجاز هو الاستعداد ــ في تلك الظروف ــ للمحافظة على ماتبقى للأندلس من أرض ، تأوي إليها البقية الباقية ، والسير في الوجهة القويمة على قدر . بعض هذه الانجازات كانت موجودة واستمرت ، وبعضها الآخر وجد أيام غرناطة . وجدت ــ في أيامها ــ « **مشيخة الغُزاة** » ، التي خلّفت تلك البطولات ، بجانب الانتصارات الأخرى[2] .

أمكن الحفاظ على التكوين والبناء الاجتماعي في عدد من الجوانب ، ولو بحدود، تضيق أو تتسع . وهو الذي ساعد على الوقوف في هذا الخضم الصعب لعدة أجيال . كما أن الآفاق والقيم التي رعاها وحافظ عليها انتجت بناءاً حضارياً كبيراً في مختلف الميادين ، قد تغور صوره أحياناً ، بعد أن كانت تفور .

في **العلوم** ، المتعددة الحقول ، قدمت التآليف الكثيرة والانتاج الضخم ، كما حافظت على ماخطته يد العلماء الذين سبقوا ، وانتفعت به . نجد ــ في الميادين الكثيرة ــ ثبتاً طويلاً من أسماء اللامعين . بعضها في **الإحاطة** لابن الخطيب (٧٧٦ هـ) وفي **نفح الطيب** للمَقَّرِي (١٠٤١ هـ) . كما أنشئت المدارس ومعاهد العلم الأخرى في كل

---

(١) انظر : نفح الطيب ، ٥١١/٤ ــ ٥٣٣ .

(٢) أعلاه ، ٥٤٠ ــ ٥٤١ .

ناحية . وتوفرت الاختراعات ، من مثل : المدافع التي ترمي نوعاً من المحروقات ، وتحويل البارود إلى طاقة قاذفة ، عنهم انتقلت إلى أوربا[1] . لم يزل متحف مدريد الحربي يحفظ حالياً البنادق التي استعملها المسلمون في دفاعهم عن غرناطة .

وفي **الصناعات** ، ازدهرت أنواع كثيرة . برزت الأندلس بدور صناعة السفن، ثم الأنسجة وصناعة الورق و « الفخار المذهّب العجيب »[2] . وأنتجت الكثير في ميدان الأصباغ والدباغة والجلود وصناعة الحُلي ، والصناعات الفنية الدقيقة .

كذلك برزت **بالزراعة** ووسائل الري والعناية بها وأنواع المزروعات .

ثم الجانب **العمراني** المتمثل في المباني المختلفة كالمساجد والقصور والدوروالقناطر. وقصر الحمراء الذي مازال باقياً ، مزيناً بالنقوش التي تدل على فنية ماهرة رائعة . كذلك المباني الحربية المتعددة[3] .

أن يكون – في تلك الظروف – مثل هذه الانجازات وغيرها ، فذلك إنجازمهم[4] ؛ وفي الكتب التي تركت لنا ، ووصلنا منها القليل ، إشارة إلى هذه الانجازات أو بيان عنها .

للتنظيمات المختلفة في المجتمع والدولة أهميتها . غدت مدينة غرناطة في وقتها من أجمل مدن العالم بشوارعها وميادينها وحدائقها ومبانيها ومرافقها المتنوعة ، وكانت تضم حوالي مليون نفس . وتصدِّر كثيراً من الصناعات إلى عدة بلدان ، منها الأوربية. وظهرت آثارها على هذه البلدان الأوربية في بعض المسائل الأخرى المعنوية ، فانتفعت – إلى حد – بالفروسية التي كانت لها الحفلات الرائعة المتفننة ، بما تحتويه من ضروب البراعة والرشاقة والأعراف .

شمَل الجانب الفكري في الانتاج كافة الميادين[5] . نعرف أسماء كثرة من الأعلام ، أمثال : ابن البيطار (٦٣٦ هـ) وابن الرومية (٦٣٧ هـ) وابن الجيَّاب

---

(١) انظر : نهاية الأندلس ، ١٢٧ – ١٢٨ ، ٢١١ ؛ الحضارة الاسلامية في الأندلس ، ٥٥ ؛ أعلاه ، ٥٤١–٥٤٢ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ، ٦٧٠ .

(٣) راجع : أندلسيات ، ٢/١٦٦ .

(٤) راجع : نهاية الأندلس ، ٥١١ .

(٥) انظر : الحضارة الاسلامية في الأندلس ، ٣٦ وبعدها .

(٧٤٩ هـ) وابن خاتمة (٧٧٠ هـ) وابن الخطيب (٧٧٦ هـ) وأبويْ عبد الله : محمد ابن الأزرق (٨٩٦ هـ) ومحمد بن الحدّاد الوادي آشي[١] ، وغيرهم كثير . كما كان عدد من ملوك بني الأحمر هم من العلماء والأدباء وبعضهم ألّف كتباً ، ورعوا العلم ورجاله ومعاهده ومواطنه ، وغير ذلك في هذا الباب كثير جداً .

سابعاً : تزايد الخطر ووقوع الكارثة

أخذت مملكة غرناطة تنحدر نحو نهايتها بشكل واضح ، في الأيام الأخيرة من حياتها ، لمّا اشتد تأثير العوامل المفتّتة لوحدتها والمهلكة لقوتها . كان بعض هذا نتيجة لسوء تصرف بعض الحكام أو الشذوذ في تصرفهم . كذلك لهبوط الحال والانشغال بالنزاعات الداخلية وصرف الجهود في خصومات كانت أولى أن تتحد لتواجه العدو ، في وقت كان العدو يقوى والنصير يقل .

إن بعض هذه الحالة كانت مبكرة . لكن قوة الأمة كانت تحتمل ، حتى وصلت إلى مرحلة أصبحت عاجزة عن تحمّلها . اشتد ضغط اسبانيا النصرانية ، في هذه المدة ، يكون ذلك — أحياناً — بإمدادات خارجية صليبية . كثر هجومها ، مستفيدة من تلك الظروف . ثم إن المبالغ التي دفعت لاسبانيا النصرانية ، حيث فرضتها لتفوقها ، بجانب ما تنازل عنه بعض سلاطين غرناطة الضعاف ، من الحصون والمدن ، كل ذلك كان يفتّ في عضد الأمة ويشكّل خطراً ، يقود إلى مثل هذه النهاية . وما ذكر في القسم الأخير من الفقرة الخامسة[٢] يصبح مكمّلاً لهذا الكلام .

ثامناً : قائمة بأسماء ملوك غرناطة

حكم بنو الأحمر غرناطة ، وراثة . تولّى حكمها — خلال القرنين والنصف — حوالي عشرين من الأمراء ، الذين أُطلق على كل واحد منهم « أمير المسلمين » . وقد يعرف أحدهم « الغالب بالله » ، حيث كان شعار الدولة « لاغالب إلا الله » .

---

(١) انظر : أعلاه ، ٥٥٨ .

(٢) أعلاه ، ٥٥١ وبعدها .

تولّى بعضهم الحكم أكثر من مرة . كان كثير منهم يمتازون بالهمّة والصدق والجهاد الكريم والدأب المستمر ، يتمتع بطاقات متعددة الجوانب ، عسكرية وعلمية وإدارية ، كما استعمل الرجال الأكفاء . حاز عدد منهم مستوى رفيع من المقدرة ، ولكن يفقد حياته مبكراً والبلد بحاجة إليه .

هذه قائمة بأسمائهم وسنوات حكمهم[1] .

١ — محمد (الأول) بن يوسف بن الأحمر (المعروف : « الشيخ » و« الغالب بالله ») ، مؤسس الدولة . حكمه : ٦٣٥ — ٦٧١ هـ (١٢٣٨ — ١٢٧٢ م) .

٢ — وَرِثه ابنُه : محمد (الثاني) ، الفقيه [2] . حكمه : ٦٧١ — ٧٠١ هـ (١٢٧٢ — ١٣٠٢ م) .

٣ — وَرِثه ابنُه : أبو عبد الله محمد (الثالث) ، المخلوع[3] . حكمه : ٧٠١ — ٧٠٨ هـ (١٣٠٢ — ١٣٠٩ م) .

٤ — وَرِثه أخوه : نصر ، أبو الجيوش . حكمه : أول شوال ٧٠٨ — أواخر شوال ٧١٣ هـ (١٣٠٩ — ١٣١٤ م) .

٥ — وَرِثه حفيدُ اسماعيل (أخو محمد الأول ، الشيخ المؤسس) : أبو الوليد إسماعيل[4] (الأول) . الجمعة ١٧ شوال ٦٧٧ ، حكمه : شوال ٧١٣ — الاثنين ٢٦ رجب ٧٢٥ هـ (١٣١٤ — ١٣٢٥ م) . في أيامه جرت **معركة مشيخة الغُزاة** سنة ٧١٨ هـ .

٦ — وَرِثه ابنُه : أبو عبد الله محمد[5] (الرابع) . محرم ٧١٥ ، حكمه : رجب ٧٢٥ — ذو الحجة ٧٣٣ هـ (١٣٢٥ — ١٣٣٣ م) .

٧ — وَرِثه أخوه : أبو الحجاج يوسف (الأول) ، الغالب بالله [6] ، بن أبي الوليد

---

(١) راجع : الإحاطة ، ١٤٢/١ ؛ نفح الطيب ، ٥١١/٤ ، ٥٢٤ ، ٥٢٨ ؛
Historia de la Espana Musulmana , 160 .

(٢) الإحاطة ، ٥٥٦/١ وبعدها .

(٣) الإحاطة ، ٥٤٤/١ وبعدها .

(٤) الإحاطة ، ٣٧٧/١ — ٣٩٧ ؛ أعمال الاعلام ، ٢٩٤/٢ .

(٥) الإحاطة ، ٥٣٢/١ وبعدها ؛ أعمال الاعلام ٢٩٥/٢ — ٣٠١ .

(٦) انظر : يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة ، محمد كمال شبانه .

إسماعيل (الأول) . حكمه : ٧٣٣ – ٧٥٥ هـ (١٣٣٣ – ١٣٥٤ م) .

٨ – ورِثه ابنُه : محمد (الخامس) ، الغني بالله . حكمه (المرة الأولى[1]) : ٧٥٥ – آخر رمضان ٧٦٠ هـ (١٣٥٤ – ١٣٥٩ م) ، خلع .

٩ – تولى الأمر بعده أخوه : إسماعيل[2] (الثاني) . الاثنين ٢٨ ربيع الأول ٧٤٠هـ ، حكمه : ٢٨ رمضان ٧٦٠ – الأربعاء ٢٧ شعبان ٧٦١ هـ (١٣٥٩–١٣٦٠ م) ، خُلع .

١٠– تولى الأمر بعده زوجُ أخته : أبو عبد الله محمد[3] (السادس) ، الغالب بالله . رجب ٧٣٢ ، حكمه : شعبان ٧٦١ – جمادى الثانية ٧٦٣ هـ (١٣٦٠ – ١٣٦٢ م) . يعرف كذلك في بعض المراجع الاسبانية : أبو سعيد البِرْميخو (El Bermejo : الأشقر ، مائل إلى الحمرة) ، خلع .

• يعود محمد (الخامس) ، الغني بالله ، (المرة الثانيـة والأخيرة[4]) : ٧٦٣ – ٧٩٣ هـ (١٣٦٢ – ١٣٩١ م) .

١١– ورِثه ابنه : أبو الحجاج يوسف (الثاني) . حكمه : ٧٩٣ – ٧٩٧ هـ (١٣٩١– ١٣٩٤ م) .

١٢– ورِثه ابنه : محمد (السابع) . حكمه : ٧٩٧ – ٨١١ هـ (١٣٩٤ – ١٤٠٨م).

١٣– ورِثه أخوه : يوسف (الثالث) . حكمه: ٨١١–٨٢٠ هـ (١٤٠٨ – ١٤١٧م).

---

(١) انظر عنه : الإحاطة ، ١٣/٢ – ٩١ . كذلك : (محمد الخامس ، الغني بالله ، ملك غرناطة) بالاسبانية لأحمد مختار العبادي : *Muhammad V, Al – Gani Bi – Llah, Rey de Granada* . في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد (القسم الفرنجي) ، ١١ – ٢٠٩/١٢ – ٣٢٧ ، ٤٣/٣ – ١٤٢ ، ١٣٩/١٤ – ١٩٢ .

(٢) الإحاطة ، ٣٩٨/١ وبعدها ؛ أعمال الاعلام ، ٣٠٧/٢ ؛ نفاضة الجراب وغلالة الاغتراب ، ابن الخطيب ، ١٢/٢ – ١٣ (المقدمة) ، ١٠٣ وبعدها .

(٣) الإحاطة ، ٥٢٣/١ وبعدها ؛ أعمال الاعلام ، ٣٠٨/٢ ؛ نفاضة الجراب ، ١٢/٢–١٣ (المقدمة)، ١٠٣ وبعدها ، ١٨٣ . (محمد الخامس ، الغني بالله ، ملك غرناطة) ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، ١١ – ١٢ / ٢٤١ ، ٢٥١ ، ٢٦٠ – ٢٦١ .

(٤) الإحاطة ، ٣١/٢ وبعدها ؛ (محمد الخامس ، الغني بالله ، ملك غرناطة) ، ١١– ٢٦٣/١٢ وبعدها .

١٤– وَرِثه ابنُه : أبوعبد الله محمد (الثامن) ، الأيسر(El Izquierdo,El Zurdo) .
حكمه (المرة الأولى) : ٨٢٠ – ٨٣١ هـ (١٤١٧ – ١٤٢٨ م) ، خلع .

١٥– جاء ابنُه (أوأخوه) : محمد (التاسع) ، الزغير ، أبوعبدالله الصغير (El Azquer) ، ابن محمد (الأيسر) بن يوسف (الثالث) . حكم عامين وأعيد الأيسر .

• أُعيد الأيسر (المرة الثانية) ، خلع – بعد عامين – سنة ٨٣٥ هـ (١٤٣٢م) .

١٦– وَرِثه : أبوالحجاج يوسف (الرابع) ، ابن المول (Abenalmao) . أمّه ابنة السلطان محمد بن يوسف بن محمد (الخامس) ، الغني بالله . توفي بعد أشهر وعاد الأيسر .

• أُعيد الأيسر (المرة الثالثة والأخيرة) ، خلع سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤٢ م) .

١٧– وَرِثه : محمد (العاشر) ، الأحنف[1] (الأعرج El Cojo) ، بن نصر ابن محمد (الخامس) ، الغني بالله . (المرة الأولى) ، خلع .

١٨– ورثه ابن عم الأيسر : يوسف (الخامس) بن أحمد (بن إسماعيل) بن يوسف (الثاني) . المرة الأولى : حكم أشهر وخلع .

• عاد الأحنف ، (المرة الثانية) : أوائل سنة ٨٤٩ هـ (١٤٤٦ م) ، وخلع سنة ٨٦٣ هـ (١٤٥٨ م) .

١٩– وَرِثه حفيدُ يوسف (الثاني) : سعد بن محمد . حكمه (المرة الأولى) : ٨٦٣ – ٨٦٧ هـ (١٤٥٨ – ١٤٦٢ م) ،خلع .

• أُعيد يوسف (الخامس) بن إسماعيل (المرة الثانية) : حتى سنة ٨٦٨ هـ (١٤٦٣ م) .

• عاد سعد بن محمد (المرة الثانية) ، عزله ابنُه أبو الحسن علي .

---

(١) انظر : بحث « سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري » ، عبد العزيز الأهواني ، في : مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة) ، ١١٣/١/١٦ ؛ بحث بالاسبانية (مع نص أندلسي) عن محمد العاشر ، لويس سيكو دي لوثينا ، مجلة « الأندلس » الاسبانية :
« La Familia de Muhammad X El Cojo, Rey de Granada», Luis Seco de Lucena, *AL-ANDALUS*, XI /2,379–85 .

قائمة نسب بني الأحمر

محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الأنصاري الخزرجي

يوسف

(١) المؤسس: أبو عبدالله محمد(الأول)، ابن الأحمر، الشيخ الغالب بالله (٥٩١ : ٦٣٥ – ٦٧١ هـ)

أبو الوليد إسماعيل

محمد

(٢) أبو عبد الله محمد (الثاني) ، الفقيه (٦٣٣ : ٦٧١ – شعبان ٧٠١ هـ)

الرئيس: أبوسعيد فرج

محمد

علي

يوسف

(٣) أبوعبد الله محمد (الثالث) ، المخلوع (٧٠١ – شوال ٧٠٨ هـ)

(٤) نصر ، أبوالجيوش (٧٠٨ – ٧١٣ هـ)

(٥) أبوالوليد إسماعيل (الأول) (٧١٣ – ٧٢٥ هـ)

محمد

إسماعيل

(٦) أبو عبد الله محمد (الرابع) (٧٢٥–٧٣٣ هـ)

فرج (٧٥١ هـ)

(٧) أبوالحجاج يوسف(الأول) (٧١٨ : ٧٣٣–٧٥٥ هـ)

إسماعيل

(١٠) أبوعبد الله محمد (السادس)، الغالب بالله (أبوسعيد البرميخو) (٧٦١–٧٦٣ هـ)

(٨) أبو عبد الله محمد (الخامس) ، الغني بالله (الأولى : ٧٥٥ – ٧٦٠ هـ) (الثانية : ٧٦٣ – ٧٩٢ هـ) خُلع وأعيد ثانية

(٩) إسماعيل (الثاني) ، (٧٦٠ – ٧٦١ هـ)

ابنته (؟) +

(١١) أبو الحجاج يوسف (الثاني) ، (٧٩٣ – ٧٩٧ هـ)
ابن محمد (الخامس)

نصر

(١٧) محمد (العاشر) ، الأحنف
(الأولى: ٨٤٥ – ٨٤٩ هـ)
(الثانية : ٨٤٩ – ٨٦٣ هـ)

إسماعيل

أحمد

(١٨) يوسف (الخامس)
(الأولى : أشهر ٨٤٩ هـ)
(الثانية : ٨٦٧ – ٨٦٨ هـ)

محمد

(١٩) سعد
الأولى : ٨٦٣ – ٨٦٧ هـ
الثانية : أشهر (٨٦٨ هـ)

(١٢) محمد(السابع)
٧٩٧ – ٨١١ هـ

ابن المول – ابنته (؟)

(١٦) يوسف (الرابع) ابن المول ، حكم أشهر (٨٣٦ هـ)

(١٣) يوسف (الثالث)
(٨١١ – ٨٢٠ هـ)

(١٤) أبو عبد الله محمد (الثامن) ، الأيسر
(الأولى : ٨٢٠ – ٨٣١ هـ)
(الثانية : ٨٣٣ – ٨٣٥ هـ)
(الثالثة : ٨٣٦ – ٨٤٥هـ)

(١٥) محمد (التاسع) ، الزغير (٨٣١ – ٨٣٣ هـ)

(٢٢) أبو عبد الله محمد (الثاني عشر) ، الزّغَل (٨٨٨ – ٨٩٢ هـ)

(٢٠) أبو الحسن علي (٨٦٨ – ٨٨٧ هـ)

(٢١) أبو عبد الله محمد (الحادي عشر) ،
أبو عبد الله الصغير ، آخر ملوكها
(الأولى : ٨٨٧ – ٨٨٩ هـ ، الثانية : ٨٩٢ – ٨٩٧ هـ)

٢٠- وَرِثه ابنُه : أبو الحسن علي بن سعد ، الغالب بالله . حكمه : ٨٦٨ – ٨٨٧ هـ (١٤٦٣ – ١٤٨٢ م) ، خلع .

٢١- وَرِثه ابنُه : أبو عبد الله (Boabdil) محمد (الحادي عشر) ، المعروف : الغالب بالله ، والملك الصغير . حكمه (المرة الأولى) : ٨٨٧ – ٨٨٨ هـ .

٢٢- وَرِثه عمُّه (أخو أبي الحسن علي بن سعد) : أبو عبد الله محمد (الثاني عشر) ، الزَّغَل (الشجاع أو الباسل El Zagal = El Bravo) ، بن سعد . حكمه : ٨٨٨ – ٨٩٢هـ . استسلم وترك الأندلس إلى تِلِمْسان بالجزائر .

• عاد أبو عبد الله محمد (الحادي عشر) ، (المرة الثانية) ، حتى سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) .

استسلم أبو عبد الله محمد ، الملك الصغير ، وسلّم غرناطة ، آخر حصن إسلامي في الأندلس ، للملكين الكاثوليكيين : فِرْانْدُهْ (Fernando V) وإزابيل (Isabel,Isabella) سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) . ترك أبو عبد الله – في السنة التالية – الأندلس إلى فاس[١] ، وهو آخر ملوك غرناطة . عند رحيله جرت تلك القصة المؤثرة وموقف أمه عائشة أو فاطمة[٢] .

تاسعًا : محنة المسلمين بعد سقوط غرناطة ومحاكم التفتيش

لم تكن مصيبة الأمة الإسلامية في الأندلس تنتهي بزوال سلطانهم السياسي وسقوط آخر معقل إسلامي بيد سلطات اسبانيا النصرانية المتحدة ، بل إن مصيبة جديدة تبدأ ، إنها مأساة الأمة هناك . مأساة تَمَثَّل فيها الثبات والتصارع ضد الفناء الذي كان يريده لهم السلطان الاسباني ، لافناء الأفراد ، بل قبله فناء وإفناء العقيدة وإلغاء كل مايتصل بذلك . وبقي المسلمون يقاومون مايزيد على القرن دفاعاً عن عقيدتهم متمثلة في وجودهم وكل الأمور المتعلقة بهم ، حتى الثمار الفكري والانتاج الحضاري بمظاهره ، لذلك

---

(١) أعلاه ، ٥٥٦ – ٥٥٨ .

(٢) راجع : أندلسيات ، ٣٥/٢ ؛ نهاية الأندلس ، ٢٦٧ ، ٢٨٨ .

كانت محاكم التفتيش . وتقود كل هـذا ويتم بروح صليبية ، تأخذ من تبدو عليه أية صلة بالإسلام ، أو يضبط متلبساً يؤدي الشعائر أو يترسم عادة من العادات أو يحمل شارة من شارته ، حتى الملابس والاغتسال اعتبرت دليلاً عليه . فكان من جراء ذلك أن أظهر عدد من المسلمين النصرانية وأبطنوا الإسلام ، وأُطلق على هؤلاء اسم « **الموريسكيون** (Los Moriscos) : المسلمون الصغار » . لذلك ليس من السهولة أن نجد الآن أسراً مسلمة في إسبانيا[1] .

اتخذت حرب الاسلام ــ بعد سقوط غرناطة ــ عدة أشكال ، مرت بمراحل ؛ لاسيما حين استتبت الأمور للسلطان القشتالي ، بعد دخول الملكين الكاثوليكيين غرناطة واستحواذهما عليها وزال ماكانت تخشاه من انتقام المسلمين أو انتفاضهم عليها ، فأحكم قبضته . بدأ يعد العدة لحرب المسلمين ، ونقض الشروط التي لم يعطها إلا إغراءً لهم وتعجيلاً بالاستسلام ، ليتجنب مقاومة ترهقه وتكلفه الكثير[2] . جرى ذلك رغم التأكيدات البابوية والملكية القشتالية وسلطاتها المدنية والكنيسية للوفاء بشروط « **معاهدة تسليم غرناطة** » . إذ اتفق على « **أن صاحب رُومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط إذا أمكنوه من حمراء غَرناطة والمعاقل والحصون ، ويحلف على عادة النصارى في العهود ، وتكلم الناس في ذلك ، وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لمَّا خرجوا للكلام في ذلك امتَنَّ عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر ، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غَرناطة ، فانقادوا إليها ووافقوا عليها** »[3] .

تعهّد الملكان الكاثوليكيان كتابةً ــ في المعاهدة بنفس تاريخ توقيعها ، ٢١ محرم ٨٩٧ هـ (١٤٩١/١١/٢٥ م) ــ « **أن ملكي قشتالة يؤكدان ويضمنان بدينهما وشرفهما الملكي ، القيام بكل مايحتويه هذا العهد من النصوص ، ويوقّعانه بإسميهما ويمهرانه بخاتميهما** »[4] .

---

(١) راجع : أندلسيات ، ١٦٨/٢ – ١٦٩ ؛ الحضارة الاسلامية في الأندلس ، ٣١ .

(٢) انظر : نهاية الأندلس ، ٢٥٤ .

(٣) نفح الطيب ، ٥٢٥/٤ .

(٤) نهاية الأندلس ، ٢٥٠ (النص القشتالي) .

كرر هذا التعهد – بعد ذلك بسنة – في ربيع الأول ٨٩٨ هـ (٣٠ كانون الأول= ديسمبر سنة ١٤٩٢ م) « بتوكيد جديد يأمر فيه الملكان ولدهما الأمير ، وسائر عظماء المملكة بالمحافظة على محتويات هذا العهد ، وألا يعمل ضده شيء ، أو ينقض منه شيء ، الآن وإلى الأبد ، وأنهما يؤكدان ويقسمان بدينهما وشرفهما الملكي بأن يحافظا ، ويأمران بالمحافظة على كل مايحتويه بنداً بنداً إلى الأبد ، وقد ذيل هذا التوكيد بتوقيع الملكين ، وتوقيع ولدهما وجمع كبير من الأمراء والأحبار والأشراف والعظماء . »[1]

بعد سنوات قليلة بدأ النقض لكل ماجاء في « معاهدة تسليم غرناطة » ، عن قصد مسبق وتدبير مخطط ، تعاونهما في ذلك السلطات الكنسية وكافة المسؤولين . اتخذ هذا الترتيب – لحرب المسلم في عقيدته ونفسه – تدرّجاً . لم تكن أُولى خطواته مستساغة أو خالية من القسوة أو بعيدة عن الأهوال أو منافية للتوحش ، وحاشا للنصرانية – كما أنزلها الله ، جلّت قدرته ، على عيسى عليه السلام – أن ترضى بأي شيء من هذا .

بقيت أعداد كبيرة – ملايين – من المسلمين بعد سقوط غرناطة ، لم تجز إلى العُدْوة المغربية ، سواء مَن كان منهم في مملكة غرناطة ، أو المدجنون الذين بقوا في قواعد الأندلس تحت حكم اسبانيا النصرانية قبل سقوط غرناطة ، بل فضّلت الإقامة في أماكنها والدجن ، أثار ذلك حفيظة السلطات القشتالية ، فنقضت الشروط . لم تمض سبع سنوات – أو دونها – على سقوط غَرناطة ، حتى أجبرت هذه السلطات المسلمين على التنصر . « فلما رأى الطاغية أن الناس قد تركوا الجَواز وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن ، أخذ في نقض الشروط التي اشترط عليه المسلمون أول مرة ، ولم يزل ينقضها فصلاً فصلاً ، إلى أن نَقَض جميعها ، وزالت حُرْمَة المسلمين ، وأدركهم الهوان والذِّلّة ، واستطال عليهم النصارى ، وفُرضت عليهم المغارم الثقيلة ، وقطع عنهم الأذان في الصوامع ، وأمرهم بالخروج من غَرناطة إلى الأرباض والقرى ، فخرجوا أذلّة صاغرين ، ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصُّر وأكرههم عليه ، وذلك سنة أربع وتسع مئة ، فدخلوا فيه كُرْهاً ، وصارت الأندلس كلها دار كفر ، ولم

---

(١) نهاية الأندلس ، ٢٥٠ .

يبقَ مَن يَجهر بكلمة التوحيد والأذان ، وجُعلت في المساجد والمآذن النواقيس والصلبان ، بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، لا رادَّ لما قضاه الله الملك الديّان . »[1] فاتبع القتل – غير بعيد – لمن لايتنصر « وذلك أنهم أُكرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطق بما يقتضي في الظاهر الكفر ، ولم يُقبل منهم الأَسر ؛ وكان الابتداء في ذلك من أهل غَرناطة – جَدَّد الله رَسْمها ، وأعاد إلى بلاد المسلمين اسمها ، وخصوصاً أهلَ واسطتها »[2] . حيث علمت السلطات القشتالية « بأن مَن بقي بها من المسلمين إنما هم أُسارى في أيديهم ، وعِيال عليهم ؛ وبعد أن انتزعوا منهم الأسلحة والمعاقل ، وَعَتَوْا فيهم بالخروج والجلاء ، فلم يبقَ من المسلمين طائل ؛ ونقض اللعين طاغية النصارى عهوده ، ونشر بمحض القدر بنوده ، من غير مَعذرة لَفَّقَها ، ولا كَذبة في معرِض العذر نَمَّقها ، إلا أعجازاً من الكفر ، وصدوراً من الغيظ والمكر ، وخالص الغدر ، جمّعها وفرَّقها ؛ ... ثم انتقل عن الواسطة للبيَّازين ، حيث الحميَّة ، والنصرة الايمانية ، مع السراجة والتحية [؟] ، والعقل الرصين ، والدين المتين ؛ فجعل صَعْبها ذَلولا ، وأعاد للكفر كَرها مَن كان بحضرتها ، وتمتَّع أحزاب الشيطان – قصمهم الله – بنضرتها ، نسأل الله تعالى أن يجعل تمتعهم قليلاً . »[3]

من المهم الاستعانة بهذه النصوص ، فهي معبّرة وموضّحة ، دوّنها شاهد عِيان أو قريبُ عهدٍ بالأحداث . يحفظ المَقَّرِي (تِلِمْسان ، ٩٨٦ – القاهرة ، ١٠٤١هـ) في **نفح الطيب** نصاً آخر يتعلق بهذه الأحداث فيقول :

« ثم إن النصارى نكثوا العهد ، ونقضوا الشروط عروة عروة ، إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصّر سنة أربع وتسع مئة ، بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا : إن القسيسين كتبوا على جميع مَن كان أسلم من النصارى

(١) أزهار الرياض ، ٦٨/١ – ٦٩ . كذلك : نبذة العصر ، ٤٤ .

(٢) أزهار الرياض ، ٦٩/١ .

(٣) أزهار الرياض ، ٦٩/١ – ٧٠ .

أن يرجعوا قهراً للكفر ، ففعلوا ذلك . وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة ، ثم تعدوا إلى أمر آخر ، وهو أن يقولوا للرجل المسلم : إن جدك كان نصرانياً فأسلم فترجع نصرانياً . ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيّازين على الحكام وقتلوهم ، وهذا كان السبب للتنصر ، قالوا : لأن الحكم خرج من السلطان أن مَن قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا أن يتنصر فينجو من الموت . وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم من التنصر ، واعتزلوا الناس ، فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بَلْفيق وأنْدَرَش وغيرهما ، فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبياً ، إلا ماكان من جبل بللنقه فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة . وأُخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خفّ من مالهم دون الذخائر ، ثم بعد هذا كله كان مَن أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلّي ، فشدّد عليهم النصارى في البحث ، حتى إنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ، ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد ، وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيّض الله لهم ناصراً ، إلى أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر وألف ، فخرجت ألوف بفاس ، وألوف أُخر بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس »[١] .

اعتمدت اسبانيا الشمالية دوماً ــ سياستها المتّبعة وطريقتها المؤهّلة ــ عدم الالتزام بالعهود ، لاسيما حين تجد الفرصة لنقضها . فكيف هنا وهي متغلّبة تمتلك القوة ــ ميدان إبانة الحقيقة ــ وليس أمامها إلا ضعاف ، يعدمون وسيلة دفاع عن أنفسهم أو مطالبة بحقوقهم ، بله مايحمونه بها . أَلِفْنا وضوح النقض ــ خلال تاريخ الأندلس ــ من جانب اسبانيا الشمالية . بينما رأينا بوضوح كامل إلفة التزام المسلمين بالعهود ، في كل الظروف . حتى وهم يملكون القوة ويحوزون الانتصار ولهم التوجيه[٢] .

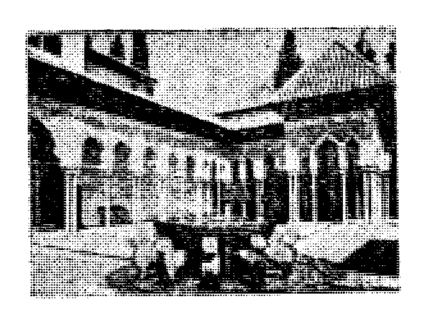
(١) نفح الطيب ، ٥٢٧/٤ – ٥٢٨ . كذلك : نبذة العصر ، ٤٥ .

(٢) انظر : أعلاه ، ٧٨–٨٢، ١٤٠ .كذلك : *Andalusian diplomatic relations*, 290-1.

أُحيط بالمسلمين ، بعد سقوط غرناطة ، من كل مكان وخاضوا — في أوقات — معارك قَدَّموا فيها التضحيات ، سُبيت فيها نساؤهم وأولادهم . بقوا وحدهم هناك، مجردين من الوسائل ، عُزَّلاً يذودون عن دينهم . رغم تغلبهم أحياناً ، إلا أنهم أُبيدوا في النهاية بصليبية عجفاء وحقد أسود..

امتنع بعض الأندلسيين « من التنصّر وأرادوا أن يدافعوا عن أنفسهم،كأهل قرى ونجر والبُشَرَّة وأنْدَرَاش وبَلْفيق ، فجمع ملك الروم عليهم جموعه وأحاط بهم من كل مكان حتى أخذهم عَنْوة بعد قتال شديد ، فقتل رجالهم وسبى نساءهم وصبيانهم وأموالهم ونصّرهم واستعبدهم إلا أن أُناساً في غَربيّة الأندلس امتنعوا من التنصّر وانحازوا إلى جبل منيع وَعْر فاجتمعوا فيه بعيالهم وأموالهم وتحصّنوا فيه فجمع عليهم ملك الروم جموعه وطمع في الوصول إليهم كما فعل بغيرهم ، فلما دنا منهم وأراد قتالهم خيب اللهُ سعيه ورده على عقبه ونصرهم عليه، بعد أكثر من ثلاثة وعشرين معركة ، فقتلوا مِن جنده خلقاً كثيراً من رجال وفرسان وأقناد . »[1]

لكن موضوع المسلمين في الأندلس بعد سقوط غرناطة (المورسكيون Los Moriscos) واسع ومهم . إنه **بحاجة إلى دراسة مستقلة معتنية** ، لعل الله جلَّت قدرته يوفق له بعونه ومَنّه .



(١) نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر ، ٤٥ .

خاتـمة

لاحظنا – خلال دراستنا ، لا لمملكة غرناطة فقط بل لكافة التاريخ الأندلسي– أموراً كثيرة . هذا الأسلوب في التناول والطريقة في العرض والسير في المتابعة وحسب الموضوعات لكل عهد هو وجهة متميزة عما اعتاد كثير من الدارسين ، مع ما قد يكون جديداً أو فيه شيء من الجدة . ربما ينمو هذا الأسلوب ليكون اتجاهاً أكثر قوة ووضوحاً رعمقاً ، مع مافيه من الشمول والعودة إلى الأصول والتجوّل الطويل والنظر الأصيل ، بأمانة نزيهة وأناة صبور . يكمله – طبعاً – الجانب الحضاري ، الذي درست بعض جوانبه مستقلة ، تأخذ طريقها إلى الاتساع والتدقيق .

كانت رحلة مع المسلمين – من الفاتحين الأولين أو الأسبان الذين دخلوا الاسلام– خلال القرون الثمانية التي امتلأت بوجودهم السياسي والاجتماعي والحضاري وقبل ذلك الانساني . رأيناهم يملؤون تلك الأرض طيباً وخيراً وجمالاً منوّعاً ، وعطراً وشجراً باسقاً ، وغرساً ذا ثمار عجيبة تزهو ساطعة فريدة . فاضت عدلاً ونعمة وعلماً وفضلاً وعمراناً ، ماكان منها نجداً وسهلاً . شعر الناس به – حتى غير المسلمين – أمناً وراحة ، دفأ وسعادة « لم يكن فتح المسلمين للأندلس مجرد حدث سياسي أو انتصار عسكري ، بل كان حدثاً حضارياً وإنجازاً رائعاً وإعلاناً عن حياة جديدة حلّت تلك الأرض ، كان لها أثر في تلك الديار وما جاورها من الأقطار . »[1] إنه اليقظة الكبرى ، حين أيقظهم الإسلام من سبات عميق ونعمة فضلى يوم أنقذهم من ضلال مغرق عنيد ، ليحيوا في نوره الغامر وظله الوارف وخيره العريض .

كم لاحظنا من تقلبات الأحوال مرتبطة بأصول وأسباب . لكن أمراً مهماً لابد من اعتباره . هو أن كل تقدم أو ارتقاء حضاري وسياسي ونعيم اجتماعي أو اقتصادي وسمو فكري وارتفاع معنوي وأية عزة في السلطان وتمكن في البنيان كان مرده إلى التمسك بالإسلام ، ومرتهناً بمقدار الالتزام بشريعته . صدقاً نقياً أميناً ، وحرصاً ذاتياً

(١) أندلسيات ، ٢/١٥١ – ١٥٢ . كذلك : أعلاه ، ٢٨٥ – ٢٨٧ .

دفيناً ، وعمقاً متأصلاً مكيناً . هذه القاعدة سليمة المنطق والتطبيق في كل عصور المسلمين ، منذ أول يوم في إشراقته الوضيئة وحتى يرث الله الأرض ومن عليها .

كما لاحظنا أن الجهود والطاقات ، التي صرفت في حماية الأندلس ، كانت ضخمة طوال تلك القرون . كان كثير من المواجهات تحمل الطابع الصليبي بوضوح. تثير هذه المواقف المتاعب في داخل الأندلس . رغم ذلك كله ، نجد الأندلس يمتاز بالنشاط والغزارة في الأحداث وفي الانتاج الحضاري المتعدد الجوانب . إنه إنتاج ضخم في كل ميدان . منه احتوت أوربا على أصول نهضتها العلمية وما أخرجها من عصور جهالتها . هذا التيار فرحت لصده في معركة بَلاط الشهداء (١١٤ هـ) ، واعتبرت ذلك إنقاذاً . لكن كان من الخير والعدل والمثل القيمة والحضارة التي علّمت الانسان مكانته وهَدَته إلى حقيقته ورفعت فكره وطهرت بصيرته وأجلت بصره وأعلت قدره . حتى عندما نقلت أوربا من الأندلس حضارة ، فإنها أهملت أصولها التي بها قامت . أخطأت السبيل ،فضلّت وأضلّت .

لابد للمسلمين ، وهم أولى ، ألا ينصرفوا فقط للاستيعاب الذهني الجاف والمشوه. بل بحاجة أيضاً إلى التعبئة النفسية والخلقية التي تقدم للانسان وعقله غذاءً ، يجعل نموه سليماً متناسقاً . يرعى نفسه ويحرص ، فَرِحاً حين يقدم لغيره من الخير ما أصابه . يكون ذلك أحد التزاماته التي تلبسه حلة السعادة ، لايعوضه عنها فقدانها . أي تناولها الموضوع دراسة لتعيد البناء على أسس من المتانة قويمة في ظروف واضحة تتقدم بها .

إن المجتمع الذي أقامه الإسلام في الأندلس ، وبه كان وجوده ، رعى الحقوق حتى لغير المسلمين . وجدوا فيه الظل الوارف ، والعش الأمين والكنف اللين ، يوم كان لايتوفر ذلك لأهلها ، في مجتمعات تدين بما يدينون . فلقد منع فقهاءُ قرطبة المنصورَ بن أبي عامر (٣٩٢ هـ) — حين استشارهم — من « أرض موقوفة على بعض كنائس أهل الذمة ، أراد شراءها »[1] .

لكن يوم ذهبت دولة الاسلام وأمست كلمته ، لم تردّ السلطات الغالبة للمغلوب

(١) ترتيب المدارك ، ٣ — ٤/٦٤٥ .

بنفس صاعه ولا نصيفه أو جزء منه ، أو به شبيه (والبادي بالخير أكرم) لمقابل ما صدر عنه غير الظلم . بل وكأن ذلك نفسَه يجمع لها من الحقد ما وجدت الفرصة لإفراغه .

اعتمدت سياسة اسبانيا النصرانية مختلف الأساليب لافناء الإسلام وإبادة أهله في جزيرة الأندلس ، وقد مرت النماذج على ذلك[١] . فألِفت عمليات الإبادة ورفض المصالحة والاستسلام ؛ بل آثرت تدمير المدينة الأندلسية ،التي تقع في حوزتها، وتقتيل أهلها ؛ كما ارتضت إحراق المساجد[٢] أو إحالتها إلى كنائس[٣] . وقد يتم ذلك كله مع وجود معاهدات مؤكدة ومحلف عليها[٤] . كذلك جرت عادتها على إجلاء المسلمين عن المدينة الأندلسية حين تقع بين مخالبها[٥] .

فلما أغارت على مدينة سُهَيْل (Fuengirola) جنوب غربي مَالَقَة[٦] . خربتها وقتلت من أهلها الكثير . فتذكر مصادرنا الأندلسية ، في ترجمة المحدث اللغوي، أبا القاسم عبد الرحمن السُّهَيْلي[٧] (مالقة ، ٥٠٨ — مراكش ، ٥٨١ هـ)، أنه « اجتاز على سُهَيْل وقد خربه العدو لمَّا أغار عليه وقتلو أهله وأقاربه ، وكان غائباً عنهم ، فاستأجر مَن أركبه دابة وأتى به إليه ، فوقف بإزائه ، وأنشد»[٨] شعراً يصف الخراب الذي حَلَّ مدينة سُهَيْل .

وبلغ الأمر بعد سقوط بلنسية (٦٣٦ هـ)[٩] أنْ مُنِع المسلمون من استعمال مقابرهم . فلقد تُوفي أبو محمد عبد الله بن محمد بن مطروح تاسع ذي قعدة سنة ٦٣٥ هـ ، خلال حصار بلنسية « والروم محاصرون بلنسية . ودفن بمقبرة باب الحَنَش

---

(١) انظر :أعلاه، ٤٩٧ والحاشية٢، ٥٣٢، ٥٣٩، ٥٤٢، ٥٤٩، ٥٥٠—٥٥١، ٥٥٤—٥٥٩، ٥٦٨ وبعدها.

(٢) انظر : أعلاه ، ٣٨٦ ؛ البيان المغرب ، ١٧٢/٢ .

(٣) أعلاه ، ٣٣٤ ، ٤٧٢ ، ٤٧٨ — ٤٧٩ ؛ الحلل السندسية ، ١٠٠/١

(٤) انظر مثلا : نصوص عن الأندلس ، ٣٨ .

(٥) أعلاه ، ٤٦٥، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٨—٤٧٩، ٤٨٠—٤٨٢ ، ٥٥٦ وبعدها .

(٦) نفح الطيب ، ١٦٤/١ ؛ مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، ٧٥ .

(٧) وفيات الأعيان ، ١٤٣/٣ ؛ العبر ، الذهبي ، ٢٤٤/٤ .

(٨) نفح الطيب ، ٤٠٠/٣ . كذلك : المغرب ، ٤٤٨/١ .

(٩) أعلاه ،

لصلاة ظهر الجمعة ، قبل امتناع الدفن بخارجها »[1] .

ربما كان العداء للمسلمين السبب الوحيد لاجتماع كلمة دول اسبانيا النصرانية، في مراحل كثيرة أو في كلها . هل على ذلك يصح القول بأن موقف العداء كان لهم نافعاً ؟ فلو كان الآخر لكان النفع إنسانياً دائماً . مع كل ذلك كان المسلمون يمدون اليد لأية بارقة أو إشارة سلم أو مودة . القصد أيضاً يوم كانت لهم الكلمة في مصائر الأمور في شبه الجزيرة الأندلسية . كم أحسنوا إليهم – رغم ذلك – والتزموا بالعهود مع الخُلْف المتكرر . تلك هي عقيدتهم الإسلامية ، منها يستمدون وعنها يصدرون وعلى ضوئها يتصرفون ، لا بمستوى الآخرين ، بل بمستوى ما علّمهم إسلامهم .

مرت الأمثلة المتعددة المتكاثرة لكلتا الوجهتين ، علواً سامتاً ، وهبوطاً حالكاً . كذلك يذكر ابن عبد المنعم الحميري – حين الحديث عن حِصْن شَنْفِيرُه ، قرب مُرْسِيَه – أن نصارى الشمال الاسباني استولوا عليه غدراً مع قيام صلح بينهم وبين المسلمين . إذ أن « أبا سعيد بن الشيخ أبي حَفْص الهِنْتاتي ، لما طاف على حصون الأندلس يتفقّدها في أيام الهدنة ، نظر إلى هذا المَعْقِل وهو بارز إلى السماء مع وثاقة بنائه فأعجبه وقال : كيف أخذ الروم هذا الحصن من المسلمين ؟ فقيل : غدروا به في زمان الصلح »[2] . ثم إن محمد بن يوسف بن هود[3] استرجعه سنة ٦١٤ هـ .

لكن يقال أيضاً أن فترات الضَّعْف ومواضع الخلْف فتّت في عَضُد المسلمين أكثر من العوامل الخارجية ، لعلها تتبين . إذ كان الاسلامُ دوماً للأمة الحصن الحصين ، خلال الزمن . أوجد مجتمعاً فريداً في عالم الانسان على هذا الكوكب، وماله أن يفكر في مثله بدونه .

الإمكان أن تستوعب هذه الخاتمة أشياء كثيرة أُخر ، مأخوذة من الدراسة السابقة . لكن عدم توفر بعض المراجع هنا وصعوبات أُخرى لاتبيح التقصي للاسترسال ، ولا

---

(١) التكملة ، ٢/٩٠٠ (رقم : ٢١١٧) .

(٢) الروض المعطار ، ١١٦ . انظر : التعريف بابن خلدون ، ٩ ، ٢٢ .

(٣) عنه انظر : أعلاه ، ٥١١ .

تدع مجالاً جديداً للتوقف الكثير لتسطير معالم أُخرى لهذا الإطار ، تجعله في حالة أكثر من التناسق وأبرز في الإيضاح وأقوى في التعبير وأقدر على التصور والتصوير ، في عين الإطار . المناسبة هنا قائمة لتناول موضوع « **الموريسكيون** » ، فيما بعد إن شاء الله تعالى .

إذاً ألا يصح أن نستعير أسلوب كتّابنا وعلمائنا — رحمهم الله تعالى وأثابهم — من أهل الفطنة والنظر ، ونقول ماقالوا حين كان يرد ذكر الأندلس : أعادها الله للاسلام[1] ، ويضاف : وأمثالها . ثم ألا يحق القول كذلك : أعادها الله تعالى للإسلام، مع زيادة : وغيرها كافة . يقول الله جل ذكره في القرآن الكريم : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لايكونوا أمثالكم ﴾[2] . هذا الأسلوب في التعبير لدى علمائنا ، أسلوب له معناه ويحمل مغزى معلوماً ، يستحق الإشارة والإشادة .



(١) انظر مثلا : نفح الطيب ، ١/١٦٥ .

(٢) من الآية ٣٨ من سورة محمد .

المصادر والمراجع

أولاً : باللغة العربية

(المخطوطة والمطبوعة والمترجمة : الكتب والبحوث)

﴿ القرآن الكريم ﴾

جامع الأصول في أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، مجد الدين بن الأثير الجَزَري[1] (جزيرة ابن عمر ، أحد الربيعين ٥٤٤ ــ الموصل ، ٦٠٦ هـ) ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، دمشق ، ١٣٨٩ ــ ١٣٩٢ هـ (١٩٦٩ ــ ١٩٧٢ م) ، الأجزاء : الأول والسادس والثامن .

مختصر صحيح مسلم ، الحافظ المُنْذِري (مصر ، ٥٨١ ــ رابع ذي القعدة ٦٥٦ هـ[2]) ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الكويت ، ١٣٨٨ هـ (١٩٦٩ م) ، الجزءان .

« أبو البقاء الرُّنْدِي »[3] (٦٠١ ــ ٦٨٨ هـ[4]) . عبدالله كنون ، **صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد**، المجلد السادس ، مدريد ، ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) .

آثار البلاد وأخبار العباد ، زكريا القَزويني (قزوين ، ٦٠٠ ــ ٦٨٢ هـ) ، بيروت ، ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م) .

الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال ، محمد عبد الله عِنان ،

---

(١) وفيات الأعيان ، ٤/١٤١ .

(٢) العبر ، الذهبي ، ٥/٢٣٢ .

(٣) تشير الأقواس – في قائمة المصادر هذه – إلى أن العنوان لبحث وليس لكتاب .

(٤) الذيل والتكملة ، ٤/١٣٦ (رقم : ٢٦٣) ؛ نهاية الأندلس ، ٤٥٦ .

القاهرة ، ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م) .

الإحاطة في أخبار غرناطة ، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني ابن الخطيب (لوشة ، ٢٥ رجب ٧١٣ — فاس ، أحد الربيعين ٧٧٦ هـ) . المجلد الأول ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣ م) . المجلد الثاني ، نفس المحقق ، القاهرة ، ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) . المجلد الثاني ، طبعة القاهرة القديمة ، ١٩١٩ .

أخبار عمر ، الأخوان : علي وناجي الطنطاويان ، دمشق ، ١٣٧٩ هـ(١٩٥٩م).

أخبار مجموعة ، مجهول المؤلف ، نشر أميلو لافونتي أيالكنترا ، مدريد،١٨٦٧.

اختصار الأخبار عما بثغر سبتة من سني الآثار ، محمد بن القاسم الأنصاري السبتي ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) .

اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى ، أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد الأندلسي[1] (غرناطة ، ٦١٠ — تونس ، ٦٨٥ هـ) . تحقيق إبراهيم الأبياري ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

أزهار الرياض في أخبار عياض ، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (تلمسان ، ٩٨٦ — القاهرة ، جمادى الآخرة ١٠٤١ هـ) ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، القاهرة ، ١٣٣٩ — ١٣٤١ هـ (١٩٣٩ — ١٩٤٢ م) ، الأجزاء الثلاثة المطبوعة، برعاية المعهد الخليفي للأبحاث المغربية (بيت المغرب) .

الاستبصار في عجائب الأمصار ، مجهول المؤلف (القرن السادس الهجري) ، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ .

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، تحقيق ولدي المؤلف : جعفر ومحمد ، الجزءآن الثاني والثالث ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ .

---

(١) الذيل والتكملة ، ٥/١/٤١١ (رقم : ٦٩٧) ؛ المغرب في حلى المغرب، ١/١ — ٩ ، ٢/١٦٠—١٧٩.

الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد البَر (قُرطبة ، ٣٦٨ــ شَاطِبَة ، ٤٦٣ هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ، القاهرة ، ١٣٨٠ هـ (١٩٦١ م) ، الأجزاء : ٢ ــ ٤ (أربعة أجزاء) .

الإسلام والحضارة العربية، محمدكردعلي، الجزءالأول(جزءان)، القاهرة، ١٩٥٠ .

الإسلام في الشرق الأقصى ، الدكتورقيصر أديب مخول (Cesar Adib Majul)، ترجمه عن الانجليزية : الدكتور نبيل صبحي ، بيروت ، ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م) .

الإسلام والغرب والمستقبل ، أرنولد توينبي (Arnold Toynbee) ، ترجمه عن الانجليزية : الدكتور نبيل صبحي ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) .

الإسلام في المغرب والأندلس ، ليفي‌بروفنسال (١٩٥٦ م)، ترجمه عن الفرنسية : الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ، ١٩٥٦ (سلسلة « ألف كتاب » ، رقم ٥٩) .

أسنى المتاجر في بيان أحكام مَن غَلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر ، أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التِلِمْساني الوَنْشَرِيشي (٨٣٤ ــ فاس ، ٩١٤ هـ) ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، مدريد ، المجلد الخامس ، ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) .

إعتاب الكُتَّاب ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القُضاعي ابن الأبَّار (بَلَنْسِيَة ، ٥٩٥ ــ تونس ، ٦٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور صالح الأشتر ، دمشق ، ١٣٨٠ هـ (١٩٦١ م) ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .

أعمال الأعلام ، ابن الخطيب *[1] (ثلاثة أجزاء : الأول مايزال مخطوطاً) .
القسم الثاني من أعمال الأعلام ، نشر ليفي بروفنسال تحت عنوان :

(١) تشير النجمة (*) إلى أنه مر – حين ذكر مرجع سابق لنفس المؤلف في هذه القائمة – اسم هذا المؤلف الكامل ومواضع وسنوات حياته (ولادته ووفاته) ، ما وجد منها .

« تاريخ اسبانيا الإسلامية » ، بيروت ، ١٩٥٦ م . وهو متعلق بالأندلس ؛ونشر أيضاً قطعة منه في مجلة « **الأندلس** » الاسبانية (مدريد — غرناطة) ملحقاً بدراسة في المجلد الخامس عشر . (1950) AL - NDALUS,XV,2,361 - 3) = أعمال الأعلام ١٠٦/٢ — ١٠٧) .

• القسم الثالث ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني ، الدار البيضاء (المغرب) ، ١٩٦٤ . نشر بعنوان : « تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط » .

الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس التَوْزَري (بعد ٥٧٣ هـ) تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، مدريد (معهد الدراسات الاسلامية) ، مدريد ، ١٩٧١ . نشر تحت عنوان : « **تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشبَّاط** : نصان جديدان » .

الإمامة والسياسة ، المنسوب لابن قُتيبة الدِّينَوَري. انظر : تاريخ افتتاح الأندلس .

أندلسيات ، عبد الرحمن علي الحجي ، المجموعة الأولى ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ (١٩٦٩ م) . المجموعة الثانية ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) .

أوربا العصور الوسطى ، الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، الجزء الأول : التاريخ السياسي ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

البداية والنهاية ، ابن كثير (٧٧٤ هـ) ، القاهرة ، الجزء السابع .

برنامج شيوخ الرُّعَيْني ، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرُّعَيْني الإشبيلي (٥٩٢ — ٦٦٦ هـ) ، تحقيق ابراهيم شَبُّوح ، دمشق ، ١٣٨١ هـ (١٩٦٢م) .

بُغْيَة المُلْتَمِس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبّي (مُرسية ، الأحد ٢٥ ربيع الآخر ٥٩٩ هـ) ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

بُغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (مستهل رجب ٨٤٩ — القاهرة ، جمادى الأولى ٩١١ هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) ، الجزء الأول (جزءآن) .

البيان المُغْرِب في أخبار الأندلس والمَغْرِب ، أبو عبد الله محمد المَرّاكُشي ابن عِذاري (بعد ٧١٢ هـ)[1] .

- الجزءآن : الأول والثاني ، تحقيق كولان و ليفي بروفنسال ،باريس ، ١٩٤٨ .
- الجزء الثالث ، تحقيق ليفي بروفنسال ، باريس ، ١٩٢٩ .
- الجزء الرابع (قطعة من تاريخ المرابطين) ، جمع وتعليق الدكتور إحسان عباس، بيروت ، ١٩٦٧ (بعضها سبق نشره) .
- القسم الثالث ، نشر امبرسي هويثي ميراندا و مساهمة محمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتّاني ، تطوان ، ١٩٦٠ . قطعة منه نشرها ميراندا في « صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فيمدريد » ، المجلد الثاني (١٣٧٣ هـ = ١٩٥٤م)، ٤٢-٥٦ (القسم الفرنجي) (= البيان المغرب ، القسم الثالث ، تطوان ، ١٩٢ - ٢٠٤) .

تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ، الدكتور إحسان عباس، بيروت ، ١٩٧١ .

تاريخ الإسلام ، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي (دمشق ، ٦٧٣ - ذو القعدة ٧٤٨ هـ) ، القاهرة ، ١٣٦٨ هـ ، الجزء الثالث.

تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشبّاط ، انظر : **الإكتفاء وصلة السمْط** .

و « الاكتفاء » هذا غير كتاب « الاكتفاء في مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء » للامام الشهيد أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي الأندلسي (أنيشة ، ٦٣٤ هـ) .

تاريخ افتتاح الأندلس ، أبو بكر محمد بن القوطية (قرطبة ، ٣٦٧ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله أنيس الطبّاع ، بيروت ، ١٩٥٧ م (معه قطعة من الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، وقطعة من الرسالة الشريفية) .

---

(١) البيان المغرب (تطوان) ، ٤٥٤ .

تاريخ أوربا (العصور الوسطى) ، فشر (القسم الأول) ، ترجمه عن الانجليزية : الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العُريني ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس ، الدكتور السيد عبد العزيز سالم والدكتور أحمد مختار العبَّادي ، بيروت ، ١٩٦٩ .

تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، الدكتور حسين مؤنس ، مدريد ، ١٣٨٦ هـ (١٩٦٧ م) .

تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ، أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري (طبرستان ، ٢٢٤ — بغداد ، ٣١٠ هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، الجزءآن : الرابع والسادس (عشرة أجزاء) .

تاريخ علماء الأندلس ، الحافظ أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي ابن الفرَضي (قرطبة ، ٣٥١ — قرطبة ، ٤٠٣ هـ) ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، جزءآن (مجلد واحد) .

تاريخ غزوات العرب ، جوزيف رينو ، ترجمه عن الفرنسية وعلق عليه: شكيب أرسلان ، بيروت ، ١٩٦٦ . ملحق به ترجمة لكتاب فردناند كلر من الألمانية وبحث للاستاذ عبد العزيز الثعالبي .

تاريخ الفكر الأندلسي ، آنخل جنثالث بالنثيا ، ترجمه عن الاسبانية : الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

تاريخ مدينة المَرِيَّة الإسلامية ، الدكتور السيد عبد العزيزسالم ، بيروت، ١٩٦٩ .

تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، بيروت، ١٩٦٢ .

تاريخ الموسيقى الأندلسية ، عبد الرحمن علي الحجي ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) .

التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، الدكتور مصطفى خالدي والدكتور عمر فروخ ، بيروت ، ١٩٦٤ .

التبيْان ، عبد الله بن بُلُقّين بن بَاديس بن حَبّوس بن زيرى (ثالث وآخر أمير لمملكة غرناطة الطوائف، ٤٤٧ : ٤٦٩ – ٤٨٣ هـ) ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ . نشر بعنوان : « مذكرات الأمير عبد الله ، آخر ملوك بني زيرى بغرناطة » .

تُحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس (مخطوطة) ، علي بن عبد الرحمن بن هُذَيل (ق ٨ – ٩ هـ) ، نشره مصوراً لويس مرسيه (Louis Mercier) ، باريس ١٩٣٢ .

تُحفة القادم ، انظر : المقتضب من كتاب تحفة القادم .

تذكرة الحفاظ ، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي (دمشق ، ٦٧٣ – ذو القعدة ٧٤٨ هـ) ، الجزء الرابع (أربعة أجزاء) .

تراث الإسلام (مجموعة بحوث لعدد من المستشرقين) ، ترجمه من الانجليزية : الدكتور حسين مؤنس ، الجزء الثاني ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، مقال ترند : « اسبانيا والبرتغال » . انظر كذلك : المراجع الفرنجية .

تَراجم إسلامية (شرقية وأندلسية) ، محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م) .

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، القاضي عياض بن موسى بن عياض (سبتة ، ٤٧٦ – ٥٤٤ هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد بكير محمود ، بيروت ، ١٣٨٤ هـ (١٩٦٥ م) ، الجزء الرابع (المجلد الثاني) ، (أربعة أجزاء) .

التعريف بابن خَلْدون ورحلته غرباً وشرقاً ، عبد الرحمن بن محمد بن خَلْدون (تونس ، ٧٣٢ – القاهرة ، ٨٠٨ هـ) . تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ، ١٣٧٠ هـ (١٩٥١ م) .

تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ، أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري (طبرستان ، ٢٢٤ – بغداد ، ٣١٠ هـ) ، تحقيق الأخوين : أحمد ومحمود محمد شاكر ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

التكملة لكتاب الصلة ، أبوعبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ابن الأبّار (بلنسية ، ٥٩٥ ــ تونس ، ٦٥٨ هـ) . وكلها أجزاء تكمل بعضها ولا تغطي الكتاب.

- طبعة العطار ، جزءآن ، القاهرة ، ١٣٥٥ هـ (١٩٥٦ م) .
- طبعة الجزائر (جزء) ، نشرة محمد بن أبي شنب .
- نشرة كوديرا (F.Codera) مدريد ، ١٨٨٧ م ، الجزء الثاني (جزءآن) .

التلخيص لوجوه التخليص ، رسالة : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (قرطبة ، رمضان ٣٨٤ ــ مُنْت لِيشَم ، لَبْلَه ، شعبان ٤٥٦ هـ) . نشرت مع رسائل أخرى له بعنوان : « الرد على ابن النغْريلة اليهودي ورسائل أخرى » ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، القاهرة ، ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م) .

جَذْوة المُقْتَبِس في ذكر ولاة الأندلس ، الإمام الحافظ أبوعبد الله محمد بن أبي نصر فَتُّوح بن عبد الله الأزدي الحُمَيْدي (ميورقة ــ بغداد ، ٤٨٨ هـ) ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

جغرافية الأندلس وأوروبا (من كتاب « المسالك والممالك ») ، عبد الله بن عبد العزيز ابن محمد بن أيوب بن عمرو أبو عبيد البكري (شَلْطِيش ، ٤٠٥ ــ قرطبة ، ٤٨٧ هـ) ، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ، بيروت ، ١٣٧٨ هـ (١٩٦٨ م) . انظر كذلك : وصف إفريقية والمغرب .

جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم * ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ، ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) .

حاضر العالم الاسلامي ، لوثروب ستودارد ، ترجمه من الانجليزية : عجاج نويهض (يتضمن فصولاً وتعليقات بقلم شكيب أرسلان ، وإليها الإشارة) ، بيروت ، ١٣٩١ هـ (١٩٧١ م) ، الجزء الثاني (أربعة أجزاء) .

حجة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، محمد ناصر الدين الألباني ، بيروت .

الحضارة الإسلامية في الأندلس ، عبد الرحمن علي الحجي ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) .

حضارة العرب ، غوستاف لوبون ، ترجمه من الفرنسية : عادل زعيتر ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) .

الحُلَّة السِّيَرَاء ، ابن الأَبَّار * ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، الجزءآن .

الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، محمد بن محمد بن محمد الأندلسي الوزير السَّرَّاج (تونس ، نحو ١٠٧٠ ــ ١١٤٩ هـ) ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، تونس ، ١٩٧٠ ، الجزء الثاني من القسم الأول .

الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، شكيب أرسلان ، فاس (المغرب)، ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م) ، الأجزاء الثلاثة .

الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، مجهول المؤلف (منسوب لابن الخطيب)، تونس ، ١٣٢٩ هـ .

حياة الصحابة ، محمد يوسف الكاندهلوي (دهلي ، جمادى الأولى ١٣٣٥ ــ لاهور ، ١٣٨٤ هـ) ، بعناية نايف العباس ومحمد علي دولة ، دمشق ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) ، المجلد الرابع (أربعة مجلدات) .

خَرِيدة القصر وجَرِيدة العصر ، أبو عبد الله محمد بن محمد العماد الأصفهاني (أصبهان ، جمادى الآخرة ٥١٩ ــ دمشق ، رمضان ٥٩٧ هـ) ، الجزء الأول والثاني من القسم الرابع ، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .

الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد ابن فرحون ، القاهرة ، ١٣٢٩ هـ .

دُرَّة الحِجَال في أسماء الرجال (ذيل وفيات الأعيان) ، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي ابن القاضي (مكناس ، ٩٦٠ ــ ١٠٢٥ هـ) ، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ، القاهرة ــ تونس ، ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م) ، الأجزاء الثلاثة .

الدعوة إلى الإسلام ، توماس أرنولد ، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور عبد المجيد عابد وإسماعيل النحراوي ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

دول الطوائف ، محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) .

دولة الإسلام في الأندلس ، محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩م) الجزءآن .

« دولة الرستميين أصحاب تاهرت » ، محمد بن تاويت التطواني ، **صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد** ، مدريد ، المجلد الخامس ، ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) .

دولة القوط الغربيين ، الدكتور إبراهيم طرخان ، القاهرة ،١٩٥٨ م .

الذخائر والتحف ، القاضي الرشيد بن الزبير (ق ٥ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد حميد الله ، الكويت ، ١٩٥٩ م .

الذخيرة السَّنيَّة في تاريخ الدولة المَرِينيَّة ، علي بن أبي زرع الفاسي ،الرباط ، ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م) .

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (أربعة أقسام) ، أبو الحسن علي بن بَسَّام الشَّنتريني (شنترين ــ قرطبة ،٥٤٢ هـ) .

- القسم الأول (مجلدان) ، تحقيق عبد الحميد العبادي وعبد الوهاب عزام ، القاهرة ، ١٣٥٨ ــ ١٣٦١ هـ (١٩٣٩ ــ ١٩٤٢ م) .
- القسم الثاني ، مخطوطة المتحف العراقي ، بغداد ، رقم ١٥٨٧ .
- القسم الثالث ، خطية الزاوية الحمزاوية بالمغرب ، الخزانة العامة بالرباط . صورة ضوئية منها عن مصورة معهد المخطوطات العربية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، رقم ١٦٣٦ تاريخ .
- القسم الرابع ، المجلد الأول ، تحقيق عبد الوهاب عزام ، القاهرة ، ١٣٦٤ هـ (١٩٤٥ م) .

الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي (مراكش ، ذو القعدة ٦٣٤ ــ تلمسان ، محرم٧٠٣هـ).

- السفر الأول (القسم الأول والثاني) ،تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ، بيروت.
- بقية السفر الرابع ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٤ م .

• السفر الخامس (القسم الأول والثاني) ، المحقق السابق ، بيروت ، ١٩٦٥ م .

• السفر السادس ، المحقق السابق ، بيروت ، ١٩٧٣ م .

رايات المبرّزين ، أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك ابن سعيد الأندلسي (غرناطة ، ٦١٠ – تونس ، ٦٨٥ هـ) ، تحقيق غرسية غومس ، مدريد ، ١٩٤٢ م.

رحلة ابن بطّوطة (تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي ابن بَطُّوطة (طنجة ، ٧٠٤–فاس، ٧٧٩ هـ) ، بيروت ، ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) .

رحلة الأندلس ، الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .

رحلة الوزير في افتكاك الأسير ، محمد بن عبد الوهاب الغساني ، العرائش (المغرب) ، ١٩٤١ .

رسالة ابن فضلان ، أحمد ابن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد (بغداد ، بعد ٣١٠ هـ) ، تحقيق الدكتور سامي الدهان ، دمشق ، ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م) (مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق) .

رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة ، الشريف الغرناطي ، قطعة منه (من الجزء الثاني) ، نشرها ويثي ميراندا في« صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد» ، المجلد الثاني (القسم الفرنج) ، ٥٧ – ٦١ (مدريد ، ١٩٧٣ هـ = ١٩٥٤ م) .

الروض المعطار ، انظر : صفة جزيرة الأندلس .

روضة التعريف بالحب الشريف ، لسان الدين أبو عبد الله محمد السلماني ابن الخطيب* ، تحقيق محمد الكتاني ، بيروت ، الجزء الثاني ، (جزءآن) .

رَوْضَةُ النسرين في دولة بني مَرِين ، أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر (فاس ، ٨٠٧ هـ) ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) .

رياض النفوس ، أبو بكر عبد الله المالكي ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، الجزء الأول .

« سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري » ، الدكتور

عبد العزيز الاهواني ، مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة) ، القاهرة ، المجلد السادس عشر ، الجزء الأول ، ١٩٥٤ .

« سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس » ، الدكتور أحمد مختار العبادي ، **صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد** ، مدريد ، المجلد الخامس ، ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) .

« السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين » ، الدكتور حسين مؤنس ، **المجلة التاريخية المصرية** ، القاهرة ، المجلد الثالث ، العدد الأول ، ١٩٥٠ .

سير أعلام النبلاء ، الذهبي * ، الجزء الأول ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، القاهرة .

سيرة عمر بن عبد العزيز ، أبو محمد عبد الله ابن عبد الحكم (الاسكندرية ، ١٥٠ — القاهرة ، رمضان ٢١٤ هـ) ، تحقيق أحمد عبيد ، دمشق ، ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) .

السيرة النبوية ، أبو محمد عبد الملك ابن هشام (القاهرة ، ١٣ ربيع الآخر ٢١٨هـ) ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، القاهرة ، ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م) ، المجلد الثاني (مجلدان) .

صفة الأندلس (قطعة من جغرافية الرازي) ، أبو بكر أحمد بن محمد الرازي (قرطبة ، ١٠ ذو الحجة ٢٧٤ — قرطبة ، ١٢ رجب ٣٤٤ هـ) ، نشر ليفي بروفنسال (مع ترجمة فرنسية) ، مجلة « الأندلس » الاسبانية (مدريد — غرناطة) ، المجلد ١٨ ، الجزء الأول (١٩٥٣) ، بعنوان :

(La "Description de l'Espagne" d' Ahmad al-Razi , *AL-ANDALUS* (1953) , vol. XVIII, l.

صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض المعطار في خبر الأقطار ، أبو عبد الله محمد ابن عبد المنعم الصنهاجي الحِمْيَري (سبتة ، نحو ٧١٠ هـ) ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) = صفة المغرب وأرض السودان ومصر

والأندلس (من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (الإدريسي) (سبتة ، ٤٩٣ ، أو قبلها ــ ٥٦٠ هـ) ، **تحقيق دوزي** ودي خويه (R. Dozy & De Goeje) ، أمستردام (هولندا) ، **طبعة مصورة** ، **١٩٦٩** . انظر كذلك : نزهة المشتاق .

الصقالبة في اسبانيا ، الدكتور أحمد مختار العبادي ، مدريد ، **١٩٥٣** .

الصلة (قسمان في مجلد) ، أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود ابن بَشْكُوال الأنصاري (قرطبة ، ٣ ذو الحجة ٤٩٤ ــ ٨ رمضان ٥٧٨ هـ) ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

صِلَة السِّمْط وسِمَة المِرْط في شرح الهدى في الفخر المحمدي ، محمد بن علي ابن محمد بن الشَّبَّاط المصري التَّوْزَري ، (قسنطينة ــ توزر ٦٨١ هـ) ، **قطعة** منه ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي (مع « الاكتفاء » لابن الكردبوس) بعنوان : تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشبّاط (نصان جديدان) ، مدريد ، ١٩٧١ .

صلة الصلة ، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير (جيّان ، ٦٢٨ ــ غرناطة ، ٨ ربيع الأول ٧٠٨ هـ) ، تحقيق ليفي بروفنسال ، الرباط ، **١٩٣٧** .

صورة الأرض (قسمان في مجلد) ، أبو القاسم محمد بن علي ابن حوقل الموصلي البغدادي (ق ٤ هـ) ، بيروت .

طبقات الأمم ، أبو القاسم صاعد الأندلسي (الطليطلي) بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد (المَرِيَّة ، ٤٢٠ ــ طُلَيْطُلَة ، شوال ٤٦٢ هـ) ، القاهرة .

الطبقات الكبرى (طبقات ابن سعد) ، أبو عبد الله محمد ابن سعد (البصرة ، ١٦٨ ــ بغداد ، ٤ جمادى الآخرة ٢٣٠ هـ) ، بيروت ، ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م) ، الجزء الثالث والخامس (٨ أجزاء) .

طبقات علماء افريقية وتونس ، أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني (القيروان ، بعد ٢٥٠ ــ القيروان ، ذو قعدة أو حجة سنة ٣٣٣ هـ) ، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن الياقي ، تونس ، ١٩٦٨ .

طوق الحمامة في الأُلْفة والأُلاَّف ، الإمام الفقيه ابن حزم * ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

العِبَر في خبر مَن غبر ، الذهبي * ، الكويت (خمسة أجزاء) .

- الجزء الأول (١٩٦٠) ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد .
- الجزء الثالث (١٩٦١) ، تحقيق فؤاد سيد .
- الجزء الرابع (١٩٦٣) ، تحقيق المنجِّد .

العبر (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) ، ابن خلدون * ، المجلدات : ٤ ، ٦ — ٧ ، بيروت ، ١٩٥٨ — ١٩٥٩ (سبْعة مجلدات) .

العرب في اسبانيا ، استانلي لين بول ، ترجمه من الانجليزية : علي الجارم ، القاهرة ، ١٩٦٠ . انظر كذلك المراجع الفرنجية : The Moors .

العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، الدكتور عمر فَرُّوخ ، بيروت ، ١٣٧٨ هـ (١٩٥٩ م) .

عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٣٨٣ — ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) ، الجزءآن .

« العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة حتى نهاية القرن الرابع الهجري » ، عبد الرحمن علي الحجي ، بحث تحت النشر ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد .

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية ، أبو العباس أحمد ابن أحمد بن عبد الله الغبريني (بجايه ، ٦٤٤ — بجاية ، ٧١٤ هـ) ، تحقيق عادل نويهض ، بيروت ، ١٩٦٩ .

العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم (قطعة منه) ، الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد ابن العربي القاضي الاشبيلي (اشبيلية ، ٢٢ شعبان ٤٦٨ — فاس ، ربيع الآخر ٥٤٣ هـ) ، تحقيق محب

الدين الخطيب ، جدة ، ١٣٨٧ .

« العوامل السوقية والتعبوية وأثرها على الفتوحات العربية الإسلامية في فرنسا» ، الدكتورعلي الميّاح ، **مجلة الجمعية الجغرافية العراقية** ، بغداد ، المجلد الخامس، ١٩٦٩.

الغارة على العالم الاسلامي ، شاتليه ، ترجمه من الفرنسية : مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب ، جدة ، ١٣٨٧ هـ .

فجر الأندلس ، الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

فرحة الأنفس في أخبار الأندلس (مختصر منه ، بعنوان : تعليق منتقى من فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس) ، محمد بن أيوب ابن غالب الغرناطي (غرناطة ، ق ٦ هـ) ، تحقيق الدكتور لطفي عبد البديع ، **مجلة معهد المخطوطات العربية** (جامعة الدول العربية) ، القاهرة ، المجلد الأول ، الجزء الثاني ، ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م) .

قادة فتح المغرب العربي ، محمود شيت خطاب ، بيروت ، ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦م) ، الجزء الأول ، (جزءآن) .

قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، بيروت ، ١٩٧١ ، الجزء الأول (جزءآن) .

قضاة قرطبة ، أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد القيرواني الخشني (قرطبة ، ٣٦١ هـ) ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

« القضاء ودراسته في الأندلس » ، عبد الرحمن علي الحجي ، **مجلة كلية الإمام الأعظم** ، بغداد ، العدد الأول ، ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م) .

قلائد العقيان في محاسن الأعيان ، الفتح بن خاقان ، تونس ، ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦م) مصورة عن طبعة باريس .

الكامل في التاريخ ، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن الأثير الجزري (جزيرة ابن عمر ، ٤ جمادى الأولى ٥٥٥ ــ الموصل ، شعبان ٦٣٠ هـ) ، بيروت ، ١٩٦٥ ــ ١٩٦٧ م ، الأجزاء : ٤ ، ٦ ــ ٧ ، ١٠ (اثنا عشر جزءاً) .

كتاب أحكام السوق ، أبو زكريا يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكناني

(قرطبة ، ٢١٣ ــ سوسة ، ٢٨٩ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، مدريد ، المجلد الرابع ، ١٣٧٥ هـ (١٩٥٦م).

كتاب الجغرافية (الجعرافية) ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري (بعد ٥٤٥ هـ) ، تحقيق محمد حاج صادق ، مجلة الدراسات الشرقية (Bulletin d' ETUDES Orientales) ، دمشق (المعهد الفرنسي) ، المجلد : ٢١، ١٩٦٨ .

كتاب الوفيات ، أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني (قسنطينة ، ٧٤٠ ــ قسنطينة ، ١٢ ربيع الأول ٨٠٩ هـ) ، تحقيق عادل نويهض ، بيروت ، ١٩٧١ .

الكتيبة الكامنة في مَن لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة ، ابن الخطيب * ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٣ .

كُنَاسة الدكان بعد انتقال السكان ، ابن الخطيب * ، تحقيق الدكتور محمد كمال شبانه ، القاهرة .

لسان الدين ابن الخطيب، محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨م) .

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن النَّدْوِي ، الكويت ، ١٣٩٠ هـ (١٩٧٠ م) .

المتين (مفقود) ، ابن حيان القرطبي ، نُقول منه ؛ وانظر : المقتبس .

مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة ، جمع وتحقيق الدكتور محمد حميد الله ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) .

مدريد العربية ، الدكتور محمود علي مكي ، القاهرة .

المَرْقَبَة العليا فيمن يَستحق القضاء والفُتْيا ، أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد ابن محمد بن الحسن النُّباهي (مَالَقَه ، ٧١٣ ــ غَرْناطة ، قبل ٧٩٣ هـ) ، نشر ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

المسالك والممالك ، أبو عبيد البكري ، انظر : « جغرافية الأندلس و أوروبا » و« وصف افريقية والمغرب » .

المسالك والممالك ، أبو القاسم إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري (أواسط القرن الرابع الهجري) ، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م) .

المسلمون (مجلة) ، المجلد الخامس ، العدد الثالث (دمشق ، ذو القعدة ١٣٧٥هـ = حزيران = يونيو ١٩٥٦ م) .

المسلمون في أوربا في العصور الوسطى ، الدكتور إبراهيم علي طرخان ، القاهرة ، ١٩٦٦ م (سلسلة « الف كتاب » ، رقم : ٥٩٦) .

المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ، أحمد توفيق المدني ، تونس ، ١٣٦٥ هـ .

« المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية » ، الدكتور حسين مؤنس ، **المجلة التاريخية المصرية** ، القاهرة ، المجلد الرابع ، العدد الأول ، ١٩٥١ .

المسلمون في الفيليبين ، الدكتور قيصر أديب مخول * ، ترجمه من الانكليزية : الدكتور نبيل صبحي ، بيروت ، ١٩٧٢ م .

مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب * ، جمع وتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ .

المُطْرِب من أشعار أهل المَغْرِب ، الحافظ مجد الدين أبو الخطاب عمر بن الحسن ابن علي بن محمد بن دِحْيَة الكلبي الأندلسي البَلَنْسي (سبتة ، مستهل ذي القعدة ٥٤٤ ــ القاهرة ، ١٤ ربيع الأول ٦٣٣ هـ) ، تحقيق إبراهيم الأبياري والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور أحمد أحمد بدوي ، القاهرة ، ١٩٥٤ ؛ مخطوطة المتحف البريطاني (لندن) ، رقم : OR. 77 .

مع الرعيل الأول ، محب الدين الخطيب ، الرياض .

معالم الإيمان في معرفة أهل القَيْرَوان ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي الدَّباغ (٦٠٥ ــ ٦٩٦ هـ) ، زاده وعلقه أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن

ناجي التنوخي (رجب ٨٣٩ هـ) ، تحقيق إبراهيم شَبُّوح ، القاهرة ، ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م) ، الجزء الأول .

المُعْجِب في تلخيص أخبار المَغْرب ، محيي الدين عبد الواحد بن علي المراكشي (مراكش ، ٧ ربيع الآخر ٥٨١ – ٦٤٧ هـ) ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ، ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م) .

المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي ، ابن الأَبَّار * ، القاهرة ، ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) .

معجم البلدان ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (بلاد الروم ، ٥٧٥ – حلب ، ٢٠ رمضان ٦٢٦ هـ) ، طبعة وستنفيلد ، الجزء الرابع (ستة أجزاء)

المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الطبعة الثانية ، جزءآن .

المَغانم المُطابة في معالم طابة ، مجد الدين أبي الطاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي (كارزين ، جنوب شيراز ، ٧٢٩ – زَبيد ، اليمن ، ٢٠ شوال ٨١٠ هـ) ، تحقيق حمد الجاسر ، الرياض ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) .

المُغْرِب في حُلى المَغْرِب ، ابن سعيد الأندلسي * وأسرته ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، الجزءآن .

المُقْتَبِس في أخبار بلد الأندلس ، أبو مروان حَيَّان بن خلف بن حسين بن حَيَّان بن محمد بن حَيَّان (قرطبة ، ٣٧٧ – قرطبة ، ٢٧ ربيع الأول ٤٦٩ هـ) .

- الجزء الثاني ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، بيروت ، ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م) .
- قطعة من الجزء الثاني ، نشرها ليفي بروفنسال في مجلة « الأندلس » الاسبانية ، المجلد ١٥ ، العدد الأول ، ١٩٥٠ .
- الجزء (القسم) الثالث ، نشر ملشور م. انطونية (Melchor M. Antuña) . باريس ، ١٩٣٧ .
- الجزء (السفر) الخامس ، مخطوطة المكتبة الملكية بالرباط ، رقم ٨٧ .
- جزء مختص بخمس سنوات من خلافة الحكم المستنصر ، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ، بيروت ، ١٣٨٥ هـ (١٩٦٥ م) .

مقدمة ابن خلدون ، ابن خلدون* ، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ (١٩٦٥ م) ، الجزء الأول والثاني (أربعة أجزاء) .

« المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا الاسلامية » ، خليان ربيرا (Julian Ribera) ، ترجمه من الاسبانية : الدكتور جمال محمد محرز ، **مجلة معهد المخطوطات العربية** ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، المجلد الرابع ، العدد الأول (القسم الأول) ، ١٣٧٧ هـ (١٩٥٩ م) .

المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ، أبو مروان عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي ابن صاحب الصلاة (بعد ٥٩٤ هـ[1]) ، تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي ، بيروت ، ١٣٨٣ هـ (١٩٦٤م) ، السفر الثاني .

مؤنس الأحبة في أخبار جِرْبة ، محمد أبو راس الجِربي (جِربة ، نحو ١١٩١ — بعد ١٢٢٣ هـ) ، تحقيق محمد المرزوقي ، تونس ، ١٩٦٠ .

المونس في أخبار افريقيا وتونس ، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني ابن أبي دينار ، تحقيق محمد شمام ، تونس ، ١٩٦٧ .

نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر ، مجهول المؤلف (معاصر لأحداث غرناطة الأخيرة وسقوطها) ، تحقيق الفريد البستاني ، العرائش (المغرب) ، ١٩٤٠ .

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (القسم الأوربي) ، الادريسي* ، روما ، ١٥٩٢ ؛ مخطوطة المكتبة الوطنية (باريس) ، رقم : ٢٢٢١ . انظر : صفة الأندلس .

نص أندلسي ، مجهول المؤلف ، يتعلق بأوائل القرن الرابع الهجري ، نشره ليفي بروفنسال وغرسيه غومس ، غرناطة — مدريد ، ١٩٥٠ ، مع الترجمة الاسبانية بعنوان : Una Cronica Anonima de Abd Al-Rahman III Al-Nasir

نص أندلسي ، رسالتا راهب وجوابها لسليمان بن خلف بن سعد بن أيوب أبي الوليد الباجي (بطليوس ، ذو القعدة ٤٠٣ — المرية ، ١٩ رجب ٤٧٤ هـ) ، مجلة « **الأندلس** » الاسبانية ، المجلد ١٧ ، العدد ٢ (١٩٥٢) . نشر النص (مع ترجمة ودراسة بالانجليزية) الدكتور دنلوب (D.M.Dunlop) .

---

(١) انظر : المن بالأمانة ، ٢/٢٤ — ٢٥ ، ٤٨٤ .

نص أبي مروان عبد الملك بن حبيب السُّلَمي (قرطبة ، ٤ رمضان ٢٣٨ هـ) ، نشر ودراسة (بالاسبانية) الدكتور محمود علي مكي ، **مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد** ، المجلد الخامس ، ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) .

نصوص عن الأندلس (قطعة من : ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك) ، أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العُذْرِي ابن الدلائي (المرية ، ٤ ذو القعدة ٣٩٣ — المرية ، آخر شعبان ٤٧٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني ، مدريد ، ١٩٦٥ .

نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي ، عبد الرحمن علي الحجي ، دمشق ، ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) .

نظم الجُمان (الجزء السادس) ، أبو علي حسن بن أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامي ابن القطّان (ق ٧ هـ) ، تحقيق الدكتور **محمود علي مكي** ، الرباط .

نفّاضة الجراب في علالة الاغتراب ، ابن الخطيب* ، الجزء الثاني ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبّادي ، القاهرة .

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، المقّري* ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م) ، الأجزاء السبعة (الثامن فهارس كله) .

نقط العروس ، ابن حزم* ، مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة) ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، المجلد ١٣ ، العدد ٢ (١٩٥١) .

نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م) .

الوافي بالوفيات ، صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي ، فيسبادن ، الجزء الخامس ، باعتناء س. ديدربنغ ، ١٣٨٩ هـ (١٩٧٠ م) . الجزء السابع ، باعتناء الدكتور إحسان عباس ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) . الجزء الثامن ، باعتناء الدكتور محمد

يوسف نجم ، ١٣٩١ هـ (١٩٧١ م) . الجزء الثامن (مخطوط) .

« وثائق تاريخية جديدة » ، نشر الدكتور محمود علي مكي ، **صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد** ، مدريد ، المجلدان : ٧ – ٨ (١٩٥٩ – ١٩٦٠) .

وثائق عربية غرناطية ، تحقيق لويس سيكو دي لوثينا ، مدريد ، ١٣٨٠ هـ (١٩٦١ م) .

وصف إفريقيـة والمَغْرب ، أبو عبيد البكري . انظر : « المسالك والممالك » و « جغرافية الأندلس وأوربا » .

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، أبوالعباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (اربل ، ٦٠٨ – ٢٦ رجب ٦٨١ هـ) ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ . الأجزاء : ٢ – ٥ ، ٧ (سبعة أجزاء) والثامن فهارس .

يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة ، الدكتور محمد كمال شبانه ، القاهرة ١٩٦٩ .

ثانيًا : باللغات الإفرنجيّة

Altnordisches Leben, Karl Weihold, Berlin, 1856 .

Andalusian diplomatic relations with Western Europe during the Umayyad Period, Abdurrahman Ali El-Hajji, Beirut, 1390 (1970) .

Arte Hispano Musulman, L. Torres Balbas, Madrid, 1957 .

« La Campaña de Alarcos », A. Huici Miranda,
صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد (القسم الفرنجي) ، المجلد الثاني ، ١٣٧٣ هـ (١٩٥٤ م) .

La Chanson de Roland y el neotradicionalismo, R. Menendez Pidal, Madrid, 1959.

La Civilisation Arabe en Espagne, E. Levi-Provencal, Paris, 1961.

The Decline and Fall of The Roman Empire, Edward Gibbon, New York, Vlo. III.

« La Familia de Muhammad X el Cojo, Rey de Granada », Luis Seco de Lucena, Al-ANDALUS (Madrid - Granada), XI, 2 (1946).

Histoire de l'Espagne Muslmane, E. Levi-Provencal, Vol.I, Paris, 1950.

والترجمة الإسبانية :

Historia de España, España Musulmana, Vol. IV., tr. E. Garcia Gomez.

Historia de la España Musulmaña, A. Gonzalez Palencia, Barcelona, 1932.

Historia de España: VI, España Cristiana, F. J. Perez de Urbel, Madrid, 1959.

History of the dominion of the Arabs in Spain, J.A. Condé (Eng. tr. J. Foster), London, 1854, Vol. I.

The Legacy of Islam.

Manual de historia de España, Pedro Aguado Bleye, vol. I, Madrid, 1963.

Memoria sobre la autenticidad de la Cronica denominada del Moro Rasis, Memorial de la Real Academia de la historia, Pascual de Gayangos, Madrid, 1852.

The Moors in Spain, Stanley Lane-Poole, London, 1897.

Los Mozarabes, Isidro de Las Cagigas, vol. I, Madrid, 1947.

Muhammad V, Al-Gani Bi-Llah, Rey de Granada, A. Mujtar Al-Abbadi,
صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد (القسم الفرنجي) ، المجلدات :
١١ – ١٢ (١٩٦٣ – ١٩٦٤) .

Muslim Colonies in France, Northern Italy and Switzerland, J.T. Reinaud, (Eng. tr. Haroon Khan Sherwani), Lahore, 1964.

Les Premieres incurslons des Vikings en Occident d'apres les sources Arabes, Arne Melvinger, Uppsala, 1955.

Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne pendant le Moyen-Age, R.P.A. Dozy, Leiden, 1860, Vol. I.

Una Cronica Anonima : انظر : نص أندلسي ، مجهول المؤلف .

للمؤلّف

١ — تحقيق ودراسة سفر من كتاب **المُقْتَبِس في أخبار بلد الأندلس** للمؤرخ الكبير ابن حيّان القُرطبي (٣٧٧ — ٤٦٩ هـ) ، بيروت ، ١٩٦٥ . يتحدث هذا الجزء من **المُقْتَبِس** عن خمس سنوات (٣٦٠ — ٣٦٤ هـ = ٩٧٠ — ٩٧٤ م) من أيام الحَكَم الثاني ، المستنصر بالله (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ = ٩٦١ — ٩٧٦ م) .

Critcial edition of « Al-MUQTABIS FI AKHBAR BALAD AL-ANDALUS », by Ibn Hayyan (d. 469 = 1076), Beirut, 1965. This volume, of « AL - MUQTABIS », descusses almost five years (360-4 = 970 - 4) of the Riegn of al - Hakam II (350 - 66 = 961 - 76).

٢ — تحقيق ودراسة للنص الجغرافي المتعلق بالأندلس وأوربا من كتاب **المسالك والممالك** للجغرافي الأندلسي الكبير أبو عُبيد البَكري (عبد الله بن عبدالعزيز ، ٤٠٥ — ٤٨٧ هـ) . ظهر هذا النص تحت عنوان **جغرافية الأندلس وأوروبا** ، بيروت ، ١٣٨٧ هـ (١٩٦٨ م) .

Critical edition of « THE GEOGKAPHY OF AL - ANDALUS AND EUROPE », from the Book « AL-MASALIK WAL-MAMALIK », by Abu Ubayad al - Bakri (d. 487 = 1094) .

٣ — **أندلسيات** ، المجموعة الأولى ، بيروت ، ١٣٨٨ هـ (١٩٦٩ م) ؛ المجموعة الثانية ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) . وتضم بحوثاً ومقالات غالبيتها في التاريخ الأندلسي .

٤ ـ **نظرات في دراسة التاريخ الاسلامي** ، الطبعة الأولى : بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) ؛ الطبعة الثانية ، دمشق ، ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) .

٥ ـ **الحضارة الاسلامية في الأندلس** ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩ م) .

٦ ـ **تاريخ الموسيقى الأندلسية** ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ (١٩٦٩) .

٧ ـ الدكتوراه (بالانجليزية) عن : « العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وأوربا الغربية حتى نهاية الخلافة » :

ANDALUSIAN DIPLOMAIC RELATIONS WITH WESTERN EUROPE DURING THE UMAYYAD PERIOD, BEIRUT, 1390 (1970).

٨ ـ **التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة ٩٢ ـ ٨٩٧ هـ** (٧١١ ـ ١٤٩٢ م) ، دمشق ، ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م) .

٩ ـ بحث بالانجليزية :

« Intemarriage betwen Andalusia and Northern Spain in the Umayyad periob » , *THE ISLAMIC QUARTERLY*, London, Vol. XI, Nos,1—2, 1387 = 1976.

نُشر بالعربية ضمن المجموعة الأولى من أندلسيات .

١٠ـ نقد (Review) بالانجليزية ، لكتاب :

A HISTORY OF ISLAMIC SPAIN, W. Montgomery Watt (Islamic Survy 4), EUP., 1965. In « *THE ISLAMIC QUARTERLY* » , Vol. X, Nos. 3 — 4, 1386 (1966).

نُشر (النقد) باللغة العربية ضمن المجموعة الأولى من أندلسيات .

١١- بحث بالانجليزية يتناول جانباً من شخصية الرحالة الأندلسي (ابراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطُرطُوشي) :

« At - Turtushi The Andalusian travller, and his meeting with Pope John XII », *THE ISLAMIC QUARTERLY*, Vol. XI, Nos. 3 — 4, 1387 (1967).

نُشر باللغة الإيطالية في مجلة :

RIVISTA STORICA ITALIANA, NAPOLI, ANNO LXXIX, FASC. 1, 1967, PP. 164 — 73.

١٢- بحث « القضاء ودراسته في الأندلس » ، نشر في العدد الأول (١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م) من **مجلة كلية الإمام الأعظم** (بغداد) .

١٣- بحث « الكتب والمكتبات في الأندلس » ، نشر في العدد الرابع (١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م) من **مجلة كلية الدراسات الإسلامية** (بغداد) .

١٤- بحث « حول التراث والحضارة »، نشر في العدد الخامس (١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣م) من **مجلة كلية الدراسات الاسلامية** (بغداد) .

١٥- بحث « العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة حتى نهاية القرن الرابع الهجري » ، تحت النشر في **صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد** .

١٦- بحث « ابن زيدون السفير الوسيط » ، كتب لـ « الاحتفال الألفي لولادة ابن زيدون » (٣٩٣ - ٤٦٣ هـ) في الرباط (المغرب) في ١٧ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٥ . وتقوم بنشره وزارة الدولة المكلفة بالشئون الثقاقية(المغرب).

تمّت طباعة هذا الكتاب بعون الله تعالى وتوفيقه
بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦/٥/١٩ م)

THE ANDALUSIAN HISTORY

From The Beginning untill the End of Granada

A. H. 92 - 897 (A. D. 711 - 1492)

BY

ABDURRAHMAN ALI EL-HAJJI

(B. A., Cairo Univ.; Ph. D., Cantab.)

DAR AL-QALAM

POB. 4523, DAMASCUS